
دكتور
محمد محمد أبو موسى
آل حم
الشورى الزخرف الدخان
دراسة في أسرار البيان
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية عابدين

دكتور
محمد محمد أبو موسى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة
كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر

آل حم

الشورى - الزخرف - الدخان

دراسة في أسرار البيان

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب: آل حم
الشورى - الزخرف - الدخان
دراسة في أسرار البيان
اسم المؤلف: الدكتور محمد محمد أبو موسى
الطبعة الأولى: ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
مكتبة وهبة: ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة.
٧٢٠ صفحة: ١٧ × ٢٤سم
رقم الإيداع: ٢٠١١٤/٢٠٠٩
الترقيم الدولي I.S.B.N
977- 225- 258- 9



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

أبو موسى، محمد محمد
آل حم. الشورى - الزخرف - الدخان:
دراسة في أسرار البيان/ محمد محمد أبو موسى
القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠٠٩م.
٧٢٠ ص؛ ٢٤سم.
تدمك ٩٧٧ ٢٢٥ ٢٥٨ ٩
١- القرآن، بلاغة
أ- العنوان
٢٢٥

كلمات يجب أن تُقْرأ قراءةً بريئة

قال تعالى: ﴿وَمن لَمْ يحكُم بما أَنزلَ اللَّهُ فأُولَئكَ هُمُ الظَّالمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال سبحانه: ﴿أَفحُكْمَ الْجاهليَّة يَبْغُونَ ومَنْ أَحْسَنُ من الله حُكْمًا لّقَومٍ يُوقنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وقال ﷺ: «إذا رأيتَ أُمتي تَهابُ أن تقول للظالم يا ظالمُ فقد تُوُدِّعَ منها» يعنى أنها لم يعد لها بقاء وإنما تصير كالشيء الذى ودّعه الناس والمعنى أن شرط بقاء الأمة أن يكون أبناؤها قادرين على أن يواجهوا بكلمة الحق. فإن قَمَعَهُم ظالمٌ وعجزوا عن أن يقولوها هلكوا وهلك معهم الظالم ومن حوله.

وقال ابن القيِّم. إن الله سبحانه أرسل رُسُلَهُ وأنزل كُتُبَهُ ليقومَ الناسُ بالقسطِ وهو العَدْلُ الذى كانت به الأرض والسماء، فإن ظهرت أماراتُ العدلِ وأسْفَرَ وجْهُهُ بأى طريق كان فثَمَّ شرع الله ودينه. انتهى كلام ابن القيم. وهذه الكلمات هى خلاصة الحكم بما أنزل الله وليس كما يُصوِّره أو يَتَصَوَّرَهُ المعارضون له، والمتَفَزِّعون منه: هو العدل.. العدل.. وهو مطلب كل مواطن مسلمًا كان أو غير مسلم.

وقال الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر رحمه الله: إنَّ مَنْ يَدْعُو إلى فَصلِ الدين عن السياسة إنما تَصورَّ دينًا آخر غير الإسلام، وقال رحمه الله: فَصْلُ الدين عن السياسة هو هَدْمٌ لمُعظم حقائق الدين ولا يَقدَمُ عليه المسلمون إلا بعد أن يكونوا غير مسلمين.

وقال الدكتور أحمد كمال أبو المجد: فَصْلُ الدين عن الدولة بمعنى إقصاء الدين عن أن يكون له دور فى تنظيم أمور المجتمع لا يسع مسلمًا قبولهُ.

وقال ﷺ: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**».

انتهت الـكلمات التى يجب أن يقـرأها كل مسلم حـتى يلقى الله بالدين الذى أنزله على نـبيـه صـلوات الله وسـلامـه عليـه بعـيـداً عن المزايدات الإعلامية.

المؤلف



مقدمة

مواقف غير مفهومة

أحمد الله سبحانه وتعالى وأستعينه وأصلى وأسلم على خير خلقه وآله وصحبه ثم أقول:

هناك ثوابت فى تاريخ العلوم وتاريخ الرجال فى العلوم كلها وفى الأمم كلها وفى التاريخ كله ومن هذه الثوابت أن الاجتهاد فى علم من العلوم لا يتأتى إلا إذا بلغ المجتهد مرتبة عالية فى استيعاب مسائل العلم، جزئياته، وكلياته، وأحاط بمناهج علمائه، ومسالكهم، وربّى فى هذا الباب ونشأ فيه، وكان اجتهاده - إن رزق القدرة على الاجتهاد - فى هذا العلم الذى عاشه ولازمه ثم يكون اجتهاده فى تحقيق بعض مسائله، أو إزالة غموض هنا، أو ترجيح مرجوح، أو تجلية أصل من الأصول جاء غامضا فى كلام من سبقوه، وقاربوا أن يظهروه ولكنهم لم يضربوا الضربة التى تُفَجِّر نبعه، وهكذا. لا ترى إلا خطوات محدودة يخطوها العالم وهى مؤسسة على كلام من سبقوه وإضافة إلى كلام من سبقوه، وليست هَدْمًا له. هى لبنة متواضعة يضعها الصادقون المخلصون المُنْقَطِعُون فِى العلم الذى عاشوا فيه، وعاش فيهم، واتسعوا به، واتسع بهم، ترى الشافعى اجتهد فى الفقه فقط وأضاف، ولم يهدم، وسيبويه اجتهد فى النحو فقط وأضاف ولم يهدم، ولم يجتهد الشافعى فى الفقه واللغة مع أنه كان من علمائها، ولم يجتهد عبد القاهر فى البلاغة والفقه مع أنه كان من علماء الفقه، وهكذا الحال فى التاريخ كله، وفى طبقات العلماء، وطبقات المجتهدين.

وهذا معلوم ولا خلاف فيه، ولا مُشَاحَنَة، وإنما قدمته لأضع بإزائه ما حدث فى السنوات الأخيرة من أمور ومواقف غير مفهومة، وغير متلائمة مع حركة التاريخ، وحركة الفكر، وحركة العلوم، والذى حدث هو أنك ترى العالم المتخصص فى فرع من فروع العلوم الطبيعية كالفيزياء أو الرياضيات أو الهندسة أو ما شئت مجتهدا فى العلوم العربية والإسلامية كلها، وليس فى علم منها، وترى اجتهاده يقوم على استفساد كل ما قاله علماء هذه العلوم من فقهاء ومفسرين ومحدثين وعلماء علوم القرآن وعلوم الحديث إلى آخر هذه العائلة التى هى أكثر علومنا وأوسعها، والتى كان لا يتوفر عليها إلا أكرم علمائنا فلم يكن عندنا فى زمن الشافعى إلا القليل من طبقته ولم ينازع مالك إلا ما لا يزيد على أصابع اليد، وهكذا قُلْ مع الخليل وسيبويه، وغيرهم. والآن ترى مجتهدًا دخل هذه العلوم وليس من أهلها، يُدَمِّر علم هؤلاء وعلم نظائرهم فى كل العصور على امتداد خمسة عشر قرنًا ويقول فى كل علم ما يناقض ما اجتمع عليه هؤلاء واجتمعت عليه الأمة، وهو عالم من علماء الطبيعة كما قلت درس فرعا من فروعها وتخصص فيه، وحصل على أعلى إجازاته العلمية؛ ويُدَرِّسه فى الجامعة، ويؤلف فيه ليترقى فى وظيفته الجامعية، ويُشْرف على رسائل الماجستير والدكتوراه فى هذا الفرع، ويعجزك أن تعرف كيف وجد وقتًا ليدخل علم الفقه المتسع، وعلم التفسير المتسع، وعلم الحديث المتسع، لا ليدرس منه أبوابا، ولكن ليكون مجتهدًا فى كل هذه العلوم، ولا يضيف فى كل علم لبنة كما يفعل العلماء فى الأزمنة كلها، والأمم كلها، وإنما تراه أولاً يعصف بكل ما قاله العلماء، ويُخَلِّى الساحة من فكرهم بعاصفة مدمرة ثم يزرع هو فكرًا جديدًا فى الفقه كله، وفى التفسير كله، وفى علوم القرآن كلها، وفى السنة كلها.

ومن أجل أن تَقْبَل هذا السلوك الذى لا عهد للحياة العقلية، به فى التاريخ كله، يقدم لك حديثًا عن المناهج الحديثة المُعَقَّدة التى استطاعت أن تكشف

من غوامض المعرفة ما ظل غامضًا فى التاريخ كله، لأنه لا يُكْشَفُ ولا يُعْرف إلا بها، وأن من امتلكهـا فقد امْتلك (الفانوس السـحرى) الذى لا يغيب عنه شىء، وأن أوائلنا معذورون لأنهم لم يدرسوا هذه المناهج، فكان كلامهم فى الفقه وَهْمًا وفى التفسير وَهْمًا؛ وفى السُّنَّة وَهْمًا إلى آخره.

وأنا أقرأ هذا وأسـأل نفسى: لماذا لم يتوفـر على علمه الذى تخصص فـيه ويضيف إليـه شيئًا؟ ويكتب فـيه كتابًا جـديدًا؟ أو ملزمة جديدة؟ أو صـفحة جديدة؟ لأننى أعرف من علمائنا أن إضـافة سطور جديدة فى علم من العلوم قد تفـتح لمن بعدنا بابًا. وقد كان أبو الفـتح يؤسس بابًا من أبواب العلم على جملة سـمعها من أبى على. وهكذا لمـاذا لم يتوفر هذا الأسـاذ على علمه؟ وهو يعلم أننا فى أشـد الحاجـة إلى عـقليات تُبـدع فى علوم الطبـيعـة بكل فروعها، لأننا نعـيش فيها عيَالاً على عقـول الآخرين. ولماذا وثب منها على دائرة العلوم الإسـلامية خـصوصًـا؟ ولماذا دخل باب ما أحل الله ومـا حرم؟ ولماذا دخل باب التأويل والتفسـير؟ وقال فيه ما يخالف إجـماع الأمة؟ وأسئلة كثيرة لم أجد الإجابة على شىء منها.

ومن المقبـول أن ترفض رأى عالم فى مـسألة، ولكن ليس من المقـبول أن ترفض علمــه كله لهـذه المسألة، ومن المقـبول أيضًـا أن تخـالف عالـمًـا فى منهجه، وأصـول هذا المنهج، وليس من المقبول أن تخـالف علماء هذا العلم كله فى الأزمنة كلـها، والأمكـنة كلهـا، ثم تخـالف كل علمـاء هذه العلوم المتسـعة؛ وكل مـا قالوه، وعـاشت الأمة عليـه، من زمن الصحـابة إلى يوم الناس هذا وأنت رجل لَسْتَ من رجال هذا العلم، ولم تبدأ طريقه من أوله.

ومن الغريب أن هذه الكتب التى تهدم المسلمـات والأصول والفروع وتبْنِى على أنقَـاضها مُـسَلَّمات جـديدة، وأصولاً جديـدًا، وفروعًا جـديدة، فيـها مجهود؛ وفيها اطلاع متسع ومصادر كثيرة وقدرة على الإقناع بضوابط منهجها الذى بُنِيَتْ عليه، وقدرة بارعة فى غرس الباطل فى باطن الحق ثم فيها مسعى حثيث نحو غايتها.

القرآن، وهل رأيت مثل هذا فى التاريخ كله؟ وفى أى أمة من الأمم؟ وهل رأيت فى أمة واق الواق جالينوس يلبس عمامة المفتى؟

عجيب أن ينبت هذا الاتجاه فجأة؛ وأن تولد هذه الكتب كلها في عقد واحد من الزمن، وأن تلد كل عاصمة عربية رأسًا من هذه الرؤوس في زمن واحد، وأن تنادى على ربوعنا هذه الأصوات المُشتبهة جداً في وقت واحد، وهو وقت ملائم جداً لأن الأنظمة العربية صنعت ببطشها وقمعها نَبْتًا آخر اسمه الجماعات الإسلامية التى كانت رد فعل لممارسات هذه الأنظمة. وكانت سجونها وما رآه هؤلاء في السجون بمثابة مدرسة متفوقة لإعداد قادة التطرف، فاستشرف الناس نحو فكر إسلامى مدروس يدرأ عنهم هذه المخاطر فكان هؤلاء هم الإجابة.

قلت: إن هذا التوجه بينه قواسم مشتركة ذكرت منها التقديم بذكر المناهج المعاصرة، وأنها تفتح مغاليق العلم، وأن أى عقل لم يدرسها بينه وبين الحقيقة جدار وهو معزول عن الحقيقة لهذا الجدار، وهذا الجدار لا تزحزحه إلا هذه المناهج. ويعرض هذا على أنه حقائق مسلمة لا يجوز لأحد أن يجادل فيها. وأهم هذه القواسم المشتركة أيضًا أن الإسلام فيه جانبان: جانب المطلق وهو الوحى فى الكتاب العزيز، وفيه الحقائق المطلقة، والكمالات المطلقة، والجانب الثانى: هو الجانب النسبى أى الفهم البشرى النسبى لهذه الحقائق المطلقة، وأن هذا الفهم النسبى هو الذى كُلِّفْنا به، وهو مختلف من جيل إلى جيل. لأن هذا الفهم النسبى مضبوط بضوابط الأرضية الثقافية والعِلْمية وهى مختلفة من جيل إلى جيل، فجيل الصحابة فهم المطلق فهمًا نسبياً فى ضوء المعارف والأحوال والثقافات التى كانت سائدة فى الجزيرة فى زمانهم، وحال الرسول كحالهم لأنه عليه الصلاة والسلام لا يستطيع أن يتخلص من هذه المرجعية العلمية والثقافية والزمانية والمكانية التى كان يعشيها، وتفسيره عليه السلام واستخراجه من الكتاب ليس ملزمًا لنا لأننا نفهم المطلق الذى هو القرآن فى ضوء ثقافة أخرى ومعارف أخرى، وخلفية حضارية أخرى؛ ولا يستطيع أحد

أن يزعم أن رسول الله ﷺ كان قادرًا على تأويل القرآن تأويلاً كاملاً، لأنه لو فعل ذلك لكان قد تجاوز النِّسبى الذى هو ضربة لازِب على البشر، وارتقى إلى درجة الإله لأن التأويل الكامل المطلق لا يكون إلا من الله، ومن اعتقد ذلك فقد جعل محمدًا صلوات الله وسلامه عليه شريكًا لله، والنبى وأصحابه لم يعتبروا الأحاديث وَحْيًا وإنما هى نتيجة تعامل مع واقع معين فى ظروف معينة عاشها النبى ﷺ وجابه بها عالم الحقيقة الزمانى والمكانى. وأن ما اصطلح على تسميته بالسنة هو حياة النبى ﷺ كنبى. وكائن إنسانى عاش حياته فى الواقع، ثم إننا لم نُؤمر باتباعه ﷺ فى حياته وبعد موته، وإنما أمرنا باتباعه وهو حى فى آيات، وأمرنا باتباعه حياً وميتًا فى آيات أخرى، وعلامة ذلك أننا إذا قرأنا ﴿وأَطِيعُوا اللَّهَ والرَّسُول﴾ [آل عمران: ١٣٢] علمنا أن هذا أمْر بالطاعة فى حياته وبعد موته، لأن الرسول عطف على لفظ الجلالة، وإذا قرأنا ﴿وأَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُول﴾ [التغابن: ١٢] علمنا أننا أمرنا بطاعته فى حياته فقط، لأن لفظ أطيعوا تكرر فكانت إشارة إلى أنها طاعة منقطعة.

والدين الذى ألزمنا الله به هو فهمنا نحن للقرآن، لأن القرآن عبر عن «الحقيقة المطلقة» وأفهام الناس لها مختلفة لاختلاف الزمان والمكان والأطوار الحضارية والعلمية؛ وهذا هو التكليف، وهذا هو الدين، وتأويلنا للقرآن هذا التأويل البشرى النِّسبى نُخالف فيه حتما كل من أوَّلُوا القرآن فى بيئات حضارية وثقافية مختلفة، لأن هذا المستوى الثقافى والعلمى يخْضِعُنا له، على وجه لا نستطع التخلص منه، ومن هنا تَعَدَّدَت القراءات واختلفت، ولا يَضُرُّ أن يكون إسلام المشرق غير إسلام المغرب؛ وإسلام اليوم غير إسلام الأمس؛ وإسلام الغد غير إسلام اليوم، لأن هذا كما يزعمون هو الإعجاز الحقيقى للقرآن. وهذا هو معنى الصلاحية لكل زمان ومكان، وحين تقرأ كتابًا من هذه الكتب كأنك قرأتها كلها وقلت إنهم أبناء علات أبوهم واحد وأمهاتهم شتى وليس هذا من المجاز فى شىء.

والآن أعرض بعض نـتائج هذه الدراسات التـى نَجَمَت فجـأة على أرضنا وغَطَّتْها من محيطها الهادر إلى خليجها الثائر

وقد قرأتُ في كتـاب منها أن مؤلفه وهو أستاذ فى الجـامعة يدرس ويؤلف ويُشرف على رسائل علمـية فى فرع من فروع العلوم الطبيـعية التى نحن فى حـاجة إليـهـا، قال: إنه من أجـل تأليف هذا الكتـاب طوّر منهج أبى على الفارسى، وطوّر فـكر القُطْبَيْن الكبـيرين: ابن جنى، وعبـد القاهر، لأنهـما امتداد لأبى على الفارسى، وهذه عجيبة ويبدو أن العجائب صارت تمرّ بالناس وليس فيها عجايب لكثرة إلف النـاس لها كما قال أبو الطيب، ووجه العَجَب فى هذا أن هناك علمـاء من أكـابرنا انْقطعـوا إلى علم أبـى على، ومنهم من انقطع إلى علم أبى الفتح، ومنهم من انقطع إلى علم عـبد القاهر، وهم من أذكيائنا وحسبك منهم محـمد على النجار الذى انقطع إلى أبى الفتح، وتعرفه المجامع اللغوية فى كل أقطارنا، وحسبك منهم عبد الخالق عظيمة الذى كانت مسـائل أبى على ومن قبله المبـرد وسيبـويه كأنها كلـها جُمِـعَت فى يده وقد أخذت عن هؤلاء وسمعت منهم ومن غيرهم ممن هم فى طبقتهم، ولم أسمع من واحد منهم أنه طوّر فكر أبى على، ولا فكر المبرِّد ولا فكر سيبويه.

المهم أن القدرة على التّنفج والغطرسة والادِّعاء، والاسـتعلاء لا حدود لها عند أبناء العلات هؤلاء.

وأول ما أفتح به هو ثمرة من ثمار تطوير منهج أبى على الفارسى. وهذه الثمـرة أنتجت نتيـجة صادِمَـة لكل المسلمين عامـتهم وخاصـتهم، فى كل الأزمنة بل وصادمة للتاريخ، وللقرآن نفسه، لأنها تقول: إن الكتاب المذكور فى المصحف غير القرآن، وأن الله أوحى قرآنًا معجزًا، وهو المتشابه، وأنزل كتابًا غير معجز وهو المحكم، وهو غير القرآن، والمحكم فى القرآن كل آيات التكاليف والأحكام، كسـورة التوبة كلها من المحكم، وليـست من القرآن، وسورة عَـبَس وتولى ليـست من القرآن، ولاحظ أن كل المحكـم غيـر قرآن

وغير معجز، مع أن التحدى كان بأقصر سورة أو ما يساويها من غيرها وأن الله أخبر بأنهم «لن يفعلوا». قلت الأصل فى ذلك هو أن القرآن عطف على الكتاب فى مثل قوله تعالى فى أول الحجر: ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ والعطف يقتضى المغايرة فلا بد أن يكون القرآن غير الكتاب ويتفرع من هذا أشياء كثيرة أهمها أن ما يقرب من نصف المصحف هو كتاب وليس قرآنًا، وكذلك الفرقان غير القرآن لأنه عطف عليه والسبع المثانى غير القرآن، لأنه عطف عليها وهكذا مضى بهذه العصا العوجاء يركض فى حقل القرآن ويُنتج هذه النتائج مع أن أبا على وأبا الفتح ومن هو دونهم يقولون: إن العطف يكون لتغاير الصفة يعنى يعطف الشىء على نفسه لتغاير الوصفين، هذا يوضح أنه مقروء، وهذا يوضح أنه مكتوب، وهذا وارد فى الشعر والاستشهاد به لا معنى له؛ لأن طلاب الأقسام الثانوية يعرفون ذلك فكيف يجهله من طوَّر علوم ثلاثة من كبار الأئمة وهو فى طريقه إلى تغيير الفقه كله والتفسير كله والحديث كله، والعجيب أن يكون هذا كلام أستاذ تخصص فى علوم دقيقة؛ ويشرف على رسائل علمية المطلوب الأول منها هو تعليم ضبط المنهج والحذر والبعد عن الادعاء لأن الجرأة فى العلم وتجنب الحذر من أخطر المخاطر على عقل الدارس ولكن هكذا شاء الله أن تكون جامعاتنا وأن يكون علماؤنا وأدع هذا وأعرض نموذجًا من الفهم الذى جرى فى الكتاب كله.

يقرأ أحدهم قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ [يونس: ٣٧] ويفهم منها أن هنا ثلاثة مواضيع: الأول القرآن، والثانى بين يديه، والثالث تفصيل الكتاب، ويؤسس على هذا التقسيم ما يشاء والمهم أن القرآن غير الذى بين يديه وأن تفصيل الكتاب غير القرآن، وإلحاح شديد على أن الذى بين الدفتين ليس كله قرآنًا. وليس كله معجزًا. مع أن الآية ظاهرة الدلالة، وتقول إن هذا القرآن ما كان

له أن يفترى يعنى لا يمكن أن يُفْتَرى لأنه كلام الله المعجز، والمعجز لا يختلق ولا يصح لأحد أن يأتى به، وهذه قيمة ﴿وَمَا كَانَ﴾ ولهذا المعنى الجليل لم تقل الآية إن هذا القرآن لم يُفْتر، وهذا من مواقع كان الحسنة، ثم أخبرت الآية أنه أى القرآن تصـديق الذى بين يديه، يعنى الكتب السابقـة لأن أصول الديانات واحدة وهى فى الـقرآن كمـا هى فى كتب الله الأخـرى كما قـال سبـحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ ما وصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيموا الدِّين ولا تَتَفَرَّقُوا﴾ [الشورى: ١٣]، وليس هناك أى وجه لأن تقول هنا ثلاثة مواضيع لأن هذا يقوله غير أهل اللسان كما أن الذين يقولون إن سورة التَّـوبة وسورة عبس وتولى وكل المحكم ليس قـرآنًا هم غير أهل الدين.

أما تفصـيل الذى بين يديه فهو شريعـة الإسلام وهذه المعانى التى يفهـمها أهل اللسان مدلول عليها دلالة صـريحة فى آيات أخرى نجد ما هو صريح فى أن الكتاب هو القـرآن كما قال تعـالى فى أول الزخرف: ﴿حم ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ لا شك أن الضمير فى ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ عائد على الكتاب، وأن القـرآن العربى هو الكتـاب، وهكذا لم تجتـمع الأمة على هذه الأشياء التى يتوخاها هؤلاء بالنقض إلا لأنها صريح كلام الحق.

ولم تجتـمع الأمة على الأخـذ بسنة رسول الله ﷺ إلا لأن الله قـال لها: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

أما أن يقال إن سنته هى حـياته الخاصة وغير ملزمة لنا وأن فـهمه للكتاب هو اجتهـاده المحدود بحدود زمانه، ومكانه، وثقافـته، فكل ذلك يبطله قوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] والترويع بالمناهج الحديثة وبالفلسفة التى هى أم العلوم كل هذا كـلام لا أصل له؛ لأن المنهج الصحيح يُفْضى إلى نتائج صـحيحة وهذه العجمـة فـى فهم الآيات وهـذه الجرأة على

ما اجتمعت عليه الأمة كل هذا ليس من بحرنا وليس من بحرنا أيضًا هذا الموقف المتشدّد فى رفض العودة إلى ما كان عليه السلف، لأن هذه العودة عريقة فى تاريخ الأمة، فكل الذين جدّدوا، وكانت لهم آثار فى أجيالهم، والأجيال من بعدهم كانت دعوتهم قائمة على أساس الرجوع إلى ما كان عليه سلف الأمة، وهذا الاتجاه ينكر ذلك، بل إن إنكار هذا تعداهم إلى مَنْ لا يجاهرون بنقض ما اجتمعت عليه الأمة، لأننا عندنا طائفة أخرى ذات هوى للثقافة والعلوم والحضارة الغربية ولكن لها منزع آخر جمعت الشباب حولها بتكرار عروبتنا وقوميتنا وديننا إلى آخره ثم نجد غرسًا من هذا الاتجاه تحت هذا الكلام الحلو. ونجد تقبيحًا وسخرية واستعلاء فى مناقشة الدعوة إلى ما كان عليه السلف ونجد كلامًا سو أشبه بكلام مؤلفى المسلسلات التليفزيونية منه بكلام العلماء، من أمثلة ذلك هذا التصوير الخيالى الساخر الذى يقول: إن السلفيين أو السلفية رفضت العصر الذى تعيشه وخلعت نفسها منه وأصرت على أن تعيش فى القرن الأول، والقرن الأول ذهب ولا سبيل إلى أن تدخل فيه. فبقيت السلفية أو بقى السلفيون معلقين فى الهواء، وفى منطقة فراغ وكأنهم صاروا خارج الزمان، وخارج المكان، وكل هذا وهم، وأقول أولاً أنا أكره توزيع الأمة على جماعات، وأن هذه جماعة سلفية وهذه جماعة تبليغ وهذه جماعة كذا إلى آخره، لأنه ليس لنا كلمة جامعة لنا أفضل من أننا مسلمون، والذى يقرأ القرآن يجد أن الحق جل جلاله أوحى إلى الأنبياء من لدن نوح عليه السلام إلى سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا، وجعل وَحْدَة الأمة مع إقامة الدين فى قِرَانٍ واحد وهذا تحذير شديد من الفرقة، وتحذير شديد من أن نكون شيعًا وأحزابًا، ويهولنى جداً أن يكون الدكتور فلان رئيس جماعة الجهاد، والدكتور علان رئيس جماعة كذا وأسأل عن هؤلاء فلم أجد واحدًا

منهم درس علوم الإسلام دراسة مَنَظَّمة ينتهى فيها من دائرة ليدخل دائرة أخرى، وفى حياتى لم أنضم إلى أى فئة لأنه لا يعلو قلبى شىء فوق أننى مسلم، هذا شىء ثم إننى أدعو إلى ما كان عليه السلف، ليس على هذا الوجه الهازل الذى يصوِّره هؤلاء، ومن المؤسف أن نكتب لأبنائنا ما نزور به تاريخنا بأيدينا، وإنما أدعو إلى ما كان عليه السلف من وجهين الوجه الأول: هو تنقية الدين مما عساه يكون قد داخله من بدع وضلالات وخرافات وهذا مُتَوقَّع لسعة رقعة الإسلام واختلاف المسلمين فى المستويات العلمية. وهذا ما لا يجوز للأمة أن تفرط فيه، إلا إذا أخذت دينها عن هؤلاء الذين يرون أن كل واحد يفسر القرآن فى ضوء معارفه وثقافته، ثم يدين الله على ما رأى وعليه يمكن أن ترى فى البيت الواحد صورًا مختلفة للإسلام، والوجه الثانى: الذى أدعو إلى الرجوع إلى السلف فيه هو أن نكون صادقين كما كانوا صادقين وأن نخلص كما أخلصوا وأن نجِدَ كما جَدُّوا، وأن نحمى حوزتنا كما كانوا يحمون حوزتهم، وأن تكون لنا الهيمنة على أرضنا كما كانت لهم الهيمنة على أرضهم، وأن يكون حكامنا عدولاً، كما كان حكامهم عدولا، وأن تَرْهَبَنَا الأمم كما كانت ترهبهم الأمم، وألا يتولى أمرنا إلا أقدرُنا على سياسة أمورنا، كما كانوا وألا يولى حاكمنا أحدًا فى موقع من مواقعنا وفى أرضنا من هو أكفأ منه مع صرف النظر عن الموالى والمعارض. الكفاءة أولاً والكفاءة ثانيًا، وهكذا وألا يتربح حكامنا ومن حولهم بالسلطة، كما كان السلف لا يتربح بالسلطة، وهذه هى المعانى التى ندعو إليها ونؤمن بأنه كان عندهم مخالفات ولكننا نؤمن أيضًا بأنهم كانوا فى زمانهم أفضل منا فى زماننا ولا أفهم أن السلفية تقصير ثياب وعدلة فى العمامة، ولحية تشغل يد صاحبها طول يومه بملامستها، وأعوذ بالله أن أستصغر ثوابًا يرضيه فقد أمرنا أن نتقى النار ولو بشق تمرة، وأن أستصغر

شيئًا يغضبه فقد تكون فيه الهلكة ولكن أطالب بترتيب الأولويات لا غير، وأرفض حصر السلفية فى هذه الأمور السهلة لأن ذلك إفساد لما كان عليه السلف، نريد حاكمًا يقول: لو عثرت بغلة في العراق لكنت مسئولاً عنها في المدينة؛ يعنى نريد حاكمًا يرعى أحوالنا كما كان حاكمهم يرعى أحوال بَغْلَتِهم ونكتفى بهذا ونحمد الله عليه.

أما تصوير السلفية بهذه الصورة الهزلية فذلك مما نحرص على أن لا يكون عند أبنائنا لأن من لم يَعْتَزّ بأمسه فلا قيمة له ولا ليومه ولا لغده، والقلم النبيل هو الذى يسعى لغاياته بنُبْل وصدق وشرف، فلا يقبح ما ليس قبيحًا من أجل أن يصرف عنه، ولا يُحَسِّنُ ما ليس حسنًا من أجل أن يصرف إليه، قلت هذا لأنى لاحظت إصرار هذه الكتب على أن يكون المرجع فى تأويل القرآن، والمرجع في تجديد الخطاب، والمرجع فى تحديث العقل العربى وتجديده، كل ذلك له مرجع واحد هو الحضارة الأوربية المسيطرة، والتى نُسمّيها حضارة العصر، والحضارة العالمية، وأن من اتصل بها ودخل فيها وسلك عقله ونفسه في مسالكها فصارت علومها علومه ومناهجها مناهجه وقيمُها كيانه فقد عاش زمانه، ومن لم يفعل ذلك فقد انخلع عن زمانه وصار معلقًا فى فراغ، وخارج دائرة الزمن، ونعجب لماذا الحضارة الأوربية المسيحية، ولم تكن الحضارات الأخرى والتى هى أقرب إلينا مثل حضارة الصين، أو اليابان أو ماليزيا، أو تركيا، التركيز كله على حضارة الذين حاربونا وسرقوا بلادنا واستعمرونا واستباحوا دماءنا، وأدع هذا لأن المقدمة طالت ولابد أن أعرض نموذجًا من الذى استفتحوا به مدوّنتهم الفقهية والمطلوب أن تكون بين أيدينا بدل مدوّنة مالك، وليكن هذا فى لباس المرأة لأنه من الموضوعات المثارة.

والأصل المعتمد عليه في استنباط اللباس الواجب على المرأة أن لا تظهر للرجال الغرباء إلا وهي ترتديه هو قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور. ٣١] وقوله عليه السلام: «**كل المرأة عورة إلا الوجه والكفين**» وعلينا أن نذكر الفهم البشرى النسبى من الحقيقة المطلقة وأن نستحضر ثقافة العصر، والمناهج المعاصرة المعقدة، ونظرية إسحاق نيوتن فى الحدود والألسنيات الحديثة إلى آخر الكلام الفخم الذى يزيدك إحساسًا بتضخُّم المؤلف، فإذا استحضرنا ذلك وجدنا أن كلمة جيوب جمع جيب والجيب فتحة لها طبقتان وهو يعنى أيضًا الخرق؛ والخمار ليس خمار الرأس وإنما هو كل ساتر، وجيوب المرأة أو ما يطلق عليه جيب فى المرأة هو ما تحت الإبطين، وما تحت الثديين، وما بينهما، والأليتين، والفرج، وآية النور تلزم المرأة إلزامًا قاطعًا بأن تُغَطى ما تحت إبطيها، وما تحت وبين ثدييها، وأَلْيَتَيْها وفرجها وما بقى فلا شىء عليها فى عدم غطائه، فإذا خرجت للناس ومشت فى الشوارع والأسواق فلا حرج عليها مادامت غطت ما تحت الثديين، وتحت الإبطين، والأليتين، والفرج، وضربت عليه الخمار، وهى مؤمنة صالحة محافظة قانتة ولم تخالف أمر الله. ولو قلت: إن كل ظهرها عار، قلت لك نعم ولا حرج، وأن كل ما تحت الأليتين عار، قلت نعم ولا حرج وأن كل بطنها عارية، وكل ما تحت الفرج عار قلت لك نعم ولا حرج. وهذا هو ما يفهمه أصحاب المنهج من الآية الكريمة وهذا هو فقه آية النور فى الحجاب ولا تتفلسف وتسأل هل كانت المرأة تخرج وهذه الأجزاء عارية فأمرت بسترها؟ لأن هذا الذى قيل فى الآية هو نتيجة القراءة المعاصرة والسلف والخلف معذورون لأنهم لم يطلعوا على المناهج الحديثة والقول بخلاف هذا تزمت وانغلاق ورجعية. هذا بالنسبة لآية النور.

أما الحديث «كل المرأة عورة إلا الوجه والكفين» فهو أولاً غير ملزم، لأنه هو الفهم البشرى النسبى من الحقيقة المطلقة، وقد فهمه الرسول عليه السلام

من خلال واقع ثقـافي، وحضارى وزمانى ومكاني. وليس هذا ملـزمًا لأحد وإنما وضعت الآية الحد الأدني من اللبـاس. والذى إذا أهملته المرأة تكون آثمة فإذا خـرجت على الناس ولم تضـرب خمـارها على أليتـيهـا أثمت، ووضع الرسول الحد الأعلى لما يجوز لها أن تستره، فإذا سترت الوجه والكفين أثمت، وكل الذى بين هذين الحدين فهو لباس شـرعى للمرأة وعليه ليس هناك لباس غير شرعى فـيما ترى عليه نساء الأرض إلا إذا خرجت ولـم تضرب خمارها على جيوبها يعني الفتـحات التي ذكرها المتنورون وهذا هو الفقه الذى تمخض عنه المنهج المعاصر الذى يفتح أبواب الفهم والمؤسس على أصول فلسفية.

وبعد فإنك ترى فى هذه الكتـب إشارات لها دلالات لم أفهمهـا كأن تجد مثلاً تفسـيرًا لقوله تعالى: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ** ﴾ [الفـاتحة] يقـول: إن الذين أنعم الله عليـهم وندعو الله أن يهـدينا صـراطهم ونُلِحُّ فى ذلك فى كل صـلاة هم بنو إسـرائيل زمن سـوسى عليـه السلام يعنى هـم المثل الأعلى فى أم الكتاب مع أن بنى إسـرائيل زمن موسى هم الذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا، وهم الذين قال لهم موسى يا قومى لما تؤذوننى وقـد تعلمون أني رسـول الله، وهم الذين اتخذوا العـجل. وهم الذين لما جاوز الله بهم البحر أتوا علـى قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا آلهة كما لهم آلهة.

ثم تجد إشارة أخرى تقول: إن رسـول الله ﷺ هو الذى ابتدأ بعداوة يهود المدينة لأنه دعاهم إلى الإسـلام وهو يعلم أن اليهودى لا يغـير دينه فكان هذا هو سبب ما كان بينهم وبينه عليه السلام ولم يكن منهم سبب وأسأل لماذا هذا التعـاطف؟ وهل هناك رحم بين هذا الاتجاه التنويرى وبين اليـهود؟ وهل لهم إصبع فى القراءات المعاصرة؟ وأكتـفى بهذا وأكرر خطابى لعلماء علوم القرآن

والسنة والفقه أن ينبهوا طلابهم إلى هذه الأخطار وأن يكتفوا بالإشارة إليها فى مقدمات كتبهم وألا يكتبوا كتبًا للرد عليهم لأنهم ليسوا طلاب حق ينفع معهم الدليل. وليس الهدف أن يرجعوا لأنهم لن يرجعوا. وإنما المطلوب حماية عقول أبنائنا وتكفى المقدمات لأنى بعد هذا التقديم أغسل قلمى وأبدأ فى العلم الشريف. ويفزعنى أن أرى علماءنا الكرام فى معارك شديدة الوطيس نحو الختان وإرضاع الكبير ومثل هذا الطعن فى الدين وأسوأ منه يجرى على الساحة، وليس له إلا هم.

ونسأل الله أن يصرفنا جميعًا إلى معالى الأمور وأن يصرف عنا سفسافها

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ومن تبعهم بإحسان

دكتور

محمد محمد أبو موسى

المعادى الجديدة مساء يوم

الأربعاء ٢٧ من جمادى الآخرة ١٤٣ هـ

الموافق ١٧ من يونية ٢٠٠٩م

الشورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ① عٓسٓقٓ ② كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ④ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشورى: ١-٥].

قال الرازى: اعلم أن الكلام فى أمثال هذه الفواتح يضيق وفتح باب المجازفات مما لا سبيل إليه فالأولى أن يفوض علمها إلى الله. وهذا كلام جيد وقال أبو حيان: ذكر المفسرون فى حم عسق أقوالا مضطربة لا يصح منها شىء كعادتهم فى هذه الفواتح ضربنا عن ذكرها صفحا، والكلامان كلام واحد ويزيد أبو حيان قدرا من الحدة التى كانت تميزه.

وخطاب الله تعالى لخلقه بما لا سبيل لهم إلى فهمه فى كتاب أنزله لهدايتهم إنما يستقيم إذا نظرنا إليه على أنه من باب التعبد، والانقياد، والاعتقاد بأنه من عند ربنا، ومن شأننا، أن نقول ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وهذا هو التسليم الذى هو أصل التدين، وقد انتهينا إلى التسليم المطلق، والانقياد المطلق، لما تدبرنا ما لنا سبيل إلى فهمه، وملأ قلوبنا وعقولنا يقينا بأنه من عند الله ورأيناه دليلا قاطعا وبرهانا ساطعا فإذا جاء بين هذه الأدلة القاطعة ما لا سبيل إلى فهمه قبلناه وقلنا الله أعلم بأسرار كلامه، وكان قبولنا لما لا سبيل إلى فهمه برهانا على الانقياد والتسليم، وقريب من هذا ما نتعبد الله به مما لا نستطيع تفسيره كالطواف والوقوف بعرفة والنزول بالمزدلفة وأسرار الوضوء واختيار أعضائه على الوجه المعروف وعدد الركعات

ومقادير الزكاة إلى آخر ما لا نستطيع تفسيره وليس للدين معنى إلا بهذا الانقياد وبالقول سمعنا وأطعنا.

ثم إننا لا نقول هذا مما لا سبيل لنا إلى فهمه إلا بعد بذل كل الجهد فى فهمه وهذا البذل من أفضل القربات، وقد ذكر بعضهم وأصاب أن حروف المعجم إشارة إلى التحدى، وأن هذا الكلام الذى أعجزكم مكون من الحروف التى يتكون منها كلامكم، وأنه من معدن كلامكم، الذى برعتم فيه وقد أودع الله فيه أمرا إلهياً لا سبيل لكم إلى محاكاته ليكون برهانا على صدق رسوله الذى أرسله إليكم وهذا جيد، ويرجحه أن ذكر القرآن ملازم لذكر هذه الحروف المقطعة وفى هذا إشارة واضحة إلى أن ذكر هذه الحروف المقطعة ذات علاقة متينة بذكر الإعجاز، لأن القرآن إنما يذكر لبيان أنه من عند الله ولا يكون كذلك إلا بالأمر الإلهى الذى هو الإعجاز.

والسور التى بدأت بالحروف المقطعة وليس بعدها ذكر القرآن وهى ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] ﴿كٓهيعٓصٓ ① ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ١، ٢]، ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم: ٢]، ألاحظ أن الذى جاء بعد هذه الحروف أمر خارق يعنى أمر إلهى فالقلم الذى جاء فى نون هو من القرآن بسبيل ظاهر لأنه هو الوجه الثاني لقوله ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ١]، والقراءة والكتابة أمران مقترنان، وسمى القرآن قرآنا لأنه يقرأ وسمى كتابا لأنه يكتب، وهذا ظاهر ثم إن الذى فى مريم أمر خارق أيضًا جاء فى ذكر عبده زكريا، الذى بشره الله بغلام وامرأته عاقر، وقد بلغ من الكبر عتيا، ولما استغرب زكريا هذه البشارة نبهه ربه بقوله ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم. ٩] والذى جاء فى الروم إخبار عن أمر سيقع وهو أن الروم التى غلبت فى أدنى الأرض ستغلب إلى آخره، وكل هذا يؤكد الصلة بين حروف المعجم والأمر الخارق وأنها إشارات إلى هذا الأمر، هذا والله أعلم.

وعلاقة أول الشورى بآخر فصلت يستقيم لك من وجوه عدة منها أن ما به تمام النعمـة، هو أفضل ما فى النعـمة، وقد أخـبرنا ربنا أنه أتم علينا النعـمة بالوحى والدين ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فالربط بين النعمة والوحى ربط لا يحتاج إلى بيان، وفى ضوء هذا أجـد علاقة ظاهرة بين قـوله سبحانه فى آخـر فصلت ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ [فصلت: ٥١] وذكر الوحى فى أول الشورى ثم إن الإعـراض فى آخر فصلت يـرجع بآخرها ومعـه أول الشورى ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ٣] إلى مطلع فصلت ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ [فصلت: ٤] وذكر مادة الإعـراض يؤكد هذا المعنى، وأن إعراض هؤلاء ليس إعراضًا عن وحـيك وحدك، وإنما هو إعراض عن وحيك ووحـى الأنبياء من قبلك. وهذا الربط جيد جداً وظاهر جداً.

ومنها -يعنى من عـلاقة أول الشورى بآخـر فصلت- قوله تعـالى فى آخر فصلت ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾ [فـصلت: ٥٢] وهذا صـريـح فى ذكـر الكتـاب الذى هو ﴿يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الشورى: ٣] ثم إن آية فـصلت هذه ترجع إلى أول فصلت فى قوله سبـحانه ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥] ثم إن آية ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ التى هى آخر فـصلت ورأينا ارتباطها بأول الشـورى تعود هذه الآية بما معها من أول الشورى إلى صدر فصلت المرتبط بمقطع غافر وهذا عجيب.

ونجد ربطا بين أول الشورى ﴿يُوحِي إِلَيْكَ﴾ وآخر فصلت ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ﴾ وقد ذكرنا من وجـوه تفسيرها أن المقصـود كلما ارتقت علومكم واتسعت ارتقى واتسع معها إدراك آيات الـله فى الآفاق وفى أنفسكم فإذا كان خلق الإنسان دليـلا على وجود المعـبود بحق، فإنكـم سترون غـدا من دقائق خلق الإنسان ما هو أكثر ومـا هو أجل، وتكتشفون آيات الله فى الكون وفى

أنفسكم، ويقال مثل هذا فى الوحى لأن اتساع المعرفة والارتقاء فى درجها يساعد على كشف أسرار كثيرة فى الكتاب العزيز سواء كان ذلك فى الأحكام الفقهية أو التاريخية أو الإشارات الكونية، وكما نرى كل يوم جديدا فى آيات الله فى الكون وفى النفس نرى أيضًا فى كل يوم جديداً فى آيات وحيه، وهذا أيضًا جيد ويقرن الوحى يعنى الكتاب العزيز بالآفاق والأنفس وأن التطور العلمى يكشف من أسرار الوحى ما يكشف من أسرار الآفاق والأنفس.

هناك باب من أبواب الدراسات القرآنية متصل بالحروف المقطعة وهو باب صعب ومتسع ولا ينهض به باحث واحد مهما كانت قدراته وسأكتفى بالإشارة إليه. هذا الباب هو السور التى اتفقت فى الحروف المقطعة مثل التى ابتدأت بقوله تعالى ﴿الم﴾ ثم جاء بعد هذا الاتفاق كلام مختلف مثل ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ فى البقرة، ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ فى آل عمران، ولا شك أن الاتفاق فيما تتفق فيه هذه السور دال على تقارب بينها وأن هذا الاختلاف فيما بعد هذا المتفق يحدد مجرى المعنى وطبيعته وحركته فى السورة وأن طبيعة المعنى وحركته فى السورة مما يساعد هو وغيره على تكوين سمت السورة وهيأتها التى تختلف بها عن غيرها من السور وقل مثل ذلك فى ﴿الر﴾ أو ﴿المر﴾ وكيف استصحبت الألف واللام ثم زادت الراء أو الميم والراء وكيف اقتربت وابتعدت عن السور التى شابهتها فى هذا الابتداء، وأنا وإن كنت لا أفهم أسرار هذا فأنا أقطع بأنه لا يخلو من إشارة؛ لأنه ليس فى القرآن حرف يخلو من معنى لأن خلو الحرف من المعنى عبث لا يقع فى كلام أهل الطبع، فكيف بكلام الله، ولما فوض العلماء علم ذلك إلى الله كانوا يقطعون بأن له معنى يعلمه الله، والذى أقوله ليس معرفة هذا وإنما معرفة العلاقات بين السور التى جاءت فى مطالعها هذه الحروف، والتى آذن الكلام بعدها بالاختلاف، وقلت هو صعب جداً ولا ينهض به إلا جمهرة من العلماء المنقطعين لأن هذا لا يظهر منه شىء إلا بعد تحليل السور تحليلا

دقيقًا جداً، ومراجعة كل جملة، وكل كلمة، وكل معنى، من أولها إلى آخرها مع اليقظة الشديدة والقدرة على إدراك اللمحة الدالة، وخلاف هذا كلام عام يقف على أبواب الحقيقة ولا يلج مُسْتَسرَّها وقد آن لنا أن ندرس هذا دراسة واعية ومقنعة؛ وهو يقترب من باب آخر لا يزال منطويا على أسراره وهو باب أسرار ترتيب السور لأن كثيرًا من السور المفتتحة بهذه الحروف يأتى بعضها فى إثر بعض كالحواميم، والطواسيم، ويونس، وهود، ويوسف، والرعد وإبراهيم، والحجر.

وسأقول ما وعيت فى السور الثلاث التى حللتها وهى غافر وفصلت والشورى وإن أذن الله وبقيت بقية من العمر قلت ما أعى فى الزخرف وبقية آل حم، وكان هذا من أهداف هذه الدراسة.

لا شك أن لكل سورة صورة وأن البينونة بين صور السور كالبينونة بين صور الناس وأن منها ما يتقارب كما تتقارب صور أبناء الأب الواحد ومنها ما يتباعد، تأمل سورة النور وسورة الفرقان وحاول أن تستجمع لكل سورة صورة ولا شك أنك واجد فرقا فإذا مضيت إلى الشعراء والنمل والقصص وجدت الفرق بين صورة الفرقان والشعراء أوسع من الفرق بين الشعراء والنمل والقصص وأن هذه الثلاثة مختلفات ولكنه اختلاف كاختلاف الأخوات، وكنت وأنا أريد أن أقترب من هذا العلم الغائب أترك السور الطوال لأن استجماع صورة للبقرة أو آل عمران أو النساء صعب جداً وألجأ إلى جزء تبارك الذى بيده الملك أو جزء قد سمع لأن تكوين صورة للحشر وتكوين صورة للممتحنة أو الصف يسهل، ثم أضع هذه بإزاء تلك لأتبين حقيقة ما يبدو مختلفا، وأضع يدى على الشىء الذى اختلف به ما اختلف وأتلف به ما أتلف.

قلت هذا لتَصحَبَنى فيما سأقوله فى السور الثلاث وأنت تعرف همِّى. وأول ما نراه فى ذلك هو أن غافرا بدأت بقوله تعالى ﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ

من اللّه الْعَزيزِ الْعَلِيمِ﴾ وهذا قريب من قــوله سبحــانه فى أول فصلت ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ والشورى تبتــعد عنهما لأنه ليس فيــها كلمة ﴿تَنزِيلُ﴾ وإنما فيــها ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ وهذا التغيــير لابد من الوقوف عنده والذى يظهر أن الحق سبـحانه ذكر من أوصافه فى غــافر، العزيز يعنى الغالب الذى لا يغلب والعـليم الذى لا يخفى عليه شىء؛ وهاتان الكلمـتان فتحتا باب ما جاء بعدهما من قوله جل شأنه ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ لأن العــزيز هو الذى يغـفــر؛ والعليم هو الذى يقــبل التوب، لأنه يعلم مــخرج التوب من قلب التــائب كما أن العــزيز هو شديد العقاب وهو ذو الطول.

وهذه الصفات الأربعة غافر الذنب -وقــابل التوب- شديد العقاب ذى الطول فتحت البــاب لـعمود السورة وقطب رحاها وهــو قوله ســبحانه ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ونجد قــوله ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ الذى هو أقرب إلى الذين يجادلون فى آيات الله يتــحرك فى السورة من أولها إلى آخــرها نجد ذلك فى قوله ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ وفى قوله ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ وفى قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ﴾ وقوله ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ إلى آخره.

وســورة فصـلت ليس فــيها بعــد الحـروف المقطـعة ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ ولا ﴿غَافِرِ الذَّنبِ﴾ وإنما فيــها ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ولاحظ ذكر الصفتين الكريمتين ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يعنى رحمان الدنيا والآخرة والرحيم فى الأحوال كلها. وهذا إيذان بشىء يغاير غافرا، مع أن الذين يجادلون فى آيات الله الذى هو أصل المعنى فى غافــر يكاد يكون هو قوله ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ وهو أصل المعنى فى ســورة فصلت وكــأن الجذر واحد إلا أن غافرا عمدت إلى بيان مــوقف هو المجادلة بالباطل ليدحضوا به

الحق، وهذه المجادلة محادة لما أنزله العـزيز العليم، الذى هو شديد العقاب وستظهر هذه المحاذَّة وهذه المجـادلة بصورة أكثر تفصيـلا فى موقف فرعون وملئه.

والذى فى فصلت ليس إعلانا للمحـاجة والمحادة التى انجرت بالكلام إلى مـا انجرت إليـه، وإنما وضحت مـوقف الرفض والإصـرار على الرفض وأن الآيات البـينات لن تجدى شـيئًـا لأنهم لن يسـمعـوها، ولن ينظروا إليهـا، ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ وانتهى الأمر.

وهذه هى القاعـدة التى تأسست عليـها سـورة فصلت ومنها وبـها تشكل معنى السورة، وتصورت صورتها، وتخلقت ملامحها، وكان لها بذلك هيأة وسمت، بيان ذلك أن السورة أخذت القـوم برفق شديد وقالت لهم أتكفرون بالذى خـلق الأرض فـى يومـين وتجعلون له أندادا؟ ثـم ذكـرت مـن الأرض ما هو أقـرب إليهم كـجبالهـا، وما هو أقـرب إلى سداد حاجـاتهم كتـقدير أقواتهـا، وهكذا تبدأ تدرك عـلاقة دلائل الوحـدانية بالمخـاطبين واخـتلاف ظلالها، باختلاف السياق، ومـتى يذكر تقدير أقوات الأرض. وجعل النجوم زينة، والليل سكنا، والنهار مـعاشا، ومتى يذكـر سلخ النهار من الليل. أو إيلاج النهار فى الليل. وهكذا واختيـار الآيات الدالة فى فصلت له علاقة لا شك فـيهـا بجذر السـورة ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ وهكذا، ثم جاءت الرحـمة فى صـورة أخـرى وهى حثـهم على نبـذ الإعـراض الذى هم فيـه وتهديدهم إن هم أصـروا بصاعقة مثـل صاعقة عاد وثمـود، وهذا إنذار فقط ولم يقع لأن الأمة كـرَّمها الله ولم يأخـذها بعذاب الاستـئصال، كمـا كانت الرحمة فى صـورة أخرى وهى عرض صورة الـمُـصرِّين على الإعراض وهم يُوزَعُون إلى النار إلى آخر ما انتهى إليه الوعيد والتهديد الهادف إلى كفهم عن موجب العذاب. حتى وصلت السـورة إلى أكرم آيات الله التى ذكرت القريق

المنقاد الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وهكذا تجد الرحمن الرحيم الذى هو ينبوع السورة جاريا فيها بألوان مختلفة.

والأمر فى الشورى مختلف جداً لأنها بدأت بكاف التشبيه الداخلة على اسم الإشارة الذى لم يسبقه كلام يبين مرجعه فبدأت السورة بلمحة من الخفاء ذهب فيها العلماء مذاهب: قال بعضهم إن اسم الإشارة عائد على الوحى المفهوم من قوله ﴿يُوحِي إِلَيْكَ﴾ والمعنى مثل هذا الوحى الذى أوحاه الله إليك فى هذه السورة أوحاه إلى من قبلك من رسله عليهم السلام والطاهر يقول إن الإشارة هنا كالإشارة فى قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣] أى مثل هذا الجعل جعلناكم وهو من تشبيه الشيء بنفسه للإشارة إلى كماله فى الصفة حتى إننا لو ذهبنا نبحث له عن مشبه به لنلحقه به فلن نجد شيئًا أتم فى هذه الصفة منه فرجعنا إلى تشبيهه بنفسه. والمعنى هنا هذا الوحى الذى أوحاه الله إليك وإلى الذين من قبلك لا يشبهه وحى إلا الذى أوحاه الله إليك وإلى الذين من قبلك، وهذا وجه حسن والكلام الذى يبدأ بكاف التشبيه الداخلة على اسم الإشارة كالكلام الذى يبدأ بواو العطف وهو قليل وله دلالة ذات مذاق مختلف كقول أبى تمام «كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر» وفيه لفت أقوى ونبرة إيقاظ أعلى.

وأبو حيان يعد هذا المطلع فى الشورى امتدادا لفصلت وأن اسم الإشارة فى قوله ﴿كَذَلِكَ﴾ يعود إلى قوله فى فصلت ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾ والمراد الكتاب الذى فصلت آياته فى أول فصلت وهكذا يرتبط أول الشورى بآخر فصلت المرتبط بأول فصلت وهذا تشابك جيد جداً والمعنى الذى وراء هذا التشابك الجليل هو أن الوحى يستمر ويتتابع يؤمن به من يؤمن ويكفر به من يكفر لأن هذا لا يغير من حقيقته شيئًا، قال أبو حيان «ومناسبة أول السورة لآخر ما قبلها أنه قال ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ

عِندِ اللَّهِ﴾ وكان في ذلك الحكم عليهم بالضلال لما كـفروا به قال هنا كذلك أى مثل الإيحـاء السابق في القـرآن الذى كفـر به هؤلاء يوحى إليك أى أن وحيه تعالى إليك مـتصل غير منقطع، يتعهدك وقتـا بعد وقت» انتهى كلام أبى حيان وهو كلام جيد، وفيـه إشارة إلى أن مخالفة الحق والانصراف عنه والهـجـوم عليـه لا يجوز أن تـؤثر فى من آمن به ولا أن تخـذله لأن الحق يمضى ويستمر بقوته المكنونه فيه لا يضره من خالفه وهذا شد لأزر أهله.

ويلاحظ أن الشورى عدلت عن كلمة التنزيل التى جاءت فى غافر وفصلت ثم جاءت بعد ذلك فى الجاثية والأحقاف وجاء أنزلناه فى الدخان وجعلناه فى الزخرف ويوحى إليك فى الشورى والكلام الآن فى الشورى.

وهذه الكلمات قريبة فى معناها وبعضها أقرب من بعض فأنزلناه أقرب إلى جعلناه. ويوحى إلـيك متفـرد فى الدلالة على الوحى وهو أخص من التنزيل والجعل من وجه وأعم من وجه، فالوجه الذى هـو فيه أعم أنه قد يكون لغير الأنبياء كما فى قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [القصص:٧] وقد يكون لغـير العقـلاء كمـا فى قوله تعـالى ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨] والجهـة التى هو منها أخص أنه واحـد من صور كلام الله كـما قـال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى:٥١] وإنما أوثر هذا اللفظ هنا ولم يقل أنزلنـا ولا تنزيل لأن الأنبياء جميعًا أوحى الله إليهم ومنهم من أنزل إليه كتابًا ومنهم من لم ينزل الله عليه كتابـا فلم نعرف أن إسـحاق نزل عليه كـتاب ولا يعقـوب ولا إسمـاعيل ولا يوسف فـالربط الجـامع للأنبـياء هو الوحى وليـس الإنزال، وقد سـرى الوحى فى السـورة كلهـا جاء فى قـوله تعـالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وفى قوله جل شأنه ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ وجاء متـضمنا فى قوله ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ وهذا هو المقابل لقوله

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾، ثم جاء فى قوله جل شأنه ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا﴾ ثم رد به عجز السورة على صدرها أحسن رَدٍّ فى قوله سبحانه ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، فكان الوحى فى مفتتحها وفى آخرها وجاريا فيما بينهما، وكل المعانى المكونة للسورة متفرعة عن هذا الأصل، وهذه الفروع والتفاصيل تختصر مرة وتُطَوَّل مرة، وتأتى مرة فى صورة العذاب، ومرة فى صورة النعيم، وهذا وغيره كثير يشكل هيأة السورة ويكون ملامحها، لأن هذا التيار الجارى فيها أو هذا السياق الذى شكلته تنويعاتُ الوحى الساريةُ فيها هو الذى شكل صورها ومنحها مَلْمَحها. راجع الفرق بين ذكر الأمم السابقة فى غافر، وذكرها فى الشورى، تراهم فى غافر جادلوا بالباطل فأخذهم الله؛ وهم فى الشورى اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم، وتفرقوا من بعد ما جاءهم العلم، وتأمل قرابة الاختلاف والتفرق للوحى، وأنه من سلالته ومن آثاره، وقرابة الأخذ الشديد والاستئصال للمجادلة والمحادة وهذا لو تغلغلت فيه وأطلت لدخلت منه بابا آخر من أبواب بيان القرآن العظيم.

وقد خُصت الشورى من بين أخواتها آل حم بزيادة ﴿عسق﴾ ولا أعرف لهذا وجها إلا أنه له دلالة يعلمها الله. وإن كان الشيخ الطاهر اجتهد وله أجر -قال رحمه الله- على وجه الاحتمال وليس على وجه القطع ولا الترجيح «إنه جيء بهذه الزيادة لبيان زيادة التحدى ولعل ذلك لحال كانوا عليه من شدة الطعن فى القرآن وقت نزول هذه السورة فكان التحدى لهم بالمعارضة أشد فزيد فى تحديهم من حروف التهجى» انتهى كلامه وهو جيد وإن كان يرد عليه أن ارتباط الزيادة بواقع محدود ما لبث أن تغير يوقع فى حرج لأن الزيادة بقيت وسببها لم يبق فتصبح بذلك غير دالة وقول العلماء العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب يجعل أسباب النزول محدودة الأثر فى تكوين الكلام وأن عموم اللفظ فيه يجب أن يكون أوسع حتى تبقى الدلالة قائمة مع ذهاب السبب، وأبدأ فى تحليل الآيات.

قوله سبحانه ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ذكرنا ما قيل في الإشارة وكاف التشبيه وبقي التعبير بالمضارع في قوله ﴿يُوحِي﴾ وله وجه حين نزل لأن الآية مكية وكان الوحي يحدث شيئًا بعد شيء ثم هو الآن قد صار ماضيا والحكمة في المضارع هو استحضار الصورة واستحضار جلالها وكأن الوحي ينزل الآن وكأنك ترى جبريل على كرسى بين السماء والأرض أو تسمع قدومه وله صلصلة كصلصلة الجرس. وفيه إشارة إلى أن أثر الوحي في الأمة قائم يتجدد وأن الأمة تُجدِّدُ بتجدده دينها وعزمها، وهمها وتبنى بعزه عزها، ووراء ذلك كله ما وراءه، ثم إن الجار والمجرور ﴿إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ تقدم على لفظ الجلالة الفاعل. ووجه ذلك والله أعلم بمراده أن وحي الله لا يكون إلا للذين اصطفى واجتبى. من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا والمبادأة بضم المختار صلوات الله وسلامه عليه إلى هؤلاء ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] لها مالها، ولها في نفسه عليه السلام ما لها. ولها في بيان مكانه عند ربه مالها، ومجيء الموصول في قوله ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعنى أن أمر هؤلاء الذين أتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة لم يكن غائبا عنه عليه السلام ولا عن قومه، وهذا الاقتران بين وحيه ووحي من سبقوه ممن هدى واجتبى فيه تكريم له عليه السلام ثم وهو الأهم فيه إشارة إلى أنك ستجد ما وجدوه من عناد وإفراط في التحدى والتكذيب والسفة وكأن هذا الاقتران يهيئه عليه السلام لما سيجد لأنه سيجد ما وجده المبلغون عن ربهم في الزمان كله والمكان كله، وستجد تفصيلا لكل هذا في قوله سبحانه ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ...﴾.

وقوله جل شأنه ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لفظ الجلالة فاعل يوحى. ولفظ الجلالة متضمن أوصاف الكمال في أسماء الله الحسنى كلها، وهذه

الكمالات وهـذا الجلال يفيـد كمـالات ما أوحاه الله إليـه، وإلى الذين من قـبله. ومن كـمالات الوحى أنـه عزيز غـالب، وأنه مـتـفرد فى سـداده، وصوابه، وفى كل ما عرض له، وأنه صادر عن حكمة، وأن الحكمة الرفيعة ساريه فى كل أمـر ونهى، ووعد ووعيد، وكل مـا عرض له، وتلاحظ هنا أننا نقتبس فى صفات الوحى من أسماء الله المذكورة فى بيان مصدره فوحى العزيز عـزيز، ووحى الحكيم حكيم، لأن ذكر صـفات الله العليا وأسـمائه الحسـنى تفيد فـى كل سياق مـعنى يتلاءم مع هـذا السياق، وإذا كـان لفظ الجلالة يعنى الاتصاف بكل كمال بما فى ذلك العزيز الحكيم فإن ذكرها بعده للتنبيـه على خصوص مـعناها للإفادة بأن المشاقـين لوحى الله والمحادين له مـغلوبون لأنهم يشاقـون العـزيز الغالب، ثم هم يـفتـقدون الحكمـة لأنهم يشاقـون الوحى الحكيم الصادر عن الحـكمة، والذى لا يأتيه الـباطل، وكل هذه معان سـياقية لا يجـوز إهمالها، وهذا يعنى أن أسمـاء الله الحسنى فى مواقعها الكثيرة فى الكتاب العزيز وإن اتفـقت فى أصول معانيها فإن السياق يستخرج منها دلالات تخصه وهى دلالات جليلة لا يجوز إهمال النظر فيها وهى المقصود الأهم.

قلت إن ذكـر العزيز يعنى أن وحى الله الذى أوحـاه إليك وإلى الذين من قبلك وحى لا يغلب، وقد أشار إلى هذا المعنى قـوله سبحانه ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ** ﴾ [النساء: ٦٤] وأن ذكر الحكيم يعنى أنه مؤسس على الحكمة وهذا يعنى أنه لا يداخله نقص ولا يأتيـه باطل لأن كمال الحكمـة فيه كـمال مطلق وقد قال سـبحانه ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام: ٣٨] ومن أراد أن يعارض هذا فليشر إلى نقص فى أى شىء جاء به الكتاب.

وقد جاءت كلمة ﴿ **الْحَكِيمِ** ﴾ فى الشورى مكان كلمة ﴿ **الْعَلِيمِ** ﴾ فى غافر وجاءت ﴿ **الْعَزِيزُ** ﴾ فيهما، وذلك لأن غافرا تعالج أمر المجادلين فى آيات الله فناسبها الـعليم بجدالهم وما تنطوى عليه صدورهم. والشورى تعـقد الشبكة

التى بين ما أوحاه الله إلى رسوله صلوات الله وسلامه عليه وما أوحاه للذين اصطفى واجتبى والوحى تناسبه الحكمة وهذا ظاهر.

قوله سبحانه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ تكررت هذه الجملة فى الكتاب العزيز كثيرًا جداً وتعتورها بعض التغييرات تراها مرة له ما فى السموات والأرض، ومرة له ملك السموات والأرض، ثم إن الجملة الحالية الملحقة بها هى هنا ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ وتراها مرة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠] إلى آخره، وهى من أعظم الجمل الصادرة عن عز الألوهية فلا يوصف بها إلا المعبود بحق وهى موجزه إيجازا بليغًا جداً لأنها تكاد تكون أقصر لفظ وراءه أوسع معنى فليس أوسع من السموات والأرض وما فيهما وقد حقق لها هذا الإيجاز اسم الموصول وصلته، ثم إنها مع هذا الإيجاز البالغ فيها تكرار لأنه كان يمكن أن يقال له ما فى السموات والأرض فتكررت ما الموصوله وتكرر معها حرف الجر، وهذه الجملة تفيد عموم الملك وسعته وعموم الاقتدار والعز والحكمة لأنه لا يملك هذا إلا المقتدر الذى لا يحوز أحد من ملكه شيئًا، والعزيز الغالب الذى لا يُغلَب على شيء فى هذا الملك المتسع، وإلا الحكيم لأن قيام هذا الملك المتسع لا يكون إلا بحكمة، ولهذا ترى أن العزيز الحكيم كأنها تفتح الباب وتوطئ لهذا المعنى، وهذه الجملة من تمام الحديث عن الذى أوحى إليك، وهذا يضفى على الوحى أشياء منها: أن الوحى وحى مالك السموات والأرض وما فيهما، فالإنسان الذى جاء الوحى من أجله مخلوق لله وفى ملكه. وخالقه ومالكه سبحانه أعلم بما به صلاحه، وفساده، فكان من تمام خلقه أن يُنْزِل إليه وحيه ليخرجه من الإفساد إلى الإصلاح، ويهديه الصراط المستقيم، فالوحى نور والوحى شفاء لما فى الصدور، والوحى هداية، وكل ذلك ما دام صادراً ممن خلق وملك فلابد أن يكون هو الشفاء الناجع والنور الساطع والهدى المبين.

ومنها أنه لا يجوز فى الحكمة أن يخلق خلقه ثم يتركهم فى شئون حياتهم وتقلبهم فى الأرض وفى علاقات بعضهم ببعض وفى علاقاتهم بخالقهم لا يجوز أن يترك هذا لهم ولأهوائهم؛ لأن فى ذلك مفسدة أى مفسده ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السموات والأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١] فالوحى من فضل الله، ومن عطائه الناجم عن جلال قدره، وقد وصف القرآن الذين قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء بقوله سبحانه ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١] فالوحى من العطاء المتلائم مع مقام الألوهية المعبر عنه بقوله ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ وأنا الآن أبحث عن سر مجىء هذه الجملة مع ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ولماذا لم يقل مثلا يوحى إليك الله العزيز الحكيم والذى جعل لكم الليل سكنًا، أو الذى وسع كرسيه السموات، أو الذى إليه ترجعون، وكل ذلك معبر عن ذات الحق جل جلاله، ولا بد أن يكون فى اختيار ﴿لَهُ مَا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ سر متناسب مع الوحى. وأن يستخرج سياق ذكر الوحى من هذه الجملة معنى لا يستخرجه منها سياق آخر، والذى قلته هو الذى رأيته.

وقوله سبحانه ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ جملة حالية مؤسسة على القصر، والألف واللام فى ﴿الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ تعنى الكمال المطلق فى الوصفين ﴿الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ والمعنى أن العلو والعظمة له وحده لا يشاركه فيهما أحد، وهذا ظاهر وقريب والذى يحتاج إلى البحث عنه هو لماذا جاء العلى العظيم هنا، وكان يمكن أن يقال وهو الغنى الحميد، أو وهو السميع البصير، ما خصوصية الوحى بهاتين الصفتين؟ والجواب ظاهر وهو أن العلى هو المستعلى المهيمن، والعظيم المتفرد بالعظمة والجلال وفى ذكرهما فى سياق الوحى إشارة إلى هيمنة الوحى وعلوه وتفرده وجلاله، وأنه لا يحادُّه أحد إلا قصمه، ولا يعارضه معارض إلا دحره، والتاريخ ملىء بهذا والحاضر ملىء بهذا،

ثم هو لا يكون كـذلك إلا بما فيـه من سـداد وحكمة وإصـابة، كل ذلك وغيره مطرد فيه لا يعتريه شيء مما يعترى شرائع الناس.

قوله سبحانه: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ هذه الآية من أعظم الآيات الدالة على العظمـة والجلال والتقـديس والهيبـة وقد وقـعت موقعـها الأمكن والأثبت بعـد قـوله ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، ولاحظ جملة الفاصلة ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ وكأنها جاءت لتمسك بالذي قبلها لأن العلو والعظمة كائنان لا مـحالة للذى له ما فى السموات وما فى الأرض ثم لتـمسك بالـذى بعدها وهى الآية التـى معنا والتى هى شـرح وبيـان للعلو والعظمة فـليس أبين للعلو والعظمـة من أن تكون السمـاء تكاد تتشقق من فوقهن وكأنه داخلها من هيبة خالقها ومالكها ما داخلها، فارتجفت وأوشكت أن تنشق وهـذا ما دام ذكـر فى سـيـاق الوحـى لابد أن يكون منه بسبيل. وليس له سبيل إلا سبـيل واحد وهو جلال هذا الوحى وهيبته وعلوه وتعظيمـه وتقديسه ومن مـعدن معنى الآيـة فى وصف الوحى قوله سبـحانه ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١] وقـوله جل شأنه ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] والضمير فى قوله من ﴿فَوْقِهِنَّ﴾ راجع إلى السموات ويتفـطرن معناه يتشققن وقد جاءت هذه الجـملة فى سورة مريم فى التعقـيب على قولهم ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨] قال سـبحانه ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٩-٩١].

وقالوا فى تفسير جملة ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ المقصود بيان كثرة الملائكة المسبحين الساجدين فى السماء، وأن السموات تكاد تتفطر بهن،

وقد جاء هذا المعنى فى قوله عليه السلام «أطت السماء ويحقها أن تئط والذى نفس محمـد بيده ما فيهـا موضع شبر إلا فيـه جبهة ملك سـاجد يسبح الله بحمده» قالوا والأصل أن يقول تكاد السموات تتفطر من تحتهن، وإنما قال من فوقـهن للدلالة على المبـالغة لأنهن إذا تفطرن من فـوقهن كـان تفطرهن من تحتهن أولى. وهذا بعـيد لأن التعبير يتفطرن من فـوقهن والقول بأن المراد من تحتهن ليس له قـرينة، ثم إن الجملة بعدها ذكرت تسبـيح الملائكة بحمد ربهم واستغـفارهم لمن فى الأرض. وعلى هذا الوجه يكون ذكـر الملائكة بعد هذه الجمـل تكرارًا أو توكيـدًا وحمل الكلام على التـأسيس أولى من حـمله على التوكيد، والـزمخشرى هـو الـذى قال المراد يتفطرن مـن تحـتهن، وجاء عـلى ما جاء عليه للمـبالغة ولو كان مقتنعا بهـذا لاكتفى به، ولكنه ذهب إلى وجه آخـر وهو أن أعـظم الآيات وأدلهـا على الجـلال والعظمـة لـيس الذى فى السموات ولا الذى فى الأرض مع عظيم دلالتـها على ذلك، وإنما الذى فوق السموات وهو العـرش والكرسى وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبـيح والتقديس حول العرش. وما لا يعلم كـنهه إلا الله تعالى من آثار ملكوته، ويرجح هذا قوله تعالى ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أى من فوق السموات لجـلال الذى فوقهن، وقالوا أيضًا أنهن يكدن يتفطرن من علو شـأن الله وعظمته، بدليل مجيـئه بعد قوله ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ وليس لثـقل ما تحـمل. وإنما هى الهيـبة والجـلال التى داخلت السمـاء فارتجفت وكادت تتـتشقق وقد بـين الطاهر هذا بقوله: «تكاد السموات على عظمتهن تتشقق من شدة تسخيرهن فيما يسخرهن الله له، من عمل لا يخالف ما قدره الله لهن»

ومـجىء هذه الجملة فى سـورة مريم فـى التعـقيب على قـولهم ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم. ٨٨]، ووصف ذلك بأنه عجب منكر ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٨٩، ٩٠] مجىء هذه الجملة فى هذا السيـاق أغرت بعض المفـسرين بالقـول بأنها فى الشـورى دالة على هذا

المعنى. وأن السموات يكدن يتفطرن من فوقهن بسبب كلمة الكفر، المدلول عليها فى الآية بعدها ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ وكلمة الكفر تأتى من أسفل وإنما قال من فوقهن للمبالغة.

وفى الآية كلام آخر كثير وهى تحتمل، والذى أريد بيانه هو وجه ذكرها مع الوحى. وسيتضح هذا بعد تحليل بقية الآية.

قوله سبحانه ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ هذه الجملة لمزيد بيان الجلال والتنزية والتقديس. وهى من تمام الجملة قبلها وإذا كانت التى قبلها أبانت عن الجلال والعظمة والهيبة فإن هذه كأنها مثال يؤتى به لمزيد البيان، لأن تسبيح الملائكة من أرفع مظاهر عز الألوهية وفى هذه الجملة اقتراب ظاهر إلى الوحى لأن الوحى تكليف بعبادة يعنى تكليف بالإذعان والانقياد لذى الجلال وحده سبحانه، ومن كان هذا شأن عزه وجلاله فهو وحده الجدير بأن يعبد، وهذه هى الرسالة التى أوحاها الله إليك وإلى الذين من قبلك، وكلمة ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ فيها معنيان الأول النعم المشار إليها بالحمد والثانى أنه هو الذى أوجد من العدم وجعل لكم السمع والأبصار وهدى إلى حمده وتسبيحه، وفى المضارع معنى التجدد الذى لا ينقطع وهذا شأن العبادة التى جاء بها الوحى وهذا يشير إلى أن ما تدل عليه جملة ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ من عظيم الجلال راجع إلى الوحى وإلى وجوب الإذعان والانقياد لأنه وحى مَنْ هذا أمره، ومن ترى ملائكته مسبحة بقدسه الليل والنهار لا يفترون. وقوله سبحانه ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ تشير إلى شدة حاجة الإنسان المتهوك فى معصية الله إلى الوحى الذى ينتزعه من ظلمات الجهالة والأهواء إلى صراط الله المستقيم قالوا والمراد من آمن، وقالوا اللفظ على عمومه فيشمل الإنسان والحيوان. والمراد الدعاء بعدم المعاجلة بالعقاب.

وقوله ﴿أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يؤكد معنى كثرة الفرطات التى يقع

فيها الإنسـان ويبث الطمأنينة فى قلوب عباده بعدما اعـتراها من الوجل بذكر الجلال والمهابة. وقـد تضمنت هذه الجملة إشارات ظاهـرة أولها الابتداء بأداة الاستفتاح التى يؤتى بهـا فى أول الكلام الذى له خطر وبال، والثانى التوكيد والثالث القصر المستفاد من تعريف الطرفين، والرابع ضمير الفصل المؤكد لهذا القصر، والخامـس تقديم المغفرة يعنى ستر الذنوب ورفع العـقوبة التى كانت تقتضيها هذه الذنوب ثم ذكر الرحمة التى تعنى المزيد من العطاء، فهو سبحانه يعفو عن السيئات ثم يـعطى الرحمة التى ليس بعدها لمسلم مأرب، وكل هذا مرتبط أشـد الارتباط بالوحى لأن الوحى تكاليف وثواب وعقـاب، والإنسان خطاء واليأس قـاتل ولابد من فسحـة حتى يطمئن القلب ،فكان الغـفران ثم الرحمة، وهذا كله من الكلام العجيب فى تأليف معناه.

قوله سبـحانه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

مجىء هذه الآية فى موقعها بعد التى قبلها فيه من أسرار البيان ما هو أغمض وأدق من الأسرار البيانية التى فى نظمهـا، بيان ذلك أن الآيات من قوله سبحانه ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تؤكد عـلو شأن الوحى، وعزه، وغلبتـه، وحكمته، وعلوه، وعظمتـه، وقد بينا وجه ذلك. ثم جاءت هذه الجملة المختـصرة وعاد الكلام بعدها إلى ذكر الوحى ومجـيئها وهى مسـبوقـة بذكر الوحى على الوجه الـذى رأيناه وبعدها ذكر الوحـى على الوجه الذى سنراه إشـارة إلى أنه لا يخالـف الوحى الذى هذا شأنه ولا يضـاده ولا يُحادّه إلا من أبعـد فى إنكار الحق، وأبعد فى الـضلال، لأن الوحى الذى هذا شأنه لا ينكر ولا يجحد، والربط بين مـا أوحاه إليك وما أوحاه إلى الذين من قبلك يبرز القـاعدة الأم التى تواترت عليها النبوات وهى عـبادة الله وحده، واتخاذه وحده ولـيا، فمن نزع نفسه عـن هذا الحق المبين، فقد شـذ عن سياق

الفطرة وخرج من النور إلى الظلمات ﴿وَالَّذِين كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوت يُخرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] والولى هو الذى يتولى ويرعى ويحفظ، والعبارة عن الكفر والشرك بقوله ﴿وَالَّذِين اتَّخَذُوا مِن دُونِه أَوْلِيَاءَ﴾ لإظهار معنى الإفراط في الجهالة والضلالة ،لأن غير الله ليس بمثابة أن يتخذ وليا لعدم صلاحيته لأى ولاية، فضلا عن أن يتولى الحفظ والرعاية والرزق، وهذا أيضًا غير قوله ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّه آلِهَةً﴾ [مريم: ٨١] وإن كان المآل واحدا لأن النص هنا على اتخاذ أولياء من دون الله بعد ذكر أن له ما فى السموات وما في الأرض وهو العلى الذى لا يعلوه شىء، والعظيم الذى لا يعظم معه شىء، وأن السموات تكاد تنفطر مما داخلها من جلاله، وهيبته، وسلطانه، ومع هذا اختار هؤلاء ولاية غيره وهذا شىء غير قوله ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّه آلِهَةً﴾ لأن الآلهة وإن كانت تتضمن الولاية فإن ههنا فرقا بين الدلالة الصريحة والدلالة المتضمنة، وقال هنا ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ ليؤكد خطأهم فى العدول إلى غيره وقد أكد هذا المعنى بالجملة التى تليه وهى قوله ﴿وَمَا أَنت عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ لأنها تفيد الاختصاص وأنك أنت خصوصًا لست وكيلا عليهم، وإنما الله هو الوكيل. والله هو الحفيظ، وهذا كله متلائم جدا مع ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ وأنه الخالق والمالك، وهو الحقيق بأن يكون وليا، وما كان لهذه الآية أن تتأخر وتوضع مكان أختها ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِه أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وسيتضح ذلك بعد تحليلها.

وقد ذكر بعض علمائنا أن هذه الواو ﴿وَالَّذِين اتَّخَذُوا﴾ راجعة إلى قوله تعالى ﴿لَهُ مَا فِي السَّمواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ولعلهم لحظوا أن هذا العطف يظهر شناعة فعلهم، لأنهم اتخذوا وليا من دون من هم فى قبضته سبحانه ولا يخرج شىء عن ملكه.

ويمكن أن تكون هذه واو استئناف وأنها تعطف معنى على معنى وأن الآيات السابقة التى أفصحت عن علو الشأن، وعز الربوبية، هيأت لبيان حقيقة عظيمة من حقائق الوجود، وهي أن تجليات الحق وإن تجلت في أسمى صورها، فليس ذلك بمانع من وجود الباطل لأن الباطل لا يعتمد في وجوده على تبرير منطقي. ويجب أن يعلم أهل الحق أن الباطل يهاجم، ويباغت في أعظم لحظات ظهور سلطان الحق. وهذا من أسرار مجيء هذه الجملة في هذا الموضع، وكأنها قطعت كلام الوحي واخترقته لأن الآية بعدها من تمام الكلام عن الوحي كما يخترق الباطل بتلبيسه وتدليسه وتهويشه أوقات تجليات الحق، وهذا معنى جليل وتكفى هذه الإشارة.

وقوله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ﴾ مبتدأ وخبره جملة إسمية ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ ولفظ الجلالة مبتدأ وحفيظ عليهم خبر، والمقصود ليس هذا وإنما أن تلاحظ أولا أن المبتدأ الأول يشير إلى أن الخبر سيكون تهديدا ووعيدا، مثل ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ [فاطر: ٣٦] وقد جاء الخبر على غير هذا لأن الخبر بدل التهديد والوعيد صحح الموقف وبين ما فيه من خطأ؛ وبدلا من أن يقول لهم نار جهنم قال ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ ويابعد ما بينهما لأن قوله ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ تذكير بالنعمة وليس تهديدا بالهلاك ثم إنه يورث النفس قدرا من الاطمئنان لأنه ليس لك حفظ أكرم لك ولا أبر بك من أن تكون في كلأ الله وحفظه وكأن هذا الخبر بدل أن يرمى في وجوههم لاجترائهم بباطلهم على سلطان الحق في أعظم تجلياته يقاربهم، ويقول لا تتخذوا ولياً من دون الذى تكاد السموات تتفطر من هيبته لأنه هو الحافظ لكم، ثم إنك تلاحظ أن حفظه سبحانه لمن اتخذ من دونه وليا جاء في صيغة المبالغة ولم يقل حافظ، ثم إنه عداه بحرف الاستعلاء الدال على أنه حفظ مستعل عليهم، ثم إن حرف الاستعلاء هذا أشرب كلمة حفيظ معنى رقيب عليهم، ثم إن الحفظ من معانيه الرعاية والصون وهو من تمام الخلق،

لأن الذى خلق لم يترك نفسا إلا عليها حافظ، ولم يترك نفسا إلا أنشأ لها السمع والأبصار وأنزل لها من السماء رزقًا، وجعل لها الأرض قرارًا، والليل لتسكن فيه إلى آخره، ومن جهة أخرى ترى فى كلمة حفيظ لَـمْحًا من الوعيد لأنه يحفظ عليهم ما يقولون ومـا يفعلون، ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨] وهكذا يزيدك هذا الكلام عطاء إذا ما زدته نظرًا.

وقوله جل شأنه ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بنيت هذه الجملة على تقديم النفي على المسند إليه على مثال ما أنا فعلت، ويؤكد عبد القاهر دلالته على الاختصاص وإن كان اسم الفاعل هنا وقع موقع الفعل كما فى قوله سبحانه ﴿ مَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود: ٩١] وقوله ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ﴾ [المائدة: ٣٧] ﴿مَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨] وله نظائر كثيرة جداً فى الكتاب العزيز، وهو دال هنا على الاختصاص لأنه ليس المقصود نفى أنه عليه السلام وكيل عليهم فحسب وإنما المقصود أيضًا إثبات ذلك لله، يعنى هذه الجملة تفيد معنيين معنى النفى أى نفى أنه عليه السلام وكيل؛ ومعنى الإثبات أى إثبات ما نفى عنه عليه السلام لله رب العالمين، وفى هذا وذاك معان جليلة وكثيرة، منها أن هذه الجملة الثانية تؤكد معنى الجملة السابقة وهى قوله سبحانه ﴿ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ ومنها أنها تهدئ من روعه صلوات الله وسلامه عليه حين يرى شراسة الباطل. وأهله، يباغتون الحق، وأهله، بضلالاتهم، وحين يرى قومه هم الذين يرتكبون هذه الحماقات ،كل ذلك كان يُؤذَى به عليه السلام والله سبحانه وتعالى يقول له هنا لست مسؤولا عنهم، ولست وكيلا لهم، إنما أنا وكيلهم وإلىَّ أمرهم، وعليك وعلى أهل البلاغ من بعدك ممن اصطفينا واجتبينا من علماء أمتك أن تبلغوا البلاغ الحسن على وجهه، ثم ترفعوا أيديكم ولستم مسؤولين عن شىء إلا هذا، والخلق خلقى أهدى من أشاء وأضل من أشاء فأنا الحفيظ عليهم والوكيل عليهم.

وقد بقـي في جملة الخـبر شيء ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ وهو أن هذه الجملة ابتدأت بلفظ الجلالة ولم يذكر في السورة قبلها إلا في آيه ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وهذا معناه أن لفظ الجلالة الذى بُنيت عليه جـملة الخبـر يتضمن لفـظ الجلالة قبله الذى هو مـرجع الوحى لك وإلى الذين من قبلك، وهذا معناه أن حـفظ الله لهم مقترن بوحيـه، وأن وحيه من حفظه، هذا شيء والثانى أن قولنا الله حفـيظ، والابتداء بلفظ الجلالة المتضمن لكل الكمالات التى فى أسماء الله الحسنى يعني أن حفظه ليس كحفظ غيره.

وحسب صـاحب القلب أن يكون محـفوظا باسم الله الأعظم ومـصونا به ومتدرعا به ومعاذا به ومعانا به ولا يهلك على الله إلا هالك.

قوله جل شأنه ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

بدأت هذه الآية بمـا بدأت به الآية التى هى رأس الـسـورة، فـتكرر اسم الإشارة مع كاف التشبيه ولفظ الوحي. وهذا التكرار علامة لغوية تشير إلى أن هذه الآية من تمام الآية الأم التى هى رأس السورة، وأن عموم الوحى هناك له عليه السلام والذين من قبله استـدعى الحديث عن أصل هذا الوحى ومصدره وهو سبحانه الذى له ما فى السموات وما فى الأرض إلى آخره، ثم اعترضت آية ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ لتشـير إلى ما بينـا ثم عاد الكلام إلى الأصل ليحدث عن الوحى الذى أوحاه الله إليه وهو القرآن العربى إلى آخره.

واسم الإشارة هنا يمكن أن يرجع إلى قوله ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ والمعنى مثل الذى يوحى إليك وإلى الذين من قـبلك أوحينا إليك قرآنـا عربيّـاً، وهذا يؤول إلى تشبـيه وحي بوحي وإن كـان الوحى الأول له وللذين من قبله وهذا وحي له وحده صلوات الله وسـلامه عليه، ويمكن أن يعود اسم الإشارة هنا عـلى المصدر المفهوم من أوحينا أى مـثل الوحى أوحينا

إليك، وهذا يؤول إلى تشبيه الوحى إليه بالوحى إليه لأنه لا يوجد ما يعدله ويماثله إلا هو، وهذا المعنى استخرجه الطاهر رحمه الله، من قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] قال: وإن لم يتقدم فى الكلام ما يحتمل أن يكون مشارا إليه بقوله ﴿كَذَلِكَ﴾ علم أن المشار إليه مقدر معلوم من الفعل الذى بعد اسم الإشارة وهو المصدر المأخوذ من الفعل أى كذلك الإيحاء يوحى إليك، وهذا استعمال متبع فى نظائر هذا التركيب كما تقدم فى قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ فى سورة البقرة وأحسب أنه من مبتكرات القرآن إذ لم أقف على مثله فى كلام العرب قبل القرآن، وما ذكره الخفاجى فى سورة البقرة من تنظيره بقول زهير:

كذلك خِيمُهم ولكلِّ قومٍ إذا مَسَّتْهُم الضراءُ خِيمُ

لا يصح لأن بيت زهير مسبوق بما يصلح أن يكون مشارا إليه. انتهى كلام الطاهر، وهو كلام جيد وقد ذكر كثيرا من الأساليب التى عدها من مبتكرات القرآن وهى فى حاجة إلى أن تجمع وتدرس وتراجع وحسبه أنه طرق على هذا الباب.

وقد جاء فعل الوحى فى أول السورة مضارعا وبينا وجهه وهو استحضار صورة هذا الفعل الذى هو من أجل النعم، وبعثت صيغة المضارع التجدد والحيوية فيه، وجاء هذا ماضيا، (أوحينا) مع أن الوحى مستمر، بعضه قد تم ودخل فى الماضى وكانت العبارة عنه بالماضى واقعة موقع الحقيقة؛ وبعضه يقع الآن، وبعضه يقع فى المستقبل. ودخول هذا فى الماضى للدلالة على أن ما هو للوقوع كالواقع، وأنه خبر من لا خلاف فى أخباره. وعلى هذا تكون كلمة (أوحينا) مستعملة فى حقيقتها ومجازها، ثم إن إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم الدال على العظمة والتفرد فيه مزيد عناية بهذا الوحى. وفيه التفات لأن الوحى الأول مسند إلى لفظ الجلالة والكلام جار كله على الغيبة، ترى الغيبة فى ﴿لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ﴾، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، ﴿أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ

﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمَ﴾ و﴿اتَّخَذُوا من دُونِه أَوْلِيَاءَ﴾ إلى آخره، وهذا الالتفات دال على شدة العناية بالمعنى الذى وقع الالتفات فيه فضلا عن أنه يورث الكلام تطرية وإيقاظًا كما قال الزمخشرى، ثم إن الوحى الخاص به عليه السلام جاء مرة مسندا إلى لفظ الجلالة ومرة مسندا إلى ضمير العظمة، فحاز الفضل من الجهتين، ثم إنك ترى الخطاب من الحق إلى رسوله ﷺ فى قوله ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ وفى قوله ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ فكان عليه السلام حاضرا فى مقامات الخطاب هذه وهى أعلى مقامات الخطاب، لأن المتكلم هو الله الذى تكاد السموات يتفطرن من سهابته، والمخاطب هو خير الخلق، وصفوتهم، وفى هذا من التقريب والتكريم والاصطفاء والاجتباء ما لا يقادر قدره.

وقوله سبحانه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ القرآن مصدر كالسبحان والغفران وقد وضع موضع المقروء للدلالة على المبالغة فى قراءته كأنه هو صار قرآنا، وليس مقروءا، وهذا هو وجه تسميته قرآنا، ولم تعرف هذه الدنيا كتابًا قرئ ويقرأ وسيقرأ كالقرآن ابتداء من قراءة كل مسلم فى الأرض فى صلواتهم الخمس. ثم قراءة العلماء له للاستنباط والاستخراج سواء كانوا فقهاء يستخرجون منه الحلال والحرام، أو علماء عقائد يستخرجون منه ما يعتقد وما لا يعتقد، أو كانوا لغويين، أو نحاة أو ما شئت، ثم الذين يقرؤونه للذكر والتعبد، وهكذا كان وهكذا هو كائن إلى يوم القيامة، وهذه وحدها عجيبة لأن الله سبحانه لما سماه قرآنا سماه سبحانه بما علم عليه خلقه، من يوم أن نزل إلى يوم أن ينفخ فى الصور، وراجع هذه لتدرك سرها العالى. وقد ذكر الزمخشرى أنه منصوب على الحال وليس مفعولا به لأن المفعول به الكاف التى فى قوله سبحانه ﴿إِلَيْكَ﴾ وأجاز أبو حيان أن يكون مفعولا وقال الخفاجى يمكن أن يكون منصوبا على المدح، أو أن يكون بدلا من كاف الخطاب.

وكلمة ﴿عَرَبِيًّا﴾ وصف للقرآن، وهى نسبة إلى اللغة التى نزل بها وليست نسبة إلى العرب، وقد صارت العربية بعد نزول القرآن بمثابة جنسية، كما قال الرافعى. وكل من تكلم بلسان العربية فهو عربى، وبهذا تصير العروبة جنسية ثقافية، وليست عرقية وهذا أنبل وأكرم، ويترفع بها عن النزعة العرقية إلى النزوع الثقافى، والحضارى، وبهذا المعنى قال عليه السلام «سلمان منا أهل البيت» وشيوع هذا المعنى يخلص الأمة من تلك النزاعات العرقية التى تمزق كيانها كما ترى الآن فى النزعات الكردية والبربرية والأفريقية وغيرها، ولا ريب أن وصف القرآن بأنه عربى تشريف لهذه العربية وشرف القرآن الأعظم أنه كلام الله، فإذا كانت العربية لسانه فلا ينكر شرفها بهذا إلا من كان فى قلبه دغل، وقد نزل القرآن بهذه اللغة إلى الناس كافة ووعد ربنا بأنه سيظهره على الدين كله، ومعه هذه اللغة التى لابد أن تصير لسانا للناس كافة لأن كل من يدخل هذا الدين وجب عليه أن يتعلمها لأن الصلاة لا تصح إلا بها، ولا يجوز لمسلم أن يتخذ القرآن مهجورا، فلابد له من قراءته، ثم هو مندوب إلى تدبره وتعقله وكل ذلك جار على هذه اللغة وهذه منزلة أنزلها الله لهذا اللسان لا يعارض فيها واحد من أهل القبلة.

وقوله جل شأنه ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

اللام فى قوله ﴿لِّتُنذِرَ﴾ متعلق بأوحينا، لأن الإنذار علة الوحى، وليس متعلقا بعربى، وهذا ظاهر والمهم هو إنذار أم القرى ومن حولها مع أنه عليه السلام أرسل إلى الناس كافة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨] فلماذا خص مكة ومن حولها بالإنذار ولماذا ذكرها بقوله ﴿أُمَّ الْقُرَىٰ﴾؟ والجواب أن إنذار أم القرى إنذار لكل القرى والمراد بإنذار أم القرى إنذار أهلها على حد قوله تعالى ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] وهذا يعنى

أن إنذار أهل مكة التى هى أم القرى إنذار لأهل القرى جميعًا أبيضهم وأسودهم، وعربيهم وعجميهم، وهذا عجيب ويؤكد هذا العجيب قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً ﴾ [القصص: ٥٩] وهذا صريح فى أن بعث الرسول فى أم القرى وقيام الحجة عليهم ببعثة الرسول هو بمثابة بعث رسول إلى كل القرى، وبإرساله إلى أم القرى تلزمهم جميعًا الحجة، فما شأن أم القرى عند الله؟ أولاً: إن الله سبحانه وتعالى حرمها يوم خلق السموات والأرض. وآمن فيها الإنسان والوحش والطير. وثانيًا: جعل فيها بيته الذى هو أول بيت وضع للناس. يعنى أن بيته فيها للناس كل الناس. من كل القرى وكل الأقطار وكل البوادى وكل الحواضر فى مشارق الأرض ومغاربها، وهذا يقرب ما وصفناه بأنه عجيب، فإذا كان بيته سبحانه فيها للناس كل الناس فلا غرابة أن يكون إنذار أهلها إنذارا للناس جميعًا، ثم إن بيته فيها «تهوى إليه أفئدة الناس» فتتوافد عليه الناس فيلزمهم من الإنذار ما يلزم أهلها ولا تسارع بإنكار هذا وانظر حولك لترى ما يشبهه مع الفرق الشاسع لأنه فرق بين الحق والباطل وأنا أعنى أن الفاتيكان الذى فى إيطاليا يرسل تعاليمه إلى كل التابعين له فى الأرض مع أنه المعقل الأول للوثنية المعاصرة ولا تخدعنك الدعاية التى يصنعونها نحو عقائدهم وثقافتهم، ونحو كبش الروم الرابض هناك، واعلم أنه عدو الله الأول وعدو الإسلام الأول فى هذه الأرض.

ولا يجوز لأحد أن يرفض هذا القول الذى يقول إن إنذار أم القرى إنذار لكل القرى بدليل قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً ﴾ وهذا يوجب أن تكون مكة بمثابة منارة يسطع ضياؤها على الأرض كلها، وليس على عالمها الإسلامى فحسب وهذا اللهو الذى نحن فيه لا يغير الحقائق. ولا يغيرها أيضًا أنك تجد بعض الصغار يقحمون ثقافة الفاتيكان على ثقافة الحرم لأن هؤلاء بمثابة بعر زمن هزيل.

وبعض علمائنا أراح نفسه من خفاء هذا التأويل وذكر أن إنذار أم القرى ومن حولها كان فى أول الدعوة وأن هذه الآية أخت قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وهذا أيضًا يصح وأزيدك بيانا بصحة التوجيه الأول، وهو أن الذين حملوا رسالة الإسلام إلى أمم الأرض وفتحوا بلاد فارس والروم وغيرها هم أهل أم القرى المهاجرون الكرام البررة ومعهم إخوانهم من الأنصار، وهذا حسبى فى هذه الكلمة.

ثم إنهم قالوا إن الإنذار له مفعولان الأول أم القرى والمراد أهلها والثانى يوم الجمع وأصل الكلام لتنذر أم القرى يوم الجمع ولكن الإنذار عاد وتكرر لمزيد العناية بإنذار يوم الجمع، ويوم الجمع لا يتوجه إليه إنذار وإنما المراد تنذر الناس وتخوفهم يوم الجمع وبناء الآية فيه أن المفعول الأول لتنذر ذكر مع الأول ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وسكت عن المفعول الثانى ثم جاء الإنذار مرة ثانية وذكر فيه المفعول الثاني ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ وحذف المفعول الأول لدلالة ما تقدم عليه والكلام فيه حذف من الأول لدلالة الثانى وحذف من الثاني لدلالة الأول ووراء هذا الإيماء إلى عموم الإنذار في الأول يعنى لتنذر أم القرى كل ما جاء فى رسالتك من إنذار ووعيد كما أن وراءه عموم المنذرين فى الجملة الثانية يعنى يمكن أن يقال ولتنذر كل الناس يوم الجمع وهذا من البناء العالى والنادر، ثم إن مجيء الواو بين الجملتين ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ يشعر بأن إنذار يوم الجمع غير إنذار أم القرى ومن حولها وأنه معنى جديد مع أنه من بقية معنى الجملة الأولى والأصل أنه مفعول به للفعل الأول والمعنى لتنذر أم القرى ومن حولها يوم الجمع وهذا يدل على شدة العناية بإنذار يوم الجمع وكأن الإنذار لما وقع عليه صار إنذارا آخر وذلك لأن إنكار يوم الجمع هو الأصل في إعراض من أعرض ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢] وتلاحظ أن الكلام بعد يوم الجمع موصول بيوم الجمع وكأن

الكلام انتقل إليــه فقال ﴿لا ريب فيه﴾ وهذا من وصفه وقال ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ وهذا من أحداثه وهكذا.

وكلمــة يوم الجمع من الكلمــات الجامــعة، والجــمع مصــدر الفعل جــمع ويحــتمل أن يراد به الناس المجــموعــون وقــالوا سمى يوم الجــمع لأن الناس يجتــمعون فــيه، ويتعارفــون أو أن المظلوم يجتمــع مع الظالم، أو أن العامل يجتمع مع عمله، وقد جاء ذكــر يوم الجمع فى سورة التغابن ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

وجملة ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ جملة اعــتراضية لا محل لــها من الإعراب، وإن كانت فى المعنى وصفا ليوم الجمع، وموقعها هنا موقع حميد، وذلك لأن يوم الجمع هذا موضع كل إنكار، وكل شك وأن الشيء الذى كــانوا لا يتصورونه أن يحدثهم رسول الله ﷺ عن البعث والحساب بعد موتهم، وأنهم مزقوا كل ممزق أو أنهم صاروا رمــيما وترابا إلى آخــره، وإنكار البعث يوشك أن يكون أصلا من الأصول التى دار القرآن على نقضها وأقام الأدلة على البعث فى كل موضع فيه ثم تفاجئ الآية بقوله سبحانه ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾، وذلك لبيان حقيقة مــهمــة وهى أن الريب الذى لا يــؤسس على بينة ظاهرة كــأنه لا ريب، وأن الريب الذى تتظاهر الأدلة على نقضه كــأنه لا ريب، وهذا جيد يعنى ما لا دليل له لا يعتبــر، وما قام الدليل على نقضــه لا يعتبر. وهذه الآية تعلــمنا قاعدة علميــة، وتعلمنا أصلا من أصــول المنهج هو أن السِّناد لكل حقــيقــة دليلها، وبرهانها، فــإذا افتقدته صــارت لا شيء وقد تكررت هذه الجملة العــريقة فى الكتاب العــزيز، وجاءت فى وصف الكتاب فى أول البــقرة ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البــقرة: ٢] وفى أول الســجدة: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [السجدة: ٢] وما أكثر الريب فى الكتاب.

وقوله ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ ويوم الجمع فيه أشياء كثيرة كالحساب والصراط، وإنما اتجهت الآية إلى أخوف ما في يوم الجمع وهو فريق الجنة وفريق السعير، كما جاء في آخر الزمر ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ٧١]، ﴿وسيق الَّذين اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ﴾ [الزمر: ٧٣] ثم قرنت الآية الكريمة الجمع بالتفرق وأن الناس ما إن يجتمعوا حتى تفرقهم أعمالهم فيذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، وقرئ فريق بالرفع والنصب؟ أما النصب فعلى الحال، والكلام وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه متفرقين إلى الجنة وإلى النار، وأما الرفع فعلى أنه مبتدأ حذف خبره، والأصل منهم فريق ومنهم فريق، والضمير في منهم في الجملتين عائد على المجموعين. ويرى الطاهر أن ﴿فَرِيقٌ﴾ مبتدأ وفي الجنة خبر وكذلك ما بعده، وجوز التفصيلَ الابتداء بالنكرة كما قال امرؤ القيس

فأقبلتُ زَحْفًا على الركبتين فثوبٌ لَبِستُ وثوبٌ أجُر

ووجه الجمع بين الجمع والتفرق أن الجمع يعنى الجمع للحساب والتفرق يعنى بعد الحساب يذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، أو أنهم مجموعون مع هذا التفرق يعنى هم مجموعون وكل في دار قراره كما يقال الناس مجموعون يوم الجمعة وكل في مسجده قاله الزمخشري.

وراجع الجملة ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ وحاول أن تدرك شيئًا من سعة معناها لأنها من أملأ الكلام وأسخاه وكيف جمعت الخلق كلَّهم، وقضت بينهم، وساقت كلا إلى دار قراره في هذه الكلمات المعدودة، وكان عبد القاهر يقول إن الإعجاز راجع إلى أنك ترى كلمات نُسِقَتْ نَسْقًا خاصًا، ورُتِّبت ترتيبًا خاصًا فنتج منها من المعاني ما لا يدخل في مُنَنِ البشر، والمطلوب التوقف عند هذه الغزارة من المعاني. وكيف نسقت الكلمات؟ وكيف تدفقت منها هذه الغزارة.

ثم راجع الصلة الوثيقة بين هذه الآية وآية ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر. ١٥، ١٦] ويوم التلاق هو يوم الجمع، وإلقاء الروح: الوحى.

قوله سبحانه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨].

هذه الواو تعطف ما بعدها على قوله سبحانه ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ وهذا العطف يعنى اقتران ما دخلت عليه الواو بما عطفت عليه والذى دخَلت عليه معناه الإجمالى أن الله لم يشأ أن يجعلهم يعنى الفريقين أمة واحدة، ولو شاء لجعلهم؛ فما علاقة ذكر المشيئة المتعلقة بهذا الجعل بالفريقين؟

من أجل أن يتضح هذا نعود إلى ذكر الفريقين لنكشف بعض ما طوته جملته، ومجىء الكلام عن فريق الجنة وفريق السعير بعد ذكر الإنذار يعنى أن هنا حذوفًا كثيرة؛ لأن استقرار فريق فى الجنة وفريق فى السعير لم يكن عقب الإنذار مباشرة، وإنما هناك أحداث أخرى فبعد الإنذار أجاب داعى الله من أجاب، وعمل صالحًا، ثم مات ثم بعث ثم حشر ثم حوسب، ثم قضى فى أمره ثم سيق إلى الجنة؛ وهناك من عاند وأصرَّ على عناده ومات وهو كافر ثم بعث ثم حشر ثم كان فى الحشر ما كان ثم حوسب ثم سيق إلى النار.

فالذى دخل الجنة آمن وعمل صالحًا والذى دخل النار أصر على الكفر، وكل أخذ جزاءه ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] هذا هو مدلول جملة فريق فى الجنة، وتأتى جملة ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨] عقب هذا لتُحَدِّثَ عن أمر آخر وسر آخر من أسرار الألوهية وهو أن من دخل الجنة دخلها بمشيئته ومن دخل النار دخلها بمشيئته، فالذى آمن وعمل صالحًا إنما آمن بتوفيق الله له وهدايته له، ومن كفر إنما كفر بخذلان الله له ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] لأن الخلق خلقه والملك

ملكه و﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ ولا يقع فى ملكه إلا ما يريده والكل فى قبضته والكل تحت سلطانه ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ [النور: ٢١] وقد ذرأ لجهنم كثيرًا من الجن والإنس. وهذا هو سر الألوهية، وسر سلطانها، لا يخرج من قَبْضَته شىء، فالمهتدى اهتدى بهديه، والضال ضل بخذلانه، وإذا كان سيق إلى الجنة من سيق، وسيق إلى النار من سيق، وكل بعمله ﴿ ولا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ فإن هناك للألوهية سياجًا شاملاً لا يشذ منه شىء فهو الذى هيأ من سيق إلى الجنة ليساق إلى الجنة، وهو الذى هيأ من من سيق إلى النار ليساق إلى النار، ولا يصح لنا أن نَعْبدُ إلا مَنْ كان كذلك، وكان لا يُسأل عما يفعل. وكان لا يخرج عن سلطانه شىء، ولا يطيعُه أحد إلا بمشيئته، ولا يَعْصيه أحد إلا بإرادته وهذا معنى جليل جداً، وقد قلت إنه سرٌ من أسرار الألوهية، لأنه لا يستطيع أحد أن يتحدث عن الله بهذا الشأن إلا الله سبحانه، ولو كنا نتصور الألوهية تصورًا فلسفيًا لكان الوصول إلى هذا المعنى من أبعد المستحيلات.

وهذا السلطان المصيطر على كل إنسان فى اعتقاده وأقواله وأفعاله، ومصيره، لا يؤثر أى تأثير على حرية الإنسان فى اختياره، فى هداه وفى ضلاله، ولا يظلم ربك أحدًا، لأن الإنسان بمحض اختياره يختار الهدى، أو يختار الضلال، وأن من اختار الهدى ومد يده إلى الله مستهديًا، وجد يد الله تمده بالهدى، ومن اختار الضلالة إنما يختارها بمحض إرادته، فإذا تاب يومًا، ومد يده إلى الله وجد الله يمده بالهدى، وهذا هو الواقع والذى يتأسس عليه الثواب والعقاب، وتقتضى الألوهية وسلطانها وملكه لما فى السموات وما فى الأرض ألا يشذ شىء عن إرادته ومشيئته؛ وهذه الآية من جهة المعنى موصولة بقوله سبحانه ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ لأن مقتضى هذه الملكية وهذا العلو وهذه العظمة أن يكون الكل تحت سلطان مشيئته،

وراجع المعـانى وتتابعـها لأن فـيهـا أكثـر من الذى قلت ولا شك أن الآية مع صلتها القـوية بقوله ﴿لَهُ ما فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ هى موصولة بقوله ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعنى الذين اتخذوا من دونه أولياء والذين هم فريق فى السعـير، والذين هم لو شاء الله لجعلهـم أمة واحدة، والذين هم لم يشأ الله أن يدخلهـم فى رحمته، ولهـذا ترى مكونات السورة كأنهـا خلايا حيَّة متفاعلة ومتـآزرة ومتداخلة كل ذلك فى حيويَّة ظاهرة ، ثم إننا نلاحظ أن الكلام فيـها انتقل من أسلوب التكلم فى الآية قـبلها ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ إلى أسلوب الغـيبة فـى قوله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾، وهذا الانتـقال من العـلامات الأسلوبية الدالة على أن المعنى الذى حـدث فيه هذا الانتقـال يحتاج إلى شىء من اليقظة والمراجعة، وهذه الآية كما شرحتها: تتضمن أمرًا إلهيًا جليلاً، وهو أنه سبحـانه لا يطاع فى ملكه إلا بمشيئـته، ولا يعصى فى ملكه إلا بمشيـئته، وهذا لو تدبرته من أهيب أحوال جلال الألوهية، ثم إن هذا المعنى اقتضى لفظ الجلالة ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ لأنه هو الدال على كمـال الألوهية وكمـال المعانى فى أسماء الله الحـسنى، ولو قال لو شاء ربك لكان شيئًـا آخر. ثم إن لفظ الجلالة هنا يسـتصـحب لفظ الجلالة فى قـوله ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعنى يحـيطهم ويصونهم مع أنهم اتخذوا غـيره وليًا والحفيظ من معـانيه: أنه لو شاء هداهم، ولو شاء أضلّهم، لأنهم فى قبضته وحفظه وصونه.

والأمة الواحدة هنا هى الأمة المؤمنة، بدليل قوله ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ وبدليل قوله فى الآية التى معنا ﴿وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ ومفعول المشيئة محذوف دل عليـه مفعول فعل الشرط، والتقدير ولو شاء أن يجعلهم أمة واحدة، لجعلهم أمة واحدة، وهذا الحذف واجب ولا ترى عربيًا يقول لو شئـت أن أفعل لفعلت، وإنما يقـول ولو شئت لفـعلت وقوله سبحانه ﴿وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ هذا يقتضى أنه سبحانه لم يجعلهم

أمة واحدة مؤمنة أو كافرة لأنهم لو كانوا جميعًا مؤمنين لدخلوا جميعًا رحمته ولو كانوا كافرين لما دخل أحد رحمته، ولهذا كانت هذه الجملة مشيرة إلى محذوف هو مفهوم منطوق الجملة السابقة، يعني: ولكنه شاء أن يجعلهم مختلفين، وجملة ﴿من يشاء في رحمته﴾ دالة على جملة محذوفة مقابلة لها، وهي يدخل من يشاء في عقابه، وهذا تأكيد لمعنى لو شاء لجعلهم أمة واحدة ومادام لا يدخل الجنة إلا من شاء أن يدخلها، ولا يدخل النار إلا من شاء أن يدخلها، فليس في الوجود إلا مشيئته ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾ [الإنسان: ٣] ومادامت الرحمة رحمته، فإنه من المنطقي جداً أنه لا يدخلها أحد إلا بمشيئته؛ يعني الجملة فيها دليلها ثم إن فيها إشارة إلى أنه لا يدخل أحد الجنة بالاستحقاق؛ لأن الاستحقاق ينافي المشيئة، وإنما هو وعد الله لعباده ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا﴾ [الكهف: ١٠٧] وهؤلاء الذين يدخلهم الجنة بمشيئته هم فريق في الجنة والظالمون هم فريق السعير، والرحمة مجاز عن الجنة لأنها مقر الرحمة، وتعلق دخولها بالمشيئة ينفي دخولها بالعمل، ثم إن إطلاق الرحمة على الجنة في هذه الآية فيه معنى آخر هو أن عموم معنى الرحمة وأنها في لفظ الآية لم تُقَيَّد بالجنة مؤذن بدخول الرحمة في الدنيا وأن المؤمنين الموقنين الطيبين الصالحين يعيشون في الدنيا مطمئنين سعداء كرماء كأنهم في رحمة وكأن جنة الآخرة مدت يدها إليهم وهم في الدنيا وكأنهم يجدون ريحها كما قال النضر لمعاذ يوم أحد إني لأجد ريح الجنة في أحد.

وقوله سبحانه ﴿والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير﴾ هم فريق السعير ولو راجعت آية ﴿ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته﴾ لرأيتها مؤكدة لقوله ﴿وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ وموضحة لها لأن افتراقهم إلى فرقتين وأن واحدة في الجنة وواحدة

فى السعير محتاج إلى معرفة علته فجاء قوله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ لبيان أنهم صاروا فريقين وجاء ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ ليبين علة دخول فريق الجنة الجنة.

ويلاحظ أن قوله ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ فيه عدول عن ما كان يتوقع من مقابلة ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ بمثل ويدخل من يشاء فى عقابه أو عذابه ولكن هناك فرقا بين دخول الرحمة ودخول العقاب فإذا كانت الرحمة بمحض فضله ومحض وعده فإن العقاب أليم وشديد ومن لطفه وعدله أنه يرحم بلا استحقاق ولا يعذب إلا باستحقاق، وهذا وعده الذى لا يخلفه ولو عذب المطيع وأثاب العاصى ما سُئل لأنه ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وإنما يسأل فقط ليعطى من خزائن فضله ولهذا عدل هنا إلى ما نرى فبدأ بقوله ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ وهم فريق السعير والظلم هنا معناه الشرك ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وإنما أطلق الظلم على الشرك تبشيعًا للظلم فى كل صوره ثم لبيان معنى أن المشرك ظالم لنفسه ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦] وبداية الجملة ﴿الظَّالِمُونَ﴾ تعنى أنهم هم الذين صاروا بأنفسهم إلى ما صاروا إليه وقوله ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ وإن كان ظاهره أنه ينفى عنهم الولى والنصير فإن الذى وراء ذلك أنهم فى كرب وفى حال من يحتاج إلى ولى ونصير، وكأن العذاب الذى تقصد الآية الإبانة عنه مضمر منطو مغمض. لأن الله يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وأنه ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] وأن الأولى هو نبذ الظلم المفضى بكم إلى العذاب. وتركيب جملة الخبر فيه تقديم النفى على الخبر الجار والمجرور المقدم وهو مفيد للاختصاص كقوله تعالى: ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧] لأن نفى الولى والنصير مقصور على الظالمين بخلاف أهل الإيمان فالله وليهم وناصرهم، ودخول من الزائدة على

المبتدأ تفيد توكيد الاستقصاء، وأنه لا ولى لهم البتة، وعلى حدها قوله تعالى ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧] ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣] وهذا التركيب كثير جداً فى الكتاب العزيز ومن مقامات هذه المعانى ومثله فى الكثرة ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الشورى: ٣١]، ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٦]، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر. ٤٨].

قوله سبحانه ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هذه الآية أخت الآية التى سبقت ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ والمعنى الأصلى واحد وهو رفض وتجهيل اتخاذ ولى من دون الله، ومع الاتفاق فى هذا الأصل تجد فروقًا كلما تأملت دقائقها وجدت تباعدًا بين الكلامين وقبل بيان ذلك أشير إلى شىء اتفقتا فيه فى الموقع وهو مجىء كل بعد تجليات القدرة، وسطوع دلائل السلطان، وقد بينا ذلك فى الأولى وقلنا إنها تفيد أن الباطل يقتحم على الناس من غير منطق، ومن غير أن يكون هناك ما يبرره، وهذا يقال أيضًا هنا ويؤكد هذه الفكرة وأن الباطل ليس فى حاجة إلى تبرير، كالباطل الذى حولى وحولك، ووجه وجود ذلك فى هذه الآية هو أنها جاءت بعد آية من آيات عز الألوهية وهى قوله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾، وتأملها لتدرك أبرز مَعْنَاهَا وهى أن الكل فى قبضته، وقلوب الكل بين أصبعين من أصابعه، والمعانى التى تتكرر فى مقامات متشابهة واقترانات متشابهة فى حاجة إلى أن تستخرج وتدرس.

وأول ما تفترق فيه الآيتان هو أن الأولى بنيت على اسم الموصول الدال على أن هناك من عرفوا بذلك وشُهِروا به، وليس هذا موجودًا هنا وإنما بنيت هذه الآية على الاستفهام الإنكارى المدلول عليه بكلمة أم التى هى بمعنى بل والهمزة، والإضراب الذى فى كل إضراب انتقالى يعنى يفيد أن الكلام انتقل.

وهذه الإفادة جليلة هنا لأن الانتقال كان من آيات تجليات الألوهية، إلى إنكار هذه التجليات، واتخاذ أولياء من دون الولى الذى ليس للناس ولى سواه، وفى هذا الإنكار شوب من التوبيخ لأنه إنكار فعل وقع، وما كان ينبغى أن يقع، مثل ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ﴾ [الكهف: ٣٧] وكأنه إنكار بدليل؛ لأن معنى وما كان ينبغى أن يقع هو الدليل. وهذا وجه ظاهر للفرق بين الآيتين فعمود المعنى هناك هو الإخبار بأن جماعة معلومة اتخذت من دونه أولياء، والله حفيظ عليهم، وعمود المعنى هنا هو الإضراب الانتقالى المشعر بأهمية ما ينتقل إليه الكلام، ثم دمج معنى الإنكار التوبيخى فى الإضراب الانتقالى والدلالة عليهما معًا بحرف واحد هو «أم» ثم بعد إنكار اتخاذ الأولياء من دون الله يتجه الكلام لبيان الولى الحق، ويقرن الجملة بالفاء، ويقول سبحانه ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾، فيفيد قصر الولاية على الله، بتعريف الطرفين، وتوسط ضمير الفصل بينهما، وتومىءُ الفاء إلى شرط محذوف وهذا الشرط المحذوف فيه شوب من الإهمال لهم، لأن التقدير إن أرادوا وليا فالله هو الولى، مع أن ولاية الله لخلقه لا تتعلق بشرط، إلا عند من أهملوا أنفسهم، ولم ينصفوها بالنظر والاستدلال، ثم إن الآية أردفت قصر الولاية على الله سبحانه بدليلها، وهى قوله سبحانه ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ وإحياء الموتى ليس فعلاً يتعدد فاعله لأنه لا يكون إلا من الحى القادر، الذى خلق الموتى قبل أن يميتهم وتقديم الضمير على الفعل ﴿يُحْيِي﴾ للاختصاص مع أن مادة الفعل تفيد الاختصاص. لأن الإحياء لا يكون إلا منه، ثم أردف ذلك بقوله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وأعاد الضمير مرة ثانية لتأكيد إسناد هذه الأفعال إلى الذى لا يمكن أن تسند إلى غيره، وتقديم الجار والمجرور فى قوله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ دلالة جليلة لأن قدرته سبحانه لا تحدها الأشياء، ولا تحد بالأشياء، وإنما هو قادر على كل شىء كان، أو سيكون، أو هو كائن، ثم إن مجىء هاتين الجملتين ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بعد التى قبلهما

﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ ظاهر الدلالة على أن الولاية لا تكون إلا لمن وصف بهاتين الصفتين، إحياء الموتى والقدرة على كل شيء، ومن اتصف بهما استحق أن يُعْبد، وأن يتخذ وليا، وهذه الدلالة عود عليهم بالتجهيل، والضلال، لأنهم لم يتخذوا وليا، وإنما اتخذوا أولياء، وهذه الصفات المبرِّرة للولاية غير قابلة لأن توجد فى اثنين فضلاً عن جمع أولياء.

وبهذا يظهر الفرق الواسع بين هذه الآية وأختها التى قبلها، ولا شك أن الإنكار والغضب الذى يوجد فى هذه الآية أكثر مما يوجد فى أختها التى سبقتها مرجعه إلى أن هذه ذكرت بعد الإنذار ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ وكان ذكر إحياء الموتى مناسبًا ليوم الجمع ومؤكدًا ضلال منكره، ومواقع المعانى بعضها من بعض واقتران بعضها ببعض وما نسميه السياق كل ذلك له المدخل الأساسى فى اصطفاء المعانى واصطفاء صياغتها.

ولو راجعت الآية مرة ثانية لوجدت غضبًا خفياً وراء الفاء التى فى قوله سبحانه ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ لأنها دالة على محذوف؛ هذا المحذوف هو جملتا الشرط والجزاء لأننا حين نقول إن جملة ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ جواب الشرط نسامح كثيرًا لأن ولاية الله لا تتقيد بشرط، فهو الولى أرادوا أن يتخذوا وليا أو لم يريدوا، ولو وقفنا مرة ثانية فسنجد أن هذا الشرط والجواب المحذوف وراءه حذف آخر، لأنك لو قلت أم اتخذوا من دونه أولياء فإن أرادوا ولياً فليتخذوا الله فهو الولى لوجدت فجوة بين من دونه أولياء فإن أرادوا لأن هذا لا يستقيم إلا إذا قدرنا فقد أخطأوا أو فقد ضلوا وكل هذا الحذف فيه إشارة إلى المبادرة بالصواب وهو أن الله هو الولى وتَخَطِّى أحداث الباطل التى مارسوها لما اتخذوا من دونه أولياء، هذا والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

هذه الواو تعطف معنى على معنى. والكلام بعـدها كلام جديد، وهو آخذ بحجزة ما قبله، وكـأنه من تمامه، وهذا غريب ولكنه هو الواقع، وبيان ذلك، أن هذه الآية خطاب من رسول ﷺ لأمته بأمـر ربه، ولذلك يقدر العلماء قبله كلمـة «قل» وتقدير هذه الكلمـة غـير عـزيز فى الكتاب العـزيز، ثم إن الآية تختلف عمـا قبلها من جهة أخـرى وهى أنها فى علاقة المسلمـين بعضهم مع بعض. أو فى علاقتهم بأصحاب الديانات الأخـرى، وما قبلها كان فى علاقة الناس برب الناس. وما فى قوله ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ موصولة وهى مبتدأ وقوله ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ خبر ومجىء الفاء فى خبر الموصول أيضًا غير عزيز فى الكتـاب، وهذه الجملة حكم بدليل والدليـل هو لفظ الجلالة لأن رد الاختلاف إلى الموصوف بالكمالات المطلقـة المدلول عليه بلفظ الجلالة لا يجوز لأحد أن ينازع فيه، ولا يتصور أن يرد الخلاف إلى غيره، ويكون هذا الرد إلى هذا الغيـر أولى. وهذه الجملة هى رأس هذه الآية، ومـا بعدها من توابعـها، وراجع لتدرك ذلك، وبيـان أن هذه الآية ممسكة بما قبلها هو أن قوله سـبحانه هناك ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ هو القـاعدة النظرية لهـذه الآية التى تشبـه أن تكون مفردة من مـفردات تطبق أنه ﴿هُوَ الْوَلِيُّ﴾ لأن من أظهر شؤون الولى أن يُرَدَّ الخلافُ إليه، وبهذا تكون هذه الآية امتدادا لما قبلها مع أنها تغايرها فيما قلناه، وقلنا إنه من العجيب أن ترى الكلام غـير الكلام، ثم تراه هو الكلام، وكلمة ﴿مِن شَيْءٍ﴾ كان يمكن أن يقال ومـا اختلفتم فيه فـحكمه إلى الله وإنما جىء بها للدلالة على الاستقصاء فـيما يقع الخلاف فيه، فى أى شىء وفى أى باب ولذلك احتملت معانى كثيرة واختلف معنى الحكم إلى الله تبعًا لاختلاف هذه المعانى. فإذا كـان الاختلاف فى العقائد أو الفـروع والأحكام فالحكم إلى الله يعنى الرد بالمتـشابه إلى المحكم من كـلام الله، وكلام رسـوله ﷺ، وإن كان المختلف فيـه مما لا يدخل فى علمنا كالروح فالرد إلى الله ردٌّ لِـمَـا لاَ نعلمه،

إلى الذى يعلمه ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] وإذا كان الذى فيه الاختلاف بيننا وبين أصحاب الديانات الأخرى فالحكم إلى الله رد إلى قضائه بيننا وبينهم يوم القيامة، وهكذا تجد تنوع المعانى المحتملة فى كلمة شىء، يُفرغ على كلمة حكم ويُلَوِّنها بألوانه، وهذا من عجيب البيان، وقبل أن أنتقل إلى ما بعدها أشير إلى قوة صلتها بقوله سبحانه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ لأن من يملك العالمين وهو ربهم يجب رَدُّ الاختلاف إليه، وكذلك لو أردت بيان ارتباطهما بقوله سبحانه ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ لوجدت الربط واضحًا لأن القرآن هو الذى يرد إليه فى اختلاف الأصول والفروع، وهو الذى يُرَدُّ إليه فى علم ما لا نعلم وهو الذى يرد إليه فيما بيننا وبين غيرنا، وأكتفى بهذا وأنتقل إلى تلك الجملة العظيمة التى جاءت بعدها وقد قطع صلوات الله وسلامه عليه الكلام واستأنف عندها وقال ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى﴾ لأن الرد إليه من لوازم العبودية له سبحانه وهذه الجملة من أكرم الجمل، لأنها تنبئنا بجلال الله فى قلب رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وليس أفضل فى المعرفة من أن نعرف كيف كان جلال الحق وتقديسه فى قلب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، وقد أنزل كتابه على قلبه صلوات الله وسلامه عليه وكيف كان وَجَلُ هذا القلب؟ وكيف كان يجد الله فى نفسه؟ وهذه الجملة، من مفاتيح هذا المعنى الأكرم، قلت إنها بُنيت على القطع والاستئناف، لأن ما قبلها يبعث فى النفس معنى يُقطع الكلام له ليستأنف بيان هذا المعنى. واسم الإشارة عائد إلى لفظ الجلالة الموصوف بأنه يحكم فى الاختلاف والموصوف بأنه هو الولى وهو يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير، واسم الإشارة يستحضر هذا كله ولفظ الجلالة الواقع خبرًا فى هذه الجملة يفيد معنى إن الذى يحكم هو الله والولى هو الله والذى يحيى الموتى هو الله والمهم مخرج هذا من نفس قائله، وصدور معناه من هذه النفس، ثم يأتى لفظ ﴿رَبِّى﴾ لينتقل الكلام من جلال الألوهية إلى مراتب العطاء

والإكرام، والرحـمة، والبـر، فهو الذى وجـدك يتيمًـا فآوى ووجـدك عائلاً فأغنى، ووجدك ضالاً فهدى، وهو الذى أخرجك من العدم، وهو الذى أنشأ لكم السمع، والأبصار، والأفئـدة، فإذا كانت كلمة ﴿اللَّهُ﴾ ستحـضر جلال الألوهية. فـإن كلمة ﴿رَبِّي﴾ ستـحضر جـلال النعم، ولا يزيغ عن ذلك إلا هالك. وقوله ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ هو صـميم قـوله ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ لأن توكلت معناه وكلت الأمر إليه ورجعت به إليه وتوكل تفعَّل وهى صيغة مبالغة للإشارة إلى عمق مـعنى التوكل فإذا قلت توكلت على الله أفادت الصـيغة أن التوكل صادر عن وفرة نشاط، وقـوة اعتقاد، وقوله ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ حدث فيه اختلاف وهو أن فعل أنيب جاء مـضارعًا من غير زيادة المبنى الذى فى توكلت وأصله وكلت كمـا تقول وكلت أمره إلى الله، وذلك لأن الإنابة فعـل يتجدد بخلاف التـوكل فهـو عزيمة اسـتقـرت وثبت عليها القـلب، واطمأن، ثم لا أحتاج إلى أن أنبه إلى أن قوله ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ هو من صميم قوله ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ لأن الاحتكام إلى الله من الإنابة إليه هذا والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الربط الشديد بين هذه الآية وما قبلها تراه من كل جهـة فلو نظرت إلى فاصلة ما قبلها ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ وجدت ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ بيانًا لأنه سـبحانه حقـيق بالتوكل عليه والإنابة إليه. وإذا تَخَطَّيْتَ الـفاصلة إلى ما قبلها وجدت قـوة العلاقة بين ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ﴾ والاحتكام فيما اختلفوا فيه إلى الله، ولا يُرَدُّ الخلاف لأحد كما يرد إلى الخالق المصور، وإذا رجعت إلى الوراء أكثر وجدت الأخذ بالحجزة بين ﴿فَاطِرُ السـمَوَاتِ﴾ و﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ ﴿هُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا التلاحم عجيب وهو فى كل موضع من الكتاب، وكانت هذه الروابط وكان تنوعـها مما لفت إليه علمـاؤنا وإن كانوا لم يعبِّروا عنه كـما

نعبر نحن، وإنما كانوا يكتفون بالإشارة إلى العلاقات الإعرابية، فهم يقولون فى الآية إن قوله سبحانه ﴿**فاطِرُ السَّموَاتِ والأَرْضِ**﴾ خبر ثان لقوله تعالى ﴿**وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شىءٍ قَدِيرٌ**﴾ وما بينهما اعتراض. يعنى أن أصل الكلام أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هوَ الولى وهو يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير فاطر السموات والأرض ثم دخل بينهما قوله سبحانه ﴿**وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ**﴾ لشدة العناية بمعناه ولقوة دلالته على التسليم بحكمه والإذعان لأمره ونهيه وهذا جيد، وقالوا هو خبر ثان لقوله سبحانه ﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى**﴾ وأصل الكلام ذلكم الله ربى فاطر السموات والأرض وقوله ﴿**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ يأتى بعد قوله ﴿**وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ وكل هذه احتمالات يحتملها بناء الكلام وعمود هيأته وعلاقاته، ووراء كل من الأسرار ما وراءه. وقالوا هو خبر لمبتدأ محذوف والتقدير هو فاطر السموات والأرض وهذا لم يَلج مسألة إعادة تشكيل بناء الآيات على وجوه تتحملها؛ لإدراك السِّر الذى جاء بناؤها عليه، وهو أسهل الوجوه وأقربها.

وقد قرئ ﴿**فاطِرِ**﴾ بالجر وقال الزمخشرى والجر على ﴿**فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ**﴾ ﴿**فَاطِرِ السموات**﴾، ﴿**ذَلِكُمُ**﴾ إلى قوله ﴿**أُنِيبُ**﴾ اعتراض بين الصِّفة والموصوف وقد رأينا أن الإعراب بيان لمعاقد الخيوط التى يُنسج منها البيان وأننا غسلناه من ذلك، وطردناه من ساحة التحليل، والتذوق، ونسينا أنه بحث فى أدق المناحى التى منها تتفق المعانى وتختلف وإزاحة الإعراب عن مقامه فى التحليل إزاحة ظالمة؛ ضيعت علينا كثيراً من الفوائد.

وكلمة فاطر نُفَسِّرها بخالق، وهذا التفسير فيه قدر كبير من التسامح، وقد جاء الفعلان فى الكتاب العزيز مرة ﴿**فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾، ومرة ﴿**خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾، ولا ريب أنهما ليسا سواء وأن مقام ذكر فاطر لا تصلح فيه خالق، والعكس فما الفرق بينهما؟ ولهذا نظائر كثيرة جداً فى اللغة نُفَسِّرُ الشك بالريب،

والريب بالشك، ونفسر الإفك بالكذب، والكذب بالإفك، مع أن كل كلمة من هذه لها مقام، وإدراك الفروق كما قلت صَعْب وقد أشار الخطابى إلى هذا، وعدّ إدراك الفروق بين الكلمات المتشابهة، ووضع كل كلمة موضعها الأخص الأشكل، عمود البلاغة، وأنه كان يخفى بعضه على أصحاب اللغة، والعربية فى حاجة إلى أن تخدم من هذا الجانب، وأن علماء اللغة عليهم بأن يراجعوا هذه الكلمات فى الشعر وفى الكتاب ويَسْتَخْلِصَوا الفروق، وهذا جيد جداً لو فعلوه.

والمهم أن قصارى ما عندى هو أن فاطرا تختلف عن خالق من جهة أن معنى الظهور فى فاطر أظهر، فإذ كان الإنشاء أساس المعنى وأصله فيهما، فإن الظهور فى فاطر أبين، ولذلك يقولون فطر ناب البعير، إذا طلع وظهر، وفطرتُ البئر شَقَقْتَهُا، وأظهرتها، وفاطر السموات والأرض أظهرهما من العدم، وتفطرت السموات تشققت حتى ظهرت شقوقها، قال أبو هلال فى الفروق اللغوية «الفطر إظهار الحادث بإخراجه من العدم إلى الوجود كأنه شق منه فظهر» وقال ابن فارس «الفطر فتح الشيء وإبرازه».

وهذا يلاحظ في الفرق بين ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] وأن الظهور في الانفطار والصدع فى الانشقاق وكلمة ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ متناسبة مع ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الشورى: ١١] لأنه حديث عن النشأة وعن أول ظهور الجنس من الإنسان والأنعام.

وقوله سبحانه ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ جاء مفصولاً عما قبله، لأنه جزء من فاطر السموات والأرض. والأول دال على عموم القدرة الموجب للإذعان لوحيه، واتخاذه وليا، والثانى حديث عن النعمة المباشرة للإنسان الذى خلقه ربه، وآنسه بالصاحبة، والولد، وذرأ له الأنعام، يشرب ألبانها، ويأكل لحومها، وتحمل أثقاله، ويبلغ عليها

حاجـاته، فكيف يَتَّـخِذُ من دونه وليـا وكيف يدير ظهـره إلى وحيـه. الذى أوحاه إلى رسله؟

وآثر هنا كلمة ﴿جَعَلَ﴾ فى قوله ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجا﴾ على كلمة خلق التى جاءت فى آيات أخـرى مثل قوله فى أول النساء ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهـا﴾ [النسـاء: ١] لأن الجـعل فيـه مـعنى ليس فى الخلق، لأن مـعناه التصيير كقول النحاة جعلت الطين إبريقًا وفى هذا إشارة إلى أن شيئًا ما جعل الله منه زوجًا، والزوج ما يكون به الفـرد زوجًا فالمرأة والرجل زوج، وراجع أول الأنعام لتدرك الـفرق بين الخلق والجعل. قال سـبحانه ﴿الْحَمْدُ لِلَّه الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّور﴾ [الأنعام: ١] جـاء الخلق مع السمـوات والجعل مع الظلمات والنور، لأن الظلمـات والنور كانا من خلق السموات والأرض. وحركة الأفلاك، فناسـبه الجعل. وأعرب بعضهم ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجا﴾ خبرا آخر لقوله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وأعربها الظاهر حالاً من فـاطر السمـوات والأرض أى فاطر السمـوات والأرض حال كونه جعل لكم من أنفسكم أزواجًا.

ومـعنى من أنفـسكم يـعنى من جنسكم ليكـون آنس لنا، وأقـرب إلى المودة والرحـمة. وأنفـسكم هنا أخت أنفـسكم التى فى قـوله تعـالى ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ والتى فى قوله ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ والخطاب للناس كافة مؤمن وكافر، وكأن كل واحد من الناس هو نفسى وأنا نفسه وزوجتى نفسى وأنا نفسها.

وهذه معانى جليلة فى باب الرحمة، والمودة، والتعاطف الإنسانى. وتقديم الجار والمجـرور فى قوله ﴿لَكُم﴾ للمبادرة بأن هذا الجـعل لنا، ولمزيد التنبيه إلى النعمـة، ولو قلت جعل من أنفـسكم أزواجًا لكم لتغـير الكلام. وذهب شطر المعنى. وتأمل شطرى الكلام قال ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ وقابل ذلك بقوله ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجا﴾ ولم يقل ومن أنفس الأنعـام أزواجًا لأن

كلمة من أنفسكم توجب التراحم، والتـواصل. والتآلف، والمحبة، والأنسة، وكل ذلك من أسرة الإنسان وهو المراد. ومعنى ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ﴾ يُكَثِّركُم فيه أى فى هذا الجعل فهذا الجعـل يعنى وجود الزوجين ظرف لهذا التكاثر، وهذا هو الفـرق بين الآية وبين قـولنا يذرؤكم به والضـميـر المفـعول به فى قـوله ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فِيـهِ ﴾ للإنسان والأنـعام وقد غُلِّب فـيه العـاقل على غيـر العاقل والمخاطب على الغائب، وتجد الاضطراد بين تتابع أجـيال الناس وتتابع أجيال الأنعام وأن هذا من ضرورات حياة الإنسان.

وقد جاء هذا المعنى فى أول سورة النساء بلفظ آخـر، قال سبحانه ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وبثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً ونِسَاءً ﴾ [النساء: ١] ضع قوله «وبث منهمـا رجالاً كثيـراً ونساء» بإزاء ﴿ يَذْرَؤُكُمْ فيه ﴾ تجد التقـارب الشديد مع الاختلاف الشـديد أيضًا لأنه راجع إلى المقـام والسياق فـسورة النسـاء سورة الأرحـام والتواصل بين الـقرابات ولذلك قال خلقكم من نفس واحدة فَـشَدَّ الكل إلى الكل. قال ﴿وخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ فذكر خـلق الزوج منها ولم يجعله جعـلا ثم قال ﴿ وبثَّ ﴾ والبث التفريق يقال بث الخبر يبثـه ويبثه بالضم والكسر وهذا البث الذى هو التفريق يوجب التنبـيه إلى التـراحم ولذلك جاء بـعده ﴿ وَاتَّقُـوا اللَّهَ الَّذي تَسَـاءَلُون بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾ [النساء: ١]، وهذا هو الاختلاف الظاهر مع الإئتلاف الظاهر.

قوله سبـحانه ﴿ لَيْس كَمِثْلِه شَيْءٌ ﴾، هذه الجملة أشمـل وأكمل ما يجب أن نعتقده فى ذات الله وأن ما يخطر على بالك فالله بخلاف ذلك، واحذر أن تحيد عن هذا وإذا كنا أمرنا أن نعبد الله كأننا نراه فالواجب إذا رزقنا حالة عبادته كأننا نراه أن يكون بين أعيننا ﴿ لَيْس كَمِثْلِه شَيْءٌ ﴾ وإنما فقط كأننا نراه ولم ير الله أحد ولا ملائكته الحـافين حول العرش ومن زعم أن محمـدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ولما قال موسى عليه السلام ﴿ربِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]

قال له ربه ﴿لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وهذه الجملة من أكثر كلام الله شيوعًا على ألسنة خلقه وهذا سر من أسرار الكتاب العزيز لأنها تكف النفوس عن أن تخطر فيها خطرات التشبيه وقد قرَّبها أهل العلم إلى النفوس بقولهم عن الله سبحانه مخالف للحوادث ومن أسماء الله الحسنى ما يشترك فيه الخلق والخالق مثل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير فكانت جملة مخالفته للحوادث تضع حداً فاصلا بين ما هو للخالق وما هو للخلق.

وقد كثر كلام المفسرين فى تحليل الآية لأن دخول الكاف على كلمة «مثل» فتح أبوابا من التأويل فقالوا هذه الكاف زائدة لتأكيد نفى المثل لأن قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ آكد من قولنا ليس مثله شيء لأن دخول الكاف على مثل فى الإثبات آكد للإثبات فإذا دخل عليها النفى كان تأكيد الإثبات تأكيدا للنفى قال الطاهر: ومعنى ليس كمثله شيء ليس مثله شيء فأقحمت كاف التشبيه على مثل وهى بمعناها.. فتعيَّن أن الكاف مفيدة تأكيدًا لمعنى المثل.. وإذ قد كان المثل واقعًا فى حيز النفى فالكاف تأكيد لنفيه فكأنه نفى المثل عنه تعالى بجملتين. انتهى كلام الطاهر مختصرا. ومعنى كأنه نفى المثل عنه تعالى بجملتين أن الحرف الزائد فى الجملة يفيد التوكيد ويجعل الجملة بمثابة جملتين وقال الزمخشرى. «لم يقع فرق بين ليس كالله شيء وليس كمثله شيء إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها، وكأنهما عبارتان معتقبتان على معنى واحد، وهو نفى المماثلة عن ذاته»، انتهى كلام الزمخشرى. ومعناه أن كلمة ليس كمثله شيء كناية عن ليس كالله شيء وأن كلمة «مثل» فى كلامهم تقع كناية عن ما أضيفت إليه فإذا قلنا مثلك لا يبخل كان المعنى أنت لا تبخل. وإذا قلت مثلى لا يقول هذا كنت تريد أنا لا أقول هذا، والفرق هو أن العبارة بمثل تفيد المعنى عن طريق الكناية، لأنه ما دام مثله لا يبخل فهو بالقطع لا يبخل وهذا هو مراد الزمخشرى بقوله إلا ما تعطيه الكناية به من فائدتها.

ويكفى هذا وفى الآية كلام كثير وقد وسع فيها الشيخ عبد الله دراز فى كتابه النبأ العظيم. وألْـمَمْتُ بكثير مما كُتب فيها فى كتابى التصوير البيانى.

وظاهر أن الآية تنفى الجوارح والأعضاء وكل ما هو من صفات خلقه عنه سبحانه وأن ما جاء فى الكتاب من إثبات اليد والوجه والعين لله سبحانه لا يراد به المعنى الموضوع له فى لسان العرب، وهذا لا خلاف فيه، والفرق بين الخلف والسلف بعد هذا الاتفاق: هو أن السلف ينفون اليد بمعنى الجارحة ويثبتون لله ما أثبته لنفسه من يد ووجه وعين إلى آخره ويفوضون علمها إليه سبحانه والخلف بعد اتفاقهم مع السلف على نفى معانيها المتعارفة فى لسان العرب يذهبون إلى إثبات معان مجازية لهذه الكلمات معتمدين على ورودها مجازا عن هذه المعانى فى لسان العرب.

قال الطاهر. «هذه الآية أصل فى تنزيه الله تعالى عن الجوارح والحواس والأعضاء عند أهل التأويل. والذين أثبتوا لله تعالى ما ورد فى القرآن مما نسميه بالمتشابه فإنما أثبتوه مع التنزيه عن ظاهره، إذ لا خلاف فى إعمال قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وأنه لا شبيه له ولا نظير له.

وإذا قد اتفقنا على هذا الأصل لم يبق خلاف فى تأويل النصوص الموهمة التشبيه إلا أن تأويل سلفنا كان تأويلا جمليا وتأويل خلفهم كان تأويلا تفصيليا كتأويلهم اليد بالقدرة والعين بالعلم، وبسط اليد بالجود، والوجه بالذات... ولهذا قالوا طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم». انتهى كلام الطاهر، وهو كلام جيد فى تحديد موطن الخلاف وتضييق حدود الخلاف وقد وسعها رجال منا فى القديم والحديث ولا شك فى أن الكل يقصد إلى التنزيه والله أعلم.

وكل الذى قلته فى الآية ملخص من كلام العلماء وبقى شىء لم أجد فيه ما يشفى الغليل وهو سر موقع هذه الآية فى هذا الموضع، وفى هذه السورة ولماذا ذكرت هنا؟

ذكر بعضهم إنها جاءت بعد ذكـر نعمة الأزواج والذرء وأنه سبحانه هو الذى منح هذه النعم وأنه مـالك لهـا وغنى عنها وليـس كمـثله شيء وهذا يجب أن يكون عاصما لكم عن ادعاء اتخاذه ولدا سـبحانه وهي كلمة الكفر التى قالوا إن قوله سبحانه ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ من فَوْقِهِنَّ﴾ إنما كان بسببها، وهذا القول تَلَمّس علةَ بعيده، وقال الطاهر: «موقع هذه الجملة كالنتيجة للدليل فإنه لما قدم ما هو نعم عظيـمة تبين أن الله لا يمـاثله شيء من الأشياء في تدبيره وإنعـامه» انتهى كلامه وهذا غير مقنع لأن كـثيراً من آيات الله تحدثت عن نعم الله بأكثر مما تحدثت به هذه الآيات ولو كان الحـديث عن كثرة النعم موجـبا لذكرها لكان غيـر هـذا الموقـع أولى بـها، وقـد راجـعـت سـياق الآيـة لأتعرف على سـر وقوعها هنا وهذا من أهم شواغل هذه الدراسـة، لأن علماءنا أشبعوا الكلام فى تحليل الآيات واكتفوا بالإشارات إلى بيان أسرار مواقعها، والقرآن كله فى حاجة إلى دراسة هذا الباب وهذه الدراسة من أصـعب ألوان النظر فى الكتاب العزيز، وقد قلت ذلـك وأكرره ولا أزعم أننى أقع على حـاق السر فى كل مـا أتعرض إليه، ولكننى أجتهد ولا آلو، وقـصارى ما وصلت إليه فى هذه الآية أن السورة من أولها حديث مَـحْضٌ عن الوحى وكل مظاهر القدرة والنعمـة إنما هى تأكيد لجلال الوحى. وكل ما تقدم عن الله إنمـا هو حديث عن صفاته، وآثاره ودلائل سلطانه، وكان لابـد لجملة جامـعة تحدثنا عن ذاته سـبحانه ونحـن بصدد تلقى الوحى لأن الوحى هو معرفة الدين وأول ما يعرف فى الدين هو الله، وصفاته، وهذا من أوائل إنذار أم القرى ومن حولها والواجب أن يعـرف مَنْ يتوجَّهُ إليهم وحىَ الله أن الله ليس كمثله شيء ولذلك لم تأت هذه الآية إلا فى هذه السورة الخالصة والمتمحضة للوحى. والتى تحكى أوائل هذا الوحى مبتدئة بأنه ليس أمرا غريبًـا ولا منفردا وإنما هو وحى كوحى الله للذين من قـبلك، ثم بين ذلك بأنه قرآن عربى لـينذر أم القرى ومن حولها، وتنذر يوم الجـمع وأن أمور الناس فى الضلال والهدى بيد الله، ولو شاء لجـعلهم أمة واحدة وانجر الكلام فى هذا إلى

أن جاءت اللحظة التى يجب أن يعرفوا فيهـا هذه الحقيقة الأزلية، وأن الله الذى هذا وحيه وهذا أمره وهذه قـدرته وهذا سلطانه ليس كمثله شيء، وأن هذا من أوائل مـا يجب أن يعلم من الـدين، ومن أوائل مـا يجب أن يكون فى ابتـداء الوحي، وأنه أَوْحَى إليك وإلـى الذين من قـبلك ومع صـرف النظر عن تاريخ نزول السورة ومـا سبقت به لأن حديثـها وسياقـها إن لم يكن من أوائل الوحى فهو يحكى هذه الأوائل. هذا والله أعلم.

وقوله سبحانه ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فاصلة مذهلة ومثيرة، لأنها تختم قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ بما يفيد عكسه، لأن السمع والبصـر والسميع والبصير من صفات المخلوقـين ثم إن هذه الجملة المثيرة واقعـة حالا من جملة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ يعنى هى من تمام معناها، وإنما جاءت كذلك لتنبه من يتلقى الوحى عن الله وعن رسول الله ﷺ أن ثمة فرقـا بين الذات والصفات أما الذات فكل ما يخطر علـى بالك فالله بخلاف ذلك وأمـا الصفات فـإن الله خلق آدم على صورته، وقد منحه مما عنده فـمنحه السمع من أنه سبحانه سمـيع ومنحه البصر من أنه سـبحـانه بصيـر، ومنحه العلم، من أنـه عليم، ومنحه الحكمـة من أنه حكيم، وهكذا تجد صفات الله سبحـانه تفيض على خلقه البر منهم والفاجر، إن يمسسك بخير فلا راد لفضله وما يمسك فلا مرسل له من بعده.

وإذا كان الخلق يشاركون خالقهم فى هذه الصفات فإنها فى الخالق كمالات مطلقة وفى المخلوق على حدود ما ترى.

قال الرازى: «إما أن يكون المراد ليس كمثله شيء فى ماهيات الذات أو أن يكون المراد ليس كمثله شيء فى الصفات، والثـانى باطل لأن العباد يوصفون بكونهم عالمين، قادرين، كما أن اللـه تعالى يوصف بذلك، وكذلك يوصفون بكونهم معلومين، مذكورين، مع أن الله تعالى يوصف بذلك، فثبت أن المراد بالمماثلة المساواة فى حقيقة الذات» انتهى كلام الرازى.

وقال الطاهر. الآية نفت أن يكون شيء من الموجودات مماثلاً لله تعالى فى صفات ذاته لأن ذات الله تعالى لا يماثلها ذوات المخلوقات، ويلزم من ذلك أن كل ما ثبت للمخلوقات فى محسوس ذواتها فهو منتف عن ذات الله تعالى.

قوله سبحانه: ﴿**لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾.

المقاليد جمع إقليد على غير قياس أو جمع مقلاد وهو المفتاح ومقاليد السموات والأرض يعنى أن فى السموات والأرض كنوزا وأن مفاتيحها فى يد الله يعطى من خزائنها ما يشاء لمن يشاء، وما دامت مقاليد خزائنها فى يده فهو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وبسط الرزق وتقديره المتعلق بمشيئته راجع إلى علمه بكل شيء، وأن البسط لهذا يصلحه والقبض عن هذا يصلحه، فكل شيء بعلم وحكمة، وهكذا ترى الجمل فى الآية وقد نشأ بعضها عن بعض. وأمسك بعضها ببعض. وجاء بعضها من بعض. فى ترتيب منطقى، بالغ الدقة والصفاء والاختصار، ثم إن هذه الآية خارجة برمتها من أحشاء الآية قبلها وهى ﴿**فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا**﴾ لأن فاطر السموات والأرض هو الممسك بمقاليدها، وهذا أمر ظاهر ثم إنه ذرأكم وكثّركم لما جعل لكم من أنفسكم أزواجا، فكان مما أوجبه على نفسه أن يعد لكم الأرزاق من خزائن السموات والأرض. وأن يجعل أنصباءكم منها متفاوته، ويبسط لمن يشاء ويقدر؛ على وفق علم لا يغيب عنه شيء.

ثم إن هذه الآية خبر آخر عن قوله ﴿**وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ الذى جاء فى جملة ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ**﴾ وتشترك مع فاطر فى هذا الخبر ومع ﴿**جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا**﴾ وجملة ﴿**وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ هى الرأس الذى يحمل هذا ويشد بعضه إلى بعض. وتأمل التنوع فى الدلالة على كل شيء قدير -﴿**فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾- ﴿**جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ**

أَزْوَاجا﴾- ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ﴾- كله تفريعات على القدرة وتنويعات عليها وكل آية لها لون وظل وطيف.

ثم راجع كم مرة دلت الآيات من أول السورة على سلطان الله فى السموات والأرض وقد بدأ ذلك بـ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ثم ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ثم ﴿مَقَالِيدُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ﴾وكل ذلك يؤكد ﴿الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ويؤكد ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ ويؤكد ضرورة الإذعان للوحى والإنذار ما دامت هذه جهة الوحى والإنذار

ثم إن فاصلة هذه الآية ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ كما أنها بيان للأصل الذى يؤسس عليه البسط والتقدير فى الرزق -والذى سيأتى مزيد بيان له فى آية برأسها- هى فاتحة باب ما بعدها: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾.

قوله سبحانه ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.

هذه الآية تعيد رأس السورة مرة ثانية بعد ما أعادته آية ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وتفرع من ذكر الوحى ما تفرع فى الآيتين السابقتين كما سيتفرع من هذه ما يتفرع، ويلاحظ أن هذه الآيات الثلاث وإن اتفقت فى ذكر الوحى فقد اختلفت اختلافا ظاهرا فالأولى تقول يوحى إليك وإلى الذين من قبلك يعنى تقرن الوحى إليه عليه السلام بالنبيين من قبله، والثانية تحدث عن الوحى إليه عليه السلام، وأنه قرآن عربى لينذر أم القرى ومن حولها، وهذه تدع أمر الوحى إلى الشرع الذى جاء به الوحى. وكما أن الأولى قرنت الوحى إليه عليه السلام بالوحى إلى النبيين، فإن هذه تقرن شرعه عليه السلام

بشرع النبيين، ولذلك قالوا كل ما جاء فى هذه السورة فهو مما أوحاه الله إلى النبيين من قبله، كما فى سورة الأعلى التى ختمت بقوله سبحانه ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩]، ولفظ شرع غير لفظ أوحى. وهناك كليات عامة اجتمعت عليها الأديان كحرمة الدماء، والأموال والأعراض وحرمة الظلم والفواحش ما ظهر منها وما بطن، وإنما تختلف الأديان فى تفاصيل هذه الكليات تبعا لاختلاف أحوال الأمم وقد قال علماؤنا «شَرْعُ مَنْ قبلنا شَرْعٌ لنا ما لم يَرِدْ ما ينقضه»، وآية القصاص ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾ [المائدة: ٤٥] مما كتبه الله على بنى إسرائيل فى التوراة وقد كتبه الله علينا.

وقد قدم ما وصى به نوحا على الذى أوحينا إليك، وفى النساء قدم الوحى إلى محمد على الوحى إلى نوح، وذلك فى قوله تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣] وسر هذا هو أن الشورى قامت من أولها إلى آخرها على بيان العروة التى بين وحيه عليه السلام ووحى الذين من قبله، من النبيين عليهم الصلاة والسلام، فذكرت أولهم وهو نوح وآخرهم وهو محمد ﷺ، وأومأ ذلك إلى التقاء طرفى الحلقة، وأنه لا نبى بعده ثم انتقت الآية من الأنبياء بينهما إبراهيم وموسى وعيسى لأن لكل واحد منهم فضيلة فى هذا المقام يراد بيانها، أما إبراهيم عليه السلام فهو أبو الأنبياء ولا تزال بقايا ملته فى أرض العرب، ومن هذه البقايا كما قال الطاهر الختان والقِرَى والفُتُوَّة، وإنما قال الفتوة لأن رسول الله ﷺ مر على نفر من قريش ينتضلون فقال «ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا» ثم إن موسى عليه السلام كانت شريعته أسْيَرَ شرائع الأنبياء وأشيعها، وكان لها وجود ظاهر فى بلاد العرب التى هرب اليهود إليها فآوتهم وحمتهم، أما عيسى عليه السلام فهو النبى الذى ليس بينه وبين رسول الله نبى ثم هو مبشر برسول يأتى من بعد اسمه أحمد.

هذا فيما نرى سر ترتيب الوحى فى هذه الآية.

وأمر آخر فى جملة ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ وهو أن الآية عبرت عن شرع نوح بالوصية ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ ثم عبرت عن شرع محمد ﷺ بالوحى ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ ثم رجعت وعبرت عن شرع إبراهيم وموسى وعيسى بالوصية ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾.

وقد ذكر الطاهر أن ﴿وَصَّىٰ﴾ جيء بها مع نوح والنبيين من بعده لأن هذه الشرائع كانت محدودة بأقوام وأزمان وأن كل رسالة جاءت بعدها كانت ناسخة لها، فكانت أشبه بالوصية، والوديعة التى يودعها النبى عند قومه حتى يأتى نبى بعده فينسخها، وشريعة محمد عليه السلام ليست كذلك، ولا يعكر هذا ما جاء فى سورة النساء كله بلفظ الوحى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣] وذلك للفرق بين الكلامين فالذى فى الشورى حديث عن الشرائع وهى التى نسخ بعضها بعضا والذى فى النساء حديث عن الوحى والذين أوحى الله إليهم والوحى لم يسخ بعضه بعضا فإذا كانت شريعة عيسى نسخت شريعة موسى فإن الوحى إلى عيسى لم ينسخ الوحى إلى موسى. وظل موسى كليم الله، وإن نسخت شريعته، وظل عيسى نبى الله الذى أوحى إليه وإن نسخت شريعته وهذا جيد.

وقوله تعالى ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى التكلم، والالتفات فى هذا الجزء الذى هو الوحى إليه صلوات الله وسلامه عليه فيه إشارة إلى قدر من العناية بالذى أوحاه الله إليه صلوات الله وسلامه عليه لأنه هو الوحى الحاضر، وما مضى من الوحى قد مضى. ولأنه هو المصدق لما

قبله، ومهيمن عليه، ولن يهيمن عليه وحى لأنه هو الخاتم، ولأنه هو الناسخ، لكل شرع قبله، ولن يكون منسوخا بغيره، وهو الدين الذى أكمله الله وأتم به النعمة، ورضيه ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ومن رضيه فقد رضى ما رضيه الله واهتدى، ومن رفضه فقد رفض ما رضيه الله وضل. ولا يقبل الله دينا غيره بعد ما نزل هذا الدين، وهذا وغيره كثير يشعر به هذا الالتفات، وشىء آخر فى هذه الكلمة وهو أن العبارة عن ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ جاءت بما الموصولة والعبارة عن الوحى إليه عليه السلام جاء باسم الموصول ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وللطاهر تحليل جيد لهذا وخلاصته أن ﴿الَّذى﴾ وضع للاسم الموصول ويُعرَّف بصلته التى هى قصة معلومة عند المخاطب، وذلك بخلاف ما الموصوله، لأنها ليست متمحضة لاسم الموصول، وإنما تأتى نكرة موصوفة، فى كثير من مواضعها، وهذا يعنى أن التعريف بالذى أصرح، وأشهر من التعريف بما الموصولة، لأن الاشتراك بين النكرة الموصوفة وما الموصولة يضفى عليها شيئًا من التغشية، والإبهام، فناسب أن تذكر بها الشرائع التى نسخت ودخلت فى غيب التاريخ، بعد الذى أوحينا إليك، وفى مقابلة دخولها فى غيب التاريخ الذى يلقى عليها غشاوة من الإبهام يأتى الحضور المعاش فى ﴿الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وهذا شرح لكلام الطاهر وهو مؤسس على فكرة أن ما الموصولة تحتقب الكثير من خصائص ما النكرة الموصوفة، فلا يبقى التعريف فيها ناصعا نصوع الذى، وقوله سبحانه ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ هذه الجملة فتحت لما قبلها بابا من أبواب المعنى لأنك لو قرأت ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ وقفت عند قوله ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ لدل الكلام على أن ما شرعه ربنا لنا هو ما شرعه لهؤلاء وكفى. ولهذا ذهب البعض إلى أن رسالة محمد صلوات

الله عليه فى أولها كانت رسالة نوح عليه السلام وهذا كلام يحتاج إلى مناقشة، والمهم أن جملة ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ حين نجعلها من تمام الكلام قبلها سيكون المعنى أن الأمر بإقامة الدين والنهى عن التفرق فيه هو المعنى المشترك بين الأديان، وهو شرع الله للنبيين جميعًا، ومن أجل مزيد من إيضاح هذا نحلل جملة ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ و«أن» هذه يمكن أن تكون مفسرة لتضمن ﴿مَا وَصَّيْنَا﴾ معنى القول ويكون هذا هو المعنى المشترك كما قلنا، ويمكن أن تكون (أن) مصدرية والمصدر بدل من ما التى فى قوله ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ فإذا كان بدل كل رجع المعنى إلى الذى قلناه وأن إقامة الدين هو المعنى والأصل المشترك بين الشرائع، ويمكن أن تكون بدل بعض وعليه يكون المعنى المشترك أوسع وأغزر من إقامة الدين وإنما نصت الآية عليه لأهميته، وأجاز الطاهر أن تكون بدل اشتمال والمعنى أنه مما اشتملت عليه هذه الأصول المشتركة إقامة الدين والنهى عن التفرق.

وكلمة ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ إذا فسرناها بالعمل به كان تفسيرا مجملا لأن لفظ القرآن هو ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ وهذا يحتمل معنيين الأول أن يكون من باب ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] وقد قالوا إنه من قولهم أقام العود إذا قوّمه ولم يُبْقِ فيه عوجا، وعليه يكون المراد الفهم الدقيق للدين، والدقة البالغة فى تحديد ما أمر سبحانه وما نهى، والدرس الرفيع فى بيان الأصول، والفروع، والصبر على ذلك، وحسن فقهه، وأن تكون هناك فئة عالية المقام، خالصة النفس صادقة فى التوجه منصرفة انصرافا كليا إلى هذا ليس لها هم إلا أن تبحث فى الكتاب والسنة، وعلوم الكتاب والسنة، وأقوال السلف، والخلف، ومن سلف من الفقهاء المتميزين والمحدثين المتثبتين والمفسرين النَّاصحين وهذا هو معنى إقامته وإزالة ما يمكن أن يلابسه مما ليس فيه، أو ما يمكن أن يغشى شيئًا مما جاء فيه، ثم العمل به، على وفق هذا الفهم، وهذه البصيرة عملا

يحيا به الدين فى القلوب، وتحيا به القلوب، حتى يرى الدين بكل صفاته وكل جلاله حيّاً متحركا فى الذين آمنوا به وهذا وجه

والوجه الآخر أن يكون قوله «**أقيموا الدين**» من قولهم فلان قائم على كذا يرعاه ويصونه، ومنصرف بكليته إليه، كأنه حارس يقظ وديدبان لا تطرف عينه، وأن الدين فى حاجة إلى حراسة لأن أعداءه يمكرون به وبأهله ولابد أن تكونوا حراسًا له، مدققين لكل ما يتصل به من قريب أو من بعيد، فلا يجوز أن تقبلوا تعطيل أحكامه فضلا عن وصفها بما لا يليق، أو نسبتها إلى زمن التخلف، ولا يجوز أن تقبلوا محاصرة الدين فى المساجد، وتحريم الساحات السياسية على أن يكون له عليها سلطان، ولا يجوز أن تقبلوا إغماضه، وإهماله فى مدارسكم التى ينشأ فيها أبناؤكم، وهم لا يعرفون عنه شيئًا، ولا يجوز أن تقبلوا وصية عدوه وعدوكم فى إلغاء آيات الجهاد من برامجكم، ولا يجوز أن تقبلوا غَلَبَةَ غير لغته على ألسنة أولادكم.

وقوله سبحانه ﴿**وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ مجيء النهى بعد الأمر أو مجيء الأمر بعد النهى يكون تواردا على حقيقة واحدة وتأكيدا لها، كقوله تعالى ﴿**اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ**﴾ [الأحزاب:١] أو يكون الثانى تدقيقا لمعنى الأول وتحديدا، له كقوله سبحانه ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾ [القصص:٧٧] والذى هنا يفيد مع تأكيد المعنى الأول معنى جديدا ومُهماً وهو أن التفرق فى الدين نتيجة لعدم القيام عليه ولو قمتم على درسه بالفهم اليقظ، والتدقيق الواعى، والإدراك السديد لأصوله، وفروعه، وأمره ونهيه، ومقاصده، وكلياته، وجزئياته لكنتم على محجة واحدة، ولابْتَعَدَ بكم الفقه السديد عن التفرق، ولجمعكم على صراط ربكم المستقيم، وكل فُرْقَة فى الأمة الإسلامية راجعة إلى فساد فى الفهم ونقص فى الوعى ابتداء من الفرقة التى بين السنة والشيعة وانتهاء بما نسميه مشاكل الأعراق المختلفة التى تحدث شروخًا

فى جسم الأمة كـالعربية والفارسية والـبربرية والكردية إلى آخره، كل هذا لم يظهر فى كيان الأمة إلا لنـقص فى الفهم أو لنقص فى قيامكم على الدين، وصونكم له وجعله هو المقدم على كل شىء، وهو الذى تنعقد كل النوايا على حفظه وصونه لأن الله ألف بيننا به ولن نفترق إلا إذا أغمضنا العيون عنه، لأنه هو حبل الله الذى نعتـصم به، والله معنا وعاصمنا وناصرنا ما دمنا مـتمسكين بهـذه العروة الوثقى. والآيـة فيـها إشـارة إلى الدواء الناجع من البـلاء الماحق والبلاء الماحق هو الفرقة التى تتفانى فـيها الأمة ويذهب ريحها والعلاج الناجع هو ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ وصدق الله وكذب من يقول غير هذا والمشكلة أن القائمين على أمر الناس يجـهلون هذا جهلا كاملا لأنهم رُبُّـوا بمعزل عنه، وإذا صادف ووُجد من يتجه هذه الوجهة يصب عليه البلاء من أعداء الدين فى داخل البلاد وخارجها، وكل حكام العالم عندهم مستشارون فى الأديان إلا أصحابنا.

قوله سبحانه ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ من يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ من يُنِيبُ﴾.

هذه الجـمل الثلاثة رفـيعـة فى دلالتهـا، وصائبـة جداً وسديدة جـداً فى موقعـها، ومعنى ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أنهم أنكروا ذلك وأنكروا دعوتكم إليـه وفى استعمـال كلمة ﴿كَبُرَ﴾ إشارة إلى آيات كـثيرة ذكرت استكبارهم وأن إعراضهم عن الحق راجع إلى الكبر فى صدورهم، ثم إن هذه الجملة راجـعة إلى قوله سبـحانه ﴿وَالَّذِين اتَّخَذُوا من دُونِه أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ وإلى أختها التى جاءت بعدها ﴿أَمِ اتَّخَذُوا من دُونِه أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ وهى هنا تشيـر إلى أن هؤلاء الذين اتخذوا من دونه أوليـاء دعوا إليه فانصـرفوا، ومجيئها بـعد وصية الله لخلقه من يوم أن بعث فيـهم النبيين وهى ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّين وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ تؤكد فى نفـوس أهل الحق أنكم ستـواجـهون هـؤلاء دائمًا وستـجـدونهم على كل طـريق من طرق الله،

وستـجدونهم فى أرفع لحظات توجهكم إلى الله، فـإن المؤمن لا يعيش لحظة أكرم من تلك اللحظة التى يكون فيـها مستحضـرا وصية ربه، وتكليف ربه، ويقوم على الدين يتعلمه، أو يُعلمه أو يَدْفع عنه، ويزُود عن حوضه وهو فى هذه اللحظة التى لا يعيش أفضل منها يجد هذا النمط النشاز والشاذ، ولاحظ أن السورة توزع ذكر هؤلاء حتى لا ينساهم القارئ فهمْ هناك اتخذوا من دونه أولياء، وهم هنا يجدون فى صدورهم كبرا، كهؤلاء الهلافيت حولى وحولك الذين يعتبرون الدعوة إلى الله عـمل المتخلفين، والمطالبة بالحكم بما أنزل الله هو من باب سحب الأمة إلى الوراء وأن المطالبين بما أوجبه الله علينا هم قوى الظلام أو الظلامـيـون، وقـد عـبـرت الآية عـــن الوحى إلى رســول الله بما الموصولة التى عبر بها عن ما وصى بــه نوحا وإبراهيم وموسى وكانت العبارة عنه هناك بالذى أوحينا إليك لأن ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ هو الذى أوحينا إليك وقد ذكرنا هناك كلام الطاهر واستحسنَّاه، وقد أشار هنا إلى سر العبارة عنه بما الموصولة وهو أن إنكارهم للذى أوحينا إليك غشّى على بصائرهم فأغمضوه، فالتـعبير ناظر إلى حـالهم، وإنكارهم، وأنه لم يعد عندهم فى ظهـور وبيان ﴿الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ قال الطاهر «وعبر عن دعوة الإسلام بما الموصولة اعتبارا بنكران المشركـين لهذه الدعوة، واسـتغرابهم إياها، وعـدهم إياها من المحال الغريب» انتهى كلامه.

وفى هذه الجمـلة معنى آخر وهو أن مـن تكاليف الله لأهل الحق الذين آمنوا بما أنزل أن يدعـو غيرهم إلـى الحق الذى أنزل، ومجىء هذا فى عـقب أقيـموا الدين ولا تتفرقـوا فيه للإشارة إلى أن من تكاليف قيـام الدين الدعوة إليه، وأن هذه الدعوة إليه ستتصادم مع كبرياء أهل الباطل، وحماقاتهم، وأن الذى عليكم هو الدعوة بالتى هى أحـسن وليس عليكم إلا البلاغ ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ وما دامت الدعوة إلى الحق من تمام قيام الدين، فإن هذه الآية من تمام ما قبلها.

ثم إن البيان العالى يدع هذه الطائفة الشاذة والمعترضة سبيل الهدى إلى طائفة لم أجد أرفع منها وهى ما فى الجملة الثانية، أعنى الذين اجتباهم ربهم واصطفاهم، وقارن بين ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ﴾ و﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ من يشَاءُ﴾ لترى كيف يضع الكتاب العزيز بين أعيينا الأنماط المتقابلة والمتضادة، وكيف ينتقل الوعى مع الآيات من هذه الطبقة المغرورة، المخذولة، التى يعظم عليها الدعوة إلى الله، وهم عبيد تحت أقدام الطغاة، إلى تلك الطبقة التى اجتباها ربنا واصطفاها ثم راجع جملة ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ﴾ تجد فيها تقديم لفظ الجلالة الدال على الكمال المطلق. والذى لا يسأل عما يفعل. وهو تقديم مفيد للاختصاص. ثم تجد كلمة يجتبى ومعناها يصطفى ويختار ويقرب أيضًا، وهذا أكرم ثم صيغة المضارع الدال على أنه يتجدد أبدا، وهو شأن من شؤون خلقه، فى أجيالهم المتابعة وأن لله رجالا يمد يده إليهم، ليقربهم إليه، ثم راجع كلمة ﴿مَن يَشَاءُ﴾ وكيف كان هذا الاجتباء راجعا إلى أمر واحد وهو مشيئته هو وليس للعبد شىء وإنما هو محض الاصطفاء والاجتباء ويؤكد هذا أن الجملة التى بعدها قالت ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ من يُنِيبُ﴾ فذكرت أنه غير الصنف السابق لأن ينيب يعنى يرجع دائمًا إلى الله، وفعل الإنابة يتجدد منه أبدا، وكأنه قائم على هذه الإنابة، فهو ينيب إلى الله فى كل وقت، وهذا يهديه الله، لأنه سبحانه أكرم وأجل. وأعظم من أن يخذل الطامعين فى هداه، والمنيبين إليه، ثم إن كلمة ﴿يَهْدِي﴾ وراءها شيء من الدلالة على أن الذى هداه ربنا كان يبحث عن الطريق الذى يصل به إلى الله، وإذا قلنا هدانى فلان إلى كذا دل ذلك على أنك كنت تبحث عن الشيء الذى هداك إليه والذى يقول «هدانى إليك الفرقدان» يريد أن يقول كنت أجتهد فى معرفة الجهة التى أنت فيها فدلنى عليك الفرقدان وأظهر من ذلك قوله سبحانه ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ﴾ [الضحى:٧]، وكان عليه السلام يبحث عن الهدى ويتعبد فى غار حراء وهكذا الآية التى معنا تفيد أن هناك سالكا

إلى الله ومستشـرفا يبحث عن طريقه المستقيم، ولهـذا نجد هذه الجمل الثلاثة جملة تدل على شـر الناس وهم الذين كبـر فى صدورهم ما تدعـوهم إليه، والثانيـة خير الناس وهم الذين اجـتباهم ربهم إليـه اجتبـاء محضـا واصطفاء محضًا، والثالثة هم السـالكون إلى الله وفى الطريق ضلال ووحشة فيرفع الله لهم الأنوار، ويهديهم إليه، ولهذا قلت إن هذه الجمل الثـلاثة رفيعة المقام فى دلالاتها وفى مواقعها، والله أعلم.

قوله سبـحانه ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

قوله ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ من تمام قوله ﴿وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ومعطوف عليه، ومن تمام الإخبار عنه، والذى بينهـما من قوله سبحانه ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ إلى آخر الآية اعتراض وليس اعتراضا بين طرفى جملة وإنما اعتراض بين طرفى معنى، وموقعه فى محل الاعتراض موقع شديد التمـكن، لأنه مبادرة ببيان الفئة الضـالة وأنها لا تذعن لما جاءها من الحق، وأنكم ياأهل الله ستَـجتَمِـعُون على إقامة الدين وحـفظه، والدفاع عن حوضه، وسترون حولكم ومنكم فرقة مخذولة ضالة، لم يشأ الله لها أن تكون من جنده، فلا عليكم منهـا، ولا تتوقعوا مجـتمعا صالحـا كله، نظيفا كله، ولابد من عناصر فاسدة تدعو إلى الباطل، وتحـتشد له، وتجتمع حوله، ولا تتفرق ويعظم عليها قـيامكم على الحق، ونصرتكم لله، ولرسوله، وبعد مـا تذكر الآية هذه الفـئـة فى هذه الجملة الـشديدة الاخـتصـار ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ تتبع ذلك ببيان صنفـين كريمين على الله الصنف الذى اجتباه ربنا إليه، واصطفاه، ولـم تذكر الجملة أنهم كانوا ساعين إلى هذا الاصطفاء ولا باحـثين عنه، وإنما هو سـحض فضل، ومـحض مِنَّة كالأنبـياء

الذين اجتباهم واصطفاهم، والفريق الثـانى الذى استهدى فهدى ومد إلى الله يدًا فمد الله له اليَـدَيْن ثم عاد الكلام ورجع والتأم أوله وهو ﴿ وَمَا تفرَّقُوا ﴾ بآخر الذى مضى. وهو ﴿ ولا تتفرَقوا ﴾ ليشـير إشارة أخـرى إلى أن صلاح الأجيـال لا يستمـر وإنما كمـا ضل أهل الشرك يضل أهل الإيمـان والشيطان موكل بهم فإذا لم يُضلهم أضَلَّ أجيالهم إلا من عصم ربك.

والضمير فى قوله ﴿ وَمَا تَفرَّقُوا ﴾ راجع إلى ما رجع إليه الضمير فى قوله ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ وهم الأمم التى شرع الله لنا من الدين ما وصاهم به، والعلم الذى جاءهم وتفرقـوا بعده بغيا بينهم هو العلم بحرمـة التفرق. وهذا وجه من وجوه المعنى، ثم هو منطبق فى كل أمة على أكثرها، وإلا فقد كان حول كل نبى وبعده فريق من الصِّدِّيقين والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

وتعليل التفرق بقوله ﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ مع سَبْق ذكر العلم، إشارة واضحة إلى أن التحاسد والتباغض وأهواء النفوس كل ذلك يغلب على العلم، فالعلم فى الآية تحذير من التفرق، والبَغْىُ والتحاسد فى الآية يدعو إلى التفرقة، فتفرقوا بدافع التحاسد، ولـم يَنْكَفُّوا بموجب العلم.

وهذا أصل خطير يجب أن يُرَاعى فى سيـاسة الناس. وأن الأهم هو شفاء القلوب من أمراضها ، وأوبَلُها داءُ التحاسدُ والبغى. ولذلك كان القرآن شفاء لما فى الصـدور، لأن المهلكة تأتى من الذى فى الـصدور، وقـوله سـبحـانه ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَت مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ فيه إشارة إلى أن هذا التفرق من أغلظ المحرمات التى توجب غضب الله وأنه سبحانه إنما أمْهَل من ارتكبوه من أجل الكلمة التى سَبَقَتْ ولولاها ما أمهلهم، وهذا دال على نهـاية الغضب، وذلك لأن البـشرية لم تُـبْتَل بابتـلاء أكثـر وبالا عليهـا من التفرق، والـتباغض فى شأن الأديان لأن هذا كـثيرًا ما يجر إلـى الصراعات، والحروب، وليس أبْشع من الحروب التى تثيرها عصبية الأديان.

قلت هذا وجه من وجوه المعنى. ومداره حول تفسير العلم فى قوله ﴿إلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ ووجه آخر فى تفسير العلم ينتقل بالآية إلى أفق آخر، وهو أن يكون المراد بالعلم علمهم ببعثة محمد صلوات الله وسلامه عليه، وقد وجدوا العلم ببعثه فى التوراة والإنجيل. وكانوا قبل المبعث يعلنون ذلك ويقولون أظل زمان النبى المبعوث من العرب، وقد ذكرت لهم التوراة والإنجيل أوصافه صلوات الله وسلامه عليه فلما جاءهم العلم أعنى جاءهم ما علموا تفرقوا، واختلفوا فمنهم من آمن، ومنهم من كفر. وإنما آمن من آمن لما استيقن العلامات، ولم يخالجه فيها ريب، وبرئت نفسه من البغى. وطَلَبَ الحق. وصدق فاهتدى، والضمير فى قوله ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ على هذا الوجه عائد إلى ما عاد إليه على الوجه الأول، لأن أهل الكتاب فى زمن النبى عليه السلام هم من ذرية إبراهيم وأهل دين موسى وعيسى عليهم السلام والتغيير كان فقط فى أن المقصود مَنْ تفرقوا من أهل الكتاب زمن المبعث بعد ما كان عاماً فى كل من تفرقوا بعد النبيين عليهم السلام، وأن العلم الذى لم ينفعهم هو علمهم بما أخبرت به التوراة والإنجيل بعد ما كان العلم بحرمة التفرق وهذا الوجه أظهر ويرشحه كلمة و﴿جاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ وكان يمكن أن يقال وما تفرقوا إلا من بعد ما علموا وإنما عدل إلى جاء والله أعلم ليبين أن الذى جاءهم علم ما علموه على سبيل الخبر الذى فى التوراة والإنجيل ثم جاءهم معلومه يعنى الحقيقة التى أخبرت بها كتبهم وجاءتهم الأوصاف والأحوال التى عرفوها بالخبر، وصاروا فى مواجهتها حقيقة محسوسة، ومرة ثانية نجد البغى والحسد والضغينة وأمراض القلوب تغلب على الناس ليس العلم الذى أدركته العقول فقط بل أيضًا العلم الذى تراه العيون، مع أن الذى رأوه كان فيه عنصر آخر إلهى وهو أنهم رأوا رأى العين ما حدّثتهم به الكتب قبل أن يحرفوها، والأصل أن هذا يزيد إيمانهم بهذه الكتب ويزيد إذعانهم بما

تأمرهم به من اتباع النبى الخاتم، ولكن البغضاء والتحاسد غلب على كل هذا، وأن البلاء كل البلاء فى أمراض القلوب، وأن الشفاء كل الشفاء هو شفاء ما فى الصدور، وهذا من أهم مقاصد القرآن. قلت إن وجوه المعانى فى هذه الآية متعددة وأظهرها ما قلته، وهنا وجه هو أقرب إلى التفسير الظاهر القريب وهو كما رواه الزمخشرى بلفظ قيل قال «وقيل كان الناس أمة واحدة مؤمنين بعد أن أهلك الله أهل الأرض أجمعين بالطوفان، فلما مات الآباء اختلف الأبناء فيما بينهم، وذلك حين بعث الله إليهم النبيين مبشرين ومنذرين، وجاءهم العلم، وإنما اختلفوا للبغى بينهم» انتهى كلامه، وهذا الوجه هو الذى فسّر به آية يونس ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ١٩] قال «أمة واحدة حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم وذلك من عهد آدم إلى أن قتل قابيل هابيل، وقيل بعد الطوفان حين لم يذر اللهُ على الأرض من الكافرين دياراً.

وقد ارتضى بعض المحققين هذا القول ونقلوه من غير أن يذكروا صيغة التضعيف.

وقيل أمم الأنبياء جميعًا تفرقوا بعد أنبيائهم لما طال عليهم العهد وقست قلوبهم.

ومن تدقيقات الطاهر رحمه الله أنه وقف عند التنكير فى قوله سبحانه ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ وقوله جل شأنه ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وقال هو تنكير التنويع؛ لأن لكل أمة كلمة، ولكل أمة أجل. فليست الكلمة كلمة واحدة شاملة لكل الأمم، وليس الأجل أجلا واحدًا شاملاً لكل الأمم، وإنما لكل أمة كلمة، وأجل، على وفق علمه سبحانه، ومقتضى حكمته، انتهى كلامه وهو كلام جيد، وقال المراد بالكلمة قوله تعالى ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦] وسبقها يعنى قبل تفرقهم.

وقوله جل شأنه ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ من تمام معنى الكلام قبله، والواو عاطفة له على ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ والمعطوف والمعطوف عليه كالشيء الواحد، وهذا معنى أن الكلام يمسك بعضُه ببعض.

وقد اختلف فى ﴿الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كما اختلف فى المعطوف عليه، واحتمالات تفسير ﴿الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾ ناظر إلى احتمالات ما قبله. فالذين قالوا «إن الذين تفرقوا من بعد ما جاءهم العلم» هم اليهود والنصارى من بعد ما جاءهم ما علموه من الكتابين فى شأن بعثه ﷺ فسروا ﴿الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ بمشركى العرب وإرثهم الكتاب يعنى نزول القرآن فيهم، والضمير فى قوله ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ عائد إلى الكتاب الذى هو القرآن، ولم يذكر الزمخشرى غير هذا الوجه وتبعه الرازى، وقال غيره إن ﴿الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ هم أهل الكتاب فى زمن المبعث «والذين تفرقوا من بعد ما جاءهم العلم» هم أمم الأنبياء السابقين ومنهم أهل الكتاب، وإنما خصوا بالذكر هنا لأنه لم يكن فى زمن المبعث من أتباع النبيين إلا هم، وقوله ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ يحتمل لفى شك من كتابهم، والمراد ما حدثهم به كتابهم من بعثة رسول الله ﷺ، أو لفى شك من محمد وكتابه، وأنه ليس هو الذى حدثت به كتبهم.

ووصف الشك بأنه مريب، وصف يحتاج إلى تدقيق فى فهمه لأن ذكر الشك نفسه يحير لأن الأصل أن العلم جاءهم، وأنهم تفرقوا بغيا وحسدا، وأنهم رأوا الحق رأى العين، فكيف يوصفون بالشك؟ وكيف يوصف الشك بأنه مريب، والريب هو الشك وكأنه وصف بنفسه، وأجاز ذلك اختلاف اللفظ؛ وهل هذا الوصف تأكيد لشكهم؟ أو هو بيان للشك في شكهم، وأنهم شكوا شكا مشكوكا فيه؟ وأن مريب من أرابنى أى أوهمنى الريب،

فالشك شك متوهم. والعرب يقولون رابنى أوقعنى فى الريب، والريب الشك، والتهمة، والظنة ويقولون أرابنى إذا جعلنى أتوهم الريب، لم أجد سبيلاً في فهم هذا إلا أن أجعل أرابنى أوهمنى الريب، والمريب هو الموهم للريب، والشك المريب هو الشك القائم على التوهم يعنى الشك المُوهم شكا، والأدلة القاطعة والساطعة من حولهم تجْتَثُّ الريب. وتنفيه، وتجلى الحق بجلاء العلم الناصع، هذا والله أعلم.

قلت إن جملة ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَت مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ فيها غضب شديد بالغ؛ وتأمل لتدرك وكأن الحق سبحانه وجل عن مشابهة الحوادث يحب أن يعاجلهم بالعقوبة الصارمة لفداحة ما ارتكبوا، لولا أن كلمته سبقت ولا تجد فى الغضب أشد من هذا، ومع ذلك كان فيها كثير من الرحمة لأن هؤلاء الذين كانوا فى شك منه مريب، وأمهلوا بسبب الكلمة، دخلوا في دين الله وصاروا من أكرم جنود الله، هذه واحدة، الأمر الثانى أن شدة الغضب الذى فى الآية استصحب كلمة العدل وهى ﴿ لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ وأنهم لن يظلموا شيئًا وإنما جزاء سيئة بمثلها، ومثل هذه اللفتات إلى العدل فى سياق بيان مزيد الغضب له أثر بالغ فى بلاغة الكلام، وأنه صادر عن الذى لا يشغله شأن عن شأن سبحانه وتعالى.

وجملة ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ فاصلة الآيات من قوله تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا ﴾ وهذه الآيات إلى هذه الفاصلة وحدة معنوية واحدة وهذه الفاصلة لخصت الزبدة التى دارت حولها هذه الآيات ابتداء من قوله ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ ثم كانت هذه الفاصلة فاتحة باب معنى ما يأتى بعدها مما انتقل إليه الكلام وهو قوله سبحانه ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾.

وقبل أن أنتقل إلى هذه الآية أشير إلى أن المفسرين لما رأوا الآية تتوارد عليها هذه الاحتمالات الكثيرة أرادوا أن يؤكدوا صحة هذه الاحتمالات وأن

نظم الآية يسعها وأن سبب ذلك هو أن الضمـير فى قوله سبحانه ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ قد سبقته كلمات صالحة لأن تكون مـرجعًا له وقد ذكرنا أنها تحتمل أن يكون مرجعها هو الكتـاب إن كانوا هم اليهود والنصارى، أو أن يكون المرجع هو محمد عليه الســلام وأن أوصافه لا تنطبق، أو أن يكون المرجع هو القرآن إن كان المراد مشركى العرب، أر أن يكون المرجـع هو الدين فى قوله سبحانه ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾، أو أن يكون الذى فى قوله ﴿وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، أو أن يكون ما الموصــولة فى قوله ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾، أو ما الموصــولة فى قوله ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ قال الطاهر وقد جاء نظم الآية على أسلوب إيجاز يتحمل هذه المعانى الكثيرة وما تفرع منها.

قوله سبحانه ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ الفاء فى قوله ســبحانه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ﴾ رابط يربط مـا بعد الفـاء بما قـبلها، ولو راجـعت وتَدَبَّرْتَ ما قبلها ومـا بعدها وراجعت تفريع ما بعدها على مـا قبلها لوجدت بابا رفيعا من المعنى. وموقع بعثتـه ﷺ فى سياق النبوات، وفى سياق التاريخ وأنه عليه السلام بعث فى مفصل من مفـاصل التاريخ اقتضى بالضرورة وجود هذه النبوة. وراجع مرجـع اسم الإشارة فى قوله ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ ومعنى الفاء فى قوله ﴿فَادْعُ﴾ والذى أفهمه أن الفاء واسم الإشارة فى قوله ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ وراءه معنى يقول إن التفرق قد كان، وإن الشك المريب كان، وإن استكبار المشركين على الحق كان، وأن أصول الأديان التى اجتمعـت عليها، وكان شرعك منها قد تلاشت وتهرأت، وأصول الأديان هى الأمـر بكل معروف والنهى عن كل منكر، وتوحيد الله، والإيمـان بالبعث، والجنة والنار، والحث على الصدق، والنهى عن الكذب، والأمر بالعدل، والإحسان، والنهى عن الظلم، والبغى.

وتحريم القتل، والغش، والزنا، والتدليس، والنفـاق، وغير ذلك من أمراض المجتمعات. وما نزلت الشرائع كلها لمواجهته من زمن نوح، وكل ذلك وغيره هو المقصود بوصية الله للأجيال كلها، ولأمم الأنبياء كلها لما قال لهم ﴿**أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا**﴾ يعنى اجتمعوا على رفض الرذائل التى تفسد حياة الجماعة، واجتمعوا على الحث على الفضائل. كل هذا قد غاب وجهل الناس ما وصى الله به نوحـا، وما وصـى به إبراهيم، وموسى، وعـيسى، وساءت أحـوال الناس، وظهر الفـساد فى البـر والبحر، فلذلك فـادع واستقم وأعِـد وأحْيِ وابعث رسالات النبيين بالذى شرعه الله إليك، لأن الذى شرعه الله إليك هو ما شرعه لهم، ادع، واستقم، حتى تعود الفضائل، وتذهب الرذائل، وتلتقى قلوب الناس على معرفـة الله، وتتآخى وتتعاون بدل الفـرقة والمنابذة والحرب وسفك الدماء والظلم والبغى.

لا أجد نهاية لـمعنى الفاء واسم الإشارة فى قوله سـبحانه ﴿**فَلِذَلِكَ فَادْعُ**﴾ لأن نهايتها أن تصف بدقه ما عليه الناس فى كل أقطار الأرض فى أخلاقهم، وعقائدهم، ورذائلهم، وفضـائلهم، وعدلهم، وجورهم، وأمنهم، وحربهم، وأماناتهم، وخياناتهم، ووفـائهم، وغدرهم، لابد أن تصف ذلك كله وتحدده بدقة، ثم تضع عليه كلمة ﴿**فَلِذَلِكَ فَادْعُ**﴾ أى من أجل ما ابتُلى به الناس من هذه البلايا، وهذه الرذايا، جـاءت دعوتك وهذا زمانها، وهذا مقـامها، وإنما بعثت لـتخرج هذه الناس من الظـلمات إلى النور، ومن الموت إلى الحـياة، ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ**﴾ [الأنعام: ١٢٢] ولذلك تلاحظ أن مـا جاء بعد فادع واستقم كله متصل بالمجـموع، وكله خطاب للمجموع، والآية من وجه آخر تقول ادرسوا أحوال الناس قبل البعثة، وادرسوا ما بعث به ﷺ، وضعوا شرعه على أحوال الناس، وتبينوا إلى أى مدى كان السياق التاريخى هو سياق الدعوة، وكان مقام الأرض وأحوال أهلها هو مقام الدعوة.

قلت إن اسم الإشارة عائد إلى المعانى المبتدئة بقوله ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ وأذكر بأن هذه الآيات المبتدئة بقوله ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ تأكيد لقوله فى أول السورة ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ وتأكيد أيضًا لما جاء بعدها من قوله سبحانه ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وكل هذا ممسك بعضه ببعض ليؤكد أن ما جئت به هو رسالات الأنبياء من قبلك، وإنما بعثت لإحيائه بعدما اندثر، وللتذكير به بعدما نسى. ولإحضاره على الأرض بعد ما غاب عنها ،ولإعادته إلى قلوب بنى آدم بعدما فرغت منه، لأنه الوحى والروح، ولا حياة للناس بغير الوحى والروح، وما دامت رسالتك هى رسالة الأنبياء من قبلك، فلا يجوز لأهل دين أن ينازعوك لأنك جئتهم بما جاءهم به رسولهم، وإن نازعوك فليس إلا الحسد والبغضاء والأهواء.

الذين على حق في اتباع أنبيائهم يعلمون أنك صرتَ كأنك كلُّ النبيين وأن صوتَك هو صوتُهم جميعًا، وأن لسانَك هو لسانُهم جميعًا، وأن كتابَك مصدق لما بين يديه من الكتب.

وكلمة ﴿ادْعُ﴾ شديدة الاختصار ومفعولها محذوف لدلالة اسم الإشارة عليه يعنى ادع الناس إلى ما شرعه الله لك وما شرعه للنبيين من قبلك، والمهم أصول الرسالات التى تحفظ حياة الناس بالفضائل التى دعا إليها الأنبياء والتى قدمنا بعضها، وتَنْهَى عن الرذائل التى نهى عنها الأنبياء. والسورة مكية وقد كان عليه السلام يدعو حين أمر بذلك، وقبل أن يؤمر بذلك، وإذا توجه الأمر إلى مأمور موصوف به فالمراد الاستمرار كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ [النساء: ١٣٦] وفيه معنى آخر وهو أن الاستمرار فى الفعل الذى يرضاه الله له أجر المبتدئ به فى كل مرة يباشر هذا الفعل ويستمر عليه وكأنه عليه السلام وأمته من ورائه كلما دعا إلى ما أُمِر بالدعوة إليه، وكلما دعونا نحن من ورائه عليه السلام إلى ما كلفنا بالدعوة إليه نكون مذعنين لقوله سبحانه ﴿ادْعُ﴾ ولنا

فى كل مرة أجر من سمعَ فأطاع، ودُعى فأجاب، وهكذا قل فى معنى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ [النساء: ١٣٦] كأنها نزلت لتفتح لنا بابا من الأجر والفضل والمَنِّ لا يقادر قدره، وهو أننا مع كل لحظة نستمر فيها على إيماننا، ونجدد فيها إيماننا، لنا أجر من أمر فأطاع، ودُعى فأجاب.

وقوله ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ فيه ما فى ادع من الأمر بالاستمرار والسين والتاء فيه للمبالغة، وفيها معنى آخر بالغ لأن الأمر كما قلت هو أمر لرسول الله ﷺ ونحن من ورائه ﷺ، ومعنى أن كلمة ﴿وَاسْتَقِمْ﴾ كلمة عالية جداً أن من معانيها أن تكون دعوتك ودعوة الداعين من بعدك قائمة على التدقيق فى إصابة مراد الحق. وألا تدعو إلا بما أمرك الله، لا تزيد عليه حرفًا، ولا تنقص منه حرفا، وأن تتحرى الدقة البالغة فى ذلك، لأن الدين كله لله، وليس لأحد فيه شيء، والله سبحانه وتعالى يعلم أن محمداً يتحرى غاية الدقة، وأنه مبلغ بأمانة شديدة وفطانة شديدة وإنما المهم نحن، ويجب أن نعلم أن الدعوة إلى الله من التكاليف العظام، ومن الأمور الجسام، وأن إمام الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه خوطب بخطاب ربه، وأمر بالاستقامة في الدعوة فكيف بنا؟

ومن المفيد أن تتأمل الاقتران بين الدعوة والاستقامة وأنهما صنوان، وأن عزل الدعوة عن الاستقامة عزل للدعوة عن الدعوة، والذى قلته معنى من معانى الاستقامة، ثم يبقى معناها الأخلاقى المعروف، وإنما تقدمت الدعوة على الاستقامة فى الآية لأن المقام مقام نبوة، ومقام بلاغ، ولو خاطبنا داعية لقلنا له استقم وادع يعنى اكتسب فى نفسك وطبعك وسلوكك أصول الدعوة ثم ادعو إليها بعدما صرت مثالا لها.

وقوله سبحانه ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ نهاية جزء المعنى المبتدئ بقوله ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ وهى ثلاث جمل. والثانية

والثالثة داخلتان فى معنى الجملة الأولى، التى سى أخصرها لأن الاستقامة كما أمر داخل فى الدعوة، والنهى عن اتباع الهوى جزء أصيل من الاستقامة الداخلة فى الدعوة.

وراجع لتدرك شيئًا وهو أن الاستقامة وإن كانت متضمنة فى الدعوة فإن النص عليها لبيان أنها من الأهمية بمكان وأنها بعيدة المنال لا تدرك إلا بجد، وكذلك النهى عن اتباع الهوى، وإن كان ظاهر الدخول فى الاستقامة، فإن النص عليه لبيان أنه من الأهمية بمكان، وكان مجىء الواو مع كل جملة للدلالة على مغايرتها لما قبلها، وتميزها واستقلالها، وكل هذا لأن هاتين الجملتين ﴿واسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ لهما فى فقه الدعوة مقام كبير، وراجع قوله ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ ووجوب الاتباع، والنهى القاطع عن الابتداع، ومرة ثانية ليكون الدين كله لله لأنه ليس هناك مضرة فى الدين أشنع من أن تدخل فيه شيئًا من فكر البشر، وهذا هو البلاء، الذى أفسد الأديان كلها، لأن الله لم يقل للنصارى المسيح ابن الله، ولم يقل لليهود عزير ابن الله، ولا قال لهم الله ثالث ثلاثة، وإنما كل هذا من نفى الاستقامة فى الدعوة والروغان عن ما أمروا به، والله أعلم.

وفى جملة ﴿ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ عنصر إثارة وإيقاظ وتهييج لأنه لا ريب فى أنه عليه السلام لن يتبع أهواءهم، ولا ريب فى أن الصالحين من علماء أمته ودعاتها لن يتبعوا أهواءهم، وإنما هو من باب الإثارة كقوله تعالى ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأحزاب:١]، وذلك لجمع النفس، وإصرارها وتأكيد عزمها فى البعد عن اتباع أهواء المحادين لدين الله، وفيه إشارة أخرى إلى أن هؤلاء المارقين الرافضين لا يتبعون حقًا وليس عندهم شىء له أصل فى العقل، والمنطق، وإنما هى الأهواء لا غير

وهذه الجملة ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ كأنها نزلت لنا، ولزماننا، وللذى نحن فيه، لأننا لما تراجعنا وطمع فينا عدونا وسيطر على ثرواتنا، وعاشت جيوشه

على أرضنا، وملك أمر ساستنا، وسياستنا، وسيطر على جامعاتنا، ومدارسنا ومناهجنا، لم يكتف بهذا ولا بأكثر منه. وإنما يفرض علينا سلوكه، وقيمه، وأن نعيش كما يعيش وأن نزاول فى الحياة ما يزاول، وأن نتبع الأهواء التى يتبعها وأن نستبيح الرذائل التى يستبيحها، وأن ننكر الفضائل إلى ينكرها، وقد ربَّى على يديه فينا أقلاما، ومثقفين، ونخبة تدعونا إلى كل هذا، ويسمون كل ذلك تنويرا، وتحديثا، ونهضة، ودُعاة هذا هُمْ دُعاةُ النَّهْضة والذين يقفون فى وجه هذا يوُصَفُون بأنهم ظلاميون أو جماعة الإسلام السياسى وما يشبه هذا من الفساد الوبيل الذى يجرى فى البلاد وينذر بخطر شديد. ولابد أن يحتشد أهل الحق، ولن تنتصر الأمة إلا بالصدق والمصارحة والحوار الراشد الذى يديره علماؤها وحكماؤها. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

كلمة ﴿وَقُلْ﴾ فى أول هذه الآيات تأكيد لمعنى أنه يتلقى عن ربه الذى تلقى عنه نوح والنبيون من بعده، وتأكيد لمعنى ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ ولمعنى ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ وهكذا تجد كلمة واحدة تمسك بأصول ما قبلها وتحضرها إليك، ومعنى ﴿آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ هو حقيقة ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ لأن شرع الله فى هذه الكتب، والكتاب معناه الكتب، وهذا اقتراب شديد من أهل الكتابين وإعلان واضح بالإيمان بهذه الكتب، ونفى صريح لاتباع الأهواء، وتأكيد لمعنى ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ وهذه الجملة ﴿آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ بداية لإحياء ما خبا مما اتفقت عليه النبوات، وما شُرع للناس من الدين، ومثله قوله سبحانه ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ لأن العدل ونفى الظلم أصل فى

الشـرائع كلهـا، وهو من أهم الأصـول التى يجب على كـل مجتـمع أن يرعاها، وألا يسمح لحـاكم أو لغير حاكم بالتهاون فيـها، لأنها ترفع الغبن والظلم عن الناس. وعن الضـعفاء، والآية هنا قـرنت بين الإيمان بما أنزل الله من كتاب، والأمر بالعدل، كـما قرنت آية الحديد وبينت أن الله جلت عظمتـه أرسل رسله بالبينات وأنزل ﴿الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ وهذا من أهم مداخل الدين فى السياسة والـعدل معنى متسع وليس مقـصورا على القضاء فى الخصومات وإنما معناه الأوسع أن يأخذ كل ذى حق حقه فتتقدم الكفـاءات، وتشغل المناصب العـليا بأكـفأ من فى البـلاد، ومسـألة الموالاة والمعارضة مسألة ضد العدل، لأن الأفضل يقدَّم مواليا أو معارضا، وهكذا فى كل شأن، أما حـين ترى الوظائف الأفضل لأبناء المسئولين، وخـدم المسئولين ويقصى عنها الأكـثر تفوقا فـاعلم أن البلاد تسير إلى الهـاوية، والعجيب أن هؤلاء الذين يستأثرون بكل شىء هم وأبناؤهم وخَدَمُهم ومواليهم الموالون لهم هم الذين يقـولون لا دين فى السياسـة، والدين هو العدل ويتـلخص دخول الدين فى السياسة فى العدل وحيثما كان العدل فثم شرع الله.

وقولـه سبحـانه ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ وذِكْرُ الأمْـر وأنَّ العدل بين الناس ليس منه، وإنما هو امتثال لأمـر ربه، وفيه أن هذا أمر الله الذى هو عليم بأحـوال خلقـه، وعليم بأضرار الـغبن، والظلم، وعليم بما يحـققـه العدل من مصالح البلاد والعـباد، ثم هو إشارة إلى أنه مما شرعه الله لنوح والنبيين من بعده، والآيات الحاثة على العدل بين الناس فى الكتاب العزيز آيات عظيمة، وكثيـرة، وأمره سبحانه عباده بالقيام بالقسط كـثير جداً وقد جـعل القائمـين بالقـسط قوامـين لله، ولفت إلى الشنآن وأنه يغـرى بنفى العدل، ولفت إلى المودة والقرابة، وأنها تغرى بنفى العدل، وحذر من ذلك كله، وقد أكثرت لأنى أرى أن سبب ضـياعنا هو الظلم، والقمع، والقهر، الذى يمارس على الشعب، ويدمِّرُ طاقاته ويقتل ولاءه لوطنه ولا تجد القهر

والقمع والترويع إلا حارسًا للسلب والنهب والفساد الذى يمارسه الكبار وخدم الكبار، والشعب الذى لا يحمى نفسه لا يحمى وطنه، وظلم الشعوب هو أخصر الطرق لضياع الأوطان، وهذا مما يجب أن نعلّمه لأجيالنا، وإلا ضاع كل شىء.

وقوله سبحانه ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ هو من قوله سبحانه ﴿آمنتُ بما أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ كما أن قوله ﴿وأُمِرتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ من قوله ﴿ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ وهذا المعنى تكرر كثيرًا فى الكتاب العزيز وقد جاء فى مقامات التقريب والتأليف بين أهل الأديان كما فى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] ومن أقوى الأصول الجامعة بين الناس عبادة الواحد الأحد وهى الأصل الذى يقيمون الدين عليه ولا يتفرقون فيه، ووجود الواحد الأحد فى قلوب الناس يجعلهم يتحابون، ولا يتباغضون، ويأتلفون ولا يختلفون، ويعصم دماءهم وأموالهم وأعراضهم ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وإذا كانت عبادة الواحد الأحد تجمع ولا تفرق فكذلك العدل بين الناس وخصوصًا حين يُؤمَرُ عليه السلام بخطاب الرافضين لدعوته وأن يقول لهم أمرت من ربنا وربكم بالعدل بينكم لأن العدل من رحمته ورحمته شاملة لخلقه وأنا مبلغ عنه ومطيع لأمره، فالعدل بينكم أمره المطاع، وحكمه، النافذ، وهذا من أعدل ما تؤلف به القلوب، وقد أمر عليه السلام بالدعوة إلى أصول الأديان الجامعة للناس بعد ما تفرقوا، ولذلك كان الكلام كله من باب التأليف والتقريب والملاطفة.

وقوله جل شأنه ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ جملتان تقرران حقيقة واحدة، ولذلك عطفت الثانية على الأولى. لأنها من تمام معناها وتقدم الخبر

في الجملتين ليفيد الاختصاص، وقد فصلت الجملة الأولى عن ما قبلها كما فصلت الجملة التى بعدها وهى ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لأن هذه الجمل مستقلة في معناها، كل واحدة منها مستأنفة لتفيد معنى مستقلا ليست التالية مؤكدة لما قبلها، وليست مضمومة لها بعاطف، لأنها من تمام معناها كالواو التى بين لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، وإنما هو نوع من الجمل كل واحدة منها معنى برأسه، كالجمل التى فى قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ١-٥] وقد جاء على نمط التعديد كما قال الزمخشرى.

وجملة ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ من الكلام المنصف كقوله تعالى ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] لأن الخطاب خطاب للرافضين لوحى الله بدليل قوله ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ وقوله بعد ذلك ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ وأعمال المؤمنين استجابة لأمر الله ونهيه، وأعمال المشركين ليست كذلك، ولكن الكلام سكت عن سوء أعمالهم، لأن المقام مقام تأليف، وملاطفة ومقاربة، ومعنى لا حجة بينا وبينكم إيذان بترك المقاولة، والمحاجة، لأن الحق قد ظهر ظهورًا لا يخفى. وبقيتم مصرين على العناد، فلا معنى للمحاجة معكم، لأن المحاجة مطلوبة فقط لإظهار الحق لمن يطلب معرفة الحق، أما إن ظهر الحق وبقى الخصم فى لجاجته وإنكاره فالكف عن المقاولة هو الواجب، وقد قال المفسرون فى الآية إنها تعنى المتاركة، فى المقاولة، وليست فى المقاتلة لأن المسلمين قاتلوهم بعد نزول الآية.

وإذا قلنا إن جملة ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ تشير إلى المتاركة إشارة ضمنية تكون جملة ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ مؤكدة لها، وإذا نظرنا إلى المتاركة التى فى جملة ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ وقلنا إنها متاركة ترجئ حسابهم إلى لقاء ربهم كانت جملة ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ مؤكدة لها، وإن كانت

المعانى التى تتوارد عليهـا هذه الجمل غامضة ولذلك قلنا إنها جـمل مستقلة، جاءت على نمط التعـديد، وهذا أولى من حملها على التوكيد، لأن الـتوكيد يكون غالبًا فى المعانى الأظهر.

وجملة ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ جملة حالية من جملة ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ لأنها تفيد أن المصير ليس إلا إليه، ولا محيد لهم عنه، وليس هذا المعنى فى جملة ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾.

وقد استظهر الطاهر معنى إلهيًا فى قوله ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ وبيانه أن الآية نزلت فى مـكة والمسلمـون قلة وقـد أخـبـرت الآية أنـه سـيـحكم فى المخالفين، وقد حكم فى بنى النضير، وبنى قريظة، وبنى قينقاع، وهذا جيد.

وبقى أن تـراجع الآية وأن تقـف عند منـقطع كل مـــعنى، تـقـــول ﴿فَلِذَلِكَ﴾ وتسكت وتراجع ما قبله مما أشـار اسم الإشارة إليه من أحوال الناس وقد طال عليهم الأمر وانقطعت الرسالات ونسيت وقست قلوبهم، وامتلأت الأرض بظلمـات الشرك، والوثنية، والبغى. والـظلم، والفرقة، وصارت الناس في حاجة إلى غـيث جديد يغسل الأرض من هذه الرذائل ويعيد فـيها فضائل الأنبـياء، ثم تقرأ ﴿فَادْعُ﴾ وتتأمل الأمر بالبلاغ وهو أمر خاص به فى أول الأمر وتتأمل أبعاد مـا يدعو إليه من بر وعدل وخير ونور، ثم تراجع كلمة ﴿اسْتَقِمْ﴾، وكيف اتسع مـعناها فشـمل سلوكه المستـقيم صلوات الله وسلامـه عليه وأن شـأن كل من يدعو إلى شىء أن يكون هو قد تلبس به فلا يدعو إلى الأمـانة خائن، ولا يدعو إلى الطهارة من دنست نفسه الأهواء، كـما شمل الاستقامـة فى الدعوة وأن تدعو إلى الله بما أمـرت به فلا تزيد حـرفـا ولا تنقص حرفـا ثم راجع ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ وكيف كانت هذه الجملة كأنهـا سور يحيط بالدعوة يدفع عنها كل ما ليس مـنها من أهواء النفوس، وكـيف يؤمر الداعى بالنـهى القاطع

عن اتباع غير ما أمر ببلاغه، ثم تراجع كل هذا لتجده كله موجه إلى ذات الداعي صلوات الله وسلامه عليه، وبعد تحصيله هذه الأصول يؤمر بمخاطبة الناس. وأول ما يقوله في خطابه ﴿آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ فيصل نبوته بنبوة كل من سبقوه ممن اصطفاهم الله واجتباهم، وبعدما يخبرهم عن عقيدته يحدثهم عن عمله فيهم، وأعلاه وأسناه، هو العدل بمعناه المتسع الذى يأمن فيه كل ذى حق على حقه، ويأمن فيه كل مظلوم ويأمن فيه الأقوياء والضعفاء معهم، وليس ذلك في الخصومات وحدها.

ثم بعد ما يشير إلى عمله فيهم يدعوهم إلى الله الذى هو ربنا وربكم أقررتم بذلك أو أنكرتم ولنا عملنا ولكم عملكم، وهكذا تجد الجمل قصيرة جداً، ومعناها لا حدود له، وتُريك رأى العين حقيقة ما قصر لفظه وطال معناه، وأنا في كل ذلك أحاول أن أقربك من بلاغة هذه الجمل لأنى وقفت عندها كثيرًا ولم أستطع أن أصف ما فيها، ولا أن أحدِّث بما فيها، وإنما ينال قلمى من حولها ما يناله، ويبقى إعجاز البيان ومعه العجز عن بيانه، والله يفتح باب كلامه لمن يشاء، والإعجاز بالنسبة لى وحدى إعجازان: إعجاز في آيات الله، وإعجاز فينا يعجزنا عن إدراك كنه الإعجاز الذى في الآيات، وأقول إدراك كنهه وأنا أعنى وصفه وتحليله ووضع اليد عليه، وهذا شيء وإدراكه من غير وصفه وتحليله شيء آخر، وهذا الإدراك من غير هذا الوصف هو الذى كلفنا به، وهو الذى لا مشاحة فيه وهو الذى يستطيع من يرومه أن يصل إليه

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦].

راجع الآيات من قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ وبين الروابط التى بينها وبين هذه الآية وكيف تصف هذه الآية الجماعة المخذولة المنتكسة بعد ما سمعت ما أمر عليه السلام ببلاغه.

ثم راجع علاقة هذه الجماعة بنظائرها التى أشارت إليها السورة وأن الآيات كلما تجلت وسطعت جاء ذكر هذه الجماعة، وأنهم اتخذوا أولياء من دون الله، وأنه كبر عليهم ما يدعوهم عليه السلام إليه، وهى الآن تأتى بعد الأمر بالدعوة والاستقامة والنهى عن اتباع أهوائهم، ولا يكفى أن تربط هذه العناصر المتشابهة بعضها ببعض. وإنما المهم أن تربطها بالأصل وهو ﴿**كذلك يوحى إليك**﴾ الذى رأيته يتمدّد فى السورة ويأتى مرة ثانية فى ﴿**وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا**﴾ ثم يأتى مرة ثالثة فى ﴿**شرع لكم من الدين**﴾ ثم يتحول إلى واقع عملى فى قوله ﴿**فلذلك فادع واستقم**﴾ وهذه الفئة الضالة كأنها مع هذا التيار الأهم والأشمل هى السُّبل المتفرقة عن سبيله سبحانه، وهذه النظرة العامة مهمة جداً.

ثم تعود إلى التشابك الجزئى الداخل فى هذا التكوين العام فتجد هذه الواو التى تبدأ بها الآية عاطفة لها على قوله: ﴿**وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب**﴾ وما عطفت عليه من قوله: ﴿**وأمرت لأعدل بينكم**﴾ وما جاء من توابعه إلى قوله: ﴿**وإليه المصير**﴾ وهذا الجزء المتماسك عطف عليه قوله: ﴿**والذين يحاجون في الله**﴾ إلى آخر الآية ولاحظ التضاد بين ﴿**آمنت بما أنزل الله من كتاب**﴾ الذى هو رأس المعطوف عليه، وبين ﴿**والذين يحاجون في الله**﴾ وهو رأس المعطوف وكيف يكون ذلك تحليلاً مستوعبًا للحقيقة من وجهيها.

ثم كيف يكون الربط بين المتناقضات شارحًا لأهل الله حقيقة أزلية هل أنكم واجدون من ينكر الحق ويحادُّه مهما ظهر وسطع وبَهَر، وهذا من نعم الله على جنده من أهل الحق، لأنهم سيكونون على ثغوره دائمًا حراسًا لا تنام عيونهم، وهم بذلك ينصرون الله، ولا يلقى المسلم ربه بشىء أفضل من أن

تكون حياته كلها في نصرة الله، ونصرة الحق، ونصرة دينه، والله غني عن العالمين إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد، وإنما هو المَنّ والفضل وإتاحة الفرصة لمن يرغب في أن يلقى الله وقد جاهد في سبيله.

وراجع العبارة عن هذه الفئة الضّالّة في هذه الآية وفي الآيات السابقة تجد أنها هنا قد طوّرت موقفها وذلك لأنها في الآيات السابقة وُصفت بأنها اتخذت من دون الله أولياء، وأنها كبر عليها ما يدعوها ﷺ إليه من الإيمان بالله الواحد الأحد، ولم تزد الآيات عن هذا، وهذا يعني أنها ضلّت في نفسها، ولم تحاول أن تشكك أهل الإيمان في إيمانهم، وهي هنا لم تذكر من حيث إنها اتخذت من دون الله أولياء، وإنما ذكرت من حيث حَرَكَتُها وفعْلها وتلبيسُها ومجادلتها للذين استجابوا لله، يعني صارت جماعة تبشير قديمة، لم تكتف بكفرها وإنما تعمل لتضليل من آمن، وعودتهم إلى الوثنية أو تنصيرهم، أر تهويدهم، ولهذا كان الكلام عنها مختلفًا اختلافًا ما وأول هذا الاختلاف أن الكلام عنها هنا أطول، والثاني أنها صوّرت صدامَهم وحَرْبهم أنه صدام مع الله، وحرب مع الله، ولم يكن مع الناس. بدليل قوله ﴿يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾، فالمحاجة في الله، ولم يقل يحاجون الناس. وكلمة ﴿اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ نص في أنهم يحاربون الله، وذلك بحذف فاعل الاستجابة وهم المؤمنون الذي دعاهم ربهم فأجابوا، وهذا الحذف غيب الجماعة التي استجابت، وجعل التحدي والمنازعة في الذي استجيب له جل شأنه، وهذا تطور آخر أهول، وأشنع من اتخاذهم أولياء من دون الله.

ثم إن الآية أشارت إلى أن هذه الفئة لم تكن أفرادًا معزولين كل يسعى فيما يسعى إليه، وإنما هم جماعة وهيأة. وإسناد الفعل إليها يعني أنها كانت تقول بلسان واحد وتحاجج وتجادل على مذهب واحد وطريق واحد، وهذا تنظيم قديم وعجيب ولهذا قلت: إنه يشبه الهيئات التبشيرية التي كانت

بالأمس البعيد تتحرك فى أطراف الممالك الإسلامية فى أفريقيا وآسيا وتتجنَّب القَلْب الذى هو بلاد العرب، وبعدما اقتحمت هذه الهيْئات بلاد العرب، وأقامت لها قواعد وأسكنت جنودها فى أعز وأعرق بلادنا، قام التبشير فى قلب هذه البلاد، ولا يجوز أن تظن أن جنودهم وقوتهم واحتلالهم وسيطرتهم على الثروات والسياسات بمعزل عن عقائدهم وقيمهم وثقافتهم، ويكفى أن تُبنى كنائس كبيرة على أرض ليس فيها مسيحى واحد. ثم إن هؤلاء الذين يحاجون فى الله طبعوا معركتهم مع الله بطابع عقلانى وفكرى، ومنطقى، وإن شئت قلت أعطوها طابعًا فلسفيّاً. وذلك باتخاذهم طريق المحاجة سبيلاً لحرب الله، فالمحاجة تعنى أن يذكر كل طرف حجته، وعلى الآخر أن ينقضها ثم يذكر حُجَّته، وكأننا أمام تيَّارين يتعارضان ويتصادمان؛ وإذا كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد ندبه ربه وبعثه لرأب الصدع الذى اختلت به العقائد والمعارف الروحية والسلوكية فى ولد آدم، لما طال عليهم الأمد، وغابت عنهم آداب النبوات من عهد نوح والذين بعده، فإن هؤلاء ندبوا أنفسهم للمجادلة فى الحق، والمحاجة فيه ولهذا تجد التغاير الشديد والمقابلة الحاسمة بين هذه الآية والآية التى قبلها، هناك منطق هادئ وصافى ومُرْضى ﴿**وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ**﴾ وتجد هنا لجاجة وصخبًا ومغالبة وتلبيسًا وتدليسًا، وهذا وغيره هو شأن المحاجة فى الحق.

والحجة الداحضة هى الحجة الباطلة، والدحض المكان الذى لا تثبت فيه قدم لشدة زَلَقه، وهذا أبين تعبير عن إبطال الحجة، وأنها لا تَثْبُت وإنما هى شديدة الاضطراب، شديدة الزلل، شديدة السقوط، وقد سبق فى أمر الله لرسوله أن يقول لهم ﴿**لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ**﴾ يعنى انتهت المحاجة بظهور الحق، لأن المحاجة ليس لها غرض إلا إظهار الحق، فإذا ظهر فقد انتهت مهمتها، وهم قد رأوا الحق رأى العين، ثم حاجوا لإبطاله شأنهم فى ذلك

شأن نظرائهم من أهل الباطل فى كل زمان، وكلمة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ المراد عند الذين استجابوا لله وأن لحاجتهم هذه لن تجد من أهل الإيمان إلا رفضًا وزارية، وإنما قال عند ربهم للإشارة إلى أن الذين استجابوا لله عنده سبحانه بمكان، وأنهم حين يدفعون عن دين الله إنما يدفعون بيد الله وأنهم حين ينصرون دين الله إنما ينصرون الله وهذا من كريم عطاء الله لأهل الحق، لأنه سبحانه غنى عن العالمين. وقال ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ولم يقل عند الله كما قال ﴿الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ للإشارة إلى جهلهم والتشهير بهم، وذلك من جهتين الأولى أنهم يحاجون فى الله الموصوف بكل كمال والمنزه عن كل نقص. والثانى أنه ربهم الذى أنشأ لهم السمع والأبصار ورزقهم من الطيبات.

وراجع تركيب الآية وهى مكونة من مبتدأ وخبر، وقد عطف خبر إن على الخبر الأول ولاحظ ترتيب المعنى. الخبر الأول حجتهم داحضة عند ربهم وقد أفاد هذا الخبر إبطال الحجة وبوار ما احتفلوا به واحشتدوا له ووقف هذا الخبرُ عند بيان بوار المسعى من غير أن يزيد، ثم جاء المعطوف الأول ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ وهذا بداية العقاب، وهى بداية مفزعة ترى ذلك فى تنكير الغضب، وإطلاقه، فهو غضب أى غضب، لا يقادر قدره، ولا يدفع حَدُّه وتقديم الجار والمجرور يعنى أنه غضب مخصوص بهم، ومقصور عليهم، من دون أهل الباطل لأن الأفظع من الباطل هو محاولة هدم الحق، وهؤلاء تجاوزوا الضلال إلى الإضلال وتجاوزوا الكفر إلى التكفير، وصاروا كالخلايا السرطانية تنشط لتدمير ما حولها، ثم إن حرف الاستعلاء دال على أن الغضب مُسْتعلٍ عليهم، وقاهر لهم، ثم إن الغضب مطلق فلم يقل عليهم غضب من الله وإن كان هذا مآل المعنى وإنما فى هذا الإطلاق إشارة إلى شيوع الغضب عليهم من الله والملائكة والناس أجمعين، والجملة الثانية قوله سبحانه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وإذا كانت التى قبلها أفصحت عن الغضب وأضمرت معنى العذاب الذى هو

لازم للغضب فإن هذه أفصحت عن العــذاب، وأضمرت معنى الغضب، وكان من الممكن أن تبنى الجملة هكذا ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ لهم عذاب شديد وله نظائر كثيرة مما ترى فـيه الاسم الموصول مشعرا ببناء الخبر، وإنما جـاء الكلام على ما جاء عليـه متنقلاً من معنى إلى مـعنى، حتى انتهى إلى العــذاب الشديد وقبل أن يصل إليه أشــار أولاً إلى خيبة مــسعى من يحاج فى الله من بعــدما استجيب له، لأنك لا تجـد أحدًا خرج من هذا الدين بعــدما دخل فــيه إلا أقل من الأقل وأن المحــاجِّين فى الله فى كل زمــان وفى زماننا هذا يرجعــون دائمًا بالخيبة وبسببــهم يزداد المسلمون تمسكًا بدينهم فلم تر التدين فى مصر ازدهر كما رأيناه يــزدهر فى عصور الهجوم على الإسلام، وإن كان الهــجوم على الإســلام ليس سافــرًا وإنما يكون تحت ســتار الهجــوم على السلفيــة، أو التطرف، أو الإرهاب، أو الوهابية أو الجماعــة المحظورة إلى آخر ما تسمــع إن كنت ممن يسمع، أو إلى آخر ما يضــحك إن كنت ممن يضحك على ما نحن فيه من عماية فقوله ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ لبيان خيبة مسعاهم، وهو حكم شامل لهم ولكل من كان على شاكــلتهم ممن يريدون أن يطفئوا نور الله، والله يأبى، وإذا كانت هذه بَيَّنَت خيبة المسعى فإن الثانية تبين الذى حصَّلُوه من هذا المسعى، وهو الغضب، ثم تأتى الثالثة وتبين ما يوجبه هذا الغضب وهكذا ترى الكلام يتواصل من غَوْر معناه. واللام فى قوله ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ فيها إشارة إلى أن العذاب أعدّ لهم كما يُعَدُّ النُّزل للضيف وتجـد مصاقبة فى بناء الجملتين المتواردتين على مَعْنَى واحد ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هذه المصاقبة فى تقــديم الخبــر الجار والمجــرور، والمجىء بالمبتــدأ النكرة، وراجع الجملتــين ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وضع هذا بإزاء ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾.

وجدير بالذكــر أن مواقف المحادِّين لديــن الله متشــابهة تشابهًــا شديدًا فى الأزمنة كلها، كما قال سبحانه ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨] وإذا كانت هذه الآية نزلت فى مشركى مكة، فإنك تراها كـأنها نزلت فى زماننا ولأعداء

دين الله منا، ومثلها كثير جداً أراها مُفَصَّلة على الذى حولى وكأنها نزلت اليوم لهم، وليس هذا غريبًا ما دمنا نعتَقَد أنه كلام الله الذى يعلم ما كان، وما يكون، وقد تستخرج هذا المعنى من صيغة المضارع فى قوله ﴿يُحَاجُّونَ﴾ لأنها تعنى أنه متجدد فى الزمان كله.

قوله سبحانه ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾.

هناك تنوع شديد جداً فى بيان روابط الآية بالآية التى قبلها وبالآيات الأخرى التى كونت السياق وكل ذلك مهم أما علاقة هذه الآية بالآية قبلها وهى قوله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِى اللَّهِ﴾ فهو أنها استأنفت حديثًا لبيان بطلان هذه المحاجة، وذلك لأن قوله سبحانه ﴿اللَّهُ الَّذى أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ يفيد أنه سبحانه أنزل الكتب مقترنة بأدلتها القاطعة على أنها من عند الله فلا وجه للمحاجة فى ذلك.

وهذا هو المفهوم من كلمة أنزل لأن الإنزال لابد له من دليل ثم إن كلمة ﴿بِالْحَقِّ﴾ تحتمل أنه أنزله مقترنًا بالحق وملتبسًا بالدليل الذى ينفى عنه الباطل، والمحاجة واللجاجة. ويحتمل أنه نزل بالحكمة التى تهدى الناس وتخرجهم من الظلمات إلى النور، وتدلهم على الخير النافع، والحافظ لهم فى الأولى والآخرة.

كل هذا لا ينفك عن الدليل والبرهان البين، فإذا رجعت إلى الوراء قليلاً رأيت هذه الآية من تمام معنى قوله تعالى ﴿وَقُلْ آمنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ وكلمة ﴿أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ مكررة فى الآيتين ثم كلمة ﴿الْمِيزَانَ﴾ ترجع رجوعًا ظاهر إلى كلمة ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ ثم

إنك ترى جملة ﴿اللَّهُ الَّذي أَنزَلَ الْكِتَاب بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ تُوطِّئُ تَوْطِيئًا ظاهرًا لذكر الساعة، لأنه لا معنى لنزول الكتاب بالحق، إذا لم يكن هناك بعث وحساب وجنة ونار، ثم إن الميزان الذى رأيناه راجعًا إلى العدل نراه يوطئ لذكر الساعة والحساب والجزاء وأن ﴿مَن ثَقُلَتْ موازِينُهُ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦ ، ٩] ثم إنك تجد ذكر الساعة يأتى ضرورة عقب ذكر العذاب الشديد لأن هذا العذاب الشديد لا يتصور وجوده من غير ذكر الساعة التى هى البعث والنشور والحساب، وهكذا نجد خيوطًا كثيرة تشُدُّ الكلمات بعضها إلى بعض. ومن المعانى الدقيقة فى هذه الجملة ﴿اللَّهُ الَّذي أَنزَلَ الْكِتَاب بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ أنها ضمت فى طرفيها القصيرين الحياة الدنيا والآخرة، وأن إنزال الكتاب يشد إليك قصة النبوات من أول السورة، ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذين من قَبْلِكَ﴾ وكلمة ﴿الْمِيزَانَ﴾ تشد إليك الآخرة والحساب والجنة والنار، ﴿ولَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [البقرة: ١٣٩] ﴿وَالَّذين اتَّخَذُوا من دُونِه أَوْلِيَاءَ﴾، ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّه﴾ إلى آخره وهذا لو تأملته وجدته اختصارًا عجيبًا جداً.

وقوله جل شأنه ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ هذا الخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فإنه لكل من يصح منه الخطاب بعده صلوات الله وسلامه عليه، وما فى قوله ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ هى ما الاستفهامية وكلمة ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ تجعل القارئ المتدبر يكاد يشعر أنها من ورائه وأنها تكاد تخطفه وأنها المجهول الذى لا ندرى متى ينزل بنا وهذا ليس بعيدًا عن تهديد الذين يحاجون فى االله من بعدما استجيب له وتقريب زمن العذاب الشديد.

قال ابن عباس كل ما جاء فيه ما أدراك فقد أعلمه الله به عقب كلمة ما أدراك كقوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ نَارٌ حامِيَةٌ﴾ [القارعة: ١٠ ، ١١] وكل ما جاء فيه وما يدريك لم يعلمه به نحو ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾

قال الطاهر ولعل معنى هذا الكلام أن الاستعمال خص كل صيغة من هاتين الصيغتين بهذا الاستعمال فتأمل. ولعل الشيخ الطاهر أراد بالتأمل البحث عن وجه الإعلام مع الماضى وعدم الإعلام مع المضارع، وقد تأملت كما نصح الشيخ فلم أجد إلا أن الماضى يعنى أن حدثًا قد مضى فكان مظنة أن يكون حقيقا بأن يعلم. والسؤال أى شيء أدراك؟ غير السؤال عن أى شيء يدريك؟ السؤال عن الماضى يعنى مضى الزمن ولم تعلم ونحن الآن نعلمك والسؤال عن المضارع ليس فيه هذا المعنى. المضارع دال على الحال أو الاستقبال هذا والله أعلم.

وجاء ﴿قَرِيبٌ﴾ بلفظ المذكر للإشارة إلى معنى الوقت أو المجيء أو الإتيان يعنى وما يدريك لعل وقتها قريب أو مجيئها قريب.

وقوله جل شأنه ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الجملتان متقابلتان لأنهما يخبران عن طائفتين متخالفتين، وهناك فروق فى الصياغة لها دلالات مرتبطه بالطائفتين أولها تقديم جملة ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ لأن الكلام موصول بدحض المحاجة فى الله، وذكر الساعة موصول بزمن الغضب والعذاب الشديد. والثانى أن الكلمة التى تخبر عن الذين لا يؤمنون جاءت بصيغة الفعل المضارع ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾ لدلالتها على حدث يتجدد لأن هذا الاستعجال كان على سبيل الاستهزاء لأنهم لا يؤمنون بها وكان هذا الاستهزاء يتجدد منهم ويحدث وقتًا بعد وقت وتجد مفاجأة وتدافعًا فى إسناد فعل ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾ للذين لا يؤمنون لأن الأصل أنهم لا يؤمنون بها فكيف يستعجلونها؟ وكأن الإخبار باستهزائهم كان مصحوبًا بهذه المفارقة لمزيد اللفت إليه، والإخبار عن المؤمنين بها جاء بصيغة الاسم ﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ للدلالة على أن الإشفاق دائم وثابت، قال الراغب والإشفاق الخوف المشوب بالعناية، فإذا غلب الخوف عدى بمن كقولنا

أشفقت منه وإذا غلبت العناية عدى بعلى كقولنا أشفقت عليه، ثم إن الجملة الثانية ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ألحقت بها جملة حالية، ذات معنى جليل فيها وهى قوله سبحانه ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ وجاء فعلها مضارعًا لأن علمهم بها يتجدد لأنهم يذكِّرون أنفسهم بها وهذا التذكير يحدث فى الوقت بعد الوقت ويجدد العلم بها، وهذا التجديد للعلم بها هو الذى أورثهم الإشفاق الثابت الدائم. ثم الخبر عن الذين لا يؤمنون جاء بجملة فعلية. والخبر عن الذين آمنوا جاء بجملة اسمية. وقد تقدم الجار والمجرور على الفاعل فى قوله ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، وهذا التقديم أفاد فائدتين الأولى معنوية وهى العناية بشأنها والاهتمام بها لأن المقام مقام بيان استهزائهم بها وهذا تسجيل عليهم. والفائدة الثانية هى هذا التعادل الصوتى الذى تجده فى قراءتها وأن هذه الجملة كأنها فلقتان الأولى ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾ والثانية ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ وتجد كلمة ﴿بِهَا﴾ هى نهاية المقطعين وهذا مما يورث الكلام سلاسة وعذوبة ويهيئ لوقوع المعنى فى الفؤاد، وهذا هو الفقه الحقيقى لما سماه العلماء المحسنات اللفظية وصاحب هذا الفقه هو عبد القاهر، ولو رجعنا بالجر والمجرور إلى موضعه لكان الكلام يستعجل الذين لا يؤمنون بها بها وكررنا كلمة بها لأن الأولى متعلقة بيستعجل والثانية متعلقة بالفعل يؤمنون فكان لابد من وضع كل متعلق بإزاء فعله.

وقوله سبحانه ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ المعلوم فيها يعنى الذى وقع عليه العلم مؤكد بما ترى لأنه هو أصل الاعتقاد، والحق مصدر يعنى يعلمون أنها ذات الحق كما تقول زيد العدل فلم تكتف بالإخبار بالمصدر وإنما أدخلت لام الجنس الدالة على الكمال، وهذا هو علمهم واعتقادهم، وأنها الحق الخالص الثابت الذى لا يداخله شك، وقد ذكر الشهاب أن الحق هنا بمعنى المتحقق يعنى وضع المصدر موضع اسم الفاعل. ويمكن أن تقول إن قوله سبحانه

﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ دال على أنهم يعلمون أنهـا الحق لأنهم لا يخافون إلا إذا كانوا مستيقنين منها فلماذا ذكـر يعلمون أنها الحق. بعد ما دل عليه ما قبله، والجواب هو أن المقصود التنويه بالعلم الهادى إلى الحق وهذا قريب من قوله تعالى فى سورة غافر ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر ٧] فقـد قال يؤمنون بعد يسبحون وهـم لا يسبحون إلا لأنهم سـؤمنون، وإنما نص عليه لبـيان أن الإيمـان بالله عند الله بمكان، قوله جـل شأنه ﴿أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ تأمل الكلمات والتـركيب وأول شىء هو بناء هذه الجملة على القطع والاستئناف أما القطع فقد كانت الجملة قـبلها عن الذين يؤمنون بها ويعلمون أنها الحق، وأما الاستئناف فلمجيئهـا من غير واو، والقطع مشعر بأهمية المعنى الذى كان بعد القطع، وهو هنا دلالة هذه الجمـلة، لأنها هى الجملة التى تهدد الذين لا يؤمنون بها، واقرأ الآيات من قوله سبحانه ﴿اللَّهُ الَّذِى أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ لا تجد كلمة تتوعد هؤلاء المستهزئين بالساعة، وكأن الآيات وصفت حال الفريقين، ثم وفَّرت تهديد هؤلاء المتمردين للجملة الأخيرة فقطعت لها الكلام واستأنفت بها، ثم فتـحتها بقوله ﴿أَلا﴾ وهى أداة استفتاح لا يؤتى بها إلا مقدمة كلام له خطر وله بال، ثم جـاء التوكيد بإن واللام الواقعة فى الخبر، وكل هذا رجـوع إلى الذين لا يؤمنون بها، وكأن ذكر المشفـقين منها كان لزيادة بيـان حال الساخرين، وذلك بمقـابلته بهؤلاء الصـالحين الوجلين المشفقين، ثم إن اسم الموصول جئ به ولم يقل المشركين ولا الضالين؛ لأن اسم الموصول هو الطـريق الذى معه يتـأتى التصريح بالـصلة وهى يمارون، والممـاراة التـشكيك والملاحـاة والمـلاجـّة وأصله من مَـرَيـتُ الناقـة إذا استخرجْتُ لبنها بالحيلة، والخـديعة، والذين يمارون فى الساعة يشككون بأكاذيـب وحيل وأوهام كـما تَمْرِى الـناقة بالخـداع والكذب، وصيـغة

المضارع تعنى أنهم لا يفترون فى مزاولة هذه الأكـاذيب التى يحاولون فيها التشكيك فى الساعة، وإنما جاءت هنا كلمة الساعـة مع أن لها أسماء كثيرة، وقد سبق منها ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ لأن الساعة فيها معنى محدد؛ وهم يصعقون فى وقت محدد، لا يستـقدمون، ولا يستأخرون، ولهذا كان فيهـا تخويف وخصوصـًا بعد قوله ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ ودلالة ذلك على أنها قد تكون من ورائك، وقد تكون من أمامك، أو عن يمينك، وشـمـالك، وأنت لا تدرى مـتى تخـتطف، ولاحظ أننـا لازلنا مع الذين يحاجـون فى الله من بعد ما اسـتجيب لـه، ونَسْتَصـحب الذين اتخذوا من دونه وليا، وفـريق السعـير، والذين كَـبُر عليـهم ما تدعوهم إلـيه، والذين عليهم غضب، ولهم عذاب شـديد، وأصحاب يوم الجمع الذين أوحى الله إليك قرآنا عربياً لتنذرهم به.

وقوله ﴿لَفِي ضَـلالٍ بَعِيـدٍ﴾ الضـلال مصـدر ضل ضـلالاً، وهو عكس الاهتداء والمهتدى هو الذى رأى العلامات التى تهديه إلى الطريق، والضال هو الذى افتقد كل علامة تـدله على الطريق، وبقى يتخبط لا يدرى فى أى جهة يتجه، وحـرف الظرف يفيد أنه منغمس فى الضـلال منهمك، وَمُتَهَـوِّك فيه، وقد صار الضـلال وعاء يحيط به، والبعيـد هو الضلال الموغل فى الضلال، والذى أبعد فيه الضال وانقطع رجاؤه، والذين يمارون فى الساعة لم ينكروها فحسب، وإنما يُموِّهون بأكاذيب وأباطيل، وأوهام، يضلـون بها غيرهم، فهو ضال يهـدى إلى الضلال، وهذا هو إبعـاده وللشيخ البـيضاوى تدقـيق أعلى وأرفع لأنه نظر إلى الأدلة المتظاهرة عـلى قيام الـساعة والبـعث فوجـدها فى ظهـورها صارت كـأنهـا من المحسـوسـات؛ لأن الله نصب الأدلة على ذلك وجعلهـا لعبـاده فى شدة ظهورها كـأنها ترى بالعـين، من مثل قـوله تعالى ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي

أَنشأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩] وقوله سبحانه ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] وغير ذلك كثير مما لا يجوز لذى عقل أن يتردد فى قبوله، ولما مارى هؤلاء فى شأن الساعة كأنهم يمارون فى المحسوسات، وينكرون ما هو ظاهر ظهور الشمس ليس بينك وبينها حجاب، ومن أنكر هذا فهو فى ضلال بعيد، قال رحمه الله «فإن البعث أشبه الغائبات إلى المحسوسات فمن لم يهتد لتجويزه، فهو أبعد عن الاهتداء إلى ما وراءه» انتهى كلامه. وقوله إن البعث أشبه الغائبات إلى المحسوسات كلام رفيع جداً لأنه من كلام أهل اليقين، وكان علماؤنا ومنهم البيضاوى قادرين على تركيز الحقائق العلمية الجليلة فى لغة قصيرة حلوة فيحفظها القلب وتصبح من ودائعه ولآلئه. وهذه الفاصلة جامعة لمعانى الآيات من قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ وهم الذين يمارون فى الساعة، وهم الذين لا يؤمنون بها ويستعجلون بها، وهم الذين عليهم غضب وهذا ظاهر ورد العجز فيه إلى الصدر ظاهر أيضًا.

قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾.

كلمة عباده فى قوله سبحانه ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ شاملة للمؤمن والكافر، والبر والفاجر، يعنى شاملة للذين يمارون فى الساعة، والذين هم فى ضلال بعيد، والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له، والذين يستعجلون بالساعة استهزاء، والذين كبر عليهم ما تدعوهم إليه، والذين اتخذوا من دونه أولياء، إلى آخره، وكان الظاهر أن يذكر بعد الذين يمارون فى الساعة شيئًا من غضبه وقهره وعقابه الشديد ولكن الآية جاءت على وجه من الترتيب أدق من هذا الظاهر، وهو أن الله سبحانه لما وصف سوء أعمالهم وأشار إلى عقابه

وغضبه الشديد علـى من يزاول هذا الكفر وهذا الباطل وهذا الإنكار فتح باب الأوبة إليه، وذكّـر بلطفه لعبـاده، وأن هؤلاء الذين زاولوا ما زاولوا مما يوجب العـقاب والغـضب الشـديد لو رجعـوا إلى الله لوجـدوا بابه مفـتوحًـا، ولوجـدوا منه اللطف بـهم، وليس العنت، وليس العـتـاب فـضـلاً عن العقاب، وإنما يجدون الرفق، والقبول والعطاء، وهذا الوجه من الترتيب قلما يكون فى كلام الناس. لأن النفس البشرية لا تتـسع لأعدائها على هذا الوجه، وقصاراها أن تغمض العين عن السوء، أما أن تكون رفـيقة، أليفة معطية، لمن عاندها، وحادها، وحـاربها، فإن طبعها لا يُعـينها على ذلك، ولهذا لو قلت إن وجه ترتيب هذه الآية على ما قـبلها من وجوه الترتيب التى لم نعـرفها فى غير الكتاب العزيز لم تكن مبعدًا، ولا أذكر أنى وجدت معنى كهذا مرتبًا على معنى كالـذى قبله، فيما قـرأت من شعر، وقد رأينا شـدة الغضب فى الآيات التى ترتبت عليها هذه من مثل قـوله سبحانه ﴿وَعَلَيْهِم غَضَبٌ﴾ ومثل قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ومثل قوله ﴿لَفِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

وترى فى هذه الآية شدة المقـاربة، وعظيم البر، وبالغ الرحـمة، وذلك فى كلمات ﴿لَطِيفٌ﴾ ﴿بِعِبَادِهِ﴾ فاللطيف لهـا دلالة بمادتها وصيغتـها أما دلالة الصيـغة فـهى المبالغة فى اللـطف، وأما دلالة المادة فإن اللطف هـو النفاذ إلى دقائق مـا يخفى. والوصول إلى المكامن البـعيدة ببالغ الحـذق، وبالغ الدقة، وبالغ الرفق، والمراد أن برّه يصل إلى عـبـاده بمقدار وصـول لطفه إلى أخـفى أحوالهم، وأدق مكامن أوجـاعهم، وأن هذا البـر عام، لخلقه جـميعًـا، البر والفاجر، ونعمه غـامرة لظاهرهم وباطنهم، ولا خلاف بين العلماء فى ذلك، وإنما الخلاف هل هذا من النعم أم من الابتلاء والإملاء، وهل هو من الرحمة، أم من البلاء، وأراه من النعم، والرحمـة، لأن الله ينادى عباده جميـعًا إليه، ويخوفهم من عقابه ويحذرهم من نفسه، وكل هذا من باب النعمة والرحمة.

وللإمام الغـزالى تفسير جـيد لمعنى اللطف نقله عنه الخـفاجى والألوسى قـال رحـمـه الله: «إنمـا يسـتـحق هذا الاسم من يعلـم دقـائق المصـالح وغوامضـها، وما دق منها، ولطف، ثم يسلك فى إيصالهـا إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف، فإذا اجتمع الرفق فى الفعل. واللطف فى الإدراك تَمَّ معنـى اللطيف، ولا يُتصـور كمال ذلك إلا فى الـله تعالى شأنـه»انتهى كلامه وهذا الكلام جيد وفقه واع لمعنى اللطيف.

والرازى يشير إلى حـسن موقعهـا، وترتيبها على ما قـبلها، والطـاهر ابن عاشور يـشير إلى حسن موقـعها، وترتيب ما بـعدها عليها، أمـا ما قاله الرازى فهو راجع إلى موقعها من سياق السورة، والمعنى الأم الذى تدور حوله السورة، وهو ذكر الكتاب، وأن اللطيف إشارة إلى لطف الأدلة المشتمل عليها الكتـاب، وهذا جيـد ثم إن فى اللطيف مـعنى آخر وهو عـدم معـاجلة أهل الضـلالة بالعـقـوبة، وإمـهالهم، وإعـطائهم الوقت، وتعـهـدهم بالموعظة، وتَخَوُّلهم بالأدلة السـاطعة ليُنِيبَ منهم من أراد أن يُنيب، وأنه «لما سـبق ذكر إيصال أعظم المنافع إليهم، ودفع أعظم المضار عنهم لا جرم حسن ذكرها هنا» وهذا هو جـوهر سـداد سـوقـعـها، لأن إيصـال أعظم المـنافع، ودفع أعظم المضار، لا يكون إلا من اللطيف بعباده، وهـذا يعنى أن الآية متشابكة مع كل ما مضى فى السورة، وأن ثـمَّة سببا يظهر، ويخفى بربطهـا بالسورة من أولها فهى رادة إلى ما قبلها، وموصولة به.

والطاهر ينظر إليها لا من حيث رجوعها إلى الذى مضى. وإنما من حيث إنها تفتح الباب للذى يأتى بعدها، ويرى أن قوله سبحانه ﴿**اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ**﴾ جىء به بسطًا وتوطئـة، وتمهيدًا، لقـوله بعدها ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ**﴾ لأن هذه الآية هى المعنى المقصود من الاسـتئناف المبتدئ بآية ﴿**اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ**﴾ ومن المفيـد أن نقف كثـيرًا عند هذا لأن الكشف عـن الروابط وأسرار

الترتيب فى آيات الكتاب وجُمَله لا تزال كأنها لم تدرس وإنك لترى ضروبًا من التداخل والتشابك مُتَنَوِّعَةً جداً فقد يكون المعنى فاصلة لجملة مَعَانٍ سَبَقَتْ، ثم هو رأس معنى جزئى سيق لبيانه، ثم تراه نفسه موصولاً بالغرض الأصلى للسورة، ثم تجده مُهيئًا لكلام يأتى بعده، وكل هذا لا يتولد إلا من غزارة المعانى. وتقاربها، وأنا كلف بالوقوف عند هذا الجانب واستكشاف الخيوط التى نَسَجَت الكلام من أوله إلى آخره، وكيف بدأت وكيف تحركت؟ ومتى ظهرت؟ ومتى خفيت؛ وأى خَيْطٍ آخر اتصل بها؟ وكيف اتصل؟ وكيف تلاقت الخيوط؟ وكيف صِيغتْ؟ هذا الشيء العظيم الذى هو بين أيدينا يستوى أن يكون سورة من سور القرآن أو قصيدة من الشعر أو رسالة أو خطبة أو ما شئت.

وقوله سبحانه ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ خبر ثان للفظ الجلالة والخبر الأول لطيف بعباده، وليس معنى يرزق من يشاء أنه سبحانه يخص بعض عباده بالرزق ويدع البعض. لأن هذا يتدافع مع ﴿لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾، لأن من معانى اللطف الرزق والنعمة، لأن اللطف من البر، وإنما المعنى يقدر الرزق بمشيئته، وعلى وفق حكمته التى يعلمها، فيبسط رزق هذا، ويقدر رزق ذاك، ثم إن الله سبحانه أوجب على نفسه رزق خلقه من الإنسان والحيوان والطير، فى قوله تعالى ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وقوله ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ فاصلة تدعو إلى الوقوف عندها، لأن المتوقع أن تكون فاصلة ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ من مثل العفو الغفور، أو الرحيم الودود، أو القريب المجيب، وما هو من هذا الباب، وإنما جاء ﴿الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ لأنه لا يلطف بمن حارب دينه، وحاج فى آياته، وأنكر لقاءه، وأشرك به، وأعرض عن رسله، واستهزأ بوعده ووعيده، إلا القويُّ الذى هو فوق كل قوىٍّ، والعزيز الذى لا يزاحم فى عزه وسلطانه، لا يمد يده بالعطاء لمن يحاربونه إلا الذى هو فوقهم، وفوق حربهم، وفوق سخافاتهم، ولهذا

كانت هذه الفاصلة واقعة هنا موقـعًا حميدًا جداً، وهى التى أرشدتنى إلى ما قلته فى وجه ترتيب هذه الآية المليئة بالرحـمة، على الآية التى قبلها المليئة بالغضب، وأن هذا ليس من شأن النفس الإنسانيـة؛ ولا نجده فى كلامها وإنما هو شأن القوى العـزيز الخالق، لأن الذين يحاربونه هم خلقه، وهم عـبيده، وهم الذين أوجب على نفـسه رزقـهم، وهم الذين تصله منهم مـعاصيـهم، وتصلهم منه عطاياه، وهذا شأن الله وحده.

وقد جـاءت فاصلة ﴿الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ فى مثل قوله تـعالى فى سورة الحج ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] وقوله جل شأنه ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣] وهذا حاق موقـعها وليس فيه ما يلفت وهذا خلاف ما نحن فيه.

قوله جل شأنه ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

ذكرت أن الطاهر رحمه اللـه ذكر أن قوله تعالى ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ توطئة لهـذه الآية لأنها هى المقـصود، لأنهـا تحث على طلب الآخـرة، وهذا من أعلى المقاصد القـرآنية، وهذا كلام جيد والآية تحـتمله، كما تحـتمل أيضًا أن تكون آية ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ﴾ إلى آخره بمثابة التفصيل لآية ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ لأن لطفه سبحانه بعباده معنى متسع جداً، ويشمل عطاء كثيرًا وضروبا من الإكرام والإنعام لا تحصى. وهذه الآية واحدة من ضروب الإنعام، والإكرام، وكأنها مثال يضرب لوجوه لطفه بعباده سبحـانه، وترى فى هذه الآية أمرا إلهيًا غريبًا وجليلاً، وهو أن القوى العزيـز يسعى بنفسه فى تحقـيق مراد عبده البـر والفاجر، وأن هذا العبد إن أراد الآخرة أعطاه الله بيده وزاد، وإن أراد الدنيا أنفذ الله له مراده، وبهذا يتحول المعنى من أن يكون المقصود هو الحث على طلب الآخرة كما قال الطاهر، وأصاب إلى أن يكون رأس المعنى والمقصود منه بيان لطفه بعباده.

وجملة ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ﴾ جاءت مفصوله لأنها منزلة منزلة البدل من الجملة قبلها، على حد قوله تعالى ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٢، ١٣٣] وقد جاءت كلمة «كان» في الشرط. وكان يمكن أن يقال من يريد حرث الآخرة كما قال سبحانه ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: ١٩] وذلك لأنها أفادت معنى أن إرادة حرت الآخرة هو شأنه وعمله والملازم له، وهذا المعنى مشار إليه فى آية الإسراء فى قوله سبحانه ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ وكان يمكن أن يقال (وسعى لها وهو مؤمن) من غير أن يذكر سعيها، وسعيها يعنى السعى المناسب لها، وهو أن يكون طلب الآخرة شأنه الذى لا يغيب عنه، وتجد شيئًا من هذا المعنى فى ذكر كلمة ﴿حَرْثَ﴾ لأنه كان يمكن أن يقال من كان يريد الآخرة، والحرث مصدر حرث، والحرث شق الأرض. وإلقاء البذر فيها، ثم رعايتها، والقيام عليها، حتى تثمر ثمرا نافعًا، وهذا تصوير بالغ الدقة لعمل الذين يريدون الآخرة، وتأمل موضوع الحرث ووضع البذرة وتهيئة الأرض ورعاية النَّبْتة ودفع الآفات عنها، وسقيها، ورعايتها، إلى آخره، تجد هذا نفسه هو سعى الصالحين الهادى الواعى المتنبه الحذر من آفات الرياء والحذر من التقصير فيما لا يجوز له التقصير فيه ثم هو فى كل ذلك يترك النهاية لله لأنه لا يملكها فإذا وضع البذرة رجا الله أن تنبت، فإذا نبتت رجا الله أن تنمو، وهكذا، وكذلك السالك إلى الله فى كل خطوة يرجو القبول، والحرث والزرع والنبات والأرض الميتة كل ذلك له فى الكتاب العزيز شؤون وشؤون، والزيادة فى الحرث صالحة لأن تكون زيادة فى الثواب كزيادة ثواب النفقه التى مَثَلُها ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة: ٢٦١] إلى آخره وأن تكون زيادة فى حمل العامل يعنى أن الله يوفقه ويشرح صدره لمزيد من العمل فى حرث الآخرة، فيزداد سعيه، ويزداد اطمئنانه لقبول الله لعمله،

لأن شرح الصـــدر لمزيد من أعمـــال البر من أمـــارات القبول، والـــذين اهتدوا زادهم هدى.

قوله سبـحانه ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أول ما يلفت أن العبارة عن من يريد حرث الدنيـا هى نفسها العبارة عن من يريد حرث الآخرة مع التباعد الشـديد الذى بينهما، فكلمة كان الدالة على أن هذه الإرادة صارت شأنه، وهمه وسـدمه وأنه جعل إرادة حرث الدنيا نصب عيـنيه. ثم كلمـة الحرث ودلالتهـا التى شرحناها، وأفـهم من هذا أن هذين المختلفين المتبـاعدين قد تتقارب أعمالهمـا، وقد يزاولان عملاً واحدًا، كالزراعة أو الـتجارة أو ما شئت بـل قد يزداد عملهمـا اقترابا واندماجـا فقد يزاولان عمـلا من أعمـال المروءات ولكن الفرق الحاسم الـقاطع هو أن الذى يريد حـرث الآخرة يزاول ما يزاول من أعمـال وهو موصول بربه، وذاكر له، ثم هو فيـما يزاول منقـاد لأمر ربه الذى أمـره بالعمل، وجـعل دنياه مـزرعة لآخرته أو حرثا لها كـما فى الآية فكان عمله عملا مقبـولا مبرورا، وقد زاد الله فيه، والآخر زاول ما يزاول وهو مـقطوع عن الله، ويقول إنما أوتيته على علم عندى، ثم هو مـحارب لله، ومـحـادٌّ له، ومحـاجٌّ فيـه، وساخـر من الساعة، ومع كل هذا لا يحبط الله عمله، وإنما يؤتيه عمله على وفق مراده، هو أراد الدنيـا فأعطاه الله منهـا، وهذا عجيـب جداً أن لا يضيع اللـه عمل عامل من بر أو فاجر، وإنما يعطيه على وفق مراد العامل نفسه.

قلت قد يكون العمل واحدا ولكن المخرج الروحى الصادر عنه العمل ليس واحدا، فيـختلف العملان اختـلافا شديدا بسبب المخـرج النفسى الخارج منه عمل كل، «فمن كـانت هجرته إلى الله ورسوله فهـجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» يعنى كلٌّ هاجر وزاولا عملاً واحدًا وسلوكًـا واحدًا ولكن شتان ما بين هجرة وهجرة.

هذا هو ما أرى وحـدة الصياغة دالة عليـه، وقوله ﴿وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَصِيبٍ﴾ ليس فيه شىء من العـقاب لأنه هو الذى لا يريد هذا النصيب وأنه هو الذى أراد الدنيا وحدها.

قوله تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

قوله سبحانه ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ كلام مستأنف لبيـان الوجه المقابل لقوله جل شأنه ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ وكلمة ﴿أم﴾ أخت كلمـة أم فى قوله تعـالى ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ والإضراب فيهـا إضراب انتقالى والاستفهام فـيها معناه النفى والتوبيخ والتقـريع والمعنى ليس لهم شركاء شرعـوا وإنما لهم شركاء لم يشرعـوا لأنهم شركـاء لا يسمـعون ولا يبـصرون وإن يدعـوهم لا يسمـعوا دعاءهم ولو سـمعوا مـا استجـابوا وهذا تنبيه إلى أنهم يعـبدون ما لا يعـبد ومجيئـه فى مقابل ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ لبيان الفرق بين الهدى والضلال، وهو يشبه ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦] وهذا الأبكم الذى لا يقـدر على شىء هو الشريك وهو الذى الشأن فيه أن يشرع لهم الدين، وكل هذا حث على المراجعة وإثارة وتهييج لإيقاظ الفطنة وإعادة التحرى واختيار الهدى.

وهذه الجملة متضمنة إشارات لغـوية، تربطها بكلامين سابقين رباطا لفظياً ومعنوياً، أما الكلام الأول فهـو قوله سبحانه ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ والأولياء الذين اتخذوهم هناك هم الشركاء المذكورون هنا، وكلمة أم هنا كأنها تشد إليهـا أختها التى هناك، والكلام الثانى هو ﴿شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ وهو ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ وتكرار الألفاظ من أظهر الروابط وأقوى العرى، وقوله ﴿مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ مفعول شرع ونفى الشرع الذى لم يأذن به الله لا يعنى إثبـات أو قبول شرع أذن الله به ويكون مصدره الشـركاء، وإنما يأذن الله بما شرع، ولا يشرع غيره سـبحانه وإنما جىء بهذا المـفعول ولم يقل أم لهم شـركاء شـرعوا لهم الدين لبـيان أن الشرع الذى هو الدين لا يجوز أن يكون فيه شىء أى شىء لغير الله وضرورة أن يبقـى الدين خالصًـا لله، لا يتسلل إليـه من كلام البشـر شىء أى شىء، وليس أخطر على الدين من دخول أفكار بشرية فـيه وتكون جزءًا منه لأن الله لا يعبد إلا بما أمر، ولا يذعن الموحـدون إلا لما كان منه، ووجود فكر بشرى فى الدين نذعن له إذعـاننا لما شرع الله هو الوثـنية بعينـها، والشرك بعـينه، ولهذا تكرر مـثل قوله سبـحانه ﴿الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] وقوله لـنبيه صلوات الله وسلامه عليه، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وغيـر ذلك من الآيات التى هى سيـاج متـين، وسور مسور يمنع منعا باتا تسلل شىء مهمـا استحسناه، وليس معنى هذا أن يتوقف الاجتهاد فى الدين وأن يتوقف إعمـال العقل. بل إن الاجتهاد واجب فى كل حـال مع توفـر شروطه. وإعـمـال العـقل واجب فى كل حـال، وكل هذا الاجتهـاد، وكل إعمال العقل هو فى تحليل كلام الله، وكـلام رسوله، وبيان مراده سبحانه، والاستنباط منه، واستخراج ما خفى، وبيان ما أبهم، وتفصيل ما أجمل. وكل هذا محفوف بكل المحاذير حتى لا يدخل فى الدين شىء من غير مصدره الذى لا مصدر له سواه.

والذين يقولون في الفقه إنه عمل بشرى ويمكن إبعاده وإقصاء ما فيه لم يعرفوا الفقه، لأن الفقه ليس فيه حكم واحد إلا وله دليل يرجع به إلى الكتاب والسنة، وكل ما يرجع إلى الكتاب والسنة لا يجوز إبعاده، ولنا أن نراجع كل حكم لنتأكد من ارتباطه وصحة ارتباطه، وفى الفقه راجح ومرجوح، وقوى وضعيف، وكل ذلك راجع للأدلة التى لا مرجع لها إلا الكتاب والسنة.

وقوله سبحانه ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ انتقال من الجملة الأم وهى قوله سبحانه ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ لأن الكلام تم بها وكل ما بعدها تعقيب عليها، وأول تعقيب عليها هو هذه الجملة المليئة بالغضب لأنه ليس فى الغضب أشد من أن يقول ربنا لولا أنه سبق تأجيل عقوبتهم إلى يوم يبعثون، لأوقعت بهم العذاب وعاجلتهم به، ومهما حاولت أن أستخرج الغضب الذى فى هذه الجملة فإنه سيبقى منها أكثر مما أقول، ولذلك أتركها لك تتأملها، وتقف على عمقها، ووجه الوقوف على حقيقة الكلام أن تتأمله، وأقول إن هذه الجملة تكررت ست مرات فى الكتاب العزيز مع تغيير فى جملتين منها؛ ومن الجملتين هذه الجملة، والتغيير هو أنه قال ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ وفى غيرها قال ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ والجملة الثانية التى فيها مغايرة هى الجملة السابقة فى السورة وهى قوله سبحانه ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ فقد أضيف الجار والمجرور ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ولم يرد إلا فى هذه الآية كما أن كلمة الفصل لم ترد إلا فى هذه الآية والمواقع الأربعة الأخرى كلها بلفظ و﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ والجواب ﴿لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ وفى طه ﴿لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩].

ولماذا جاءت كلمة ﴿الْفَصْلِ﴾ هنا بدل كلمة ﴿سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾؟ ولماذا أضيف فى الآية التى قبلها كلمة ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مع أن سياق الآيات التى وردت فيها هذه الجملة متشابه جدا، بل إن الآية التى جاءت فيها فى سورتى

هود وفصلت آية واحدة مكرره فى السورتين، هى قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [هود: ١١٠ وفصلت آية ٤٥] وتشابه المقام جدا فى يونس والشورى قال سبحانه فى يونس. ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَت مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ١٩] وفى الشورى ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ وسياق طه يبعد قليلا ولذلك اختلف الجواب ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (١٢٨) وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه: ١٢٨، ١٢٩].

وليس بين يدى ما أقطع به فى بيان أسرار هذا الاختلاف والذى أقوله اجتهاد يصيب ويخطئ أما ذكر كلمة الفصل هذا فلأن الفصل معناه القضاء وسمى يوم القيامة يوم الفصل وقد جاءت هنا موطئة للفصل الذى انتقل الكلام بها إليه وهو قوله سبحانه ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وهذا هو الفصل بين الذى أذعنوا لما شرعه لهم ربهم والذين اتخذوا شركاء من دونه فالظالمون المشفقون هم الذين لهم شركاء والذين فى روضات الجنات هم أصحاب شرع الله الذى شرع لهم ما وصى به نوحا وكلمة الفصل جاءت فى ختام بيان الفريقين وانتقل الكلام بها إلى القضاء كما ترى.

أما زيادة قوله ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فى الآية التى سبقتها فالسبيل إلى إدراك سره هو وضع سياقها بإزاء سياق يونس الذى هو أشبه بها ومراجعة الفروق وليس لى من سبيل إلا أن أهتدى بهذه الفروق قال سبحانه فى يونس ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ

﴿بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ١٩] وليس فيها أن الله شرع لهم الدين وحثهم على أن يقيموه، ونهاهم عن أن يتفرقوا وبعد كل هذا تفرقوا، وما تفرقوا إلا من بعدما جاءهم العلم الناهي عن التفرق والحاض على إقامة الدين، وهذا الذى في الشورى فيه كما ترى تفصيل أكثر لاختلافهم، وأنه جاء بعد العلم، وبعد النبوات، وبعد النهي عنه، وأن الله سماه تفرقا، ولم يسمه اختلافا كما فى يونس وظاهر ظهورًا بينا أن سياق الشورى فيه موجبات أكثر للغضب، وموجبات أكثر لإنزال العذاب بهم، ولهذا أضيفت كلمة إل﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، لتحدث زيادة فى المعنى بزيادة اللفظ. هذا والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ والمعطوف والمعطوف عليه كالشيء الواحد، وتأمل تجد ذلك وأن جملة ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من تمام جملة ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ لأن الوعيد المصرح به فى جملة ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ هو الوعيد المضمر فى الغضب الشديد، الذى في جملة ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ وإنما جاءت الواو معها لأنه ليس كل توكيد يجب فصله، فقد يؤتى بالواو بين التأكيد والمؤكد، للإشارة إلى المغايرة، وأن الثاني كأنه غير الأول لأمر لوحظ فيه، وهذا الأمر هنا هو وصف العذاب بأنه أليم، والأهم منه هو الانتقال من الخصوص إلى العموم، لأن الجملة الثانية جمعت الظالمين، وهم أشمل وأوسع ممن عنوا في قوله سبحانه ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ لأنها شملت الظالمين من يوم أن أوصى الله نوحا والنبيين من بعده إلى يوم أن ينفخ في الصور، ولهذا وصف هذا العطف في هذه الجملة بأنه تتميم للإيضاح وليس تفسيريا محضا، والجملة مؤكدة بما ترى وهذا التوكيد فيه من الغضب ما فيه، ثم إن العذاب الأليم المذكور فى الجملة هو العذاب الأليم فى الآخرة يعنى يوم الفصل. وليس معاجلة لهم بالعقوبة فى الدنيا، لأن الآية

الأولى دلت على نفى المعاجلة من أجل كلمة الفصل. وهذا يعنى أن هذه الجملة عبرت الزمن الباقى على الأرض. ووصلت إلى يوم الساعة، وعبرت الحياة فى القبر، والبعث، والنشر، وهول الموقف ثم الحساب ثم القضاء ثم الوصول بهم إلى العذاب الأليم، ومثل هذا فى اختراق الزمان والمكان مما لم نلتفت إليه فى التفسير، وفيه من قوة الإيقاظ، والتطويح بنفس القارئ والسامع من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان، ومن شهود إلى غيب، ومن غيب إلى شهود، أقول فيه من ذلك ما له أعظم الأثر فى القلب الذى يتلقى وهو شهيد. وهو من البلاغة المسكوت عنها.

وإذا كانت هذه الجملة من تمام معنى الجملة قبلها فإن الجملة التى بعدها من تمام معناها، وكأن هذه الجملة عبرت بنا إلى ما بعدها لأن هذه وإن توعدت فى الآخرة، وبعد القضاء والفصل. فإن التى بعدها عرضت المشهد الذى يتمثل فيه هذا الوعيد، وهى قوله تعالى ﴿ **تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ كل هذا جملة واحدة لأن قوله ﴿ **وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ** ﴾ جملة حالية وقوله سبحانه ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ إلى آخره جملة حالية ثانية والجمل الحالية من تمام معنى الجملة التى هى حال منها.

والمخاطب فى قوله ﴿ **تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ** ﴾ هو كل من ينوجه إلى الخطاب وتصح منه الرؤية، وقد جاءت هذه الجملة الطويلة بدون واو لأنى أراها بيانا وتوكيدا لجملة ﴿ **وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ لأن كل ما فى جملة ﴿ **ترى الظَّالمين** ﴾ هو ذاته العذاب الأليم، سواء ما فيه من بيان وما فيه من توكيد. ثم إن الجملة الحالية الثانية، وهى قوله ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ داخلة فى بيان العذاب الأليم، لأنها أولا جاءت حالا منها فهى من ملحقاتها ومن تمام معناها ولأن عذاب الظالمين وإشفاقهم مما كسبوا يكون

أوجع، وأنكى وأشد، إذا رأوا المقابل لهم، والذين كانوا يسخرون منهم، ويكبر عندهم ما يدعونهم إليه وهم فى روضات الجنات لهم ما يشاؤون.

ولاحظ حرف الجر الذى فى الجملة الأولى ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وأنه لهم لا لغيرهم وأنه صار ملكًا لهم، ومعداً لهم، وقد تكرر هذا فى الجملة الحالية الثانية ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وكأن كل الذى يشاؤون هو فى حوزتهم، وهو ملكهم، وهو نزلهم عند ربهم، وهذا لفت للمقابلة والموازنة والاختيار، وارجع إلى جملة ﴿وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ التى هى أم كل هذه الجمل وراجع ﴿لَوْلا﴾ التى هى حرف امتناع لوجود وقد منعت هذا القضاء لوجود كلمة الفصل والمراد بالقضاء لازمه وهو المعاجلة بالعقاب، ثم إنها وإن منعت المعاجلة بالعقوبة لم تمنع المعاجلة بالتهديد والوعيد وإعلان الغضب، ثم تأمل رحمة الرحمن الرحيم وهو يعاجل بالتهديد والتخويف والتصوير المرعب؛ ويمهل العقوبة حتى يمنح عباده مزيدا من الوقت ومزيدا من المراجعة لعل وعسى.

وكلمة ﴿الظَّالِمِينَ﴾ فى قوله ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ وضعت موضع المضمر لأن المقام للمضمر والأصل أن يقال تراهم لأنه تقدم ذكرهم، وإنما أوثر الظاهر لبيان أن ما هم فيه إنما هو للظلم، ولتبشيع الظلم، والتنفير منه، عن طريق ربطه بصور هذه الأهوال، وكلمة ﴿مُشْفِقِينَ﴾ سبق ذكرها فى بيان ذكر الساعة وأن ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ وهؤلاء يستعجلون بها، فالذين أشفقوا منها وعملوا فنجوا وهؤلاء سخروا منها واستعجلوا بها وها أنت تراهم مشفقين منها، وهذا التبادل فى مواقع الكلمات الذى ترى فيه الكلمة تتنقل من حال إلى ما يضاد هذه الحال له فى البلاغة مقام عظيم وفيه أن من أشفق فى الدنيا أَمِنَ فى الآخرة ومن أَمِنَ فى الدينا أشفق فى الآخرة.

واسم الموصول فى قوله ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ فيه تنفير من كسب السوء الذى آل بمن اكتسبوه إلى أنهم صاروا عجيبة يتعجب منها كل من يصح أن يرى

والمعنى أنهم مشفقون ليس مما كسبوا ولكن من جزائه فوضع ما كسبوا موضع الجزاء كما يوضع السبب موضع المسبب لتأكيد أن كسبهم السوء لن يغفر لهم، وأن جزاءه واقع بهم لا محالة، ولما وضع الكسب موضع جزائه أشار إلى القضاء والفصل لأن الجزاء لا يكون إلا بفصل. وقضاء، ولذلك تجد ربطا خفيا بين كلمة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ وبين ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ وإذا كانت كلمة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ وضعت موضع المعاجلة بالعقوبة للإشارة إلى أن الحساب والقضاء يوقعهم في العقاب لا محالة، فإن وضع كلمة الكسب موضع العقوبة مما يؤكد ذلك، ثم إن إشفاقهم مما كسبوا فيه إشارة إلى أنهم في موقف القضاء، وأن حسابهم لم يتم، وإنما عرفوا ما جهلوا، وأيقنوا ما أنكروا وأشرقت الأرض بنور ربها، وهذا كله عجيب وكله وأكثر منه في الكلام ومن العجيب أيضًا أن تأتي الجملة الحالية الإسمية ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ فترى شيئًا يشبه التدافع لأن الإشفاق يعني الخوف من شر متوقع، ثم هو إشفاق من الكسب الذي سيؤول إلى العذاب الأليم، والعذاب الأليم، لما يأت بعد، والجملة الحالية تفيد أنه واقع بهم، فالجملة الأم تفيد أنهم مشفقون منه يتوقعونه، والجملة الحالية تفيد أنه واقع، وهذا هو الذي فيه تدافع، في المعاني توقظ وتنبه، وتفعل. وتؤثر، ولهذا قال المفسرون إن جملة ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ دالة على المستقبل وأن ﴿وَاقِعٌ﴾ التي هي أصل معناها أخت ﴿وَاقِعٌ﴾ التي في قوله تعالى ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] يعني سيقع وإنما كانت حالية لأنها خبر الذي لا خلاف في إخباره، وأن ما هو للوقوع مما أخبر سبحانه به كالواقع، وقد أومأ الخفاجي إلى هذا، وهذا شيء من السخاء الذي بهر به هذا الكلام وقهر.

والجملة الحالية الثانية وهي ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من تمام المشهد الداخل في حيز ﴿تَرَى

الظَّالمين﴾ لأنه هو الوجه الثانى المـطلوب رؤيته ومقارنته بالمشـهد الأول حتى يكون الكل على بيِّنة ولا يكون للناس على الله حجة.

وإذا كان تكرار كلمة **﴿مُشْفِقِين﴾** مع تغيـر موقعها قـد عادت بالظالمين المشفقـين منها والذين لهم عذاب أليم إلى الذين يستعـجلون بالساعة لأنهم لا يؤمنون بهـا فإن كلمـة **﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾** المخبر عنهم بأنهم فى روضـات الجنات قد عادت بهؤلاء إلي الذين آمنوا بها وهم مشفقون منها، لأن العناصر المكونة للآية تـشيـر إلي سـذه الروابط، ولم يكن المفـسـرون بمعـزل عن هذا الإدراك، وقد ذهب بعضهم إلى أن آية **﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾** راجعة إلى آية **﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾** وأن تصوير حال الظالمين هنا تفـصيل لمجـمل حالهم هناك وكـذلك تفصـيل حال الذين فـى روضات الجنات هنا تفصيل لمجمل حالهم هناك. وهذا كله من صلب دراسة البيان.

ومن الصلات التى أحب أن أنبه إلـيها الصلة بين **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾** **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾** لأن الإشفـاق منها يـفسره عـمل الصالحات، فالمشفق من الساعة ولا يعمل الصـالحات إشفاقه إشفاق عاطل لا قيـمة له، وليس هذا مـرادى وإنما مرادى أن عـمل الصالحات أيضـا منتج للإشفـاق، ويزيد الإشفـاق بزيادة العمل الصـالح وذلك لأن العمل الـصالح مشروط بشرطين الأول وقوعه مطابقـا لما جاء فى الشريعة وهذا صعب، يعنى التحرى فى العـمل حتى يكون على وفق ما أمر الله ومـا نهى. والثانى وهو الأصعب خلوص القصد فيه لله رب العالمين، وهذا منال لا ينال إلا بكثير من الاحتـياطات لأن محـبطات الأعمال ومـغريات الحديـث عن الذات ومداخلة الأهواء لما فى القلوب كل ذلك يحيـط بنا من جهات كثـيرة ولا يسلم منه إلا من عصم الله، وهذا هو معنى قوله تعالى **﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾** [المؤمنون: ٦٠] وهذا الوجل ليس بعيداً عن الإشفاق أو هو الإشفاق.

ثم راجع صورة الذين آمنوا وقوله سبحانه ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ وروضات الجنات أطيب وأكرم مكان فى الجنات، وهذا خبر الذين آمنوا، وهذا مكانهم ثم قوله سبحانه ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ﴾ وراجع هذه الجملة المختصرة اختصارا شديدًا، وتأمل ما وراءها من معان لا حصر لها، ثم تأمل كثرتهم، ونوعهم وأنهم الصالحون على هذه الأرض من يوم أن نفخ الله فى طينة أبينا آدم إلى يوم أن ينفخ فى الصور، كل هؤلاء فى روضات الجنات وكل هؤلاء لهم ما يشاؤون، وما يشتهون، حتى لا يبقى فى نفوسهم شىء إلا ويرونه بين أيديهم.

وراجع هذه الصورة مرَّة ومرَّة، وتعرف على سعتها، وعمقها، وغرابة أحوالها ثم تبين كيف دلت عليها هاتان الكلمتان ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ﴾ وما الموصوله بعمومها وإبهامها الذى أدى هذه السعة هى أخت ما الموصولة التى فى قوله تعالى ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم:١٦] من حيث السعة، والغموض. والإبهام، وهذا الغموض واضح فى ﴿يَغْشَى السِّدْرَةَ﴾ لأنها من باب الغيب الذى لا يعلم تأويله إلا الله، وآية ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ﴾ لا تخلو من هذا الغموض. لأننا لا ندرى المشتهيات التى يشاؤها ساكنو الروضات وتقديم الخبر ﴿لَهُم﴾ يفيد العناية والاهتمام لأن معناه أن الله سبحانه وتعالى من محض كرمه ومنِّه جعل ما يشاؤونه حقا لهم عليه سبحانه، وملكا مملوكا لهم، وإن كان من محض فضله وعطائه ومُعَداً خصوصًا لهم.

ومن المفيد أيضًا أن تراجع ترتيب الخبرين الأول ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ والثانى ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ﴾، وأن الأول مقدم فى اللفظ لأنه مقدم فى الواقع، وكأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات نزلوا ضيوفًا على ربهم، فأنزلهم أولاً فى روضات الجنات ثم قدم لهم نزلهم وهو ما يشاؤون ثم إن قوله ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ﴾ متلائم جداً مع العمل الصالح الذى هذا جزاؤه،

لأن أهم الأعمال الصالحة وأشقها هو كف النفس وردعها عن أهوائها، وشهواتها، فكان جزاء ذلك ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ﴾ وكلمة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أعربها بعضهم خبرا ثالثا وقالوا إنما أخِّر لأنه أشرف وأجل من الخبرين الأولين مع شرفهما، لأن أكرم من كل ما تكرم به أن يكون هذا الذى تكرم به من عند ربك، وهذا كلام جيد ثم إن الأكثر رأى أن قوله سبحانه ﴿عِند رَبِّهِمْ﴾ متعلق بالجار والمجرور ﴿لَهُم﴾ ونبه الزمشخرى إلى نفى أن يكون معمولا به للفعل يشاؤون وفطن صاحب الكشف إلى سر تنبيه الزمخشرى إلى هذا النفى وقال كلاما دقيقا جدا وخلاصته أن المعنى يضعف لو اعتبرناه معمولا للفعل يشاؤون لأنك لو قلت لى ما أشاء عند زيد لكان المعنى أن لك ما تشاء مما عند زيد فإذا شئت شيئًا ليس عنده فليس لك هذا الشىء لأنك قيدت المشيئة بالذى عنده وهذا خلاف لو قلت لى عند زيد ما أشاء فإن هذا معناه إطلاق ما تشاء وأن لك عنده ما تشاء سواء كان ما تشاؤه عنده أو ليس عنده، وهذا كلام بالغ الدقة فى إدراك خفايا الدلالات ولا يُحَلِّلُ البيان بأدق من هذا، وهذا الذى نبه إليه الزمخشرى وفطن إليه صاحب الكشف لم يتناقله المفسرون لأن الله يملك كل شىء وعنده كل شىء فإذا صح ما قالوه بالنسبة لزيد مثلا فإنه لا يصح بالنسبة لله، وإذا قلت لهم ما يشاؤون عند الله وقيدت المشيئة بهذا الظرف، فإن هذا الظرف جامع لكل شىء لا يخرج عنه شىء، وإنما ذكرته لأنبه إلى دقة العلاقات النحوية، وأنها من أدق وأغمض مكامن المعانى. وأن إبعاد هذا النهج عن منهج تحليل الشعر، وإبعاده أيضًا عن الجيل من الخطأ والضلال معا.

قوله جل شأنه ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ اسم الإشارة راجع إلى جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأن الله أعد لهم روضات الجنات، وأعد لهم ما يشاؤون، وأن هذا هو الفضل الكبير، واسم الإشارة وتعريف الطرفين وضمير الفصل كل ذلك يؤكد أنه الفضل الكبير وأنه لا فضل أكبر منه.

ويجـوز أن يكون اسم الإشـارة شامـلا للجـزاء، وللذين آمنوا وعـملوا الصالحـات أيضا، وأن توفـيق الله لهم إلى الإيمـان وعمل الصـالحات من الفضل، وأن الإيمـان وعمل الصالحـات الذى أوصلهم إلى هذا الثواب هو من محض الفضل، وقد سمى الله ذلك فـضلا ورحمه فى سورة النور فى قوله تـعالى ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور: ٢١] وهذا حسن.

ويجوز أيضًا أن يدخل فى هـذا الفضل الكبير قوله سـبحانه ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ لأن بيان صور العذاب اللاحق بالظالمين من أعظم الفضل، لأنه هو الذى يردع النـفوس التواقة إلى الخطايا، والتـواقة إلى الظلم، والمتبعـة لهواها، وقد ذكر الله سـبحانه وتعالى ذلك وعـده من نعمه وجاء ذلك فى سورة الرحمن فى مـثل قوله سبحانه ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٣٥، ٣٦] فجعل تصوير صور العذاب من الآلاء والنعـم، كما جعل صور النعيم والجنة من النعم فى السورة نفسها فى قوله جل شأنه ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦، ٤٧] وهذا حسن أيضًا.

قوله جل شأنه ﴿ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾.

قلت إن اسم الإشارة فى قوله سـبحانه ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ يرجع إلى قوله سبحانه ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ﴾ ويصح أن يرجع إلى غيره معه وبينت ذلك، واسم الإشـارة فى قوله سبحانه ﴿ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ ﴾ راجع إلى ما رجع إليه اسم الإشارة فى قوله ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ

﴿الْفَضْلُ الْكَبِيرَ﴾ وبشارة الله عباده الذين آمنوا بروضات الجنات ظاهرة، وأيضًا بشارته لهم ببيان صور العذاب التى أنعم الله عليهم بالهدى والبعد عن موجباتها، وقد سمى الله ذلك فوزا ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، والبشرى وتوابعها تقع فى الكتاب العزيز فى مقامات التوفيق العالى المرتبة، والعطاء العالى القدر، كقوله تعالى ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [الحديد: ١٢] وقوله جل شأنه ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾ [التوبة: ١١١] يعنى الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.

ومن دلالات اسم الإشارة التى لا تتخلف تميز المشار إليه أكمل تمييز ليقع الخبر عنه بعد هذا التمييز، والتحديد، وظهور الدلالة، ولا يكون ذلك إلا فى المعانى التى لها فضل عناية، ثم دلالة البعد فى المنزلة وهذا ظاهر. ومما يؤكد العناية بالمعنى إسناد البشارة إلى لفظ الجلالة، وأن صاحب الجلال والملكوت والسلطان يبشر بنفسه هؤلاء الطيبين الصالحين، ثم إنه كان يمكن أن يقال ذلك الذى يُبشِّرُ الله الذين آمنوا من غير ذكر كلمة ﴿عِبَادِهِ﴾ وإنما ذكرت ثم أبدل منها ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ للدلالة على مزيد قربهم، وأنهم عباده وخاصته وأن الشأن فى عباده الإيمان، وعمل الصالحات، وأن هذا الإيمان وهذه الصالحات موجبات العبودية لله رب العالمين، ومن شذ من عباده عن الإيمان وعمل الصالحات فقد شذ فى النار، ولفظ عباده هنا وإطلاقه على الذين آمنوا وعملوا الصالحات قريب جدا من كلمة عبد الله فى قوله تعالى ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] لأن فيها معنى التقريب، ومعنى أن دعاءه سبحانه هو مقتضى العبودية، وتأمل صورة عبد الله وهو يدعو الله وكل من استحضر معنى العبودية لله وقام يدعو الله وهو صادق صح أن يقال فيه قام عبد الله يدعوه. ثم إنك تجد اقترانا بين الإيمان وعمل

الصالحات لأن عمل الصالحات هو مقتضى الإيمان، والإيمان من غير عمل الصالحات إيمان معطل. وكما أن العبودية لله رب العالمين تقتضى الإيمان بالله رب العالمين، كذلك الإيمان بالله يقتضى العمل الصالح.

وهكذا نجد الكلمات يخرج بعضها من بطون بعض. ثم إن كلمة الصالحات كلمة مطلقة لم تدل على عمل معين، وإن كنا صرفناها غالبا لما أمر ربنا به ونهى عنه وهذا جيد لأن الله لم يأمر إلا بما هو خير ونافع وبر، ولم ينه إلا عن ما هو شر وضار وفجور، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠] وهذا يعنى أن الصالحات تعنى كل صالح يصلح به شأن الدنيا والآخرة وكل ما تعمر به الأرض فهو من الصالحات وكل ما تسد به فاقة الناس فهو من الصالحات، وكل ما يُمَكِّن للمسلمين فى الأرض فهو من الصالحات، ولهذا تشمل ما يدخل فى الدرس، وما يدخل فى المصنع، وما يدخل فى المزرعة، وما يدخل فى السياسة إلى آخره. لأن المهم هو صالح العمل. وفى الصدر نية ذكر الله وتسبيحه، وأداء حقه، لأن من ضيع حق الله فلن يعطى الحق لغيره، ولا يجوز أن تنتظر حقا ولا خيرا ممن ضيع حق الله.

ومن أجل بيان العناية بالإيمان والعمل الصالح وضع المظهر فى الآية موضع المضمر وكان يمكن أن يقال ذلك الذى يبشرهم الله به لأنه تقدم ذكرهم فى قوله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ ثم إن فيه دلالة على أن البشارة كانت لهم من أجل هذه الصفات، كما وضع المظهر موضع المضمر فى قوله ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ وذلك لشدة العناية بتبشيع الظلم، لأن تكرار ذكره فيه زيادة تنبيه إلى خطره.

وقد انتهى المعنى عند هذا الذى انتهت عنده الجملة ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ واستؤنف كلام جديد بعدها، وقد جاءت

هذه الجملة مفصولة لأنـها تأكيد لقوله ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ ولأن بشارة الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الفضل الكبير

وجملة ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ جملة مستأنفة انتقل فيها الكلام من كلام الله لعباده وبشـارته سبحانه لهم إلى كلام رسول الله ﷺ لعـباد الله، وموقع هذه الجملة هنا مـوقع متمكن جداً لأنهـا جاءت عقب البلاغ بالبـشرى للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وعقب البلاغ بالوعيد للظالمين الذين اتخذوا من دونه أوليـاء، وليـس فى نفـع الناس أنـفـع من أن تبلـغهـم عن ربهـم مـا يوجب رضاه، وغضبه، وثوابه وعقـابه، ولو كان للبلاغ عن الله أجر من الناس لكان أجره فوق كل أجر، وإنما قال عليه السلام: ﴿لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لأنه أجلُّ وأرفع من أن يكافأ منكم بأجر، وإنما أجره لا يكون إلا على الله، وأن الدعوة إلى الخير وعمل الصـالحات لا تدخل البتّة فى باب المقايضـات لأنه لا يكافئها شىء، وقـد جرت هـذه الكلمة عـلى لسانه صلـوات الله وسلامـه عليـه فى مواقف كثيرة كـلها مقترنة بذكر الوحى، منها قوله سـبحانه فى سورة يوسف ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٢- ١٠٤] ومنها قوله سبـحانه فى سورة الفرقان: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [الفرقـان: ٥٦، ٥٧] ومنها قوله جل شـأنه فى سورة سبأ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ: ٤٦، ٤٧] ويلاحظ أن هذه الجملة الكريمة كـما جاءت فى سياق البلاغ بالبشرى جاءت فى سياق البلاغ بالنذير.

قلت إن تكرارها على لسانه ﷺ يفيد أن البلاغ عن الله لا يدخل فى باب المقايضات ولا المبايعات لأنه أعظم وأجل من هذا.

ثم إن هذه الجملة تكررت على ألسنة الأنبياء من نوح عليه السلام الذى قال لقومه ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وبعده قال هود عليه السلام ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وكررها صالح وشعيب ولوط عليهم الصلاة والسلام وهى من الذى شرعه الله إليه كما شرعه للنبيين من قبله، وقد تواترت عليها ألسنة النبيين جميعًا.

وإذا كانت السورة من أولها إلى هنا تؤكد أنه يوحى إليك كما أوحى إلى نوح والنبيين من بعده، وأن الله شرع لكم من الدين ما شرعه لهم، وكانت هذه الجملة مما توارثه النبيون، بان بهذا سدادُ موقعها فى سياقها، وبان بهذا ارتباطها الشديد وتمكنُّها الشديد فى هذا الموقع.

وهذه الدراسة شديدة العناية ببيان تمكن الجملة فى موقعها، وأنها لا محيد لها عن هذا الموقع، ولا محيد لهذا الموقع عنها، أصِلُ فى ذلك إلى ما أَصِلُ إليه ويختلف علىّ منه ما يختلف. والمهم أن يفتح الباب وقد يَلجُه أهله يومًا ما إذا أزال الله الغُمَّة عن البلاد وعاد إليها العلم يوم يتولى أمرها أهل العلم وبعيد أن يبنى غير أهل العلم نهضة علمية.

ولم أجد أحدا من المفسرين تعرض لشىء مما قلته، وإنما شغلوا بالحديث عن سبب نزولها، وتنوع كلامهم فيه، والشيخ الطاهر يراها معترضة بين قوله سبحانه ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وقوله جل شأنه ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ وذكر سبب النزول الذى ذكره الواحدى عن قتادة وهو أن المشركين اجتمعوا وقالوا أترون محمدًا يسأل على ما تعاطاه أجرًا فنزلت؛ ويشير الطاهر إلى أن الذى يظهر من كلام الواحدى أنها لا اتصال لها بما قبلها وأنها لما عرض سبب نزولها نزلت فى أثناء نزول

الآيات التى قبلهـا، والتى بعدها، ثم التمس الشـيخ الطاهر لها مناسبـة بينها وبين السيـاق الذى نزلت فيـه، وأنها من جـملة ما واجه به القـرآن محـاجة المشركين ولم أجد مقنعًـا فى هذا الكلام لأن الذى تراه عينى أن العلاقات بين الجـمل والآيات لم تقف عند المناسـبـة المصحِّـحـة لترابط الكـلام، والنافيـة لتفككه، وإنما تجاوزت ذلك إلى بيان موقع الجملة فى بناء العبارة التى لها هى الأخرى مـوقع فى بناء السورة، وأن زحـزحة أى جـملة تُنْقض بها العـبارة، والسورة معًا، وأن هذه الجملة لم تكن لتكون إلا هنا، وأن هذا الموقع لم يكن ليصلح إلا لها، وإذا كانت المناسـبة علمًا صعبًا تراز به العقول كـما قالوا فإن سِرَ الترتيب الذى هو الغاية من هذا البحث أصعب، وأخفى، وأغمض، وإذا كان كلام الـعلماء فى المناسبة قليـلاً فإن كلامهم فى أسـرار ترتيب الجمل فى الآيات وترتيب الآيات فى السور أقل. وللرازى فيه الحظ الأوفر.

وسبب النزول الذى عوّل عليه الواحدى مع أهمـيته فى فهم الكتاب العزيز لا يجوز أن يغـرينا بالذى قاله الواحـدى وأن الآية نزلت فى أثناء الآيات التى قبلها والتى بعـدها فوقعت معترضة بـينها، لأن هذا يؤول إلـى ما قـاله العـز ابن عبد السلام فى نفى المناسبة بين الآيات، لأنها نزلت فى أحداث لا مناسبة بينها، وقد روى الزركـشى عن بعض مشايخه المحقـقين قولهم: قد وَهِمَ من قال لا يُطْلَبُ للآية الكريمة مناسبة لأنها على حـسب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب «أنهـا على حـسب الوقـائع تنزيلاً، وعلى حـسب الحكمة تـرتيبًـا، فالمصحف كـالصحف الكريمة على وفق ما فى الكتاب المكنون، مـرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف» انتهى كلامهم.

وهذا جيد جداً لأن الآيات لم ترتب على حسب النزول وأسبابه وإنما رتبت على وفق ثبوتها فى اللوح المحفوظ وكـانت الآية تنزل بسبب الوقائع ثم يؤمر صلوات الله وسلامه عليه بوضعها فى مكانها.

وحين نقول هذه جملة معترضة لا يكون قولنا هذا كافيًا لأن الأهم أن نتعرف على سر اعتراضها، فيما جاءت معترضة فيه، وماذا لو تأخرت بعد تمام الكلام وهذا أيضًا صعب، ولابد من تَجَشُّمه واقتحامه.

قوله جل شأنه: ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ هذا الاستثناء لم يتصل بجملة ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ التى تكررت على لسانه صلوات الله وسلامه عليه وعلى ألسنة من سبقه من النبيين إلا فى هذه الآية، فهى أخت آية ﴿لَيْس كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ التى لم تذكر إلا فى هذه السورة، وقد قالوا إن هذا الاستثناء يصح أن يكون منقطعًا، وأن الكلام قد تم بقوله ﴿لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، وتكون هذه جملة جديدة والمعنى لكن المودة فى القربى. وهذا ما قاله الزمخشرى ونقله المفسرون، ويصح أن يكون الاستثناء متصلاً وتكون المودة فى القربى من الأجر

وقد اختلف العلماء فى بيان المراد بكلمة ﴿الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فقالوا المراد لا أسألكم عليه أجرًا إلا أن تودُّوا أهل قرابتى. ثم اختلفوا فى أهل قرابته هل هم على وفاطمة وابناهما الحسن والحسين؟ أم هم ولد عبد المطلب؟ وكثر الكلام فى ذلك ورويت روايات كثيرة فى محبة آل بيت رسول الله ﷺ وأنها الطريق إلى الجنة كما رويت روايات كثيرة فى أن كراهية بعض آل بيت رسول الله ﷺ حفظنا الله منه هى الطريق إلى النار، ورفض الشيخ الطاهر تفسير القرابة بقرابته ﷺ، ورأى أن استخراج هذا من الآية تلفيق معنى غير منظور فيه إلى الأسلوب العربى، ولا تصح فيه رواية لمن يعتد بفهمه، ثم استدرك وقال أما كون محبة آل النبى ﷺ لأجل محبة ما له اتصال به خلقا من أخلاق المسلمين فحاصل من أَدِلَّة أخرى».

وجاء فى صحيح البخارى أن ابن عباس سئل عن الآية فبادر سعيد ابن جبير وقال «قربى آل محمد» فقال له ابن عباس. عَجِلْتَ لم يكن بطن من

قريش إلا كان له فيها قرابة فقال: إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة، والمراد كف أذاهم عنه عليه السلام وعن الذين اتبعوه، وهذا التفسير هو الأجرى فى الكتب، وهو الأشبه بسر موقع الآية هنا، وأنها تحكى خبر الوحى وأنه كوحى الأنبياء وأن البلاغ لتنذر أم القرى ومن حولها، وأهل قرابته فى أم القرى ومن حولها، وهذا كله فى بدء الدعوة والرسول ﷺ يَحْمِى من آمنوا به من قومه بسؤالهم المودة فى القربى. يعنى ملاحظة رحمه فيهم وكانوا يتمدحون بذلك.

وقول الشيخ الطاهر إن الآية لا تدل على معنى إلا المودة فى قرابتى يعنى أهل بيته ﷺ وأن الذين استخرجوا هذا من الآية لم يلاحظوا دلالة الأسلوب العربى يعكر عليه كلام سعيد بن جبير والروايات التى تفيد شيوع هذا الفهم بين الجيل الأول وهم من أصحاب السلائق وقد ذكروا أن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب لما اقتادوه أسيرًا قرأ عليهم الآية.

والكميت يقول:

وجدنا لكم فى آل حم آية ... تأولها منا تقىٌّ ومعربُ

ولم يكن شىء من ذلك إلا لأن الآية تحتمله.

وقد ذكروا لها وجهًا آخر، وهو المودة فى القرابة يعنى أن تصلوا أهل أرحامكم. والقُرْبَى كالرجعى اسم مصدر، ومعناها قرابة النسب، وكأن رسول الله ﷺ يوصينا ببعضنا، ويقول: إن مكافأتكم لى هى أن يحب أحدكم أهل قرابته، وأن تصلوا أرحامكم، وهذا جيد جداً.

وقالوا: معناها لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة فى قربكم من الله يعنى أن تحبوا العمل الذى يصلكم بربكم، وأن تكون بينكم وبين القرب وموجباته محبة وود، وأجْر النبى ﷺ هو أن يرى أُمَّتَه مُحِبَّة لله ومحبة للعمل الصالح الذى يقربها من الله، وهذا الوجه جيد وإن كانت دلالة الآية عليه فيها فضل خفاء. وماذا لو قلنا إن الآية تفيد هذا كله؟

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ راجع المعنى وتأمل امتداده؛ وانقطاعه؛ وبقاءه، أو تغييره، وانتقاله أو استمراره، وستجد أن جملة ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ انتقل فيها الكلام من أن يكون المتحدث إلينا رسول الله ﷺ ويخبرنا بأنه لا يسألنا على بلاغه أجرًا، ويُوصينَا بالمودة فى القربى على الوجوه التى ذكرناها. وهنا ينتهى صوته ﷺ وينتقل الكلام إلى متكلم آخر هو الله سبحانه ويخبرنا خبرًا آخر هو الأشبه بجلاله، فإذا كان رسول الله وهو منَّا يوصينا بالمودة فى القربى فإن الله يقول شيئًا آخر هو هذه الجملة المشرقة والمُبَشِّرة والتى هى جزء من البشارة التى تضمنتها جملة ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لأنه لا يزيد الحسنة حسنًا إلا الله، وبذلك تجد هذه الآية راجعة إلى ما قبل ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ومُلتحمة معها التحامًا ظاهرا.

ويقترف: يكتسب، والاقتراف افتعال من القَرْف، كالاكتساب من الكسب، وفيه دلالة على الاهتمام والاحتشاد، وأنه يقترف الحسنة بوفرة حُبٍّ ونشاط، وإقبال، يعني يقترف ما يقربُه من الله بودٍّ؛ ويُباشرُ عمل الصالحات بود، ولهذا تراها تقترب بصيغة الافتعال هذه من معنى الجملة قبلها؛ ثم إنه لا يقترف حسنة، لأن عمل الصالحات ليس اكتساب حسنات لأن الحسنات هى ثواب الصالحات، فأنت تقترف ما تكافأ عليه بالحسنة وإنما جُعل الاقتراف لأسباب الحسنة اقترافًا للحسنة للإشارة إلى أن ثواب الله لا يتخلف، ثم إن كلمة حسنة بالإفراد والتنكير تشير إلى حسنة أى حسنة، والمهم القصد إليها، وجمع النفس لها المفهوم من صيغة الافتعال لأن الله سبحانه وتعالى ينظر إلى قلوبنا، ونحن نزاول الطاعة، وهذا أهم من حجم الطاعة، ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] وإفراد الحسنة وتنكيرها واضح الدلالة على أن الله سبحانه تُرْضيه هذه الحسنة المفردة

النكرة، ويحتفل بها ويزيد بنفسه حُسْنَها حُسْنًا ﴿نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ وهذا الجواب وإن كان متضمنًا زيادة الأجر كما فى قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] فإن له معنى آخر وهو المفهوم من الظرف فى قوله ﴿فِيهَا﴾ ومعناها أن الحسن الذى يزيده الله حسنٌ فيها، ومعناه أن الله يرزق المحتَشِدَ للطاعة والمقترف للحسنة حباً زائدًا للأعمال الموجبة للحسنات، فتكون قُرَّةُ عينه فيما يرضي ربه، وهذا من معدن قوله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد. ١٧] والظرف فى قوله ﴿نَّزِدْ لَهُ فِيهَا﴾ يشبه الظرف فى قوله ﴿الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فالقربى وعاء للمودة، والحسنة وعاء للحسنى. وهذه الآية من توابع البشارة، التى فى قوله: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ﴾ وآية ﴿لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ هى أيضًا من البشارة لأن المودة فى القربى حسنة يزيد الله فيها حسنًا، لأنها على كل وجوهها طاعة وقربى. ويلاحظ أن جملة ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ من عمل الصالحات المذكور قبل جملة ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ فلماذا ذكرت بعدها ولماذا فصل بينهما؟

والجواب: أن لها دلالة غير موجودة صراحة فى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهى أن إكرام الله فيها أظهر. وأوضح، فالأولون آمنوا وعملوا الصالحات، والفعلان الأساسيان مسندان إليهم، وهنا العبد يعمل الحسنة، ثم يجد الله يزيد هذه الحسنة فى عين العبد حسنًا، فيتَعلَّق العَبْدُ بها لأن الله حسَّنها له. فيزداد ولَعُه بالطاعة، لأن الله زَيَّنها له، وكما أن الذين كفروا يُزَيَّنُ سوءُ أعمالهم فيرونها حسنا فيزدادون بعدًا عن الله هؤلاء تُزَيَّنُ لهم حسناتهم فيزدادون قربًا من الله، وكأن الله بهذا يحدوا السالكين إليه ويقرِّب المتَقَرِّبين إليه، ولهذا المعنى الذى تميزت به هذه الجملة أقحم قوله عليه السلام لأمتِّه ﴿لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ لأن هذا مقطع من

أرفع مقاطع إكرام الله لعباده، ومن أعلى ما يُبَلِّغُه ﷺ من بشارة لأمته، ثم إنك ترى فى هذه المداخلة المعترضة وفى آخرها توطئة لما يأتى بعدها، لأن كلمة ﴿الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ من اقتراف أرفع الحسنات، لأن الواصلين للرحم من أكرم الواصلين، والموصولين بالله رب العالمين، وراجع الظرف فى الآيتين لتدرك المزيد مما بينهما، ثم راجع كلمة «له» فى قوله تعالى: ﴿نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ لتدرك معنى أن الله زين الحسنة له ليذيقه حلاوتها فتصير ضَالَّتَه التى يبحث عنها، وقُرَّة عينه التى لا تَقَرُّ عينه إلا بها، وكل هذا داخل فى «ذاق حلاوة الإيمان».

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ جملة فاصلة أُكدت بإن وصيغة المبالغة فى الخبر وبما أَضْفَى عليها لفظ الجلالة من الكمال والجلال، وبما يَبُثُّه لفظ الجلالة فى قلب سامعها من مهابة، وهذا حال كثير من الجمل الفواصل، وهذا الموقع يضفى عليها من المعانى الخاصة بالسياق ما لا تجده لها فى آيات أخرى، وهذا مهم جداً يعنى الفاصلة المكونة من كلمات واحدة وتراكيب واحدة ليست ذات دلالة واحدة لأن السياق يكسبها الكثير من دلالاتها، وإذا كانت الألفاظ الواحدة والتراكيب الواحدة تُوَحِّدُ بينها فى أصل المعنى. فإن السياق يفرق بينها وينوعها ويباعد بين أنواعها أو قل فإن السياق يفرق بينها فى ظلال المعنى.

قلت ذلك لأن هذه الجملة جاءت مفصولة ومؤكدة على طريقة شبه كمال الاتصال لأن المعانى التى قبلها تثير تَسَاؤُلاً عن علة هذا العطاء المُتَمَثِّل فى البشارة، والمتمثل فى المُبَلِّغ الذى يقول إن أجْرى منكم هو توددكم إلى ربكم، والمتمثل فى تحسين الحسنات لإغراء عشاقها بها، والمُتَمَثِّل ليس فى تقرب العبد إلى ربه وإنما فى تقرب الرب إلى عبده، كل هذا يثير سؤالاً عن الأصل والنبع الذى كان منه هذا الخير، وكان به هذا الخير، فقيل كل ذلك لأن الله المعبود بالحق، والذى هو صاحب الجلال والسلطان، من شأنه أمران أنه يغفر الذنب وأنه يشكر الطاعة، يعنى

يكافئ عليها بما يليق بمقامه. وهذا المعنى هو من صلب السياق لا تجده لهذه الفاصلة إلا فى هذا الموضع.

ثم إننا إذا جعلنا هذه فاصلة الآية ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ﴾ وجدنا فى كلمة ﴿غَفُورٌ﴾ إشارة إلى أن هؤلاء الطيبين السالكين إلى ربهم بالإيمان وعمل الصالحات واقتراف الحسنات لم يسلموا من زَلاَّت وانْعِرَاجات فى الطريق وانحرافات لا يُبَرِّئُ الإنسان منها نفسه، وأول ما يتلقاهم من ربهم غفرانه، الذى يغسلهم من دَرَنِ المعصيةِ، ثم شكرانه الذى يجدونه فى مضاعفة الأجر

وإذا قلنا إنها فاصلة لأوسع من هذه الآية التى هى فيها، وجدنا الآيات قبلها تعالج شأن الذين ظلموا المشفقين مما كسبوا، وشأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، والآيات كلها دائرة حول هذين ثم تأتى الفاصلة مُفتتحة بالغفران، لتقول للفريق الضال أقْبل على الله ولا تيأس ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] باب الله مفتوح لكم يا من اتخذتم شركاء من دونه، ثم تجد فى كلمة شكور فتحًا لباب المضاعفة فى الأجر، والزيادة فى الفضل، وأن من يفعل الحسنات الله يشكرها، وناهيك عمن وقع أجره على الله ولا يهلك على الله إلا هالك، وهذا شيء من تنوعات المعانى التى ينشرها السياق حول هذه الفواصل المتفقة فى اللفظ، والتركيب، والمختلفة فى الموقع.

قوله جل شأنه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

هذه الآية من تمام معنى ما قبلها وهى قوله سبحانه ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ مع ملاحظة موقع ما قبلها من معانى ومقاصد

السورة، وأنها الوجـه المقابل لقوله ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ﴾ وأن هذه الأخيرة هى ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وأن هذه هى ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ إلى آخر ما نرى من تشابك بالغ القوة وبالغ الدقة.

وهذه الآية تعرض موقفًا آخـر لفريق المعارضة بالباطل. ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾، وقد أومأ الرازى إلى أنهـا حلقة فى سلسلة متتابعة، من رأس السـورة، وقال: «اعلم أن الكلام من أول السورة إنما ابتدئ فى تقرير أن هـذا الكتاب إنما حصل بوحـى الله، وهو قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ واتصل الكلام فى تقـرير هذا المعنى. وتعلق البـعض بالبعـض. حتى وصل إلى هنا، ثم حكى هنـا شبـهة القوم، وهى قولهم إن هذا ليس وحيًا من الله تعالى» انتهى كلام الرازى.

وهذه الآية تكررت كثيرًا فى الكتاب العزيز بلفظ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ ولم يقل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ إلا هنا وقد كان القرآن يُذكر قبل قوله تعالى. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ فيعـود الضمير عليه كمـا جاء فى سورة يونس ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس. ٣٧] ثم جـاء قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [يونس:٣٨] وكأن الرد هو ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ وهكذا جاءت فى هود وفى السجدة.

والذى هنا ليس الافتراء واقـعًا على ضمير القـرآن، وإنما هو افتراء الكذب على الله فى كل مـا بلَّغ عنه، وهذا أدخـل فى الزور، والبهـتـان، وأشنع. ولذلك ذهب بعض المفـسرين إلى أن هذه الآية وصـفت درجة فى الـضلال والبهـتان أبعـد من الآية قبلـها ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ مع أن آية الشركـاء وثنية مَحْـضَة، وهذه الآية فـيهـا اعتـراف بالله، وتكذيب لمن ادعى أن الله أوحى إليه، قال الخفاجى. «إنه إضراب آخر إلى ما هو أعظم من الأول، وهو أنه لما ذكر ما شرعه وأضرب عنه ثانيًا مُـرخيًا للعنان قائلاً: بل أتقولون فى شأن من

بلّغكم أكرم الخلق عن الله إنه افتراء من تلقاء نفسه» وقد زاده الألوسى بيانًا بقوله إضراب أطمٌّ من الأول. فإن إثبات ما هم عليه من الشرع وإن كان شراً وشركًا أقرب من جَعْل الحق الأبلج المعتضد بالبرهان النيِّر من أوسطهم فضلاً ودَعةً وعقلاً افتراء ثم افتراء على الله عز وجل» انتهى كلام الألوسى، ومعنى قولهم ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ شامل لكل ما يبلغه عن ربه سواء كان كتابًا أو سنة، واختصت الشورى بهذا لأنها سورة الوحى وهذا القول الذي لم يتكرر فى غيرها متلائم جداً مع الوحى الذي ذكر فى آخرها ولم يتكرر فى غيرها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾.

والتعقيب على قولهم هذا فى الشورى مخالف للتعقيب على قولهم فى نظائره فقد كان التعقيب على قولهم فى القرآن ﴿افْتَرَاهُ﴾ هو الإفحام القريب والواضح بمطالبتهم بأن يأتوا بمثله، وهذا ظاهر، أما التعقيب هنا فقد جاء على وجه آخر، وفيه من الخفاء ما فيه، فقوله جل شأنه ﴿فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ هو الردُّ على هذا الافتراء، لأن الكلام بعد هذا الشرط وجوابه مستأنف لأن قوله تعالى و﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ ليس معطوفًا على جواب الشرط، وإنما هو كلام جديد.

والفاء التى فى قوله: ﴿فَإِن يَشَأِ اللَّهُ﴾ فاء التفريع لأن ما بعدها مفرع على ما قبلها وهى أخت الفاء التى فى قوله ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٤] أو ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] ومعنى فاء التفريع فى هذه الآيات ظاهر لأن ما بعدها نَقْضٌ لما قبلها بخلاف الفاء التى معنا فإن النقض فيها فيه فضل خفاء ولهذا اختلف كلام العلماء فى بيانه وفى بيان وجه العبارة عنه والْتبست الدلالة حتى قال الخفاجى وهو من يعرف علمه وفضله أهلَ العلم والفضل هذه الآية من أصعب ما مَر به، فى كلام الله العظيم وفقنا الله لفهم معانيه ومن بين ما قيل فى معناها ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يعنى يربط عليه

بالصبر حتى لا يشق عليك أذاهم، وهذا بعيد لأن ﴿يَخْتِمْ﴾ لم تستعمل فى هذا المعنى. وقالوا ﴿يختم علىٰ قلبك﴾ يُنْسيك القـرآن، ويقطع عنك الوحى كمـا قال سبـحانه ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦] وقالوا إن الخطـاب فى قوله ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ خطاب للذين قالوا افـترى على الله كـذبًا، وأن الكلام انتـقل من الغـيبـة إلى الخطاب ومن الجـمع إلى الإفراد وهذا أغرب.

والذي عوّل عليه أكثـر المفسرين كلامُ الزمخشرى رحمـه الله وخلاصته أن قوله سبـحانه : ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ استبعـاد للافتراء ووجه هذا الاسـتبـعاد أنه لا يفـترى على الله الكـذب إلا من ختم الله على قلبـه لأن الافتراء على الله فى مرتبة الشرك وأنت لست كذلك وإنما هم الذين ختم الله على قلوبهم، ثم ضـرب الزمخشـرى مثالاً لهـذا وهو أن يُتّهم أمين بالخـيانة فيقـول فى دفعه هذه التهمة لعل الله خـذلنى وأعمى قلبى وهو لا يريد ذلك وإنما يريد أنه لا يُقْـدمُ على هذا إلا إذا كـان قـد أعمى الله قلـبه، وكـذلـك رسول الله ﷺ لا يفترى على الله إلا إذا كان الله سـبحانه قد خذله، وأعمى قلبه، ولم يحدث ذلك، وإنما اختاره الله لوحيه، وجَعَلَهُ خاتم الأخيار.

وقد دار كلام المفسرين على هذا وأضافوا إليه إضافات مُهْتَديةً بما فيه، ومن بين ما قيل فى هذا ما قاله العلامـة السمرقندي الذى تناول المعنى من جهة أنه تسلية لرسول الله ﷺ وأن قوله: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يعنى كما خـتم على قلوبـهم، ولكن الله كـرّمك فـاشكر ربك، وتـرَحّم على هؤلاء المخذولين، ولولا خـتم الله على قلوبهم، ما اجـترأ أحد منهـم على اتهامك بالافتراء، وهذا يعنى أن قوله ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ كناية عن ختم الله على قلوبهم، لأنه لا يقول هذا الافـتراء إلا مخذول، مخـتوم على قلبه وأن التفريع المفهوم من الاستـفهام المتضمن فى قوله﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ موجه إلى المعنى المكنى عنه، الذي هو خَتْمُ الله على قلوبهم

وقد عقّب الألوسى على كلام السمرقندى بقوله «وفيه شَمّةٌ مما ذكره الزمخشرى» وهذا جيد وليس قَدْحًا فى السمرقندى لأن العالم الذى يقتبس من غيره قبسةً ثم يضيف لا يعاب بل يمدح لأن هذا هو طريق توارد العلماء على أبواب العلم، واتساع هذه الأبواب بتوارد جهودهم، قلت إن الخفاجى أشار إلى غموض الربط بين ﴿فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وما قبله ولما ذكر هذا الغموض وهذه الصعوبة عقب بقوله وقال العلامة وهو فارسُ هذا الميدان ثم لخص كلام الزمخشرى وأردفه بتلخيص كلام السمرقندي وهذا يعنى أنه أقرب ما قيل فى الآية.

قوله سبحانه ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ جملة مستأنفة وليست معطوفة على جواب الشرط قبلها وليست مترتبة على الشرط السابق لأن محو الله للباطل وإحقاقه الحق ليس مشروطًا بشيء وحذف لام الفعل يمحو فى خط المصحف لأنها لما خففت فى النطق تبع ذلك حذفها فى الرسم ولها نظائر كثيرة منها قوله تعالى ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] وقوله جل شأنه ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١]، وقد ذكر الزمخشرى أن بعض المصاحف أثبتت هذه الواو، وإنما جاء الفعلان يمحو ويحق مضارعين للإشارة إلى أن هذا شأن من شؤون الله يتجدد كما دل المضارع فى قوله سبحانه ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ والمراد بالكلمات الوحى والقرآن، ومجيء هذه الجملة عقب التى قبلها وما عطفت عليه من قوله له سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أقول هذه الجملة وعد من الله بإبطال كل هذا الباطل، وإحقاق الحق وتثبيته، وقد كان ما وعد سبحانه؛ وهذه الجمل الثلاثة ذات الطابع الواحد ﴿فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ من الكلام الصادر عن عز الربوبية وهي جمل شديدة الاختصار، وشديدة الصفاء، وإنما صدرت عن عز الربوبية لأنها تدل دلالة ظاهرة على أن الله غنيٌّ عن العالمين، وأنه قادر على محو الباطل، وإحقاق الحق بكلماته، من غير وساطة أنبياء، ولا حكماء، ولا دعاة، وأن كل

من يعالج إحقاق الحق بتكليف من الله إنما يفعل ذلك بمحض مَنّ الله وفضله، لأن الله سبحانه يفتح لعباده أبواب طاعته، ويأمرهم بدعوة الحق، والصلاح، والإصلاح، وهو غنى عن هذا كله لأنه سبحانه يمحو الباطل ويحق الحق بكلمة كن فيكون.

وأخيرًا هناك لمحة مفيدة فى قوله سبحانه ﴿فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ هذه اللمحة هى تحقيق وتوضيح وتثبيت الفرق العظيم بين الألوهية والنبوة حتى لا يختلط الأمر على أحد بعد طول الأمد، وأن يقول المسلمون ما قاله اليهود والنصارى عزيز ابن الله والمسيح ابن الله، ونظائر هذا فى القرآن قوله سبحانه ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦]. وقوله جل شأنه ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٦]. وهذا ومثله صان عقيدة الأمة من هذا الخلط الذى أفسد اليهودية والنصرانية فليس فى المسلمين واحد يتوهم هذا الخلط.

وقوله سبحانه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾. جملة بنيت على القطع والاستئناف والتوكيد وقد جاء التوكيد فى مبناها ومعناها أما مبناها فظاهر توكيدها بإن التي هى أم الباب وبصيغة المبالغة فى عليم وبقوله «ذات الصدور» ولم يقل عليم بما فى الصدور لأن العليم بذات الصدور عليم بذاتها وحقيقتها وما يجرى في لحمها ودمها. وهو لا محالة عليم بما فيها، ويلاحظ أن الضمير العائد على لفظ الجلالة وقع موقعه هنا ولم يقع الظاهر موقع المضمر كما في الفاصلة السابقة لأن لفظ الجلالة هناك انتقل به الكلام من التكلم فى قوله ﴿نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ إلى الغيبة فى قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ فأحدث الالتفات من التطرية والإيقاظ ما أحدث ونبه على أن هذا موضع يلتفت إليه.

أما توكيدها بمعناها فإنه لا يمحو الباطل ويحق الحق، إلا العليم بذات الصدور لأن الحق والباطل مستقرهما هذه الصدور وإنما احتاج المقام إلى هذه التوكيدات لأن أهل الباطل يلبسون الحق بالباطل ولا يقتادون الناس إلى الباطل إلا إذا ألبسوه ثوب الحق لأن الباطل العارى من ثوب الحق لا ينهض.

قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

هذه الآية جملة واحدة وإن دَقَّقْتَ قلت هى جزء جملة، لأنها داخلة فى حيز الصلة، والصلة جزء الخبر لأن الخبر هو الموصول وصلته وجملة ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ جملة حالية وهى من توابع ما جاءت حالا له، ثم نتأمل تواتر الأفعال المضارعة على هذه الصلة.. يقبل التوبة.. يعفو عن السيئات.. يعلم ما تفعلون.. يستجيب الذين آمنوا.. يزيدهم من فضله وكيف تتلاءم مع ما قبلها: يشأ.. يختم.. يمحو.. يحق.. وكيف كان كل ذلك فيه من سلاسة وعذوبة البيان وخفته على اللسان ما ترى مع دلالته المعنوية، العظيمة، وأنها أحداث تتجدد منه سبحانه فمن شأنه أنه يقبل التوبة، ومن شأنه أنه يعفو عن السيئات، ومن شأنه أنه يجيب الذين آمنوا، وهذا الشأن يعنى أن هذه الأفعال تتجدد منه أبدًا، وتأمل الأفعال وتأمل ما وراءها من فيض الرحمة وفيض القرب، وفيض الود لعباده، إن ربى قريب مجيب، وإن ربى رحيم ودود وحين تقرأ الآية وتكررها تجد هذه الأفعال ذات الزمان الواحد والوزن الواحد والمبتدئة كلها بياء المضارعة تجرى على لسانك بنغمة واحدة تغلب على رنين الآية وتغلب على معناها.

وأهم من هذا مع أهميته هو موقع هذه الآية ووجه ترتيبها على ما قبلها لأن النظر إليها من هذه الجهة أهم ما أهتم به لأنى أرى الكلام ينتقل ويقطع الكلام السابق ويستأنف وهو مع كل هذا امتداد ظاهر للكلام الذى سبقه وأنه من تمام معناه وأن الكلام ينمو كما ينمو الحى، من غير أن ترى مقاطع تحدد مراحل نموه، وإنما تراه خارجًا بعضه من بعض. بيان ذلك فى هذه الآية أن الآية التى قبلها تصور بابًا من أبواب الباطل انهمك فيه أهل الضلالة، وهو

قولهم ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وقد بينا أن العلماء ذكروا أن هذا ارتقاءٌ في الضلال وأنهم أسوأ دركًا من الذين قال الله فيهم ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ وأن هذه الآيات تتخللها أحاديث عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأنهم فى روضات الجنات، وأن الله يزيد حسناتهم حسنًا؛ إلى آخره. . ثم تأتى هذه الآية وتفتح لهؤلاء المبطلين والوالغين فى الباطل باب التوبة ليلحقوا بالذين فى روضات الجنات ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وأن الله سبحانه وتعالى ما ذكر بابًا من أبواب الباطل الذى لَجَّ فيه من عباده من لجَّ إلا أعقبه بفتح باب التوبة؛ والمغفرة والأوبة إليه، وهذا هو تمكن هذه الآية فى موقعها وأنه لا يصلح لهذا الموقع إلا هى. وهذا مما يجب أن ندقق فيه، لأنه باب كما قلت أدخل فى الروابط من المناسبة، ومن جهة أخرى نجد الكلام السابق حديث الحق عن خلقه برّهم وفاجرهم، وهنا حديث الحق عن أبواب رحمته، وعفوه، الذى يسع فيه عباده جميعًا، برّهم وفاجرهم، وهذا ضرب من الممازجة، والمداخلة بين المعانى كلما زادت مراجعتك له زدت اقتناعًا بما أريد أن أدُلّك عليه ولا يناله قلمى.

ثم إنك تجد الجملة مبنية على طريقة القرآن فى حديثه عن الأحداث التى لا تكون إلا من الله، كما فى قوله ﴿الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١] ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، لأن أسلوب الاختصاص فى الآية دال على أن هذا لا يكون إلا منه فليس غيره الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون.

ثم إن الموصول وصلته فيه معنى بالغ الرحمة والقرب من عباده وهو أنه يجب أن يكون قبوله التوبة وعفوه إلى آخر الصلة من الأمور المعلومة والمتعارفة والمتناقلة بينكم حتى لا تستكثروا ذنوبكم على رحمة ربكم، وألا يكون إسرافكم على أنفسكم سبيلاً إلى قنوطكم من رحمة الله، لأن اليأس

من رحمة الله يــدمر النفس. أو يصنع منها شيطانًا رجــيمًا، ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ** ﴾ [الزمر: ٥٣].

ثم دقق فى فهم الكلمــات ودلالات مجىء بعضــها فى أثر بعض. وأنا أريد مجىء قوله ويعفو عن السيئات بعد قوله ﴿ **يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ** ﴾ وقبول التوبة يعنى العفو عن السيــئات، لأن هذه السيئات هى الكبائر، لأن الصــغائر يغفرها اجتناب الكبائر، وإذا قبلت توبة العبد عن الـكبائر وأصبح ليس عليه كبائر تَبِعَ ذلك تكفير الصغائر، فما معنى ذكر العفو عن السيئات بعد قبول التوبة؟

المعنى ظاهر فى أن قوله ﴿ **وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ** ﴾ يعنى يغفر الكبائر بدون توبة وهو مذهب أهل السنة وأنه يعفو عنها بمحض فضله، كما أنه يقبل التوبة بمحض فضله، لأنــه سبحــانه ذكر قبــوله للتوبة فى سيــاق مَنِّه سبــحانه على عباده، ولو كان قبول التوبة واجبًا عليــه من جهة أنه أوجب قبولها على نفسه كما يقول المعتزلة لما صح أن يذكر قبول التوبة، فى سياق ذكر فضله ومَنِّه لأن الذى يفعل الواجب لا يجوز أن يَمُنَّ علينا به.

وكلمة ﴿ **وَيَعْفُو** ﴾ من العفــاء وهو الدروس. كقولهم عــفت الديار، يعنى ذهبت آثارها، ومعنى عــفوه عن السيــئات أنه يذهبهــا، ويذهب آثارها، وتجد الخلاف متــسعًا بين أهل السنة، ومنهم الأشاعرة، والمعــتزلة، فى هذا الشأن؛ أهل السنة يقولون من مات وعليه كبــيرة لم يَتُبْ منها يمكن أن يدخل فى عفو الله فيذهبــها الله عز وجل ويذهب آثارها ويدخله الجنة، والمعــتزلة يقولون إن الله لا يغفر الكبائر إلا بالتوبة، ومن مات وعليــه كبيرة لم يَتُب منها مخلَّد فى النار.

ويقبل التــوبة عن عبــاده الأصل أن يُعدَّى فــعل يَقْبَل بمن ويقــال يقبل من عباده كمــا قال تعالى ﴿ **وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ** ﴾ [التوبة: ٥٤] وإنما عُدِّى بحرف الجــر (عن) لأن المراد الإشارة إلى التجاوز عن ذنبه وأنه ســبحانه أبان ذنبه عنه وأبعده عنه.

قال الزمخشري «معنى قبلته منه أخذته منه وجعلته مبدأ قبولي ومنشأه ومعنى قبلته عنه عزلته عنه، وأبنته عنه». وقد لاحظ البيضاوى هذا المعنى وقال فى تفسيره ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ بالتجاوز عما تابوا عنه، ثم قال والقبول يُعدّى إلى مفعول ثانٍ بمن وعن لتضمنه معنى الأخذ والإبانة، وتضمين القبول معنى التجاوز وتعديته بعن يوجب تقدير محذوف لأن المتجاوز عنه ذنوب عباده.

وملاك التوبة الإقلاع عن الذنب امتثالاً لأمر الله وليس لغيره كالمروءة ونحوها. والعزم الصادق على عدم العودة، والندم المفرط على مافات، وعودة الحقوق إلى أهلها، وقد جمع الإمام على كرم الله وجهه أصول التوبة فيما رواه جابر «أن أعرابياً دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك وكبّر فلما فرغ من صلاته قال له على رضى الله عنه يا هذا سُرْعَةُ اللسان بالاستغفار توبة الكذابين، وتوبتك تحتاج إلى توبة.

فقال يا أمير المؤمنين وما التوبة؟ قال اسم يقع على ستة معان، على الماضى من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة، ورد المظالم، وإذابة النفس فى الطاعة، كما ربيتها فى المعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة، كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته»، انتهى كلامه كرم الله وجهه. وهذا معنى التوبة باتفاق سواء صحّت الرواية أو لم تصح، وكلمة عباده فى قوله سبحانه ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ فيها إشارة إلى رحمته وأنه سبحانه يقربهم ويفتح لهم أبواب الرحمة ويدعوهم إليها لأنهم عباده الذين خلقهم لعبادته وشرَّفهم بهذه العبودية المضافة إليه سبحانه لأن من كان عبدًا خالص العبودية لله رب العالمين لا يكون عبدا لغيره سبحانه، لأن سلطانه وعزه وجلاله وقدرته كل ذلك لا شركة فيه، وعباده هم الرافعون رؤوسهم فى كنف عزه وقد منحهم عِزاً من عزته وقوة من قوته لأنه هو وحده القوى العزيز

وقوله سبحانه ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يعنى أن ما تفعلونه من معصية تعلمون أنه معصية هو سبحانه يعلمه وأن قبوله التوبة وعفوه عن السيئات مؤسس على علمه بكم وبأحوالكم فى حال المعصية، وفى حال التوبة، وفى حال الاجتراء على حدود الله، وفى حال الإنابة إلى الله، وهذا العلم الشامل لأحوالكم يوجب عليكم الحياء من الله حين تقدمون على أن تتعدوا حدوده، ويوجب لكم الغبطة حين تقدمون على طاعته، وذكره، لأنه معكم فى الأحوال كلها.

وهذه الجملة ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ الواقعة بعد يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، والمتمكنة فى موقعها كأنها أغلقت باب هذا الجزء من المعنى المتعلق بأصحاب السيئات التائبين وأصحاب السيئات الذين لم يتوبوا، وجاء بعدها كلام عن الفريق الآخر الذين آمنوا وعملوا الصالحات الذين يقترفون الحسنات ويزيد الله لهم فيها حسنًا، ويؤكد هنا إكرامهم بشىء آخر وهو أنه يجيبهم ويزيدهم من فضله ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ والهمزة والسين والتاء للمبالغة والمراد يجيبهم والفاعل هو فاعل يقبل التوبة ويعفو عن السيئات ويزيدهم من فضله والذين آمنوا مفعول به لأن فعل أجاب يتعدى بنفسه كما قال الشاعر:

وداعٍ دعا يا مَنْ يُجيبُ إلى النَّدى　　　فلم يَسْتَجِبْهُ عند ذاك مُجيبُ

والإجابة تعنى قبول الأعمال؛ والعمل الصالح يسمى دعاء كطلب الحاجة لأن العمل الصالح فيه معنى رجاء القبول والقبول هو الحاجة ورجاء القبول هو الدعاء ويمكن أن يكون المراد بقوله ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أنه سبحانه يستجيب دعاءهم والدعاء عبادة وطلب الحاجة من الله عبادة قال عليه السلام **«أكثر دعائى ودعاء الأنبياء قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير»** وقال صلوات الله وسلامه عليه **«أفضل الدعاء**

الحمد لله» وهـذا كـلام رفـيع لأنى أعدل عن سؤاله إلى حـمده وفـى حـمده ما يغنى عن سؤاله وهو أعلم بحاجتى.

ويلاحظ معنى من المقـاربة بين قوله ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ وقوله ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأن القـبول والإجـابة من باب واحد، كـما تلاحظ تقـاربا بين ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾، لأن كلا من محض الفضل وذكر بعض المفسرين أن الذين آمنوا وعملوا الصـالحات فاعل يستجيب وأنهم دعـاهم ربهم فأجـابوه ﴿رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمـران: ١٩٣] فلما أجابوا دعاء ربهم أجـاب الله دعاءهم وهذا القول مروى عن ابن جبـير وأسس عليه إبراهيم بن أدهم جـواب من قـال له ما بالنا ندعـوا فلا نجـاب؟ فقال لأنه دعـاكم فلم تجيبـوه ثم قرأ قـوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ﴾ [يونس: ٢٥] وقوله ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وعلى هذا الرأى لا تكون جملة ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ داخلة، فى حيز الصلة وإنما تكون معطوفة على رأس الجملة ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ وهذا القول أجازه الخفاجى وجمـاعة وقال وعليه تكون جملة ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ معطوفـة على محذوف مُسَبَّبٌ عن قوله﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والمعنى ويستجيب الذين آمـنوا ما دعاهم ربهم إليه فَيُثِيبُهُم ويوفيهم ويزيدهم من فضله وإذا قـلنا إن قوله ﴿وَيَزِيدُهُم﴾ معطوف على ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ صح هذا لأن المحذوف ملاحظ فى المعنى لأن الزيادة لا تكون إلا بعد التوفية.

وقد ذكـرت أن هناك ملاءمة على الوجـه الأول بين يقبل ويسـجيب وبين يعفو ويزيد وهذا ظاهر، والمراد أن هذه المـلاءمة تلحق الفريق الذى تورط فى الكبائر ثم تاب الله عليـه أو عفا عنه من غيرتوبة بهـذا الفريق الطيب الصالح الذى أجاب الله فـاستجاب الله له، وزاده من فـضله وهو الفريق الذى ليس بينه وبين الله باب مُـغلق، وإنما هم القوم الذين إذا دعـوا ربهم أجابهم، وإذا

أقسموا عليه أبرهم، وهؤلاء المتورطون يلحقون بهم، لأن التوبة تفتح الباب المغلق، ولأن العفو من محض فضله، وليس دون فضله حجاب.

قوله جل شأنه ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هذه الجملة التى تعد بالعذاب الشديد بعد جمل تفيض بالرحمة وقبول التوبة والعفو عن السيئات والزيادة تشير إلى الطائفة التى فُتحَت لها كل هذه الأبواب وأصَرَّتَ على العناد والكُفر ويلاحظ أن كلمة ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ لم تذكر من أول السورة إلا فى هذه الجملة وإنما كان يعبر عن هذه الفئة بمثل قوله سبحانه ﴿اتَّخَذُوا من دُونه أَوْلِيَاءَ اللَّهُ﴾ أو ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ أو ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أو ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ إلى آخره. والكفر معناه التغطية، والطمس، وإنما أوثر هذا اللفظ هنا لأن الآيات السابقة فتحت أبواب الرحمة، وهؤلاء كفروها وعمُوا عنها، وصيَّرُوها كأنها لم تكن، والذين لا يدخلون أبواب الهُدى من منافذ التوبة، والعفو، والزيادة من الفضل ليس لهم طريق آخر إلى الهدى.

قوله سبحانه ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

قال علماؤنا إن قوله سبحانه ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾ موصول بقوله سبحانه ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ وهو معطوف عليه، أو معطوف على ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الذى هو أصل جملة ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ . وهذا جيد.

وقالوا أيضًا إن قوله سبحانه ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ يبعث فى النفس هاجسًا يقول ومادام سبحانه يزيدنا من فضله فما بالنا ندعوه جلّتَ حكمته ونطلب

السَّعة فى الرزق فلا يجيب دعاءنا؟ وهذه الآية تعالج هذا الإحساس المتولد من الكلام السابق، وليس من شبه كمال الاتصال، لأن الآية معطوفة بالواو، وإنما هو من الكشف عن العلاقات الذهنية بين الآيات. وبيان المناسبات التى هيأت لاقتران بعضها ببعض. وكل هذا صحيح ومن الصحيح أيضًا أن تكون الآيات السابقة قد جمعت زُبْدَة عطائه لعباده فى شأن آخرتهم الباقية، وزبدة العطاء قبول التوبة، والعفو عن الكبائر من غير توبة، وقبول أعمال العاملين، وتوفيتهم أجورهم، والزيادة عليها، وراجع هذا لأنه من أكرم الكرم، وأوسع الرحمة، ولا يُقرِّبُ الله عباده إليه بأفضل منه، ولا يدعو الشاردين إليه، بأعظم من هذا النداء، أقول لما بلغ ذروة العطاء فى شأن آخرتهم بهذه الآيات. بدأ الحديث عن الوجه الآخر وهو شأنه سبحانه معهم فى أمر رزقهم، وأحوالهم ودنياهم، وهذه هى العروة التى لا انفصام لها بين الكلامين، ولم تَعُد المسألة تلمس علاقات وروابط، ومناسبات وإنما هو كلام يمتد من داخله، ويخرج بعضه من أصلاب بعض.

وكلمة ﴿وَلَوْ﴾ التى فى قوله تعالى ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ تفيد امتناع الشرط الذى هو بسط الرزق ولا شأن لها بالجواب إثباتًا أو نفيًا وهذا ما رجحه ابن هشام، مخالفًا ما جرى على أَلْسِنةِ المعربين من أنها تفيد امتناع الشرط والجواب، لأن الجواب قد تكون له أسباب غير الشرط، فامتناع الشرط فى هذه الحالة لا يُفْضى إلى امتناع الجواب كما فى هذه الآية لأن البغى فى الأرض له أسباب منها بسط الرزق، وامتناع بسط الرزق لا يؤدى إلى امتناع البغى. لوجوده لأسبابه الأخرى.

ثم هى تفيد الشرط فى الماضى فهى أخت «إن» فى إفادة الشرط، وتخالفها فى الزمان، لأن «إن» للشرط فى المستقبل وتكون «لو» للسؤال عن الجواب تقول لو كان كذا لكان كذا لمن جرى فى خاطره سؤال عن الجواب لماذا لم يكن وتقول لو لقيته لأكرمته لمن تساءل لماذا لم تكرمه، وقد يكون التساؤل عن الشرط كالذى

هنا لماذا لم يبسط الله الرزق لعباده جميعًا؟ ولماذا بسط للبعض وأمسك عن بعض وهو الغني الحميد وهم عباده؟ ولو في الحقيقة تبين سبب الامتناع وبيان هذا السبب هو الذي ربط بين الشرط والجواب على تفصيل في أحوال هذا الربط وهذه السببية ذكر ابن هشام طرفًا منه. والذي دلت كلمة لو هنا على سبب منعه هو بسط الرزق لجميع عباده سبحانه لأنه سبحانه بسط الرزق لبعضهم، والبسط للبعض لا يؤدي إلى البغي. لأن الله يدفع الناس بعضهم ببعض والبسط في الرزق للكافة كما يقول الطاهر يصرف الناس عن التوجه إلى الله لأن الذي يستغني يتطرَّقه نسيان الاتجاه إلى الله، فلو أن هذا النسيان تطرق للجميع لبغى الكل على الكل وظهر الفساد في البر والبحر، وقول سبحانه ﴿وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ تأكيد لنفي بسط الرزق للكافة، والقَدَر معناه التقدير على وفق مصلحة العبد كما يعلم خالقه سبحانه، وكلمة ﴿يُنَزِّلُ﴾ فيها معنى أن رزقكم في السماء، وأنه ينزل عليكم من علو من عند خالقكم، وعلياؤه سبحانه علياء مكانة، وليست علياء مكان، ثم في كلمة ﴿يُنَزِّلُ﴾ تهيئة خفية للآية ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ وربط بين تنزل الرزق وتنزل الغيث.

وتلاحظ أن كلمة عباده تكررت في الآية مرتين وأن الآية السابقة ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ فتحت بابها، وهيأت لذكرها، وأن الشأن هو شأنه مع عباده في الآخرة والأولى. وكلمة عباده في هذه المواضع شاملة للمؤمن والكافر، لأن الكل في هذه العبودية سواء، ومنهم من أدرك شرفها وأقرَّ بها واستمد عزه من عزها، ومنهم من أبى؛ ثم إن في ذكر هذه الكلمة هنا معنى آخر وهو أن القبض أو التقدير في الرزق ليس عقوبة لأن من بَسَطَ له وقَدَر له سواء في العبودية لله وإنما يرجع ذلك لعلمه بشؤون خلقه سبحانه، ولهذا جاءت كلمة عباده في فاصلة الآية ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾وهذه الفاصلة وإن اقْتَرَبَت من قوله سبحانه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فإن بينهما بونا بعيدًا؛ لأن

العلم بذات الصدور هو المناسب لتلبيس أهل الباطل، وتدليسهم، وتزويرهم، وتزيينهم، وكل ذلك فى الصدور لا غير، فانْصبَّ المعنى عليها، والأمر هنا مختلف لأن البسط فى الرزق ينتج ضروبًا من السلوك والممارسات الحياتية بكل أشكالها، وتقلباتها، وتصاريفها الظاهرة والخفية، والمستقيمة، وغير المستقيمة ، والنافعة والضارة، وكل هذا يتلاءم مع الخبير الذى يعلم شؤون خلقه، والبصير الذى يرى كل مُسْتَخْفٍ بالليل وساربٍ بالنهار، وفقه العلاقات بين الفواصل ومضامين الآيات لا يزال فى حاجة إلى مجهود يكشف منه خبايا لاتزال غامضة.

قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وينشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِىُّ الْحَمِيدُ﴾.

لاحظ المفسرون العلاقة التى بين ﴿يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ و﴿يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ فقالوا إنها معطوفة عليها، وأن التنزيل فى الآيتين رباط جامع، وعلامة ظاهرة، وهذا جيد.

ومن الجيد أيضًا أن يقال إن هذه الآية من تمام معنى آية ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾ لأنها تفيد معنى أن الرزق فى يده لأن الغيث هو الرزق، وقد سمى الله الغيث رزقًا فى قوله سبحانه ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ والله سبحانه جعل من الماء كل شىء حى فلولا الغيث لما كان فى الأرض نبات ولولا النبات لما كان فى الأرض حيوان ولولا الحيوان لما كان فى الأرض إنسان، ومادام الغيث فى يده فإنه يبسُط ويَقْدرُ لا عن عوز، وإنما لمصلحة عباده، وهو بهم خبير بصير، وهكذا تجد الكلام يمسك بعضه ببعض وكلمة الغيث هنا، لم يكن من الممكن أن توضع مكانها كلمة المطر، لأن كلمة ﴿قَنَطُوا﴾ ممسكة بكلمة غيث، والغيث من الغوث، والقنوط أحرج اللحظات التى تحتاج إلى الغوث، والقنوط معناه اليأس من المطر، ومواجهة

حالة الجدب التى يهلكُ فيها الظلف والحافر، ولاحظ التشارب الذى بين الكلمات، وضع كلمة الغيث بإزاء بسط الرزق، وكلمة القنوط بإزاء التقتير وهو أخو التقدير ويصاقبه لفظا ومعنى، ثم راجع صياغة ﴿وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾وضعها بإزاء صياغة ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ﴾ ليتم ذلك معنى التشارب الذى نُبِّهُ إليه، وقد قلت إن هذه الصياغة لا تجد صلة الموصول فيها إلا فعلاً ليس له إلا فاعل واحد، وهو الله، وله نظائر كثيرة جداً فى الكتاب العزيز، وهى صيغة ناطقة بعزِّ الألوهية، وقوله سبحانه ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾، معطوف على ينزل الغيث، وهى أختها فى مبناها ومعناها، أما المبنى فهو الاتفاق فى صيغة المضارع الدالة على أن هذا عطاء يتجدد أبدًا.

وأما المعنى فإن نزول الغيث ونشر الرحمة ، من باب واحد، وهذا أيضًا من التشارب يعنى التطاعم يعنى شدَّة التقارب والتآلف بين الكلمات والصيغ المكونة للآية، وكلمة ﴿رَحْمَتَهُ﴾ كلمة شاملة وهى مجاز عن كل فعل فيه خير، وفيه بر وفيه عطاءٌ وإحسان، ولذلك فُسِّرت مرة بالمطر، وهو تفسير صحيح أو بالدفء بعد نزول الغيث وهو صحيح، أو بطلوع الشمس بعد المطر، وهكذا، وهذه الكلمات الجامعة من أهم أدوات الإيجاز، وحين تقع موقعها الأشبه بها تكون من البلاغة بمكان، وتلاحظ تقاربًا شديدًا بين نشر الرزق للجميع من بُسط له ومن قُدِر عليه، وكلمة ينشر رحمته، ولو راجعت كلام العرب فى المطر زمن نزول القرآن لوجدت شعرًا كثيرًا وصورًا عالية وبلاغة بارعة ، وأوصافًا متنوعة وقد بلغ شعراؤهم الكبار الغاية فى هذا، وما من شاعر إلا وله فى هذا الباب مشاركة، وقد وقفت على كثير من ذلك ثم رأيت للقرآن منزعًا فى ذكر المطر لا يتصور أن يكون إلا منه، وهو أن الشعراء وصفوا المطر، ووصفوا أحوالهم، ووصفوا استشرافهم له، والقرآن حدَّث عنه حديث الممسك له بيده، وأن المطر فى قبضة من يتحدث عنه، وهذا هو الفارق الأساسى بين وصف الطبيعة فى الكتاب العزيز وفى كلام الناس. الذى يحدثنا عن الطبيعة فى الكتاب يحدثنا عن أنه صانعها، وخالقها ومُصَرِّفُها وليس شىء من ذلك فى كلام غيره سبحانه.

وقوله جل شأنه ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ هذه الفاصلة واقعة فى حاق معناها كغيرها من الفواصل. ووجه هذه الإصابة هو أن الغوث بالغيث من بعد ما قنطوا ونشر الرحمة الشاملة للكل وأن أُصول الأرزاق الممثَّلةَ فى الغيث الكائن فى قبضته، يملك وحده بها خزائن الأرض. وتَعُمُّ رحمتُه كل خلقه البَر والفاجر، هذه هى الولاية الحقة فلا وَلِىَّ إلا مَنْ مَلَكَ هذا؛ والحميد المحمود بحق، والذى يرجع إليه حمد كل محمود سواه، لأنه هو وحده أصل لكل العطاء، وكلمة الولى تعيد لنا نفسها فى آية ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾، وهى هناك لم يبين الكلام لماذا كان هو الولى؟ والكلام هنا يعود إليها ويبين لماذا كان هو الولى: لأنه هو يملك العطاء والمنع، ويملك أن يسوق السحاب، وأن يُنَزِّل من السماء رزقًا، وأن يَضَعَ فى يد كل عبد من عباده ما يَصْلُحُ به شأنُه، ثم إن التقارب بين الآيتين لم يقف عند هذا، وإنما يَنْتَقِلَ إلى الكلام الذى فى السياق فقوله هناك ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ يتلاءم تلاؤمًا ظاهرا مع ﴿يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ لأن هذا الغيث بعد القنوط يحيى الله به الأرض بعد موتها، وكانت هذه الآية صورة من صور كثيرة تضمّنتها الآية الأولى ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ وهكذا يزيدك حسنًا إذا ما زدته نظرًا.

وبقى أن أقول إننى أكرر هذه الجملة كثيرًا ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ لأنها تعطى ألوانًا كثيرة من المعنى وهى مثال للفرج بعد الحرج، وللعطاء بعد المنع، والرخاء بعد الشدّة وقد تطلب الشىء فيتعاصى عليك كثيرًا ثم تفاجأ به بين يديك فتقول ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾، وهكذا حتى فى مساءل البحث والتفكير فى أسرار البيان.

قوله جل شأنه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾.

لابد من مراجعة الآية مـرة ومرة ومعرفة المعانى المتسعـة جداً وراء كلماتها المختصـرة جداً وكيف تتوالى هذه المعانى المتـسعة جداً والواضحـة جداً بهذه الكلمات المختصرة، وهذا شىء على القارئ أن يراجـعه لأن بيانه من غيره قد يفسـد إحساسـه به، وهذا الذى لا يكتشفـه إلا القارئ بنفسـه هو لب بلاغه القـرآن ولب أسرار البـيان وإنما تتـناول أقلامنا مـا هو دون ذلك وقد أصـاب الباقلانى حين قال «وجه الوقوف على شرف الكلام أن تتأمل».

وهذه الآية امتداد للكلام الذى مضى ومتمم له، بيان ذلك أن الكلام الذى مضى هو بـيان شأن الله مع عـباده فى آخـرتهم وفى دنياهم، وقـد بينا ذلك والآية من دلائل الألوهية وهى نَصٌّ فى هذا ومصرِّحَة به، وذلك قوله سبحانه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ وآيات الألوهيـة تتخلل كل المـقاصـد التى جاءت فى الكتـاب العزيز، وتهـيمن عليها لأننـا ننقاد لما أمرنا به ولما نهانـا عنه بسلطان الألوهية وهذا السلطان بآياته، ودلائله، هو الأصل المـوجب للعبادة، ولـذلك تجد كل معنى فى الكتاب سواء كان قصصًا أو أحكامًـا أو حديثًا عن القيامة والحساب والجنة والنار إلى آخره مسنودا بهذه الآيات.

وآية ﴿وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ والتى قلنا إنها من تمام معنى ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ﴾ وإن كانت من تمام معنى مـا قبلها فقد جـاءت فى سياق برهان؛ بمعنى أنها جمـعت بين تأكيد بسط الرزق لمن يشـاء وتقتيره على من يشـاء وفق علمه بأحوال عباده، وبَيَّن مظهـر من مظاهر القدرة المتفردة، وهى ﴿يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ ولما فتحت هذا المعنى وهو آيات الألوهيـة جاءت الآيات بعدها لإشباع هذا، وذلك بـالانتقال من ﴿يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ الذى هو من السـماء على الأرض إلى ذكر أنه سبـحانه خالق السمـوات والأرض، فاتسع الدليل وارتفع، وإذا كان بيـان شأنه مع خلقـه فى آية ﴿يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ هو الأظهر فـإن برهان الألوهية فى آية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ هو الأظهر، وعطاؤه لعباده جاء ضمن هذا الدليل، وهو قوله ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾ ثم إنك تلاحظ أن

خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة يؤكد ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ ثم إن هذه تؤكد ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾، وهذا ظاهر لا تكلف فيه.

والاستدلال على الألوهية بخلق السموات والأرض حين نضعه بإزاء الأدلة الأخرى فى الكتاب العزيز تجده بمثابة الدليل الكلى الجامع لأدلة جزئية، فقد جاءت من الأرض أدلة كثيرة وكذلك من السماء من ذلك قوله سبحانه ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦، ٧] ومنها الإشارة إلى الجبال وأنها رواسى، ومنها أنه قدَّر فيها أقواتها، ومنها أنه يُحييها بالماء، وقد جعل فى السماء بروجًا، وزيَّنها بمصابيح، والشمس تجرى لمستقر لها إلى آخره. وهذه مسألة مهمة أعنى الجمع والتفريق فى الأدلة الكونية فى الكتاب العزيز وربط كل بمقامه.

ولما كان السياق هنا هو ذكر البسط فى الرزق، والتقدير، ونزول الغيث من السماء، ناسب أن يقرن خلق السموات والأرض بما بث فيهما من دابة، لأن هذا المبثوت هو الذى تقدم ذكره، لأنهم عباده، وقد أومأ البيان إيماءة جليلة إلى أن المقصود هو الإنسان، لما رجع بضمير جمع العقلاء على الدواب المبثوثة فيهما وقال سبحانه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ والظاهر أن يقال وهو على جمعها.

ومن أجل الملاءمة بين الآيات والسياق جاءت بعد آية خلق السموات والأرض آيات الجوارى فى البحر كالأعلام لأنها آية ونعمة ومن المهم -وهو دقيق وغامض- البحث عن التَّلوينات البيانية الخفية والتى تتلاءم بها الآيات المبثوثة فى الكتاب مع سياق السورة التى جاءت فيه، شتان ما بين آية خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة التى سمعنا فى الشورى، وآية خلق السموات والأرض وتفاصيل هذا الخلق فى فصلت ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] ولم تكثر دلائل الألوهية فى الكتاب العزيز كما تكثر آية خلق السموات والأرض. لأن الإنسان بينهما أبدًا، قدماه

على الأرض. ونظره في السماء، وحضورهما في خيال الإنسان حضور لا يزاحمه حضور شيء آخر، والمطلوب لفتُه وتنبيهه إلى الصانع جل شأنه، وكلمة ﴿وَمَا بثَّ فيهما من دابَّةٍ﴾ كلمة جليلة وهي أخت قوله ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجالاً كَثيراً ونساء﴾ [النساء: ١] والبث التفريق يقال بث الخبر، فانْبثَّ يعني فرقه فتفرق ونشره فانتشر وكلمة البث تفيد الانتشار مع الكثرة، وراجع آية ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَثَّ فيهما من دَابَّةٍ﴾ وضعها بإزاء آية ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ومِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ وتأمل الصلات بين الكلمات ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ و﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ثم قابل ﴿وَمَا بثَّ فيهما من دَابَّةٍ﴾ بقوله ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ والكلمتان دالتان على معنى التكاثر، ثم تنفرد بث بالانتشار المناسب لقوله ﴿فِيهِما﴾ وتنفرد الآية السابقة بالإشارة إلى معنى الذرية المناسب للأزواج وقد قالوا إن ذرأ بمعنى خلق كقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِ وَالإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] قالوا وكأن الذرء مُختَصٌ بخلق الذرية قال ثعلب في قوله تعالى ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ معناه يكثركم فيه أي في الخلق قال والذُّرية والذِّرية منه أراد بالضم والكسر وهي نسل الثقلين، وفاطر في الآية السابقة لاءمت الآية قبلها ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنهُ﴾.

وقوله ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ التنكير فيه يفيد العموم، و«مِنْ» تؤكد هذا العموم، وكلمة ﴿وَمَا﴾ في قوله﴿وَمَا بثَّ﴾ اسم موصول مبهم تعرفه الصلة ويبقى فيه من الإبهام ما ليس في الذي وأخواته، وهي شاملة لكل ما في السموات والأرض من دابة والدابة يعني ما يدب، وبعضهم أدخل فيها الطير لأنها حين تهبط من جو السماء تدب على الأرض. وما الموصولة يجوز أن تكون في محل رفع عطفًا على المبتدأ ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ والمعنى ومن آياته خلق السموات والأرض ومن آياته ما بث فيهما من دابة، وبذلك تكون آية البث متساوية مع هاتين الآيتين

العظيمتـين، ويجوز أن تكون فى محل جر عطفـا على خلق السموات والأرض، والمعنى ومن آياته خلق ما بث فيهما من دابة وهذا الموطن الإعرابى المحتمل يجعل البث موضع المراجعة والنظر حتى لا يتوه بين هاتين الآيتين العظيمتين.

وقوله ﴿فِيهِمَا﴾ موطن آخر من مواطن المراجعـة لأننا لا نعرف أن فى السماء دابة ولذلك قالوا جاء هذا على حد قوله سبحانه ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرجان من الملح لا من العذب، وقالوا ليس هناك مانع من أن تكون فى السمـاء حيـاة يعنى فى كـوكبِ من كـواكبـها، وهـذا مـا لم يقطع العلم بنفيه، وقـد ذكر علماء زماننا أن كل ما اكتشـفه العلم من أسرار الكون هو أربعة فى المائة، وبقى الباقى والله أعلم بما فيـه ويخلق ما لا تعلمون، وقالوا: إن الملائكة وإن كان من شـأنها الطيران ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر: ١] فليس هناك مانع من أن يكون لها مشى فى السماء، وقـالوا غير ذلك والكلام يحتمل ومن المهم أن نلتفت إلى بناء الكلام الذى يحتمل وكيف احتمل لأن هذا من جوهر بلاغته.

وراجع كـيف تتواصل هذه الآية مع الآيات الـسابقـة المكونة للسورة وقـد نبهت إلى صلتها بآية ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وأنبه إلى صـلتها بآية ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾، التى تحدثت عن ملكه للسموات والأرض. وهذه تتـحدث عن خلقـه للسمـوات والأرض. والآيات الثلاثة حـديث عن السموات والأرض ملكها- فطرها- خلقهـا- والقرآن المجيد يضع الإنسـان فى قلب الدليل أو يأتى له بالـدليل من قلب ما هو فـيـه فالإنسـان بين السمـاء والأرض كـمـا قلت لا ينفـذ من ذلك ولا يسـتطيع، وأقـرب شىء إليـه هو الأرض التى تقله والسماء التى تظله وهذا هو المكان ثم تجد آيات الليل والنهار تتكاثر تكاثر آيات السموات والأرض لأن الإنسان إما أن يكون فى ليل أو فى نهار، ولا يخـرج من ذلك أبدًا وهكذا تجد الشـمس والقمـر لأن الإنسان فى صحبة أحدهما وهكذا، ولا يهلك على الله إلا هالك.

وقوله جل شأنه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ تشير إشـارة لطيفة إلى قوله سبحانه ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ وتذكرك بكلمة جمعهم لأن إنذار يوم الجمع هو أصل المعنى. والمقصود من الوحى الذى أوحاه الله إليه، وأوحاه إلى النبيين من قبله ثم إن هذه الجملة بَيَّنَت لى لماذا آثر كلمـة البث التى قبلها؟ لأن جمع ما بُثَّ وتفرق وانتشر وتكاثر أصعب ولهذا ترى التلاؤم بين الجملتين ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ وأن كلا منهمـا ممسكة بالأخرى، وهذا تطاعم وتشارب ظاهر، وأصل بناء الجـملة وهو قدير على جمعـهم إذا يشاء وإنما قدم الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ على متعلقه الذى هـو الخبر لأنه مناط الفائدة والكلام به أعنى لأن هذه الآيـة العظيـمة الـتى هى ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ تتضـمَّن حديث البـعث ودليله فهى ليسـت برهان الألوهية فحسب وإنما هى أيضًا إخبار عن البعث مصحوبًا بدليل ثم هى أيضًا فيها ما لا يخفى من التهديد، والوعيد، وقد تجد هـنا لمحة خفية جداً لسر ذكر الخلق بدل فاطر التى ذكرت هناك وقلت إنها تتلاءم مع قوله ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ هذه اللمحة هى أن البعث والنشر من مـفرداته ودلائله الخلق، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ [يس: ٧٨]، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٩] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّموات وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٣] فاستدعى ذكر الجمع الذى هو البعث كلمة الخـلق وآثرها على الفطر؛ ثم إنك تلاحظ فى معنى الآية شيئًا لافتًا وهو أن المبثوث فى السموات والأرض أنواع كثيرة من الحيوان والطير ولكن الآية لما انتقلت إلى المعنى المقصود قالت ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ فعبرت عن كل هذا المبثوث فى السماء والأرض بضمير جمع المذكر (هم) فأفردت الإنسان وأخرجته من هذا البـحر الذى يموج بهذا المبثوث لأنه هو المخـاطب بالشريعة، وهو المجموع يوم الجمع ليثاب ويعاقب.

وكلمة ﴿إِذَا يَشَاءُ﴾ تأكيد لمعنى القدرة والهيمنة وتمكن المشيئة وجريانها فى أموره سبحانه كما قال فى الآية السابقة ﴿وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ ثم إن إذا الظرفية الدالة على المستقبل تفيد أنه سبحانه يجمعهم بقدرته القادرة أى وقت يشاء جمعهم فيه وليس المراد يوم الجمع لا ريب فيه لأنه لو كان المراد يوم الجمع كان هذا الظرف وهذا التعلق لا معنى له وحينئذ يكون جمعهم يوم الجمع داخلاً فى الدلالة العامة يعنى يجمعهم إذا يشاء أن يجمعهم فى يوم الجمع وفى غير يوم الجمع.

وقد اقترن الخلق بالبث فى آيات أخرى من الكتاب العزيز وغالبًا ما يكون البث مع خلقكم ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ﴾ [الجاثية: ٤] ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً﴾ وكل له مقام وسياق يعطيه لونًا من الدلالة يختلف به عن غيره.

قوله سبحانه ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾.

هاتان الآيتان معنى واحد الآية الأولى نصفه الأول والآية الثانية نصفه الثانى. والمهم الآن أن نَعْرِف صلة قوله ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ بالآيات قبلها، أو كما يقول علماؤنا لماذا جاءت هنا؟ ولو بحثتُ عن صلتها بقوله سبحانه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ لخفى علىّ ذلك، وربما انكشف لغيرى، والذى ينكشف لى الآن هو أن قوله سبحانه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وما بعده ليس رأس معنى، وإنما هو خاتمة معنى بدأ بقوله ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾ وقد بينا أنه من تمام معنى ما قبله، وآية ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ ترتبط بأول المعنى. لأن ارتباطها بأول المعنى هو الذى يُظْهِرُ أنها امتداد له ومتولدة منه، بخلاف ارتباطها بآخر المعنى الجزئى.

فإن هذا يشعر أن هذا المعنى الجديد من جزئيات المعنى السابق، والذى يلاحظ فى القرآن والشعر أن المعانى الجزئية تبدأ ثم تمتد قليلاً أو كثيرًا حتى تُشْبَع ثم ينتهى هذا المعنى الجزئى. ويبدأ كلام جديد يمسك بأول الكلام أكثر مما يمسك بآخره، كهذه الآية وبيان أنها ممسكة بأول المعنى هو أن بسط الرزق وتقتيره بمحض مشيئته سبحانه، ويعلْمه بأحوال عباده، ولا دخل لأعمالهم فى ذلك، وإذا كان الأمر كذلك فما بالَنا نُبْتلى بمصائب، وما مرجع إصابتنا بهذه المصائب، هل هى أيضًا راجعه إلى محض إرادته من غير أن يكون لنا دخل فيها، وهذه الآية تجيب عن هذا الشأن الذى هو شديد الالتحام بدلالة بسط الرزق وتقديره، وقد قلنا إن بسط الرزق وتقديره، بيان لشأن الله مع خلقه فى الدنيا بعد ما بيّن شأنه معهم فى أمر الآخرة، ومصائب الناس فى الدنيا من بقايا شأنهم فيها، وهذا ظاهر وليس بيان مناسبة وإنما هو بيان أنه متمم لما قبله، يعنى هو جزء منه، وقد قالوا إن «ما» فى قوله سبحانه ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ يصح أن تكون موصولة، وجاءت الفاء فى خبرها لشبهها بالشرطية، وهذا كثير، وقالوا يصح أن تكون شرطية، والفاء واقعة فى الجواب، وهذا يعنى اختلافًا فى المعنى لأن الموصولة تعنى أن المعنى هو الإخبار عن الذى أصابكم من مصيبة، وأنه بما كسبت أيديكم، فالحديث عن المصيبة، وبيان سببها، واعتبارها شرطية يكون غرض الكلام ليس الإخبار عن المصيبة وإنما هو الربط بين المصيبة وما كسبت أيديكم، وترتب الجواب على الشرط وفرق جليل بين المعنيين، وقد تعودنا على أن نذكر وجوه الإعراب من غير أن نذكر ما وراءها من وجوه المعانى وهذا تقصير، ولم يكن عليه أوائلنا وإنما كانوا يتبعون وجه الإعراب بوجه المعنى لأنهم نفذوا من وجه المعنى إلى وجه الإعراب فالمعنى والإعراب وجهان لحقيقة واحدة.

وقد قرئت الآية من غير الفاء فى قراءة نافع والأولى فى هذه القراءة أن تكون ما موصولة؛ لأن سقوط الفاء من خبر الموصول هو الأصل، ولا يجوز أن تكون شرطية لأن حذف الفاء من جواب الشرط خصه سيبويه بالشعر كقول الشاعر:

وأجاز بعضهم أن تكون شرطية وحـذف الفاء فى جواب الشرط الذى منعه سيبويه أجازه الأخفش. ونحاة بغداد فى الشـعر وغير الشعر، قالوا ومنه قوله تعالى ﴿وإنْ أطَعْتُمُوهُمْ إنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] وقال أبـو البقاء إن حذف الفاء من الجـواب حسن إذا كان الشرط بلفظ الماضـى. كما فى الآية، والإمام البيضـاوى حكى قراءة حذف الفاء وعقب بقوله «اسـتغناء بما فى الباء من معنى السببية»، وقد خشى الخفاجى من أن يساء فهم العبارة مع وضوحها وأن يتوهم أن القراءة تكون بالرأى وأننا نقرأ القرآن على وجوه الجواز النحوى وهذا خطأ محض لأن القراءة توقيف فعـقب بقوله «لم يرد يعنى البيضاوى أنهما حذفـا الفاء اجتهادا- يعنى نافعًا وابن عـامر اللذين قرءا بدون فاء- لأن توهم أنهما حذفـا الفاء اجتهادا يعنى أن قراءتهمـا بالرأى وإنما أراد البيضاوى تعليل القراءة الواردة بالنقل» وقد ذكرت هذا لما فيه من الفائدة.

وكلمة ﴿مِن﴾ فى قوله تعالى ﴿من مُصِيبةٍ﴾ تعنى استغراق كل مـصيبة وإن قلَّت وقوله ﴿فَبِما كَسبتْ أَيْدِيكُمْ﴾ لابد فيه من تقدير محذوف لأن قوله ﴿فَبِما كَسبتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ليس مسببا عن المصيبة ولا مترتبًا عليها، وإنما المصيبة هى المترتبة على الكسب، المسبّبة عنه، والمحـذوف هو وما أصابكم من مصيبة فجزاء ما كسبت أيديكم.

ولما كانت آية ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾ من آيات لطفه ورحمتـه بعباده، وأنه يقدر أرزاقهم على وفق عـلمه بهم، وأن تقدير الأرزاق على وفق علمـه فيه مـصلحتهم وخـيرهم، جاءت هذه الآيـة لتحمل لعـباده هؤلاء عطاء أوسع وكـرمًـا أشـمل. وذلك لأنَّهـا ذكرت أن جـزاء عـملكم وكسبكم إذا كـان هو المصيبة التى أصابتكم فى الدنيا، فـإن الله لا يحاسبكم عليها فى الآخرة، لأنه سـبحانه أكرم من أن يعاقب عبـده بذنبه عقابين، وإن

كان قد عفى عن شيء من الدنيا فإنه لا يَردُّ عن عفوه فى الآخرة، لأن الله أكرم من أن يرجع فى عطائه، ولهذا قالوا هذه أرجى آية فى القرآن الكريم.

ثم إن هذا لا يضطرد فقد تؤجل عقوبة الذنوب، ويسلم المقترف من مصائب الدنيا، وهذا مخوف، وقد يصاب الصالحون بالرزايا فى الدنيا كما يصاب الأطفال، والمجانين، وذلك لرفع درجات الصابرين من ذويهم.

وقد روى أحمد والترمذى وجماعة عن على كرم الله وجهه قال: ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله تعالى حدثنا بها رسول الله ﷺ ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ وسأفسرها لك يا على ما أصابك من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم، والله تعالى أكرم من أن يثنى عليكم العقوبة فى الآخرة، وما عفا الله تعالى عنه فى الدنيا فالله سبحانه وتعالى أكرم من أن يعود بعد عفوه، وكلمة ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ دالة على أن ما يعفو الله عنه من خطايا المؤمنين أكثر مما يؤاخذهم عليه فى الدنيا، وهذا صريح فى أن الآية خطاب للمؤمنين وقد ذهب الطاهر إلى أنها خطاب لمشركى مكة لما أصابهم القحط.

وقد ذكر الواحدى فى بيان أنها أرجى آية أن الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صنفين صنف كفَّره الله عنهم بالمصائب فى الدنيا، وصنف عفا عنه فى الدنيا، وهو كريم لا يرجع فى عفوه، وهذه سنة الله مع المؤمنين وأما الكافر فإنه لا يعجل عليه عقوبة ذنبة حتى يوافى ربه يوم القيامة.

قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

المعجز من قولهم أعجزه نسبة إلى العجز، أو فاته ولم يدركه، أو أنه أفْلَتَ من قبضته، وقد فسر الرازى ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى لا تسبقوننى بسبب هربكم فى الأرض.

وهذا البناء الذى يتقـدم فيه النفى على المسـند إليه والخبر اسم مـشتق وإن كان يفيد الاختصاص فى مواقع كثـيرة فإنه هنا لا يفيد الاختصاص لأن المعنى ليس على أنكم خصوصًا لا تعجزون الله في الأرض، بخلاف غيركم وتعالى الله عن ذلك، وإنما هو بناء يفـيد التقـوية والتقرير، بخـلاف قوله سبـحانه ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] فإن المعنى على الاختصاص بمعنى أنهم خصـوصًا لا يخرجـون بخلاف غيـرهم من أصحاب المـعاصى المؤمنين فإنهم يخرجون وقـد جاءت هذه الجملة كثيرًا فى الكتاب العـزيز فى مقامات التهديد والترهيب كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٤] وقـوله جل شأنه: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣] وقوله سبحانه ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣] وهى فى كل هذا خطاب للكافرين.

وهذا كله ظاهر لأنه تحـليل لبناء اللغـة التى أمـامنا، والذى يحـتـاج إلى مراجعة بيان موقعها هنا وصلتها بالذى قبلها.

والآية قبلها أرجى آية كما وصفها الإمام على كرم الله وجهه وقد تغرى هذه السعة من العفو والإكرام بعض أهل الإيمان بالـغفلة والتساهل اعتمادًا على هذا الإكرام فجاءت هذه الآية وفيها قدر من الغضب والوعيد لتتوازن مع آية ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ ويكون الترهيب قد جاء عقب الترغيب ليظل المؤمن بين هاتين راجيا رحمة ربه وخائفا من عقابه ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وإذا قلت إن الخطاب فيهـا لمن خوطبوا قبلها فى أرجـى آية ومع ذلك أبانت عن فئة من أهل الإيمان هم أكثـر تساهلا وأقرب إلى مقارفـة الذنب وهددتهم ليرتدعوا وأن الآية الأولى التى قـسمت ذنوب المؤمنين إلى قـسمـين قسم تكفـره النوازل وقسم يعفو الله عنه وهو الكثيـر فإن هذه تتجه إلى من هم وراءهم من المؤمنين وهم المقترفون أو المجرمون كما يسميهم الـزمخشرى المعتزلى المتشدد فى مواجهة

أصحاب الكبائر، ولا شك أن الاجتراء على محارم الله يقتاد صاحبه من حيث لا يدرى إلى شاطئ البلاء لأن الإيمان كما يزيد بالطاعة ينقص بالمعصية. وبعض المفسرين جعل قوله تعالى ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ راجعا إلى قوله سبحانه ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ وأنها احتراس يشير إلى أن العفو عن قدرة وليس لأنكم معجزين فى الأرض. وهذا كلام واهن لأن الإيمان بالله وعبادته لا يجوز معه حضور خاطر أنه يعفو لا عن قدرة، حتى يحتاج المؤمن إلى هذا الاحتراس ثم إن معنى أن البشر والإنس والجن وكل من فى السموات والأرض لا يعجزون الله شيئًا كل هذا مؤكد ومقرر ومحصل بأصل الإيمان وإنما يتكرر فى الكتاب للتنبيه كما يتكرر أن الله على كل شىء قدير، وأنه له ما فى السموات وما فى الأرض. وأنه خلق السموات، هذه أصول لا يراد بها إعلام أهل الإيمان بمعانيها، وإنما يراد بها إحضار الهيبة المصاحبة لمعانيها، ونفى الغفلة عنها، هذا والله أعلم. وإذا رجعنا إلى قول الطاهر الذى يقول إن آية ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ خطاب لمشركى مكة كان خطاب هذه الآية لمشركى مكة ظاهرًا، وكانت هذه الآية والتى قبلها مما تتكرر به صورة الذين اتخذوا من دون الله أولياء والذين جاؤوا مرة فى صورة المشركين ومرة بوصف الظالمين، ومرة بوصف الكافرين إلى آخر صور هذا النمط الذى رأيناه يتخلل هذه الآيات.

وقوله سبحانه ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ مراجعة التركيب والكلمات التى كونته: تدل على أنه من معدن ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ وأن هذا الحذو من البناء شمل أول الآية وآخرها ولاحظ الآتى أولاً تكررت ما النافية ﴿وَمَا لَكُم﴾ ودخلت على الخبر الجار والمجرور المقدم، وهذا غالبا ما يفيد الاختصاص كما فى قوله تعالى ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات:٤٧] وهو هنا لا يستقيم معه الاختصاص لأن الاختصاص يجعل المعنى وما لكم خصوصا من دون الله من ولى بخلاف غيركم، وهذا المعنى يستعاذ بالله منه، لأنه ليس لهم

ولا لغيرهم من دون الله من ولى، ثم إن المبتدأ هو ﴿من وَلِيٍّ﴾ وقد دخلت عليه من الزائدة والأصل وما لكم ولى من دون الله، وذلك لإفادة معنى الاستقصاء في النفي، ثم تقدم الجار والمجرور المتعلق بالمبتدأ ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ومعه من الزائدة، وهكذا نجد بناء الجملة تتزاحم فيه الحروف الزائدة المفيدة التوكيد لـلغرض المسوق له الكلام، وهذا التزاحم فيه دلالة واضحة على مزيد الغضب على من يتخذ من دون الله وليا، والمؤمن العارف بربه لا ولى له في أى شأن من شئونه إلا الله جل جلاله، وهذا من دلالات هذا التركيب وكل هذا ظاهر لأن ألفاظه تحت عيوننا، والمهم هو صلة هذه الجملة بالجملة قبلها، وأنها ترجع إلى معناها بالتوكيد، لأن نفى أن يكون لهم من دون الله ولى أى ولى، يؤكد معنى أنهم لا يعجزون الله ولا يسبقونه في الأرض كما قال الرازى وأن جملة ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ وإن كانت صريحة فى بيان قبضة العلى العظيم القادر المهيمن على عباده من غير أن تشير إلى ضعفهم هم فإن الجملة الثانية ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ منصبة على بيان ضعفهم وهكذا تجد رأس الآية منصبًا على بيان أنهم فى قبضة غالب لا يغلب، وتجد عجز الآية منصباً على أنهم لا حول لهم ولا ولى ولا شفيع، وبين هذين يجب على العاقل أن يطلب رحمة ربه وأن يستهديه ويستعينه ويعكف على مرضاته، وبين هذين أيضًا يوجد الوجل وتوجد الرهبة، ويوجد الخوف، وإذا كانت الآية الأولى وما أصابكم أفاضت في معنى الترغيب فإن هذه أفاضت فى معنى الترهيب هذا والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾.

ابتداء هذه الآية بما ابتدأت آية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعنى أنها مضمومة إليها ومعطوفة عليها، وهذا ظاهر، ثم إنها متشابكة مع الآية

التى فصلت بينهما وهى قوله تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ لأن آية الجوارى فى البحر تصوير واضح لإصابة المصيبة بما كسبت أيديهم كما سنبين، وقد تكررت فيها جملة من أرجى آيات الله وهى قول سبحانه ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ وتكرار هذه الجملة واضح الدلالة فى الربط بين الآيتين، وأن آية ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ حقيقة شرعية عامة، وشاملة لكل مصيبة، وآية الجوارى مثال ومفردة من مفردات هذه القاعدة العامة.

والجامع بين آية خلق السموات والأرض وآية الجوارى أنهما آيتان وهذا جامع، ورابط بيِّن وإن كانت الأولى من أكبر الآيات والثانية من الآيات الداخلة فى هذه الكبيرة لأن جريان الفلك فى البحر من آيات الأرض وآياته أكثر من أن تحصى ولابد أن تلاحظ أن الآيات صغيرها مثل كبيرها لأن هذا شأن الأمر الإلهى فخلق السموات والأرض أمر إلهى كخلق أصغر الكائنات لأن كلا لا يكون إلا من الحى القادر قلت هذا لأن هاجسا يقول أى شئ اقتضى ذكر هذه بعد تلك؟ وأى خصوصية خاصة جمعت بينهما؟ وهل كان من الممكن أن تأتى مكان آية الجوارى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الروم: ٢٣]؟ أو ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الروم: ٢٤]؟ لا شك أن الإجابة عن هذا السؤال صعب جداً وكل الذى عندى فيه هو مالاحظته من الربط الأكيد بين الآية الفاصلة بين الآيتين وأننا لو قلنا مكانها ومن آياته منامكم بالليل سنجد أنها مفصولة فصلا كاملاً عن آية ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

ثم إننى لحظت شيئًا آخر وهو أن القرآن الكريم يجمع جملة من المعانى ويقرن بينها ويتكرر ذلك فيشتد ارتباطها وائتلافها، ومن هذا جمعه بين خلق السموات والأرض، ونزول الماء من السماء، وتسخير الفلك، وتسخير الأنهار، كما جاء فى سورة إبراهيم. ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ

من السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢] وهذه التى جاءت مجتمعة فى سورة إبراهيم جاءت متفرقة فى سورة الشورى فقد ذكر آية إنزال الغيث من بعد ما قنطوا ثم آية خلق السموات والأرض وها هى آية الجوارى فى البحر، وهذا الجمع القرآنى أصل فى بيان أسرار الاقتران بين معان كثيرة، وإن كنا لم نتابع هذه المعانى التى جمع القرآن بينها، وألف بينها وتواصلت فيه وارتبط بعضها ببعض. ولم نبحث عن أسرار تأليف هذا المختلف.

ثم إننا نلاحظ أن القرآن فى آيات كثيرة قرن ذكر الفلك بابتغاء فضل الله، وطلب الرزق كما جاء فى سورة النحل ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [النحل: ١٤] وهذه المجموعة المقترنة فى هذه الآية من باب تأليف المؤتلف وهو أشبه بمراعاة النظير، لأنه ذكر البحر وأكل لحمه واستخراج حليته وجرى الفلك فيه.

والاقتران بين الفلك وابتغاء الفضل يشير إشارة ظاهرة إلى سداد موقع آية الجوارى فى سياق ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾ لأن الكلام لا يزال موصولا بها، لأنها رأس معنى كما قلنا يتحدث عن شأنه سبحانه مع خلقه فى معاشهم، بعد الآيات التى تحدثت عن شأنه سبحانه مع خلقه فى معادهم.

وقوله سبحانه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ حذف فيه الموصوف استغناء بالصفة، لأن الصفة هى أصل المعنى لأن السفينة ليست آية، وإنما الآية فى جريانها فى البحر يحملها الماء، والماء ليس صلبا متماسكا، وإنما سائل سهل سلس. والعجيبة الخارقة أن يحمل سفنا جوارى، ووصفها بأنها كالأعلام يعنى الجبال لتأكيد الآية وأن الجوارى كالجبال فى ضخامتها وثقلها ثم ترى الماء يحملها ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ

آيَاتِهِ﴾؟ [لقمان: ٣١] الآية المحسوسة التى ترى بالعين هى أن الفلك تجرى فى البحر، وأن الله أودع فى هذا الماء السائل خاصية تجعله قادرا على حمل الفلك.

وهذه الجملة تكررت كثيرا فى القرآن بصيغ مختلفة، وتدور حول بيان الآية العظيمة التى ترى فيها الفلك مواخر فى البحر، ثم هى متضمنة معنى النعمة، وابتغاء الفضل، وقد يكون بيان النعمة هو الغالب على الدلالة.

وأقرب الآيات إلى هذه الآية قوله سبحانه في سورة الرحمن ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ [الرحمن: ٢٤] وكلمة ﴿وَلَهُ﴾ غير كلمة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ لأن ﴿وَلَهُ﴾ تشير إلى أن هذه الجوارى فى البحر كالأعلام نعمة خالصة منه وأنها له وقد منحكم هذه النعمة كما منحكم النعم الأخرى المذكورة فى السورة، وقد بنيت السورة عليها وأعقبت كل نعمة بما يؤكد ضرورة استحضارها والإقرار بها وعبادة معطيها سبحانه ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٣] والسورة بنيت على ذلك وابتدأت بذكر الرحمن، وهذه أعظم النعم ثم علم القرآن وهذا أول عطاء من رحمة الرحمن، ثم خلق الإنسان وهكذا تتسلسل النعم.

وهذا بخلاف ومن آياته، لأن رأس الأمر هنا فى الشورى أنه سبحانه.. يَبْسطُ الرزق لمن يشاء ويقدر، والآيات تأكيد لهذا واستدلال له والله أعلم.

وقوله سبحانه ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ مع شيوع معنى الجملة الأولى وتكراره في الكتاب العزيز فإن هذه الجملة لم تأت إلا هنا، وكذلك ما بعدها وأن سورة الشورى اختصت بهذا، وقد جاءت صورة الفلك ونجاتها وغرقها فى آيات كثيرة والذى اختصت به الشورى هو هذا التصوير العجيب والتحليل المتسع قليلا، والذى يصور الحدث بأناة شديدة وبطء شديد، وضع هذه الصورة بإزاء قوله تعالى فى الإسراء ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن

يعيدكم فيه تارة أخرىٰ فيرسل عليكم قاصفًا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ﴾ [الإسراء: ٦٩] وتأمل ﴿ فيرسل عليكم قاصفًا من الريح فيغرقكم ﴾ ثم تأمل ﴿ فيظللن رواكد علىٰ ظهره ﴾ ﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ﴾ وراجع أيضًا صورة الشورى التى معنا وضعها بإزاء صورة يونس ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتىٰ إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ [يونس: ٢٢] وحلل الجزئيات المكونة لكل صورة ولماذا جاء فى يونس بكلمة ﴿ وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ﴾، ولماذا قال ﴿ جاءتها ريح ﴾ ولم يقل أرسلنا عليها ريحا؟ ولماذا قال فى الإسراء ﴿ فيرسل عليكم قاصفًا من الريح ﴾ فأسند الفعل إلى ذاته الشريفة وذكر كلمة ﴿ قاصفا ﴾ ثم إن ربط كل بسياقه ومقامه كل هذا مما لا يدرك بالهوينا، وكل هذا من أسرار الذكر الحكيم التى لا تزال كوامن فى كلماته وجمله. ومن الخطأ التسرع فى بيان أسرار هذه الفروق.

وقوله ﴿ إن يشأ يسكن الريح ﴾ كأنها بداية المقصود فى الشورى والجملة التى قبلها وإن كانت أصل أو أم بقية المعانى فى الآية فإن المقصود هو ما بعدها، وهى مدخل لها لأن الصورة ما دامت خاصة بهذه السورة فلابد أن تكون هى المقصودة وكلمة ﴿ إن ﴾ فى قوله ﴿ إن يشأ يسكن الريح ﴾ أخت إن التى فى قوله تعالى ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ لأن إسكان الريح والجوارى فى البحار من باب السيئة وبداية المصيبة المذكورة فى قوله تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ وهذا معناه أن تعلق مشيئته سبحانه بما يسوؤكم قليل نادر، ثم إن كلمة ﴿ يشأ ﴾ تتواصل وتتماسك مع كلمة ﴿ وهو علىٰ جمعهم إذا يشاء قدير ﴾ ومع كلمة ﴿ ولكن ينزل بقدر ما يشاء ﴾ وكل ذلك يؤكد حقيقة إيمانية جليلة وهى أن الكل رهن المشيئة، وكلمة

﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ فيها إشارة إلى أن الأصل فى الريح الحركة، وأنها لا تسكن إلا إذا أمسكها الله وأسكنها، وكما أن الله سبحانه يمسك الريح لغاية كالتى هنا يرسلها سبحانه لغاية كسوق السحاب مثلا، ﴿يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم:٤٨] أو يرسل على الفلك قاصفا منها كما فى الإسراء، وقوله سبحانه ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ معطوف على ﴿يسْكِنِ الرِّيحِ﴾ ومرتب عليه، وهذا المعطوف ليس هو الجواب ولا يمكن الاستغناء به عن المعطوف عليه، لأنه مترتب على الجواب الذى هو يسكن الريح والأصل فإن أسكنها ظلت رواكد وإنما جاء الكلام على هذه الصورة ولم يقل إن يشأ ظلت رواكد على ظهره ليشير إلى آية أخرى وهى إمساكه وأنه سبحانه يسكنها ويرسلها، والمضارع فى قوله ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ﴾ لإحضار هذه الصورة التى هى مناط المعنى لأنها تجسد الحيرة التى صاروا إليها بعد إمساك الريح وتصور السفن وهن رواكد على ظهره وناهيك بمن فيها من الناس وقد انقطع بهم السبيل، وليس أهول من الهول فى البحر. وكان مقتضى الظاهر أن يقول إن يشأ يسكن الريح فيظللن سواكن وإنما عدل إلى رواكد ونحن نفسر الرواكد بالسواكن كما نفسر يوبقهن بيهلكهن، وهذا تفسير مبنى على المسامحة والمقاربة لأنه لابد أن يكون لكل كلمة خصوصية فى معناها، ناسبت بهذه الخصوصية مقامها، وهذا هو الذى سماه الخطابى العدوى القرشى عمود البلاغة، والعربية مليئة بالكلمات المتشابهة مثل قام ووقف وجلس وقعد وجاء وأتى ولم نحدد فروق الدلالة بين هذه الكلمات إلى الآن مع أن أوائلنا فتحوا باب الفروق اللغوية، وتعجب حين ترى الدرس اللغوى يركض وراء مناهج الآخرين ويغمض العين عن أبواب هى فى غاية الأهمية لفهم الشعر، وفهم القرآن والحديث وكلام العرب.

وطريقنا إلى معرفة هذه الفروق هو استقصاء مواقع هذه الكلمات فى كلام العرب والتدقيق فى إدراك الفروق الذى لا تتأتّى إلا بالوعى البالغ

اليقظة بسياق الكلام والمقصود منه وقد حيرتنى هذه الكلمات التى نفسر بعضها ببعض وكنت أطمح فى أن أبين لماذا اختصت هذه الكلمة بهذا الموقع وكنت لا أجد إلا أن أجتهد وأقول إن كلمة رواكد التى آثرتها الآية فيها معنى سواكن وزيادة وهذه الزيادة هي الثقل والرواكد السواكن المثقلات بحمولهن وقالوا جفنة ركود أى ممتلئة، ثم إن كلمة رواكد أيضًا فيها شيء من معنى الحبس وأن السفن لم تسكن فقط وإنما صارت كأنها محبوسة على ظهره، وذلك لأنهم يقولون ماء راكد أى محبوس وكلمة ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ فيها معان كثيرة منها الإشارة المؤكدة للآية وأن ظهر هذا الماء السيال السهل السلس يحمل هذه الجوارى وهن رواكد على ظهره، ومنها الإشارة إلى قوة الإحساس بالخوف والخطر وأنهم أصبحوا على ظهر سفن رواكد على ظهر الماء ولو قال ﴿إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد﴾ ولم يقل على ظهره لفهم أنهن رواكد على ظهره وإنما نص على هذا المفهوم ليومئ إلى جملة المعانى والخواطر والأحوال المطيفة بأهل السفينة التى ركدت بثقلها على ظهر الماء وأصبحت على حافة الخطر، ثم إن كلمة ﴿رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ هى تصوير لقلب الحدث وأن الذى يأتى بعده إما النجاة وإما الهلكة، وأن الناس أصبحوا على حافة الهلكة ومن براعة البيان أن الكلام عرض هذه الصورة التى يرى الناس فيها أنفسهم على حافة الهلكة ولم يتبعه بالذى بعده، وإنما سكت الكلام عن البيان وكان أبين ما يكون إذا لم يبن، وأنطق ما يكون إذا لم ينطق، وذلك لأن قوله بعد هذا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فيه إشارة إلى أمرين عظيمين أشارت إليهما كلمتا صبار وشكور؛ أما كلمة صبار فقد أشارت إلى صعوبة الموقف الذى صاروا فيه لما ركدت الجوارى على ظهره، وأنهم أصيبوا بمصيبة أو كانوا على حافة هول المصيبة فصبروا ثم جاءهم الفرج وذهب الحرج فشكروا، وهذا مرادنا بأن الآية كانت أنطق حين لم تنطق لأنها سكتت عن الحرج والشدة، وأومأت إليه بصبار

وسكتت عن الفــرج وذهاب الشدة وأومــأت إليه بشكور، ولـم أقــرأ إيجازا كهذا فيما قرأت من شعر القوم الذين نزل فيهم هذا البيان.

وقول سبحانه ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ هذه الجملة توشك أن تكون جملة ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ وقلت إن هذا الربط الواضح هو سر موقعــها هنا وسر تمكنها فى هذا الموقع، وقلت أيضًا إنهــا مثال من الأمـثلة الـكثيرة الـتى تتـضمنــها الكلمة الجامــعة ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ وأقول الآن إنهــا بالنسبة للجملة قــبلها ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ تعتبــر فرعا ثانيا ممدودا منها، والفرع الأول مــحذوف ومدلول عليــه بكلمــتى صــبار شــكور على حد مــا بينا وأنــه هول انكشف وهول لم ينكشف، ولذلك قــال علماؤنا إن قــوله ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ معطوف عــلى قوله ﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ وداخل فى حــيز الشــرط ﴿إِن يَشَأْ﴾ ومعنى ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ يهلكهن ووبق يبق كوعد يعد، ونعود إلى مشكلة الكــلمات التى نفسر بعضها ببعض من غــير أن نقول لماذا آثــر هنا كلمة ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ على كلمة يهلكهن وليس فى القرآن ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ فعلا مضارعا إلا فى هذه الآية، وجاء منها اسم مكان فى سورة الكهف ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢] وقد فسر الحسن رضوان الله عليــه كلمة ﴿مَّوْبِقًا﴾ بالعداوة، وعــقب الزمخــشرى على هذا التــفســير بقــوله «عــداوة فى شدتهــا هلاك» وأفــهم من هذا أن فضل كلمــة ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ على كلمة يهلكهن أن الإيبــاق يعنى الإهلاك الذى وراءه غضب ولذلك أتبعه سبحانه بكلمة ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ وليذهب شيئًا من حدة الغضب فى كلمة ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ أتبعه أيضًا بالعفو عن الكثير، لأن هذا العفو عن الكثير هو الذى يخفف أخذ النــاس بما كسبوا، لأنهم كســبوا الكثير والكثــير مما يوبقهم ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]

والجملة قد انتهت عند قوله ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ لأن قوله ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ قرئ بالرفع على الاستئناف وجاء بالجزم عطفا على جواب الشرط: يعنى إن يشأ يعف عن كثير، ولاحظ الجمل الثلاث التى جاءت بعد الشرط أولها يسكن الريح ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ والثانية ﴿يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ والثالثة ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ وقد قلت إنه قال ﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ﴾ ولم يقل إن يشأ يظللن رواكد؛ لأن إمساك الريح آية واسطة بين المشيئة والمقصود وهو يظللن رواكد وهذه الواسطة حذفت فى آية ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ يعنى لم يقل سبحانه أو يرسل الريح فيوبقهن ويقابل الإمساك بالإرسال، وإنما جاء الكلام على ما جاء عليه لأن المراد المفاجأة بالهلاك وذلك بطىّ كلمة يرسل وهذا يؤكد معنى الغضب الذى استخرجناه من كلمة ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾. والعفو من عفت الديار إذا ذهبت آثارها وذهاب آثار الذنوب يعنى أنه لا مؤاخذة ولا عقاب عليها والعفو عن الكثير من سعة الرحمة التى لا يجوز لعاقل أن يدير لها ظهره، وقد روى الألوسى عن بعض الأجلة أن ﴿وَيَعْفُ﴾ معطوف على ﴿يُسْكِنِ﴾ وما بعده من قوله ﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ﴾ ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾، لأن الإيباق قسيم يسكن الريح فتمامه من تمامه ثم يأتى ﴿وَيَعْفُ﴾ بعد هذه الحالة بتفاصيلها لأن العفو شىء آخر ليس منها ولا صلة له بكلمة يسكن الريح وتوابعها، وهذا كلام جيد جدا وفهم دقيق لمعانى الكلام.

وأخيرًا راجع ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ﴾ إلى قوله ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ لتراها تؤكد حقيقة واحدة هى أن كل شىء فى قبضته سبحانه وتحت سقف مشيئته لا يفلت منه شىء ولا تشرد عن سلطانه صغيرة ولا كبيرة ثم ضعه بإزاء الآية التى قبلها مباشرة، وهى قوله تعالى ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ لترى التقارب الشديد بين المعنيين وأنكم لا تعجزونه سبحانه لا فى بر ولا فى بحر، وأن حالكم

حين تكونون في البحر هي أقرب أحوالكم إلى الاقتراب من ربكم، وأنكم حينئذ لا تدعون وليا إلا هو، ولا تُنصرُون بنصير سواه، ﴿جاءتْهَا رِيحٌ عاصفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢].

قوله سبحانه: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾.

هذه الآية من تمام معنى الآية قبلها، وأن الذين يجادلون في آياتنا حين يباشرون التجربة في البحر، والموصوفة بما وصفت به ينسون كل ولي إلا الله، وكل نصير إلا هو سبحانه، فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق، ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وهذه الآية ترجع أكثر إلى آية ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ لأن العلم المراد بلاغه للذين يجادلون هو قوله سبحانه ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ وهو جوهر معنى هذه الآية، ولو وضعته بإزاء ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ لوجدته هو لأن من لا محيص له من الله لا يعجز الله، وهذا ظاهر، ثم إن بناء جملة ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ هو بناء جملة ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ ما النافية الداخلة على الجار والمجرور الخبر المقدم، والمبتدأ نكرة، مؤخر، ودخلت عليه من الزائدة وهذا التصاقب في البناء يعني التصاقب في المعنى. ويصل الكلام بعضه ببعض ويجعل بعضه أشبه ببعض.

ثم إن علاقة الإعراب المتنوعة للفعل المضارع ﴿يعلمَ﴾ والذي هو رأس الآية وتتعلق به كل كلماتها ومكوناتها يربط هذه الجملة رباطًا إعرابياً بالجملة قبلها فقد قرئ منصوبا ومجزوما ومرفوعا.

وقراءة النصب هي قراءة الجمهور وهي أشهر القراءات وعليها مصاحفنا وقال الزمخشري في توجيهها إنها معطوفة على تعليل محذوف لينتقم منهم

ويعلم الذين يجادلون، والعطف على التعليل المحـذوف غير عزيز فى القرآن، ورفض الزمخـشرى حمل الآية على مثل قـولنا إن تأتنى أكرمك، وأشكرك، حيث يجوز فى الكلمة التى بعد الـواو الوجوه الثلاثة، الرفع على الاستئناف يعنى وأنا أشكرك والجزم على العطف على الجـواب والنصب على إضمار أن وذلك لأن سيبـويه يرى أن النصـب فى مثل هذا ضعـيف وليس بحد الكلام ولا يجوز أن تحـمل القراءة على وجه ضـعيف وليس بحد الكلام وهذا جـيد وإن كان بعـضهم اعترض على تقـدير الزمخشـرى (لينتقم ويعلم) وذلك لأن الذى مضى فى آية الجوارى ليس كله انتـقامًا وإنما فيه النجاة وفيه العـفو وفيه الصـبر والشكر وهذا الاعـتراض أيضًـا جـيد لأنه ليس اعـتراضًـا على رأى الزمخشرى الذى ذهب إلى أنه معطوف على تعليل مـحذوف، فهذا جيد وإنما الاعتراض عـلى التقدير ويمكن الخروج من هذا الاعـتراض بتقديـر آخر كأن نقول إنه سـبحانه فـعل ما فعل لـتظهر آياته ويعلم الذين يجـادلون أو لتظهر هيمنته ويـعلم الذين يجادلون، والذى يعنينى هو أن ﴿يَعْلَمَ﴾ الذى هو رأس الجملة والآخـذ لكل ما فيـها يصيـر بهذه الحـركة الإعرابيـة جزءًا من الكلام السابق ومرتبطا بعلتـه وممسكا بها، وأرى أن العلامة الإعرابية عـلاقة تشبه أن تكون علاقة عضـوية يعنى علاقة عضو ببقيـة الجسد، فى الكائن الحى، فهى ليست مناسبة ولا اقتران ولا مـلاءمة كما نقول فى شرحنا للروابط، وإنما هى أدخل من ذلك كله.

ولاحظ أن العلة هى علة جملـة الأحداث التى بدأت بقوله سبـحانه ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ وما تسلسل منهـا يعنى كان ما كان لتتـجلى آياته وتتجلى قدرته الممسكة بكل خلقه وليعلم الذين يجادلون ما لهم من محيص.

وقراءة الجزم للعطف على الجـواب لأن الفعل يعلم ومتعلقاته يصـير داخلاً فى حيز الشرط ﴿إِن يَشَأْ﴾ ومفردا من مـفرداته والكلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره.. أو يوبقهن.. ويعف.. ويعلم بمعنى ويحذر.

وقراءة الرفع على الاستئناف والواو الداخلة على الجملة المستأنفة عاطفة معنى على معنى. والوجه أن يكون المعطوف عليه هو جملة الشرط وتوابعها ووجه الكلام أن آية الجوارى التى تفرع منها الشرط وما انجر إليه الكلام تفرع منها أيضًا ﴿يعلم الَّذين يُجادلُون في آيَاتنَا﴾، ويكون الشرط قد سلك طريق أحوال أهل الإيمان الصبار والشكور والذى عاقبه الله بما كسب ولم يجمع عليه عقوبتين والذى عفا الله عنه ولم يرجع سبحانه فى عفوه. ثم رجع ﴿وَيَعْلَمَ الَّذين يُجَادلُونَ﴾ وبدأ من النقطة التى بدأ منها الشرط الذى سلك طريقه مع أهل الإيمان لتبدأ هذه الآية وتسلك طريقها مع الذين يجادلون فى آياتنا وتختصر الكلام معهم فى كلمة واحدة ﴿ما لَهُم مّن مَحيصٍ﴾ وهذا أيضًا جيد، وشىء آخر يربط هذه الآية بآية الجوارى فى البحر كالأعلام ويجعلها مدمجة فيها وهى كلمة ﴿فى آيَاتنَا﴾ وهى ذات الآيات التى بدأت بها الآية وهى ﴿ومنْ آيَاته الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ وكلمة يعلم هى ثمرة الاعتبار والمراجعة للمعانى المذكورة فى الآية، وأنهم يجادلون فى آياتنا التى هذا شأن من شؤونها وكلمة ﴿محيصٍ﴾ نفسرها بكلمة (مهرب) ﴿ما لَهُم مّن مَّحيصٍ﴾ يعنى وما لهم من مهرب وهذا التفسير يسقط معنى خصوصية كلمة ﴿محيصٍ﴾ لأن موقع هذه الكلمة هنا بدل كلمة «مهرب» يصور صورة بالغة السعة والحركة والاضطراب والفزع والجلبة لأن محيص من حاص. وتقول وقع القوم فى حيص بيص أو فى حاص باص وفى حديث هرقل «حاصوا حيصة حمر الوحش» فيا بعد ما بين ما لهم من محيص وما لهم من مهرب وإن كنا نُفَسِّر المحيص بالمهرب.

قوله جل شأنه: ﴿فَمَا أُوتيتُم مّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاة الدُّنْيَا وَمَا عند اللَّه خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ للَّذين آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذين يَجْتَنبُونَ كَبَائرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحش وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذين اسْتَجَابُوا لرَبِّهِم وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ

شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾.

هذه الآيات تعالج معنى واحدا لا يفصل بعضه عن بعض وهى أطول جزء من مكونات السورة لا يكتمل أوله إلا بآخره.

وهذه الآيات وإن كانت مترتبة على قوله تعالى ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ فإنها مرتبطة أيضًا بالآية التى قبلها وهى قوله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ وهى من جهة متممة لمعنى آية ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ﴾ كما سنبين ومن جهة أخرى متممة لآية ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ وذلك لأن آية روضات الجنات أطالت فى بيان عطاء الله لهم وذكرته فى ثلاث جمل ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ واختصرت أعمالهم التى بها ولها كان الإكرام من ربهم، وهذه الآيات التى معنا أطالت فى بيان عمل الصالحات وأنهم على ربهم يتوكلون ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ إلى آخر الآيات واختصرت الجزاء فى كلمتين هما ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ والخير فسروه بالجنة وأبقى فسروه بالخلد، وهكذا ترى الفواصل بين مكونات السورة، وأن الارتباط ليس فى الامتداد وخروج الثانى من قلب الأول فحسب وإنما تراه يتخطى ذلك ويمسك بآيات أخرى بعيدة عنه.

وهذه الفاء التى بدأت بها الآيات ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ترتب كل هذه الآيات على قوله سبحانه ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ وما بينهما من الآيات متسلسل عن آية ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ﴾ كما بينا، ولو بحثت عن علاقتها بالتى قبلها مباشرة لوجدتها غائمة لأن التى قبلها آخر الفرع الممتد من آية الجذر ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ﴾ وإنما ترجع هذه إلى هذا الأصل، متجاوزة هذه التفريعات، وقد ذكرنا أن آية بسط الرزق من بيان شأنه سبحانه، مع خلقه فى معاشهم بعد بيان شأنه مع خلقه فى معادهم، وهكذا ترى تنظيمًا آخر تجد فيه الآيات كأنها مجاميع لها أصول ولها فروع ثم تجد الأصول الثانية وما تفرع منها تعود إلى الأصول الأولى وما تفرع منها، يعنى تجد رؤوس الفصول يعود بعضها إلى بعض. وليس الأمر منتهيًا عند كشف هذا، وإنما يبدأ عند كشفه وذلك بالبحث عن سر هذا التفريع وسر التقاء هذه الرؤوس وضم بعضها إلى بعض. والذى أراه هنا أن هذه الآيات تشرح حقيقة يرضى بها من قدر له فى رزقه حتى إنه ليرى هذا التقتير له فى الرزق نفحة من الله وتكريما له لأن الله فى هذه الآية يدخر له عنده ما هو خير وهو الجنة، وأبقى وهو الخلد، ثم إنها أيضًا تقول لمن بسط له فى رزقه، اعلم أن هذا الذى بسط لك فيه هو متاع الدنيا واحذر أن يشغلك عن الذى عندنا وبذلك يهون أمر البسط فى الرزق والتقتير فيه على الفريقين، ولا يكون شاغل البسط والتقتير أساسياً لهما، وما فى قوله ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ﴾ يجوز أن تكون اسم موصول وجاءت الفاء فى خبرها لتضمنها معنى الشرط، وهذه الفاء تؤكد الإسناد يعنى إسناد الخبر إلى المبتدأ وأن الذى أوتيتم لا محالة متاع وتكون الجملة مفيدة لهذا الإخبار، ويجوز أن تكون شرطية والفاء واقعة فى جوابها ويكون الكلام مبنياً على التعليق أى تعليق الجواب على الشرط وهذا معنى غير المعنى الأول، والأول أظهر، وبناء أوتيتم للمجهول لأن الفاعل واحد لا يخفى وهو الله سبحانه، ثم إن فى هذا البناء للمجهول إشارة إلى تهوين الذى أعطوه

وهذا البناء يتلاءم مع الإخبار عنه بأنه متاع الحياة الدنيا، وليس له بقاء ولا قيمة إذا قيس بالذى عند الله، وكلمة ﴿من شىء﴾ تعنى من أى شىء قل أو كثر وجل أو دق من مال أو جاه أو سلطان أو ما شئتم كل ذلك متاع، والمتاع هو الشىء الفانى ثم هو متاع حياة فانية، وحين يأتى الأجل يصير كل ذلك هباء ولا يزن جناح بعوضة، وقد وصف القرآن الحياة الدنيا كلها بأنها متاع فكيف بما يؤتاه الفرد منها وأى حظ له من هذا المتاع؟

وقوله ﴿وَمَا عند اللَّه خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ جملة معطوفة على جملة ﴿ما أُوتيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وبينهما مقابلة ورأس هذه الجملة ما الموصولة ﴿وَمَا عند اللَّه﴾ يعنى والذى عند الله ولم تقع الفاء فى خبرها لأنها ليست متضمنة معنى الشرط وقد قوبل ﴿ما أُوتيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ وما فيه من إغماض لهذا الذى أعطوه ببناء الفعل للمجهول قوبل هذا بقوله وما عند الله يعنى الموصول واحد والصلة متقابلة لأنه ليس للعبد شىء أكرم من شىء له عند الله، لأن هذه العندية عنديه شرف ومكانة كقوله سبحانه ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] ثم قابل المتاع المتضمن معنى الفناء بقوله ﴿أبقى﴾ وأشار بقوله ﴿خَيْرٌ﴾ إلى أن هذا المتاع لا خير فيه، ونفى الخيرية مشروط بألا يسخر هذا المتاع لحصاد الآخرة، وعمل الصالحات والبر، وما يرضى الله.

ولو سخر لكان هو الآخر عند الله خيرا وأبقى، وراجع هذه الثلاثة.. عند الله.. خير.. أبقى. وعند الله هى الصلة والخيرية والخلود خبران عن الذى عند الله، وتأمل أنت لأن هذا الكلام لا يحاط به وإنما نشير إلى الطريق الواصل إلى بعض معانيه، وتأمل مجىء أبقى بعد خير وأنه خير لا يزول ولا يحول، وأن هذا الخير الذى لا يزول ولا يحول عند الله وديعة لك عند الذى لا تضيع ودائعه، وقد وعدك بذلك وهو لا يخلف الميعاد أقول مرة ثانية تأمل لأنه كلام لا يحاط به.

ثم إن هذه المثوبة التى أوجزها سبحانه فى هاتين الكلمتين بيَّن سبحانه أصحابها الذين وعدهم بها، وبين صالح أعمالهم الذى كافأهم عليها بها، وأول شىء ورأس كل شىء هو الإيمان ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وعاد الاسم المذكور فى آية روضات الجنات، والذى هو رأس الخير، ثم سلسل عمل الصالحات فيما وراء كلمة ﴿آمَنُوا﴾ وأذكر بأن الخيرية والبقاء غير المجذوذ ليس أجرا خاصا بالذين يقدر الله لهم فى الرزق وإنما هو عام فى كل من وصفتهم الآيات؛ لأن الآية ليست خطابا لمن قدر لهم، وإنما هى خطاب للفريقين وبيان حال أرزاق الدنيا ما بسط منها وما قبض، وأنها عظيمها وحقيرها متاع، ثم إن المدخر عند الله والخير غير المجذوذ لهؤلاء الذين كان منهم ما ستحكيه الآيات كله مؤسس على الإيمان الذى هو الأصل. وقوله سبحانه ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ معناه ظاهر وأنهم يخصونه سبحانه بالتوكل عليه لا يتوكلون على غيره من جاه أو مال أو ما شئت، وغير الظاهر هو سر مجيئه بعد الإيمان وتقديمه على الأحوال التى بعده، ووجه ذلك والله أعلم أن مجىء التوكل على الله بعد ذكر الإيمان هو الإشارة إلى قوة اليقين فى الله، وأنه إيمان تغلغل فى القلوب، وملك النفوس، وصار يقينا لا يحوم حوله شك، أفضى إلى التوكل عليه وحده، وأفضى إلى خلو القلب، والنفس إلا من الله، وأنه سبحانه هو السَّند، وهو الجاه، وهو المغيث وهو المعين، وهذا الإيمان الذى هذا شأنه يورث صاحبه الثواب المدخر عند الله، وفى ضوء هذه الدلالة التى يشير إليها السياق نفهم معنى القصر فهما أعمق، وأدق؛ كما نفهم دلالة الفعل المضارع على تجدد هذا التوكل وأن مِن شأن من هذا إيمانه أن يتجدد منه التوكل على الله فى كل شأن لأنه فى صحبة الله دائمًا.

وقوله جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ هذه الجملة معطوفة على قوله ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأنهم نظراؤهم فى الذى عند الله، الذى هو ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ والعطف يقتضى المغايرة وأنهم

صنف آخر، وهذا يعنى أن ما جاء فى الصلة من اجتناب كبائر الإثم والفواحش والمغفرة عند الغضب يفضى بصاحبه إلى الذى عند الله، وهذا ما يدل عليه تكرار الاسم الموصول، ولو جاء الكلام على عطف هاتين الجملتين الواقعتين فى صلة هذا الموصول على الصلتين السابقتين وجاء الكلام هكذا للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ويجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلى آخره لدل الكلام على شىء آخر وأن الذى له عند الله هو من جمع كل هذه الخلال الواردة فى الصلة، وتكرار الموصول يفيد غير ذلك وهذا يقال فى الموصولين بعد هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ والمهم البحث عن سر اقتران هذه الصلات أعنى ذكر اجتناب كبائر الإثم مع ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ كما قلنا فى مجىء ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ بعد الإيمان وهل كان يمكن أن نقول للذين آمنوا وإذا ما غضبوا هم يغفرون، أو نقول والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وعلى ربهم يتوكلون؟ يعنى البحث عن أسرار التلاؤم بين الجزئيات، وسر مجىء بعضها فى أثر بعض. وهذا مما أجتهد فيه لأنى لم أجد أحدًا عرض له، ربما كان لظهوره عندهم، وتحليل الجملة الأولى. يُبيِّن سر مجىء الثانية بعدها، وأول ما يلفت فى الأولى استعمال كلمة ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾، ومعناها أنهم يحرصون على ألا يتعرضوا لها ويجعلون بينهم وبينها مسافة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ [الأنعام: ١٥٢] النهى عن القرب والمراد النهى عن أكله أو الإنفاق منه، وقوله جل شأنه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ [الإسراء: ٣٢] يعنى اجعلوا بينكم وبينه مسافات، وسددوا، وهكذا هنا لم يقل لا يأتون الفواحش. وإنما قال يجتنبونها، يعنى لا يَرْعُون حول الحِمي، لأن من يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ولعل الحديث مستخرج من هذا وشبهه.

ثم إن صيغة المضارع تعنى أنه يقظ حـريص على أن يكون بعيدًا عن كبائر الإثم، والفواحش. فهو يتجنبها كلما عرضت، وهذا شأن أهل الورع، ثم إن كلمة الفواحش داخلة فى كبائر الإثم، وإنما ذكرسا لمزيد العناية بتجنبها؛ كما يذكر الخاص بعد العام لاختصاصـه وتمييزه، والفـواحش ما عظم فحـشه ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ١٥] وجاءت كناية عن ما يوجب الحد فى قوله تعالى. ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء: ١٥].

وكل من قام على نفسه يكـفها ويردعها ويبتعـد بها عن مواطن الزلل جدير بأن يكفها ويـردعها عند حميـة الغضب، وحدة الرغبة، فـى الانتقام، وتجنب الآثام والفواحش لا يكون إلا بردع الشهوات وقمع النزوات، ومنها قمع شهوة الانتقام عـند الغضب، وهذا هو وجه الاقتـران بين الصلتين، وجملة ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، فيها دقائق فى الصيـاغة لها إشارات فى الدلالة، وأولها تقديم الظرف المدلول عليه بإذا، وذلك لبيان أن عفوهم ومغفرتهم عن من أساء إليهم تكون وقت حِدَّة الـغضب، ووقت قوة الشهوة فى الانتـقام، ولوقال هم يغفـرون إذا ما غضبـوا وأخر الظرف الدال على الزمن، لم يكن بهـذه المثابة، لأن المهم أن يغفر فى اللحظة الحرجـة، وهذا هو قدع النفس وردعها المتناسب مع الورع فى اجتنابها مواطن الغواية، وكبائر الإثم والفواحش.

ثم إنك ترى ما الزائدة التى فى قوله ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا﴾ والواقعة بين الفعل والظرف وهى تؤكد ترتب المغفرة على الـغضب فى تلك اللحظة الحرجة، ثم قوله ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ وتقديم المسند إليه على الخـبر الفعلى وهو يفيد التـوكيد وصالح لأن يفيد الاختصاص.

والمعنى يحتمله ويقـوى به إذ المراد هم خصوصًا متـميزون من بين الناس بأنهم يملكون نفوسـهم عند الغضب، والفـعل المضارع يفيـد أن هذا من عاداتهم، ومن

أفعالـهم المتجددة منهم، وأنها شـأن من شؤونهم، واستعـمال المغفرة بدل الـعفو للإشارة إلى أن الذى أغـضبهم يصيـر كأنه لم يكن لأن المغفرة فـيها معنى الـستر والتغطية وكأنهم لا يرجعون إلى هذا الشيء ولا يذكرونه وإنما يصير كأنه لم يكن، وهذه صفـات حميـدة ومن أكرم الأخلاق، وسـترى الآية التاليـة بعد هذه تعطى تفاصيل وبيانات لأحوال الغضب هذه ومـا يتعلق بها من أحوال المكافأة والمجازاة، لأن معنى يغفرون هنا أنه أصابهم ما من حقهم أن يجازوا عليه السيئة بمثلها.

وراجع الإيجـاز الذى بُنِيَـت عليـه الجـملتـان ﴿يجْـتَنِبُـونَ كَبَـائِرَ الإِثْمِ وَالْفَـوَاحِشَ﴾ ولا تجـد رذيلة إلا وهى داخلة في كـبـائر الإثم والفـواحش، واجتناب هذين يعنى اجتنـاب كل سوء، وكل شر، وكل باطل، وكل ظلم، وكل بغى، وكل خسيسة من خسائس النـفوس. ثم تجد نفوسًا نظيفة من هذه الأكدار التى تفسـد الطباع، ثم تجد بعد ذلك سمـاحة عجيبة لأنهـا باجتنابها الآثام لم تتعرض لأحد بـسوء، ثم يتعرض الناس لها بسوء، ويكون مـوقفها هو المغفـرة فى لحظة الغضب، وقد أشـارت الآية إلى قدرتهم على الانتـقام بذكر كلمة ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا﴾ ولا يحمد من يَغْـفِر فى لحظة الغضب إلا من كان قادرًا على ضد المغفرة وهى العقوبة والمؤاخذة.

قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

موقع هذه الآية من الآية قبلها موقع التحلية بعد التخلية لأن الآية التى قبلها أشارت إلى خلو نـفوسهم من كل سـوء، ومن كل رذيلة، ومن كل إثم، ومن كل شهوة تدعـو إلى الانتقام، يعنى مـن الشـهوات سـواء كـانت رذائل نفس. أو كانت شهوة غضب، والعموم الذي فى قوله ﴿كَبَائِرَ الإِثْمِ﴾ والذى لم يترك بابًا من أبواب الـسـوء إلا اسـتوعـبه يـقابله العـمـوم فى باب التحـلية جـملة ﴿اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ لأن هذا لم يترك بابًا مـن أبواب الخير والفـضائل ومكارم النفوس والأخلاق إلا أحاط به لأن الله سبحانه لم يترك بابًا من أبواب الخير إلا

أمر به ولم يترك بابًا من أبواب الشر إلا نهى عنه والمستجيب لله هو المستجيب لأمره كله، ولنهيه كله، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس. ٢٥] ويأمر ﴿بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [النحل: ٩٠]. وهذه من جوامع خصال الخير وخصال الشر

وفيه تقارب شديد بين المباني. ترى هذا فى اسم الموصول فى رأس كل آية وتراه أيضًا فى ذكر الخاص بعد العام كما نبهنا هناك إلى الفواحش وأنها داخلة فى كبائر الإثم وكذلك الصلاة هنا داخلة فى استجابتهم لربهم لأنه أمرهم بها كما أمرهم بالزكاة وذلك لبيان أن الصلاة والزكاة عند الله بمكان، ثم تلاحظ أن الفعل جاء هنا ماضيا (استجابوا وأقاموا) بخلاف يجتنبون، وذلك للإشارة إلى أنهم سمعوا نداء ربهم وأجابوه وأقاموا الصلاة واستقر أمرهم على ذلك؛ والماضى هنا كالماضى فى قوله سبحانه ﴿آمَنُوا﴾ ثم إن ذكر كلمة ﴿أَقَامُوا﴾ قريبة جداً من كلمة ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ لأن المقصود ليس يصلون وإنما المقصود يقيمونها على الوجه الذى أمر الله به، وفى هذا اللفظ إشارة إلى أن إقامتها على الوجه الشرعى ليس أمرًا يدرك بالهوينا، وإنما يحتاج إلى احتياط ودقة، ولهذا قال عليه السلام «صلوا كما رأيتمونى أصلى» ولم يكتف ببيان فرائضها وفضائلها وإنما عرض أمامهم الصورة التى يجب احتذاؤها، فرق كبير بين أن يقال استجابوا لربهم وصلوا، وما عليه الآية كالفرق الكبير بين لم يأتوا الفواحش واجتنبوا الفواحش ثم يلاحظ أن الصلاة تَقْتَرِنُ بالزكاة فى الآيات الكثيرة، وهذا ظاهر ثم تجد هنا الأمر بالشورى يفصل بينهما، وهذا محتاج إلى فهم، ويمكن أن نقول إن هذا الفصل بين هذين الركنين الكريمين المقترنين غالبًا فى الكتاب العزيز يشير إلى أن أمر الشورى عند الله بمكان، لأنه سبحانه يعلم أن الاستبداد بالرأى وخصوصًا فى القضايا الكبرى من أشد العوامل تدميرًا للأمة، وأن القمع والبطش الذي هو وليد الاستبداد بالرأى يحوِّل حياة الناس إلى جحيم لا يطاق، وأنه هو الجبت والطاغوت، الذى يهلك كل شيء، وندعو الله أن يدفع هذا البلاء عن مصر المحروسة - بهلاك القائمين على الفساد والراعين له من رأسهم الأعلى إلى قدمهم الأسفل.

وتلاحظ تعبير القرآن عن الشورى قال سبحانه ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فبدأ بكلمة ﴿أَمْرُهُمْ﴾ للإشارة إلى أن المشورة أوجب ما تكون واجبة فى قضايا الأمة التى يكون فيها الأمر أمرًا عاماً يشمل كل المواطنين، ومادام الأمر أمرنا فلا يجوز لواحد منا أن يستبد برأيه فيه، له أن يستبد برأيه فيما هو أمره ويخصه أما أمرنا فإن الاستبداد فيه بالرأي اغتصاب لأمرنا، ثم إن الجملة الكريمة أضافت كلمة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ والشورى تغنى عنها لأن الشورى مناقشة مشتركة بينهم وحوار مفتوح بينهم، وإنما أضافت الجملة هذه الكلمة لتأكيد معنى إنضاج الرأى في هذه البَيْنِيَّة «وما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم» كما قال سيدنا الحسن سيد العترة رضوان الله عليهم، وكانت الشورى مذهب رسول الله ﷺ فيما لم ينزل به وحى وكانت مذهب أصحابه من بعده.

ثم إن موقعها بعد الصلاة وطهرها ونقائها يشير إلى أن مناقشة أمور الناس لابد أن تكون قائمة على الطهارة والنزاهة وليس وراء الرأى فيها أهواء ولا مصالح خاصة كما نرى الآن ويشير أيضًا إلى أن الصلاة جامعة والشورى جامعة ومجيء النفقة بعدها يشير إلى أن المشورة عطاء وليست تربحًا وأنها بذل وليست أخذاً، وكل هذا ينتهى إلى غاية التجرد، والطهارة، والصفاء فى معالجة أمر الناس، وهذا هو فقه القيادة وهذا هو التحضر والرقى وليس السلب والنهب والقمع والخطف والسمسرة والسرقة، وكما لا يجوز للشعوب الحرة أن تسكت عن من يغتصب أرضها كذلك لا يجوز لها أن تسكت عمن يغتصب أمرها والسكوت عن اغتصاب الأمر مقدمة ضرورية لاغتصاب الأرض؛ لأن القهر والجهل والقمع والفقر يهيئ الوطن لمغامرة عدوه اللعين والعجيب أنك تجد تقاربًا شديدًا بين نظام القمع والجهل والفقر والعدو التاريخى للبلاد والصَّمْتُ على كل هذا خيانة.

وتلاحظ كلمات ثلاثة فى كل صلة الأولى كلمة ﴿لِرَبِّهِمْ﴾، لأن المروءة تقتضى أن تستجيب لمن رباك وأخرجك من العدم وجعل لك السمع والبصر والفؤاد، وأن عدم استجابة ربنا ليس فسادًا فى الدين فحسب وإنما هو أيضًا فساد فى المروءة والحكمة وما يقتضيه العقل والكلمة الثانية كلمة ﴿أَمْرُهُمْ﴾

وأن أمـرنا لا يجوز أن يسـتبـد به واحد منـا والكلمة الثـالثة كلمـة ﴿وممَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ وأنه لا يجوز أن تبخل على خلق الله الفقراء بمال الله الذى أعطاك وخوّلك واستخلفك فيه، كل هذا يفيد الدقة القريبة فى اختيار الكلمات ثم إن كلمـة الرزق عند أكثـر علمـائنا تعنى الكسب الحـلال الطيب، ومن أجل أن تكون من الذين لهم عند الله الخـيرية البـاقيـة يعنى الجنة الخالـدة، فلابد أن تتحرى الحلال فيما تكسب، لأن الله طيب ولا يقبل إلا الطيب، والتقديم فى قوله ﴿ومـمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ لا يفـيد الاختـصاص لأن الاخـتصـاص يعنى أنهم يخصون الحلال بالإنفاق منه وأنهم فى إنفاقهم يتجنبون الحرام، وهذا يعنى أن فى حوزتهم حرامًا. وليس هذا من شـأن من لهم عند الله الخيرية لأن ما لهم كله من الحلال الطيب، وإنما قدم لتـأكيد معنى أنهم ينفقـون على فقراء خلق الله من مال الله ولا يجـوز لهم أن يبخلوا على عياله بماله، وقـد جاء الفعل مضارعًـا فى قوله ﴿يُنفِقُونَ﴾ للإشارة إلى أن هذا سلوك يتـجدد مع كل داع من دواعيه، ولم يقل يقيمون الصلاة مع أن إقامتها من العمل المتجدد، وذلك لدخولها فى قوله سبحانه ﴿اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ والصلاة مما استجابوا لله فيها، وإذا قلت وكذلك الـزكاة قلت لك الفصل بـجملة ﴿وَأَمْـرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ باعد بين الماضى الذى فى استجابوا وخبر الزكاة الذى هو الإنفاق فجاء الكلام فيها على الأصل الذي هو التجدد والحدوث، هذا والله أعلم.

وقد ذكـر بعض العلماء أن الآية نـزلت فى الأنصار وأن السـورة مكية إلا هذه الآية وآية ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾، وكان الأنصار يتشاورون وهذا جيد والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾.

هذه الجملة كل مـا بعدها مـتفرع منهـا إلى آخر هذا القـسم، وقد دخلت مَدْخَلاً مخـتلفًا فإذا كانت الأولى تأصيل أصل الإيمان والثانيـة لتطهير النفس

من رجس الذنب، والثالثة لاكتساب الفـضائل التى دعانا ربنا إليها، فإن هذه الرابعة تتجاوز الأحوال الفـردية الغالبة فى الآيات الأخرى، إلى الأحوال التى تنتجـها العلاقـات الاجتمـاعية، والاحـتكاك بالآخرين. وكانت الآية الثـانية أشـارت إلى هذا إشارة عـامة، وذلـك قوله سـبحـانه ﴿وإذا ما غـضـبوا هُمْ يَغْفِرونَ﴾ وإصابة البغى الذى هو رأس هذه الآيات صورة من صور المغاضبة، وفرق بين من غضب، ومن أصـابه البغى فقد يغضب المرء لأسبـاب كثيرة فى علاقاته بالناس.

وتحليل اللغة تحليـلاً دقيقًا واسـتخراج المعـانى الساكنة فيهـا وكذلك تحليل الموقع والنسق ووجه الترتيب واستخراج المعـانى الحائمة حول السياق كل ذلك يكشف التلاؤم والتوافق بين الجمل الذى قد يبدو متعارضًا أحيانًا. فلو نظرت إلى قوله تعالى: ﴿وإذا ما غضبوا هُمْ يغْفِرونَ﴾ لوجدته يتدافع فى الظاهر مع قوله ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ وكذلك تجد جملة ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ تتلاقى مـع جملة ﴿وَإِذَا مَا غَـضِبـوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾. وجملة ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ تلتقى معـهما وهكذا تجد جملة ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ تتلاقى مع جملة ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ وفي كلام بعض علمائنا إن الحث على الانتصار إنما يكون فى مواجهـة أهل الكفر وأن الحث على العفو إنما يكون مع أهل الإسلام وذكـر بعضهم أن العـفو إنما يكون مع غـير المتجـبِّر ويكون مع العاجز والمعترف بخطئه. وأن الانتصار يكون مع المتجبر الذى إذا لم تُقْدَع أنفه حال ظلمـه تَفَرْعَنَ وسعى فى الأرض ليـفسد فـيها، وكل هذا جـيد والآيات تحـتمله ومن الواجب أن يلاحظ؛ والذى سـأحـاوله هو الوقـوف مع اللغـة والسيـاق وعموم اللفظ وإذا هُدينـا إلى كشف ذلك وفقـهه فلن نجد تدافـعًا، وأول ما يبدو هو أن ابتـداء هذه الآية باسم الموصول يشير إشـارة واضحة إلى

أن هؤلاء المتنصـرين ممن بغى عليهم سـضمومـون إلى هذه الكوكبة الصـالحة الطيبـة الذين آمنوا وتوكلوا واجتنبوا كـبائر الاسم واستـجابوا لربهم؛ ولاحظ أعمالهم الكبيـرة ثم لاحظ أن الذى ينتصر من ظالمه دخل واحدا منهم، وكل الذى فعله أنه دفع عن نفسه الظلم، ولا تستكثر هذا لأن فضل الله يجمع فى الجنة الشهداء، والمجاهدين، مع من أزالوا عن الطريق غـصن شوك خشية أن يؤذى المسلمين، والزمخشرى له ملحظ جليل جداً في هذا فحواه أن من وقف عند حدود الله فهو محمـود، سواء أَنْفَذَ أمْرًا أو كَفَّ نفسه عن منهى عنه، أو وقف عند حد المباح لا يتـعداه، كهذا الذي معنـا، والمهم هو الالتزام بما شرع ربنا؛ والذى انتصـر لنفسه أنْفَذَ مـا أبَاحه الله له، ثم التزم بحَـدِّ ربِّه وجازى السيئة بمثلهـا، لا يزيد شيئًا، قال رحمه الله «فـإن قلت أهم محمودون على الانتصـار؟ قلت نعم لأن من أخذ حـقّه غيـر مُتعَـدٍّ حَدَّ الله ومـا أمر به فلم يُسْرف فى القـتل. إن كان ولى دم، أو ردّ على سـفيه مـحاماة عن عـرضه، وَرَدْعًا له فهو مطيع، وكل مطيع محمود، انتـهى كلامه وهذا جيد لأن الحمد راجع إلى الطاعة وليس إلى نوع الـعمل، مع أن الأعمال تتـفاضل ﴿**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ**﴾ [الحج: ٣٩].

وجملة ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ**﴾ فيها كلمة «أصاب» وهى كلمـة دالة على تمكن الظلم منه يقـال أصاب السـهم الرميـة إذا نَفَذ فـيهـا؛ وأصـابهم القـحط، إذا أشْفَى بهم عـلى الهلاك، وأصـابهم ريب الزمـان إذا تَغَـيّرتْ أحـوالهم من القوة إلى الضـعف، ومن الغنى إلى الحـاجة. وكلمـة أصـاب فى الآية لم تسند إلى البـاغى، الذى ظلم، وإنما أسِندت إلى البـغى وهو المصدر، والبغى اعـتداء وانتهاك للحق، وضياع للحـرمة، وراجع الجملة تجد فيها إشارة إلى أن هذا البـغى أهاجهم، وأفزعهم وجَرَحَهُم ونال من كل ما يحرص صاحب المروءة ألاّ يُنَال. ولذلك تجد جملة الخبر مبنية على التوكيد المفهوم من تقديم المسند إليه على الخبر الـفعلي. ليشير إلى أنهم هَمُّوا للدفاع

عن أنفسهم، ودفع الظلم، والذل عنهم، وكلمة ينتـصرون فيها إشارة إلى أنَّ البغي كأنه شنَّ عليهم غارة وأنه استهدفهم بحرب فقاموا ينتصرون، ويدفعون عن وجودهم، وكرامتهم، وعزهم الذى هو من عز الله، ومن مات دون ماله وعرضه فهو شـهيد، وهذا محمود بلا ريب. هذه الجماعـة التى قامت تنتصر من البغى والظلم وتواجه غطرسة المعتدين الظالمين هم من رجال الله وعملهم من صالح الأعمال، ومجيء هذه الآية بعد الآيات التى سبقتها والتى تتحدث عن رجال الله الذين أعَدّ لهم عنده الخـير الأبقى فيه إشـارة أخـرى وهـى أن ما سبقـها من خلال حميدة وأعـمال صالحة كان لإعداد القـدرة على مقاومة البغى لأن البغى لو ترك ولم يُـقْمع امتلأت به الأرض فسادًا، وصـارت حياة الناس جحـيمًـا وعاش الناس فى غابة يـأكل فيهـا القوى الضـعيف، وراجع ﴿أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ وتأمل الضـراوة التى فـى كلمـة أصـاب، وإسنادها إلى المصدر، لأنك سـجد فـيـها أكثر مما نبـهنا إليه، ثـم راجع ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ وما وراءهـا من عزم وحزم وإصـرار على كسـر البغى وَدَحْـرِهِ وهزيمته حـتى تـراجع ضراوته المدمـرة لحيـاة الناس ولاحظ معنى الجـمع وأنهم ينسـاندون ويتآزرون فى مواجهـة الظلم والبغى وليس فيهم من يصانعـه ويداهنه وينافقه وإنما كلهم واقفون فى وجـهه بروح الجماعة الرافضـة للظلم والقمع. وكأنهم شعب تجمّع وقرر مواجهة البغى فى نظام قمعى يحمى الفساد وأهله.

وقوله سبـحانه ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ يراها الشيخ الطاهر اعـتراضًا وأراها من تمام معنى ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ لأن الحمِّـية الدافـعة للبـغى والمقـاومة للظلم، قد تغرى بالإفـراط، ومجاوزة الحد، فجـاءت هذه الجملة لتُلْجِم حِدَّة هؤلاء الرافضين وتضع أمام عيونهم عدل الله وحـده، وقسطاسه المستقيم، وأنه سبحانه وإن حَمَدَهُم على رفض البغى. ومـقاومته، يكفُّهم ويردعهم عن ظلم الظالمين، وهذا هو العدل الذي ليس فوقه عدل، الله يقول لنا إنه لا يرضى أن نظلم من ظـلم، ولا يرضى أن نبـغى على من بغـى. وإنما أجـاز لنا المجـازاة

الـمُلْتزِمة التـزامًا صارمًا بالمثل. ومن تَعدَّى هذا المثل فـقد بغى. وظلم، وصار حالـه عند الله كحـال الذى بغى عليه وظلـمه، ولا أعرف ولا يـعرف غـيرى قسطاسًا مسـتقيمًا كهذا القسطاس المسـتقيم، وحسبنا أن نعتقـد أن الله سبحانه حرَّم علـينا أن نظلم من ظلمنا، وأن دَمَ الظالم وعرضـه وماله حـرام علينا إلا بحقه، وأشهد أن هذا كـلام الله. فرق شاسع بين ما أحله الله وهو أن تعاقب بمثل ما عوقبت به، وما حـرّمه الله وهو أن تنتقم وأن يُفْلِت منك الزمام وتُطْلق العنان لشهـوة الغضب وشهـوة الانتقام. وهذه الجمـلة بعد هذا الذى رأيناه فى موقعها تعد من أوسع القواعد الفقهية وقد كـتب فيها الفقهاء كثيرًا واستخرجوا منها ما اتُّفق عليه، وما اختُلِف فيه، لأن المثليـة ليسـ واضحة فى وقائع فقهية كثـيرة، كأن يشتـرك جماعة فى قـتل واحد أو فى قطع يد واحد، أو فـقأ عين واحد، والمثليـة فى هذه الحالة صـعبـة جداً وقد رأى بعض الفـقهـاء أن تقتل الجماعـة بالواحد، استنادا لقول عمر لو قـتله أهل صنعاء لقتلتهم جمـيعًا به، ولوقتـلنا واحدًا أفلت البـاقون ولـم يقع عليـهم جزاء المثل. وقل مـثل هذا فى الجنايات التى ترتكبهـا الجماعات، وهذا مـثال واحد لمشاكل المثليـة فى الجزاء.
وقلت إن كلام الفقـهاء فى الآية متسع جـداً وتعجب كيف استـخرجوا من هذه الجملة كل هذا الذى استخـرجوه ولو وضَعتهُ بإزائها لوجـدتها من أخْصر الكلام وأوجزه، وتعرفت كـيف تعمل عقول الفقـهاء فى الاستنباط من البـيان، وكيف تحلله، وإلى أى مـدى نحن فى بعد عـن الصواب حين عـزلنا هذه الجهـود عن درس الأدب، وأدرنا لهذا التدقيق البالغ ظهـورنا، واكتفينا بما تَعْلَمُ وأَعْلَمَ ورأيناه تنويرًا وتحديثًا وكفى الله المؤمنين القتال. وكلمة ﴿سَيِّئَةٌ﴾ الواقعة فى الخبر ليست فعلاً سيـئًا من فاعلها لأنه يأخذ حـقه ويجازى من بَغَى عليه وإنما سميـت سيئة لوجوه، منها أنها تسوء الجانى كمـا أن السيئة الأولى أساءت المجنى عليه، وعلى هذا تكون مستعملة فيما وضـعت له، وهذا كلام الزمخشرى وهو جيد ومنها أن تكون مجازًا مرسلاً بإطلاق السبب على المسبب كما فى قوله تعالى ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] وإنما سميت المجازاة

اعتداء لأن الاعتداء سببها وهذا توجيه جيد لأن فيه شوبًا من الإدانة للاعتداء، ومنها أن تكون جاءت على سبيل المشاكلة يعنى ذكر الجزاء بلفظ السيئة لوقوعه في صحبته، وهذا تصرف لساني فيه سماحة وليس وراءه معنى ويشبه الاستعارة اللفظية، وكل هذا بيان وجه الاستعمال، وليس بيانًا لسره ولو قلت إن السر هو إمالة النفوس نحو العفو الذى تكرر ذكره فى جمل هذه الآيات أكثر من تكرار جمل المجازاة لكان كلامًا صحيحًا لأن الله يحب العفو ما لم يؤدّ العفو إلى مفسدة بطغيان البغي واتساعه ووجه الإمالة أن الله سبحانه سمّى المجازاة سيئة.

وجملة ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** ﴾ معطوفة على جملة ﴿ **هُمْ يَنتَصِرُونَ** ﴾ ومن تمام معناه أو من ضوابط معناها ولو قلت والذين إذا أصابهم البغي جزاء سيئة بمثلها لاستقام الكلام، ولاحظ كلمة «إذا» ودلالتها على توقع وقوع الشرط، وما فى ذلك من الإنذار الخفى بضرورة ردع البغى وكفه وإلا كثر واتسع واستشاط ودمر المجتمعات. وشر البغى بغى الحاكم الظالم وبغى أجهزته القمعية والانتصار من هذا البغى ضرورة وإلا عمَّ الفساد. والوطن المظلوم لقمة سائغة لعدوه وهذا هو سر وجوب دفع بغى الحاكم الظالم لأنه محاماة عن تراب الأوطان.

وقوله سبحانه ﴿ **فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾.

الفاء فى قوله ﴿ **فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ** ﴾ رتبت ما بعدها على ما قبلها وأشارت إلى أن ما بعدها من تمام ما قبلها أعنى من تمام الأحوال لأن المجازاة المضبوطة بالمثل لها أحوال لا يكون العفو فيها أفضل والعفو له أحوال لا تكون المجازاة فيها أفضل؛ والآية مع عموم لفظها تحتفظ بقدر جيد من المرونة لستوعب الأحوال، وقد سبق أن أشرنا إلى أن المعتدى لو أقر بجرمه ولم يكن محترفًا البغى فالأولى العفو، لأن الله يقبل التوبة عن عباده، ويحب من عباده من يقبل منهم ما قبله هو منهم، ثم أكرمهم بمنحهم حق المجازاة وزاد فى الإكرام فحمدهم على ما منحه لهم، والمعوّل عليه الانقياد والطاعة كما سبق أن بينا،

ثم إن استعمال كلمة ﴿عَفَا﴾ وهى من الأفعال التى يحبها ربنا لأننا نقول فى الدعاء «اللهم إنك عفـو غفور تحب العفو فاعف عنا» يغـرى بالعفو وذلك إذا عفوت تحـبّبًا وتقربًا وتَزَلّفًا لمن يحب العـفو، وكلمة ﴿أَصْلَحَ﴾ لها هنا دلالة جليلة جـداً لأن معناهـا أصلح ما بينه وبين الجـانى، وفـيه مـعنى أن العفـو مرغوب فيه، ومندوب إليه، إذا أصلح، وليس إذا أفسد بطغيان أهل الباطل، ثم إن إسناد أصلح إلى صاحب الحق فى القصاص. فـيه إشارة أخرى إلى أنه لم يبق فى نفســه بغضاء لهذا الجـانى، وإنما وجد فى نفســه صلاحًا ورأى أن العفو سيـصلح ذات البين. وهذه تلميحات فى الآية تشير إلى مقـامات العفو كما أن مجىء المصـدر وإسناده إلى أصاب فى جملة ﴿أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ فيها تلميحات لمقامات المجازاة، وقـد استخرج علماؤنا من كلمتى ﴿عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ أن العفـو مندوب إليه فيـما بين أهل الإسلام لأنه لا صـلاح مع أهل الكفر، وقوله ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ يؤكد هذا. ثم إن كلمة فأجـره على الله قريبةجداً من قوله فى صدر آيات الموصول الأول ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ فالأجـر الذي على الله هو الخير الأبقى عنـده سبحانه، ولـيس للعارف بالله حاجة أفـضل من أن يكون أجره على الله، أوجبـه الحق سبحانه لعـبده على نفســه، وإذا كنا نجد إغـراء بالعفو فـى كلمة، ﴿عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ فإن الإغراء الأعظم فى هذا الخبر ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ وهذه الجملة العظيمة والمغرية بالعفو المفْضى إلى صـلاح ذات البين تذكر بجـملة يتمنى أن يدخل فى ســطائها كل مؤمن وهى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] وراجع الكلمات التى تتكرر وتأمل سَعَة الرحمة ووفرة العطاء حين يلحق من عفا وهو جالس فى داره بمن خرج مهاجرا لله ورسوله، ثم يدركه الموت، ولا يهلك على الله إلا هالك.

وكان الزمـخشرى رحمـه الله دقيق الإحساس بمعـانى كلمات الله، وَجِل القلب كثير الخوف والرهبة بحّاثا عن كلمات الله التى يحب أن يلقى الله وهو

عاضٌ عليها وهذا شأن علمائنا وقد وقف عند جملة ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ وعقب عليها بقوله «عِدَةٌ مبهمة لا يقاس أمرها فى العظم». وقد وقعت هذه الجملة المختصرة العالية البلاغة فى نفوس علماء التفسير فتناقلوها فى كتبهم رحمهم الله جميعًا وألحقنا بهم كرامة نفس وقرة عين.

قوله جل شأنه ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، هذه الفاصلة مؤكدة بإن وبتقديم المسند إليه على الخبر الفعلى وعدم تقييد الظلم ليشمل كل ألوانه، وأنواعه، قل أو كثر والظاهر أن يقال إنه يحب العافين، من أجل قوله ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ كما قال سبحانه ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] أو يقال يحب الصالحين أو المصلحين من أجل قوله ﴿وَأَصْلَحَ﴾ ولكن الآيات جاءت على ما جاءت عليه لتفيد معانى أدق، وأجل؛ منها أن من عفا فقد عفا عن حقه وبقى حق الله عند الظالم الباغى. الذي تعدّى ما أمر الله به، وما نهى عنه، فقد أمرنا بالعدل ونهانا عن الظلم، والآية تشير إلى الباغى وتقول قد بقى لله عندك حق، وعليك أن ترجع إليه لتخرج من زمرة الذين لا يحبهم، وقد دلّك على سعة رحمته لما أغرى المظلوم بالعفو عنك وجعل أجر العفو له عند الله، وهذا يدعوك إلى العودة إليه ومنها أن يكون قوله ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ راجعًا إلى قوله ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ وأنك أيها المظلوم إذا تجاوزت هذه المثلية قيد أنملة فقد وقعت فى الظلم لأن الظالم معصوم فى غير جُرْمه، والله الذى لا يحبه حرّم عليك وعلى غيرك ظلمه وإن كان ظلم وبغى. والعفو لا يوقعك فى المحذور. ولست بمأمن من ظلمه إذا جازيت، وكافأت لأن المثلية ميزان حسَّاس بالغ الحساسية فإذا زدت عليها مثقالاً انقلبت عليك القضية، وصرت ظالمًا والله لا يضيع عنده مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض فمقام المجازاة مقام محفوف بخطر. وعليه تكون الفاصلة مؤكدة للحث على العفو بطريق التحذير كما حثّت عليه بطريق الإغراء فى قوله ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

ونلاحظ أن ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾، مضمومون إلى الذين آمنوا وتوكلوا واجتنبوا كبائر الإثم واستجابوا لربهم وهذه كوكبة من أعلى درجات عباد الله وأن هذا الذى انتصر إذا بغى عليه ودفعته الحميةُ إلى أن يزيد عن المثل مثقال حبة من خردل ينقلب أمره رأسًا على عقب، لأن الله يحمى الظالم، ويعصم ماله وعرضه، ودمه إلا فى حدود جُرمه وكل هذا يعنى أن المحافظة على طريق الله المستقيم لا تتم إلا بغاية الحذر والخوف والاستقامة وأن ترك الحق فى المجازاة أفضل من التعدى فيها قيد أنملة والآيات كما ترى تتشابك وتتلاقى وتتقارب وتتباعد أيضًا ولعل هذا مما يدخل فى تأليف المختلف الذي تكلم فيه الباقلانى والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾.

مجىء هذه الجملة بهذا التوكيد الذي تراه فى أولها ماثلاً فى هذه اللام التى يصح أن تكون لام ابتداء أو لام قسم، ثم تراه أيضًا فى جملة ﴿ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾. ماثلا فى اسم الإشارة الدال على تميز المشار إليه وإعلاء قدره، والإشارة إلى استحقاقه ما يأتى بعد اسم الإشارة لاكتسابه ما قبله، وهو انتصاره بعد ظلم ثم الاختصاص الذي تراه في تقديم الجار والمجرور مسبوقًا بحرف النفى. ثم في زيادة من الداخلة على المبتدأ ثم بالتعبير بكلمة سبيل عن الحرج والمؤاخذة لأن السبيل هو الطريق ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] والمعنى هنا أنك لا تجد طريقًا من الطرق يُغْرى بوصفهم بالحرج والمؤاخذة وهذا آكد من نفى الحرج والمؤاخذة، لأنه نفى لها بدليل وهو من باب الكناية أقول مجىء هذه الجملة، بهذا البناء الذي تراه بعد ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ لها دلالة عظيمة جداً، وهى مع هذه البلاغة الدقيقة فى مبناها ومعناها لها دلالة بلاغية رقيقة فى موقعها وسياقها لأن الأجر الضامن له رب العالمين وأكرم الأكرمين قد يغرى بمؤاخذة من انحاز

إلى المجازاة، وترك العفو المندوب إليه، وخصوصًا إذا صرفنا جملة إنه لا يحب الظالمين وجعلناها تتشابك مع ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ وأنها تضع علامة خطر على هذه المثلية، ولهذا كله جاءت هذه الآية لتثبيت القسطاس المستقيم، وحق المعتدى عليه فى المجازاة. وتُحَدِّد بدقة مقاطع الحق والعدل، وأن العفو وإن كان الله سبحانه قد جعل حظا جزيلا لمن يختاره ورصد جائزة عظيمة لمن يركن إليه ليس بضار من يختارون المجازاة التى جعلها الله لهم حقاً وجعلها شرعا فى دينه، وهذه أحوال وموازين دقيقة لا يبغى بعضها على بعض.

وتلاحظ أن جملة ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ توشك أن تكون هى جملة ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ التى هى رأس هذه الجمل وتجد خيوط الصياغة قريبًا بعضها من بعض وأن الكلمات من جنس واحد فكلمة ينتصرون هناك فعل مضارع جاءت هنا بماضيها ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ﴾ لأن الانتصار وقع هناك فى زمنه المضارع وصار هنا فى زمنه الماضى وكلمة ﴿بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ هنا توشك أن تكون ﴿إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ لأن إصابة البغى ظلم، والزمن المدلول عليه هناك بكلمة ﴿إِذَا﴾ الدالة على المستقبل هناك هى كلمة ﴿بَعْدَ﴾ الدالة على زمن مضى. ثم أضيف إلى جملة ومن انتصر أحوال البناء التى ذكرناها ثم الموقع ثم نفى السبيل. وكل ذلك ينفى التكرار ويؤكد المعنى الجليل التى سيقت له الجملة وهو أن من أدار ظهره لكل هذا الإغراء بالعفو والتحذير من الظلم وغضب الله إذا أوقعته حمية الغضب فى تجاوز المثل ولو قيد نملة كل هذا قد يوقع فى النفس أن هذا المتمسك بالمجازاة يعاتب أو يؤاخذ أو نجد سبيلا إلى غمزه فجاءت الآية لتحمل له لطف الله وكرمه وعدله وقسطاسه المستقيم وأن من مارس ما أجازه الله له فليس لأحد عليه سلطان.

والواو الواقعة فى أول هذه الجملة تـعطفها على جملة ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ وتضم هذا الوجه الـثانى الذى هو ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ﴾ إلى الوجه الأول، وفى تقديم العفـو على الانتصار دلالة على أنه هو الأولى، وقـد ابتدأت هذه الجـملة باللام التى لم تبـتدئ بهـا جـملة قبلهـا فى هذا الغرض لتلفتنا إلى أن تقديم العفو على الانتصار لا يغرى بلوم من انتصر، والفاء التى فى قوله ﴿فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ يمكن أن تكون واقعة فى جواب ﴿مَن﴾ إذا اعتـبرناهـا شرطية ويـكون مصب المعنى على التـعليق ويمكن أن تكون داخلة على خبر ﴿مَن﴾ إذا اعتبـرناها موصولة وهى فى كل تؤكـد الارتباط فى الشـرط والإسناد فى الخبـر والقصر الذى فـى قوله ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ مهيئ للقصر الذى بدأت به الجملة بعدها وهى قوله سبحانه ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

هذه الجملة هى الوجه الآخـر المقابل للجملة التى قبلها وهى من تمامـها وقد جاءت من غير واو لأنها مؤكدة لقوله ﴿فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ وقد دخلت إنما على معنى هيـأ له الكلام السابق وصار معنى لا يجـهله المخاطب ولا ينكره والمقصود إثبات السبيل والحرج والمؤاخذة للذين يظلمون الناس ونفى السبيل ليس عن كل ما سواهم وإنما عن الذين ينتصـرون من بعدما ظلموا، وموقع هذه الآية من الآية قبلها مثل موقع قـوله سبحانه فى سورة التوبة ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ [التوبة: ٩٣] من الآية قـبلها ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١] إلى قوله ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ والأساليب المتشابهة لهـا فى كتاب الله شأن أى شأن. راجع ما على المحسنين من سبيل وضعه بإزاء ما عليهم من سبيل ودع هذا.

وضع هذه الجملة بإزاء الجملة قبلهـا ولاحظ التقارب الشديد فى الكلمات والمبانى والتقابل فى المعانى فكلمة ﴿**السَّبِيلَ**﴾ التى هى أصل المعنى مكررة فى الجملتين والنفى هناك ﴿**ما عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ**﴾ يقابله هنا ﴿**إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ...**﴾ «**وبعد ظـلمه**» هناك يقابله ﴿**يَظْلِمُونَ النَّاس**﴾ هنا ولما كانت الآيتان متقابلتين لتقابل وجهى المعنى لا جرم تقاربت اللغة وتصاقبت.

ويلاحظ أن السبيل هنا مقصور على نوعـين تكونت منهما جملة الموصول الأول ﴿**يَظْلِمُونَ النَّاس**﴾ والثانى ﴿**وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ وجملة يظلمون الناس تشمل المبتدئ بالظلم أو الذى وقع فى الظلم وتجاوز المثلية وهو يجازى، والفعل المضارع فى ﴿**يَظْلِمُونَ وَيَبْغُونَ**﴾ يعنى أن هذا الظلم والبغى يتجـدد منه ولا يرعوى ولا يرتدع ولا يراجع نفـسه وإنما صار الـفعل ديدنه، وهذه الدلالة التى فى الفـعل تشـيـر إشارة جليلة إلـى نمط من الظالمين وهم الذين صار الظلم والبـغى شأنا من شئونهم ولا حـرج على من ينتصف منهم وقد استحسن العلماء القصاص من هذه الفـئة المتغطرسه والتى تسعى بالفساد فى الأرض وحين نفسر البغى بالظلم نكون متـسامحين ونفسر المعنى بما يقاربه وليس لنا من سبـيل إلا هذا لأن تفسير اللفظ باللفظ الذى هو عـين معناه لا يكاد يوجد فى اللغـة وقد فسـر الزمخشـرى يبغون بقـوله: يتكبرون فيـها ويعلون ويفسدون وقد نقل المفسرون هذا التفسيـر بتمامه مرة وباختصاره مرة، ولـم أجد أحدا عـول على غيره وزاد الطاهر أن البغى لا يكـون إلا بغير الحق فإن مسمى البغى هو الاعتـداء على الحق وقوله سبحانه ﴿**بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ كشف لحقيقة معروفة قصدا إلى مذمة البغى وفى كلام الطاهر مراجعة سنبينها.

والذى فى كتب اللغة أن البغى مصدر بغى يبغى بمعنى طلب يطلب وتقول فلان يبغى الخير ولا يبغى الشر، ويبتغون وجه ربهم، ورضوانه ﴿**وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَـزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ**﴾ [الأحزاب: ٥١] يـعنى طلـبت وأردت وقـولـه

جل شأنه ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحريم: ١] وكل هذا يعنى أنك إذا ابتغيت شيئًا مما هو مباح فليس عليك حرج، وإذا طلبت خيرا لك ولغيرك فهو ابتغاء محمود وإذا طلبت شرا أو ما ليس لك فهو ابتغاء مذموم ولذلك جاء قوله سبحانه ﴿يَبْغُون فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وتفسير البغى بالظلم صحيح لأنه أراد طلب ما ليس له ومن طلب ما ليس له فقد ظلم وتفسيره كذلك بالتكبر والاستعلاء صحيح لأنه لا يطلب ما ليس له إلا من استعلى وتكبر وتغطرس والجذر اللغوى للبغى ليس الظلم ولا التكبر وإنما هو الطلب وأجد فرقا بين طلب وابتغى وهو أن الابتغاء فيه طلب برغبة نفس ووفرة نشاط وحرص فإذا كان الطلب طلب ما ليس له فيه حق وكان مصاحبا لوفرة الحرص والنشاط وقوة الرغبة كان هو البغى المذموم الذى نفسره تفسيرا مقاربا بالظلم أو بالتكبر والاستعلاء، وكان الراغب دقيقا حين فسر البغى بقوله: «البغى طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى» وتجاوز الاقتصاد يعنى تجاوز الحد وفيما يتحرى يعنى الأفعال والأقوال التى لها حدود مسموح بها ولا يجوز تجاوزها، وذكر الراغب الآية التى معنا وقال البغى قد يكون محمودا وقد يكون مذموما وإنما قال سبحانه ﴿يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ لينص على البغى المذموم. ورحم الله الطاهر فقد كان كثير التدقيقات قليل الغفلات وهذه من قليله.

وجذر الظلم من الظلمات التى هى ضد النور لأن صاحبه يضع الأشياء فى غير مواضعها، وحاله كحال من يمشى فى الظلمات ليس بخارج منها، وتجد تلاقيا بين من يمشى في الظلمات، ومن يبتغى غير ما هو له، وعلى هذا التلاقى البعيد نفسر البغى بالظلم وكان الإمام الخطابى يوصى بالرجوع فى الكلمات المتشابهة إلى جذورها ومقابلاتها لنتبين الفروق الدقيقة الملاحظة فى الاستعمال العالى لأن هذا عنده هو جوهر البلاغة؛ والسبيل والمؤاخذة والعذاب الشديد فى الآية لهذين الفريقين الظالم الذى كأنه يمشى فى

الظلمات فيصيب ويدمر ويضيع حقوق الآخرين والثانى الأنانى الذى تتحكم فيه الرغبة فى أخذ ما ليس له ولك أن تبحث أكثر لتحدد ملامح أكثر وضوحًا لتفرق بين الفريقين المذكورين فى الآية.

وجملة ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيها عناية شديدة بمضمونها نجد هذه العناية بابتدائها باسم الإشارة الذى يوقع فى النفس العناية بما يأتى بعده ثم بكلمة ﴿لَهُمْ﴾ وكأنه أعد لهم خصوصا وَهُيِّئ لهم كما أعدت روضات الجنات للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهذه المقابلات فى الصور رحمة من رحمة الله ليختار كلٌّ طريقه وهو فى فسحة، والرجوع إلى الله بابه مفتوح وقبل أن يأتى الوقت الذى لا تقبل فيه التوبة، والعذاب اسم مصدر، والمصدر التعذيب والفعل عذَّب والتضعيف فيه للإزالة والمراد إزالة عذب حياته وطيبها كما يقال قَذَّيته إذا أذهبت قذاه، ويقال مرَّضْتُه إذا أذهبت مرضه وإذا وصف العذاب بالأليم فالمراد بيان ما يجده الواقع عليه العذاب وأن العذاب يؤلمه، وإذا وصف العذاب بالشديد فالمراد بيان حال من يقع منه العذاب وأنه حال غضب وشدة وأن شدة غضبه صيرت العذاب شديدًا.

قوله جل شأنه ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ هذه الآية ترجع فى معناها إلى قوله سبحانه ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ وتأمل الكلامين تجد التقارب الشديد والتباعد الشديد لأن تحليل الكلمات يؤذن بهذا التباعد ففرق كبير بين ﴿عَفَا وَأَصْلَحَ﴾، و﴿صَبَرَ وَغَفَرَ﴾، و﴿عَفَا وَأَصْلَحَ﴾، هما عمود معنى الآية السابقة و﴿صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ عمود معنى الآية التى نحن فيها وقد أغرى هذا التقارب بعض علمائنا بالقول بأن آية ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ معترضة بين الأختين ولو قلنا إن التشابه الشديد فى مبنى هذه الآية ومبنى آية ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ يؤكد أنها أختها وليست معترضة بينها وبين الآية الأسبق أقول لو قلنا هذا لكان كلاما صحيحا والآية تحتمله.

واضح أن ابتداء هذه الآية باللام التى تصلح أن تكون للقسم وللابتداء ثم دخولها على «من» الموصولة ثم المجىء بجملتين للصلة ﴿**صبر وغفر**﴾ مثل ﴿**عفا وأصلح**﴾ كل ذلك يؤكد التقارب والتشارب فى نسيج المعانى الشديدة التقارب ثم إن هذا التقارب الشديد يكون حاجزا بيننا وبين دقائق المعانى الخاصة بالجمل ما لم نكرر المراجعة للكلمات والصيغ حتى نستخرج الخصوصيات الفارقة فى وسط هذا التقارب البين، وأجد هذه الخصوصية الفارقة والتى تعطى هذه الجملة مذاقا متميزا أجد هذا فى جملة الخبر ﴿**إنَّ ذَلكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾ لأن هذا الخبر الوحيد فى هذا المقطع الذى أكد بإن واللام، ثم قال ﴿**عَزْمِ الأُمُورِ**﴾ وأضاف الصفة إلى الموصوف كما فى قوله تعالى ﴿**صادِق الْوَعْد**﴾ [مريم: ٥٤] والمراد الوعد الصادق والأمر العزم ولا يكون ذلك إلا لشدة العناية بالصفة وكلمة ﴿**عَزْمِ الأُمُورِ**﴾ يربط بين من صبر وغفر وأولى العزم من الرسل لأنها تصف من صبر وغفر بصفتهم وهذا إغراء شديد بالصبر والمغفرة كما تجد كلمة الصبر فى صلة الموصول مشيرة إلى المضض الذى يجده من يتحمل العفو عن من ظلم ولم يسبق ذكر هذا المعنى وإنما قال هناك ﴿**فَمَنْ عفا وأَصْلَحَ**﴾، ولم يتعرض للشدة التى يجدها من يعالج نفسه فى وقت وقوع الظلم عليه مع قدرته على أن ينتصر وقد روى أن رجلا فى مجلس سيدنا الحسن سبَّ رجلا فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق ثم قام وهو يقرأ الآية فقال الحسن عقلها والله إذ ضيعها الجاهلون، ومشقة تحمل هذا الصبر واحتمال الأذى والعفو ابتغاء الأجر كل ذلك هو العزم المذكور فى الآية؛ وقد وجدت الصبر يقترن فى آيات كثيرة بعزم الأمور من ذلك قوله سبحانه فى سورة آل عمران ﴿**وَإن تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا فَإنَّ ذَلك مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقوله جل شأنه فى سورة لقمان ﴿**واصبر عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إنَّ ذَلك مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾ [لقمان: ١٧].

ثم إن مجيء كلمة «غفر» بعد ﴿صَبَرَ﴾ فيه معنى آخر وهو أنه مع معالجته الشدة التى يجدها من يصبر على البغى لم يعف فحسب وإنما غفر، والمغفرة فيها شىء غير العفو وهو الستر والمحو وكأن الظلم لم يكن، ولذلك جاءت فى ترتيب الدعاء فى آخر البقرة بعد العفو ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦] وترتيب هذه الكلمات الثلاثة له دلالات رفيعة لأن الأول العفو وعدم المؤاخذة ثم الستر وهذا عطاء آخر وفرق بين أن يعفو الله عنك وأن يعفو ويستر ثم الرحمة التى هى العطاء المحض. قلت إن مجيء المغفرة بعد مضض الصبر يعنى شيئًا عظيمًا وهو أنه دفن الذنب وستره وكأنه لم يكن مع أنه تلقاه بالشدة والعرق كما فعل الرجل فى مجلس الحسن رضوان الله عليه وذلك هو عزم الأمور

وبهذه الخصوصيات تفيد هذه الجملة مزيدا من إعلاء شأن العفو وإلحاق صاحبه بأكرم رسله صلوات الله وسلامه عليهم وقد رأينا كيف كانت آية ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ تُسَامِتُ آية ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ فى مبناها وتقابلها فى معناها لأنها شقها الثانى وهذا يرجح عطفها عليها ثم كيف جاءت وهى أغزر الجمل فى حثها على العفو بعد قوله سبحانه ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهى أملأ الآيات بالتهديد والغضب والوعيد، وهذا عجيب لأنها تنقلنا من الإحساس بشدة الغضب عليهم إلى طلب العفو عنهم، وهذا معناه أن المولى جل جلاله يفتح لمن ظُلِمَ مزيدا من أبواب العطاء والرحمة التى فيها مزيد من ادخار الأجر له عند ربه، ثم يمهل الظالم ويفتح له باب العودة إليه فإذا لم يعد بعد هذا كله فله عند الله مزيد من الغضب والعذاب الأليم، ثم إن هذه الآيات التى رأيناها تزاوج بين استحسان العفو مرة واستحسان الانتصار مرة وكأنها تعطينا فسحة لنرى ما يتلاءم مع أحوال الظلم، والبغى. التى ليست سواء،

فقد يكون الباغى متغطرسا يغريه العفو بمزيد من البغى والظلم، وحينئذ يحسن معه الانتصار منه، وقدع أنفه، وقد يكون ممن يخجله العفو عنه فيرتدع بالعفو أكثر مما يرتدع بالقصاص، فيحسن معه العفو وهكذا، وكانت هذه الآية آخر هذا القسم ليسكن بها فى القلب الرغبة فى العفو والمسامحة لأنه الأقرب إلى الحياة الأفضل والتى تسودها الألفة وليست البغضاء، والتى تؤكد ما جاء فى السورة التى قبلها ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤] هذا والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴾.

وقبل أن أنتقل إلى الكلام فى هذه الآيات أراجع بإيجاز معاقد الفصول قبلها وكيف أمسك كل فصل من فصول السورة بما قبله وكيف أمسك به ما بعده وكيف كانت معاقد الكلام ومفاصله آخذا بعضها ببعض وخارجا بعضها من بعض، من رأس السورة الذى هو ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ وسأبدأ بالآيات التى انتهيت منها راجعا بها إلى ما قبلها، وواضح أن الآيات التى انتهيت منها راجعة رجوعا ظاهرا، إلى قوله سبحانه ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الذى تفرع عليه قوله ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وكان كل ما بعدها بيانا للذين لهم عند الله الخير الأبقى، وقد بينت أن آية ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ ﴾ امتداد لآية ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ ﴾ وهذا ظاهر وأن آية ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ ﴾ امتداد لآية ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ

عَنْ عِبادِهِ﴾ وهذا ظاهر أيضًا وأن قوله ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ﴾ خارج من فاصلة ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وأن قوله ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ خارج من صلب قوله ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ﴾ وأن قوله ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ خارج من تحت قوله ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ وأن قوله ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ تفصيل لقوله ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ وهذا كله ظاهر، وإنما يخفى عندما يغيبُ التأمل وتغيب المراجعة ويضيع تمثل فقه المعنى.

والوقوف لمراجعة روابط المعاني وانجرارها من رأس السورة تعلمناه من الرازى، وهو قدوتنا فيه، لأنه كان شديد العناية بهذا الشأن، وكان يحرص على أن يريك الخيط الممتد من رأس السورة، وهو يشرح كل آية من آياتها. ثم يقف الوقت بعد الوقت ليؤكد لك هذا ويزيده بيانا، ويطلب منك إطلالة على حقول معانى السورة من أولها وكيف تداعت وتواترت وتشابكت، وهذه الآيات التى معنا والتى نراها وحدة واحدة تحدثنا عن أهل الضلالة وما انتهى إليه حالهم عندما رأوا النار، يرجع بعض علمائنا بها إلى آية ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ وآية ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ وما تعلق بها فَصَلَت بينهما، وهذا طريق فى رد الآيات بعضها إلى بعض. وهو طريق يعتمد على معدن المعنى. فالحديث عن الذين أضلهم الله وما كان منهم لما رأوا العذاب رآه علماؤنا موصولا بالحديث عن الذين يجادلون فى آياتنا الذى هو امتداد لنظائره وقد برز هذا العنصر أو هذا القسم من المعنى أول ما برز عند قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ ثم غاب ثم ظهر فى قوله جل شأنه ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ ثم غاب هذا الفريق ثم عاد فى صورة أبين فى قوله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ ثم فى قوله ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم﴾ ثم فى قوله

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وهكذا تجد هذا المعنى المصوَّر للمعاندين يتخلل الآيات وقد لاحظت أن بعض علمائنا يرجع بهذه المعانى المتخللة للسورة بعضها إلى بعض.

ويحسن أن نقف قليلا لنزيد هذا الأمر بيانا وهو أن ذكر فريقى الهدى والضلال يتخلل سور القرآن كلها لأن الكتاب كله حديث عن الوحى من آمن به ومن كفر فكأن هذه العناصر الثلاثة الوحى ومن آمنوا به ومن كفروا به هى شاغل سور القرآن كلها وليست سورة الشورى وحدها، وهذا حق لا كلام فيه ولكن توزيع هذه العناصر الثلاثة وطريقة إجرائها ليست واحدة فى كل سور القرآن وإنما حالها كحال القصص وذكر القيامة والجنة والنار وآيات الله الدالة على قيُّوميته سبحانه كل ذلك يجرى فى كل سورة على وجه من التنسيق تضبطه مقاصد السور، ومطالعها، وسياقها المتولد من معانيها ومقاصدها، وهو الصانع البارع لفصولها وكلياتها وجزئياتها وهذه الأحوال فى سورة فصلت غيرها فى سورة الشورى، وهو ما نسعى لبيانه. لأن مراجعة معاقد المعانى من باب تأكيد هيئة المعنى فى السورة وهذه الهيئة خاصة بالسورة ولكل سورة فى هذا الباب شرعة ومنهاج.

قلت هذا طريق فى ضم المعانى التى هى من معدن واحد بعضها إلى بعض ولهذا ذهب هذا الفريق إلى أن هذه الآيات راجعة إلى آية ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ وبعض علمائنا لم يعط هذه المعانى الكلية المتناثرة فى الصورة أهمية حتى يرجع إليها بنظائرها وإنما كان يربط الآية بأقرب الجمل أو الآيات التى هى أشبه بها من المعانى الجزئية التى تتخلل المعانى الكلية وعلى هذا قالوا إن هذه الآيات راجعة إلى قوله تعالى ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ وإن كانت هذه الآية ممتدة من آيات الذين لهم عند الله الخير الأبقى. أو أنها موصولة بقوله فى فاصلة آية ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ وهى قوله ﴿أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ

عذابٌ أليمٌ﴾ ويكفى أن تتواصل الآيــة بأقرب الخيــوط شبهــا بها، وهكذا يتم نسيج السورة فتمسك كل آية بأقرب جملة تشبهها وكل هذا مستقيم.

ومن المســتقــيم أيضًــا أن نراجع الجذر الذى تولدت مــنه المعانى قــبل هذه الآيات والجذر هو ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهو متفرع عن قوله سبــحانه ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾ والمراد الخلق كل الخلق مؤمن وكافر بدليل قــوله سبحانه ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأفــرد الذين آمنوا وميــزهم وأخبــر عن الذى لهم عند الله وأنه خيــر وأبقى، وبقى الذين لم يؤمنوا ولو كــان المراد بقوله «وما أوتيــتم» المؤمنين لكان وجه الكلام أن يقال وما عند الله خيــر وأبقى لهم. ولكن الكلام جاء على ما جاء عليه ليحــدث عن فريق كما قلت وبقى فــريق مقابل له وهو ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ﴾ وهذا الفصل كله حديث عن الظالمين وأحوال الظالمين وعذابهم كما كان الفــصل السابق له عن المؤمنين المتوكلين، وأحوالهــم، وأنهم يجتنبــون الكبائر، ويســتجيــبون لربهم، إلى آخــره وهذا واضح فى أن الجذر الذى هو ﴿فَمَا أُوتِيتُم﴾ تفرع منه فرعان فرع امتد إلى قوله سبحانه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾، ثم بدأ الفرع الثانى بقوله ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ﴾ وانتهى عند قوله سبحانه ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ وردَّ آخر الفصل على أوله وختم بما بدأ به.

وقد عرضت ما قاله المفــسرون وقلت هو جيد ثم رأيت ما رأيت وكل هذا لا يدفع كــلام منه كلامــا، لأنه صواب كله، وذلك لأن الفــصل من فــصول الســورة أو الآية من آياتها تــتشــابك وتتداخل مع آيــات كثــيرة، حــتى ترى مكونات السورة سواء ما كان منها فى صور كلية كالفصول أو فى صور جزئية كالآيات والجــمل ترى كل هذه المكونات متقــاربة متشابــكة متشاربة، وكــأنها رقعة واحدة يلتقى كل خيط منها ببقية الخيوط المكونة لهذه الرقعة.

قوله سبحانه ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

تحدثنا فى الذى تعود إليه هذا الواو وكلمة ﴿مَن﴾ شرطية وهى أصل معنى هذه الجملة لأن مقصودها هو ترتب الجواب الذى هو ﴿فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ﴾ على الشرط الذى هو ﴿يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ وهذا الترتب هو مضمون الجملة واستيعابه يعنى استيعاب الجملة وفى هذه الجملة موضعان للمراجعة الأول المراد بالشرط وهذا المراد موضع خلاف بين المعتزلة وأهل السنة ومنهم الأشاعرة لأن المعتزلة يقولون الإضلال خلق الضلال، وخلق الضلال شر والله سبحانه لا يفعل الشر، وعليه يصرفون كلمة الإضلال إلى الخِذْلان وتخلية المرء لنفسه، قال الزمخشرى فى الآية ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ ومن يَخْذُل الله. وقال ابن المنير تأويل على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يخلق الشر وعند أهل السنة يخلقه كالخير فالإضلال خلق الضلال.

والذى عليه الجماعة أن الخلق خلقه يفعل ما يشاء يهدى من يشاء ويضل من يشاء لا يسأل عما يفعل وخلقكم وما تعملون، ولا يظلم ربك أحدا ونقول فى صلاتنا ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فهو الذى يهدى وما دام هو الذى يهدى فهو أيضًا يضل لأنه خالق كل شىء ومالك كل شىء ولا يعبد إلا من كان كذلك، ولا يسأل عما يفعل. لأن الذى يسأل عما يفعل لا يعبد، وقد دعانا جميعا إليه، ومن أناب إليه هداه ومن استعان به أعانه، ومن طلب رحمته فتح له بابها، وأنا وأنت لا ندرى الذى قدره علينا، فليس الذى قدره علينا قيدا يقيدنا، وإنما نختار بإرادتنا المحضة، ولا يُضيِّع سبحانه عمل عامل هذا يذهب إلى مجالس الصالحين، وهذا يذهب إلى مجالس العابثين هذا جليسه صالح، وهذا جليسه طالح، كل هذا بإرادتنا وبسعينا وباختيارنا لم نعرف أحدا طلب الهدى ولم يهتد، وقد بعث الله أنبياءه لخلقه جميعًا فاهتدى من اهتدى مختارا، وعاند من عاند مختاراً، وكل هذا وهم فى قبضته وقلوب الخلق بين أصبعين من أصابعه والخلق مختارون ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره

ومن يعمل مثقال ذرة شـرا يره، وتمسُّح أهل الضلالة فى أنه سبحانه أضلهم، وقولهم ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] كلام لا قـيمة له، لأنه ليس هناك واحد يعرف أن الله أضله، وأن الله هداه وإنما يمضى المهتدى فى طريقـه، وهو يدعو فى كل صـلاة راجيـا الهدى، لأن الاسـتمـرار على الصراط المـستقـيم يحتـاج إلى حشـد نفس، وضبط همـة، والذين يتبـعون أهواءهم حذرهم ربنا من اتباع الأهواء، وألهم كل نفس فـجورها، وتقواها، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠] لأنه هو الذى اختـار لها التزكـية، وجد فيـها، وهذا اختـار لها الفجـور وانهمك فى الغى، وهذا ما أحب أن ألقى الله عليه، غـير متنطس فيما تنطس فـيه علماء الكلام، هذا شىء مما يدور حول جملة الشرط.

أما جـملة الجواب وهى ﴿فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فلم تقع جـوابا لهذا الشرط فى الكتاب العزيز إلا فى سـذه الآية وإنما جاء جواب هذا الشرط بمثل قوله تعالى ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٨٨] و ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]، ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا﴾ [الكهف: ١٧] إلى آخره.

والمراد بالولى المنفى الولى المرشـد الذى يهدى. والصـالحون وليـهم الله ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وهؤلاء الذين أضلهم الله وليهم الطاغوت وترتـيب نفى الولى المرشد على يضلهم الله يعـنى دوام الضلال وأنه لا هادى له إلا الله، وسيـبقى مستغـرقا فى ضلاله، وهذا نهاية الغـضب، ونهاية الوعيد ولا تجد جملة أملأ بغضب الله كالجملة التى تحدث عن قوم أرحم الراحمين أضلهم أو طبع على قلوبهم، أو جـعل على قلوبهم أكنة وجعـل فى آذانهم وقرا، لأن إسناد هذه الأفعال إلى الله فيه ما لا يحاط به من غضبه سبحانه.

أما لماذا اختصت الشورى وفى هذا الموقع بهـذه الجملة الشرطية التى كان جوابها ﴿فَمَا لَهُ من ولِيٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فجواب هذا صـعب جداً ولا يجوز أن تصرفنا صعوبته عن محـاولة معرفته والذى يبدو لى والله أعلم بمراده أن هذا الجواب ناظر إلى آيتين فى مطالع السورة قـوله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ ثم قوله بعد آيتين ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذه الآية التى معنا تنفى أن يكون الذى اتخـذوه، وليا ومرشدا لهم، وهاديًا لهـم هو كما اتخذوه؛ وطابع الإخبار غالب على الآيتين السابقتين والغضب مكتم فيهما، وطابع الغضب غـالب على هذه الآية، والإخبار مكتم فيـها. ثم إن الآيتين السابقتين جاءتا فى سياق ذكر الوحى، وأنه وحـى من الله الـعزيز الحـكيم، الذى له مـا فى السمـوات، إلى آخره وهؤلاء المذكـورون فى الآيتين راغـوا وتمردوا على الوحى الذى هـذا شأنه، وهذه الآيـة تشيـر إلى أن الذى كـان منهم من اتخـاذ ولى من دون الله إنما كان لأن الـله أضلهم ومن يضلل الله فليس له من ولى بعده، ولهـذا تجد معنى هذا الجملة الشرطيـة مكملا معنى الآيتين السابقتين وملتحما بهـما، وأقول هذا ما عندى، وأقول أيضًا إنه غير كـافٍ ولعل الله يفـتح بابَ جواب هذا السـؤال لمن يرضـاه من أهل العلم، ويرجح هذا المعنى الذى لا أراه كافيا وأنه راد إلى الذين اتخذوا من دون الله أولياء وأنهم اتخذوا من ليس وليا أن هذا المعنى تكرر فى هذا القسم أو هذه الآيات ثلاث مـرات: الأولى فى قـوله ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ﴾ والثانية فى قـوله سبحانه ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ والثالثة فى الفاصلة الخاتمة التى رد فيـها العجز على الصدر وهى قوله جل شأنه ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ وتكرر فيـها الشـرط وفعله، ليتـأكد عودة العجـز على الصدر، وهذا كله يعنى أن من أهم مقـاصد هذه الآيات هو نفى أن يكون غير الله وليا.

وقوله جل شأنه ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ معطوفة على قوله ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ...﴾ وهذا العطف يطوى بين طرفيه أحوالهم فى الدنيا على سعتها وتقلبها وضلالهم فيها كما يطوى حياتهم فى البرزخ وأحوالهم يوم النفخة وأحوالهم فى هول الموقف، وأحوالهم عند الصراط، وعند الحساب، ويقف بهم وهم على عتبة النار، وقد رأوا العذاب وهذه التحولات المتسعة، والانتقالات بين طرفى الدنيا والآخرة حتى إنك لترى الجملة الأولى تصف لك مشهدهم فى الدنيا وهم فى غيهم وضلالهم، وظلمهم، وباطلهم ثم تنتقل بك الجملة الثانية وهى تحملهم معها وتريك مشهدهم وهم على أبواب الجحيم يرون النار بعيونهم، أقول هذا من أبرز السمات البلاغية للكتاب العزيز، والتى لها أثر بالغ فى النفس حين تتوارد عليها هذه المشاهد المختلفة والمتنوعة فى سلاسة عجيبة لا تشعر فيها بنبو. والمخاطب فى قوله ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ﴾ هو كل من يصح منه الخطاب، وكلمة ترى بمادتها وصيغتها كلمة جليلة، لأنها تجعل هذا الغائب البعيد مشاهدا محسوسًا أمامك تراه بعينك، والمراد بالظالمين هنا من يضلل الله، والذين انهمكوا فى أشنع باطل. وأبشع كفر، وهم أكثر أهل الأرض من يوم أن بث الله فيها رجالا كثيرا ونساء، ولذلك تجد المشهد لو تأملته شديد الغزارة متسع الأرجاء، ثم إن كلمة الظالمين مضت منذ آيات وليس المراد بها الكفر وإنما المراد بها من ظلم الناس. وبغى عليهم بل جاءت فى الآيات السابقة وصفا للمعتدى عليه وجازى ولم يَعْفُ ولكنه زاد قيد أنملة عن المثل الذى شرعه الله، وحذر من الزيادة عليه، وكل هذا يعنى أن إطلاق الظلم على الكفر فى هذه الآية تبشيع للظلم ولو كان قيد أنملة، وحسبنا أن نعلم أن ظلم الناس وإن قل بل وإن كان المظلوم ظالما يشارك الكفر الذى هو أقبح الخطايا فى لفظه.

ثم إن هذه الجملة التى قلت إنها معطوفة على ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ وطوت وراءها ما طوت هى أيضًا راجعــة رجوعا جليلا ودقيقــا إلى أختها التى هى ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ والتدقيق فى المعنى يبين أن هذه تقدمت بهم خطوة بعد التى قبلها لأنهم هناك ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ يعنى خائفين من جزاء أعمالهم، ولم يروا النار بعد؛ وهم هنا رأوا العذاب، ثم تراهم فى التى بعــدها تقدمــوا نحــو العذاب خطوة ثانيــة لأنهم هنا رأوا العذاب وفى التى بعدها، يعرضــون على النار، وهكذا تجد حركة الأحداث بهم والآية ترصد أحــوالهم فى كل خطوة، وكلمة ﴿لَمَّا﴾ حينية فيــها معنى الشرط، يعنى لحظة رؤية العــذاب وفيها معنى المفــاجأة وجملة ﴿يَقُولُونَ﴾ بصيغة المضــارع تصور الجلبة والصيحة الصــادرة عن هذا القول، الذى يقوله أكثر مــن فى الأرض فى لحظة واحدة وهى لحظة مفاجــأتهم برؤية العذاب، وهذه الصورة المتسعــة والمليئة بما تراه العين وتسمعه الأذن ترى فــيها عنصرا خفيا ربما مر من غير أن نلتفت إليه وهو الفعل الماضى فى قوله سبحانه ﴿لَمَّا رَأَوُا﴾ وهم لم يروا الــعــذاب بعــد بل هــم على ظهــر الأرض يبـــغــون، ويظلمون، ويعاندون، ويحادون نحن نقول فى وضع الماضى موضع المضارع أن السر هو أن ما هو للوقــوع كالواقع، وهذا جيد جــداً ويكون أجود حين تتأمل أثره فى هذه الصورة وكيف يعمق فى الوجدان الإحساس بأن ذلك قد كان وأنهم رأوا العذاب، وقالوا مــا قالوا ولم يخامرنا شك فى أن هذا واقع لا مــحالة، لأن الاحــتمــال فيــه مُلْغًى وأنه بمثــابة الذى كان والجــملة التى يقولونها وأخبرت الآية عنها بصيغــة المضارع وكأننا نسمعها هى قولهم ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ وقد قــالوا مثل هذا فى صــيغ مختلفــة، وفى مقــامات مخــتلفة، كــقولهم والنار تلفح وجــوههم ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٧] وقد جاء الكلام هنا على طريقة الاســتفهام الدال

على الحيرة واليأس. والمناسب لرؤيتهم للعذاب والمناسب أيضًا للصورة التى بعدها ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ وبناء هذه الجملة بناء شائع فى هذه السورة؛ وقبلها ﴿فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ﴾ وبعدها ﴿فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ والمردّ اسم مكان من رد، والمراد الرجوع إلى الدنيا.

وقوله سبحانه ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ جملة ثانية بدأت بما بدأت به الأولى وهو قوله ﴿تَرَاهُمْ﴾ وهذه الصورة خالصة لما تراه العين وليس فيها ما تسمعه الأذن من كلامهم لأن ما تسمعه الأذن قد انتهى بقولهم ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ ثم إنك تجد كل الكلمات مما يرى بالعين والمراد تعميق هذه الصورة فى الضمير، حتى يرتدع من يريد لنفسه النجاة منها، وأول ما تَسْمَعُهُ كلمة (ترى) والمراد كل من تصح منه الرؤية ومنهم أنا وأنت والفعل ترى واقع عليهم وهم الظالمون المتكبرون فى الأرض والذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ويعرض الله لهم الأدلة القاطعة فيتخذون من دونه وليا إلى آخر ما تستحضر من صور عتوهم وعنادهم ومحادَّتهم للحق المبين. وكلمة ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ كلمة زاخرة بالحركة والإذلال والاختلاط والاضطراب وعليك أن تحسن تأمل صورة هؤلاء الطغاة البغاة المستكبرون وهم يحملون كرها وإذلالا ليعرضوا على النار، ومن أجل مزيد الحركة والحيوية فى الصورة قال ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾، ونحن نقول هذا من باب القلب مثل قولهم عرضت الناقة على الحوض. وعَرَضَهُمَ على السيف وهذا صحيح ولكن هذا القلب أورث العبارة قدرا من الحيوية، وأن هذه النار حية يعرض عليها أعداء الله وهم حين يعرضون عليها يسمعون لها شهيقًا وهى تفور تكاد تميز من الغيظ، وهذا زيادة فى تصوير الموقف الذى تراه العين وزيادة فى الصياح والهول.

وقوله ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾، حال من ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ وقالوا إن يعرضون عليها هى أيضًا جملة حالية وأنا أستحسن هذا؛ لأنه يعنى أن الفعل ﴿تَرَاهُمْ﴾ منصب على هذه الأحوال المثيرة، والمخيفة، وأولها حالهم وهم يعرضون ودلالة المضارع على تصوير المشهد واضحة فى أن المقصود هو تجلية صورتهم فى هذه الحالة وبناء الفعل للمجهول إشارة إلى أن المقصود هو فعل العرض هذا وليس الذى يكون منه العرض. لأن الاعتبار والزجر والوعيد والتهديد كل ذلك ساكن فى الفعل من حيث هو فعل، وليس من حيث فاعله، وقوله ﴿خَاشِعِينَ﴾ حال من الحال وجاء بصيغة الاسم لأنه وصف ثابت لهم، وهذه الكلمة تذكر بما وصفوا به فى الدنيا من التكبر، وأن الكبر الذى فى صدورهم كان أهم ما صرفهم عن اتباع الحق. وهم الآن على عكس الحال التى كانوا عليها يوم كذبوا بالذى هم فيه الآن، وكلمة ﴿مِنَ الذُّلِّ﴾ نص فى بيان هدم كبريائهم، وأنهم صاروا من هذا الكبرياء إلى الذل، وكلمة ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ حال أخرى عدل فيه الكلام من الإسمية فى خاشعين، إلى الفعلية فى ﴿يَنظُرُونَ﴾ لأن صورة النظر من طرف خفى من أحفل صور هذا المشهد، ومن أدقها، والآية الكريمة تصور الملامح الخفية الخاطفة، والطَّرْفُ مصدر طرف كضرب، والمقصود محل الطرف، وهو العين يعنى ينظرون نظر من يسارق الطرف، والنظر بطرف العين وحده فيه دلالة على الخفاء والخوف كما قال الشاعر فى مقام آخر: «أشارت بطرف العين خيفة أهلها» وجاءت الصِّفَةُ ﴿خَفِيٍّ﴾ لتؤكد هذا المعنى وتدل عليه، ولهذا قلت إن الآية الكريمة ترصد وتصف وتكشف دقائق وخفايا أحوالهم، وقد قال الزمخشرى فى تحليل هذه الصورة كلامًا جليلاً ارتضاه علماء التفسير وتناقلوه: قال: أى يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفى بمسارقة كما ترى المصبور ينظر إلى السيف هكذا نظر الناظر إلى المكاره لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها، ويملأ عينيه منها كما يفعل فى نظره إلى المحاب. انتهى كلامه.

والزمخشرى فارس فى تحليل وتذوق وتدقيق ألفاظ اللغة. كما وصفه الخفاجى.
قوله سبحانه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ﴾ انتهى الكلام فى بيان صورة الظالمين عند قوله ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾، وهذه الجملة وحدها هى الصورة المقابلة للظالمين وهى صورة الذين آمنوا وقد قلت إن هذه الآية أخت آية ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وبينت أن الحديث عن الظالمين هنا فيه قدر من التفصيل الذى أجمل هناك وأقول الآن إن الحديث عن المؤمنين هنا فيه قدر من الإجمال الذى فصّل هناك، وذكر الذين آمنوا فى سياق ذكر الظالمين يستحضر بقية الصورة ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وقد كانوا هناك بوعد الله فى روضات الجنات والظالمون مشفقون مما كسبوا والظالمون هنا رأوا العذاب ويعرضون عليه وهذه هى صورة المقابلة المتسعة كل فى مقامه. هؤلاء خاشعون من الذل، وهؤلاء لهم ما يشاؤون عند ربهم، وجملة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا﴾ إلى آخره كأنها تعريف للخاسرين وأنهم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة من غير أن تكون موجهة إلى فريق معين، وإنما هى حقيقة أشبه بأن تكون لغوية. وهذا التعريف يستتبع ما يستتبعه من كل مَنْ ينطبق عليهم وأن هؤلاء الذين يعرضون عليها هم الخاسرون الحقيقيون والجديرون بهذه التسمية.

وخسارتهم لأنفسهم هى كفرهم، وتسمية هذا الكفر خسارة فيه إشارة إلى أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة وهم الذين يتكلمون وقد ربح بيعهم، وفيه إشارة أيضًا إلى أن هؤلاء اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وهذه الإشارات من أهم ما ينتفع به فى معرفة استعمالات القرآن أو معجم القرآن وأن كلمات هذا المعجم يستدعى بعضها بعضًا وهذا

من أخصب المعانى وأرفع صور الدراسة وإن كنا لم ننتفع به لا فى الشعر ولا فى القرآن أعنى أن كلمة الخاسرين تستدعى كل هذا.

وخسارتهم لأهليهم معناه أنهم إن كان آباؤهم صالحين فقد خسروهم لأنهم لو اتبعوهم بإيمان لألحقوا بهم ثم هم قدوة سيئة لأولادهم، لأن أبشع ما يكتسبه الولد من الوالد هو الانحياز للضلال، ومحاربة الحق، ومجافاته، وترك الدليل واتباع الهوى.

وتقييد الخسران بيوم القيامة هو الأظهر لأن الخسران فى يوم الحساب ويوم القسطاس هو الخسران الحقيقى لأنه لا ربح بعده، وإذا كان يوم القيامة ظرفًا للخسران احتمل أن يكون هذا القول صادرًا عن الذين آمنوا فى الدنيا وعليه لا تكون المقابلة بين حالتين واقعتين، وإن كانت المقابلة باقية من جهة القول والبيان وقد ذكر الزمخشرى أن يوم القيامة صالح لأن يكون ظرفًا للخسران وعليه يكون القول غير مقيد بيوم القيامة وصالح لأن يكون ظرفًا للقول وعليه يكون الخسران غير مقيد بيوم القيامة ويرى البعض وهو الأولى أن الظرف متنازع فيه وهو معمول للقول والخسران، يعنى أن القول والخسران معًا فى يوم القيامة وأن الذين آمنوا قالوا ما قالوا وهم فى روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم. والخسران فى يوم القيامة كما قلت خسران لا ربح بعده ولهذا وصف بأنه الخسران المبين والربح كذلك ربح لا خسران بعده وهو الفوز العظيم.

ثم إن الذين آمنوا لم يقولوا إلا هذه الجملة ولم يظهروا فى هذه الصورة إلا ليقولوها وهذا من قوة البيان التى يؤثر بها لأنك ترى صورًا متباعدة حتى إنها لتكون متقابلة ثم تعرض عليك بوضوح شديد وباختصار شديد وكأنك تواجه عروضًا مختصرة تتابع وتظهر وتختفى وتتنوع، كما تلاحظ هنا جاءت صورة الظالمين لما رأوا العذاب وماذا قالوا ثم جاءت صورتهم فى أثرها وهم يعرضون على النار ثم وقف البيان قليلاً ليدلك على عمق ما يجدون من

خزى وذل وهم أهل الفجور والكبرياء فى الأرض وتستطيع كلمتان أن تكشف لك دقائق مذهلة وهاتان الكلمتان هما ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ ثم يذهب هذا المشهد وترى المؤمنين الآمنين يقولون هذه الحكمة العالية البالغة التى لا تزول ولا تحول وهى أن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم فى يوم الفصل الذى ليس بعده إلا الجنة أبدًا أو النار أبدًا، ثم يذهب هؤلاء المؤمنون الآمنون وتخلو الصورة مما تراه العين ويعلو فيها صوت الحق بهذه النهاية البالغة الحسرة والإيلام ﴿أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ وهذه الجملة ليست من كلام الذين آمنوا لأنهم لا يمكلون أن يحكموا هذا الحكم وإنما هذا الحكم لله ولا يكون لغيره، وقد افتتحت الجملة بكلمة ﴿أَلا﴾ التى لا يُؤتى بها إلا فى أول كلام له خطر وله بال ثم أعقبها التوكيد بإن التى هى أم الباب، ثم تكرر لفظ الظالمين ووضع موضع المضمر ليبين سبب العذاب وقد فسره المعتزلة بالكفار والفساق واسشهدوا بالآية على خلود مرتكب الكبيرة فى النار ورُدَّ الدليل بأن الظالمين يراد بهم المشركون لقوله سبحانه ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ولقوله سبحانه بعد هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ وهذا نص فى عُبَّاد الأوثان.

والظرف فى قوله سبحانه ﴿فِي عَذَابٍ﴾ يعنى أنهم غارقون فى العذاب وأن العذاب الذى هو الظرف صار لهم وعاء وهم كائنون فيه، كما تقول هو فى ضلال وهو فى غى، ومعنى مقيم دائم خالد لا ينقطع والأصل أنهم هم المقيمون فى العذاب والصياغة تجعل الإقامة مسندة للعذاب فالمقيم هو العذاب، وفيه من الغضب ما فيه، ومن المفيد أن تضع الظالمين فى عذاب مقيم بجوار ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ للذين آمنوا الذى كان بداية الكلام عن الذى عند الله لهم، والذى هو متفرع عن قوله ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ وهو خطاب لعباده جميعًا وستجد أن الخير الأبقى كما فسره العلماء هو روضات الجنات،

والخلــود فيهــا، وهو مقـــابل مقابلة صريحـــــة للعذاب المقيم، وهذا يرشح ما اخـترناه من أن قـوله ﴿وَمَن يُضْلِلِ﴾ ومـا بعده هو الشق الثـانى للخيـر والأبقى وأن الجذر الجامع لهما هو ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ وأنبه مرة ثانية أن ما أقوله لا ينفى ما يقوله غيرى لأن الـقرآن الكريم حمَّال أوجه، ويتسع لهذا ولأكثر منه، وهذا من أسـرار بلاغته التى لم ندرسهـا بعد، ثم إن قوله ﴿فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ مجـازه مجـاز قوله ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عـمران: ١٠٧] فـالرحمـة مـجاز عن الجنة من إطلاق الحـال وإرادة المحل، وكذلك الـعذاب مجـاز عن جهنم من إطلاق الحـال وإرادة المحل. وكل هذا يقرب المقابلة بين الحالتين حالة الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون الذين هم فى الخير الأبقى وحالة الظالمين الذين هم فى الجحيم الأبقى.

قوله جل شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ هاتان جملتان. الجـملة الأولى من تمام معنى ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ ومعطوفة عليهـا. وإقامة الظالمين الأبدية فى العذاب يتضمـن أنه لاولى لهم ينصـرهم من دون الله، وإنما جىء بهذه الجملة مع أن ما قبلهـا متضمن لمعناها للنص الصريح فى نفى وإبطال مـا اتخذوهم أولياء، وقـد قلت إن هذه الآية من وجـه آخر تمثل خطاً مُـمْـتَداً من قـوله ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ وراجع جملة ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ وضـعهـا بإزاء ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ وأختها تجـد هذه الجملة نقضًا صريحًا لاتخـاذهم أولياء وإبطالاً ظاهرًا لوجود الأولياء من دون اللـه وكلمة ﴿كَانَ﴾ فى قوله تـعالى ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أفادت معنى جليلاً وهو أن ذلك غـير ممكن وهى أخت كان التى فى قوله سبحانه ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧] لأن المعنى ليس نفى أنه يفترى من دون الله إنما المعنى استحالة أن يفترى من دون

الله لأنه معجز والمعـجز لا يكون إلا من الله ولذلك ترى كلمة ﴿كَانَ﴾ فى الآيتين كأنها معـقد المعنى والمعنى هنا ليس نفى وجود الولى وإنما المعنى على استحالة أن يوجد ولى ينصـرهم من عذاب الله لأن الله لا يُغَالب ولا يُنْتَصر منه سبحـانه. وكلمة ﴿يَنصُرُونَهُم﴾ من توابع معناها أن الذين اتخـذوا أولياء من دون الله يحاربونه سبـحانه وينتصرون بآلهتـهم على العزيز القادر وها هم الآن فى العـذاب المقيم ولا يمكن أن يكـون لهم من الله ناصر، ثم إن قـوله ﴿يَنصُرُونَهُم﴾ ومجـيئه وصـفًا للأوليـاء له هنا موقع سـديد، لأن القوم فى محابس الجحيم وفى الهول الذى يهُول منه الهول والفزع الذى يُفزع منه الفزع وهذا أوان النصر، ولكن هيهات.

وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ فاصلة هذا الفصل الذى بدأ بقوله جـل شأنه ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ولو وضعت هذه الآية التى هى رأس الفـصل بإزاء هذه الآية التى هى خـاتمة الفـصل لوجدت الكلام واحـدًا؛ وإن كانت الجـملة الفاصلة وضعت كـلمة مكان كلمة فشقت للجـملة طريقًا آخر أصابت به مقامـها. بيان ذلك أن الجملة التى هى رأس الفصل قالت ﴿فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ وفى هذا معنى أنه ليس هناك أحـد يدفع عن هذا الذى أضَلَّهُ الله، وكان هذا إيمـاءة خفـية بذكر صـورة الجحـيم الذى جُحِـمُوا فـيه، ثم لما تم وضـعهم فى قـمقم الجحـيم بدخول الظرف على كـلمة ﴿عَذَابٍ﴾ ثم أغلقت عليهم أبواب الجحيم بذكر كلمة ﴿مُقِيمٍ﴾ جاءت كلمة ﴿سَبِيلٍ﴾ فى آية الخاتمة مكان كلمـة ﴿وَلِيٍّ﴾ لأن المراد هنا أنه لا سـبـيل له إلى الهـروب وكل الطرق مغلقـة وكل ما يُتَوَهَّم أنه سـبيل للتخـفيف لا وجود له، وبهـذا التغيـير الطفيف اختلف الحال فى الجملة التى فتحت الموقف والجملة التى أغلقت الموقف، وهـذا مـن أدق أسـرار البيان.

قوله سبحانه ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾.

هذه الآية واقعة من التى قبلها موقعًا شديد التمكن وشديد الإصابة ومهما اجتهدت فى أن أشرح لك ذلك كما أجده فإن الأهم هو أن تتبيَّنه أنت بمراجعتك وصبرك وفهمك لأنك حينئذ سترى الكلام وهو ينمو كما ينمو الجسم الحى وهذا شىء فوق المناسبة، والذى أراه هنا أن الحق جل جلاله دعا عباده لأن يُجيبوه إلى دار السلام التى يدعوهم إليها، بعد أن انتزع لهم صورة من صور القيامة، فيها من الهول والجحيم ما تنخلع منه القلوب، وبعد ما عرض لهم صورة المعاندين الذين لم يستجيبوا له، وهم يعرضون على النار خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى. وبعدما أكد أنهم فى جحيم العذاب مقيمون، وبعد هذه المشاهد المفزعة يلتفت الرحمن الرحيم إلى عباده، ويقول لهم أجيبوا دعوتى التى تنجيكم من هذه الأهوال، وأنتم فى فسحة من أمركم، لأن هذا اليوم إذا جاء لا يُرَدّ وليس لكم عنه مهرب.

وليس في النصح لعباده ولا فى الإنذار والإعذار أفضل من هذا.

هذا موقعها، وأول ما يلفت في صياغتها هو الالتفات، والانصراف عن الغيبة إلى الخطاب، والالتفات فى كل موقع من مواقعه وبكل صورة من صوره يشير إلى أن الموضع الذى وقع فيه له مزيد عناية، ويُطْلَبُ فيه فضل تَنَبُّه، ثم إن الانتقال إلى طريقة الخطاب فى سياق دعوته سبحانه لعباده لأن يستجيبوا له؛ له دلالة أخرى، هى رفعهم إلى مقام خطابه جل شأنه واقترابه منهم وأنه صار معهم وهذا أدعى لأن يجيبوه كما أنه سبحانه قال ﴿لِرَبِّكُم﴾ فذكرهم بنعمة إيجاده لهم من العدم ورعايتهم وتربيتهم وأنه أنشأ لهم السمع والأبصار والأفئدة، وأنه ربهم الذى يدعونه إذا مسَّتْهُم البأساء والضراء ضلّ من تدعون إلا أياه. ولو راجعت السورة من أولها وحدَّدْتَ مواضع الالتفات ثم مواضع الخطاب، وراجعت هذه المواضع لوجدت وراءه الكثير من

الأسرار، وزيادة السين والتاء في قوله ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ لتأكيد معنى الإجابة، واللام التي في قوله ﴿لِرَبِّكُم﴾ لتأكيد تعدية الفعل إلى المفعول، لأن الفعل استجاب يتعدى بنفسه كما في قوله الغنوى:

وداعٍ دَعَا يا مَنْ يُجيبُ إلى النَّدى   فلم يَسْتَجِبْه عند ذاك مُجيبُ

قال فلم يستجبه ولم يقل فلم يستجب له والصور التي دعا سبحانه عباده له بعدها صور لا شك فيها عند المؤمنين وأعنى صور الجحيم والعقل يقتضى أن تكون لا شك فيها أيضًا عند المنكرين وذلك لأن البيان عنها بيان مُعْجز، وهم يعلمون أنهم لا يستطيعون أن يقولوا مثل ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ إلى آخره، وكل معنى ذكره الكتاب العزيز معقود عليه دليله، وهو اللغة التي أبانت عنه، لأنها لغة ما يكون لهم ولا لغيرهم من أجيال الأرض أن يأتوا بها؛ وكان من الواجب أن أنبه إلى هذا، وأن ما يسوقه الله من دلائل الوحدانية كخلق السموات والأرض. وخلق الناس إلى آخره مُصَاحب دائمًا بدليل آخر، على الوحدانية هو اللغة التي تحدثت عن الليل والنهار، والأرض الميتة، إلى آخره، ولهذا لا يهلك على الله إلا هالك، لأن من رفض كل هذا لم يرفضه لأن المنطق يقتضى رفضه، وإنما هو الهوى وهذا شيء من معنى قوله تعالى ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ [الأنعام: ٢] لأن دليله محيط بهم من كل جهة.

وقوله جل شأنه ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ فيه رحمة بهم لأنه سبحانه يقول استجيبوا وأنتم في فُسْحة من قبل أن يأتي اليوم الذي لا تقبل فيه الإجابة، وكلمة ﴿مَرَدَّ﴾ تومئ إلى قول الظالمين لما رأوا العذاب ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ وكأن الآية تذكرهم بالأهوال وهي تدعوهم إلى الله.

وكلمة ﴿لاَّ مَرَدَّ لَهُ﴾ هي لا النافية واسمها وخبرها وهي جملة شديدة الاختصار قوية الدلالة وحاسمة في أن هذا اليوم إذا جاء لا يُرد، وهذا من أَفْعَل العقائد في نفوس أهل الإيمان، وقد اختلف في متعلق الجار والمجرور

﴿من الله﴾ والظاهر المتبادر أنه متعلق باسم «لا» الذى هو «مرد» يعنى إذا جاء لا يرده الله. مع أن تعلق الجار والمجرور باسم لا يجعله شبيهًا بالمضاف لأنه يكون قد اتصل به شىء من تمام معناه، والأكثر أن يعرب، وإذا أُعرب نُوّنَ وهذا خلاف ما عليه التلاوة، وذهب البعض إلى أنه متعلق بـ«يأتى» يعنى من قبل أن يأتى من الله يوم لا مرد له، وذكره بعضهم بصيغة التمريض لأنه خلاف المتبادر وكل هذا تحليل دقيق لوجوه المعانى لأن الروابط النحوية لم يخترعها النحاة وإنما هى شىء فى جوهر اللغة وبنيت عليه، وهى من أصول قدراتها، وطرائقها فى الإبانة، ويعوّل عليها فى كشف غوامض الدلالة وتَنْحَيَتُها فى التحليل يعنى تنحية أدق ما فى اللغة من طرائق ووسائل تحمل أغمض المعانى وأنبلها، والإحاطة بها محتاجة إلى صبر وانقطاع وقل من الناس من يطيق ذلك.

وقوله جل شأنه ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾.

لاحظ المعانى. يأتى يوم لا مرد له.. وهم فى هذا اليوم لا ملجأ لهم.. وهم في هذا اليوم لا يستطيعون إنكار ذنوبهم، لأنها تشهد عليهم بها ألسنتهم وجلودهم، ثم راجع دعوة ربنا لعباده ليجيبوه قبل هذا الموقف الذى هو أخطر وأهول المواقف، وتبين إلى أى مدى يكرم عباده، حين يشدِّد عليهم صور الخوف، وهم فى فسحة من الأمر، ليبلغوا الأمن وإلى أى مدى تكون صور التضييق هذه من فسيح رحمته سبحانه، وإلى أى مدى كانت هاتان الجملتان والجملة قبلهما من الكلام الحاث على الاستجابة لدعاء ربنا مع أن أخلاق المرءوة تكفى لإجابة داعيه لأنه ربنا الذى ربّانا، وحفظنا ووقانا، وقوله سبحانه ﴿ما لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ﴾ بناء شائع وقد مَرَّت منه صور كثيرة؛ النفى الداخل على الخبر الجار والمجرور والمبتدأ نكرة، زيدت معه ﴿من﴾ وليس المقصود هنا الاختصاص لأن الاختصاص يعنى ما لكم أنتم خصوصًا ملجأ، وهذا ليس بمراد لأنه لا ملجأ لهم ولا لغيرهم، وإنما لم يقل لا مَلْجأ لكم لأن

المقصــود إبراز العناية بهم وتقــديم ضميــرهم للعناية به وهذا إغــراء بالإجابة وكأنه سبحانه يُشعرهم بمزيد العنايــة بأمرهم، ومثلها الجملة الثانية ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ والنكير الإنكار وهذا التشابه في الحذو والبناء من صُلْب التشابه في المعنى. لأن هذا الموقف لا يُنَجِّي صاحبه فيه إلا الهرب، وإنكار الذنب، وكل ليس له إمكان؛ ثم إنه كان يمكن أن يقال ما لكم من ملجأ يومئذ ولا نكير من غيــر أن يأتي نفي النكير في جملة مــستقلة وإنما جاء الكلام على مــا جاء عليه لتأكيد نفي الأمرين اللذين لا منجــاة لهما في هذا اليوم إلا بهما، وأذكر مرة ثانية بأن هذه الجمل الثلاثة. أغلقت كل طريق للخلاص إلا طريقًا واحدًا وهو أن يستجيبوا له. وليس لأحد على الله بعد ذلك حجة.

ثم إن بناء جملتي ﴿ما لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ يربط هاتين الجملتين بنظائر كثــيرة لهما في السورة حُذَيَ الكلام فيهــما هذا الحذو، مثل: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾.. ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾. ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ ويلاحظ أن تقارب ســمت البناء مؤسس على تقــارب المعاني، وأن تصاقب الألفاظ لــتصاقب المعاني الذي ذكره أبو الفــتح شيء جليل جداً، وأن هذه الجملة التي تشبه أن تكون بنات أب واحد لها جذر معنوي واحد، ثم هي متناثرة في الكتاب كله، وجمعها وتصنيفــها والرجوع إلى جذور معانيها، ودراستها، كــل ذلك له شأن في معرفة أسرار الكتــاب العزيز، وراجع الجملة التي قبل قوله سبحانه ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم﴾ وهي قوله سبحانه ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ وهي آخر الفصل الذي مــضى. والذي بدأ بمثلها وهو قوله سبــحانه ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ﴾؛ وتدبّر أمْره سبــحانه كلَّ عباده أن يجيبــوه، مع أنه أكد أن من يضله منهم فلا هادي له؟ وكيف يُضلّهم ويدعوهم إلى إجابته؟ وإنما قلت ذلك لأذكر بما قلته من أنــه سبحانه دعا عباده جميعًا إليه، ومكنهم جميــعًا من إجابته، وهدى كُلًّ من أناب إليه، وأخذ بيد

كل من مدَّ يَدَه إليه، وأعان كل من استعان، وليس فى عباده من يعلم أن الله أضَلَّه، وأنه سَيَتَمرَّدُ على ربه لأن ربه خذله، لا ليس فى الناس من يعلم ذلك، وقد دعا من اتبع هواه، وحذَره من اتباع الهوى، وفى النهاية لا يقع فى ملكه إلا ما يريده، ولا يهتدى إلا من هداه، ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]» ومن خلاّه لنفسه هلك، وفى الدعاء إن تَدَعْنى لنفسى تُقَرّبنى من الشّر وتبعدنى عن الخير، والذى يهدى من اهتدى هو الذى يُضلُّ من ضَلَّ ولا يُعْبَدُ إلا من كان كذلك. وأعظم آيات الإعجاز فى الكتاب العزيز الآيات التى تحدثنا عن الله وكل كلام الله عن الله يدخل تحت عنوان ليس كمثله شىء هذا والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾: هذا من تمام قوله ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم﴾ وقد رأينا الإيجاز الشديد هناك وكذلك الإيجاز الشديد هنا والكلام ينتهى عند قوله ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ والكلام من قوله ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم﴾ فيه إشارة إلى أن السورة بدأت تتهيأ للنهاية لأن الأمر فى قوله ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم﴾ هو آخر أمر يوجه إلى عباده فى هذه السورة، وهو أمر بأن يستجيبوا للوحى الذى أنزله الله عليهم كما أنزله على الذين من قبلهم، وأول ما يلفت فى جملة ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ هو الالتفات الذى انتقل فيه الكلام من الخطاب الذى رفعهم الله فيه إلى مقام خطابه، والذى فيه غاية الاقتراب منهم؛ إلى طريق الغيبة المشير إلى أنهم لما أعرضوا أعرض الله عنهم، وغيّبهم عن حضرة شرف الخطاب، والثانى مما يلفت فى الآية استعمال كلمة ﴿أَعْرَضُوا﴾، لأن المعرض هنا هو الذى يدير ظهره لما أمره الله به، ولما دعاه إليه، وأنهم لم يتدبروا، ولم يراجعوا، ولو تدبروا وراجعوا لأقبلوا، ولا شك أن هناك من أجاب داعى الله، ولكن الآية سكتت عنهم لأن المهم هم الذين أعرضوا، وعاندوا، ثم إنه جىء بأداة الشرط التى تكون فى الأمر المشكوك فيه، مع أن الإعراض مقطوع به، وذلك للإشارة إلى أنهم لو تدبروا ما أعرضوا،

وخصوصًا إذا تدبروا صورة الظالمين، وما آل إليه حالهم، وأنهم رأوهم فى الآيات ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ وعلموا أن اليوم لا مَرَدَّ له وأنه ما لهم فيه من ملجأ، وما لهم من نكير، كل ذلك يقطع بعدم الإعراض فضلاً عن أن يكون مشكوكا فيه وقوله جل شأنه ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ واقع فى الكلام موقع الجواب وليس جوابًا؛ لأن إرساله عليه السلام وهو ليس حفيظًا أمر متقرر، أعرضوا، أو أقبلوا. والجواب محذوف، وحذفه يمنح القارئ سعة فى التقدير، يوجب عليه أن يراجع السياق، وأن يُعيد التدبر والمراجعة، وأن يقول إن أصل الكلام فإن أعرضوا فلا تأسف عليهم، ولا تَحْزَن أو أن يقول فإن أعرضوا فلا لوم عليك، والفاء التى فى قوله ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ ترتب ما بعدها على الجواب المحذوف، لأن هذا المحذوف مقدَّرٌ والمقدر كالمذكور، وما أنْبل هذه اللغة، وما أنبل طرائقها فى الإبانة، وجملة ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ فيها تكريم لرسول الله، وتذكير بأن الله أرسله، وأنه عليه السلام رسوله إلى خلقه، ومبلغ عن ربه، وليس فوق هذا شىء، وأنك مع هذه المنزلة من الله لست حفيظًا على عباده، لأنه هو وحده الحفيظ لأن الحفظ من مقامات الألوهية وكلمة ﴿حَفِيظٌ﴾ هنا تشير إليها كلمة ﴿حَفِيظٌ﴾ التي فى آيات المطلع، فى قوله جل شأنه ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ وهم هناك الذين أعرضوا، وقد نفى أن يكون عليه السلام وكيلاً هناك، ونفى أن يكون حفيظًا عليهم. وكل هذا من مفردات تكوين الهيأة البيانية للسورة وقوله سبحانه ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ جملة مؤكدة للتى قبلها لأن قصر رسالته على البلاغ تأكيد لنفى أن يكون حفيظًا، ولذلك جاءت من غير عاطف، وجاء القصر بالنفى والاستثناء مع أن المخاطب صلوات الله وسلامه عليه لا ينكر ذلك ولا يجهله، والمقام مقام إنما لأن الجملة التى قبلها مهيئة لها أقول جاء بالنفى والاستثناء لتأكيد هذا المعنى البالغ الأهمية فى عقيدة أهل الإسلام وهو الفرق الحاسم بين مقام الألوهية

ومقام الرسالة، وأن الحفيظ والوكيل هو الله لا غيره لا شريك له فى ذلك، وأن النبوة بلاغ عنه لا غير وهذا له نظائر كثيرة فى الكتاب ولذلك لم يقع فى وهم مسلم عالمًا أو جاهلاً أن رسول الله ﷺ له من الأمر شىء ولم ينحرف أحد من المسلمين كما انحرف أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقالوا عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وبقيت الوحدانية فى هذا الدين العظيم خالصة نقية صافية لله رب العالمين، ثم إن قوله سبحانه ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ راجع إلى رأس السورة رجوعًا ظاهرًا ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ ولهذا قلت إن هذه الآيات فيها إرهاص ظاهر بأن السورة تتجه إلى النهاية، هذا والله أعلم.

شىء آخر أراه فى هذه الآيات وهو أن الله سبحانه وتعالى يقول لمن تحملوا مسؤولية البلاغ فى الأمة -الذين يبلغون رسالات الله- ليس عليكم إلا شىء واحد هو أن تحسنوا وتجودوا بيان ما أنزله الله؛ ثم اتركوا الناس يقبل من يقبل ويعرض من يعرض ولا تحزنوا ولا تأسفوا ولا تظنوا أن مجهودكم ذهب هدرًا حين ترون الناس لا يقبلون لأن الذى وراء البلاغ متروك لله وحده. وهذا معنى جيد.

قوله سبحانه ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾.

هذا من تمام الآية التى مضت وليس آية مستقلة والكلام فيها انتقل انتقالاً واسعًا، كان الحديث فى شأن الناس الذين دعاهم ربهم إلى الإيمان فأعرضوا وهذا حديث فى شأن الناس مع خالقهم، من غير أن تكون لتكاليف النبوات مدخل. فليس فى هذا القسم من الآية حديث عن الوحى.

ويبدو الربط العضوى الذى كنا نراه بين الآيات غائمًا هنا رغم أن هذا ليس آية جديدة، وسبب خفاء الرابط هو أننا ننظر إلى علاقته بالكلام قبله، ونعنى الكلام المذكور ونهمل النظر إلى المحذوف الذى هو جواب الشرط والذى يقدر بمثل فإن أعرضوا فلا تحزن ولا تأسف لأن شأنهم مع خالقهم أعجب من شأنهم

معك، وكل ما كان معك هو الإعراض عن الحق، وإليك صورة من صور تعاملهم مع ربهم، وخلاصتها أن الله يعطيهم من محض فضله فيفرحون، وإذا حوسبوا على ما كسبته أيديهم يئسوا وكفروا، والشرائع تكاليف والتكاليف ثواب وعقاب، وهم ينفرون من ذلك وإنما يحبون العطاء من غير حساب.

ومن هذا الوجه يكون موقع هاتين الجملتين من الجمل الثلاثة السابقة موقع الجزء من الكل. وتكونان مُتَمِّمَتين لمعنى ما قبلهما، وتكونان امتدادا للكلام الذى يظن أنهما منفصلتان عنه حين أغفلنا النظر إلى المحذوف، وشيء آخر فى هاتين الجملتين هو أنهما يصفان الطبع الإنسانى الذى هو فى أشد الحاجة إلى الوحى لأن الحديث هنا عن الإنسان بطبيعته التى لم يتدخل فيها وحى، وأن همَّه أن يأخذ ثم هو لا يشكر من أعطى، ثم يكره أن يحاسب، وأن يعاقب ويُبيح لنفسه أن يُسيء وأن تُصْبَغَ يداه بالخطأ، ويرفض المجازاة، وإذا كان هذا حاله كان الوحى إليه ضرورة وكان الثواب والعقاب ضرورة وكانت الجنة والنار ضرورة وكان وصف النعيم المقيم والعذاب المقيم ضرورة. وإلا كانت حياة الناس بهذه الطباع التى لم تهذبها النبوات ولم يَقْدعها العقاب ويغريها الثواب جحيمًا لا يطاق.

ثم إنك من وجه آخر ترى هذه الآية الدالة على ضرورة النبوات لتهذيب هذه الطباع جاءت فى آخر سورة الشورى ومُمهّدة للآية التى بعدها، والتى تشرح صور كلام الله لخلقه ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا﴾ وكما جاءت فى آخر فصلت التى تعالج شأن الذين قالوا ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥]، جاءت كذلك فى آخر الشورى، وقد تكررت نظائر هذه الآيات كثيراً فى الكتاب العزيز، وهى فى كل موضع تؤكد أنه لا يصلح شأن هذا الإنسان إلا بالوحى.

وأول ما يبدو فى صياغة الجملة الأولى ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ هو التوكيد الدال على شدة العناية بهذا المعنى. وتجليته وإظهاره، وهذا التوكيد مؤكد للجملتين، لأن الجملة الثانية معطوفة على ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ

﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ وهى داخلة فى حيز التـوكيد، ثم وقوع ضمير الـعظمة اسمًا لأن، وفى هذا من إيقاظ السامع وتنبيـهه، ولفته ما فيه، ثم إسناد الإذاقـة إلى ضمير العظمـة ثم تكرار هذا الضمـير مـرة ثالثة فى قـوله ﴿مِنَّا﴾ وهذا التكرار لهذا الضمير الأعظم فيه ما فيه، ثم تجد كلمة ﴿إِذَا﴾ وهى أداة شرط دالة على توقع وقوع الشرط، ثم كلمة «الإذاقة» وهى دالة على فرط الإصابة، ثم التـعبير عن النعمة بالرحمة، للدلالة على أن هذه النعمة من محض عطاء الله، من غير أن يكون لهذا الإنسـان أى حق فيهـا، ثم تجد المعنى المجازى العـالى والمصور فى «إذاقة الرحمة» وهى من الكلمات المثيرة للتخيّل وجواب الشرط الذى فيه ما بينا من إبراز الضمـير الأعظم، وأن النعمة محض عطاء، يـأتى جواب هذا الشرط أيضًا فعـلاً وسلوكًا أنانياً فلم يذكر ولم يشكر وإنما يفـرح والفرح فى مثل هذا السيـاق يشـوبه معنى البطـر والادعـاء وأنهم يفرحون بما عندهم من العلم، أو يقولون ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]، وهو على كل حال ليس من الفرح المحمـود، ولاحظ الجار والمجرور ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ ودلالته على أن تفكيره لم يتجاوز النعمة التى يذوقها إلى مصدرها ومانحها سبحانه.

وقوله سبـحانه ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ هذه الجملة مـن تمام ما قبلهـا وهى الشق الثانـى من معناها والتـدقيق فى فهـم معنى الجملتين يكـشف حقيقة مـهمّة وهى أنّهما فى تقـابلهما يكشفـان جوهر الإنسان ومعـدنه. وأنه لن يعـيش حياة إنسانية إلا بالوحى. وراجـع بناء الجملة، تجد أول ما تجد أداة الشرط ﴿إِن﴾ التى يؤتى بها فى المعنى النادر، وفى هذا إشارة إلى أن بسط العطاء للإنسان الذى صـورته الجملة الأولى يمتد ويتـسع ثم قد يداخل هذه البسطة ضـرب مما يسوءه ويكون هذا من النادر وفى الزمن بعـد الزمن ثم الشرط وهو ﴿تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ وأول ما يلاحظ فيه أنه قـابل الإذاقة التى هى فرط الإصابة والتى جىء بها فى جـانب الرحمة بالإصابة وهى دون الإذاقـة ثم إن الإصابة لم تكن من الله كما كانت إذاقة الرحمة بيده سبحانه وإنما أسندت إلى السيئة ونكرت

السيئة لتشمل أى سيئة وإن قلت وفى هذا تهيئة دقيقة ورفيعة لآية الفاصلة ﴿**فَإِنَّ الإنسانَ كَفُورٌ**﴾ ووجه ذلك أنه كفور بربه مع أن إذاقة الرحمة كانت له بيد مولاه وإصابة السيئة لم تكن له بيد الله، وهذا فرق ثم إنه قال ﴿**بما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ فلم تكتف الآية بتنكير السيئة الدالة على أنها أى سيئة ولو قلت وإنما أشارت إلى أن هذه السيئة القليلة كفاء وجزاء سيئات كثيرة قدمتها أيديهم وكلمة ﴿**قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ فيها معنى كثرة الإساءات ووفرتها وأن أيديهم المُقْتَرِفة لهذه السيئات كان يكون هذا الاقتراف شاغلها وإسناد الفعل إلى الجارحة فيه تأكيد إسناد الفعل إلى صاحب الجارحة كما تقول رأته عينى وسمعته أذنى. وكما يقول سبحانه ﴿**ومن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ**﴾ [البقرة: ٢٨٣] ومنه ﴿**بما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم**﴾ وقوله ﴿**فَإِنَّ الإنسانَ كَفُورٌ**﴾ ليس هو جواب الشرط لأنه غير مترتب على إصابة السيئة، وربما كان ترتبه على إذاقة الرحمة أقرب لأنه يقال كفور فى سياق ذكر النعمة وإن كان هناك وجه لذكرها مع إصابة السيئة، وهو أن ﴿**قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم**﴾ يفيد كثرة السيئات وأن إصابة السيئة لهذا الإنسان قليل من كثير من السيئات التى قدمتها يداه، وأنه لم يحاسب على كل ما قدمته يداه، ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ**﴾ [فاطر: ٤٥] وهذا يوجب الشكر ولكنه كفور وقد يساعد جواب الشرط المذكور فى الجملة قبله على تقديره لأنه هناك أُعطى ففرح، وهو هنا حوسب فابتأس؛ وقلنا: إن كلمة فرح تُطيف بها معان كثيرة منها: العُجْب، ومنها البطر ومنها الكبر، ومنها الخيلاء، وكذلك تُطيف بكلمة الجواب هنا معانى كثيرة: منها الحزن، ومنها اليأس. ومنها الإحباط، ومنها القنوط، وقد جاء مثل هذا فى آيات كثيرة كما فى سورة الروم فى آية هى أقرب آيات الكتاب إلى هذه الآية وهى قوله تعالى ﴿**وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ**﴾ [الروم: ٣٦].

وبعد هذا التحليل تستطيع أن ترى الإنسان من خلال هذه المقابلة وأن طبعه

مفرط فى حـبه وفرحه بأخذ مـا لا يستحق، ويلاحظ أن جانب الرحـمة أكّدت العـبارة فـيه مـعنى العطاء المحض وذلك بتقـديم الجار والمجـرور ﴿مِنَّا﴾ على المفعـول فى قوله سبـحانه ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ ثم هو مفرط فى الأنانية ومفرط فى بغضه لأن يساء إليه مع تورّطه الدائم فى الإساءة فهو مخلوق يرفض الجزاء العادل ويحب أن يَبْغى ولا يُبغى عليه وأن يُسيء ولا يُساء إليه وأن يأخذ ولا يعطى، ومن كان كذلك فـلا تصلح حياته إلا بوحى الذى خلقه، وأن وحى الله إليه قرين خلقه لأن خلقه وتركه سُدًى وعبثًا يخلو من الحكمة والعدل والذين يحاصرون وحى الله ويطاردونه من شرائعـهم يسوقون هذا الإنسان ليس إلى حياة المدنية كما يكذبون وإنما إلى حيـاة الغابة التى يأكل الناس فيها بعضهم بعضا، وربما كانت فى الحيوانات غرائز تنظم حياة الغابة ضربا من التنظيم ولكن الغابة التـى يدخلها الإنسان المنخـلع من وحى الله غابة أكثـر شرا وأكـثر بلاء، وهذا مما يفسر وجـود هذه الآية فى آخر سورة الوحى كمـا قلنا ويفسر مجيـئها عقب دعـوة الله عباده لأن يجيـبوه فيُـقبِلُ منهم من يُقْبل ويعـرض من يعرض وأكرر أن هاتين الجـملتين جزء من آية من أعـرض عن الوحى وأرجو أن يكون الأمر قـد اتضح، وقد لخـصت جملة الفـاصلة أكثـر مما أردت بيانه وهـى قوله سبحانه ﴿فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ لأن كلمة كفور تعنى طمس كل قـيمة من القيم التى لا يكون الناس ناسا إلا بها؛ فـالولع بما ليس له، من الكفران، والهلع من أدنى عقـوبة ومؤاخذه ومجـازاة كل ذلك من الكفران. ضوابط الوحى الحـازمة والحاسمة ضرورة لقمع الأهواء والأثرة والأنانية داخل الإنسان.

قوله جل شأنه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أول ما يقـال فى موقع هذه الآية أنهـا ازدادت قربا من مطلع السورة، لأنهـا ازدادت قربا من خـاتمتها، وهى ملتـئمة التـئامـا ظاهرا بقوله

سبحانه فى أول السورة ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ثم هى هنا فاتحة فتحا ظاهرا لبقية الآيات فى السورة كما سنبين إن شاء الله. ثم إنها من آيات عز الربوبية وهيمنة الألوهيـة، وآيات عز الربوبية تخترق كل موضوعـات السورة؛ وكل موضع لها هو مقـام أمين لأن المقصود الأعلى فى الكتاب العزيز هو ترسـيخ عز الألوهية فى الوجدان الإنسانى لأن غـرس هيبة الألوهية فى هذا الوجـدان أصل كل خير، وشـحوب هذه الهيبـة فى النفوس أصل كل شر فيـها، ولهذا لا نجد غمـوضا فى بيان سر مـوقعها فيـما وقعت فيه، ثم إنها من تمام معنى ما قـبلها، لأن رأس المعنى الجزئى الذى قبلها قوله تعالى ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ والآية التى بعدها متفرعـة منها كما بينا ولو وضعت ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ بإزاء ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ﴾ لوجدت الكلام من الكلام، لأن الذى لا ملجأ منه هو الذى له ملك السموات والأرض. ثم إنك تجد عـز الألوهية الذى هو مـصدر هذه الآية ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ جاريا فى الـكلام السابق، تجده فـى قوله ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ وتجده فى قوله ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ وفى قوله ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ ولو رجعت إلى الوراء قليـلا لوجدته فى ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ وهكذا، ولهذا قلت إن هذه الآيات الصادرة عن حـز الألوهية لها مكان أصيل فى كل شأن من شـئون القرآن، ومن اقتـرانات هذه الآيات فى معجم البـيان القرآنى أنهـا تأتى مع ذكر النعم كـما فى قـوله تعالى ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ كمـا تأتى مع ذكر المشيـئة وهذا كثـير وظاهر وقد جـاءت هنا مقـدمة لذكر النعم المـتعلقة بالمشـيئـة وذلك فى قوله سبحـانه بعدها ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ ثم هى ملتحـمة التحـاما شديدا مع ذكـر المشيـئة الجارى فى آيات السـورة كلها وراجع المشيئة فى السـورة تجدها من أظـهر عناصـرها، ولو نظـرت إلى مجيئها

بعد قوله تعالى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِم حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ لوجدت فيها إشارة رفيعة إلى أن إعراضهم هذا لن يضر الله شيئًا وأنه سبحانه غنى عن العالمين، وقد جاء هذا الاقتران كثيرًا فى القرآن كما فى قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] وفى ضوء هذا الاقتران بين الإعراض عن آيات الله وبين ذكر سلطانه تجد الإشارة الحاسمة إلى التهديد والوعيد، وقد جاء ذلك ظاهرا فى آيات كثيرة كقوله تعالى فى سورة النجم ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وهذه الآية تكررت كثيرا فى الكتاب العزيز مع تغيير محدود كأن تجد مرة ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾ [آل عمران: ١٨٩] ومرة ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ [آل عمران: ١٠٩] ومرة ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ [النحل: ٥٢] إلى آخره ثم تنتهى هذه الآيات بنهايات تختلف وتتفق كأن تجد مرة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومرة ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ وكل هذا مما له اتصال شديد بالسياق وكل هذا لم يدرس الدرس المستقصى له، وجملة ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ تأكيد للجملة قبلها وقد جاءت هذه الجملة مقترنة بالتى قبلها فى سورة المائدة فى قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧] وقد انتهى المعنى فى المائدة بقوله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ لأن الآية رد على الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، ولم ينته المعنى هنا بها، وإنما كانت هنا رأس معنى ما بعدها، وهو قوله سبحانه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ وهذا التفصيل المتفرع من قوله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ لم يرد إلا فى سورة

الشورى وظاهر أنه استداد لقوله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ لأن الذى يخلق ما يشاء يهب ما يشاء لمن يشاء، وأن هؤلاء الذين أنزل فيهم وحيه من زمن نوح وما بعده هم خلقه، وأن وحيه لذكورهم وإناثهم لأن الله سبحانه أوحى إلى النساء كما أوحى إلى الرجال، وإذا كانت السورة من أولها إلى آخرها دائرة حول الوحى ظهر أن هذا التفصيل الذى لم يرد إلا فيها إنما هو من صميم غرضها وهذه الآية غير آيات ﴿وبَثَّ مِنْهُمَا رِجالاً كَثِيرا ونِساءً﴾ [النساء: ١] ونظائرها لأن المقصود منها ليس الخلق والبث والذرأ كما فى الآيات الأخرى، وإنما هو أنه يهب هذا الخلق الأعلى والأفضل الذين هم الذكور والإناث لمن يشاء من عباده، فمعقد المعنى على الهبة المرتبطة بالمشيئة، وهذا المعنى أشبه بأن يعود إلى قوله سبحانه ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ الذى تكرر فى السورة وأعلى صور بسط الرزق هى الهداية لوحيه جل شأنه، وهؤلاء الذين استجابوا والذين أعرضوا هم هبته جل شأنه لآبائهم؛ وما لهم من بنين وحفدة هبة منه لهم، وأن هذه نعمة من أكرم نعمه موصولة لمن استجاب ومن أعرض. وتمام هذه النعمة هى وحيه الذى به صلاحهم وأن الذين استجابوا هم فى الحقيقة نعمة استجابت لنعمة ومن أعرضوا هم فى الحقيقة نعمة أعرضت عن نعمة.

وقوله ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ صيغة المضارع فى هذه الجملة والجمل التى بعدها تفيد أن هذا حدث متجدد فى خلقه ما بقى فى الأرض إناث وذكور، ثم إنه قدم الإناث للإشارة إلى أنه يفعل ما يشاء هو لا ما تشاؤون أنتم، ولما أخر الذكور عرفهم بالألف واللام الدالة على المعروفين المتعالمين عندكم وهذا ما ذكره الزمخشرى وتبعه من بعده، وذكر بعضهم وجوها أخرى منها، أن النعمة فيهن أعظم، فقد ضاعف الله أجر من رزق بهن وأحسن صونهن وتربيتهن، ومنها أنه قدم الإناث لأن من ابتدأ نسله بالأنثى كان أوسع رزقا ممن ابتدأ نسله بالذكر، ومنها أنه قدم الإناث لأنهن اللائى يلدن

ويُرضعن فهن أدخل فى تمام هذه الهبة، وهذا جيد، وقالوا إنها نزلت فى الأنبياء وأن منهم من رزق الإناث فقط كشعيب عليه السلام، ومنهم من رزق الذكور فقط كإبراهيم عليه السلام، ومنهم من رزق الذكور والإناث كسيدنا صلوات الله وسلامه وعليه، ومنهم من لم يولد له كيحيى وعيسى عليهما السلام.

وقوله سبحانه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ فاصلة تقع منها كلمة ﴿عَلِيمٌ﴾ على قوله ﴿ما يشَاءُ﴾ لأن مشيئته سبحانه واقعة على وفق علمه، وتقع منها كلمة قدير على قوله ﴿يَخْلُقُ مَا يشَاءُ﴾ وبعض المعربين أعرب ﴿يَهَبُ لِمَن يشَاءُ إِنَاثًا﴾ وما بعده مما عطف عليه وارتبط به بدل بعض من كل من قوله ﴿يَخْلُقُ مَا يشَاءُ﴾ أو بدل اشتمال وهذا جيد ويعنى أن هذه الجمل الأربع ﴿يَهَبُ﴾ وما بعدها خارجة من قلب جملة ﴿يخْلُقُ مَا يشَاءُ﴾، ثم هى مهيئة لما جاء بعدها من قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا﴾ لأنها بيان لأن البشر خلقه وهبته لمن يشاء وأن البشر ما كان له أن يكلمه ربه إلا وحيا وبذلك تكون آية ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ من تمام الحديث عن الإناث والذكور وهذا ظاهر، ولو لم تأت هذه الآيات لكان مجيء ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ عقب ﴿يخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ مجيئًا قلقا ولكان الكلام مختلفا غير مؤتلف وهذه الجمل الواقعة بدلاً هى التى ألفت المختلف، ورحم الله الباقلانى فقد كان نافذ البصيرة فى طبائع الكلام، لأنه أكثر فى بيان براعة البيان فى تأليف المختلف وعده وجها من وجوه الإعجاز وهذا باب بعيد الغور فى الشعر والقرآن والسنة ولكنه مسكوت عنه.

وقد ذكرت أن جملة ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تقترب من المطلع بقدر ما تقترب من المقطع وجملة ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما بعدها هى المقطع الذى يرد إلى المطلع بصورة ظاهرة، لأن آيات ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ هى من آية

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ ونازلة منها منزل المثال من القاعدة ولو وضعت ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا﴾ بإزاء ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ لوجدتها شرحا ظاهرا لكلمة ﴿يُوحِي﴾ وهذا ظاهر

قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

كان التي في قوله ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ أخت كان التي في قوله ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ﴾ [يونس: ٣٧] والمعنى أن البشر غير مؤهلين لأن يكلموا ربهم إلا بهذه الصور، قال الزمشخري في تفسيرها وما صح لأحد من البشر، ففسر ﴿كَانَ﴾ «بما صح» وقد تناقلت كتب التفسير هذه الكلمة من غير تغيير، وكلمة بشر عائدة إلى الذي قبلها من الإناث والذكور ولهذا كانت مقدمة ضرورية لها كما قلت وقد أوحى الله إلى أم موسى وإلى مريم ابنة عمران وأرسل إليها رسولا، وقال لها ﴿أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩] والجملة مبنية على القصر الذي يحصر كلام الله للبشر في هذه الطرق المذكورة ويوصف الإنسان الذي كلمة الله بواحد منها بأنه كلمه الله، والوحي القذف في القلب من غير حروف مسموعة ولا كلمات ولا تراكيب، ويكون في المنام وفي اليقظة ويكون للأنبياء ولغير الأنبياء وقد يطلق الوحي على ما يقذف في قلوب الملهمين، وقد جاء الوحي بهذا المعنى في كلام عبيد بن الأبرص وهو جاهلي قديم قال:

وأوحى إليَّ الله أن قد تآمروا   بإبل أبي أوْفَى فَقُمْتُ على رِجْلي

ولله در من يقوم على رجل ليدفع الغبن والقهر عن قومه. وتبّاً وهلاكًا لمن يُوالِي عَدُوَّ قومه ويبطش بمن يمد يَدَ المُساعَدَةِ لإخواننا في الدين والعروبة معا وإن كانت أخوة الدين فوق كل أخوة.

والكلام من وراء حجاب يسمع فيه المرء كلام الله سماعا مباشرا من غير أن يرى مصدره، وهو غير الوحي الذي هو قذف في القلب، وقد قال الله

لموسى عليه السلام ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ [طه: ١٣] فدل على أن موسى سمع الكلام من وراء الحجاب، وقوله ﴿لِمَا يُوحَىٰ﴾ يفيد أن هذا يسمى وحيا، وأن الوحى ليس مقصورا على القذف فى القلب، ولهذا ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله سبحانه ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ ليس قسما ثانيا من أقسام كلام الله كما يدل ظاهر الآية، وإنما هو قسم من الوحى. وكذلك ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ ويكون المعنى وما كان لبشر أن يكلمة الله إلا وحيا ومن الوحى أن يكلمة من وراء حجاب أو يرسل رسولا.

وقد أسند الكلام إلى الله تعالى فى آيات كثيرة منها هذه الآية، ومنها ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] قال الرازى: أجمعت الأمة على أن الله سبحانه وتعالى متكلم؛ وقد رأيت فى بعض الكتب ما يخرق هذا الإجماع، وأن فريقا من علمائنا قال لا يلزم من إسناد الكلام إلى الله تعالى أن يوصف بأنه متكلم لأنه لم يرد وصفه سبحانه بهذه الصفة وقد أسند الله سبحانه وتعالى النفخ إلى نفسه وقال فى شأن آدم عليه السلام ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢] ولم يقل أحد إن الله سبحانه يوصف باسم الفاعل المصاغ من هذا الفعل ولا يصح أن يقال إن الله نافخ، ورد هذا بأن صفة المتكلم غير صفة النافخ لأن المتكلم من لوازم العليم الحكيم، الآمر الناهى. وفى المسألة كلام كثير. ثم اختلف فى الكلام المسند إلى الله ما هو؟ هل هو الحروف المقروءة والمكتوبة فى مصاحفنا والمتعبد بها فى محاريبنا؟ قال بذلك فريق منهم الحنابلة وسخر منهم الفخر الرازى واعتذر عنهم الطاهر وقال إنما قالوا بذلك سداً للذرائع لأنهم لو قالوا إن الكلمات الدالة حادثة، كما يقول الأشاعرة لربما التبس على العامة وقالوا إن القرآن مخلوق وحادث.

وقال فريق من علمائنا إن الكلام قسمان دال، ومدلول، الدال هو اللغة والحروف والتراكيب والأصوات التى ننطقها، والمدلول هو معانيها من الأوامر

والنواهى، والدال حادث والمدلول قديم، وهذا هو وجه قول الأشاعرة بالكلام النفسى وفى المسألة كلام كثير أيضًا.

والقرآن العربى الذى أوحاه الله إليه وذكره فى أول السورة كله من باب ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾.

قوله ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ الفاء لترتيب الوحى على الإرسال والله سبحانه يرسل لخلقه رسلا كثيرين لغير الوحى مثل رقيب وعتيد ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] وما فى قوله ﴿مَا يَشَاءُ﴾ موصولة والمراد الشرائع وكلمة ﴿بِإِذْنِهِ﴾ وتقديمها على المفعول تفيد معنى أن الله سبحانه آذن عباده بهذا الوحى، وأعلمهم به وأنه سائلهم عنه وفى هذا حث على الاتباع والانقياد.

وقوله ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ فاصلة واقعة موقعا جليلا لأن كلمة العلى تفيد أنه فى عليائه ما كان لبشر أن يكلمه إلا بما ذكر سبحانه، وتفيد ضرورة الانقياد لوحيه لأنه وحى نازل من علياء الربوبية، وتفيد أنه وحى غالب لا يشاده أحد إلا غلبه، لأنه وحى فيه من علياء مُنْزِله سبحانه ما يرفعه فوق كل من يتحداه ثم فيه رجوع ظاهر إلى آية المطلع: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ وقد جاء هنا بقوله ﴿حَكِيمٌ﴾ بدل قوله هناك ﴿الْعَظِيمَ﴾ لأن العظيم جاء فى مطلع ذكر الوحى، والحكيم جاء فى مقطع ذكر الوحى، ومطلع الوحى تتجلى فيه العظمة، ونهاية الوحى تتجلى فيه الحكمة.

وقوله جل شأنه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾.

هذه الآيات مثال من أمثلة كلام الله للبشر والوحي ليس المراد به هنا القذف في القلب وإنما المراد به ما هو أوسع من ذلك؛ وأكثر ما كان من وحي الله لرسوله صلوات الله وسلامه عليه من إرسال الملك فيوحي بإذنه ما يشاء، ورد هذا العجز إلى الصدر أظهر من أن يشار إليه، وجمله ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ نهاية السورة وهي نهاية شديدة التلاؤم لأن صَيْرُورَة الأمور إلى الله تعني نهايتها فكان المعنى والموقع متلائمين جداً.

وقد ذكر الطاهر أن قوله سبحانه ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ معطوف على قوله ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وأن الإشارة في قوله ﴿وَكَذَلِكَ﴾ راجعة إلى الأحوال الثلاثة المذكورة في قوله ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ ومعنى هذا أن الله سبحانه كلم محمداً صلوات الله وسلامه عليه بهذه الأنواع الثلاثة، أما الوحي بمعنى القذف في القلب فهذا ثابت في أحاديث كثيرة، وأن الله قذف في روعه أنه «لا تموت نفس حتى تستوفي أجلها» وقد رأى في منامه عليه السلام رؤى كثيرة وأما أنه كلمه من وراء حجاب فقد كان ذلك ليلة المعراج، لما خاطبه ربه، وفرض عليه وعلى أمته خمسين صلاة في اليوم والليلة فطلب عليه السلام التخفيف لأمته فكانت خَمساً في العمل وخمسين في الأجر، وأما أنه سبحانه أرسل إليه رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء فالقرآن كله كان بهذا الطريق هذا ملخص كلام الطاهر وهو جيد جداً.

وأضيف إليه بيان الصلة بين هذه الآية وقوله سبحانه ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ويؤكد هذه الصلة اتفاق الآيتين في المطلع؛ «وكذلك أوحينا إليك» وأنه رأس معنى كل آية، وأن الكلام الخارج من هذه الرأس وإن اختلف فإنه مقترب جداً، وقوله سبحانه هنا ﴿رُوحًا﴾ هو قوله هناك ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، وقوله سبحانه هناك ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ليس بعيداً عن قوله هنا ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

وقوله جل شأنه هناك ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ ليس بعيدًا عن قوله هنا ﴿أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ لأن يوم الجمع هو اليوم الذى تصير الأمور فيه إلى الله.

وهذه الآيات من شواهد الباقلانى فى كتاب الإعجاز وكان من أهم ما قاله فيها أن كل جملة منها تامة المعنى ليست فى حاجة إلى ما قبلها ولا إلى ما بعدها فلو قلت ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ لكان المعنى تاما ولو قلت ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾ وحدها أفادت معنى تاما وكذلك لو قلت ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ﴾ وكان الباقلانى يكرر هذه القيمة البلاغية كثيرًا ويرى أن من وجوه الإعجاز هو هذا الاستقلال، وأنك إذا رجعت بالجمل إلى نسقها وجدت تماسكا وترابطا، ووجدت الكلام كله كأنه كلمة واحدة.

ومن أهم ما استخرجه منها أنها مبينة عن ورودها عن الإلهية، يريد بذلك إسناد ﴿أَوْحَيْنَا﴾ إلى ضمير العظمة وكذلك الإضافة فى قوله ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وإنما كان هذا مبينًا عن الأمر الإلهى لأنه لا تساعد نفس صاحبها على أن يقول إنه يوحى روحا من أمره، لأن الوحى بالروح من الأمر ليس من صناعة البشر وليس من المعانى التى ألفت النفس أن تصدر منها، كالحب والبغض والرضا والغضب إلى آخره.

ومن أهم ما استخرجه منها معرفة ما تآلف منها، وما تخالف وكيف ألف شريف النظم بين المختلف، وهذه زوايا جديدة اجتهد الباقلانى فى أن يفسح بها ومنها نوافذ يطل منها على جانب من جوانب أسرار البيان.

ولو سألت وقلت لماذا قال فى أول السورة ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا﴾ وفى آخرها ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا﴾؟ لكان سؤالا صحيحا، وإن كان جوابه ليس واضحا، لأنه لا يكفى فيه أن يقال سمى قرآنا لأنه يُقْرأ وروحا

لأنه تحيا به القلوب، لأن السؤال ليس عن سر التسمية وإنما عن سر الموقع كأن تقول مثلا إنه نزل قرآنا فلما قرئ وعمرت به القلوب وألفته وقاربته وسكن فيها، صار لها روحا، ثم صار لها نورا هداها إلى الصراط المستقيم. وأن هذه مراحل تحولات القرآن فى نفوس أهله أولها القراءة وآخرها النور الهادى إلى الصراط المستقيم وقوله ﴿**مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمانُ**﴾ هذه جملة حالية وهذا الموقع الإعرابى له دلالة بالغة الدقة وهو أن المعنى به يصير أننا أوحينا إليك روحا من أمرنا حالة كونك لا تدرى الكتاب ولا الإيمان، وهذا معناه أن هذه الروح التى أوحيناها إليك حين تبلغها عنا لعبادنا وهم يعلمون أنك لا تدرى ما الكتاب ولا الإيمان يتحققون أنها منا لأن الذى لا يدرى ما الكتاب ولا الإيمان لا يجوز فى عقل ذى عقل أن يأتى بهذه الروح من عند نفسه، وإنما أوثرت هنا كلمة الروح لأنها تعنى تغييرا جوهريا فى الروح الإنسانية، وأن هذه الروح التى هى الوحى تستهدف خلق إنسان جديد فيه الرحمة، والبر، والوفاء، والعدل، والألفة وتكوين جماعة إنسانية متراحمة متآلفة متعاطفة قائمة بالقسط، القوى فيهم ضعيف حتى يؤخذ الحق منه، والضعيف فيهم قوى حتى يؤخذ الحق له، وهكذا تجد هذه الروح صانعة للمجتمع الفاضل الذى يستشرف إلى وجود حكماء الإنسانية ورحمائها فى الزمان والمكان كله، والدعوة إليه هى أحسن القول وصرف الناس عنه هو شر القول الذى يكون من شر البرية. وهذه الجملة الحالية تشير إلى أن هذه الروح الجديدة التى تحملها إلى أهل الأرض مؤسسة على أمرين العلم المشار إليه بالكتاب والإيمان وأن الحياة الأفضل هى الحياة القائمة على هذين الأساسين العلم والإيمان، العلم يحركها دائمًا إلى الأمام والإيمان يحوطها دائمًا من الشرور والآثام. وحين يفسر علماؤنا كلمة الروح بقولهم إن هذا القرآن غذاء للأرواح إنما يختصرون معنى جليلا، وعلينا أن نفصله، وأن نفصل أثر الروح السامية التى هى من أمر ربنا والتى أوحاها ربنا من أجل بناء

الحياة الإنسانية، وهذه الروح هى الشرع وأمر الله ونهيه ونظامه وحكمه وكيف يتغلغل كل ذلك فى حياة الناس ما دق منها وجل.

ويلاحظ فى الجملة نفح من التوكيد تراه فى نفى تدرى ونفى الدراية هنا يعنى نفى أول درجات العلم، بخلاف ما لو قال ما كنت تعلم ما الكتاب لأن العلم حبل ممدود، وقد ينفى العلم مع وجوده ولكنه أقل مما يجب أن يكون، ثم تجد ذلك أيضًا فى تكرار كلمة ﴿ولا الإيمانُ﴾ لتأكيد نفى الإيمان، وقد كان عليه السلام لا يدرى ما الكتاب وهذا لا خلاف فيه، أما الإيمان فقد كان عليه السلام يتعبد قبل أن يبعث فى غار حراء، وما سجد لصنم قط، ولهذا قال العلماء الإيمان المنفى عنه صلوات الله وسلامه عليه هو العلم بتفاصيل الإيمان كما أنزله الله عليه، وهو الجزء السمعى من الإيمان، أما ما يدرك بالعقل وتهدى إليه الفطرة، فقد أدركه صلوات الله وسلامه عليه، وهدته إليه فطرته، وما كان فى مجتمعه من بقايا دين إبراهيم عليه السلام وقد كان الأنبياء جميعًا موحدين قبل مبعثهم، لأنهم جميعًا معصومون من الكبائر وأكبر الكبائر الشرك بالله، قال الزمخشرى: الأنبياء لا يجوز عليهم إذا عقلوا وتمكنوا من النظر والاستدلال أن يخطئهم الإيمان بالله، وتوحيده، ويجب أن يكونوا معصومين من ارتكاب الكبائر، ومن الصغائر التى فيها تنفير قبل المبعث وأن الله سبحانه لم ينزل وحيه على من أشرك به ساعة من نهار.

قوله جل شأنه ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة ﴿ما كُنتَ تَدْرِى﴾ يعنى هى أيضًا حال ومواقع الجمل الحالية فى الكلام العالى فيها من دقائق المعانى ما يروق ويروع، وتأملها هنا لأنها متعلقة بقوله سبحانه ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ والحال أنك لا تدرى يعنى أن الذى عندك وحى محض وإلهى محض، ليس لك فيه شىء، وليس لك من الأمر شىء، وسيبقى إلهيًا محضًا ما بقى على الأرض

ناس. ثم لم تكتف الآية بهذه الحال وإنما أضافت حالا أخرى ليست امتدادا للحديث عن الموحى إليه صلوات الله وسلامه عليه وإنما امتداد للحديث عن الوحى الذى بدأت الإشارة إلى تعظيم أمره، بإسناد الوحى به إلى ضمير العظمة، ثم بتسميته ﴿رُوحًا﴾ هذه التسمية التى لا يدرك كنه دلالتها ثم بقوله ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ كل هذا تعظيم للوحى الذى يحدث الناس به من لا يدرى ما الكتاب ولا الإيمان، ثم أضيف إلى ذلك قوله ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهذه الجملة من عروق الذهب كما كان يصف البحترى، وأول شيء هو هذا الاستدراك لأن الاستدراك يعنى أن ما قبله يفضى أو يوهم أنه يفضى إلى عكس ما بعده كما تقول فلان يتكلم فى الشعر كثيرا ولكنه قلما يقرأ ديوانا كاملا، أو لكنه قلما يحفظ قصيدة كاملة أو لكنه لا يميز بين جيده وزائفه، وهكذا ومعنى هذا أن جملة ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ توهم بأن يكون ما أنزل إليك غير بالغ هذا المبلغ من السمو والعلو والغلبة والقوة والسلطان، هذه واحدة ثم فى كلمة ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ وإسناد جعله نورا إلى ضمير العظمة على مألوف ما مضى من إسناد كل شيء فيه إلى منزله جل شأنه، وفى ذلك أنه ليس لك فيه شيء وإنما البلاغ لا غير، لأن الدين يجب أن يبقى خالصا لله، ومن الله، وإلى الله. ويجب على أهله ألا يضيفوا إليه أى شيء من خارجه وإنما يجتهدون لمزيد فقهه من داخله، وهذا كلام متسع وجليل. ومفهوم من كلمة ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ ثم قوله ﴿نُورًا﴾ بعد قوله ﴿رُوحًا﴾ وكلمة النور تنصب الدلالة منها على ما حولك، وكلمة الروح تنصب الدلالة منها على ما فى داخلك، فهو فى داخل الحياة الإنسانية روح مختلفة عن مألوف حياة الناس. ثم هو سلوك وقوانين ونظام حلال وحرام وتنظيم أحوال مجتمعات كل ذلك هو فى الأرض بمثابة النور الذى يكشف كل غيابة، وكل سحابة يمكن أن تتغشى حياة الناس. فهو عقيدة (روح) وشريعة (نور) ومن نحاه من حيث هو قوانين ونظام حكم يكون قد نحاه من

حيث هو شريعة ونور، ولو سألت وقلت أين النور الذى فى القرآن لا أستطيع أن أجيبك إلا بما فيه من أحكام: عـدل وبر، ورحمة، ووفاء، ونزاهة وشرف ومروءة، وتعاطف، وكل مـا به تكون الحياة أكثـر إضاءة، وهذه أحكامه التى أمرنا الله أن نأخـذ بها، ويقول الفـجرة الظلمة الجهـلة الموالين لعدو ترابنا إن الأخذ بهـا عود إلى حـصور الظلمات، وإذا أردت المزيد من كلـمة النور هذه فـاقرأ فى سـورة اسمـها سـورة النور ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمـوات والأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيها مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥] إلى آخره والنور الذى فى سورة النور هو النور الذى فى آخر سورة الشـورى والذى هو فى هذه الآية وسورة النور كلها أحكام وهى سورة مـدنية وهذا يؤكد أن قوله سـبحانه ﴿جعلْناهُ نُوراً﴾ يعنى شرائع وقوانين وحلالا وحراما وقوله سبحانه ﴿نَّهدِى به من نَّشـاء مِنْ عِبَادِنَا﴾ هذه الجمـلة وصف للنور وأنه ليس كنور الشمس والـقمر، لأن نور الـشمس والقمر يهتدى به البر والفاجر، والمؤمن والكافر، وإنما هذا نور آخر لا يهتدى به إلا من نشاء أن نهـديه به، فهو نور مضنون به على غـير أهله، والله الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وسخر ذلك لكل خلقه هو الذى جعل القرآن نورا لا يهدى به إلا أهل الله وخـاصته جل شأنه، ويا بعـد ما بين النورين، وتأمل كلمة ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ وكلمة ﴿نَّهْدِى﴾ وكيف أسند الفـعل فى كل إلى ضمـير العظمـة ثم كيف كـان الترتيب منطقـيا جداً لأننا مـا دمنا نحن الذين جعلناه فـلا غرابة أن تكون الهداية به فى أيدينا، فلا نهـدى به إلا من نشاء، ثم تأمل كيف يكون كل هذا من شأنه وحده جل شأنه؛ ومـحمد عليه السلام المبلـغ عن ربـه، ومـا خلـق الله وما برأ أفضـل منه مبعد عن كل ذلك، لأن شأن الدين هو شأن الله لا غير، وليس لأحـد فيه إلا البلاغ، ابتداء ممن أُنزل عليه صلـوات الله وسلامه عليـه، ثم تأمل العلاقـة اللطيفة بين كـلمتى نور ونهدى، وكيف كانت النور فاتحـة لكلمة نهدى وأن الهداية لا تكون فى ظلام وتذكر كلمة ﴿وَالَّذِين اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محـمد: ١٧] ﴿وَيَهْدِى إِلَيْهِ من

يُنيبُ﴾ وأن المعنى أن من مـد يده إلى الله طالبا الهدى سـداه الله، وأن اليد التى تمد إلى الله لا تعود صفـرا حتى يضع الله فيها خيـرا تذكر هذا حتى لا يقعد المبطلون عن إجابة ربهم، ويقولون لو شاء الله لهدانا، ثم تأمل كلمة ﴿عبادِنا﴾ وما فيـها من اقتراب من الله لعبـاده، وأنهم جميعًا عـباده وخلقه لهم الرزق، والعافية، والسمع، والبصر، والفؤاد، هم فى كل شىء سواء إلا فى هذا النور فـإنـه لا يهـدى به الذى أنزله وجـعله نـورا إلا من يشـاء هو سبحانه، وتأمل ربط الهداية بمشيـئته هو سبحانه، وأنه ليس للملك، ولا لنبى، ولا لمولى. من ذلك شىء وكـأن قرار الهداية قـرار علوى من اختـصاص من ليس فوقه اختصاص ولله المـثل الأعلى ثم يكون من لـم يصبه هذا التوفيق هو عبد الله، لا تزال له حرمة العبودية لله، يرزقه، ويكفيه ويعصم دمه، وماله، وعرضه، ولا يبيح لأحد شيئًـا منه إلا بحقه، هو وأولياء الله سواء فى حرمة الدم، والمال والعرض. وهذا مما لا ينتهى منه العجب وأشهد أن هذا لا يكون إلا من الله وهذا شىء مما أردته حين قلت إن كـلام الله عن الله فيـه ما يروق ويروع.

وقوله ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِراطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لاحظ مجىء هذه الجمل عقب ما قبـلها وكيف دل ذلك على أنك تهدى بهـدينا، والفعل «تهدى» فى هذه الجملة يغاير الفعل نهـدى فى قوله سبحانه ﴿نَّهْدِى بِهِ من نَّشَاءُ﴾ من وجوه أولهـا أن الفعـل الأول واقع على المفعـول الذى هو الإنســان ﴿من نَّشَاءُ من عِبَادِنا﴾ وتهدى فى الجملة الثانية تعدت إلى الصراط بحرف الجر ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ولم تقع على الإنسان لأن رسـول الله ﷺ لا يهدى أحدا وإنما هو هاد يهدى إلى صراط الله، يعنى يُضىء الطريق، أما الذى يضىء القلوب فهو الله لا غيـر. ومن أجل الإشـارة إلـى تضـمـين الهدايــة مـعنى الـدلالـة أو الإشـارة الدالة على الطريق تعـدًى الفعل بإلى. وفـرق بين من يهـدى بمعنى يقذف الحق فى قلب من يشـاء من عباده ومن يهـدى بمعنى يدل على الطريق ويشير إليه ويبلـغ وينذر وليس إلا، ومن المفيد أن تتأمل العلاقة الحـميمة بين هذه الكلمات الثـلاث النور. . الهداية. . الطريق فالـنور يهدى بمعنى أنه من

الله يقذف فى القلب ومن رسوله يدل، ثم إن هذه الهداية تصل لا محالة إلى الطريق وكأن هذه الكلمات الثلاثة أخوات متحابَّات ومتآزرات كل تسلم إلى أختها، والألفة بين الكلمات تعنى ضربا من الحب بينها فلا تنكر قولى إنها أخوات متحابات، وقد تعلمنا من علمائنا أن الكلمات منها صواحب مؤتلفات ومنها متنافرات ثم هذا البدل الذى هو «صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض» فيه معنى جليل وخفى وهو أن الصراط المستقيم هو صراط الله فإذا توهمت الأمة أن لها طريقًا مستقيمًا يرسم لها اتجاه النهوض من التشريعات المدنية وأخذ أساليب ما يسمى الدولة الحديثة أو الدولة المدنية كما يقال الآن ورأت أن هذا طريقا مستقيما وأبعدت صراط الله فليس هو الذى تهتدى به، لأن المستقيم المضمون الاستقامة هو صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض. وحين تتخذون أى صراط غيره وتفضلونه عليه تكونون قد ضللتم وصرتم ممن أعرضوا الذين سبق ذكرهم ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِم حفيظًا﴾ وليس أقبح من الكفر بعد الإيمان، وهذا لا يدخل فيه كل ما تتحقق به المصلحة للمسلمين ما دام لا يحرم حلالا أو يحل حراما وشرع الله لا يصادم مصالح العباد وحيثما كان العدل فثم شرع الله وحيثما كانت المصلحة فثمَّ شرع الله. وإنما أردت أن أكشف معنى تحت هذا البدل أو البيان وهو أن الأمر قد يلتبس عليكم وتعتقدون أن هذا النظام أو ذاك الذى تُقلِّدون فيه الأُمم غير المسلمة هو الطريق المستقيم وفيه من المفسدة ما يخفى والواجب عليكم أن تعرضوا كل شيء على شرع الله وطريق الله فما وافقه فهو المصلحة وما خالفه فهو المفسدة، وكلمة طريق الله كلمة عامة وإذا فسرناها بشرع الله يعنى ما أنزله من أمر ونهى وجملة النظم التى تمثل الأحكام الفقهية فى أبواب العبادات والمعاملات والجنايات والجهاد إلى آخره كان ذلك أوضح.

وقوله ﴿الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ﴾ مجىء هذه الصلة فى هذا المقام وراءه أسرار أولها أن الشريعة والصراط والمنهاج الذى يدعونا ربنا إليه

يذكرنا ربنا بأنه صراط الذى له ما فى السموات وما فى الأرض يعنى هو جدير بأن يطلب وأن يحرص عليه وأن يُتَمسَّك به وكأن هذه الصلة تقول لنا إن التقليد صار جزءًا من طبائعكم وصرتم تعتقدون أن تقليد الأمم المتقدمة هو الطريق إلى تقدمكم فأخذتم ثقافتهم وطرائقهم وشرائعهم ونسيتم أن ما يدعوكم إليه ربكم هو منهج وطريق الذى له ما فى السموات وما فى الأرض، وأنكم وكل من حولكم ممن تأخذون عنهم واقعون فى قبضته، ثم إن هذه الصلة فيها قدر من التهديد والوعيد وأن من يدع طريق وصراط الذى له ما فى السموات وما فى الأرض لن يفلت من عقابه، ثم إن هذه الصلة تقرب هذا المعنى من قوله ﴿**أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ**﴾ وهو معنى مختلف عن الذى قبله كما قال الباقلانى وهذه الصلة فيما نرى هى شريف النظم الذى جعل المختلف مؤتلفا، وذلك لأن الذى له ما فى السموات وما فى الأرض لا تصير الأمور إلى غيره، ثم إن هذه الجملة الخاتمة تعد فاصلة السورة كلها، وقد افتتحت بأداة الاستفتاح الدالة على مزيد العناية بالمعنى الذى دخلت عليه ثم قدم المتعلق الجار والمجرور ﴿**إِلَى اللَّهِ**﴾ لأنه هو أصل الفائدة، ثم جيء بمادة الصيرورة، وفعلها المضارع، وكأنك ترى الأمور فى حركة صيرورتها إلى الله، وكلمة «**الأمور**» كلمة شاملة لكل ما يسمى أمرا، يعنى يصير إليه صلاح من أصلح وفساد من أفسد، وإيمان من آمن، وإعراض من أعرض. وعدل من عدل وظلم من ظلم، يصير إليه الظالم والمظلوم، والمعتدى والمعتدى عليه، ويصير إليه من خاف ومن أَمِنَ ومن حفظ ومن وفى ومن غدر ومن خان لا تجد شيئًا إلا وهو يصير إليه، يصير إليه الأنبياء برسالاتهم ومن آمن بهم، ومن كفر، إلى آخر ما لا يحصى مما تستقصيه هذه الكلمة ولهذا قلت هى فاصلة السورة كلها، من أول ﴿**كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ**﴾ إلى هذه الجملة بما فى ذلك السموات ومن فوقهن، والملائكة المسبحون بحمد ربهم، ومن فى الأرض كلهم جميعًا، الكل يصير إليه هذا والله أعلم.

سورة الزخرف

هى السورة الرابعة من آل حم فى ترتيب النزول وترتيب المصحف ولم أعرف لها اسمًا آخر، وقد ذكر الشيخ الطاهر وجه تسميتها بالزخرف وأن ذلك راجع إلى أن كلمة «وزخرفًا» وقعت فيها ولم تقع فى غيرها من سور القرآن فعرّفوها بهذه الكلمة.

وجلّ من لا يسهو فقد وقعت هذه الكلمة فى ثلاث سور من القرآن غير هذه السورة وشرحها الشيخ الطاهر فى كل موقع من مواقعها فى تفسيره الذى لم يكتب أفضل منه بعد ما كتب أئمتنا رضى الله عنهم وألحقه وألحقنا بهم.

جاءت كلمة زخرف فى الأنعام فى وصف أقوال الزور الدائرة بين أعداء الله والتى تشبه ثقافة المبطلين المحادّين لدين الله فى زماننا والتى يؤجرون عليها من بيت ما لنا الذى اغتصبه شياطيننا الكبار وأغدقوا منه على من يزرعون الشر والباطل والاجتراء على دين الله قال سبحانه يصف ما كان وما هو كائن: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] وقال فى سورة الإسراء فى مقام قريب جداً من مقامها فى الزخرف: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣]

وجاءت فى سورة يونس فى وصف زينة الأرض فى أطول آية ضربها الله للحياة الدنيا قال سبحانه ﴿مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ

فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسِ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَت ﴾ [يونس: ٢٤].

ومن المفيد أن نرجئ القول في بيان وجه التسمية حتى نفرغ من معرفة أصول معانيها، وفروع هذه الأصول لأن وجه التسمية قد يكون السبيل إليه هو تعلّقهُ بأصل من هذه الأصول، وذكر بعض علمائنا أن اسم السورة بمثابة عنوان لموضوعها؛ وأنه نابع أو مغروس في جذرها ومعناها الأم، وبيان هذا فيه خفاء ودقة ويتطلب وضع معانى السورة بكل دقائقها بين أيدينا حتى نقع على أهمية المعنى الذى غُرس فيه هذا العَلَم الذى صار عنوان السورة.

وأول ما يظهر من علاقة هذه السورة بالسورة التى قبلها هو أن الشورى ختمت ببيان الوحى وهذه بدأت به قال تعالى فى آخر الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وبدأت الزخرف بقوله تعالى ﴿حم ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

وجهة الحديث عن القرآن فى آيات مقطع الشورى ومطلع الزخرف مختلفة فالشورى تقول القرآن روح وهدى ونور، وأن هذا الهدى وهذا النور لا تراه إلا العيون التى أراد الله لها أن تراه، لأن الله يهدى به من يشاء من عباده، وهذا وجه من وجوه عز الربوبية الذى تجلّى قبل ذلك بقليل فى قوله جل شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]. ثم يجىء ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وهو كلام ممسك بقوله ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ على الوجه الذى تراه ولو وقفت وتدبرت لرأيت وراء ذلك ما وراءه، ثم تأتى الزخرف لتبين لنا الأصل الذى كان منه هذا الهدى والنور وهو أم الكتاب الذى هو

اللوح المحفوظ، أو عِلْمُ الـله المكنون، وأن هذا الكتابَ عَلىٌّ حكيم، وأن الله جعله عـربيّاً، وأنه باعث على التـعقُّل والتفكُّر ومـثير لطاقـات النفس. حتى تنفُض بفكرها ووعيـها ويقظتهـا عنها كل ما يناقض سـداد الفكر ودقة المنطق ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْـقِلُونَ﴾ ولو قلت إن الســورة كلهـا خـارجـة من تحت ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لم تكن قد أخطأت وسوف يتضح ذلك.

وهذه العلاقة بين رأس الزخرف وآخـر الشورى ظاهرة، والذى يحتاج إلى فضل بيان هو علاقة موضـوع سورة الزخرف بموضوع سورة الشورى، وهذا لا يظهـر إلا بعد تحـديد مـوضوع الزخـرف، والمعنى الأم الذى دارت حـوله السورة، وهذا صَعْب جداً لمن يرومه على وجهه، وقـد رأيته صَعْبًا فى الشعر العالى. ومـرجع الصعوبة إلى غزارة المعـانى وتنوعها، ووفرة عطائهـا، وأنها تَتَرامى فى جـهات شتَّى وبعيـدة، وقد يُغريك معنى من هذه المعـانى الغزيرة المتدافقة فـتذهب إلى أنه هو الأصل. والأم، ويُغرى غيرك غـيرُه فيذهب إلى غير ما تذهب إليه، وقد رأيت هذا الاختلاف فى كلام العلماء ولم أستطع أن أرجح وجـهًا على وجـه،هذا في كلام من دقّـقُـوا وراجَعُـوا وحللّوا وتأمَّلُوا واستخلصوا وهناك من تسامح فى هذا الباب وذكر رؤوس موضوعات السورة وأنها هى أصلها وليس مثل هذا مما نَقْصِدُ إليه.

وقد ذكرت هذا لأننى أرى وجهين يصح كل منهما أن يكون هو المعنى الأم أو الجذر الذى تفرعت منه كل فروع ومعانى السورة.

الأول هو أن المعنى الأم فى هذه الـسورة هو تـعديد وجـوه الكفـر، وبيـان مذاهب القول فيه، وما أسسوا عليه باطلهم الذى خاصموا به القرآن، فقد كفروا بجعلهم لله من عـباده جزءاً وهذا مناقض للمنطق المدلول عليـه بقوله ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وذلك لأن الجزئية تستلزم الموافقة فى الماهية، كما قال علماؤنا، وإذا كان هذا الجزء مخلوقًا لماهيةٍ مخلوقة كان -لا محالة- منافيًا للألوهيّة.

كما أنهم كفروا لما جعلوا هذا الجزء إناثًا مع أنهم إذا بُشِّر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسودًا، وهذا عبث يناقض ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

كما أنهم كفروا لما جعلوا الملائكة إناثًا ولم يشهدوا خلقهم، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم.

وكفروا لما قالوا ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾، وكفروا لما قالوا ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾.

ولا نجد هذه الوجوه من الكفر مجتمعة ومتتابعة فى سورة من سور القرآن كما تجدها مجتمعة ومتتابعة فى هذه السورة.

وأهم ما يلاحظ أن هذه الأنواع من الكفر ليست شائعة عند كل العرب لأن قومًا من العرب هم الذين عبدوا الملائكة وليس كل العرب، ويلاحظ أيضًا أن الأصنام غابت عن الزخرف لشهرتها وشيوعها، وكأنها كانت تجمع لنا غير المشهور وغير المتعارف.

وقد بدأ عرض هذه الألوان من الكفر بإقرارهم بحقيقة تنقض هذا كلَّه وهى قوله سبحانه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾، وانطلق الكلام من هذه المسلَّمة الصحيحة والتى اعترفوا بها إلى بيان ماساكنها فى عقولهم مما يتعارض معها، وينقضها، وتنقضه، وقد عاشوا متصالحين مع هذا التناقض ولهذا بدأت السورة بقوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، لأن العلاج الوحيد لهذه المسالمة للمتناقضات فى عقولهم هو التعقُّل وتجديد التعقّل وتجديد التدبّر، والمراجعة.

وكان من أشنع ما رواه القرآن عنهم أنهم لما قالوا: ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ قال لهم رسول الله ﷺ: ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا

بما أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾. وهكذا انحازوا إلى الضلال وتركوا الأهدى وأعلنوا ذلك واستمسكوا به.

وكان آخر ما رَدُّوا به الحق فى السورة قولهم. ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

وهى آخر كفرهم وهى غير كل الذى مضى، لأنها ليست موروثة، وليست من باب ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾، ولا من الذى بعده، وإنما هى من مُبتكراتهم، وهذه الكلمة هى التى أبطلتها السورة، وجاء فى إبطالها كلمة «وزخرفًا» فكان وراء هذه الكلمة كل هذه العائلة الشيطانية من وجوه الكفر، ولعل هذا هو وجه التسمية.

قلت: إن جذر معانى السورة التى تفرعت عنه كل معانيها الجزئية هو تعداد أنواع الكفر، وما جاء من قصة إبراهيم عليه السلام لبيان فساد قولهم. ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾، وذلك لأن الذى ذكر من قصة إبراهيم وهو جَدُّهم الذى يعتزون بنسبتهم إليه هو قوله لآبائه: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ وهذا نقض لقولهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾.

والذى ذكر من قصة موسى عليه السلام كان لبيان فساد قولهم ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، ولذلك اختير منها ما ينقض هذا وهو قول فرعون ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ كما اختير منها قوله أيضًا ﴿فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ ثم كان من أمر فرعون الذى قال فى سالف الدهر عن موسى عليه السلام مثل ما قالوه عن محمد ﷺ ما كان. وانتهت الآيات بقوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وكل الذى جاء بعد ذلك فى السورة إنما هو تفريع وتعقيب على الذى قَدمتهُ، وإذا صح ذلك يكون مطلع السورة الذى هو ذكر للكتاب، وأنه عند الله على حكيم، توطئة لبيان إسرافهم فى الرفض. والعناد، والانحياز إلى

أباطيل تشبَّثوا بها، ولذلك سارعت السورة بالانتقال من ذكر علو شأن الكتاب العزيز إلى بيان ما هم عليه بذكر هذه الجملة الحاسمة والتى هى الجذر الجامع لكل المعانى المفصلة فى السورة وهى قوله سبحانه ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ ولو قلت إن سورة الزخرف ليست إلا شرحًا لكلمة ﴿مُّسْرِفِينَ﴾ لم تكن مخطئًا، كما لو قلت إنها خارجة من تحت ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لم تكن مخطئًا لأن المسرفين لو عقلوا ما أسرفوا. هذا والله أعلم.

الوجه الثانى لبيان جذر السورة هو الآيات الأولى منها التى ذكرت الكتاب على وجه كان امتدادًا لسورة الشورى، ثم قطعت الكلام والتفتت إلى المسرفين فى رفضهم وعنادهم، وإذا كانت هذه الآيات هى الجذر والرأس كانت وجوه الكفر التى بنى عليها أكثر ما فى السورة شرحًا لهذا الجذر، وتفصيلاً لكلمة ﴿مُّسْرِفِينَ﴾ وقد وقعت كلمة «مسرفين» فى مفصل من مفاصل معانى السورة سبقها حديث عن الكتاب وأنه عند الله بمكان وأنه فى أم الكتاب وأنه علىٌّ وأنه حكيم وأنه لا يُعرض عن كتاب هذا شأنه إلا مسرف، ثم تدرج الكلام إلى ما تدرج إليه. وهذا الوجه ليس بعيدًا عن الوجه الأول، وبعد معرفة الغرض الذى دارت السورة حوله يسهل معرفة وجه مجيئها بعد الشورى.

ذكرت فى تحديد المعنى الأم فى الشورى أنها دارت حول بيان أن ما يوحيه الله إليك هو مما أوحاه الله إلى النبيين من قبلك صلوات الله عليك وعليهم جميعًا. وقد دارت السورة حول ذلك وأكدته فى آيات كثيرة من مثل قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣] وقوله سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. وقوله سبحانه ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الشورى. ٢٤]، وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

﴿وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧] ثم امتد الكلام وتفرع إلى ما امتد إليه وما تفرع إليه ثم التقت كل جهاته وفروعه عند قوله جل شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى. ٥١] ثم ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. وإذا كانت سورة الشورى تدور حول ما أوحاه الله إليه وأنه من وحيه لكل أنبيائه قبله عليه السلام فإن سورة الزخرف تؤسس على هذا الأصل أصلاً آخر هو ما دارت عليه وهو بيان وجوه الكفر التى صرفت عن وحى هذه عراقته وهذا أصله.

وإذا قلت إن هذا هو وجه الاقتران بين السورتين فأنا أدلُّ على ما فى السطح، لأن الذى وراء ذلك هو أن الزخرف امتداد للشورى ولو حذفت البسملة، وتناسيت أنها سورة جديدة لرأيت الكلام يجرى من الشورى إلى الزخرف كما تجرى أجزاء من الشورى إلى أجزاء منها، يعنى لوجدت صلة الشورى بالزخرف كصلة ﴿شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ بقوله سبحانه ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾.

وهناك معنى آخر جامع بين السورتين ربما رأيته بعيداً وإن كنت أراه قريبًا وهو أن الشورى تؤكد عراقة الوحى بربطه بما أوحاه الله إلى أنبيائه عليهم السلام من زمن نوح وأن سورة الزخرف تؤكد عراقة الإسراف والإعراض عن الوحى وذلك بتشبثهم بما وجدوا عليه آباءهم ولو جاءهم عليه السلام بأهدى منه، وهذا التشبث عريق فى الأمم، قاله المترفون لكل المنذرين عليهم السلام.

هذا هو الرابط بين موضوع السورتين على الوجه الأول الذى ذكرناه فى الزخرف.

أما القول فى هذا على الوجه الثانى وهو أن موضوع الزخرف الآيات الأولى التى تتحدَّث عن جلال الكتاب وعُلُوِّه وأنه سبحانه جعله عربياً لإيقاظ التعقل والتفكير واستنفار كل طاقات التدبُّر عند من يحسن تلقِّيه فالاقتران بين

السـورتين ظاهر من حيث الاشـتراك في الموضـوع وهو الوحى. ثم تدرّجت الشـورى في بيـان تأصيله ودارت حـول ذلك، وتدرجت الزخـرف في بيـان خذلان الذين أسرفوا في الإعراض عنه ووسّعت الكلام في ذلك، وهذا يعني أن السورتين ابتدأتا من نقطة واحدة ثم تسلسلت كل سورة وسلكت وجهًا من وجوه معاني هذه النقطة، هذه تربطها بالرسل من قبلها، وهذه تشرح مواقف المبطلين منهـا، ولأجل هذا المعنى جـاءت آية ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الأَوَّلِينَ ﴾ وكـانت هذه الآية مفـصلاً ومـعبـرًا في وقت واحد بين ذكـر الكتاب المبين وذكر قصة القوم الذين أسرفوا.

واعلم أنني على يقـين من أن الذى أقوله ليس هو كل مـا في الباب وإنما هو كل الذى عندى في هذا الباب وقد ترى غير ما أرى والمطلوب أن نجتهد وأن نبرئ الذمة بطول الـنظر وطول المراجعة وأن يقـول كل منا ما ليس شـافيًـا وعسى أن يتكون مما ليس شافيًا مـا يكون شافيًا، واعلم أني قرأت كلامًا كثـيرًا في موضوع السور وحاولت أن أتجاوز أكثره لأضيف ما عندى وأعلم أنه قليل وقريب.

وإذا كانت سورة غافر هي أم آل حم فـإنها دارت حول الذين يجادلون في آيات الله ثم جاء فـصلت وأضاءت بعض التـفاصيل حـول هذه المجادلة وأن خلاصتها قولهم ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت: ٥] ثم دارت فصّلت عـلى ذلك ثم جاءت الشورى لتبين عراقة ما يدعـوهم إليه الذى جعلوا قلوبهم في أكنة منه، وأنه هو رسالة الله إلى خلقه التى أرسل بهـا كل رسله ثم جاءت الزخرف فشـرحت أسباب المجادلة، والدواعى التى دعت إليها وإلى الإفراط والإسراف في الصّدّ والدفع لها، وكأنها تعود إلى عائلة آل حم بتنوعات من المعـانى فتعود إلى غافر ببيان أسبـاب المجادلة، وتعـود إلى فصلـت بالذى عادت به إلى غـافر لأن غـافرًا

وفصلت تتفقان فى حديث المجادلة بالباطل وغافر أجملت، وفُصِّلَتْ فَصَّلَتْ، والشورى أصَّلت والزخرف عَلَّلَت هذا والله أعلم. وكل هذا ستبينه وتحققه الدراسة المدققة لبيان السورة لأن الدراسة المتأنية لأسرار البيان تكشف أغطية كثيرة عن وجوه معانٍ خفية يستقيم بجلائها كثير من المعانى الأصلية فى علاقات السور بعضها ببعض. وأبدأ فى هذا وعلى الله التكلان.

﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

بدأت هذه الآيات بأكرم ما حدثنا به ربنا فى شأن الكتاب العزيز الذى أكرمنا بنزوله علينا. وأول التعظيم لهذا الكتاب هو القسم الذى بدأت به السورة وتوَحَّد فيه المقسم به والمقسم عليه لأن المقسم به هو الكتاب والمقسم عليه ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، يعنى الكتاب، والقسم بالكتاب تعظيم له وتنويه بشأنه. وكلمة الكتاب لها دلالة تدل عليها هيأتها؛ ودلالة تدل عليها مادتها، أما دلالة الهيئة ففى دلالة التعريف الدال على الكمال فى معنى الكتاب وأنه موصوف بكل الكمالات التى يوصف بها الكتاب وأن هذا المعنى يتمثل فيه فى أعلى صوره وأحواله، وأن لفظ الكتاب إذا أطلق لا ينصرف إلا إليه، وأما دلالة المادة فهو أن هذه الأمة تصونه بالكتابة حتى لا يدخل فيه تغيير وحتى يكون بهذه الكتابة قريبًا منها تتلوه وتتدبره ويكون فى أيدى صغارها وكبارها يتلونه فى مساجدهم وبيوتهم ودروسهم ومعاهدهم إلى آخر ما ترى الكتاب عليه يتخلَّلُ كل شىء فى حياة الأمة.

ووصف الكتاب بأنه مبين يعنى الإبانة عن كل شيء كان الكتاب له؛ وأول شيء أنه آية الله البينة وأن آية الله فيه متمثلة في إعجازه في لفظه، ومعناه، وفي أمره، ونهيه، وحلاله، وحرامه، وثوابه، وعقابه، وآياته البينات المدلول عليها في كتابه، وهذا الوصف للكتاب بالإبانة يستدعي هذا الوصف في الإنسان الذي أنزل الله الكتاب له وقد ذكر سبحانه أنه يوم خلق الإنسان علمه البيان يعنى أعده لتلقى كتبه وسماع أنبيائه والأخذ عنهم.

والمقسم عليه قوله سبحانه ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ فإن قلت إن جعل الكتاب قرآنا عربيا أمر ظاهر لا ينازع فيه منازع وكل من يسمعه يعلم أنه عربى فلماذا حدَّث الحق عن هذا وأخبر به وهو معلوم علم ضرورة فضلا عن أن يقسم عليه؟ قلت إنما أخبر بذلك وأقسم عليه لِيُنَبِّه إلى أن عربية القرآن عند الله بمكان وأن لهذه العربية عند الله شأنا أى شأن ودلالة القسم على عربية القرآن ظاهرة فى بيان شأن هذه العربية حتى إنه لا يجوز لمن يتلقى عن الله أن يجادل فى ذلك ولا أن يمارى فيه، وقد قالوا إنها لسان أهل الجنة وإنها لسان الله عز وجل يوم القيامة وفَضْلُها على غيرها من اللغات كلام مستفيض فى تراثنا ومروى عن علمائنا العرب وغير العرب وممن يعرفون لغات أقوامهم وممن طرحوا هذه اللغات وعنوا بالعربية وحدها.

وقد ذكرت آيات كثيرة عربية القرآن، وتفردت هذه الآيات بالقسم على أن الله جعله عربيا، ثم إن هذا القسم جاء على صورة غير شائعة فى القسم وهى أن الله أقسم بالكتاب على عربية الكتاب، وهذا يعنى أن المقسم به والمقسم عليه واحد، قالوا ولهذا دلالة على تعظيم المقسم عليه، وذكروا من شواهده قول أبى تمام (وثناياك إنها إغريض) فأقسم بثناياها على أنها إغريض؛ والإغريض الطلع الأبيض الدقيق الطرى الرطب، وكأن الشاعر لم يجد ما يناسب المقسم عليه ليقسم به، إلا المقسم عليه، وفى هذا إعلاء لشأن المقسم عليه كما تقول لعمر فلان إن فلانا من أكرم الرجال، وقريب منه أن

تســـشفع بنعم الله لطلب المزيد منهـا وأن تتعلق برحمتـه ليرحمك، وبســتره ليسترك، وكل هذا فـيه تعظيم للنعمة التى تَسْتَشْفِعُ بهـا، وتعظيم للنعمة التى تطلبها وتعظيم للمـغفرة التى تتعلق بها وتعظيم للمغـفرة التى ترجوها، وكل هذا يرجع إلى توكـيـد شأن عـروبة القـرآن وأن هذه العـروبة عند الله بمكان وكلمة ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ تفيـد أن القرآن مـجعول والمجـعول مخلوق ولـهذا تعلق القائلون بخلق القرآن بهذه الآية، والوجـه أنه لا خلاف فى أن اللغة بألفاظها وتراكيـبها مـخلوقة وأن هذه الأصوات التى نتلوها فى القـرآن ونسمعـها من القرآن مخلوقة، والقديم هو المعانى أو ما سماه الأشاعرة الكلام النفسى. ولم يخالف فى هذا إلا بعض الحنابلة الذين ذهبوا إلى أن كل ذلك قديم.

وقوله سبحانه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كلمة لعل معناها الترجى. والترجى توقع حدوث المحبوب والله سبحانه وتعالى ليس كمثله شىء، ولهذا ذهب بعضهم إلى أن لعل هنا بمعنى اللام أى جعلناه قـرآنا عربياً لتعقلوا أو أن الله سـبحانه خاطب عباده بما يتخاطبون به؛ وفعل تعقلون فعل متعد نزل منزلة اللازم لأن المقصـود أن يكون منكم التعقل والتـفكر والتدبر من غيـر نظر إلى ما يكون التعقل أو التدبر أو التفكر فيـه. وهذا يعنى إيقاظ العقل وكأن القرآن دعا إلى ثورة فكرية تزلزل ثوابت وترسخ حقائق، وقد كان ذلك. ويلاحظ أن فُصِّلَتْ ابتدأت بآيه ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ والزخرف ابتـدأت بآية ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فلماذا جاء تعلمـون فى فصلت وتعقلون فى الزخـرف؟ والوجه والله أعلم أن جـملة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ فى فصـلت جاءت رأس الحديث فى قـوم يقولون ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] فـأشارت كلمة يعـلمون إلى أنهم لو أخرجوا قلوبهم من أكنتـها وأزاحوا وقر آذانهم، ورفعـوا الحجاب الذى بينهم وبين مـا جاءهم به صلوات الله وسـلامه عليـه لتغـير مـوقفهـم، لأن القوم

يعلمـون، ولا يخفى عليـهم الأمر الإلهى الذى فـيه وليس فى كلامـهم منه شيء، وجاءت كلمة يعقلون رأس حديث عن قوم يقرون بأنه خالق السموات والأرض. ثم يعتقدون عقـائد تناقض هذا الإقرار ولو تعقل هؤلاء وراجعوا عقائدهم الباطلة، ووضعـوها بإزاء إقرارهم بأن الذى خلق السموات والأرض هو العزيز العليم لاستقام لهم الأمر، وأخرجـوا أنفسهم من هذا الاضطراب وهذا الاختلاط والتناقض الذى ساكن قلوبهم وعقـولهم وأفسد عقائدهم وكل الكفريات التى بنيت عليها الزخرف بَلْسَمُها وشفاؤها هو التعقل أو ثورة العقل المرجوة من جعل الكتاب قرآنا عربيا.

قوله جل شأنه ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ هذه الجملة معطوفة على التى قبلها ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وداخلة فى حيز القسم لأنها شق من شقى المقـسم عليه وأصل الجـملة الذى انصب التوكيـد والقسم عليـها هو إنه لعلى حكـيم والعلى من العلو الـذى لا يقـاربه علو، والحكيـم من الحكمـة الشاملة لكل ما فيه، وليس فيه أمر ولا نهى ولا خبر ولا حكم إلا وهو يعلو ولا يعلى عليه ومؤسس على الحكمة المطلقة التى يبرأ بها من كل ما يخالفها، ثم إن هذه الجـملة داخلهـا حـالان، الحـال الأولى قولـه سبـحـانه ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ وقالوا هو اللوح المحفوظ أو هو علم الله الذى لا تعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وليس بين التفسيرين فرق كبير، وكلمة ﴿أُمِّ الْكِتَابِ﴾ جاءت فى آل عمران مـقابلة للمتشابه قـال سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران:٧] والحال الثانية قوله تعالى ﴿لَدَيْنَا﴾ وفى الحالين أمران جليلان الأول بيان أنه فى أم الكتاب، وناهيك عن كـتاب هو من أم الكتاب، والثانى الإضافة إلى ضمير العظمة فى قوله ﴿لَدَيْنَا﴾ ولأجل ما فى هذين الحالين من الجلال والتنبيه إلى مكانة الكتاب وقعتا معـترضين بين اسم إن وخبرها للتهيئة

إلى هذين الوصفين العظيمين ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ ووراء كل ذلك ما وراءه مما يهدى إليه التدبر وهذه الجملة من أرفع الجمل التى دلت على علو شأن الكتاب، وقد تقدمت عليها جملة ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، ولم أعرف سر هذا التقديم وإن كان دالا على أن سر جعله قرآنا عربيا مما لم ينكشف لنا على وجهه الذى تقدم به على معنى أنه ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، وكان شيوخنا يقولون فى مثل هذا «والله أعلم بأسرار كلامه».

وقد انتقل الكلام بعد هذا إلى جملة فيها غضب على من انصرفوا عن هذا القرآن الذى هذا شأنه، وذلك فى قوله سبحانه ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ وهذا الانتقال وهذا الغضب دال على أن فى الكلام السابق من الدلالة على علو شأن هذا الكتاب أغزر وأعلى مما ذكرناه، والقطع فى الكلام ضرب من التعبير الذى لا تعبر فيه الكلمات، وإنما يعبر فيه القطع والاستئناف. كما يُعَبَّر فيه مجيء الكلام بعضه فى أثر بعض. وترتيب لاحقه على سابقه. والهمزة التى ابتدأت بها الجملة همزة إنكار، وفيها من المعانى ما لا يقادر قدره. لأنها جامعة لكل ما كانوا عليه من الروغان فى مواجهة ما أنزله الله عليهم مما لفت الكلام السابق إلى علو شأنه، وأنه بلسانهم العربى. والشأن فيهم أن يدركوا هذا الشأو وهذا التعظيم، وهذا التقديس، الذى أبانت عنه الآية السابقة. ولعل تقديم جعله قرآنا عربيا للإشارة إلى شناعة إسرافهم فى رفضه، ورفضهم لتدبره، وإعمال العقل الذى يستقيم بهم على الصراط المستقيم، وقد جعل الله من علو شأنه ومقامه أنه بلسانهم.

والفاء التى دخلت عليها الهمزة عاطفة، ومرتبة ما بعدها على معطوف عليه ومرتب عليه محذوف، ولابد أن يكون فيه من الغضب والإنكار والوعيد أكثر مما فى الجملة المعطوفة عليه، والمترتبة عليه، وهى ضرب الذكر عنهم صفحا، مع أن ما فى هذه الجملة المعطوفة من الغضب الشديد لا يظهر إلا بعد

تحليل كلماتها وتقدير الكلام المحذوف يكون عادة مبنياً على المسامحة، لأن الحذف غالبًا ما يفسح مجال المعنى. حتى تذهب النفس فيه مذاهب كثيرة، والمعانى التى يشير إليها السياق قبل الفاء التى دخلت عليها الهمزة من باب إسقاط شأنهم، وإهمال قدرهم، وأنهم لا يلتفت إليهم، ولا يعبأ بهم، وقد قدرها الزمشخرى بقوله «أنهملكم فنضرب عنكم الذكر» والمعنى أننا لن نهملكم ولن نضرب عنكم الذكر، لأن الله سبحانه رحيم بعباده، لا تنقطع عنهم نعمه، وفواضله، والذكر أرفعها، وأعلاها، وسيظل الذكر يلح عليكم فإذا تعقلتم وأذعنتم لله دخلتم فى رحمته، وإذا بقيتم على رفضكم وإسرافكم كان الذكر شاهدا عليكم.

والضرب المراد به هنا الصرف. ووجه دلالة الضرب على الصرف، أنهم كانوا يضربون غرائب الإبل. يذودونها عن الماء، فجرى معنى الصرف إلى الضرب، وأشربت كلمة الضرب معنى الصرف، وعُبِّر بالضرب عن الصرف، ويقال أضرب عن الشيء بمعنى انصرف عنه، والذكر القرآن وكلمة ﴿صَفْحًا﴾ اقترنت بالضرب بمعنى الصرف لتؤكد معناها؛ ووجه ذلك أن الصفح معناه الجانب، وصفحة الوجه جانبه، وصفحة العنق جانبه، والمنصرف عن الشيء يولِّيه صفحته إمعانا فى الانصراف عنه، ونضرب عنكم الذكر صفحا معناه نصرف عنكم الذكر صرفا بحتًا، وكأن الذكر يوليهم صفحته، وهذا من المجاز العالى لأن الذكر نفسه صار كأنه هو الذى يصرف صفحته عنهم، وهو الذى ينصرف عنهم، لأن الذى كان منهم وهو الإعراض عن الكتاب الذى هذا شأنه يجعل الذكر نفسه والكتاب نفسه يضرب عنهم صَفْحًا وينصرف عنهم، وفرق بين أن تقول انصرفت عن هذا الأمر، وأن تقول ضربت عنه صفحا، الكلام الثانى فيه توكيد ومبالغة وغضب، وجملة ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ بشدتها وأسرها وجزالتها متلائمة تلاؤما ظاهرًا مع الكلام قبلها فى جزالته، وقوته، وشدة أسره، قوله جل شأنه ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ بفتح الهمزة أى لأن كنتم أى لن

نضرب عنكم الذكر صفحا بسبب إسرافكم، وكلمة ﴿مُسْرِفِين﴾ كلمة جامعة لضروب من الباطل سبق وصفهم بها، فهؤلاء المسرفون هم الذين يجادلون فى آيات الله فى غافر، ومنهم المسرف الكذاب الذى جاء فى كلام المؤمن، وهم الذين استكبروا، وهم الذين فى صدورهم كبر، وهم الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا، وهم الذين قالوا قلوبنا فى أكنة، وهم الذين اتخذوا من دون الله أولياء، وكل هذه الصفات وغيرها منطوية فى هذه الكلمة، وإنما يخرج كل سياق من مخزون دلالتها ما يتلاءم معه، وكلمة ﴿كُنتُمْ﴾ ليس فيها معنى الزمن، وإنما هى دالة على أن الإسراف جزء من ذات أنفسكم، ومن كينونتكم، ومن ماهيتكم، وهذا من حر مواقعها. وقرئ بكسر ﴿أن﴾ وهذه إن الشرطية التى يؤتى بها فى المعنى المشكوك فيه أو الذى يكون على سبيل الفرض والتقدير، مع أنهم مقطوع بإسرافهم. ووجه مجيئها فى المقطوع به هنا هو الإشارة إلى أن الأدلة المنصوبة أمامكم من شأنها أن تنزع عنكم هذا الإسراف لو تدبرتموها، وألا يكون إلا على سبيل الفرض والتقدير، وهم عرب يحسنون فهم أسرار الكلام وعبارة الخطيب القزوينى هى «أن المقام لاشتماله على ما يقلع الشرط من أصله لا يصلح إلا لفرضه» وهذا من كلام الذين يحسنون فهم الكلام ويحسنون أيضًا زرع الكلام العالى فى نفوس طلاب العلم.

ومما يفيد فى تحقيق معنى كلمة مسرفين أن تراجع الكلام قبلها وبعدها أما الذى قبلها فقد راجعناه ورأينا بناء هذه الجملة على القطع ورأينا الفاء الدالة على أن وراءها فراغا لغويا لابد من تقديره، وأن هذا الفراغ اللغوى يطوى أحداثا وأحوالا لابد من ملاحظتها فى التقدير، والواجب أن نراجع الجملة بعدها مراجعة عامة قبل الوقوف عند تحليلها؛ لأن هذه المراجعة العامة هى التى تمدنا بما يعين على تحقيق معنى الإسراف. هذه الآية التى بعدها هى قوله تعالى ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وقد بنيت الآية على الإشارة إلى استهزاء الأقوام بأنبيائهم ولم تبن على الإشارة

إلى تكذيب الأقوام لأنبيائهم، كما هو الكثير في أمثال هذه المواقع، والاقتران بين المعانى مؤذن بتشارب المعانى، وهذا قاطع في دلالته على أن من إسراف هؤلاء الهزء واللعب والشك والخوض فيما أنزله الله عليهم، وهذا يعين على فقه أسرار جزالة، وغضب جملة ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾، وإشراب الآيات من معانى أخواتها وجيرانها واقتراناتها مَهْيَعٌ من مهايع البيان لا يَتَبَسَّعُهُ البيان ولا يعافه، ولا ندعيه عليه وقد رأينا إشراب كلمة الضرب معنى الصرف، وهو باب واحد من باب استعمال كلمة الضرب، وهو ضرب غرائب الإبل وذودها عن الماء. واسأل ماذا أشربت كلمة الضرب من ضرب الدنانير ومذاق هذا الشراب الجارى في الكلمات من أعلى ضروب البيان.

ثم إن آية ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ فيها معنى آخر وهو أنها تقول إن أهل الباطل مهما لجوا في باطلهم وبالغوا وأسرفوا وصموا آذانهم فإن صوت الحق لا ينبغى أن يخبو فضلا عن أن يغيب، وإنما لابد من دوام الدعوة إلى الخير، ولابد من توجه الدعوة إلى الخير إلى أشد الناس إغراقا فى الشر، وهذا هو المعنى الجليل لهمزة الإنكار التى صيرت معنى الجملة لن نضرب عنكم الذكر صفحا لإسرافكم، لأن الذكر لا يضرب صفحا عن أحد مهما لَحَّ ولَجَّ فى باطله وهذا يعنى أن الآية تندب الصادقين من الناس وتقول يجب أن يظل صوتكم مسموعا مهما علا صخب وضجيج الباطل لا يجوز لكم أن تتركوا الساحة للباطل وأهله، وهؤلاء الذين يحرصون على أن يظل صوت الحق مسموعا فى صخب وضجيج الباطل هم الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه. ولا يزالون فى البلاد ولن ينقطعوا إن شاء الله مهما توحّش الباطل وقوى جانبه وبطش وقمع.

قوله تعالى ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾.

هذه الآية حالها مع التى قبلها كحال التى قبلها مع التى سبقتها أعنى هناك مسافة بين الآيتين لأن الكلام هنا بنى على القطع والاستئناف كما بنيت آية

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ﴾ وانتقل الكلام هنا من خطاب المسرفين من قومه صلوات الله وسلامه عليه إلى ذكر الأمم السابقة واختصار مواقفها كلها من أنبيائها واختصار استئصال الله لهم، والكلام شديد الاختصار، وفيه ثلاث كلمات، الكلمة الأولى دلت على أن الله سبحانه أرسل رسلا كثيرين، والثانية دلت على أن هؤلاء الكثيرين لم ينج واحد منهم من استهزاء قومه، والثالثة دلت على أن الله سبحانه أخذهم، جميعًا أخذ استئصال واقرأ الكلمات الثلاثة واستحضر ما قرأت من الشعر وغيره هل تجد هذا الضرب من الإيجاز العجيب، وهل ترى هذا القدر الهائل من المعانى المتحركة وضروب الأحداث المتفاقمة وراء هذه الكلمات القليلة؟

وإذا كانت الآية السابقة تقول إن الذكر لن ينقطع عنكم وسيظل الداعى يدعوكم إلى ربكم مهما أسرفتم وأفرطتم فى اللهو والمعارضة، فإن هذه الآية تلوِّح بشىء آخر وهو أن الأمر لن ينتهى عند دعوتكم ورفضكم للدعوة وإنما هناك وقت ينزل الله بكم بدل الذكر غضبه، ويأخذكم وما أنتم بمعجزين. وهذا تهديد ظاهر ويفتح لنا باب المعنى المطوى بين الآيتين، وأن استمرار الدعوة مع الإسراف ليس نهاية المطاف، وإذا بقيتم مسرفين فى عنادكم ورفضكم واستهزائكم فسينزل بكم ما نزل بمن هم أشد منكم بطشا وتدخلون غيب التاريخ، ويذهب ذكركم ويمضى مثلكم كما مضى مثل الأولين، وهذا جمع بارع بين الترغيب والترهيب أما الترغيب فهو استمرار دعوتهم إلى الله اللطيف الرحيم الودود مع لجاجتهم وسوء أدبهم مع نبيهم الذى يعلمون هم أنه سيدهم وابن سيدهم وأنك ترى الله فى الآية يقبل برحمته ومَنِّه وذكره على المسرفين المفرطين فى استهزائهم واستخفافهم بنبيه وبذكره وأما الترهيب فهو الذى تراه فيما آل إليه أمر الذين أشد منهم بطشا، ولم يكن لهم ذنب يزيد على ذنب هؤلاء، لأن الاستهزاء برسل الله ليس هينًا عند الله وإنما هو عند الله عظيم، ثم إنك تجد ضربًا خفياً من استمالتهم وتكريمهم وتفضيلهم

على أمم الأنبياء من قبلهم، وهو أنه سبحانه أمهلهم وأملى لهم ولم يأخذهم بإسرافهم وإنما طمأنهم بطول مدة الإمهال لما ذكر أنه سبحانه لن يصرف الذكر عنهم، لإسرافهم ثم عبر عن العقاب بطريق لا مواجهة فيه، وإنما ذكر أحوال الأمم قبلهم من غير أن يواجههم بانتقامه، وأخذه كما واجههم ببقاء الذكر مع إسرافهم، وشيء آخر من الملاطفة والتقريب فى آية الترهيب هذه التى هى من أشد آيات الوعيد هو أن الكلام صرف عن خطابهم الذى رأيناه فى قوله سبحانه ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ وذلك في قوله ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ ولم يقل منكم، وهذه الجملة هى التى انعقد فيها التهديد، والترهيب، فجاء ضمير الغيبة ليخفف من حدة هذا التهديد.

وكلمة ﴿كَمْ﴾ أصل معناها الاستفهام ثم نقلت إلى الإخبار الدال على الكثرة، والواو التى دخلت على هذه الجملة هى الواو التى يعطف بها غرض على غرض. وهى عاطفة على قوله ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وعطف الغرض لا يعنى دخول المعطوف فى حكم المعطوف عليه، فليس ما دخلت عليه الواو داخلا فى جواب القسم، وآية ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ﴾ من مستتبعات جملة القسم التى هى أول جملة فى السورة وآية ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ غرض جديد فى السورة. و«مِنْ» فى قوله ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ﴾ زائدة لتأكيد المعنى المسوق له الكلام لأنها تعنى كل نبى. ولم يكن هناك نبى واحد من أنبياء الله الكثيرين إلا وُوجه بهذا الاستهزاء من قومه، وهذا التوكيد يُبيّن أن المسرفين الذين يخاطبهم القرآن ماضون على مدرجة من كانوا قبلهم من المسرفين الأولين، وهذا يعنى أن عليهم أن يحْذَرُوا العاقبة التي أصابت من قبلهم وهى عذاب الاستئصال، والاستثناء فى قوله ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ استثناء من عموم الأحوال يعنى لم يأتهم في حال إلا حال الاستهزاء، وكأنهم تواصَوْا به وكأن طبقات أهل الباطل بعضُهم من بعض. وطبقات المنافقين بعضهُم من بعض،

وأهل الحق بعضهم من بعض، فهناك سر شيطانيٌّ يتناقل في طبقات أهل الضلالة يهتدون إليه بفطرتهم من لدن المبطلين الأولين إلى آخر فاجر مُبْطل يمشى على الأرض يوم ينفخ فى الصور وكأنه يَحْتَقب نفحًا من أول فاجر مشى على الأرض. وهكذا نقول فى أهل الحق، والصدق، فالسخرية من الحق وأهله دَيْدَن قديم، فلا يُفْزعنَّكم ذلك، وصمود أهل الله دَيْدَنٌ قديم فتمسكوا بذلك، هكذا تقول لنا الآية..

والفاء التى فى قوله ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ تفيد ترتيب الإهلاك على الاستهزاء من غير مهلة، لأن الاستهزاء بالآيات البيِّنات والمُعجزات القاهرات وبالهُدَى وبالسلطان المبين هو عند الله من البشاعة والشناعة والفجور فلا يُهْمِلَ من يكون منه، وهذه الفاء يفهم منها من لهم علم بأسرار اللسان وهم قومه صلوات الله وسلامه عليه فَضْلَ رفق بقومه ﷺ، لأن الآية قبلها أخبرت عن استمرار الذكر لهم مع إسرافهم، وأنكرت أن يُصرف الذكر عنهم، لهذا الإسراف مع أن إسرافهم كان فيه الكثير من الاستهزاء، واللعب، والخوض، والشك، ولم يترتب عليه الاستئصال بلا مهلة كما ترتب على استهزاء الأولين بأنبيائهم، وهذا ظاهر فى أن هناك إمهالاً وفضل رعاية لأمته ﷺ، وهكذا ترى إيماضات من التقريب والترغيب غارقة فى رعود الوعيد.

والبطش الاقتدار والتمكن وقوله سبحانه ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ غير قوله جل شأنه: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [الروم: ٩] لأن البطش فيه معنى زائد هو التعدِّى، وإيقاع قوته واقتداره بالغير، بخلاف القوة فليس فيها معنى التعدِّى، وقد تكون القوة فى الخير، وكلمة البطش مع دلالتها على شدة الوعيد متلائمة جداً مع كلمة ﴿مُسْرِفِينَ﴾ لأن السرف إفراط فى الشر ولا سرف فى الخير، وفى كلمة البطش إشارة خفية إلى أنكم تجاوزتم الحدود فى إفراطكم في العناد والإسراف فى المحادّة وأن المقابل لذلك أن ينزل بكم ما نزل بمن هم أشد منكم بطشًا.

ويلاحظ أن الكتاب العزيز كثيرًا ما يشير إلى قوة الأمم القديمة وإلى كثرة آثارهم، وأنهم أعمروا الأرض. وأنهم أشد قوة، وآثارًا فى الأرض. وهذا يعنى أن التاريخ القديم طوى حضارات لم نُحسْنَ وعى جوانبها، وأن الذي على الأرض فى زماننا ليس هو أفضل ما وجد عليها، وأن الأولين الذى مضى مثلهُم أخذت الأرض معهم زخرفها وازينت وظن أهلها في الزمن الأول أنهم قادرون عليها. وأن التقدم فى العمران وبناء الحضارة لا يعنى صحة وسداد ما عليه الأقوام؛ لأنه ينقصه الجانب الأخلاقى.

والمثل فى قوله سبحانه: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾ معناه القصة العجيبة التى تروى وتسير فى الناس مسير المثل. وأن حكاياتهم وحكايات بطشهم وقوتهم وآثارهم فى الأرض كل ذلك دمّره الطغيان، وإنكار الحق، والسخرية من الداعين إلى مكارم الأخلاق.

وأن افتقاد القيمة الأخلاقية فى أى أمة وأى حضارة يفتح عليها باب الدَّمَار ولن يحميها من هذا الدَّمار قوة ولا بطش. وأن القيمة الأخلاقية هى الدرع الحقيقى الذي يحمى الأمم، وليس القَمع والبطش؛ لأن القمع والبطش والفساد يحقق هدفًا واحدًا هو تدمير الإنسان الذى يحمى الوطن وتهيئة البلاد غنيمة باردة لعدوٌ لعين ينتظر تلك اللحظة. والأقلام التى تهادن القمع والنهب أو تدافع عن ذلك هم أقربنا مودة لليهود والذين أشركوا.

وبهذه الآية ينتهى مطلع السورة فيما أرجح لأن الآية بعدها دخلت فى الغرض دخولاً مباشرًا ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

وراجع الآيات السابقة لعلك ترى ما أرى وهو أن آيات المطالع تتميز بمزيد من قوة البيان، وغزارة المعانى، وشدة الأسر، وجزالة اللفظ، وأن هذا وغيره هو الذى هيأها لأن تكون زاخرة بالإشارات المختلفة، والمتنوعة، للأغراض والمقاصد.

وراجع مرة ثانية آية ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ وتأمل موقعها وستراها مَفْصلاً ظاهراً بين المطلع والمقصد، وأنها كما اتصلت بما قبلها على الوجه الذي بيناه فتحت الباب لما بعدها وكأنها «العَتَبة» التي ترفعنا إليها، لتدخلنا الباب، وراجع ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ لأنك ستراها عند قوله سبحانه ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ وعند قوله جل شأنه ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ واحفظ الكلمات التي تتكرر وآيات كثيرة تشبه هذه الآيات تقع في مواقع كثيرة تشبه موقع هذه الآيات.

قال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ هذه بداية عجيبة لموضوع السورة لأنها بدأت بالبحث عن جذور عقائد صحيحة وتائهة ومغروسة في ضمير القوم، وقد انتقل الكلام من خطابهم في قوله ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ إلى الحديث عنهم في قوله ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ إلى خطابه ﷺ في قوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ وهذا أول خطاب له عليه السلام في السورة. وهذا التنوع فضلاً عن اقتضاء المقام له من شأنه أن يُفيد الكلام تطرية وتجديداً وتنوعًا، وصرفًا للملالة التي كان يمكن أن تكون لو استمر الكلام على حال واحدة، ولا نعني أنه من الالتفات وإنما هو باب آخر من أبواب التنوع، وهذه الواو التي افتُتِحَت بها الآيات يراها الشيخ الطاهر عاطفة على قوله ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ وهذا جيد لأن آية ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا﴾ كأنها رأس لهذه الآية وما بعدها لأنها جامعة شاملة لحكايات الأنبياء ومن أرسلوا إليهم.

ثم إنك تلاحظ أن السورة بدأت بالقسم في قوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ ولما انتهى المطلع ودخل الكلام في مقاصد السورة، ابتدأ الكلام بالقسم لأن اللام في قوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ لام القسم، وجوابه ﴿لَيَقُولُنَّ

﴿خَلَقَهُنَّ﴾ وهذا الأسلوب مما اجتمع فيه القسم والشرط وجاء جواب القسم مستغنيًا به عن جواب الشرط، وهـذا الضرب من بناء الكلام محتاج إلـى بحث مفرد فى الكتاب العزيز وهو ضرب من الكلام الجزل الذى أراه يأتى فى المعانى القوية كالتى هنا، فليس الكلام إخبـارًا وإنما هو قسم على ما يخبـر به جل جلاله وناهيك عن معنى يقسم عليه ربنا سـبحانه كمعنى أنه جعله عربـيّاً وقد قلنا إن القسم يعنى أن لله سراً فى هذه العـربية وفى جـعل قرآنه عربيّـاً، وأنا لا أعلمه وذكرت مـا كان يقوله شيـوخنا (الله أعلم بأسرار كلامـه) وهكذا هنا يقسم الحق على شىء ظاهر ولكنه غريب وهو أنهم لو سئلوا عن خالق السموات والأرض فسيقولون ﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾، ولو سئلوا عن من خلقهم فيسقولون الله، وتعجب أول الأمر أن يكون هذا المعنى عند الله بمثـابة من يقسم الحق عليه، وقـد ساق لنا سبـحانه من المعانى ما هو أجل من ذلك من غـير قسم بل ومن غير توكـيد؛ ورسول الله ﷺ ومن آمن معه ومن لم يؤمـن كلهم يعلمون هذه الحقيقـة لأنهم هم الذين يقولون ﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ وقد ذكروا ذلك فى أشعارهم ومنقول كلامهم. وكل هذا يجعلنا نبحث عن وجه هذا القسم والقسم من أقـوى وسائل التوكيد، وأرى لهذا القسم وجوهًا كثيرة، مـنها اللفت إلى أن هؤلاء الغارقين فى الوثنية إلى الأذقان، والذين يَعْبدُون أخشـابًا منجورة وحجارة منحوتة كما يقول علمـاؤنا يعتقدون فى ضمير نفوسهم أن الله خالق للسـموات والأرض وما بينهما، وخالقهم وهو الذى ينزّل من السمـاء ماء فيحـيى به الأرض بعد موتها، وهذا مما لا يجـوز لعاقل أن يمارسه، ومنهـا قوة اللفت إلى أن الوثنيـة ضد الفطرة لأن التـوحيد مـغروس فى الفطرة، وأن العقل يَهْدى إلى الله، وأن معرفة الله لا تتوقف على الشرع.

ولهذا ذهب البعض إلى أن أهل الجاهلية مُحاسبون على الكفر

وإن الشرطية التى دخلت عليها لام القـسم تشير إلى أن هؤلاء لانغماسهم في الوثنيـة يصبح سـؤالهم عن الذى خلق السـموات والأرض سـؤالا غيـر متوقع، وجـوابَ القسم الذى هو جوابهم عن السؤال والدال على اعـتقادهم

فى وجــود الله وقدرته وأنــه خالق الكون ومُــدبّره جــاء مؤكــدًا باللام وبنون التوكيد الثـقيلة وبإعادة الفعل. ﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ وكان يمكن أن يقولوا العزيز العليم من غيــر ذكر الفعل كما جاء فى آيات أخرى مــثل قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ولم يأت ﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ إلا فى هذه الآية ولـم يذكروا الفعــل فى جوابهم عن هذا الســؤال إلا فى هذه الآية، وهذا يلفت إلى شىء هو أن الآية توطئ بهذا التـوكيد وهذا الإقــرار وهذه الخصوصيــة إلى توضيح التناقض الشديد الذى يعيشون فيه، وتُبنى عليه عقائدهم الفاسدة، وقد جاءت هذه الآية بداية لبيان أنهم نُكسوا على رؤوســهم، وجعلوا لله من عباده جزءًا وخرقوا له بنين وبنات بغير علم.

وقــال علماؤنا إن هذا الجــواب ﴿خَلَقَــهُنَّ الْعَــزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ مــحكىٌّ عنهم بالمعنى لأن معرفتهم بالله كانت معرفــة مجملة ومُبْهمة، ولـم يكن لهم علم بصفاته سبحانه ولا بأســمائه، وإنما كانوا يقولون فى جواب من خلقهم أو من خلق السموات والأرض وسخر الشــمس والقمر يقولون فى كل ذلك «الله» وهذه الحكاية بالمعنى تهدف إلى كشف غموض معنى الإلهية وتقريب الحقيقة إليــهم، وتُعَلِّمــهمُ أن الذى خلق الســموات والأرض لابد أن يكون عــزيزًا عليــمًا، والعزيز هو الــغالب الذى لا يُزَاحمــه غيــره، ولا يخلق هذا الخلق الكبير إلا عزيز قادر غالـب، ولابد أن يكون خــالقه مالكه والمتفرد بخلقه هو المتفــرد بملكه، ولابد أن يكون عــالـمًا بكل ما فــى خلقه الذي خلقــه بيده، وليس من المعــقول أن يخلق وهو لا يــعلم ما خلق، وهكذا تبــدأ الآيات طريقها فى تصحــيح الاختلال الذي أصاب عقائد القــوم مبتدئة من نقطة الإقــرار بالألوهية الواحــدة المتفــردة الخــالقة الصــانعة. وهذا من أفــضل أساليب الحوار.

وذكر علمــاؤنا أيضًا أن العزيز العليـم ومــا يأتى بعده من عظيم نعــمه التى أنعمها على خلقه الصالح والطالح من جعل الأرض مَهْدًا وسبلاً وإنزال الرزق

من السمــاء إلى آخره كل هذا بيان لما يـتضمنَّه لفظ الجـلالة الذي قالوه، لأن لفظ الجلالة يعني الاتصاف بالـكمالات كلها فكلمة «الله» فيــها العزيز العليم السميع البصير الملك القدوس السـلام المهيمين الرحمن الرحيم الغفور الودود، القريب المجيب فيها كل الأسمــاء ما نعلم منها وما لا نعلم وكل الصفات ما نعلم منها وما لا نعلم.

والآيات التى جـــاءت بعــد العــزيز الـعليم أكَّـدت على الـنعم وعلى العبودية، وعلى الإقرار بالعجز وتأكيد أن الله سخر لهم ما هم فيه. وبعد إشـباع هذا المعنى بدأت الآيــات تُنبِّه إلى الضــلالات السـاكنة فى قلوبهم والمتعايشة والمسالمة لهذه العقيـدة الصحيحة وهى الإيمان بالإله القوى القادر الخـالق لما نراه فى الكون من الســموات والأرض وما بينهــمــا. والمنعم بتسخيــر ما خلق وذلك من أول قوله ﴿ **وجعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً** ﴾ وهذا ظاهر فى أن السؤال الذى فَتَحت به السورة طريقــها إلى أغراضها كان هو وجوابه وما استـتبعه الجواب من توابع كل ذلك كان توطئــة لمفاتحة الباطل الذى افتُتِحَ بقوله تعالى ﴿ **وجعَلُوا لَهُ مِن عِبَادِهِ جُزْءاً** ﴾ وهذا ترتيب عجيب جداً ولو أضــفت إليه الكلام من أول السورة ســترى فيه أعــجب، وكلما وقــفت وتدبرت وراجــعت رأيت أعــجب وأعــجب، ولعل هذا شىء من معنى قوله تعالى: ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ** ﴾ [محمد: ٢٤] ولا أشك فى أن هؤلاء المبطلين أدركــوا من أسرار هذا الترتيب البــيانى أكــثر مما أدركنا وأن العناد ظل يصارع الإيمان في نـفوسهم وما لبث الـعِنادُ أن ترنّح بفعل هذه البينات البارعات القاهرات ودخلوا فى دين الله أفواجًا، إلا من قضى الله عليهم بالهلاك وماتوا على كفرهم.

قوله جل شأنه: ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾.

هذه الآية رأسها وأولها وآخرها هو الاسم الموصول والجملتان بعده صلة له. والفاصلة علة للصلة، والآية كلها بمثابة الاسم المفرد. وصفة للعزيز العليم وهي من كلام الله الذي دخل على جوابهم وقوله سبحانه قبله ﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ مقول قولهم وانتهى كلامهم عنده سواء قالوه باللفظ أو بالمعنى وحكاه القرآن عنهم بلفظه وقوله سبحانه ﴿لَكُم﴾ قاطع في أنه من كلام الله وليس من بقية جوابهم، وكأن الآية الأولى لما أنطقتهم بأنه سبحانه خالق السموات والأرض بادرتهم هذه الآية والتقطت هذا الإقرار من أفواههم لتُنَبِّه إلى النعم التي غفلوا عنها، ولتشرح لهم ما يتضمنه إقرارهم من نعم الله عليهم فما دام هو الذي خلق الأرض فلا محالة أن يكون هو الذي جعلها لكم مهدا وجعل لكم فيها سبلاً، والمَهْد يعني المهاد يعني ممهَّدة صالحة للسكنى وكأنها تحتضن الإنسان كما يحتضنه مهده، وترعاه وتربيه في هذا المهد يعني أنك تعيش ما تعيش على هذه الأرض وهي مهدك وأنت طفل والأرض أمك ولهذا كان حب الوطن من الفطرة ولا غرابة أن تكون الأرض مَهدًا للإنسان كمهد طفولته لأنها هي الرحم التي ولد منها ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

وأبونا خلق من ترابها فحبب الله إلينا تراب أوطاننا، ولاحظ الترتيب خلق الأرض. ثم جعلها ممهدة، ثم جعل السبل فيها، فالتمهيد ضروري لحياة الإنسان عليها والسُّبل ضرورية لتنقلات الإنسان التي هي لازمة لحياته، وقوله سبحانه ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ تشير إشارة ليست بعيدة إلى قوله بعد ذلك ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ لأن السُّبل طرق التنقل في البر والفلك طريق التنقل في البحر واقتران الفلك بالأنعام يرشّح ذلك ويقرب منه، وخصوصًا أنه قال ﴿ما تَرْكَبُونَ﴾ وكانت السُّبل ضرورة لحياة الإنسان على الأرض. وما كان يكفي أن تكون الأرض مهادًا لأن الله سبحانه خلق الإنسان مرتبطًا ومقترنًا بأخيه الإنسان، لا يستطيع أن ينفصل عنه، لأنه غير قادر على أن يستقل بحياته، ولا غنى لبعضنا عن بعضنا لأننا نلبس ما لا نصنع ونأكل ما لا نصنع ونستخدم

من الأدوات ما لا نصنع ويستحيل أن يعيش واحد منا بمعزل عن الآخرين لأن ضرورات الحياة لا تستقيم إلا بالتعاون والتآذر وهذا بخلاف خلق الله الآخر من الدواب والأنعام والطير فقد يعيش الحمار ما يعيش من غير أن يحتاج فى لحظة واحدة إلى أخيه الحمار، وقد يعيش الكبش ما يعيش من غير أن يحتاج فى لحظة واحدة إلى أخيه الكبش. والله سبحانه وتعالى عليم بكل شىء ولذلك مهَّد الأرض وجعل فيها سبلاً قبل أن يخلق الإنسان كما جعل فيها رواسى من فوقها وقدّر فيها أقواتها كل ذلك قبل أن ينفخ فى طينة أبينا آدم، لأنه سبحانه خلق آبانا من ترابها يعنى بعد ما أنزل عليها من السماء رزقًا وقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إشارة ظاهرة إلى أن السبل فى الأرض يعنى الطرق المعبدة التى تستطيعون السير فيها إنما كانت لأسفاركم وتنقلاتكم ورحلاتكم وأنكم سترتحلون مسافات بعيدة تكونون فيها على مشارف التِّيه والضلال، وأن هذه السبل علامات هداية وكأنها فى الأرض نجوم السماء التى بها تهتدون فالهداية فوق رؤوسكم من نجوم السماء، وتحت أقدامكم من سبل الأرض. وجلَّ من هذا عطاؤه، وكل هذا اقتراب من المخاطبين ولهذا ذكر الجار والمجرور ﴿لَكُم﴾، وقدَّمه على المفعول فى الجملتين ﴿جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾. وذلك بخلاف قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧، ٤٨] وقوله جل شأنه ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦، ٧]. ولم يقل لكم لأن المقام مقام آخر مقام حديث عن القدرة المقتدرة تأمل كلمة ﴿بِأَيْدٍ﴾ وكلمة ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ وقل اللهم إنى أشهدك أنى أشهد بما تقول، هذا مقام الهيبة والجلال راجع الآيات قبلها وانظر إلى فرعونٍ وهو منبوذ باليمِّ وإلى عاد تضربها الريح العقيم فلا تذر شيئًا حتى تجعله كالرميم، وكذلك الذى فى النبأ له مقام آخر هو جواب الذين يتساءلون عن النبأ العظيم، ويا بُعْدَ ما بين المقامات، المقام هنا ترى البيان بأصابعه البيضاء

المضيئة، يَتَولَّجُ في داخل الضمائر وسراديبها الـتى تسكن فيها العقائد ليستخرج منها مـا ساكنها من تناقـضات، لأنها آمنت بالواحـد الصانع وعبدت الحـجارة المنحوتة والأخشاب المنجورة، أو جعلت لله من عـباده جزءًا، أقول مرة ثانية يا بعد ما بين المقامات.

وقوله سبحانه: ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾.

هذه الآية أخت التى قبلها فى لفظهـا ونسقها وحَذْوِها، وبينهـا وبين أختها تصاقب فى اللفـظ والحَذْو والمعنى. وهذا تجانس بيـاني عجيب: رأسـها اسم موصول كأختهـا، وصلتُها جملتان الثانية فيهـا معطوفة على الأولى. وملحقة بها فاصلة كـأختها، وهذا التركـيب مختلف عن سابقه لأن الجـملة الثانية هنا ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ مرتبـة على الأولى ومعـطوفة عليـها بالفاء، وإنـزال الماء شرط للنشـر، فلم يكن من الممكن أن تأتي الثـانيـة إلا مرتبـة على الأولى. وذلك بخلاف ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ فإن الترتيب هناك ليس مـؤسسًـا على شـرط وجود الأول، لأنه هو سـبب وجـود الثانى. وإن كـان الترتيب هناك ظاهرًا فى أن جَـعل الأرض مَهْدًا خطوة أولى تليهـا خطوة ثانية هى ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ ثم إن الفاصلة هنا ليست علة لما قبلها كالفاصلة هناك لأن الاهتداء علة جعلها سبلا، الفاصلة هنا نتـيجة استخرجت من كلمة (النشر) وهى مـسـتـعملة هنا على سـبيل المجاز، لأن النشـر البعث، وإحـياء الموتى. وقد وُصِفَتْ به الأرض التى صارت خصبةً بعـد ما كانت مجدبة وشبه خصـبها بالإحـياء وجَدْبُهـا بالموت، وأن الماء بعثهـا بعد موت ولهـذا التقطت الفاصلةُ هذا المعنى المجازى وجاءت بنتيجة فاجأت بها المنكرين للبعث، وكأنها داهَمتْ عقولهم بها لأنهـا جاءت عَفْويَّة جداً وطبيعية جـداً، وليس فيها شيء أى شيء من تنطس المناطقـة، مع أنها أوقع وأفعل وأدْخَل فـى العقل من كل

تنطُس. وهذه آيات كلما تأمَّلْتَ واحدة منها قلت هى أعظم من أختها وهى معطوفة على التى قبلها، وهذا ظاهر، وظاهر أيضًا أن هذه الآيات العظام والنعم العظام لما ساقها البيان العالى صلات للموصول أشْعرنا أنها قَصَصٌ معروف ومعان مألوفة لأن الصِّلة لابد أن تكون معلومة عند المخاطب فلا يجوز أن يُعرَّف الاسم الموصول الذى هو نكرة فى الأصل إلا بصلة معلومة، وإلا عرفنا مجهولاً بمجهول، وهذا عبث لا يقع فى الكلام فضلاً عن أعلى الكلام وأسناه، وكل هذا وراءه ما وراءه وإنما نفتح الباب ونترك دخوله لأهله، لأنه لا يدخل من هذه الأبواب إلا من أُذِن لهم، وكان أئمتنا وشيوخنا يهاب كثير منهم حَلْقة هذا الباب فلا يُقَعْقِعُها. وقد اجترأنا والله يغفر لنا.

ويلاحظ إعادة الاسم الموصول وكان يمكن أن تعطف الصلة على الصلات قبلها كما عطف ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ على ما قبله ولم يقل والذى جعل لكم فيها سبلاً ويكون الكلام «الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلاً ونزل من السماء ماء بقدر إلى آخره، وإنما أعاد الاسم الموصول لأن هذه مرحلة، وهذه مرحلة، الأولى مرحلة إعداد الأرض بجعلها مهدًا وسُبُلاً، والثانية احياؤها بالمطر حتى تُخْصِبَ وتُنْبِتُ وتتهيأ لاستقبال الإنسان والحيوان، والغريب أن الاسم الموصول الثانى طَوَت صِلَتَهُ طرفى الحياة أوله إحياء الأرض لتستقبل حياة الإنسان والحيوان على ظهرها وآخره إحياء الموتى من بطنها يعنى بدأت الحياة وامتدت ثم انتهت ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الزمر: ٦٨]. ثم مضت حياة البرزخ ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾، وهذا هو معنى ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ الملتقط من ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ الذى هو أول الحياة فى الأرض، ثم آخر الحياة فى الأرض الذى هو النشر بعد الموت وهذا الخطف السريع للزمان والحياة إشارة إلى أنه يوم يأتى الأجل ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ [الأعراف: ٩٢].

ومسألة نزول المطر وإحياء الأرض الميتة، وقياس البعث عليها كثيرة جداً فى الكتاب العزيز، وفاصلة ﴿**كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ**﴾ ومثلها ﴿**كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ**﴾. وما فى معناه كثير فى الكتاب، وهو من البيان الذى يُيَسِّر المعانى العسيرة، ويصل إلى أغمض المسائل وأشدها إنكارًا وتعقيدًا بأيسر الطرق وأسهلها.

والنشر بمعنى إحياء الموتى ليس معنى إسلامياً، وإنما هو معنى قديم فى الجاهلية ومن مواقعه الحسنة ما أنشده الأصمعى لأبي ذؤيب وهو حسن جداً:

لو كان مِدْحةُ حَيٍّ أنْشَرَتَ أحدًا أحْيى أُبُوَّتك الشُّمَّ الأماديحُ

والنشر يُستعمل في معان كثيرة كنشر الطيب، بمعنى فوحه، ونشر الخبر بخلاف طيِّه وقوله سبحانه ﴿**فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا**﴾ ليس المراد أحييناها فحسب وإنما يضاف إلى ذلك معنى الانتشار والتفرق لأن المقصود إحياء الأرض كل الأرض. وإعدادها للقادمين من الناس وغير الناس.

والمضارع فى قوله سبحانه ﴿**كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ**﴾ فيه تصوير لحدثين المشبه والمشبه به فالنبات والعشب والزرع وكل ما تخرجه الأرض يخرج منها شيئًا فشيئًا ويتجدد خروجه في كل يوم وفي كل لحظة، هذا هو حال خروج المشبه أما حال خروج المشبه به فليس فيه معنى أن خروجه يتجدد وقتًا فوقتًا، وإنما فيه معنى تصوير هذا الخروج المفاجئ والذى عبرت عنه آيات كثيرة مثل قوله تعالى ﴿**ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ**﴾ [الزمر: ٦٨]. أو ﴿**فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ**﴾ [النازعات: ١٣] وهذه المفاجأة التى فى سورة الزمر والنازعات هى التى يصورها المضارع فى الآية التى معنا. والمفاجأة التى يصورها المضارع أقرب إلى التأمل من المباغتة التى فى كلمة إذا الفجائية.

قوله جل شأنه: ﴿**وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ**﴾ هذا معطوف على قوله تعالى ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا**﴾ ولم يأت اسم الموصول الأول بالواو لأنه صفة أو بيان للعزيز العليم، والواو

لا تقع بين الصفة والموصوف وإنما عطف ما بعده عليه لأنه هو والذى عطف عليه صفة أو بيان وأن العزيز العليم الذى يُقِرُّون أنه خالق السموات والأرض هو صاحب هذا الفيض من النعم، ولاحظ أن النعم المذكورة فى الأسماء الموصولة كلها متصلة بالأرض. التى يُقِرُّون بأنه خالقها فليس فيها شىء من مثل ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨] مع أن هذه أقرب لأن المقام ليس مقامها، وإنما هو تحليل ما فى سرائر نفوسهم من الإيمان بالله القادر الصانع المبدع ثم عبادة غيره.

وراجع مرة ثانية ترتيب المعانى. الأول خلق السموات والأرض. والثانى جعل الأرض مهدًا، وجعل لكم فيها سبلا، والثالث نزّل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا، ثم يأتي الرابع بعد ما تهيأت الأرض لاستقباله فجاء خلق الأزواج كلها، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون، وهذا ترتيب عجيب ثم لاحظ إعادة الاسم الموصول لأن هذه مرحلة مختلفة، واسم الموصول هنا مؤذن بأنهم مُقِرُّون أنه هو الذى خلق الأزواج كلها، لأنهم مقرون بأنه خالقهم، وأنه خالق السماء والأرض، وأنه سخر لهم الشمس والقمر، وهكذا كادت الجاهلية أن تكون أمة موحدة لولا الضباب الذى تغَشَّى هذا التوحيد وأفسده وأدخلهم فى وثنية علا فيها «هُبل»، ولا يجوز أن نُغفل تشابه البناء، هذا التشابه الذى جعل قالبه أو منواله أو أصله واحدًا، هو الاسم الموصول ﴿الَّذِي﴾ وصلاته من الجمل الفعلية، وكل اسم موصول له جملتان فعليتان هى الصلة، وهذا نسق واحد، وعجيب، وإذا كانت الألفاظ إنما تُقَدُّ على قَدِّ المعانى فإنها هنا مع ذلك قُدَّت أيضًا بعضها على قدّ بعض. وهذا مما لا يجوز أن يُغْفَلُ فى البحث عن أسرار البيان، وأن مثل هذا التشابه الذى استْعرنا له كلمة أبى الفتح (التصاقب) ووسعْنا مدلولها فجعلناه في الكلمات، والمعاني. والأبنية، والحذو، تراه يختلف اختلافًا كاملاً يخرج

الكلام من وادٍ من أودية المعانى إلى وادٍ آخر، لأن الوادى الواحد تتنوع معانيه وتتشابه فتتنوّع الأساليب وتتشابه، أيضًا، وكلمة ﴿خَلَقَ﴾ فى هذه الآية غابت فى الآيتين السابقتين وإنما ذكرت فى جذر الباب وهو قوله سبحانه ﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾، وحلّت محلها بعد ذلك كلمة ﴿جَعَلَ﴾ التى ستأتى بعدها هنا فى قوله سبحانه ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾، ووجه ذلك أن الخلق إنشاء، وإبداع، من عدم وهكذا خلق السموات والأرض. وخلق الأزواج، والجعل فعل فى شىء موجود وتصييره من حالة إلى حالة كجعل الأرض مهدًا، بعد خلقها وجعل السبل؛ والأزواج جمع زوج والزوج ما به يكون الفَرْد زوجًا، فالرجل زوج، والمرأة زوج، لأن كلا منهما جعل الفرد زوجًا، وكل صاحب مع صاحبته زوج من الإنسان والحيوان والطير، وجملة ﴿خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ وجه الوقوف على شرفها أن تتأملها لأنك إذا وقفت بها عند معناها القريب الذى هو أن الله خلق الزوجين الذكر والأنثى تكون فَصَلْتَها عن أهم دلالاتها وهى الدلالة على عمارة الأرض بالإنسان والحيوان والطير وكل ذى نفس يعيش فى البر والبحر، وهذا من أعظم التجليات التى يتجلى فيها عز الألوهية، والمدلول عليه بهذه الجملة القريبة جداً وهى ﴿خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ والغريب أن بيان القرآن يُصيب مفصل أعظم الآيات بأقرب وأخصر الكلمات، وأعْجَبُ ممن يقرأ هذا ولا يشهد أنه كلام الله.

والجملة الثانية ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ كلمة جعل عادت ولم يقل خلق كما في الجملة السابقة لأن الفلك ليس مخلوقًا لله، كخلق الأزواج وإنما هو صنعة الإنسان ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧]. ولم أعرف أن الأرض عرفت الفلك قبل صنعة نوح له وآية ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أرى فيها إشارة إلى أن الله سبحانه يعلمه

صناعة الفلك، وإذا صح هذا كانت صناعة الفلك أقدم صناعة عرفتها الأرض. وكانت بيد نبى هو أول الأنبياء، والأب الثانى للبشر. وفى هذا ما فيه وقد أسندت الآية الكريمة صناعة الفلك وجعله لله لأن الله سبحانه هو الذى أودع فى الإنسان القدرة على أن ينتفع بالسنن الكونية، وأن يُنتج بقدراته ووعيه ويقظته ودقة ملاحظته ما تكون به عمارة الأرض. وأن هذه النعمة الجليلة من شكرها أن يستنفرها صاحبها وأن يستخرج منها أقصى طاقاتها، فإذا لم يفعل كان من الغافلين وإذا فعل وأنتج وأتقن وأحسن كان من المُحسنين ﴿وإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ولا أشك فى دخول إتقان الصنائع فى باب الإحسان الذي يكون أهله فى معية الله، وهذا كله مشروط بالإيمان بالله، والإيمان بأنه صاحب النعمة، المغروسة فى نفوسنا، وصاحب النعم التى لا حصر لها، والتى تقوم عليها سنن الله فى خلقه، والتى هى آلات هؤلاء المنتجين، وحسبهم أن منتوجاتهم هذه يكرم الله أهلها بنسبتها إليه كما فى قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ والأَنْعَامِ ما تَرْكَبُونَ﴾ وكلمة الأنعام معطوفة على الفلك، وداخلة فى حكمه، مع أنها مخلوقة، وقد مضت ضمن قوله فى الجملة الأولى ﴿خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾، لأنها من الأزواج وقد ذكرت هنا من حيث هى مجعولة، وليس من حيث هى مخلوقة، لأن المراد هنا تذليلها للركوب. وأنها تُراض فتراض. وأن الله سبحانه أودع فيها هذه القدرة على أن تُذَلّل وتَنْقاد وتَرْتَاض. وهذه الجملة هى آخر الجمل التى جاءت على نسق واحد وانقطع بها هذا التصاقب، واتجه الكلام فيها إلى الغرض المسوق له بعد التعريف بالله ونعمه التى ذكرتها الآيات والتى جاءت فى كل آية منها كلمة ﴿لَكُم﴾ ليتبين بعدها شناعة ما صاروا إليه وأنهم جعلوا له من عباده جزءًا.

ويقال ركب الدابة وركب فى الفلك فيعدَّى الفعل إلى الدابة بنفسه، ويُعَدَّى إلى الفلك بحرف الظرف، لأننا لا نركب الفلك وإنما نركب فيه، ولا نركب فى الدابة وإنما نركبها، وهذا ظاهر وإنما غلبت الأنعام على الفلك، لأن ركوبها أكثر فعُدِّى الفعل بدون حرف الظرف، والفلك والأنعام في الجملة مقدَّم عن تأخير وأصل الكلام وجعل لكم ما تركبونه من الفلك والأنعام، ومفعول تركبون محذوف وهو عائد على ما الموصولة فى قوله ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ وإنما قدم الفلك والأنعام لأنهما موضع النعمة والجملة مؤسسة عليهما، ولما غُلِّبت الأنعام على الفلك فى تعدية الفعل إلى الفلك بدون حرف الظرف، قدم الفلك عليها حتى لا يتوهم أنه أقل شأنًا منها، لأن المقصود أنه سبحانه أعدّ لكم ما يحملكم فى البر والبحر، وذكر علماؤنا لتقديم الفلك وجهًا آخر وهو أن الأنعام داخلة فى الأزواج المخلوقة فحسن تقديم الفلك عليها لتَبْعُد فى اللفظ عن أخواتها الأزواج وتتهيأ لنعمة أخرى وهى نعمة جعلها مركوبة. وقد تكرر فى القرآن ذكر الفلك وجعله وتسخيره وأنه من نعم الله وآلائه التى يكون الفلاح بذكرها ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]. مع أن هذا الفلك من صناعة الإنسان وكسبه وأفهم من هذا أن الجد فى إنتاج الصنائع والجد فى استثمار قوة الإبداع التى مَنَّ الله على الإنسان بها هو من إنتاج النعم والآلاء المُفْضِية إلى الفلاح، وأن الله سبحانه يحثنا ويَحُضُّنا بل ويأمرنا باستثمار نعمه التى غرسها فى فطرتنا، لأن القدرة على الإبداع من أجَلِّ النعم وقد قصرنا الإبداع فى زماننا على توليف القِصص والأغانى وكافأنا المُبْدعين للقصة والأغنية والمواويل الشعبية وضربنا صفحًا عن الإبداع فى مثل صناعة الفلك وهذا غبن لهذه النعمة.

قوله جل شأنه ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾.

انتقل الكلام وتغير الأسلوب، وبعد ما كان حديثًا عن المُنْعم جلّت آلاؤه صار حديثًا عن النعم وآدابها الواجبة علينا.

وأول ما يلاحظ هو أن الخطاب فى قوله ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ خطاب للمؤمنين الذين يخاطبون بفروع الشريعة، وقد كان الخطاب قبلها للمؤمن وغير المؤمن ابتداء من قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فقد انتقل الكلام من الغيبة فى قوله جل شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ إلى الخطاب. وهذا الالتفات تنبيه واضح إلى معنى الجملة التى بنيت عليه، وهى قوله جل شأنه ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ وقوة اللفت هنا لأن هذا مَحَزٌ ومفصلٌ من مفاصل المعنى لأنهم يقولون ﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ثم يعبدون غيره ويقولون فيه سبحانه بغير علم فكانت قوة اللفت لبيان نعمه سبيلاً إلى معرفته سبحانه على الوجه الذى يجب أن يعرف به، واستمر الكلام شاملاً لخطاب المؤمن والكافر، والأظهر فيها خطاب غير المؤمن، لأنها تزيل أغشية الباطل الذى تَغَشَّى عقيدة التوحيد القائمة فى فطرتهم والتي عبروا عنها بالإقرار بأنه المدبر الخالق الصانع، وآية ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ انتقل الخطاب فيها إلى أهل الإيمان وليس فى الكلام ما يدل على هذا الانتقال إلا السياق الذى لا يدرك إلا بالوعى واليقظة والتدبر لأن كل ذلك وأكثر منه من الواجب أن يكون حاضرًا فى أقصى طاقاته وقدراته عند القراءة، وقد سبق هذا شيءٌ آخر لو قلت إنه من خصوصيات القرآن أو من مبتكراته كما يقول الشيخ الطاهر لكان هذا كلامًا صحيحًا وأعنى به دخول كلام الله على كلامهم، والتئامه به، وكأن الكلام كلام واحد مع

اختلاف القائلين وذلك فى قوله تعالى: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً**﴾ إلى آخره، فقد دخل فى كلامهم وصار جزءا من الجملة التى نطقوا بها لأنه إما أن يكون وصفًا للعزيز العليم أو بيانًا له مع أنه ليس من كلامهم والوصف أو البيان إنما يكون من صاحب الكلام الموصوف أو الكلام المبين، لأنه أراد اتباعه بوصف أوبيان، مع أن هذا الوصف أو البيان داخل على الكلام من كلام الغير، وهو غير الاقتباس وغير التضمين، وغير الاستعانة، وإنما هو منزع جديد لا أذكر أنى رأيته فى غير القرآن، وإنما يكون فى كلام الناس على الوجه الشائع وهو قال كذا وقلت كذا، وهذه التَّحولاَتُ أو الانتقالات فى القرآن الكريم لم تدرس دراسة تحاول الكشف عن أسرارها.

وقوله تعالى ﴿**لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ**﴾ معناه داخل فى الذى قبله وهو قوله سبحانه ﴿**ما تَرْكَبُونَ**﴾ لأن الركوب معناه الاستواء على الظهر ولا يكون ركوبًا إلا بذلك، فلماذا ذكرت هذه ولماذا كُرِّرَت فى قوله ﴿**إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ**﴾ ولم أعرف لهذا وجها إلا أنه يذكر الشىء المعلوم ليرتب عليه غير المعلوم، والذى ترتب على هذه الجملة وهو سر معناها قوله ﴿**ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ**﴾ والمقصود ذكر النعمة، والتسبيح حال الاستواء، فلو حذفت جملة ﴿**لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ**﴾ ووصلت ما بعدها بما قبلها وقلت وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون، ثم تذكروا نعمة ربكم لذهبت الدلالة على ملازمة الذكر للحظة الاسواء، وهو المقصود وفى الاستواء معنى ليس فى الركوب، لأن أصل الاستواء الاسيلاء، وهو المقصود والمراد به فى الآية اعتدلتم واسترحتم على رواحلكم واطمأننتم وداخلكم شىء من الراحة، والغبطة، لأن هذه اللحظة هى اللحظة التى يحسن التذكر عندها، والتى يكون القلب فيها أقل شغلا من الأوقات قبلها

لأنه فى الوقت الذى قبل ذلك يكون مشغـولا بإعداد طعامه وزاده وراحلته وعلى هذا يكون الأظهر فى قوله ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ هو نعمة الانتفاع والأظهر فى ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ هو نعمة الشكر، وشيء آخر فى هذا التعبير هو أنه جاء على صيغة المضارع لاستحضار حالة ولحظة هذه الراحة وهذه الغبطة وهذا الاسيلاء، وأنه استواء المستولى على الشيء والمالك له، ودلالة المضارع على الحال هى سر معنى استحضار الصورة، وإذا كان الفعل قد مضى فإن هذه اللحظة الحالية كأنها تجذبه من الماضى إلى الحاضر، وإذا كان الفعل سيقع فى المستقبل فإن دلالة الحال كأنها تحضره من غيب المستقبل، وهذا ظاهر وإنما أردت أن أقول إن صيغة المضارع هنا تعنى اقتران الذكر بلحظة الاستواء، ثم إنك تلاحظ إشارة خفية وجليلة فى قوله ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ ومجيء الاستواء فى صيغة الماضى وكأن لحظة حضور الاستواء اقترنت بالذكر ثم صارت ودخلت فى الماضى وهى مقترنة بعمل اللسان والقلب معا يشيعها الذاكر بقوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾.

وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ فى قوله ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ ليس فيها معنى الترتيب الزمنى وإنما فيها الدلالة على تباعد رتبة الذكر، وهذا كلام جليل ولا يدرك إلا بالتدبر وذلك لأن الذكر الذى صيرته كلمة ثم عالى المقام ذكر واقع على النعمة والاستواء مزاولة النعمة والتمتع بها، فالمستوى مقارن للنعمة، ومغتبط بها، وكلمة ثم تشير إلى الفرق الهائل بين التمتع بنعم الله، وبين ذكر هذه النعم، لأن النعمة تكون نعمة بذكرها لأن هذا الذكر للنعمة هو نعمة أجل من النعمة لأن النعمة بدون ذكر متاع قليل، ومع الذكر ثواب مدخر، وبه تنتقل النعمة من الفناء المكتوب عليكم وعلى ما تركبون إلى الخلود والبقاء فى دار

النعيم الذى أعده الله للذاكرين الله كثيرا والذاكرات وهذا شىء جليل جدا، وتكرار كلمة الاستواء المقترن بالذكر يعنى تأكيد الإحساس بهذه النعمة وتأكيد تثبيتها فى الوعى والخيال لأن التكرار ومد العبارة ومطل الكلام من شأنه لا يكون إلا إذا أريد تقرير حقيقة فتتكرَّر لتتقرر، ولابد أن نلاحظ ونحن فى معمان تحليل هذا الموقف أن السفر باب من أبواب المشقة وقطعة من العذاب، ويفتح على المرء ضروبا من المخاطر المحتملة؛ وأن نعمة الراحلة المريحة فى البر أو فى البحر من النعم التى تصادف الحاجة إليها لأن النعمة فى وقت الحاجة إليها من أجل النعم وأعلاها، وكما كررت الآية الاستواء كررت الذكر فذكرته أولا فى لحظة الاستواء، وهو استحضار القلب لجلال الله المنعم، ثم ذكرته ثانيا بانطلاق اللسان بالتسبيح وبذلك يبدأ الذكر باليقظة والوعى. والاستحضار القلبى. ثم يأتى القول بعد ذلك مصحوبا به فالذكر الصامت مظنة الغفلة وذكر اللسان يضعف جدا إذا لم يواطئه ذكر القلب، ويلاحظ دلالة الفعلين على الحال والاستقبال (تَذْكُرُوا.. وتَقُولوا) فزمان الذكر ممدود وزمان القول ممدود كما أن زمان الاستواء ممدود، ويظل العبد جامعا بين غبطة النعمة، وغبطة ذكرها، وغبطة التسبيح، وتصير الرحلة بهذه الصيغ الثلاثة التى للمضارع رحلة ذاكر ويصير الركب ركب الذاكرين، وهذا أيضًا عجيب.

وتقولوا ﴿سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ هذا القول مترجم عن الذكر وفقه هذا القول هو فقه الذكر الذى قبله، وكلمة سبحان مصدر استغنى به عن فعله وأصل الكلام أسبح سبحان، والتسبيح التقديس. والتنزيه، ولا يكون من العبد إلا إذا استحضر العبد العظمة وعز الربوبية، وجلال الألوهية، واستحضار هذه المعانى فى القلوب تختلف درجاتها باختلاف درجات معرفة العبد بربه، ودرجة قربه منه، ولذلك تجدها تتفاوت تفاوتا شديدا عند الناس. واسم الموصول فى قوله ﴿الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ ولم يقل سبحان ربنا لتقدم لفظ الرب فى قوله ﴿ثُمَّ

﴿تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ لأن هذا التسبيح ذكر وشكر هذه النعمة فمن المناسب أن يكون ذكر النعمة وتسخيرها مصاحبا للذاكر فإذا ذكرت وشكرت نعمة العافية قلت سبحان الذي رزقنا العافية وإذا كنت تذكر وتشكر نعمة الستر قلت سبحان الذي سترنا ويكون كلامك شبيها بكلام الذي يستشفع بصفة من صفات الله لطلب المزيد منها مثل يا غفار اغفر لي ويا رحمان ارحمني ويالطيف الطف بي وهكذا، ومعنى ﴿سَخَّرَ لَنَا﴾ هذا هو معنى جعله لكم؛ وسخره جعله مسخرًا ومنقادا، والتسخير في الأنعام ظاهر، لأن الله هيأها لهذا فجعلها قابلة لأن تروَّض على الوجه الذي يراد منها، وجعلها قوية الظهر، وجعلها تمشي على أربع، وغير ذلك مما تحققت به نعمه ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ أما التسخير في الفلك فليس على هذا الوجه، لأن الفلك من صناعتنا ووجه التسخير فيه هو وجود هذه الأحوال المؤدية إلى وجوده، وجريه على الماء، وذلك مثل الريح لأنه هو الذي يجعلها جواري في البحر وإن يشأ سبحانه ﴿يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ﴾ [الشورى:٣٣] ومثل ملاسة الماء وليونته ثم قدرته مع ملاسته وليونته على حمل الفلك التي كالأعلام، ومثل الألواح والدسر. وقبل ذلك كله ما أودع الله فينا من قدرات على إيجاد هذه الصنائع، واستغلال ما أوجده سبحانه في الطبيعة مما هو لازم لإنشاء هذه المصنوعات، ثم هي في النهاية نعمة من نعم الله سخرها لنا، لأن كل ما فيها من عطائه بما في ذلك القدرات الذهنية لصانعها كل ذلك من عطاء الله، وهذا يعني أن منتوجات الحضارة الإنسانية، كلها من تسخير الله، وكلها مما ينبغي ذكر الله وشكره وتسبيحه وتنزيهه عند استعمالها، وقل مثل ذلك في كل المواد التي منها هذه الصنائع، والعلم الذي وراء هذه الصنائع، والذي أنتجها كل ذلك من تسخير الله، فعلوم الفيزياء وعلوم الطبيعة، وعلوم الرياضيات، وعلوم الفضاء، كل ذلك من تسخير الله، لأن كل ذلك مستخرج من سنن الله في السموات والأرض. وما بينهما ويجب أن يكون أهل الله والعارفون بالله هم أعلم الناس بما أودعه في خلقه وأسبق

الناس إلى اســخراج سننه، والتــقصيــر فى هذا تقصيــر فى عبــادة الله وذكره وتسبيحه ولا بُدَّ أن تعود الأمة إلى الوعى الصحيح للعبادة.

وكلمة ﴿ظُهُورِهِ﴾ فى قوله تعالى ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ مستـعملة فى حقيقتها ومجازها معا لأنها بالنسبة للأنعام حقيقة، لأن للأنعام ظهرا وبالنسبة للفلك مجــاز لأن إطلاق الظهر على الفلك مجــاز، والضمير المفــرد فى قوله ﴿ظُهُورِهِ﴾ عائد على ما الموصولة فى قوله ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾.

وقوله جل شأنه ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ جملة حــالية أى ســخر لنا هذا والحال أننا له غــير مــقرنين، قال صــاحب اللسان واشتــقاقــه من قولك أنا لفلان مقرن أى مطيق وأقرنت فــلانًا صرت له قِرْنًــا، وأقرن له وعليه أطاق وقوى واعتلى. وكــان التى فى قوله ﴿وَمَا كُنَّا﴾ أخت كان التى فى قــوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧] أى الشأن فيـه أنه لا يفترى لأن فيه أمرا إلهيا هو إعجازه، وهو لا يكون إلا من الله، وكذلك المعنى هنا أن هذا من تسخير الله والشــأن فينا أننا غير مطيقين له، لأنه خارج عن الــطوق، أما الأنعام فــالأمر فــيها ظاهر، وأمــا الفلك فكل شىء فيها من تسخير الله ولم يصنع الإنسان شيئًا إلا وهو يعتمد على شىء من خلق الله وتســخيــره، وما دامت كلمة مــطيقين بمعــنى مقرنين فــلماذا أوثرت كلمة مقــرنين على مطيقين؟ ولا أعرف لــذلك جوابا إلا أن يقال إن كلمة مقرنين فــيها دلالة على الاقتران والمصاحــبة والملازمة وهذه هى الحالة التى هم عليهــا لما استووا على ظهورهــا، فاقترنوا بالفلك والأنعــام وكأنهم قالوا لولا أن الله ســخر لنا هذا ما كنــا له مقرنين بمعنى مطيــقين لتصــريفه على الوجــه الذى نريده وإنما كــان ذلك بتســخــير الله لنــا، وأيضًا مــا كنا مصاحبين له فى أسفارنا. وهذه الجملة ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ فيــها تنزيه وتقــديس الواحد الأحــد وإقرار بالنعــمة، وتذلل،

وضراعة، وإقرار بالعجز، وأن نعمه سبحانه الشأن فينا أننا لولا تسخيره ما كنا قادرين على الانتفاع بها.

وقوله ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ معطوفة على قوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ وداخلة فى حيز الذكر بالقلب، وباللسان، ثم تذكروا نعمة ربكم.. وتقولوا، وهى مؤكدة بإن وباللام الداخلة على الخبر وبتقديم الجار والمجرور الدال على الاختصاص. وكل هذا التوكيد دال على صدورها عن صدق فى الاعتقاد ووفرة نشاط النفس فى اليقين بالرجوع إليه، وأن المنقلب إليه، وانقلب مطاوع قلب وفيه معنى أننا فى قبضته سبحانه إذا قلبنا انقلبنا، وليس لنا إلا هذا، والمنقلب هو الراجع إلى الموضع الذى خرج منه، وبدأ منه ولهذا تجد فى كلمة «منقلبون» معنى منه المبدأ وإليه المرجع، وهذا إقرار بأهم حقائق الإيمان، وإنكاره من أهم عقائد الكفر، كان ولا يزال قال علماؤنا، وهذه الجملة مع توفرها على الدلالة على معنى إنا إلى الله راجعون فيها إيماءة إلى رجاء السلامة لهؤلاء الذين استووا على رواحلهم وأنهم يرجون أن ينقلبوا إلى مرابعهم التى ارتحلوا منها، وتكون الجملة ذات دلالة صريحة وهى الإيمان بالبعث والرجوع إلى الله ودلالة خفية وهى رجاء السلامة والإياب.

وهذه الجملة ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ بدلالتها الصريحة والخفية بمثابة الجملة الخارجة من قلب الجملة قبلها المعطوفة عليها، لأن التسبيح الذى هو تقديس وتنزيه لا يكون إلا للذى يحيي ويميت، وإليه النشور، وهذا مخرج معناها الصريح وذكر النعمة يغرى بطلب المزيد الذى هو رجاء السلامة، والإياب، وكذلك تقول فى جملة ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ وأنها خارجة من تحت ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ⦗١٢⦘ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ لأنك لو تأملت هذا لقلت وحدك قبل أن تنطق الجملة التى تليها

سبحان الذى سخر لنا هذا. وهكذا ترى كلاما تمتد معانيه بغزارة لا حدود لها وهو فى الوقت نفسه يخرج بعضه من بعض. ويهيئ أوله لثانيه، وليس شيء من هذا على هذا الوجه من الغزارة وهذا الوجه من التماسك فى غير كلام الله.

وهناك سؤال يلح على كثيرا ولا أجد له الجواب الشافى وهو لماذا وقعت هذه الآية هنا، ولم تذكر فى كتاب الله إلا فى هذا الموضع؟ وإنما أذكر هذا السؤال وأمثاله مع عجزى عن الجواب الشافى لأن السؤال مفتاح باب العلم. والذى عندى فى هذا أن جملة ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ التى هى ذروة الإيمان بالبعث وأنه لا مرد لنا إلا إلى الله، هى نهاية المعنى الذى ابتدأ بقوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ وهذا الجواب تأسس عليه أكثر الكلام الذى جاء بعده، وأكثر السورة، وقد خرج منه فرعان: الفرع الأول هو ما يوجبه هذا الإقرار من معرفة الله معرفة صحيحة؛ وذكر آلائه وما يوجبه ذكر الآلاء من الحمد والتسبيح والتوجه إلى الله، وذكر المنقلب إليه، وقد دخل كلام الحق سبحانه على جوابهم ليؤسس عليه ما يقتضيه مما هو خارج ومتولد من خلق السموات والأرض. فذكر جعل الأرض مهدا، وجعل فيها سبلاً، وأنزل عليها من السماء ماء وهيأها للحياة، ثم خلق الأزواج لعمارتها وجعل الفلك والأنعام للتقلب فى برها وبحرها، وفى نهاية رحلة هذا المعنى وجب الشكر، والتسبيح، والتنزيه، واختار لحظة الذكر، وهى لحظة الاستواء على ظهورها وأنتم مرتحلون فى الأرض. تبتغون من فضل الله. ثم جاء الفرع الثانى الذى أسسوه هم على هذا الاعتقاد وهو تأسيس خاطئ وغير منطقى، ولا يبقى فى العقائد إلا مع الغفلة وعدم المراجعة والتدبر، ورأس ضلالاته التى ابتدأ الكلام بها هى جعلهم لله من عباده جزءا، وهذا نفى بحت للألوهية، وقد وقع التسبيح والذكر والإقرار بأنا إلى ربنا منقلبون بين هذين الفرعين جاء فى آخر الأول لاقتضائه إياه،

وأن من عرف الله وآلاءه اطمأن قلبه، بذكره وتسبيحه، وتنزيهه، وكان على مشارف رأس الثاني، وكأنه إعلان للتبرئة مما سيقولونه في الله الذي خلق السموات والأرض وتجد في نفسك حاجة إلى أن تقول سبحان الله منزها لله ومقدسا عند سماع كل منكرة من منكراتهم؛ أنت في حاجة إلى أن تقول سبحان الله إذا سمعت جعلهم لله من عباده جزءًا، وفي حاجة إلى أن تقول سبحان الله إذا سمعت أنه سبحانه اتخذ مما يخلق بنات، وأصفاهم بالبنين، إلى آخر ما حكت السورة عنهم وهذا ما عندي والله أعلم بأسرار كلامه.

قوله جل شأنه ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ هذه الواو ترجع بهذه الجملة إلى قوله سبحانه ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ لأن هذا من تواصل الكلام عنهم وما بينهما من كلام الله الذي سبق بيانه، وهذه الجملة تنقض الجملة المعطوفة عليها نقضا ظاهرًا ثم هي مطوية على ما ينقضها هي وذلك بكلمة عباده، وعباده هم خلقه والمخلوق لا يكون جزءًا من الخالق وجزء الشيء لابد أن يكون موافقا لذاته وماهيته. والله سبحانه وتعالى ليس له جزء لأنه ليس كمثله شيء، ولذلك نُقضت هذه الجملة بالكلمات المكونة لها ولهذا أيضًا لم يقف القرآن عندها لبيان فسادها، لأن العبارة الواضحة عنها هي التي تبين هذا الفساد، وهم لما سئلوا عن الذي خلق السموات والأرض قالوا خلقهن العزيز العليم وهذا إقرار بالألوهية ولكنهم اعتقدوا ما ينافيه ولهذا دخلت الآيات السابقة التي هي من كلام الله على جوابهم لتثبيته وتجليته، وتكررت كلمة الجعل، جاءت في قوله ﴿جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا﴾، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ﴾ ودخلت على مجعولات هي أساس نعم الوجود، ولو لم تكن الأرض مهدا لما صلحت للحياة، ولو كانت مهدا وليس فيها السبل لكانت الحياة فيها مشقة لا تطاق، ولو كانت معها السبل وليس هناك ما يحمل الناس ورواحلهم لكان ذلك مشقة بالغة ومجيء كلمة ﴿جَعَلَ﴾ في الآية التي معنا في قوله «وجعلوا له من

عباده جزءا» فيها إشارة إلى الكفران وأن الجعل الذى من الله وهو أعظم النعم للإنسان صيروه هم سوء أدب مع الله لأنهم جعلوا عبيده جزءا منه، الجعل الأول اقتضى التسبيح من حيث هو شكر، والجعل الثانى اقتضى التسبيح من حيث هو كفر وإعلان البراءة مما نسمع.

قوله سبحانه ﴿إنَّ الإنسانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ هذه جملة مستأنفة بنيت على وجوه من التوكيد فبدأت بإن التى هى أم الباب، ثم باللام الداخلة فى الخبر، ثم صيغة المبالغة فى قوله كفور، وهذه الكلمة هى قلب الجملة ومعقد المعنى. ثم قوله ﴿مُّبِينٌ﴾ وهى خبر ثان عن الإنسان، والمراد أنه بيِّن فى كفره مجاهر به لا يخجل من هذه الخسيسة، ولا يسترها ثم ذكر الإنسان والمراد به الجنس وإرادة الجنس لا تعنى استغراق الأفراد، لأن الأنبياء والصالحين والشاكرين من الإنسان، وهم خارجون من الوصف. وهذا كقوله تعالى ﴿إنَّ الإنسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ومن الناس من ليسوا كذلك ومثله قوله تعالى ﴿ويَقُولُ الإنسانُ أَئِذَا ما متُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦] وهذا بخلاف قوله تعالى ﴿وكُلَّ إنسانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣] فهذا شامل لكل فرد ولذلك جاء بغير الألف واللام الدالة على الجنس ويلاحظ أن الإنسان ذكر فى مواضع كثيرة موصوفا بهذا الكفران كما فى قوله تعالى ﴿وكَانَ الإنسانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] وفى الشورى ﴿فَإِنَّ الإنسانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨] وفى سورة عبس ﴿قُتِلَ الإنسانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧].

وهذه الجملة المستأنفة بيان للعلة والسبب الذى أفضى بهم إلى الكلام المنكر الذى دلت عليه الجملة الأولى ﴿وجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءًا﴾ واكتفت بهذا ولم تعقب بنقضها كما سنرى فى الآيات اللاحقة وذلك لأن الفساد فيها ظاهر والتناقض فيها بيِّن وكلمة ﴿عِبادِهِ﴾ كافية فى بيان هذا الفساد ويلاحظ أن جملة «وجعلوا له من عباده جزءًا» هى أول الكلام على وجوه الكفر التى

انهـمكوا فيـها وهى رأسـها لأنهـا أشنع من جعلـهم الملائكة إناثًا وأشنع من قولهم ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ**﴾، لأنها مع الكفـر سوء أدب مع الله وقدح فى ذات الله.

وهذه الجملة المستأنفـة وإن لم تناقش الضلالة التى سبقت فإنها دحـضتها من جـهة أنهـا انصرفت عنهـا وتحدثت عـن مصـدرها الكامن فى نفوس الإنسـان وحملت الكثير من الغضب والتهديد لأن قائلها هو المنعم بالنعم التى إن تعدوها لا تحصوها، ثم هى هنا واقعـة موقعا حميدا جدا لأنها جـاءت بعد نعم أساسية ما كان لهذا الإنسان الـكفور أن يكون لولاها. وراجع الجمل التى هى من كلام الله، والتى ابتدأت بعد قولهم ﴿**خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ**﴾، وكيف يستقبل الإنسان هذه النعم العظيمة بالكـفـر المبيـن، وراجـع معـها ﴿**سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ**﴾ لأنها ممسكة بما قبلها، كما بينا، وممسكة بهذه أيضًا من حيث هى دالة على الطريق المضـاد للكفر المبين، وهذا من أظهـر دلالات هذه الجملة المستأنفة، ومن أظهـر سدادها وتمكنها فى موقعهـا، وفى هذه الجملة معنى آخر وهو أن دلالتها علـى كفرهم لما جعلوا له من عبـاده جزءًا سبحـانه دلالة سياق وموقع وليس فى كلمات الجملة ما يربطها بهذا المعنى ويخص الكفران الذى فيها بالكفر بالله ونعمه، وإنما هى عامة فى لفظها فتشمل الكفر بصنائع المعروف التى تكون بين الناس. وهذه خسيسة أخرى والله سبحانه وتعالى غنى حميد كما قال موسى ـعليه السلام لـقومه فى سـورة إبراهيم ﴿**إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِى الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ**﴾ [إبراهيم:٨] وهذه من أعظم الآيات التى لا تشبع النفس من تكرارها، والإنسان ليس كذلك وكفر صنائعه قـد يكون مخبثة لنفسه كما قالوا «**والكفر مخبثة لنفس المنعم**» وإن كنت لا أوافق الشاعر على هذا لأن صنائع المعروف إذا صدرت عن نفوس محبـة للخير ولصناعة المعروف لا يضرها من كفرها، وقد تبرأ كرام الناس من كفر المعروف كما قال الطائى:

وغـيــرى يأكل المعــروف سُحْــتًـا   وتشـــــحبُ عنده بيض الأيادى

وبيض الأيادى هى صنائع المعـروف وقال كـريم: «إن عارا ونقـيصــة على الكريم أن يموت وعــليه دين من ديون المعروف» وكل هذا يعـنى أن من يكفر بنعم الله وآياته هو جدير بأن يأكل المعروف سحتا وهو جدير بأن لا يلتفت إلى ديون المعروف، وهــذا يعنى مرة ثانية أن المـذكورين فى الآية والجاحــدين لنعم الله هم من شر الناس ليس فى عـلاقتهم بالله العلى العظيم فـحسب وإنما هم كذلك على مستوى القيم الإنسـانية التى يحرص عليها كرام الناس. وفى الآية معنى آخـر وهو الحث على الشكر الذى هو الذكر والتـسبيـح الذى فى جمله ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا...﴾ ووجه دلالتهـا على الحث على الشكر أن الشكر هو المقابل للكفر، وإذا كان التهديد والوعيد والغـضب موجها إلى من كفر فهذا يعنى أن نقـيضــه وهو الوعــد والقــرب والرضا مـوجـه إلى من شكر، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] وهذا يعنى أيضـًا أن الشكر الذى يقـرب إلى مرضـاة الله يتعـدى من شكر نعمــه إلى شكر صنائع المعروف من خلقه، ومن لم يشكر الناس لا يشكر الله، وكل هذه معان جليلة جداً وتراها فى مخزون الكلمات التى تزيد على طول التأمل بهجة كأن العيون الناظرات صيـاقل. ونسأل الله أن يرزقنا التدبر حـتى يكون كلام الله صيـقلاً لعيـوننا وقلوبنا، وفرق بين شكر نعم الله وشكر صنـائع المعروف الذى يكون من الناس. لأنك حين تشكر الناس تكون وفيت وحـين تشكر الله على نعمة واحدة من نعمــه تراك أمام نعمة جديدة هى نعمــة الشكر، ونعمة الشكر أجل من النعمة نفـسها، لأن النعمــة من غير شكر ابتلاء، فإذا رزقــت نعمة الشكر وجدت نفسك أمام نعمة جـديدة وهكذا كلُّ ذكرٍ نعمةٌ وكلُّ شكرٍ نعمةٌ، وهذا هو درب السالكين إلى الله، وهو طريق تلتقى فـيه بقوله تعالى لموسى وهارون

﴿ولا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه: ٤٢] ومن العجيب أن تكون كلمة الكفر، دالة على كفر نعمة الله ودالة أيضًا على كفر صنائع المعروف من خلقه، ودالة على الكفر بالله، واشتراك هذه المعانى الثلاثة فى هذا اللفظ، يجعل كفر صنائع المعروف مستبشعا جدا وهكذا ترى الدين ومكارم الأخلاق لا يتعانقان فحسب وإنما تتعانق اللغة المعبرة عنهما هذا والله أعلم.

قوله جل شأنه ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾.

تأمل هذه الجمل الثلاثة وتأمل نسق ترتيبها الأولى إنكار أن يكون سبحانه اتخذ مما يخلق بنات، والثانية بيان أنهم جعلوا لله ما يسوؤهم أن يلدوه، وهذا سوء أدب مع الله مع أن الكل خلقه، والثالثة بيان بعض وجوه الفرق بين ما اختاروه لله وما اختاروه لأنفسهم.

والجملة الأولى ابتدأت بكلمة أم التى بمعنى بل والهمزة، والهمزة معناها الإنكار وبل معناها الإضراب والانتقال من معنى إلى معنى، ولم يسبق أنهم قالوا إن لله البنات وإنما الذى سبق هو جعلهم لله من عباده جزءًا وهذه الجملة تفيد أن الجزء الذى جعلوه لله من عباده هو البنات، وإنما أفادت ذلك بهذا الإنكار، والجزء هو الولد ذكرا كان أو أنثى ولو لم تأت هذه الجملة بعد التى قبلها لكانت الأولى شاملة لقول اليهود عزير ابن الله وقول النصارى المسيح ابن الله لأن هؤلاء حرفوا وجعلوا لله من عباده جزءًا ومجيء هذه الجملة فى أثر التى قبلها خصصت معناها وبينت أن كلامهم أشنع من كلام اليهود والنصارى وكلمة اتخذ افتعل من أخذ مثل اكتسب من كسب واصطبر من صبر والافتعال دال على مزاولة الفعل بموفور رغبة، ونشاط، والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك لأنه غنى حميد، واستعمال هذه المادة يشير أيضًا إلى جهلهم بالله وفساد

حديثهم عنه، وأن الألوهية التى فى ضميرهم لما قالوا ﴿خَلَقَهُنَّ اللَّهُ﴾ أو ﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ألوهيه مشوشة، ودلالة الافتعال فى اتخذ كدلالة الافتعال فى اصطفى البنات على البنين يعنى أنه جل وعلا اختار البنات بموفور رغبة ونشاط، والحق إنما يحكي ما قالوه، وأنهم لم يقولوا أخذ وإنما قالوا اتخذ، وكلمة ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ تطوى فى معناها نقض هذا القول لأنه سبحانه يخلق والخالق لا يصطفى مما يخلق لأنه لا يخلق إلا وهو غنى عن العالمين، والاتخاذ والاصطفاء فيهما معنى الحاجة والذى يخلق لا يحتاج، والحاجة تنافى الألوهية، وتنافى القدرة على الخلق وموقع ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ هنا كموقع ﴿عِبَادِهِ﴾ فى قوله سبحانه ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ لأن كلا منهما ينقض القضية التى ادعوها، وإذا قلت لماذا قال عباده هناك وقال مما يخلق هنا وكان يمكن أن يقول مما يخلق فى الموضعين أو من عباده فى الموضعين؟ قلت إن كلمة عباده هناك أوقع مما لو قال وجعلوا له مما يخلق جزءا لأن الأشنع أن يكون عبده جزءه جل وعلا، وقوله مما يخلق هنا أمكن من لو قال أم اتخذ من عباده البنات، لأن يخلق دالة على أنه سبحانه يخلق البنات والبنين، وكل الخلق، والفعل المضارع دال على تجدد الفعل وحدوثه الآن وما بعد الآن، وممتد مع القدرة الإلهية إلى ما لا نهاية، وما دام هذا شأنه فكيف يختار مما يخلق ما لا يُختار؟ ومعنى ﴿وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ خصكم بالبنين ومجيء أصفاكم بدل اصطفاكم تدل على أن المعنى المفهوم من الافتعال مقصود فى قوله تعالى ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ [الصافات: ١٥٣] لأن الفعل لما كان دالا على خصكم جاء على غير صيغة الافتعال لأنه ليس فيه معنى اختيار الله لنفسه جل وتقدس.

وإنما كان الإنكار الذى بنيت عليه هذه الجملة بالاستفهام وليس بحرف الإنكار كأن يكون الكلام لم يتخذ مما يخلق بنات ولم يصفكم بالبنين. لأن جوهر المعنى فى الجملة ليس هو النفى أو الإنكار من غير استفهام

وإنما محض المعنى أن تقول الآية الكريمة عودوا إلى أنفسكم واسألوها واطلبوا منها المراجعة، والتدقيق في الجواب، هل يعقل أن يختار خالق البنين والبنات لنفسه البنات، وهم في اعتقادكم الجنس الأدنى وأن يخصكم بالبنين الذين هم عندكم الجنس الأعلى. أو الأفضل؟ وهذا يعنى أن يراجعوا هم وأن يتنبهوا هم فإذا راجعوا وحاوروا أنفسهم رجعوا وارتدعوا إن كانوا طالبين للحق، فإن أصروا على ما قالوا افتضح أمرهم وبان تقولهم وإفكهم وكذبهم على الله.

وقوله سبحانه ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ هذه هى الجملة الثانية وهى مكونة من ثلاث جمل جملة الشرط وجملة الجواب وجملة حالية وأداة الشرط ﴿وَإِذَا﴾ تستعمل فى المعانى الأكثر توقعا كقوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ [الأعراف: ١٣١] لأن مجيء الحسنة كثير، وهنا أيضًا البشارة بما ضربوه للرحمن مثلا كثير، وكلمة ﴿بَشِّرَ﴾ مستعملة فى الخبر الذى يسوء ولكنها ليست من باب ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ﴾ [التوبة: ٣٤] لأن الإخبار بأنه قد ولدت له بنت ليس كالإخبار بالعذاب ويستحيل أن نتصور أن العربى كان يكره ابنته لأن هذا ضد الفطرة ولم يذكر التاريخ حادثة واحدة نكَّل فيها عربى بابنته، ولا نكل فيه عربى بامرأة بل إنهم كانوا يستقبحون ذلك ويتبشعونه. والوأد لم يكن من أخلاق العرب، وإنما كان يكون من أجلاف الأعراب، وهو قليل جدا، وإنما كانت المصيبة وكان البلاء فى الغارات وسبى النساء، وكان أسر الرجال فى الغارات بلاء، وسبى النساء أكبر من البلاء، وكان العربى يقاتل دفاعا عن ماله، وداره، ودفاعه عن عرضه، ونسائه، فوق ذلك كله، وهذا أمر مشهور حتى إنهم كانوا يصطحبون نساءهم فى الحروب لقوة الدافع، لأن أحدهم إذا ذكر عرضه من ورائه لا يُبقى فى نفسه بقية، وسترى فى الجملة الثالثة إلى أى مدى كان يكرم

العربى بناته ونسائه، وقد كتبت هذا لأنى لا أتصور أن يكون القرآن أنزل المرأة منزلة دون الرجل، وإنما الأمر عند الله مرجعه للتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى، وهذا غير قابل للمناقشة وإنما بُنيت هذه الآيات ونظائرها فى القرآن على ما كانوا عليه من حاجتهم إلى الرجال، أكثر من حاجتهم إلى النساء، وليس لهذا أى صلة بتفضيل الرجال على النساء، وإنما هى حياة الجاهلية القائمة على القوة، ومن عزَ بزَّ ومن غلب سلب، وأشنع ما فى هذا سبى الحرائر، والشعر وصف السبايا أكرم الوصف وحدَّث عن نعمتهن وصونهن وكرمهن، وأثر هذا السبى فى نفوس الرجال، وكيف كانوا يقاتلون بكل طاقاتهم، دفاعا عن نسائهم، وشعرهم مشهور فى ذلك، فالحرص على الأبناء لأنهم هم الذين يحملون السلاح ويدافعون، ويجب أن توضع هذه المسألة فى سياقها التاريخى. والاجتماعى، والشعر دال دلالة ظاهرة على مكانة المرأة فى قلوب القوم، وآخر ما أقوله فى هذا ويجب أن يلاحظ هو أن الذين عبدوا الملائكة وقالوا إن الملائكة بنات الله والذين تتحدث عنهم الآية ليسوا عامة العرب وإنما هم بطون محدودة وأكثر العرب كانوا يعبدون الأصنام وبعض العرب عبدوا الجن كما قال تعالى ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبأ: ٤١] وبعض العرب عبدوا الملائكة وهم قلة كبنى مليح وهم بطن من خزاعة.

وقوله سبحانه ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ المراد البنات وما موصولة أى بالذى ضربه والمثل المراد به الشبه، ولما قالوا الملائكة بنات الله وجعلوا له من عباده جزءا والولدُ بعض أبية وفاطمة صلوات الله وسلامه عليها بَضعةٌ منه عليه السلام كل ذلك يعنى أنهم جعلوا الإناث لله شبها، وضربوهم لله مثلا، والعبارة بضرب المثل أقوى من العبارة بجعلهم لله شبها، لأن الضرب يعنى الملازمة كقولهم ضربة لا زب وضرب الدراهم، والدنانير، ففيها معنى أنهم أكدوا هذا الشبه، وجعلوه ثابتًا دائمًا لا يفارق كالضرب

الذى تراه فى الدينار والدرهم لا يفارق وكضرب الخيمة وكل ما يوصف بأنه ضربة لازب، وقد عبرت سورة النحل عن هذا المعنى بلفظ الإناث قال تعالى ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ [النحل: ٥٧-٥٩] وإنما قال هنا بما ضرب للرحمن مثلا ولم يقل بالأنثى لأنه مسبوق بقوله «وجعلوا له من عباده جزءا» والجزء يناسبه ضرب المثل لأنه لازم ثابت لا يفارق وهذا بخلاف ما فى النحل من قوله ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ ﴾ فليس فيها أنهم جزء من الله جل وعلا، وما كان لكلمة ﴿ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ﴾ أن تأتى فى النحل لأنها لم تسبق بما يفيد معنى الضرب الذى هو الثبات، وقوله ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ كناية عن تلقيه خبرا يفزعه ويسوءه، لأن سواد الوجه لا يكون إلا عند تلقى الخبر الأسوأ، وقد أضافت الآية إضافات جعلت الكناية دالة على أمر أفظع وأفدح، وذلك بكلمة ﴿ ظَلَّ ﴾ ومعناها أنه بقى زمانا وهو أسود الوجه وأن الخبر أمضَّهُ وأدخله فى آفاق من الهم طال استغراقه فيها، وكلمة ﴿ ظَلَّ ﴾ وإن دلت على ما يكون فى النهار فإن فيها معنى طول المدة كما فى قوله تعالى ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٥] وقوله ﴿ لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [الروم: ٥١] وقوله جل شأنه ﴿ وانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ [طه: ٩٧] وكلمة ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ من تمام الكناية والكظيم الذى يكظم جُرْعَةً من الهم، لا يبوح بها لأن البوح بالهم باب من أبواب تفريجه وبناء الكناية على هذا الوجه يفيد أن الذى وجده الذى يبشر بالأنثى من الهم والغم فوق كل ما وصفت هذه الكناية. وهذه الجملة الحالية ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أكدت الكناية بسواد وجهه عن إساءة الخبر له، والسؤال لماذا كظم همه وكربه؟ وقد

وقفت الزخـرف عند هذا الكظم، وأضافت النحل ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٩] والسؤال هو لماذا توارى من القوم؟ والظن والله أعلم أن هذا لو كان عاما فى القوم ما تهيب الذى أفزعه الخبر أن يحدث به، ولا وجه لكظمه وكذلك لو كان عاما فى القوم وكان الجزع لأنهن بنات ولأنهن فى ذاتهن وأنفسهن أقل من البنين لما كان هناك مـا يدعوه لأن يتوارى من القـوم لأنه قل منهم من لم تولد له الإناث؟ وهذه أسئلة مـشروعة والجواب عنها واجـب حتى نحسن فهم الآيات.

ولم أجد أحدا طرح هذه الأسئلة فضلا عن الإجابة عليها وإنما الكل يقرر أن العرب كـانوا يفزعـون إذا ولد لهم بنات، وطريقى إلى الإجابة هـو كلمة ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ ووجه ذلك أن الوأد هنا وهو أبشع ما يرتكبـه الآباء فى حق بناتهم ومن عقـوق التاريخ ونقص المعـرفة ألا نقف عند هذا الأبشع ولا يكفى مطلقا أن نلعن الذين فعلوه من غير أن ندرس لماذا فعلوه؟ وهذه الجملة التى فى سورة النحل تفـتح الباب للفهم الذى أرجو أن يكون صوابا أو مقاربا للصواب والوأد هنا مقـابل لإمساكها يعنى إبقاءها على هون والهـون معناه الهـوان والذلة، وافتـقاد الإنسـان أقل قدر من الاحـترام والتـقدير، ولا أعـرف أن بقاء البنت فى بيت أبيـها وتربيـته لهـا يورثه الذل والهوان، وخصوصًا أن الجملة الآتية بعد ذلك قالت عنها ﴿يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ أى فى الزينة ولم تقل تَنْشَـأ وإنما بنى الفـعل للمجـهول لأنه لا ينشـئهـا فى الحلية إلا من ينشئها من أب أو أخ إذا مات الأب، ومعنى ﴿يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ أن تكون الحلية التى هى الزينة ظرفـا لنشأتها وهذا شيء آخـر، وموقف آخر من البنات وهو الأصل وهو المتـلاقى مع الفطرة وأنهـا جـزء منه، أو بضعـة منه، وأنه نسبها إلى الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما يعنى ارتقى

بالأنوثة إلى مقام الألوهية لما جعل الملائكة إناثا، وهذا جهل وكفر لا شك فيه ولكنه دال على أمر لا يمكن تجاهله هو أن هذه الأنثى ليست رجسا من عمل الشيطان وليست مخلوقا دونيا والأمر كله فيما أفهم راجع إلى المصيبة التي تورث الهوان وتدفع إلى ارتكاب أبشع ما ارتكبه الآباء وهو الوأد، وهي مصيبة السبي وأسر النساء وامتهانهن في الصراعات التي كانت تحتدُّ بين القوم، وكان أخوف الناس من ذلك من قلت قوته وضعفت مناعته، وكسرت شوكته وطمع فيه الناس، أما الأقوياء والأكثر عددا والأكثر شوكة فقد كانوا لا يهابون ذلك لأن منعتهم في قوتهم وإن كانوا لا يأمنون غوائل الدهر، وأن تتقلب الأيام فيضعف الأقوى ويقوى الأضعف، ويغلب المغلوب ويُغلَب الغالب وكانوا يعرفون ذلك من الزمان ويحذرون منه ويقولون إن الأيام إذا ضربن كسرن النبع بالخرب، والنبع الشجر القوى تتخذ منه السهام والخرب شجر ضعيف بنيت في شواطئ الخلجان.

وهذا معنى ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾ [النحل: ٥٩] لأن إحساسه بعجزه عن حمايتها في وسط تجمعات وأحلاف قبلية تمثل قواعد كبيرة للقُوَّة يضيع معها من لا يَعْدِلُها. هذا الإحساس هو الذي جعل وَجْهَهُ مُسْوداً وهو الذي جعله يتوارى من القوم وهو الذي يفسر قوله تعالى ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ [النحل:٥٩] وهو الذي جعل بعضهم يعتبر الوأد اختصارًا للطريق وهذه حميَّة ظالمة وقد ذهب هذا كله لما جاء الإسلام وفكّك هذه الأحلاف القبلية وهذه التجمعات الظالمة وأمن الناس وسارت الظعينة من مكة إلى صنعاء وهي آمنة، هذا والله أعلم.

وقوله جل شأنه ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ من المفيد أن نعيد قراءة الجمل السابقة لنحدد موقع هذه الجملة. وأول الكلام هو ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ وهذا حديث عن قوم غُيَّب، ثم قوله ﴿أَمِ اتَّخَذَ

مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِين﴾ وهذا انتقال إلى الخطاب، وموضع الانتقال يكون فيه ما يوجب اللفت إليه والعناية به. وكأن الكلام أحضرهم ليوجه إليهم هذا السؤال وهم شهود ثم قال ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾ انصرف الكلام مرة ثانية عن الخطاب إلى الغيبة، وهذا انصراف فيه لطيفة لأن وجوه القوم مسودّة ولأنهم يتوارون عن القوم من سوء ما بُشِّروا به كما فى سورة النحل، فحسن تواريهم هنا، وكل هذا حديث عن القوم، وتأتى هذه الآية وتتجه إلى الحديث عن البنات والبنين، وتدع القوم مكتفية بما قالته الكلمات القليلة السابقة، وهذا من الضرورى أن يكون حاضرا لأن لكل جملة حدثًا وحديثًا، ولابد من إحضار الحدث مع الحديث، وأول ما يَلْفِتُ فى هذه الجملة هو حرف الاستفهام الذى بدأت به، وهو حرف يأرِزُ بها إلى أخيه المتَضمَّن فى كلمة ﴿أَمِ﴾ فى قوله تعالى ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ وهو إنكار يَنْضم إلى إنكار، ولاحظ أن الكلام يعود الرأسُ فيه إلى الرأس ولو لم يكن هناك حرف عطف لأن تواصل المعانى قد يُغْنِى عن حروف العطف، ثم إن همزة الإنكار هذه دخلت على هذه الجملة المقيدة بجملة أخرى هى حال وهى قوله ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾. ثم إن هذا السؤال لا يزال مفتوحًا أو مطروحًا لأن الآية لم تذكر جوابه، وهذا من العلم الجليل. ثم إن فى طيِّه موازنة بين البنات والبنين تبين لنا بدقة الجهة التى نظر القوم إليها، وهم يُفَضِّلُون البنين على البنات، وأن ذلك لا صلة له بحب ولا بغض. وإنما هى جهة نفعيَّة بحتة ومن أجل ضمان عدم الانزلاق لإدخال الحب والبغض فى المسألة عبر عن البنات بقوله ﴿يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾، لأنه لا ينشئها فى الحلية إلا من كانت قُرَّة عَيْنه وكان كما وصف الشاعر:

أحاذرُ أن يَرَيْنَ البؤس بعدى	وأن يَشْرَبْن رَنْقًا بعد صافى
وأن يَعْرَيْنَ إن كُسى الجوارى	فتَنْبُوا العين عن كرم عجاف

وقد دخلت همـزة الإنكار على الواو فأومـأت إلى كلام مـحذوف وعليك أيها القارئ أن تَـتَصَيَّده، وهذه الواو التى تدخل عليـها الهمزة تثـيرنى لأنها تقول لى لا تظن أن الجملة التى أجىء فى عقبها هى التى ورائى. والحقيقة أن ثَمَّةَ مـساحة فـراغ بينى وبينها وأن فى هذا الفراغ خـبيئـا؛ وعليك أن تبحث عنه، وهذه هى وظيـفتى فى الكلام؛ وأنا لا يشق على شىء كـما يشق علىّ تقـديرُ المحذوف، وخـصوصًـا فى هذا اللون من التركـيب، وأظن أن عبـارة القدماء فى وصف حالات التـقدير أو التأويل بالمصدر فيها إحـساس بالمجازفة التى يجب أن نتجنبها باليقظة، وأفهم هذا من كلمة (التَّصيُّد) التى يستعملونها قلت إن الهمزة فى هذه الجملة للإنكار وهى أقرب إلى أن تكون إنكار التسوية بين الجنسـين وقـد دخلت على الإناث المكنى عنهن، «بمن ينُـشَّأ فى الحليـة» والمحذوف هو المقـابل: وهم الذكور والمقصود إنكار التـسوية بين الجنسين من الجهـة المشار إليـه فى الآية ويقابـلها التنشـئة على تحـمل المشقـة، والجلاد، والفروسية وكل مـا يقابل التنشئة فى الحلية؛ ثم القدرة على مواجـهة الخصوم كان ذلك فى جلاد السيف، أو كان فى ذلك فى الجدل والخصومة أو المنافرة، وقد فُسِّـر (الخصام) بالخصومـة فى الحرب والخصومـة فى الجدل؛ والمبين هو البيِّن الظَّاهر على خـصمه، ولا شك أن حيـاة الجاهلية فى حاجـة إلى الثانى المبين فى الجلاد، والخصومات، والمنافرات، لأن هذا كله كان مما يستعر بينهم ويمكن أن يكون تقدير المحذوف قبل الواو هو أيستوى من ينشأ على الفروسية ومن ينشأ فى الحلية. وهو فى الخصام غير مبين؟ وهذه المفاضلة مفاضلة نفعية محضة ليس لها صلة بالجنس ذكرًا أو أنثى إلا من هذه الجهة ولو افترضنا أن تكون البنات أفعل وأنجع فى مواجهة الخصوم لكان الميل نحوهن ولفُضِّلْنَ على البنين، وقلت إن الذكر الحـكيم وهو فى بيان مَيْل القـوم إلى البنين أومأ إلى مكانة البنات فى القلوب حتى لا يُتَـوهَّم أن هذه المفاضلة على إطلاقهـا فقال يُنَشَّأ وبُنى الفعل للمجهول ليـدل على أن الآباء الذين يقومون بتنشئة أولادهم يخصون البنات بمزيد من الرفاهية، والنـعمة والزينة، والحلى، وكأنهن يَعشْنَ

ويُنشّأن فى الحلية، ولكلمة ﴿فى﴾ هنا إشارة لابد من اعتبارها، وهى دلالتها على حرص الآباء على أن تكون التنشئة كأن النعمة والزينة والحلْية كل ذلك وما هو من بابه ظرف لهذه التنشئة، ووعاء لها، وقد وقفت فى هذا لأنى استبعد أن يكون الخالق الرحيم الرحمان قد خلق نصفنا الأحلى والأرَقّ والأرْحم وجعله دون شقه الآخر، والنساء شقائق الرجال، وأخشى أن يتسرَّب هذا المعنى إلى ابنتى وحفيدتى فتقول لربها يا ربى لم جعلتنى أخسَّ من أخى. تعالى الله عن ذلك علواً كبيرًا.

وشىء آخر لم أجد المفسرين ذكروه وهو أن الموازنة فى الآيات بين البنين والبنات عند القوم مع أنهم لم يجعلوا لله البنات من بناتهم وإنما جعلوا لله البنات من الملائكة وجعلوا الملائكة إناثًا، وليس فى الملائكة إناث وذكور لأن الملائكة خلق آخر وإن كانت أسماء من ذكروا من الملائكة أسماء ذكور كجبريل وميكائيل وعزرائيل ومالك وغيره صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وخوطبوا فى القرآن خطاب الذكور: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]. ولفظ الملائكة مؤنث ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾ [آل عمران: ٤٢] ونحن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الذى بيّنه لنا سبحانه، والسؤال هو لماذا كانت المقارنة بين البنين والبنات من الإنس مع أن افتراءهم واجتراءهم فى أنهم جعلوا الملائكة إناثًا، وجعلوها لله جزءا؟ والجواب أن الله سبحانه حدّثهم بالذى هم فيه، وأنهم يؤثرون البنين على البنات، فلماذا يختارون لله البنات وإن كان من جنس آخر على زعمهم؟ ويلاحظ أنهم خالفوا مرتين وارتكبوا خطيئتين الأولى أنهم جعلوا الملائكة إناثًا ولم يشهدوا خلقهم، والثانية أنهم جعلوهم لله جزءا، وكل هذا داخل فى عقيدة اختلط فيها الصواب بالخطأ والحق بالباطل فقد أقروا بأنه سبحانه وتعالى خالق السموات والأرض وما بينهما وأنه خالقهم وأنه سخر لهم الشمس والقمر وكل هذا حق لا ريب فيه ثم خالطوه بأن جعلوا لله من عباده جزءا وجعلوا الملائكة إناثًا وعبدوهم إلى آخره، وإذا وقَفتَ عند هذا لا لتتبين صوابه وخطأه

كما فى الآيات، وإنما لتكتشف حقيقة عقائد القوم وما عظموه وما قدَّسوه، وجدت شيئًا آخر لا تستطيع أن تنكره فى تزاحم هذه المتناقضات التى عاشوها وهو أن القوم عظموا الأنثى ورفعوها إلى الله ونسبوها إليه بل وعبدوها، وقالوا إن الله شاء لنا أن نعبدها، ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ وهذا كله وإن كان كذبًا وباطلاً فإن كذبه وباطله لا يمنع من درسه والاستنباط منه. ولا تستطيع أن تمنعنى وأنا أحلل هذه العقيدة الفاسدة من أن أفهم أن جعل الملائكة إناثًا ونسبة الملائكة إلى الله وأنهم جزؤه سبحانه وأنهم عبدوهم أن أفهم أن ذلك لم يكن بمعزل عن صلتهم بالإناث الذين هم من جنسهم وهن أم وصاحبة وبنت وأخت إلى آخره، وأن فيهن لله ما ليس فى الذكور، وأن حماية الله لهن أظهر من حمايته للذكور الذين تركهم لجلادهم، ولجاجتهم، وربما كان الوأد مبادرة بإرسالها إلى الله حتى لا تقع فى ذُلِّ الأسر، وحتى لا يمسكها على هون، مادام ليست لديه القوة والمنعة أن يحميها.

ولم يمسك الأقوياء بناتهم على هون، وإنما أمسكوهن على قوة، وعزة، ومنعة، وجعلوا لهن حُراسًا، وأهوال معشر، كما قال الكندى. ولو بسطنا الحبل فى هذا لاتسع وهذا حسبنا والله أعلم.

قوله جل شأنه ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: ١٩، ٢١].

قوله سبحانه ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ وتوابعه وما عطف عليه كل ذلك معطوف على قوله ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ وما عطف عليه وكلمة جعل التى افتتحت بها الآيتان عروة ظاهرة أمسكت بالآيتين وتوابعهما،

وَضمتْ جزءا كبيراً من المعنى إلى جزء كبير من المعنى. وضَبَطَت تقسيمَ المعانى وتوزيعها فى بناء السورة، ثم إن المراد بقوله جل شأنه ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ﴾ ليس سموا الملائكة لأن التسمية ليست هى الخطأ الأفدح وإنما المراد الاعتقاد والتصيير وهى جعل التى فى مثل قولنا جعل الحسناء بدراً وجعل الجواد غيثًا أى صيرها بدراً وصيره غيثًا واعتقدهما كما صيرهما، وافتتاح الآيتين بهذا اللفظ وجَعْل كلمة جَعَل رأس مجموعة من الآيات ثم عطف مجموعة جعل الثانية على مجموعة جعل الأولى تعنى أن السورة تبين فساد عقائد وتضم بعضها إلى بعض، وأن هذا هو غرض السورة وخصوصًا إذا تذكرنا أن جعل الثانية وتوابعها قد عُطِفَت على جعل الأولى وتوابعها وأن جعل الأولى وما حُمِّلته وعطف عليها معطوف على ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ وهكذا تتجمّع الرؤوس لتدخل فى الرأس الأم، هذا شىء وهو ظاهر إن شاء الله والشىء الأغمض هو بيان وجه تقديم جعل الأولى وما عطف عليها على جعل الثانية وما عطف عليها.

وأبدأ فى بيان ذلك بالظاهر منه وهو أن النُّكر والفساد فى جعلهم لله من عباده جزءاً أبشع وأشنع من جعلهم الملائكة إناثًا، ولذلك جاء بعده ﴿إِنَّ الإِنسانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ وجاء بعد الثانى ﴿أَشَهِدوا خَلْقَهُمْ﴾ ويا بعد ما بين التعقيبين. ثم تأسس الكلام فى توابع جعل الأولى على بيان موقفهم من الإناث على حد ما بينا، وتأسس الكلام هنا فى توابع جعل الثانية على بيان كذبهم فى ادعائهم أن الملائكة إناث وأن هذا لا أصل له فى مشاهدة ولا نقل. وهكذا ترى الكلام هناك قد نُقِض من جهة تنزيه الله عنه، ومن جهة أنهم اختاروا لله ما لا يختارونه لأنفسهم، ونقض هنا من جهة أنهم لا مستند لهم فى دعواهم، أنوثة الملائكة، وقوله سبحانه ﴿الَّذِين هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ يلتئم مع قوله هناك ﴿مِن عِبادِهِ جُزْءاً﴾ وإضافة الملائكة إلى الرحمن يعنى أنهم هناك فى كنف الرحمة. وكلمة ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ جاءت فى سورة الفرقان لبيان ما يكون

عليه الموصوف بهذه الصفة فى قوله تعالى ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] وهم الصالحون من عباده جل شأنه واشتراكهم مع الملائكة فى هذا الوصف له معنى جليل لأن الملائكة عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ويسبحون الليل والنهار لا يسأمون وعباد الرحمن الذين هم الصالحون لهم نصيب من هذه الكرامة ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦] وهم الذين لا يعصون ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهم الذين يذكرون الله لا يفترون كما قال سبحانه لموسى وهارون ﴿ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ [طه: ٤٢] وهم الذين يعيشون فى كنف الرحمة لأنهم عرفوا بهذه الإضافة التى ليس للعارفين بالله حاجة أفضل منها، وقد قرئت الآية (وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن) وهذه العندية عندية تشريف كالعندية التى فى آخر القمر، التى أكرم الله بها المتقين لأن ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر. ٥٤، ٥٥] وهكذا يلتقى الصالحون مع الملائكة صلوات الله عليهم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، وهذه القراءة فيها معنى آخر وهو الإشارة إلى استبعاد ما قالوه لما جعلوهم إناثًا، لأن الملائكة عند الرحمن وما أبعد هؤلاء عن هذه العندية فكيف عرفوا أنهم إناث؟ وقوله جل شأنه ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ جملة شديدة الاختصار ومع هذا الاختصار الشديد نقضت الجملة التى قبلها وهى الأخرى شديدة الاختصار ولابد أن نراجع المعانى المتسعة التى وراء هاتين الجملتين المختصرتين وأن تكون المراجعة مراجعة تدبر وليست مراجعة شرح لأن هذا الاتساع الشديد فى المعنى مع الاختصار الشديد فى اللفظ هو البلاغة وهو الإعجاز، وأن السبيل إلى هذه البلاغة وهذا الإعجاز هو التدبر كما قال سبحانه ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤] والشرح إنما يكون فى هذا النقض الذى سلكت الجملة أقرب الطرق إليه، وهو النقض بهمزة الإنكار المفيدة للنفى. وليس بحرف النفى. ولو قال سبحانه لم يشهدوا خلقهم لكان كلاما آخر لأن محض المعنى الذى فى همزة الإنكار أن

يعودوا إلى أنفسهم وأن يحاوروها ويسألوها عن الأصل الذى جعلهم يجعلون الملائكة إناثًا، وأن مثل هذا لا يتحقق إلا بالمشاهدة، أو إخبار الله الذى سيأتى فى الآية اللاحقة ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ وليس القول بأن الملائكة إناث مما يستنبط بالعقل وهذا تدقيق منطقى بالغ مع هذا الاختصار الشديد.

وكلمة ﴿خَلْقَهُمْ﴾ مصدر كما فى قوله تعالى﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الكهف. ٥١] وفى معنى الآية قوله تعالى ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٥٠] وراجع الجملة مرة ثانية لأنها تنكر شيئًا لم يقل به أحد فليس هناك من زعم أنه شهد خلق الملائكة وهذا هو مصدر قوة النقض فى هذه الجملة لأن معناها أنه لا يجوز لأحد أن يقول إن الملائكة إناث إلا من زعم أنه شهد خلقهم، وهذا لم يقل به عاقل ولا مجنون، وهذا يعنى أن الزعم بأن الملائكة إناث لا يجوز أن يصدر عن عاقل ولا مجنون، وهذا معناه أيضًا أن هذه العقيدة فى الملائكة مبنية على وهم سحض، وباطل محض. وهذه هى قوة الآيات فى نقض عقائد المبطلين، وتسمية هذا الجعل شهادة عدّه الشيخ الطاهر من باب التهكم وهذا صحيح ووراءه معنى آخر وهو تأثيم القول بغير علم، وأن ما تقوله فى درسك وفى كتابك إنما هو من باب الشهادة فلابد لأهل الحق من المعلمين والمؤلفين أن يستوثقوا مما يقولون وقل مثل ذلك فى غير الدرس والكتاب لأن الذى يكب الناس فى النار على مناخيرهم حصائد ألسنتهم، والكتاب من حصاد اللسان، ونسأل الله العافية، وقوله جل شأنه ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ جملة مؤسّسة على الجملة قبلها كما أن ما قبلها مؤسسة على التى قبلها، وراجع الجمل الثلاثة المختصرة: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾. . ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾. . ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ كل جملة بنيت على التى قبلها، والتى قبلها هى التى اقتضتها

وكأنها هى التى زرعتها بيــديها، وكل ما يجرى به اللسان يكتب ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] والنص على كتابة هذه الشـهادة الباطلة معناه التهديد والوعيد وأنه ستشـهد به عليهم ألسنتهم وصحائفهم يوم يجدون ما عـملوا حاضرًا، وقـوله جل شأنه ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ معطوف على ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ وهذه الجملة أخت التى قبلها لأن كل ما يكون من الإنسان يكتب ويسأل عنه وهذا معلوم من غير أن يذكر ولا يكون ذكره لإفادة العلم به، وإنما يكون ذكره للدلالة على التحذير من شناعـته وعلى شدة غضب الله من فعله وكأن النص عليه لبـيان مزيد الغضب منه، وأنه يوجب مـزيد العقوبة، ووراء ذلك الإشارة إلى مكانة الملائكة عند الله، وأن القول عنهم وفيهم لا يجوز أن يكون بغيـر علم، وأن شناعة القول فيـهم بغير علم كشناعـة القول فى الله بغيـر علم، لأنه كذب على الله والكذب على الله قـول فى الله أو عن الله بغير علم.

وفى الجملتين شىء آخـر وهو أن ربنا يعلمنا أننا لا نُعاقَبُ إلا بذنب ثابت كأنـه مكتوب، وهذا لا يكفى وإنما لا بد أن يضـاف إليه سـؤال الذى أذنب، وهذا من عدل الرحيم الرحمن، ومن الغـريب أنك تجد هذا المعنى من العدل والرحمة والابتـعاد عن الظلم مُتضـمَّنًا فى آيات الوعيد والتهـديد والغضب، وأشهد أنى لم أعرف ذلك فى غير كلام الله، لا تحكم بالإدانة على من كنت قاطعًـا بذنبه إلا إذا كان بين يديك الدليل المكتـوب ولا تحكم بالإدانة إذا كان لديك الدليل المكتوب إلا إذا سألت وسمعت ولم تجد له عذرًا فيما سمعته منه وهذا هو العدل الذى افتقدناه فى مجتمعات القمع والجهالة والظلم والبطش.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ هذه الجملة مـشدودة بحبال متينة فى موقعهــا هذا لا يتصور أن تتزحزح قيد نملة لأن الكلام وكأنهم سئلوا فأجابوا وقالوا ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ ومع أنها ممسكة بما قبلها

﴿ وَيَسْأَلُونَ ﴾ على هذا الوجه هي معطوفة على رأس الجزء الذى هى منه والذى بدأ بقوله وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، وأصل الكلام وجعلوا الملائكة وقالوا، وهذا من عجيب تماسك وروابط الآيات الكريمة ترى الجملة من ناحية راجعة إلى كلام سبق، ومن ناحية أخرى ممسكة بجارتها، وكأن هناك شوابك كثيرة تتشابك بها الجمل. وتتعدد روابطها وتتنوع، وهذا مما لم نكشف وجوهه فى الكتاب العزيز، وقد أدركه القدماء ولكنهم لم يشرحوه، وترى الدلالة عليه فى مثل قولهم إن ترتيب الجمل فى الفصل وتماسكها كترتيب الحروف فى الكلمة، وتماسكها، وأن ترتيب الفصول فى السورة وتماسكها كترتيب الكلمات فى الجمل وتماسكها.

وراجع الجمل مرة ثانية لتجد ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ وَحْدة معنوية واحدة تنتهى عند ﴿ وَيُسْأَلُونَ ﴾، وقوله ﴿ لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم ﴾ وحدة معنوية واحدة تنتهى عند ﴿ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ ثم تجد هذه الوحدة الأخيرة ترتبط بقوله ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ ﴾ كما قلنا لأنها معطوفة عليها، وجعلوا الملائكة وما عطف عليها معطوف على ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ وما عطف عليها، وقوله ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِن عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ وما حُمِّل معطوف على ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾ ولئن سألتهم وما حمل معطوف أو خارج من قوله ﴿ أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴾ وهكذا تجد الكلام يأرز فرع منه إلى فرع، ثم تأرز جملة الفروع إلى الجذر الأم، ونحن نتلهى فى أن البلاغة مشغولة بالجملة أو منهكمة فى الجزئيات إلى آخر ما يقوله سادتنا النائمون أطال الله نومهم ومتّعهم بالأحلام والرؤى الجديدة.

وكلمة ﴿ شَاءَ ﴾ وقعت فى حيز الشرط والقاعدة أنها إذا وقعت فى هذا الموقع حذف مفعولها ودَلَّ جواب الشرط على المفعول لأن مفعولها غالبًا

يكون من معدن جواب الشرط، وأصل الجملة وقالوا لو شاء الرحمن عدم عبادتنا لهم ما عبدناهم، كما قال سبحانه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ أي لو شاء أن لا يشركوا ما أشركوا، وقوله ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ﴾ [النحل: ٩] أي لو شاء هدايتكم لهداكم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٠] وفي معنى هذه الآية قوله سبحانه في سورة النحل ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥] ولم أعرف سر مجيء كلمة الرحمن هنا وهل هم الذين قالوا الرحمن؟ أم أنهم قالوا ولو شاء الله ما عبدناهم ثم حكى ربنا عنهم كما قال المفسرون في قوله تعالى ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾؟ وسواء كان هذا أو ذاك فلماذا جاءت هذه الكلمة هنا؟ هل هذا لمناسبة قوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾؟ والمراد ولو شاء الرحمن ما عبدنا عباد الرحمن؟ وقد لاحظت أن كلمة الرحمن تكررت كثيرًا في هذه السورة، وندع هذا الآن لنقول إن هذه الجملة تكلم فيها المعتزلة والأشاعرة كلامًا كثيرًا لأنها ناطقة بقضية من أمهات القضايا الخلافية عند علمائنا، وسأبين هذا بإجمال شديد وقد وسّع الرازي فيها الكلام ومن أراد المزيد فليراجع الآية في تفسيره. والخلاصة أن هذه الجملة جاءت في معرض الحديث عن باطلهم، وضلالاتهم، وهي في السياق أخت ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ و﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ وهذا قاطع في أن قولهم ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ ضلالة من ضلالهم مع أن عقيدة أهل السنة تُقِرُّ هذا وتَعُدُّه من أصول الاعتقاد، وأن الله لو شاء هدايتهم لهداهم، وأن من ضل قد شاء الله ضلاله، لأنه لا يقع في ملكه إلا ما يريده، والقرآن ناطق بهذا في آيات كثيرة، كقوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]

﴿ما كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١] ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧] والمعتزلة يرفضون هذا ويؤمنون بأن الله سبحانه لم يشأ القبيح، ولم يشأ الكفر، ولم يضل أحدا، لأنه لو شاء الكفر لما جاز أن يعاقب عليه، ولو أضَلَّ أحدًا ما جاز أن يُعَاقِبَه على ضلال ولهم تأويلات لهذه الآيات وهذا باب واسع جداً والذى أعتقده أن الكل قاصد إلى التنزيه، وقاصد إلى معرفة مراد الله، وليس فى علمائنا عالم يحرف الكلمة عن دلالتها إلا إذا كان قاصداً إلى الوصول إلى الحق الذى أراده الله؛ وكل خلافاتهم عندى محمولة على ذلك لأن من خرج عن ذلك يقع فى كبيرة. وأهل القبلة جميعًا منها براء، ليس منا من يحرف الكلم عن مواضعه وأهل السنة يقولون فى الآية إنهم لم يُذَموا لأنهم قالوا ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ لأن هذا لا مذمّة فيه، وإنما كان كفرهم لأنهم اعتقدوا أن الله سبحانه إذا شاء شيئًا فلا يجوز أن يأمر بخلافه، وأن من شاء الله له أن يَعْبد الملائكة لا يُوجَّه إليه أمرٌ من الله بعبادة غير الملائكة، قالوا وقبيح أن تريد شيئًا وتأمر بخلافه، هذا وجه من وجوه المعنى عند الأشاعرة ووجه آخر هو أنهم لم يقولوا هذا على سبيل الاعتقاد وإنما قالوه على سبيل الاستهزاء، وهذا كفرهم، ووجه ثالث وهو أن الذى كفر لم تلجئه المشيئة إلى الكفر وإنما كفر مختاراً وقد عبدوا الملائكة مختارين، وقد كذبوا فى قولهم ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ لأنهم لم يعبدوهم ملجئين بالمشيئة، وللمعتزلة ردود على كل هذا.

وقد اختلفوا فى بيان مرجع الضمير فى قولهم ما عبدناهم فذهب فريق إلى أنه يرجع إلى الأصنام والأظهر أنه يرجع إلى الملائكة لأن الحديث عنهم.

والوجه فى هذا كله أن الله سبحانه لو شاء شيئًا لكان، ولو شاء إيمان أهل الأرض جميعًا لآمنوا جميعًا، وليس من حق من كفر أن يعتذر عن كفره بقوله لو شاء الله ما كفرت لأن مشيئة الله لا يعلمها إلا هو، وقد أمرنا بالإيمان، وبالعمل الصالح والذى علينا أن ننفذ أمره سبحانه لأنه سبحانه مكننا من ذلك

وقد أخبرنا سبحانه أنه يهدى إليه من أناب وقوله الحق، ولا يجوز لقاتل أن يقول لو شاء الله ما قتلت، لأن مشيئة الله لا علم له بها، وقد نهاه الله عن القتل والواجب عليه أن ينتهى عما نهاه الله عنه لأن الله مكنه من أن ينتهى ومن تمام الألوهية أن لا يكون فى ملكه شىء لا يشاؤه، ولا يريده، نعم يقع فى ملكه ما لا يرضاه، ولا يقع فى ملكه ما لا يريده.

وقوله سبحانه ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ هذه الجملة فى موقعها أخت جملة ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ فى موقعها، فكل واحدة جاءت عقب أختها لتنقضها وتأمل رَصْفَ الكلام ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ إثبات لباطل. وبعده ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ نفى لما أثبتوه ثم يجىء ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ إثبات لباطل وبعده ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ نقض لهذا الباطل. وهكذا تجد الحذو يتشابه والجمل القصيرة الممتلئة يأتى بعدها فى أثر بعض على وجه من التناسق والدِّقَّة، والنفى فى قوله ﴿مَّا لَهُم﴾ داخل على الخبر الجار والمجرور. والمبتدأ هو ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ ومن زائدة فى النفى لتؤكد النفى. وأنهم ما لهم بذلك من علم أى علم، وهذا التقديم هو الذى قال فيه بعض علمائنا إن الاختصاص لازم له ومثلوا له بقوله تعالى ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧] والاختصاص هنا يستقيم مع بعض التأويلات لأن مرجع اسم الإشارة فى قوله ﴿بِذَلِكَ﴾ مختلف عند العلماء تبعًا لاختلاف توجيه الآية، فالمعتزلة يقولون هو راجع إلى قولهم ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ لأن إثبات مشيئة الله للكفر والضلال كفر عند المعتزلة وضلال ولذلك عدّها الزمخشرى «كفرية» من كفرياتهم التى جاءت الآية فى نسقها: جعلهم لله جزءًا جعلهم الملائكة إناثًا، قولهم ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ وموقعها فى الكُفْرِيَّات موقع الكفرية الثالثة ويرى فيها الزمخشرى كُفْرِيَّتَين الأولى عبادتهم الملائكة، والثانية قولهم ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ

﴿مَا عَبَدْنَاهُم﴾، وأن هذا الاعتقاد عند الزمخشـرى فى شناعة عبادة غير الله، وأعنى بالاعتقاد الاعتقاد بأن الله شـاء الكفر من الكافر هذا عند الزمخشرى كفر وقـد تطرف الزمخشرى فى هذا وساوى بين أهل السنة الذين يسـميهم المُجْبِرة وبين القـائلين هذا القـول، وغفـر الله لنا وله؛ وإذا كـان اسم الإشارة راجعًا إلى ما رجع إليـه به المعتزلة وهو قولهم ﴿لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ يكون التقـديم المسبوق بالنفى مـفيدا للاختـصاص لأنهم هم خصوصًا ما لهم من علم بخلاف أهل الإيمـان فإنهم يعلمون أنه سبحانه لا يشاء الكفر من الكافـر، وتوجيه غير المعـتزلة لاسم الإشارة هو أنه راجع إلى مـا أوَّلُوا إليه قـولهم ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ وأن المراد أنهم اعتقدوا الربط بين المشيئـة والتكليف وأن الله لا يشاء شيئًا ثم يكلف بضده، وماداموا عبدوهم إذن هم عبدوهم بمشـيئة الله، ولا يجوز أن يكلفهم بعبادة غيرهم، مادام شاء أن يعبدوهم.

وبناء على هذا التوجيه يكون التقـديم المسبوق بالنفى دالاً على الاختصاص لأنهم هم خصوصًا لا يعلمون الفصل بين مـا يشاؤه سبحانه مما يقع فى كونه ولا يقع فى كونه إلا ما يشـاؤه وما يأمر به سُبحانه ويكلف به خلـقه فيأتون بما يرضاه وبما لا يرضاه ليـثيب الطائعين ويعاقب المذنبـين؛ ويعذب من يشاء ويرحم من يشاء.

وظاهر أن لفظ الآية يحتمل ما ذهب إليـه المعتزلة وما ذهب إليه أهل السنة وهذا مما وسع الله به على عـباده. وهناك وجه آخـر لا أدرى لماذا سكتوا عنه وهو أن اسم الإشارة يعود على المشـيئة التى زعموا أنهم كفـروا اعتمادًا على وجودها، وأن الله شاء كفرهم، وهذه المشيـئة ليس لأحد بها علم وهى غيب والشاهد المعروف لنا هو أمر اللـه ونهيه ونحن مـختـارون نفعل مـا أمرنا به ونكف عن ما نهانا عنه وليس لمشيئته أى قيد علينا.

والمعنى مـا لهم بما شاءه الرحـمن من علم. أُمـرنا ومُكّنا من إنفاذ الأمـر ونُهينا ومكنا من إنفاذ النهى وهذا حسبنا وما وراء ذلك لا علم لنا به وكفى.

قوله جل شأنه ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ الخرص التخمين وهو مُنَافٍ للعلم والجملة مـؤكدة للجملة قـبلها ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ وهى آكد فى نفى العلم من التى قبلهـا، ومنزلتها منهـا كمنزلة ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾ من التى قبلها ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [لقمان :٧] والقـصر فيها مـعناه أنهم يقولون ما يقولون من غيـر علم، وليس لهم معتمد فـيما يقولون إلا التخـمين، والقول المؤسس على التخـمين آكد فى رد دعواهـم من نفى العلم وتلاحظ المؤكدات التى فى جملة ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ والتأكيد الذى فى جملة ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ ودلالة كل ذلك على صدور الكـلام عن غضب، والكلام الذى عقبت الجملتان عليه هو قولهـم ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ وهذا التعقيب الدال على شدة الغضب يعنى أن قولهم هذا من الشناعـات التى يجترئون فيها على الله، والذى يقول إن ما شاء الله كـان وما لم يشأ لم يكن ليس صاحب شناعة والذى يقـول إن الشرور والقبـائح الواقعة فى ملك الله هى لا مـحالة واقعـة بإرادة العزيز القـادر القاهر المهـيمن لأنه لا يقع فى ملكـه إلا ما يريده الذى يقول هذا لا يكون مرتكـبًا شناعة إذن فما هى الشناعـة التى صدر عنها هذا الغضب المدلول عليه فى الجملتين المعقبتين؟

يترجح عندى أن الكلام المـؤسس على التخمـين والذى أوجب هذا الغضب هو زعمـهم أنهم جعلوا الملائكة إناثـا وعبدوهم من دون الله إنفـاذًا لمشيـئة الله الذى يكون ما يشـاؤه وما لم يشأ لا يكون؟ التخـمين فى زعمهم هو الاعـتماد على مشيـئة لا علم لهم بها وهذا مسلك السوء المستـبشع لأن الناس فى ضوئه يرتكبون الخـزايا ويحادون الله ويسرقـون ويقتلون ويكذبون ويكفرون ويعـبدون الأصنام وهم فى كل ذلك يعـتذرون بأنه لو شاء الرحـمن ما فـعلوا، أما تأويل الآية على ما يخالف المعتزلة أو يخالف أهل السنة فإن مسائل الخلاف غير قادحة

فى الدين وغير موجبة لغضب الله ولا يوصف القول بها بأنه ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ ولا بأنه لا يقولونه إلا خَـرصًا وتخمـينًا، ولا أعرف عالـمًـا من علمائنا فضلاً عن الفـرقة والطائفة وأصحاب المذهب قـالوا فى عقائدنا خرصًـا وتخمينًا وإنما الكل يتحرى مراد الحق وكل قول قيل لفظ القرآن يحتمله هذا والله أعلم.

بقى فى الآية الكريمة كلمـة لا أعرف لها سراً وهى كلمة الـرحمن فى قولهم ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ ولماذا لم يقولوا لو شاء الله ما عـبدناهم كما جاء فى سورة النحل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]؟ والذى عـندى فـى هـذا -وهو ليس جوابًا وإنما وضع مادة علمـية بين يدى القارئ ليستخـرج منها الجواب إن استطاع- هو أن سـورة النحل كلها لم يـذكر فيـها لفظ الرحـمن، وأن سورة الزخرف تكرر فيهـا لفظ الرحمن وجرى فيها من أولها إلى آخرهـا. وأول مجيئه فى قوله تعالى ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً﴾، ثم فى قوله ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ ثم فى قوله ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ ثم في قوله ﴿لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾، ثم فى قوله ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾، وفى قوله ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ وفى قوله ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ ولا أعرف لماذا تكرر فى الزخرف ولم يذكر مرة واحدة فى النحل مع أن سورة النحل هى سورة النعم؟

وإذا قلت إنهم قالوا ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ وذكروا لفظ الرحمن لأنه ذكر فى السورة قبل هذا مرتين وقالوا فى النحل ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ لأن لفظ الجلالة ذكـر قبل الآية ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣]، أقـول هذا كـلام يذكـره بعض العلمـاء ويتسـاهلون بذكره لأنه ليس كشفـا لسر الكلمة، ولو قلت أيضًـا أنهم ذكروا لفظ الرحمن ليؤكدوا أن من كان رحمانًا لا يعذب من أنفذ مشيئته وهذا أشبه

بأن يكون سخرية ولذلك ذهب بعض أهل السنة إلى أن كفرهم بقولهم ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ راجع إلى أنهم قالوه على وجه الاستهزاء، وليس هذا ببعيد وهناك باب مريح وهو أن من العلم أن يقول الرجل لا أعلم، والخلاصة أن الله سبحانه تعبدنا بمثل قوله ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ ثم إنه سبحانه تهددنا بغضبه الشديد إذا جعلنا ذلك ذريعة لمخالفة أمره ونهيه؛ وهو وحده سبحانه الذى يقول ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ ولا يحق لمشرك أن يقول لو شاء الله ما أشركت، لأن مشيئة الله لا يعلمها إلا هو. هذا والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أم هى أم التى فى قوله ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ وأم بمعنى بل والهمزة والاستفهام معناه الإنكار وبل معناها الإضراب وأن الكلام انتقل من معنى إلى معنى، ويلاحظ أن كلمة أم تكررت مرتين فى هذا الجزء وأن همزة الاستفهام الإنكارى تكررت مرتين فى قوله ﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ وفى قوله ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ وكل ضلالة من ضلالاتهم أعقبتها آية تنقضها، وجاءت هذه الآية وهى صالحة لأن تكون توكيدا للآية قبلها ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ وتكون بذلك من توابع ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ ويكون المعنى أن الله لم ينزل عليهم كتابًا يعلمون منه أنه شاء لهم أنه يعبدوها.

ويمكن أن تكون تعقيبًا على ما ذكرته الآيات من ضلالاتهم وتكون كلمة أم التى بنيت عليها الآية راجعة بها إلى أم التى فى صدر حديث هذه الضلالات ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ وهذه الآية صالحة لأن تكون تعقيبًا على الكل، فالذين جعلوا له من عباده جزءا لم يأتهم كتاب بذلك، والذين جعلوا الملائكة إناثًا لم يأتهم كتاب بذلك، والذين قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم لم يأتهم كتاب بذلك، وفى كل تجد معنى جليلاً فى الآية وهو أن

الاعتقاد لا يجوز أن يؤسس على ظنون وإنما يجب أن يكون خبرًا عن الله، لأنه اعتقاد فى الله وملائكته وكتبه ورسله ولا بد له من كتاب يَضْبِطُه.

والاستفهام الإنكارى فى الآية ليس منصبا على آتيناهم، وإنما هو منصب على آتيناهم وما ترتب عليه من جملة ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾، و«من قبله» يعنى من قبل القرآن وقد دل عليه المقام، وجملة ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ المترتبة على ما قبلها فيها حفاوة ببنائها أكثر وتوكيد أكثر وشدة وجزالة ومزيد عناية ترى ذلك فى إعادة الضمير ﴿هُمْ﴾ وذكر الجار والمجرور وتقديمه ولو قال هم مستمسكون به لتغير المعنى ومجىء الخبر اسم فاعل من استمسك وليس من أمسك، والافتعال دال على شدة العناية وقوة التمسك، ووراء كل ذلك الإنكار الشديد لما هم عليه من باطل، ولما هم عليه من شدة تمسك بهذا الباطل، وأن هذه الأباطيل التى عقَّبَتْ الآيات بعد كل واحدة منها بما يبطلها كأنها منزلة عليهم فى كتاب فهم به مُستَمْسكون، وتبدو الجملة الأولى وكأنها مقدمة ووطاء لهذه الجملة كما تبدو هذه الجملة الجزلة الفخمة كأنها مقدمة لما سيأتى بعدها ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ وأن هذا هو الذى استمسكوا به، وكأن الأمة التى وجدوا آباءهم عليها فى منزلة كتاب أنزل عليهم، ووراء كل ذلك ما وراءه من شدة تشبثهم بما كانوا عليه، ومن صعوبة خلعهم عن هذه العقائد وأن هذا مما عاناه رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه.

وقوله سبحانه ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

هذه الآيات تعالج أخطر وأبشع ما يتعرض له الإنسان، وتشرح أسوأ سبيل تسلكه الأمة وهو التقليد، وليس أفتك بالعقل الإنسانى ولا أقتل له من التقليد، وليس أشد وهنًا للأمة من التقليد، لأن المحرك الحقيقى للحياة الأفضل هو

العقل. وبمقدار يقظة العقل يكون إنتاجه، وبمقدار إنتاجه يكون التقدم، وعكس ذلك أنه بمقدار استنامة العقل وإلفه التقليد يكون عقمه، وبمقدار عقمه يكون التخلف، ولم أعرف آية في الكتاب العزيز وقفت عند هذا البلاء المدمر للناس وأطالت كما وقفت هذه الآية وأطالت وأرى فيها صورة حية للذى نحن فيه فقد قامت حياتنا فى هذا الزمن على التقليد فى السياسة، والفكر، والفنون، والآداب، والاقتصاد، وفى كل شأن من شئوننا وقد جمّلناه وسميناه الأخذ بمنجزات العصر كما جملناه أكثر وسميناه تنويرا وتحديثا وتجديدا وظهر فينا جماعة اسمهم التنويريون وغير ذلك مما يضحك وشر الأمور ما يضحك. وكلمة بل التى افتتح بها هذا الجزء من المعنى تقدم تضمينها فى كلمتى أم فى قوله سبحانه ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ وفى قوله ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾ وهى الآن تأتى صريحة بعدما جاءت مرتين متسربلة وذلك للقصد إلى إظهار معنى الإضراب وأنه إضراب إبطالى وليس إضرابا انتقاليا والإبطال هنا موجه إلى الآية السابقة وهى قوله تعالى ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾ والذى قصد إليه الإبطال فى الآية هو المنفى وليس النفى والمنفى هو ﴿آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾ وأن هذا هو الذى أضرب عنه الكلام وأنه لم يكن. ولاحظ أن آية ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ تشير إشارة لا تخفى على أهل العلم بالبيان إلى وجوب الاستمساك بالكتاب الذى آتيناكم وجاءكم به رجل منكم هو أصدقكم لسانا وأحسنكم خلقا صلوات الله وسلامه عليه وقولهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ هو القول الثالث الذى قالوه فى السورة والأول هو ﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ والثانى هو ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ وهم هنا لا يتحدثون عن عقيدة من عقائدهم الفاسدة كعبادة الملائكة وجعلهم إناثا وجعلهم لله من عباده جزءاً وإنما يتحدثون عن الأصل الذى أفضى بهم إلى هذه العقائد الفاسدة وأنهم مع توزعهم على هذه العقائد الفاسدة إنما يهتدون بآثار آبائهم فمن وجد أباه يعبد الجن عبد الجن ومن وجد أباه يعبد الملائكة عبد الملائكة، ومن وجد أباه يعبد

صنمـا عبـد هذا الصنم، والآيات تشيـر إلى أن هذا وضع الجاهلـية وعقـائد الجاهلية ولا يجوز أن يكون كذلك في الإسلام وإنما على كل مسلم أن يراجع إرثه عن أبيه حتى يكون إيمانه عن عقيدة وليس عن تقليد، ويرى علماؤنا أن إيمـان المقلد هو أضعف درجـات الإيمان، وبـعضـهم لا يعتـد به، ولـيس الانتقال مـن التقليد إلـى النظر والاستدلال فى حـاجة إلـى تنطس ولا فلسفة، وإنما هو أن ينظر فى ملكوت السموات والأرض فيتـأكد أن لها صانعا هو الله وأن يسمع القـرآن فيتـأكد أن فيه مـا ليس فى الكلام الذى يسمـعه، فيشـهد الشهـادة الأولى، وهى لا إله إلا الله والثانية وهى أن مـحمدًا عبـده ورسوله وكفى الـله المؤمنين القتـال. ويلاحظ أنهم عبـروا عن هذا بجملتـين الأولى ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ والثانـية ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ والجملـتان صادرتان عن قوة اعتـقاد ووفرة نشاط، ومزيد احتشـاد، وحفاوة بهذا المعنى. وأن له فى نفوسـهم شأنا ويدل على ذلك بـناء الكلام على التوكـيد، وتكرار هذا التوكـيد في الجملة الثـانية، والجملة الأولى مقـدمة للجملة الثـانية، لأن الثانية هى الأصل المقصود بيانه، والأمة مـعناها الدين الذى اجتمعوا عليه قال النابغة «**وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع**» ينكر أن يأثم صاحب الدين ونعم ما قال، وحرف الاستعلاء يشير إلى تمكنهم من الدين، واستقرارهم عليه، وفيه شوب خفى مـن المجاز، وأن حالهم مع ديـنهم كحال راكـب الجواد المستـعلى على جواده والمتمكن منه، وأن هذا الراكب هو الذى يصرف الجواد وليس الـجـواد هـو الذى يصرفه وهـكذا كانوا مع آلهـتهم لا ينقادون لها، وجملة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ معطوفة على جملة ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ كما تعطف النتيجة على المقدمة لأن الاهتداء عـلى آثار آبائهم ثمرة وجود آبائهم على دين، وهذه الجملة أكثر توكيدا من الجملة الأولى. وأول ما يدل على الحفاوة بها هو إعادة التوكيـد، وكان يمكن أن يقال إنا وجدنا آباءنا على أمة ونحن مـهتدون على آثارهم، أو كان يقال من أول الأمر إنا على آثار آبائنا مهتدون وإنما جاء الكلام على ما جاء عليه ليبين قوة استمساكهم.

بذكر آبائهم أولا الذين هم مصدر عزهم واعتزازهم، وفخرهم وهم معروفون بذلك ثم تأكيد هذا الاتباع، ثم إنهم أخبروا عن أنفسهم بخبرين الأول على آثارهم، والثانى مهتدون، ويمكن أن يكون على آثارهم متعلقا بمهتدون، وقدم لأنه هو مصب الفائدة وهذا إمعان فى التقليد، وأنهم ماضون فى أمر دينهم وعيونهم معصوبة، وكأنهم يهتدون بأقدامهم التى تمضى على آثار آبائهم، وليس بعيونهم ولا بعقولهم وهذا إمعان فى رفض ما يدعوهم إليه، ولاشك أنهم يقصدون إلى المعنى الذى فى قولهم ﴿عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ وهو معنى يفيد فرط التبعية للآباء، وفرط الثقة فيما كان عليه الآباء، وأيضًا فرط الإهمال وفرط نبذ المراجعة، وكل هذا فيه إفراط فى التقليد، والتبعية، وعصب العيون، حتى لا ترى شيئًا آخر، وكل هذا ترفضه الآيات وتدعو إلى الضد منه، تدعو إلى المراجعة والنظر وإعمال العقل وأن يكون العقل هو الهادى، وهو الذى يختار الطريق، وهو الذى يسعلى، وهو الذى يوجه، والأثر والإرث أخوان وآثار الديار بقاياها وآثار الآباء قيمهم وأخلاقهم ومكارمهم وأديانهم وكل هذا إرث. وكلمة ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ يجرى فى معناها نوع من التنازع لأن الهدى والاهتداء فيه قدر من إعمال العقل، وقدر من الاستدلال، وهو ينافى التقليد، وهو أى التقليد الاهتداء على الآثار، وليس الاهتداء بالآثار، فالذى يهتدى بالأثر هو الذى يستخرج ما كان مخبوءا وراء الأثر وهو عمل عقلى والذى يهتدى على الأثر هو السالك عليه والمتوجه أنَّى يوجهه الأثر، وقد قال المقلدون زمن البعثة ﴿إِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾، والمقلدون فى الأمم الأخرى والأزمنة الأبعد ﴿إِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾، والاقتداء غير الاهتداء، لأنه تقليد بحت وليس فيه من إعمال العقل كالذى فى الاهتداء.

قوله سبحانه ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ هذه الآية انتقل فيها الحديث من بيان حال المخاطبين بالنبوة فى زمانه ﷺ إلى جميع الأمم التى خوطبت

بجميع النبوات وأنهم جميعًا قالوا هذا بلفظه، ومعناه، من غير أن يتغير منه حرف إلا حرف واحد، وهو وضع كلمة مقتدون الدالة على التقليد الصرف، بدل كلمة مهتدون، التى فيها لمحة خاطفة من إعمال العقل. وطلب البصيرة فى الدين حتى لا تتصادم مع ما عرف من أن بعض العرب طلب الحق فى الدين، فتنصر كورقة بن نوفل. وبعضهم طلب الحق ولكنه لم يقتنع بدين آخر فاكتفى برفض ما كان عليه قومه، ومنهم من كان على دين إبراهيم وهم الحنفاء كزهير الذى يدل شعره على إيمانه بالله وبالبعث وبالحساب وبالجنة والنار، وهكذا نرى الدقة الشديدة والملاحظة العالية فى وضع كلمة ﴿مُهْتَدُونَ﴾ وكلمة ﴿مُقْتَدُونَ﴾ وإن كان الشيخ الطاهر ذهب مذهبا آخر وهو صحيح أيضًا لأنه رأى أن الأمم الكثيرة المذكورة فى آية ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ كانت أقوالهم كثيرة مختلفة يجمع مختلفها أنها اقتداء بآبائهم فحكاية أقوالهم من قبيل حكاية القول بالمعنى وحكاية القول بالمعنى طريقة فى حكاية الأقوال كثر ورودها فى القرآن وكلام العرب، والواو التى فى أول هذه الآية عطفت الآية على ﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ وليس على وجدنا لأنه ليس من كلامهم وإنما هو كلام معترض بين ما قالوه وما رد عليهم به رسول الله ﷺ فى قوله ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم﴾ والواو الداخلة على الجملة الاعتراضية لا تخلو من الدلالة على العطف، والشيخ الطاهر يراه عطفا لفظيا وكاف التشبيه، واسم الإشارة فى قوله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أى مثل هذا القول قالته الأمم السابقة والمراد تشبيه أقوال الأمم السابقة بأقوالهم لأن الكاف تدخل على المشبه به، وإذا قلت كذلك قال زيد كان غرضك تشبيه قول زيد بذلك، وليس المقصود إلحاق كلامهم بكلام الأمم من قبلهم، وإنما المقصود بيان عراقة كلامهم فى التقليد، واتباع آثار الآباء، وأنهم بلغوا فى ذلك مبلغا يلحق به من قبلهم ولا يلحقون بمن قبلهم، ثم بنيت الجملة على القصر الذى

داخلته حروف، أولها من الداخلة على قوله ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ لستقصى كل من أرسلوا من قبله، ولا تستثنى منهم واحدا وأن قومك ليسوا بدعا ولست أنت بدعا فقد كُذِّبت الرسل من قبلك، وكلمة ﴿قَرْيَةٍ﴾ تومئ إلى قوة الشبه لأن الذين ﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ هم أهل قرية رفع الله قدرها، وسماها أم القرى، والذى بعث فيها عليه السلام سيد المرسلين، ومن أجابوه خير أجيال الأرض. وزمانهم خير القرون، ومن فى قوله ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ لاستقصاء كل المنذرين صلوات الله وسلامه عليهم، وكان يمكن أن يقال وما أرسلنا قبلك نذيرا، بدون كلمة من فى الموقعين وإنما زيدت لتأكيد ما دخلت عليه فشمل الكلام كل من قبله، ثم أكد هذا بشموله كل نذير، وإنما جاءت العبارة عن الرسل بكلمة نذير، ولم يقل رسلا، لأن كلمة نذير فيها تخويف، وتهديد، وهم مع ذلك متشبثون برفض هذا النذير، ومتشبثون بما كان عليه آباؤهم، وكل هذا من تأكيد المعنى وتسليته عليه السلام، وكلمة ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ استثناء من عموم الأحوال أى ما أرسلناهم فى حال إلا فى حال قول المترفين، ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ وعليك أن تتأمل وأن تراجع لتدرك ما وراء كل ذلك وفى الكلام أشياء لا تدرك ببيان الكاتب مهما اجتهد وإنما تدرك بالتأمل والمراجعة، ومجىء كلمة المترفين هنا لها دلالة عظيمة جداً وكأنها المقصود من الجملة الاعتراضية، لأن المترف هو صاحب النعمة، وكان يمكن أن يقال إلا قالوا كما قال ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ والوجه فيما أراه أن سنة اتباع آثار الآباء والاقتداء بهم فى الدين، ورفض النذير، والنبوات فى التاريخ كله، إنما سنها المترفون، وتبعهم فى ذلك الفقراء المستضعفون، وهؤلاء المترفون هم الذين استكبروا، وهم الذين يقول لهم الضعفاء وهم يتحاجون فى النار ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ [غافر: ٤٧] ويقولون لهم أيضًا ﴿لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣٧] وهذا صريح فى أن الضعفاء تشبثوا بما عليه الآباء وهم

يعرفــون الحق وهذه خطيئة أبشع وهم الذين قال الله فـيهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧-٩٩]، وهذه آيات عظيـمة تستنهض الـضعفـاء ليقـولوا لا فى وجه المستكـبرين فى الأرض، ولا يقـبل الله منهم أن يُـغلبـوا على أمـرهم، ولا أن يُغلبـوا على إرادتهم، وآرائهم، وعقائدهم، وأن يعيش الإنسان وهو يملك أمره، وحريته، ورأيه، وفكره، واعتقاده، وأنها محاطة بخطوط حمراء لا يجوز للفجرة الذين أطغاهم المال والسلطان أن يقتربوا منها وهذا من معانى الإسلام العظيمة.

وفى الآية إشارة إلى أن هؤلاء المترفين أو المسـتكبرين أو أصحاب الثروات بلغة زماننا يمثلون مـراكز قوة فى المجتمعات وهذه المراكز متـحالفة مع الفساد ومتحـالفة مع الظلم وحارسة للعقـائد الفاسدة وحارسة أيضًـا للظلمات التى جاءت النبوات لتخرج الناس منها إلى النور والهداية وكرامة الإنسان، والعدل والرحمة، والملاحظ أن الصيغة المروية عن المترفين من أول التاريخ هى الصيغة التى نطق بهـا أهل مـكة مع الفـارق الذى ذكـرناه أو أن هؤلاء المتـرفـين مع اختلاف أجناسهم واختلاف أقطارهم واختلاف أزمنتهم لهم لغة واحدة ومنهج واحد وهو الذى تراه حولك حين تواجه هذه القوى ثورة الإصلاحيين بالدعوة إلى الاستقرار وبقاء الحال على ما هو عليه، ورفض المطالب الإصلاحية وقمع أصحابهـا بحجة الاستقـرار الذى ليس بعيدا عن ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ ومن أجل أن يكشف القـرآن طبيـعة هذه الـطبقـة طبقـة الثروة وتأثيـرها فى مواجهة التغيير إلى الأفضل وأن من يضعون سياسة الناس فى أيديهم مخطئون أو كاذبون أو متآمـرون معهم من أجل كشف حقيقـة أصحاب المصالح هؤلاء

أمر الرسول عليه الصلاة والسلام كما أمر كل رسول قبله أن يواجههم بحقيقة ظاهرة لا تقبل الجدل وهى أن يقول لهم ﴿أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ وهذا ظاهر فى أن الهداية التى هى خير الناس ومصالح الناس وتبصير الناس ووضع أقدامهم على الصراط المستقيم، وقيام الأمر على العدل والمرحمة، وأكثر من ذلك مما جاء به النبيون عليهم الصلاة والسلام ليس شىء من هذا فى حسابهم وإنما حسابهم شىء واحد أن يظل الحال الذى هيأه لهم الترف يعنى الثروة قائمًا باقيًا وليذهب الناس إلى الجحيم، وهذا هو ما تراه العين حولها وإن كان أخذ صورا أخرى أدخل فى الكذب والمراوغة وشراء أقلام تكذب وصحافة تكذب وقنوات فضائية تكذب إلى آخر ما نرى ونسمع.

وقوله جل شأنه ﴿قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم﴾ يصح أن يكون فاعل قال هو رسول الله ﷺ أو أنه ﴿النَّذِيرِ﴾ يعنى كل نبى من الأنبياء قبله عليه السلام المذكورين فى قوله ﴿فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ ويرجح الثانى قوله سبحانه ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ لأن هذا يعنى أنهم أمم قد مضت وأن عقاب الله وقع عليهم والمراد العبرة المفهومة من قوله ﴿فَانظُرْ﴾ وهو خطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصح منه النظر وهذا أشمل.

وقد قرئ «قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم» وهذا أقرب إلى أن يكون المخاطب به رسول الله ﷺ ويصح أن يكون المخاطب به النذير وجاء على سبيل الحكاية وليس على سبيل الإخبار والمعنى قيل له ﴿قُلْ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم﴾ وهذا هو الأشبه بما جاء فى فاصلة الآية وإذا قلنا إن فاعل قال أو قل هو النذير، يكون كلام أهل مكة انتهى عند الآية الأولى ويكون قوله قل أو قال امتدادا لآية ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ والكلام يحتمل هذا كله وهذه الوجوه المتعددة من الاحتمالات موجودة فى الشعر

العالى ولكنها ليست على هـذا الحد، والمهم هو أن جواز أن يكون القائل هو النبى صلوات الله وسلامه عليه أو النذير له عندى دلالة تلتقى مع دلالة وحدة الصيـاغة والمعنى الذى رأيناه فى قـول أقدم الأمم لأقدم الأنبـياء ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ فلا فرق بين مـا تقوله آخر الأمم وما قالته أولها وكذلك لا فرق بين ما يقوله أول المنذرين، وما يقوله آخرهم، والكل سواء وعلى هذا تكون هذه الاحتمـالات فى فاعل قال وهذه القراءات كل ذلك مـتلائم تلاؤمـا شـديدا مع المغزى من هـذا القول، ومع سـياقـه، ودلالته، هذا والله أعلم.

قوله سبـحانه ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ قلت يستوى أن يكون الذى قـال هو أول نذير أو آخر نذير، وقد بدأ كلامـه بهمزة الاستفهام والمراد بها التقـرير، وفيها شيء من معنى التعجب والإنكار، وهذه الواو التى دخلت عليها الهمزة، دالة على محذوف، وهذا المحذوف داخل فى حيـز الهمزة، وهذا الحذف أفـصح من الذكر، وهو الحذف الذى تكون مـعه أنطق مـا تـكون إذا لم تنطق، وأتَمَّ مـــا تكون بيـانا إذا لم تـبن، ولله المثل الأعلى. والملاحظ أنك تجد هذه القيـمة العالية لهذا الحـذف مذخورا فى هذه الواو، لأنها هى الدالة عليه، ولا تكون دالة عليه إلا إذا كان فيها شوب منه، ولو حذفت الواو وقلت قال أَلَوْ جئـتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم لذهب شطر كبـير من بلاغة الكلام، وأرى أن التـقرير والتـعجب والإنكار الذى فى الهمـزة مفرغ كـثير منه على هذه الواو، لأنهـا هى التى تلى الهمـزة، وقالوا المراد بالهمـزة والمقصود بهـا هو ما يليـها، ولا شك أن الواو حرف غـير دال على معنى فى نفســه، وإنما كان أكثره مصبوبا عليـها من حيث هى دالة على المحذوف الذى له النصيب الموفور من دلالة الهمـزة وكل ذلك ليس فيه مبالغة وهذا المحذوف يحـتمل تقديرات مـختلفة فلك أن تقـول المعنى أتصرون على ذلك ولوجئـتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم؟ ولك أن تقـول أتقولون ذلك

ولوجئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم؟ وفى النهـاية تجد المقصود بالهمزة هو هذا المحـذوف المقدّر والذى يصـعب تعيـينه. وهذا السـؤال وحى من الله إلى النذير الأول والنذير الآخـر وما بينهـما عليـهم السلام وهو سؤال بـالغ السداد كاشف لأخفى ما فى نفس المسؤول ولذلك لم يجـدوا جوابا إلا الحقيقة المطوية عليهـا نفوسهم والتى راوغـوا من إظهارها ﴿**قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ**﴾ ضاربين صفحا عن الحوار وعن المناقـشة وعن الحق والهدى وعن كل ما يدعوا إليه المرسلون ووقفوا عند الحقيقة النهـائية ونزعوا عنها كل ستر وأرسلوها عارية صريحة، وتأمل بناء الجملة تجـد التوكيد فى أولها واسميـة الجملة وتقديم الجار والمجرور الذى هو المقصـود، ثم تأمل اللمحة الرائعة التى جـمعت كل الرسل فى قولهم ﴿**إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ**﴾ والأصل أن تقول كل أمة لرسولها إنا بما أرسلت به كافـرون ولكنهم كأنهم يخاطبـون بها جميع المنذرين وبلسـان واحد وبصـوت واحد يصل إلى كل رسـول ﴿**مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ**﴾ [غافـر: ٧٨]، وكأنهم عليهم السـلام بعثوا جـميعـا وصاروا حضورا فى مشـهد واحد، وخوطبوا جميعـا؛ ثم راجع كلمة الرسول التى هى كلمة كل الرسل وراجع فيـها كلمة ﴿**جِئْتُكُم**﴾ وما فيهـا من أنه يحمل إليهم رسالة ربهم، وأنه جاءهم بها كما يجىء حامل الرسالة بالرسالة، ولم يقل شيئًا من نفسه، ثم راجع الملاطفة التى فى قوله ﴿**أَهْدَى**﴾ وأفعل التفضيل يدل على المشاركة فى أصل الفـعل. وكأنهم حين قالوا وجدنا آبـاءنا على أمة كانوا على شىء من الهدى مع أنهم لـيسوا على شىء من الهـدى وإنما هو من باب إرخاء العنان والتسليم للخصم بشىء مما يدعيه ليأنس ويراجع وهو كقوله تعالى ﴿**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ [سبـأ: ٢٤] مع أنه لا شك فى أنهم فى ضلال مبين وكل هذه الدقائق مما فهمتها كل الأمم وبها استبان سبيل المجرمين.

قوله سبحانه ﴿**فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ**﴾ هذه الفاء تعنى أن ترتب الانتقام على الذى قـالوه كان بلا مـهلة وذلك لأن الذى أصر عـلى الكفر مع دعـوته للذى هو

أهدى لا أمل فيه ولا فائدة من إسهاله لأن قُفل قلبه شديد الإغلاق، وهذا الجواب يذكر بقولهم في أول فصلت ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت: ٥] ولو كان في صدورهم شيء قليل من طلب الهدى ومعرفة الحق وقال لهم الرسل ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ لقالوا أرنَا هذا الذى أهدى ولهم أن يحاجوا فيه، ويماروا وكان هذا يكون أخف من جوابهم وقولهم ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ لأن هذا يعنى أننا كافرون بالذى جئتم به ولو كان حقا ويقول المفسرون إن قولهم ﴿ بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ ﴾ فيه تهكم لأنهم لم يقروا بأنهم مرسلون وأن هذا كقول فرعون ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧] أو أن المراد إنا بالذى زعمتم أنكم أرسلتم به كافرون، وكل هذا صحيح وصحيح أيضًا أن يكونوا معتقدين أنهم رسل وأنهم كافرون بهم، وهذا هو الأنسب والأشبه بتلك المعاجلة بالانتقام المدلول عليه بالفاء ولو قلت فى قول فرعون ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ إن الحق الذى فى ضمير الرجل غلب على لسانه لم تكن بعيدا وقد علم الله منه ذلك وأوحي إلى موسى أن يقول له: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢] وهذا إخبار من موسى بخبر ربه أن فرعون يعلم أن هذه الآيات بصائر، وأنه ما أنزلها إلا رب السموات والأرض. وأن فرعون هالك، وكان هذا جديراً بأن يُنَبِّه فرعون لأن موسى عليه السلام حدَّثه بما يطوى عليه ضميره. ولكن الصوارف كانت طاغية وهكذا تجد إشارات يفتح بعضها الباب إلى فهم بعض وكلمة الانتقام تعنى المجازاة الغاضبة عن فعل يثير ويغضب ولله المثل الأعلى وحين يقول الرحمن الرحيم الذى أحاط الكل بنعمه البر فيهم والفاجر ﴿ فَانتَقَمْنَا ﴾ يدل ذلك على فجورهم فى المعصية واستخفافهم بالحق وبرسل الله الذين جاؤوهم بالهدى وقوله سبحانه ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

هذه الجملة معطوفة على قوله ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وهذه معطوفة على ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ وهذه الفاء تختلف عن الفاء المعطوف عليها لأن الأولى أفادت الترتيب بلا مهلة لتدل على معاجلة العقوبة الدال على الغضب، الدال على شناعة المعصية، وهذه الفاء تفيد الترتيب فقط من غير نظر إلى مهلة طالت أو قصرت لأن المراد الأهم أن الانتقام منهم صار عبرة منصوبة لكل من يأتي بعدهم لينظر ويتأمل. ويراجع، والنظر هنا نظر عقلي وليس بصريا لأنه غير ممكن وأنا وأنت مطالبون به مع بعد الزمان، وبعد المكان، على الكل أن ينظر في هذه العبرة؛ ولذلك تجد في جملة ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ دلالة راجعة إلى الجمل قبلها لأن الله لا يأمر الأجيال كلها وكل من يتأتى منه النظر من خلقه بالنظر في هذا الانتقام الذي صيره الله عجيبة في الأرض ينظر الناس كلهم إليها أقول لا يأمر الأجيال بذلك إلا إذا كان انتقاما مروعا فظيعا يزجر من ينظر فيه ويردع النفوس التواقة إلى الضلال، وكلمة كيف يسأل بها عن الحال والنظر المأمور به هو نظر في حال عاقبتهم؛ وهذا كلام مختصر جداً وبيانه هو شرح هلاك الأمم وبيان مصارعهم المذكور في آيات أخرى كقوله تعالى ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥]، ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] وفرعون ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] وهكذا، وهذا في الكتاب العزيز من الطي في موضع والنشر في موضع آخر ولكنه بمعنى أوسع مما قاله البلاغيون في باب الإطناب وهو جدير بأن يفرد ويدرس. وإنما قال سبحانه ﴿عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ولم يقل عاقبة الكافرين ليتلاءم مع قوله ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ ليشير بذلك إلى جرم آخر ارتكبوه. وهو تكذيب الرسل عليهم السلام، أما ذنب الكفر فقد تكفلوا هم بالدلالة عليه لما قالوا ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ وللكفر توابع من الذنوب والخطايا، وهي من البشاعة بمكان منها تكذيب المرسلين عليهم السلام كما هنا ومنها الكذب على الله، وأنه سبحانه

لم يرسل رسولا. ومنها التكذيب بالصدق ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر: ٣٢] ومنها كراهية الحق ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ ومنها الظلم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧] وهكذا.

وهذه الآية فاصلة تختم بها الآيات من قوله تعالى ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ وهذا ظاهر، وإذا قلت إنها خاتمة جامعة للآيات من قوله سبحانه ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ كان ذلك محتملا لأن قوله سبحانه ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ وما بعده يصدق عليه وصف المكذبين لأن من قال فى الله بما لا يعلم مكذب للعلم الصادق عن الله، وأنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] وهكذا تجد الخيوط موصولا بعضها ببعض وترتد بك المعانى حتى تصل إلى منبعها فى أول السورة.

قوله سبحانه ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

هذا جزء جديد من المعنى الداخل والمندمج فى بناء السورة والمتلائم تمام الملاءمة مع ما قبله وما بعده رغم أنه جزء جديد.

وأول ما أبادر ببيانه هو بداية هذا الجزء بكلمة (قال إبراهيم لأبيه) وكلمة «إذ» قبلها ظرف زمان لهذا القول والمراد اذكر لقومك هذا الزمن والحدث الذى كان فيه، وهو قول إبراهيم لأبيه، وإبراهيم ليس بعيدا عنهم وإنما هو أبوهم الذى أسكن أباهم إسماعيل بواد غير ذرع ودعا الله أن يجعل أفئدة من الناس تهوى إليه، فأجابه ربه، وجعل بيتكم محجوجا، ثم هو الذى أقام لكم القواعد من البيت، ثم هو الذى دعا الله أن يبعث فيكم رسولا منكم يعلمكم الكتاب والحكمة ويزكيكم ثم إنكم تفخرون بنسبتكم إليه، ولا تزال الحنيفية فيكم وفى

كـرامكم من أمثـال زيد بن عمـرو بن نفـيل العدوى القـرشـى وأميـه بن أبى الصـلت إلى آخره، وليس فى الآية إلا قول إبراهيم لأبيه وقومه ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾، وهذا هو الأشبه والأشكل لبيان فساد قولهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ ولو كان هذا صـوابا لأقر أبوكم إبراهيم أباه على ما كان عليه واتبـعه، وهذا الموقف الصغير من قصـة إبراهيم عليه السلام هو المناسب هنا، ومـا كان للزخرف أن يجىء فـيها مـثلا ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] لأن المقـام هنا مقام تشـبث بما كان عليه الآباء؛ وكـلام إبراهيم هنا كله فى نقض ما كان عليـه الآباء، ولم تذكر الآية تشبث أبيه بما كـان عليه الآباء وقوله لإبراهيم ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦] لأن هذا ما ينبـو به المقام هنا وإنما انتقت من حكايات إبراهيم عليه السلام ما يتلاءم ويتداخل ويذوب وينداح فى بناء السورة.

وهذا باب جليل جدا وقد نبهت إليه فيما جاء من قصة موسى عليه السلام فى سورة غافر والذى معنا هنا من قصة إبراهيم شـبيه الجزء الذى انتقته سورة الممتحنة من قصة إبراهيم فى قوله تعالى ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ [الممتحنة: ٤].

ولاحظ أن الكلام هنا ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ فجاء قول إبراهيم لأبيه ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ وهناك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحـنة: ١] فجاء «**كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء**»، وإنك لتجد متعة عـالية حين تكتشف هذه الملاءمات التى تجـعلك توشك أن تقـول إن القصص الـقرآنى لم يتكـرر لأن كل موقع كـان اختيارا واضحا للسياق وكأن السياق هو الذى مد يده للقصة المتنوعة الأحداث

واختار منها الفصوص التى يدخلها فى بنائه وهذه الفصوص لم تدخل إلا هنا ولا يتصور دخولها فى غير هذا الموضع إلا إذا تصورنا أن السياق يتكرر وهذا بعيد. بل هو مستحيل.

وجملة ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ جملة دالة على قوة اعتقاد إبراهيم عليه السلام فى التبرى مما كان عليه أبوه وقومه، والذى كان عليه أبوه وقومه هو ما وجدوا آباءهم له عابدين، أو وجدوا آباءهم كذلك يفعلون فسلسلة التوارث، والتقليد والتبعية متواصلة والذى فصمها هو أبوكم إبراهيم عليه السلام، وقوة الاعتقاد فى التبرى مدلول عليه بالتوكيد، واسمية الجملة، والإخبار بالمصدر وأنه عليه السلام لم يقل إننى برىء وإنما قال إننى براء وبراء مصدر، ثم إنه براء من كل ما يعبدون وهذا يعنى عموم فساد الاعتقاد فى قومه، وأنه عليه السلام أعلن البراءة من ذلك كله مرة واحدة، وهذه الجملة جاءت ملخصة لجمل كثيرة تفرقت فى آيات كثيرة من مثل قوله سبحانه ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧] وقوله ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] وكلٌّ جرى فى سياقه والآيات هنا تقتضى جملة البراءة هذه التى يواجه بها أباه وقومه، وقوله سبحانه ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ فيه هداية وإرشاد، وأن الذى يعبد هو الذى خلق، وأنه بالخلق يستحق أن يعبد، وليس هناك استحقاق إلا بهذا، ولذلك جاء باسم الموصول، ولم يقل إلا الله وكلمة ﴿فَطَرَنِي﴾ جىء بها هنا والله أعلم لقوة دلالتها على الإنشاء من العدم، من قولهم فطر البئر أى شقها، وفطرت نابه أى شقت اللحم وبرزت، والذى فطرك هو الذى شق عنك العدم، وأخرجك من كتمه، وهذا أظهر فى القدرة وأظهر فى النعمة وأخصر فى بيان المراد فى السورة وقد جاء فى سورة الشعراء ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي

﴿إلاَّ رَبَّ الْعَالَمِين (٧٧) الَّذى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذى هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٩] وحذو الكلام متقارب كما ترى وإنما جاء برب العالمين فى الشعراء ليناسب ما ساقه بعده من أنه يربيه ويطعمه ويسقيه وإذا مرض فهو يشفيه، وكل ذلك من شأن رب العالمين سبحانه وما كان يمكن أن يقول فإنهم عدو لى إلا الذى فطرنى ثم يقول الذى يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين، وفرق بين ﴿إنَّنِى بَرَاءٌ﴾ و﴿فَإنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ فالعداوة اقتضت ذكر رب العالمين وذلك لدلالة كلمة ﴿ربَّ﴾ على الرعاية والعناية والرحمة وكلمة ﴿مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ تقتضى ذكر الذى فطرنى لأنه لا يبرأ أحد من عبادة الذى فطره وقوله ﴿فَإنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ هذه الفاء تفيد أن الهداية فى الدين شأن الذى خلق وأن الدين له وليس لغيره منه شىء، وأن الهدى منه وليس لغيره منه شىء ﴿ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] وأن الأمر والنهى الذى هو الهدى والدين أمره وحده ونهيه وحده، وأن الصراط المستقيم الذى هو محض الهدى ومحض الدين لا يرسمُه ولا يحدده إلا الذى فطر، ومن ابتغى الهدى فى غير دين الله ضل. هذا بعض شأن هذه الفاء، ووراءها ما وراءها وهذه الفاء هى التى فى سورة الشعراء فى قوله تعالى ﴿الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] وتقديم المسند إليه فى هذه الآية على الخبر الفعلى يفيد الاختصاص يعنى لا يهدينى إلا هو وكلمة (إنَّ) فى قوله سبحانه ﴿فَإنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ لتوكيد نسبة الهداية إلى الذى فطرنى وهذه الجملة راجعة بالرفض واللوم والتسفيه لقولهم ﴿إنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ بعد قول الرسول لهم ﴿أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ لأن معنى قول الرسول أن الأهدى هو ما جاء به المرسلون صلوات الله وسلامه عليهم وأن المستكبرين المسرفين هم الذين يرفضون هدى الله، ويبحثون عن الهدى فى غير ما أنزل الله كان هذا وهو لا يزال فى الناس ووضع القوانين الأرضية موضع القوانين الشرعية هو عينه المدلول عليه بآية ﴿أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ

قَالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُم بِهِ كَـافِرُونَ﴾ والسين التـى فى قوله ﴿سَيَـهْدِينِ﴾ ليست السين التى فى قولنا سـأفعل ذلك غدا، لأن الهداية صفـة ثابتة لإبراهيم عليه السلام وهو عليه السلام أبو الأنبياء وهو الأوَّاه المنيب وقد واجه بالهدى الذى هداه الله إليه ضلالات طاغية فى قومه وقـد دفعهم طغيانهم وضلالهم إلى أن أعدوا له بنيانا وألقوه فى الجحـيم وقال الله سبحانه ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيـمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] ولم أعــرف أن واحــدا من أنبـياء الله واجه ما واجه أبو الأنبـياء صلوات الله وسلامه عليه وفى هذه السـين معنى الرجاء وهو استـمرار هذا الهدى حـتى يلقى الله وهو من المهتديـن وحتى يلقى الله وقـد ألحـقـه ربه بالصـالحـين ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِـقْنِي بِالصَّـالِحِـينَ﴾ [الشعراء: ٨٣] وراجع كلمة ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ وكيف يرجو أبو الأنبياء أن يلحق بالصالحـين؟ وهل ترى رفعا لدرجة الصـالحين أعلى من هذا الرفع، وإذا كانت النبـوة منزلة اختار الـله لها أنبيـاءه فإن الإصلاح والصـلاح بقيت منزلة متاحة لكل من جد فى طلبها ورزق الإخلاص والتوفيق.

وقوله سبحانه ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الجملة الأولى تمت عند قوله ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ وقد بينا استدعاء قولهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ لها وهذه هى الجملة الثانية وهى معطوفة على قوله ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ وهى من تمام معناها وذات صلة وثيـقة بقولهم إنا وجدنا آباءنا عـلى أمة لأنها نقض لها لأن الذين قالوا هذا من عقب إبراهيم عليـه السلام وقد جعل كلمة التوحيد باقيـة فيهم يقولها الذاكرون لها من الحنفاء ويسـمعها من حولهم من ولده ومن غير ولده، والضمير فى قوله ﴿جَعَلَهَا﴾ عائد إلى قوله ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِي﴾، وهى حقيـقة كلمة التوحـيد وهى المراد بالكلمة لأن الكلمة تطـلق على الكلام كقولهم كلمة الحويدرة يعنون قـصيدته «بكرت سمـية» وابن مالك يقـول: «وكِلْمَةٌ بهـا كلام قد يُؤَمّ» يعنى يقـصد،

و﴿ بَاقِيَةً ﴾ حال و﴿ عَقِبِهِ ﴾ ذريته وهى حال ثانية. والجملة تعنى أن كلمة التوحيد باقية فى ذرية إبراهيم عليه السلام إلى يوم القيامة فهى فينا إرث أبينا وهو عليه السلام أكرم الآباء وهى إرث ليس فوقه إرث ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج: ٧٨] وقد أوصى بها إبراهيم بنيه قال تعالى ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢] والآية فيها معنى جليل وهو أن إبراهيم وصى بنيه ووصاهم بأن يوصوا أولادهم فاستجاب يعقوب ووصى بنيه والوصية تقول ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ ﴾ يعنى اختاره لكم فهى وصية أبينا واختيار ربنا وليس ألصق بالقلب المبرأ من الآفات من وصية هى وصية أكرم الآباء واختيار القريب المجيب.

ومعنى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ رجاء أن تكون هذه الكلمة التى هى كلمة التوحيد والتى هى أفضل ما قاله رسول الله ﷺ والنبيون من قبله أن تكون بمثابة النور الذى يهديهم فيرجعون إلى طريق الله إذا أضلتهم الشياطين أو أن تكون بمثابة صوت فى أعماق نفوس ذرع إبراهيم عليه السلام يدعوهم إلى الهدى وإلى طريق الله إذا تفرقت بهم السبل عن سبيله.

وقد ذكر علماؤنا أن كلمة التوحيد لم تنقطع من عقب إبراهيم عليه السلام وقد كانت فيهم النبوات وذكر الشيخ الطاهر أن سلسلة نسب رسول الله ﷺ إلى إبراهيم عليه السلام كانوا أهل توحيد وأنهم كانوا يخفون ذلك عن قومهم اتقاء للفتنة وأن عبد الله كان موحدا وعبد المطلب كان موحدا وهاشم كان موحدا وعبد مناف وقصى إلى إبراهيم عليه السلام، وأضيف إلى ذلك أن وثنية العرب كانت أقرب إلى التوحيد من وثنية الأمم القديمة ولوقسنا جاهلية اليونان أو الفرس بجاهلية العرب لوجدنا العرب أقرب إلى الله لأنهم كانوا يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾

«ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء ليقولن الله»، وفى شعرهم ما يدل على أنهم يعتقدون أن الذى يسوق السحاب هو الله وأنه ما شاء الله كان «ولو شاء ربى كنت قيس بن عاصم» وكانوا يعتقدون أن للأشياء آمرا إذا حاول الأمر لا يغلب، ونجد الله فى الشعر كثيراً جدا ولا شك أن لبيت الله الحرام أثرا كبيرا فى ثبات معنى الألوهية وكانوا يعظمون البيت ويقسمون برب البيت ويعظمون المناسك ويعظمون الحرم ويعظمون الإحرام وإبل الحجيج ولم أعرف قوم نبى دخلوا فى دين الله أفواجا قبل موته كما دخل قومه صلوات الله وسلامه عليه، مع أنهم لم يأتهم نذير فى الزمن الذى بينه ﷺ وأبويه إبراهيم وإسماعيل.

وبهذه الفاصلة ينتهى هذا الجزء وراجعه لأنه جملتان توجزان معانى كثيرة جداً وقد نبه الطاهر إلى أن الواو التى بدأ بها هذا الجزء عاطفة غرضا على غرض يعنى معنى على معنى والمهم أن المعنى المعطوف عليه هو قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ وهذا يدعو إلى مراجعة شىء طالما أهملناه وهو علاقة المعطوف بالمعطوف عليه وبيان الوحه الجامع لأنه لابد أن يكون المعطوف بسبيل من المعطوف عليه كان ذلك فى الجمل مثل زيد كاتب وعمرو شاعر أو كان فى الأغراض والمعانى، وهذه المراجعة تبين أن المعطوف هو الوجه الثانى للمعطوف عليه لأن المعطوف يبين تبرى أبى الأنبياء مما كان عليه الآباء والمعطوف عليه يبين تشبث الأبناء بما كان عليه الآباء فالمعطوف من تمام معنى المعطوف عليه وأن ضلالة ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ ضلالة قديمة قامت النبوات من أول عهد أبى الأنبياء على هدمها، وأن الخطر الكامن فيها هو أن إرث الآباء قد تكمن فيه ضلالات وعادات سوء وقيم فاسدة فيتشبث الأبناء بها لأنها جزء من إرث عزيز عليهم وهذا فساد والمطلوب المراجعة.

قلت إن قوله تعالى ﴿وإذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ﴾ معطوف على قوله جل شانه ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ ولو قلنا إنه معطوف على أول المعنى وهو قوله سبحانه ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ لكان أظهر لان جملة ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا﴾ التى قال العلماء إنها هى المعطوف عليها جملة اعتراضية على بعض الوجوه وسواء كانت اعتراضية أو غير اعتراضية فعطف رأس جزء المعنى على رأس جزء المعنى الذى قبله يكون أبين وأشبه وأظهر وقد استخرج العلماء من قوله تعالى ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أن أهل الجاهلية يحاسبون على الكفر، لأن بقاء كلمة التوحيد فى الأمم الإبراهيمية يعنى أنها بلغت الجاهليين وغير الجاهليين وهذا واضح لأن العرب كان منهم الحنفاء ولم يكن التوحيد مجهولا فيهم كما قدمنا، قال الشيخ الطاهر فيتجه مؤاخذة المشركين على الإشراك قبل بعثة محمد ﷺ لأنهم أهملوا النظر فيما هو شائع بينهم، أو تغافلوا عنه، أو أعرضوا فيكون أهل الفترة مؤاخذين على نبذ التوحيد فى الدنيا ومعاقبين عليه فى الآخرة وعليه يحمل ما ورد فى صحيح الآثار من تعذيب عمرو بن لحى الذى سن عبادة الأصنام، وما روى أن امرأ القيس حامل لواء الشعر إلى النار يوم القيامة، ثم بين أن بلوغ دعوة التوحيد لجميع الأمم بما تناقله الناس عن الأنبياء هو دليل أهل السنة الذين يقولون إن معرفة الله واجبة بالشرع وليس بالعقل وقد وجبت على الناس فى الجاهلية معرفة الله لما بلغهم من كلمة التوحيد التى شاعت فى عقب إبراهيم، وأشاعها الأنبياء من ذريته قبله وعليه اعتمد من قالوا إن أهل الشرك من أهل الجاهلية مخلدون فى النار.

وهناك فريق يرون أن معرفة الله واجبة بالعقل لا بالشرع ومنهم الماتريدية وهؤلاء لا يلتفتون إلى بلوغ كلمة التوحيد لأنها يستدل عليها بالعقل لا بالشرع، وفي المسألة كلام آخر، وإنما دعا إلى ذكرها هنا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ وقد ذكر البقاعى ملحظًا حسنًا هو أن السين

فى قوله ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾، ناظرة إلى قوله ﴿بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ وتشير إلى أن هداية العقب من تمام هدايته ﷺ، وهذه لمحة بعيدة وجيدة.

قوله سبحانه ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾.

هاتان جملتان كل جملة آية كالجملتين السابقتين والجملتان هنا يعبران عن جزء من المعنى له استقلاله وحدوده وإن كان مشدودا بما قبله وبما بعده، وكذلك كانت الجملتان السابقتان تعبران عن جزء من المعنى له استقلاله وحدوده وإن كان مربوطًا بما قبله وبما بعده.

وكلمة بل معناها الإضراب، وهو كثير فى هذه السورة التى تُعدِّدُ كُفْريات القوم وهذا المعنى من شأنه أن يكثر فيه معنى الإضراب، وقد ذكروا أن بل معناها الإضراب الإبطالى لأنها تبطل ما قبلها وهو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وذلك لأن عقبه دخل منهم فى ضلالات الوثنية من دخل. ولم تُرْجعهم كلمة التوحيد، وقوله ﴿مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ تأكيد لمعنى إبطال ما قبلها، لأنهم شغلوا عن التوحيد، ولما جاءهم عارضوه، وهذا واضح وقد تكون بل للإضراب الانتقالي، الذى يتلخص في أن الكلام بها ينتقل من معنى إلى معنى، وقد كان الكلام السابق يحكى قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه، وهذا الكلام يحكى قصة أهل مكة مع رسول الله ﷺ، وهم ونبيهم صلوات الله وسلامه عليه من ذرع إبراهيم وإن اختلف وجه الكلام، فالكلام الأول حديث عن إبراهيم عليه السلام وليس فيه ذكر لقومه والكلام الثانى حديث عن قومه صلوات الله وسلامه عليه، وإنما يجيء ذكره فى طى الحديث عنهم، وكلمة (متعت) تعنى الإنعام بالصحة والثروة، والمال، والولد، وما زُيِّن للناس من حب الشهوات، وهذا المعنى المتبادر من لفظها ليس كافيًا لسياقها، لأن قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾

يعنى نهاية هذا التمتع ولم يكن الأمر كذلك بل بقى القـوم يتقلبون ويتمتعون بنعم الله عليهم، كما أننا لابد أن نلاحظ أن هذه النعم وما تشتهيه الأنفس لم تكن خاصة بهم وبآبائهم ولم تكن خاصـة بالمشتغلين عن الله، وإنما هى عامة للصالحين وغير الصالحين فـلابد أن يكون فى الكلام معنى آخر حتى يلتئم مع قوله ﴿حَتَّىٰ جاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ وهذا المعنى الآخر هو أن تمتعـهم وآباءهم شغلهم عن التوحيد الذى جعل أبوهم إبراهيم كلمته باقية فيهم وشغلهم عما سمعوه من أخبـار النبوات وبقـايا الحنفاء؛ وأرض العـرب هى أرض هود وصالح وشـعيب وإبراهيم وإسماعيل ولوط، صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا، فليسوا بمعزل عن التوحيد ولكنهم شغلوا بنعم الله عن الله وهذا أسوأ ما يقع فيه الإنسان. ثم إنه من نعم الله عليـهم أنه أمهلهم زمـانا طويلاً ولم يكلفهم بشـريعة منذ أبويهم إبراهيم وإسـماعـيل، وظلوا كذلـك حتى جـاءهم الحق وبدأ التكليف وبدأ الإلزام وبذلك دخلوا مرحلة ثانيـة ستُبَيِّنُهَا الجـملة الثانية، والمهم أن هذه الجملة الأولى طوت هـذا التاريخ الممتـد من إبراهيم وإسمـاعيل إلى محـمد صلوات الله وسلامه عليـهم أجمعين، وأجملت حالتـهم مع نعم الله وإمهال الله لهم، وأنهم عاشوا مغتبطين متمـتعين فى نعمة وثروة غير مطالبين بشريعة إلا ما شرطوه على أنفسهم وما تواضعوا على إقامة حياتهم عليه.

ثم إن إسناد التمـتع إلى ضمـير المتكلم جل شأنه، ووقـوع التمـتع عليهم وعلى آبائهم من الكلمات الصادرة عن عز الربوبية، لأن الإنعام على الأجيال والأجيـال قبل الأجـيال لا يكـون إلا من الذى لا يعـجـزه شـىء فى الأرض ولا فى السماء، والكلمات الصادرة عن عز الربوبية لها فى كلام الله شأن أى شأن ثم إن كلمة ﴿آبَاءَهُمْ﴾ تقرب هؤلاء الذين كانوا فى زمن البعثة من أبيهم إبراهيم عليه السلام. وتجعلهم امتدادا لقوله ﴿بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ ثم إنها ترجع بنا لا محالة إلى المترفين الذين ذكروا فى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ ثم إن هؤلاء الـمُتْرفين والذين مُتِّعُـوا بالثروة والعافية والمال والولد هم

دائمًا الذين يصدون عن سبيل الله، إلا من عصم ربك، ومن ورائهم دائمًا المستضعفون الذين يقولون ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ [غافر: ٤٧]. والتبع جمع تابع كالخدم جمع خادم، وهذه هى مشكلة المجتمع المعاصر، وأن أحداثه من صناعة أصحاب الثروة الذين إذا حكموا زادوا هؤلاء الفقراء والتبع فقرًا حتى يسهل امتلاكهم، وشراء ذممهم، وهذا سلوك لا يرضاه حرٌّ كريم، ولكنهم ليسوا كذلك والذين مكنوهم ليسوا كذلك وترى الأغلبية المزعومة فى المجالس النيابية المصنوعة هى أغلبية من ورائها المطحونون الذين أعاد النظام طحنهم فى دورة بعد دورة حتى صاروا قطيعًا توجههم لقمة الخبز، إلى الجهة التى يريدها من يملك هذه اللقمة، وهذه هى اللعنة المدمِّرة التى يصنعها المترفون فى زماننا هذا وفى بلدنا هذا.

وكلمة ﴿حَتَّىٰ﴾ تشير إلى نهاية مرحلة، وأنها طالت وقد أشارت آيات إلى طول زمن تمتع الأمة وأنهم ما جاءهم قبلك من نذير وأنهم ما أُنْذِر آباؤهم من قبل.

والنذير تكليف والانتقال إلى مرحلة الإلزام والثواب والعقاب، وكلمة ﴿جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ كلمة جليلة لأنها أشارت بأداة التعريف فى الحق إلى أنه الحق المتعالم المشهور، وأنه الحق كل الحق، وأن من أراد أن يتعرف على الحق فى صورته الصافية العالية التى لا يكدرها شىء والتى تُصَوِّرُ المثل الأعلى لحقيقة الحق فلينظر فى الذى جاءك. وهو الكتاب العزيز، الأمر الثانى فى هذه الجملة أنها أسندت المجىء إلى الحق، ولم تقل مثلاً حتى جئتهم بالحق أو جاءهم الرسول بالحق، وإنما جعلت الحق نفسه هو الذى يكون منه المجىء وهذا تأكيد أنه لم يصدر عن إنسان ولا تعينه يد إنسان، وأنه وحده يجىء، وأنه وحده يواجه الطغيان، وأنه وحده يواجه هؤلاء الذين أبطرتهم النعمة، وأماتت نفوسهم فامتهنوا الطبقة الكادحة الضائعة، وجعلوها تحتهم، وصرفوها إلى الوجه الذى

يريدون، هذا الحق الذى هو القـرآن هو القادر وحده على سـواجهـة الباطل الذى تجَمَّع وتأصّل فى أجيال متتابعة أطْغَتْـها النعمة، وقتل الترف ضمائرها، ولا أشك فى أن دخول﴿ حَتَّىٰ ﴾ على ﴿ جَاءَهُمُ الْحَقُّ ﴾ فيـه هذا المعنى الذي قلته وأن هذا الحق الذى هو القـرآن هو وحده الـقوة القـادرة على المواجهـة مع تكتل البـاطل المتوارث عبر العصور والذى ليس صنـاعة جيل واحد، وكأنه هو الجيش الذى لا يقهر والقوة التى لا ترد، والمقتحم الذى لا يصده شيء، وهذه هى الحقيقة التى تراها عيوننا لم يُفزع طواغيتَ الأرض شيءٌ كما يُفْزعهم القرآن، سواء كان هؤلاء الطواغـيت على أرض أهل الإسـلام أو على أرض أهل الكفـر، ولهذا تجـد هَمَّ الاشتغال بالفكر والثقافة هو من أهم الشواغل. وأن كل التوجهات فى خط واحد هو البعد عن ثقافة القرآن وفقه القرآن، كـما أنك لو دخلت معتقلات الفجرة فلن تجد فيها أكثر من أهل القرآن، وقوله سبحانه ﴿ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ المراد به محمد ﷺ والمبين اسم فـاعل من أبان والمراد أنه مُبين عن آيات لا يَدْفَـعُهَـا دافع ولا ينكرها منكر، وأنه مـبين عن رسالة جليِّـة ظاهرة قاهرة، ومـبين عن حلالهـا وحرامـها وثوابها وعـقابها، إلـى آخر باقي رسالتـه صلوات الله وسلامـه عليه، وهذا من الأوصاف العجـيبة التى لا نستطيع أن نحـصر دلالاتها، والتنكير فى رسـول فيه معني التعظيم يعنى رسول أى رسول صلوات الله وسلامه عليه.

ولا شك أن تعريف الحق باللام الدالة على الكمال وأنه عرف بذلك وشُهِرَ به وأنه محض الحق فى أعلى صوره إلى آخره وتنكير الرسول وإن كان تنكيره دالا على التـعظيم أقول لا شك أن هذا التـفاوت فى طريقـة التعـريف تعنى الاختلاف والتميز بينهما، وإنما شرف الرسول ﷺ وشرف قومه بنزول القرآن، وأن عمود النبوّة هو القرآن، وأنه كلام الله وكـلامه صفته والله موصوف بكل كمـال، ومنزه عن كل نقص وأنه سبحانـه ليس كمثله شيء، وكذلك كـلامه ليس كمثله كلام، وعلمه ليس كمـثله علم، وقدرته ليس كمثلها قدرة، قلت هذا لأننى لا أسـتطيع أن أدفع الفـرق بين الكلمـتين وأنا أردد وأراجع وأتدبَّر

﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾، وقوله سبحانه ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ لاحظ تكرار جملة ﴿جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾، وما فيها من هيبة، وجلال، وقوة لا تغالب، وكأنه جيش لا يهزم ولا أشك فى أن الأمر كذلك، وأن أعداء القرآن ليس لهم شاغل إلا هو يحرفونه ويؤولونه ويصرفونه عن معانيه ويحذفون منه ويعلنون أنه هو القوة التى تُهدِّدهم وأرى كل ذلك وأكثر منه فى قوله ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ ثم ألاحظ أن الرسول المبين لم يذكر فى هذه الآية الثانية وكأنه قد توارى وبلّغ وانتهى أمره والموقف الآن موقف القرآن الذى عُبِّر عنه بكلمة الحق، وقولهم ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ ووقوع هذه الجملة جوابًا للمَّا الحينية التى فيها معنى الشرط ودلالة هذا الموقع على أنهم قالوا ذلك وقت مجيئه، وأنهم عجلوا إلى ذلك ثم دلالة اسم الإشارة الذى يؤتى به للدلالة على العناية بالخبر وإسناده إلى المبتدأ وذلك لأن اسم الإشارة يميز المشار إليه أكمل تمييز فيقع الإخبار عنه بعد هذا التمييز للإشارة إلى العناية بهذا الإخبار ثم الإخبار عنه بهذا اللفظ الغامض المبهم والذي كثر دورانه على ألسنة الناس ولا يزال مطوياً على غموضه وسره أقول كل ذلك يؤكد المعنى الذي استخرجناه من جملة ﴿جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ وأنهم لما سمعوه، وقعت مهابته فى قلوبهم وحيرتهم وزلزلتهم واستفزتهم وأخافتهم، ولم يستطيعوا المواجهة وإنما فزعوا إلى هذه الجملة الغامضة الدالة على الحيرة والتخبط والفزع والخوف من مجهول.

وقولهم ﴿وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ والجملة مؤكدة بما ترى من حرف التوكيد، وإسمية الجملة، وتقديم الجار والمجرور، وكل هذا لتأكيد كفرهم به؛ مع أن كفرهم واقع وليس فى حاجة إلى توكيد، وكأنهم لما سمعوا القرآن استشعروا خطره وقدرته على اقتحام نفوسهم، وقدرته على الاستيلاء على الحصون التى أسكنوا فيها إصرارهم على الكفر، وقدرته على الاستيلاء على الأكنَّة التى وضعوا فيها قلوبهم، وقدرته على اختراق الوقر الذي فرضوه على آذانهم، واستشعروا خطرا يتهدد

هذا كله فاعتراهم ما يعترى من ينتزع من مكان تحصن فيه فتشبثوا بالتوكيد، ولا تنكر ذلك وراجع مثل قولهم. ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] وكيف كانوا يتهيبونه ويرون البعد عنه هو طريق النجاة من سطوته، فلما فتح الله قفل قلوبهم كما قال سيدنا أبو سفيان كانوا من علمائه وفقهائه واستنبطوا واستخرجوا وأفادوا الأجيال من بعدهم.

وهذه الجملة شبيهة بجملة ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ وقولهم ﴿وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ هى هى ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ وإنما أردت بذكر هذه المشابهة فى الصياغة أن أقول إن ثمة مشابهة فى السياق لأن الأولى جاءت فى سياق العناد، والإصرار، وإدارة الظهر للهُدَى وللأهْدى، وللحُجَة إلى آخره وإعلان العناد والإصرار على الكفر، ولوجئت بما هو أهدى، والشبيه هنا هو أنهم لما جاءهم الحق وسمعوه وأدركوا أُخذته واقتداره واستيلاءه على نفوسهم أداروا ظهرهم لهذا الذي رأوه كفلق الصبح وعرفوه كما يعرفون أبناءهم ونطقوا بما نطق به أوائلهم الذين واجهوا مثل ما واجهوا من ظهور الحق والإصرار على رفضه. هذا والله أعلم.

قوله جل شأنه ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾، معطوف على قوله ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾ وهو من مقول القول الذى هو جواب لما الحينية، وأنهم قالوا ثلاث كلمات: ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾. ﴿وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ يعنى استقبلوا الحق لما جاءهم وجاءهم به الرسول المبين بهذه الجمل الثلاثة ولو فتّشت فيها فلن تجدها صادرة عن عقل وإنما هي صادرة عن عناد وحيرة وإحساس دفين بأن الذى جاءهم هو الحق وأن الذي جاء به رسول مبين وأنه غالب لهم فى قرارة أنفسهم،

وراجع مرة ثانية قولهم ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾ كلمة فارغة وكاذبة لأنــهم يعرفون السحر ويعلمون أنه ليس بسحر. وكلمة ﴿وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ كلمة ليس وراءها أى قدر من التفكير، وكل فارغ وكل تافه يستطيع أن يقول عن أى شيء عظيم إنه كافر به فإذا أضفت إلى ذلك قوله ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ وجدته كلام من لا يكلِّف نفســه شيئًـا إلا التقليد، وهو مـعصوب العـينين، وهكذا لو جمـعت كلام أهل الضلالة في الكتــاب العزيز ودرسته فلن تجد فـيه أي تفكير ولا أى معــاناة عقلية وإنما هن مثل قولهم ﴿لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الفرقان: ٧] ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ [الفرقان: ٨] ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ [الإسراء: ٩٣] ليس هناك نقض للأدلة الدامغة والظاهرة التى يخاطبــهم بها الكتاب العزيز، وإنما هو هروب وتهــويش كالــذى تسمــعه حـولك من المتنورين جــداً الذين شُـغْلهم الشاغل مهاجمة التدين وقــد أخبرنا ربنا أنه تشابهت قلوبهم، والغريب فى زمان كتابة هذا الكتاب أنــك لو وصفت الإلحاد وقلت هذا إلحاد تعاقب بتهــمة التكفير ومــا أدراك ما هى ومنهــا أنك تداهم فى بيــتك، وتوضع الســلاسل فى يديك، وترمى فى غياهب المعتقــلات ولو برّأك ألف قاض وقاض لأنك قلت للإلحاد هذا إلحاد. أمــا الذى يصنع الإلحاد فــهو مكرَّم ومن النخبــة وحامل مشــعل التنوير، وظافر بجــوائز الفجرة، ومــواجه مُتَـحضِّرٍ للفكــر الظلامى وبهذا تتحــرك البلاد وتقطع كل يوم مــسافات جــديدة ولكنها إلى الوراء وهذا مما يفــزع الأحرار على مستــقبل أوطانهم ولا خير فى من لم يــحم ترابه وترابنا هو عظام آبائنا والحر لا تغفل عــينه عن الذى يجرى على تــرابه. وكلمة ﴿لَوْلا﴾ فى قوله سـبحانه ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ دخلت على فعل لا يمكن وقــوعه وهى أخت لولا التى فى قوله تــعالى ﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور: ١٣] وقد واجــهوا بالجملتين السابقتين ﴿هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ الحق لـمَّا جاءهم. وهم فى هذه الجملة يتوجهون إلى الرسول المبين، وكانوا فى غنى عن هذا لأنهم أعلنوا كفرهم بما جاء به فليس هناك ما يقتضى الحديث عنه، ولكنهم أرادوا أن يؤكدوا كفرهم،

ورفضهم، وأن يظهروا حمينهم فى هذا الكفر، وهذا الرفض، ووراء ذلك إحساس دفين بأنهم مغلوبون ومحجوجون لأن الذى جاءهم بيان معجز وهم أعلم الناس به ولم تسمعه أذن من آذانهم إلا داخلها الإحساس القاطع بأنه ليس من كلامهم، وكما قال أبو سفيان وهو في عنفوان كفره ومحادّته لرسول الله ﷺ وتجميع الجموع لقتاله قال بعدما سمع القرآن وسئل عن رأيه فيما يسمع «لو كان من كلامنا لعرفناه» وقولهم ﴿هَذَا الْقُرْآنُ﴾ قالوا أرادوا بتسميته قرآنًا السخرية كقول فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] وليس ببعيد أن يكون الحق الذى غلب على باطنهم قد غلب على ألسنتهم وأنهم ذكروه بوصفه لأن هذا إقرار خاطف بحقيقة القرآن فى نفوسهم وأنه كلام الله، ويرجع ذلك أن كل كلام قالوه في الدفاع عن عقيدتهم والدفاع عن موقفهم المعارض للقرآن ليس له أى قيمة، لأنه ليس فيه حُجّة ولا شبه حُجّة وإنما هو قول هلهل النَّسْج كما كان يقول النابغة، وهم أعلم الناس بذلك وإنما هى الأحداث والأقوال التى تكون قبل لحظة الاستسلام، ولم يمض يوم وهم فى هذه المعمع من المناقضة إلا ويَدْخُل فيهم واحد أو أكثر في دين الله.

وهذه الجملة التى قالوها فى الذى نزل عليه القرآن صلوات الله وسلامه عليه من جملة أكاذيبهم التى يعلمونها علم اليقين، وقد فسر العلماء القريتين بمكة والطائف والعظيم الذى أرادوه مختلف فيه، وكل بطن من العرب زعمته قالوا هو الوليد بن المغيرة المخذومي من مكة، وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفى من الطائف، وقالوا عتبة بن ربيعة، وكنانة بن عبد ياليل. وقالوا المغيرة وعروة ابن مسعود. قلت إن قولهم ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ من جملة أكاذيبهم التى يعلمونها علم اليقين وذلك لأنهم لم يعلموا أعزَّ وأكرم من محمد فى رجالهم، وكلمة أبى طالب التى قالها فى خطبته لخديجة بنت خويلد لرسول الله ﷺ قبل مبعثه بخمسة عشر عامًا دالة على ما أقول، لأن أبا طالب قال قد عرفت العرب أنه ليس فيهم من يعدل ابن أخى وأجابه كبار وشيوخ قريش بأنه كما قال، هذا شىء والشىء الآخر أن جده

عبد المطلب كان سيد مكة وهو صاحب الإبل. وهو الذى كان يُطعم الوحش والطير، وأن جده هاشم هو الذى انتهى إليه عز بنى عبد مناف، وأن جده عبد مناف هو الذي انتهى إليه عز بنى قصى. وأن جده قصي هو الذى انتهى إليه عز قريش. وأن قريشًا هى التى انتهى إليها عزُ مضر، وكل ذلك لا خلاف فى شيء منه، وقد أومأت الآيات بعد ذلك إلى أنهم أرادوا بكلمة ﴿عَظِيمٍ﴾ صاحب الثراء، وليس عراقة النسب، لأنه عليه السلام ليس أعرق منه نسبًا، ولا أرفع منه خلقًا ولا أسخى منه يدًا، ولا أعظم منه أمانة، ولا أصدق منه لهجة، ولا أشجع منه قلبًا، ولا أحكم منه عقلاً، صلوات الله وسلامه عليه، وكلهم يعرف عنه ذلك وفوق ذلك قبل بعثته ﷺ، وكانت هذه الجملة أشد كلامهم بعدًا عن الحق. وقد جاءت جملة ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ نقضًا كاملاً ووافيًا وسديدا لمعناها، وتلاحظ الفرق الهائل بين الكلامين؛ جملة مؤسسة على التلبيس والتدليس. وجملة مؤسسة على الحق والصدق والسداد، وبيان ذلك فى هذه الجملة أن همزة الاستفهام الداخلة على المسند إليه المقدم على الخبر الفعلى دالة على إنكار أن يكونوا هم خصوصًا مؤهلين وبمثابة من يقسم رحمة ربك، ثم إن محض معنى الإنكار فى الهمزة أن يعود السامع إلى نفسه، وأن يضع بين عينيه هذه الحقيقة وهى قسمة رحمة الله، هل يجوز فى عقل ذى عقل أن تكون الرحمة رحمة الله، وأن يقسمها غيره سبحانه، مع أنه يقسم لعباده ما هو أدنى من ذلك بكثير وهو معشيتهم فى الحياة الدنيا؟، ثم إن الجملة الكريمة سمَّت القرآن رحمة، فردت بهذه الكلمة قولهم فيه ﴿سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ وسفَّهت بهذه الكلمة كل من حادُّوه وعارضوه وينأون عنه وينْهَون عنه، وأنهم صادون عن الرحمة، ومعرضون عنها، ومن أعرض عن الرحمة فقد ولَّى وجهه نحو العذاب، ثم إن إضافة الرحمة إلى الرب فيه تنبيه إلى وجوب استقامة العقل، وأن الرب الرازق الحافظ المنعم، والذى متعكم وآباءكم، والذى جعل لكم الأرض مهدا، وجعل لكم فيها سبلاً، وجعل لكم من الفلك والأنعام إلى آخر ما نَّبهت إليه الآيات هو مصدر هذه الرحمة التى هى القرآن، وأنه

سبحـانه يتم بها النعمة، ثـم إنه سبحانه رب العالمـين رب السموات والأرض وما بينهمـا، وإنما أضيف إلى ضمير المخاطب ﷺ لإيناسـه ممًّا يكون أوحشه من هذ القول الفارغ الذي قالوه، وعظموا به شأن غـيره، وهم يعلمون أنه ليس فيهم أحد يُوزَنُ به، وفي هذه الإضـافة أيضًا معنى آخر وهو أنه علـيه السلام لما وُضع مكان العالمين فى مـثل قوله تعالى ﴿ربِّ الْعَالَمِينَ﴾ أومأ هذا الوضع إلى أنه عليه السلام عِدْل العالمين وأنه عليه السـلام سيد الخلق، وهؤلاء الخلق هم الذين سخر الله لهم ما فى الأرض والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، وكل هذا يعنى أنه عليه السلام أرجح وزنا من العـالمين. وشيء ثالث في ذكره ﷺ وهو أنه الذى نزل عليه القـرآن ونيطت به الرحمة وأنه عليـه السلام لما خصَّـه الله بنزول القرآن الذى هو رحمة صار عليه السلام رحمة، ولما نزل عليه القرآن الذي هو نور صار عليه السـلام سراجًا منيرًا، وشيء أخير فى هذه الجملة وهو الالتفات من الغيبة في قوله ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ إلى الخطاب فى قوله ﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ وفى الانتقال من طريق الغيبة إلى طريـق الخطاب تقريب له عليه السـلام، وإكرامه بالخطاب، وإكرامه بحضرة الرحيم الرحمن، وإعـلاء قدره وإعلاء قدر أُمته وقدر قومه، وكل هذه الإشـارات كوّنت المعنى الناقض والداحض للجملة التـى قبلها، والتى ليســت قائمة على لُبٍّ؛ وقـد قلت إننى كلف بالموازنة بين درجـات السداد وصـحة الفكر وقـوته فى الجمل التى تُـحدّث عن الله، أو التى تُحـدّثُ عن رسله الكرام عليهم السـلام، والجمل التى تصدر عن المحـادّين لله ولرسله، ولو رجعت إلى جملة إبراهيم عليه السـلام ﴿الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ ورأيت كيف يربط بين نعمة إخراجـه من العدم ومن كتم الغيب ونعمة هدايتـه، وكيف أناط الهداية بهذا الخلق، وكيف قامت هذه الفاء بهذا الربط الجليل بين الخلق والعبادة والهداية، وأن الهداية شـأن الخالق، وأن الهداية فى كـلام إبراهيم هى الرحمـة التى هنا، وأنها مادامت شأن الذى فطرنا فلا يجوز لمخلوق أن يقترح على الله أن ينزلها على غير من أنزلها عليه، وهـكذا نجد التشابك الشديد بين الكلمـات والجمل التى هى من ركائز الحق والقـائمة على أركانه. هذا شيء ومـثل قولهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ

﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أو قولهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ شيء آخر والموازنة تدلنا على المسافات البعيدة بين منطق الحق ومنطق الباطل.

قوله جل شأنه ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

هذه الجملة أربع جمل تضامَّت وتماسكت وتشابكت فصارت جملة واحدة، رأسها مبتدأ هو ضمير العظمة جل جلاله وفيه التفات من الغيبة فى قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ إلى التكلم وهذا الالتفات يدعو إلى مزيد من التَّنَبُّه واليقظة لإدراك هذا المعنى ولإدراك صلته بما قبله، لأن المعنى غريب على غير أهل الله، لأن الإنسان يكدح ويكُد نفسه فى طلب العيش والوفرة وهو محتشد لذلك بكل ما فيه من طاقة، ويسخِّر كل شيء لهذا حتى إنه ليظن أنه قادر عليها، وأنها فى أمره وفى قبضته وأنه يسيطر بعلمه واجتهاده عليها، هذه الدنيا التى هذا حالها وحال الإنسان معها هى فى قبضة الله وأنه هو الذى يقسم حظوظ الناس منها، جاء الالتفات وجاء ضمير العظمة ثم تكرر ضمير العظمة فى إسناد القَسْم إليه سبحانه كل ذلك لتأكيد مادل عليه الكلام من أن هذه الفانية التى هى فى أيديكم وتبنون فيها فى كل ربع آية، وتتخذون مصانع، هى فى الحقيقة في يد الله، فكيف بالرحمة التى هى النبوة وهى شأنه وحده وليس لكم فيه شيء؟ أنتم تتوهمون أنكم تقسمون الرحمة وأنتم عاجزون عن قسمة الحطام الذى أنتم فيه، والذى متَّعكُم الله فيه أنتم وآباؤكم حتى جاءكم الحق، وهذه الجملة بكل ثرائها تأكيد للجملة قبلها لأنهم مادموا لا يملكون قسمة الذى يُصبح هشيمًا تذروه الرياح فمن باب أولى لا يملكون قسمة رحمته سبحانه، ولهذا فُصِلَتْ كما يفصل التوكيد عن المؤكد ولا يجوز أن نغفل صدور الكلام عن عز الربوبية، لأن قسم حظوظ الدنيا بين الخلق لا يكون إلا ممن خلق الخلق، وخلق لهم هذه الحظوظ، وهذا موصول بما جاء فى أول السورة الذي جعل لكم الأرض مهدًا وجعل لكم فيها سُبلاً ونزل من السماء ماء، وخلق الأزواج كلها

إلى آخره وكل هذا الذي جاء في أول السورة ذكر على وجه هو فيه مُشاع بين الخلق جميعًا، ويدل على ذلك كلمة ﴿لَكُم﴾، وهم هنا تُقَسَّمُ بينهم منافعه التى يسعون نحوها، ويرحلون إليها، ويركبون الفلك، والأنعام، وهذا تماسك عجيب بين الصور، والأحوال والمعانى. والأحداث المكونة للسورة، وذكر المعيشة مع أنه سبحانه قسم المعيشة والثروة والجاه وكل حظوظ الدنيا وذلك للتقليل من شؤونها كلها وأن أولها وآخرها معيشة تذهب بموت من عاش ومن عاش مات. وذكر الحياة ووصفها بالدنيا للتأكيد على معنى أنها ليست شيئًا بالقياس إلى الرحمة؛ وسيُفصِحُ عن ذلك فى الجملة الحالية ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ وكلمة ﴿بَيْنَهُم﴾ كلمة فيها لمحة لا يجوز أن نغفلها وهى أنهم وإن تفاوتوا فى الجد فى طلبها وكان منهم الحريص الملهوف والساعي الدؤوب وكانوا متفاوتين فى طلب المعيشة فى الدنيا فإننا فى النهاية جعلناها بينهم على وفق ما نشاء وليس على التفاوت الذى هم فيه فقد يدرك المرء غير الأريب ويخفق القُلَّب الحُوَّل هذه هى الجملة الأولى الواقعة خبرًا للمبتدأ ورأسها ضمير العظمة ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم﴾ والجملة الثانية المعطوفة على هذا الخبر بدأت بقوله ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ وهذه الجملة أفادت معنى فى التى قبلها لأن التى قبلها فيها أن الله قسم معيشتهم بينهم من غير أن يكون فيها إشارة إلى التفاوت فى القسمة أو أن يكون هذا التفاوت مفضيًا إلى أن يصير بعضهم فوق بعض فجاءت هذه الجملة لتمام معنى الخبر، وكلمة ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ﴾ تشير إلى التفاوت الشديد بين الذين فى رأس الهرم والذين فى أسفل سفحه وكلمة درجات تؤكد هذا التفاوت، وهذا التفاوت مقترن بالعمل ودرجات إحسانه وأخبرنا ربنا سبحانه أنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً وأمرنا بالسعى وجعل لنا الأرض ذلولا وقال ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]. ويقسم لعباده ما يصلحون به على وفق علمه بأحوالهم ﴿وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ ولابد أن نستحضر أنه سبحانه هو الذى

يوفق الساعى الدؤوب المتقن وأن رجوع الأمر إلى مشيئته لا يتصادم مع وعده بأنه لا يضيع أجر من أحسن عملا. وقوله جل شأنه ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ بيان للحكمة فى هذا التفاوت، وتعليل لرفع بعضهم فوق بعض درجات لأن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بنفسه لأنه لا يستطيع أن ينتج مأكله وملبسه ومسكنه وأن يقضى كل ما يحتاج إليه بنفسه فجعل الكل مسخراً للكل فالصانع مسخر للزارع والزارع مسخر للصانع وكل له شأنه وهو فى شأنه ساع يكمل بعضهم بعضًا ويعين بعضهم بعضًا وهذا شأن الإنسان ولم يرفع الله أفراد الجنس من الحيوان بعضهم فوق بعض درجات وكل دابة تعيش ما تعيش من غير أن تكون فى حاجة إلى فرد من أفراد جنسها وهكذا شأنها من أول دابة فى الأرض إلى آخر دابة فلم يكن للحمار فى أى يوم من أيامه حاجة إلى حمار وقل مثل ذلك فى كل دابة فى الأرض وكل طائر في السماء؛ والسُّخرى بضم السين من التسخير وهو المراد وقد يكون بمعنى الاستهزاء وليس بمراد لأن السخرية والاستهزاء ليس من علة التفاوت وذهب بعض المفسرين إلى أن السخرى قد يراد به السخرية وحينئذ لا تكون اللام للتعليل وإنما تكون للعاقبة كاللام التى في قوله تعالى ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] فلم يلتقط آل فرعون موسى ليكون عدواً ولكن العاقبة أنه صار عدواً وحزنًا، كذلك لم يرفع الله الناس بعضهم على بعض ليسخر بعضهم من بعض وإنما كانت السخرية عاقبة هذا التفاوت، قال الطاهر (وهو على هذا المعنى تعريض بالمشركين الذين استهزؤوا بالمؤمنين كقوله تعالى ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [المؤمنون: ١١٠] والسخرى بضم السين وبكسرها ولم تقرأ فى القراءات المشهورة إلا بضم السين وقرئ فى الشاذ بكسر السين).

وقد تكرر لفظ السخرى بضم السين فى القرآن بمعنى السخرية، قال الطاهر: ولعل الذى عدل ببعض المفسرين عن تفسير آية سورة الزخرف بهذا المعنى استنكارهم أن يكون اتخاذ بعضهم لبعض مَسْخَرَةً عِلَّةً لفعل الله تعالى

فى رفعه بعضهم فوق بعض درجات ولكن تأويل اللفظ واسع فى نظائره وأشباهه وتأويل معنى اللام ظاهر، انتهى كلامه.

قوله سبحانه ﴿ورَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ هذه الفاصلة جامعة لمعانى ما قبلها من أول قوله ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ورحمة ربك فى الآية هى رحمة ربك فى قوله تعالى ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ وقد تأكد هذا الإنكار بآية ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ ثم جاءت هذه الجملة لتؤكد مرة ثانية إنكار أن يَقْسِموا رحمة ربك من جهة بيان أن ما يجمعون نحن قسمناه بينهم، والرحمة خير منه، فلا يجوز أن تكون قسمة الرحمة بأيديهم وليس فى أيديهم قسمة ما هو دون الرحمة، وكأن فى طى الكلام أقيسة منطقية تستفسد ما يذهبون إليه، وتهدم حججهم بقوة سديدة وهدوء شديد، ثم إن هذه الآية تشير إشارة خفية للمعنى الذى أشرت إليه وهو أن قسمة المعيشة فى الحياة الدنيا بيد الله من غير شك، وكل شىء بيده، ولكن المولى سبحانه منّ علينا بضوابط جعلها أساسًا للعطاء، والمكافأة، كإحسان العمل. والذى يشير إلى هذا فى هذه الآية قوله ﴿مَّا يَجْمَعُونَ﴾ والمراد به ما أرادوه بكلمة ﴿عَظِيمٍ﴾ وأنهم أرادوا ثراء المال وليس ثراء الحسب لأنه لا حسب فى الأرض يعلو حسبه عليه السلام والآية قبل ذلك ذكرت أن حظوظهم من معيشتهم فى الحياة الدنيا قسمة بيد الله، وهذه الآية تشير إلى أنهم يجمعون هذه الحظوظ يعنى هم منصرفون إليها، وكادحون فى طلبها، وجامعون لها، وهذا هو تمام بيان معنى ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ وأن الثراء الذى يرون أنه يرشح صاحبه للنبوة التى هى رحمة ربك وإن كانوا يكدحون فى جمعه فهو فى النهاية من عطاء الله لأن نجاح السعي من عطاء الله وخيبة السعى من قدر الله، ثم إن هذه الجملة هى برد وسلام على قلوب الضعفاء الفقراء الذين يسخِّرهم غيرهم فى حوائجهم لأنهم إذا استقر فى نفوسهم معنى أن رحمة ربك

بمعناها المتسع خير من هذه الثروات التى جعلتهم مسخرين لأصحابها هان عليهم ما هم فيه من تسخير هذا شىء وأهم منه أنها تطفئ لهيب الأحقاد فى نفوس هذه الطبقة الكادحة المسخَّرة عند أصحاب الثروات، وأن هؤلاء الذين تراهم حولك مطحونين فى مصانع ومؤسسات أصحاب رؤوس الأموال لا يقيم جسورا من المسالمة بينهم وبين هذه الثروات وأصحابها إلا أمثال هذه المعانى التى ترتفع بهم عن الأحقاد التى لو استعرت لدمرت كل شىء، وهكذا كلما تأملت هذه الجملة وجدت لها دلالات تنتج آثارا حسنة فى جهات مختلفة وأهمها رضا المسلم بحظه وعدم إحساسه بالدونية فى مواجهة من هو أكثر منه مالا وولدا وهو رضى لا يقعد به عن الجدّ والكد لأن الجد من أعظم العبادة.

قوله تعالى ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

هذه الآيات لو أردت أن تجعل لها عنوانا فلن تجد أنسب من الجملة التى قبلها وهى ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ لأن كل هذه الجمل تؤكد معنى أن رحمة ربك خير مما يكدون ويركضون لتحصيله، والآيات هنا تنزل بالثروة ورأس المال الذى أراد الجاهليون أن يجعلوه مرشحا للنبوات فضلا عن أن يكون مرشحا للحكم والسلطة أقول تنزل بهذا الوثن الذى هو الثروة دركا آخر لأن جملة ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ الثروة فيها تأتى بالكد والعمل والاحتشاد لجمعها والآيات هنا تضع الثروة فى أبلغ صور عنفوانها وأعتى طغيانها، وأبهى صورها بين أيديهم من غير ما سعى منهم لجمعها لأن الله يجعلها لهم كما جعل لهم الأرض مهادا وسلك لهم فيها سبلا، وهذه منزلة أخرى ومعنى آخر جرت فيه هذه الآيات.

والواو التى فى قوله ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ عطفت لولا وما دخلت عليه على قوله تعالى ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ وراجع

تكوين جملة الشـرط والجواب وتبين امتـدادها إلى قوله ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لأن هذا كله داخل فى تكوين الجملة لأنه من تـوابع جواب الشرط ﴿لَجَعَلْنَا﴾ وسيتبين ذلك.

وقد بدأت هذه الآية بالكلمة التى بدأت بهـا كلمتهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وهذه الكلمة فتحت باب الكلام فى السورة إلى قوله تعالى ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ ولولا فى قوله سبحانه ﴿لَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ﴾ وإن تكررت فى اللفظ فهى مختلفة فى المعنى لأنها هناك دخلت على فعل يستحـيل وقوعه، فأشربت معنى الإنكار، وهى هنـا حرف امتناع لوجود والممتنع هنا هو ﴿لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ الذى هو الجواب والـوجود هو معـنى الشرط يعنى وجـود أن الله لم يرد أن يكون الناس أمة واحـدة. وهذا الاشتراك فى اللفظ يعنى استصحاب مقالتـهم وتذكير بشناعتها لأنها استدراك على الله، وتدخل منهم مـجتـرئ فى اختـيـار من يحمل إلى الناس رسـالة خالقهم، وقد أنكرت همزة الاستـفهام عليهم ذلك وأكدت الآيات بعدها هذا الإنكار لبيان المزيد من إنكار هذا القول وفساده.

وراجـع جـمـلة ﴿لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ وأول ما فيـها هو إسناد الجعل الذى ضُم إليـه كل ما بعده إلى ضمـير المتكلم الحى القادر، وأنه جل وتقدس يفـعل هذا الفعل الدال على غاية التحـقير لما ترونه عظمة مـرشحة للنبوة، بـنفسه سبـحانه، ولم يأمر به ملك من مـلائكته ومن أجل اللفت إلى هذا المعنى انتقـل الكلام من طريق الغيبة فى قـوله فى الجملة السابقة ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ إلى طريق التكلم ثم إن هذا الفعل الذى فاعله ضمير العظمة وقع أولا على قوله ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ ثم أبدل منه قوله ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ والبدل هو المقصود بالحكم حتى إن النحاة

ليقولون إن المبدل منه فى نية الطرح يعنون بذلك أن قصد العبارة هو «لجعلنا لبيوتهم سقفا من فضة» وإنما جيء بالمبدل منه لمعنى لا يتم إلا بوجوده، وهو هنا معنى جليل جدا مع أن استخراج دلالة المبدل منه الذى هو فى نية الطرح تحتاج إلى مراجعة مرة بعد مرة، ولكنها هنا ظاهرة وذلك لأن المبدل منه عبر عنه باسم الموصول وجاء فى الصلة قوله ﴿يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾ وهذه أبشع صفة يتصف بها الإنسان لأن كفر النعم التى هى صنائع بين الناس خلق ذميم فكيف بنعم الله التى بها القوام ثم كيف حين يتجاوز الكُفرُ كُفر نعم الله إلى الكفر بالله الذى له فى كل ما تراه العين آية وفى كل ما تسمعه الأذن آية، تشهد بأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، تأمل المعنى لتدرك قيمة المقصود، ولماذا ذكر المبدل منه، ثم إنه سبحانه قال ﴿يَكْفُرُ﴾ ولم يقل كفر، لأن المضارع يفيد تجدد الكفر، وحدوثه، وأن هذا الإنسان من شأنه ذلك وهذا أبشع وأكثر دلالة على حقارة ما سيأتى من سُقُف الفضة والمعارج وأنها عند الله ليست شيئًا فضلا عن أن تستدركوا على الله بها، وتقولوا ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ولابد أن تستحضر أن كل الآيات التى وقعت بعد هذا القول تشير إلى أنه عند الله عظيم وأن مد الكلام فى دحض هذا المعنى إنما هو صادر عن مزيد من الغضب ووراء ذلك ما وراءه من التكريم لرسوله ﷺ وأنه تَعِس وانتكس من رشَّح غيره لهذا الشأن العظيم، ولا يجوز لنا ونحن نتدبر المبدل منه الذى يقول شيوخنا إنه فى نية الطرح أن نهمل النظر فى هذا الالتفات الثانى الذى فى قوله ﴿يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾ والمقام مقام تكلم ﴿لَجَعَلْنَا﴾ والأصل أن يقال لمن يكفر بنا ليعود ضمير العظمة مرة ثانية وإنما عدل الأسلوب والتفت من التكلم إلى الغيبة وكان موضع اللفت هو كلمة الرحمن لأن الكفر بالرحمن صاحب النعم الغامرة والتى لا تحصى هو أشنع الكفر وأخسه، هذه دلالات المبدل منه وكلها تبين وتؤكد المعنى الذى

سيق له الكلام، ثم إن تجاوز هذا إلى البدل وهو قوله ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ فيه إشارة إلى أنه جعل لهم ما يشتهون وتجاوز ذلك إلى بيوتهم لأننا نفهم أن الجعل لبيوتهم جعل لهم، ويلاحظ أن ما جعله سبحانه لبيوتهم مما لا يخطر بخيال أحد، وأن المألوف في مثل هذا أن يجعل لهم البنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث كما ذكرت آية آل عمران، وهى من أشمل الآيات المعبّرة عن شهوات النفوس فى هذه الدنيا والآية التى معنا ذكرت سُقُفَ الفضة ومعارج الفضة إلى آخره وهذا لا يكون إلا بعد استيفاء كل الشهوات وكل الرغائب والتطلعات مما ذكرته آية آل عمران وذكرته آيات أخرى مثل جنات من أعناب والزرع والزيتون والرمان والينابيع المتفجرة من الأرض وما يسقى بماء واحد ويُفَضَّل بعضه على بعض إلى آخره، لا يتصور بَيْتٌ سُقُفُه من فضة ومعارجه من فضة إلا وقد توفر لصاحبه كل ما ذكر من نعم ومتاع، وهذا أيضًا من دلالات ذكر المبدل منه لأنه المقصود وراء السقف والأبواب والمعارج والسرر.

والبدل من أول قوله: ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾. إلى قوله: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ وإنما بدأ بالسقف لأنها أبعد وأدخل فى الإفراط فى عطاء الثروة، فقد نتخيل بابا من فضة أو معارج من فضة، أما سقف الفضة فهذا صادم للخيال لأنه لا عهد له به، وأبلغ ماجاء في وصفهم للبيوت هو أنها تُشَاد بقَرمَد كبيوت تيماء، وأُطم يهود، أو أن لها محاريب وتماثيل. وأقصى ما جاء فى وصف صرح بلقيس أنه مُمَرَّد من قوارير أما سقف الفضة فلم أعرفه إلا فى هذه الآية، وقوله: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يعنى المصاعد والدرج وأنها هى الأخرى من فضة، والمعارج معطوفة على السقف، وأصل الكلام سقفا ومعارج من فضة، وإنما قدمت ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ على المعارج للمبادرة ببيان السقف، ووصفها بأنها من فضة لغرابة الوصف، وذكرت المعارج مع السقف لأنها يعرج بها إلى هذه السقف فهى من تمام معناها وقوله: ﴿عَلَيْهَا

﴿يَظْهَرُونَ﴾ وصف للمعارج وأنهم يعلون بها ويرتقون عليها وهذا الوصف مفهوم من كلمة المعارج، لأن العلو عليها هو المقصود منها، ولو سكتت الآية عن هذا لَفُهِم، ولكنه ذكر لأن التصريح به يفيد زيادة تصوير لهذا اللون من التّنعمُّ النادر، والصعود على درج من فضة وصيغة المضارع تحضر لك المشهد وقوله: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ وأعيد الجار والمجرور لتأكيد المعنى وتثبيته، وكان يمكن أن تعطف الأبواب والسرر على السقف لأنه معلوم أن كل ذلك لبيوتهم، و﴿عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ أخت ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ وإذا كانت فاصلة ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ فيها زيادة تصوير للتنعم فإن ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ فيها زيادة تصوير للدَّعة، والغبطة، والراحة، والفراغ من الشواغل التي يشغل الناس بها، ولا يجوز أن نغفل التقارب الشديد الذى بين ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾، ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا﴾ ثم ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾، وراجع أنت وتدبّر ولا تغفل حركة الإعراب أو الموقع الإعرابى الواحد وتقارب حروف الكلمات وتكرار صيغة المضارع وتكرار عليها وعليها ولبيوتهم ولبيوتهم وأثر كل ذلك في تلاؤم الصوت وجرسه وصقل الكلام وسهولته وعذوبته وقوله جل شأنه: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ جاءت وحدها وقد ألفت الأذن المزاوجة فالسقف اصطحبت المعارج، والأبواب اصْطَحَبَت السرر وكلمة ﴿وَزُخْرُفًا﴾ جاءت مفردة، لأنها تَرشحُ بمعناها على هذه المصطحبات، فالزخرف معناه الزينة، ومعناه الذهب، وهو بهذين المعنيين يلتئم مع الكل، فالسقف من فضة، وزخرف يعنى فضة، مشربة بذهب، ومزخرفة بزينة ومعارج من فضة، مسها ذهب، ومزخرفة بزينة، وأبواب من فضة قد مسّها ذهب ومزخرفة بزينة، وهكذا وهى معطوفة على سقف، وللشيخ الطاهر تعليل جيد في تأخيرها قال رحمه الله «ابتدئ بالفضة لأنها أكثر فى التحليات، وأجمل فى اللون، وأخّر الذهب لأنه أندر في الحُلِىّ، ولأن لفظه

أسعد بالوقف، لكون آخره تنوينا ينقلب فى الوقف ألفا فيناسب امتداد الصوت، وهو أفصح فى الوقف» انتهى كلامه، وهذا الأخير هو الذى أردته.

ولم أقرأ فى كلام الله ولا فى كلام رسوله ما يبين هوان الدنيا على الله كما تُبيّنه هذه الآيات.

قوله سبحانه: ﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قرئت لما بالتخفيف ولما بالتشديد، وهى أخت آية يس ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس. ٣٢] والقراءة بالتخفيف تعنى أن إن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف والأصل إنه وكل مبتدأ واسم الإشارة مضاف إليه ومتاع خبر. واللام الداخلة على لما هى لام التوكيد الفارقة بين إن النافية وإن المخففة من الثقيلة، والأصل إنه كل ذلك لمتاع، وأُقحمت ما الزائدة لتأكيد معنى الجملة، وعلى قراءة التشديد تكون إن نافية ولما بمعنى إلا مثل لما التى فى مسألة الكتاب كما قال الزمخشرى «نشدتك بالله لما فعلت» يعنى إلا فعلت وقراءة التشديد تفيد القصر وأن كل ما ذكر من سقف الفضة والزخرف والمعارج والأبواب والسرر، متاع زائل يزول بزوال الدنيا وكل نعيم لا محالة زائل. وهذا تعقيب جيد على ما قبله وتمهيد جيد لما بعده، وهو ﴿وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقراءة التخفيف تعنى أنه فى الجملة مكونات بلاغية ذات قيمة فى دلالتها على العناية بمعنى الجملة وليس فيها معنى القصر، هذه المكونات أهمها ضمير الشأن لأنه لا يؤتى به إلا فى كلام له خطر وله بال لأنه مثير لنفس السامع والقارئ إذا كان يحسن أن يسمع ويحسن أن يقرأ. وذلك لأن ضمير الشأن ليس له مرجع يرجع إليه، لأنه هو الضمير الوحيد الذى يفسره ما بعده وليس ما قبله فإذا طرق النفس استشرفت لمعرفة معناه وتهيأت وتطلّعت ونفت الغفلة فإذا جاءت الجملة المفسرة وقعت وتمكّنت لأنها صادفت قلبًا يقظًا ونفسًا مشوقة وهذا معنى آخر غير معنى

القصر ومخرج من مخارج المعانى له مسلك آخر يتجه إلى طبع المعنى وترسيخه فى النفس أكثر مما يتجه إلى ضبطه وحصره والقراءتان توفران الأمرين لهذا المعنى الجليل، لأنه يشبه أن يكون ختام جزء من المعنى المثير الذى غضب له الحق محاماة عن نبيه صلوات الله وسلامه عليه وهو قولهم ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وقل مثل هذا فى آية يس ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس. ٣٢] والواو التى فى أول جملة الزخرف عاطفة هذه الجملة على قوله ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وهى مُتممة لمعناها وجامعة له ومحققة له، لأن جعل سقف الفضة والمعارج والأبواب والسرر لمن يكفرون بالرحمن إنما كان لأنه كأنه لم يكن لأنه كله متاع الحياة التى كتب عليها الفناء والموصوفة بالدنيا وهذا موصول بقوله سبحانه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وجملة ﴿وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قريبة جداً من فاصلة ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهى قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ والكلام كله قريب بعضه من بعض وكلمة «عند ربك» هى جوهر المعنى وسره فى هذه الجملة لأنها أفادت معنى الأجر والثواب والخيرية وقد اكتفى الكلام بذكر كلمة «عند ربك» لأن فيها من التشريف والتقدير ما لا يقادر قدره، والمتقون الذين لهم الآخرة عند ربهم هم الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون وهم المقابلون لمن يكفر بالرحمن، وأهم ما يجب أن يلاحظه أهل الإيمان هو أن فى الآية موازنة بين الثروات التى لا تزال فى عالم الخيال ولم تدخل دائرة طموح الطامحين للثروة وهى البيوت الموصوفة بما وصفت به وما وراء ذلك مما يجب أن يسبقها من الثروات التى تدخل فى دائرة الممكن توازن الآيات بين هذا الجانب البالغ الثراء والسعة وبين لحظة وجل تعترى الذاكرين وتجعل لحظة الوجل هذه فوق سقف الفضة ومعارجها وأبوابها وسررها بل تزيد فى المفاضلة فتدخل هذا الثراء عالم الفناء وتبقى لحظة الوجل

لعالم الخلود والحياة المتنعمة عند المليك المقتدر، ووازن أنت وراجع أنت وتبين إلى أى مدى يرتقى هذا الكتاب العزيز بالنفس الإنسانية وقيمها الروحية حتى ترى لحظة من الذكر يداخل النفس فيها رهبة من الله ترتقى بصاحبها وربما كان أشعث ذا طمرين يفترش الغبراء فى كوخ «عشوائى» فيصبح بهذه اللحظة فى سماء فوق سماء ويصبح أصحاب البيوت التى سقفها من فضة ولها معارج عليها يظهرون وتخلو قلوبهم من تلك اللحظة فى سواء الجحيم ولهذا لا تعرف مجتمعا مسلما يعانى صراعًا وأحقادا طبقية نعم يعانى اضطرابًا فى مواجهة الأنظمة التى تضطهد الدين والمتدينين وتخلق لذلك أكاذيب فارغة ويتخذون أى جماعة أو أى سبب سترة لضرب قيم الإسلام وإبعاده عن رسالته فى حياة الجماعة وعمارة الأرض والله غالب على أمره. «**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**»

كلمة ﴿**وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [الزخرف: ٣٦] لو وضعت فى كفة ميزان والأرض كلها فى الكفة الأخرى لرجحت كفتها، والمؤمن بالله واليوم الآخر يرى أن دخوله فى هذا الوعد خير له من الدنيا وما فيها وراجعها مرة ثانية تجدها مرتبطة بكل الجمل من أول قوله تعالى وقالوا: ﴿**لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ**﴾ لأنها ضد مفهوم العظمة الذى أسسوا عليه كلامهم وتؤكد الإنكار فى ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ**﴾ وتؤكد المعنى فى ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم**﴾ وتقارب ﴿**وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ وتؤكد حقيقة ﴿**لَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ**﴾ إلى آخره، ثم وهو الأهم تلتفت إلى ما بعدها الذى هو ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا**﴾ وما بعده لأنها تغرى أيما إغراء بعكس ما دلت عليه هذه الآيات وما بعدها وتحذر من الوقوع فى مهلكة ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ**﴾ وتُعَدُّ هذه الآيات وما بعدها مفصلاً من مفاصل السورة، لأن الكلام بدأ بهذه الآيات ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ**﴾ ينزع منزعا مختلفا

ويحدث عن أن الله سبحانه وهو الرحمن الرحيم يهيئ للمخذول شيطانًا يصبح قرينًا له يصده عن السبيل. ويغريه بالباطل. ويُضلُّه حتى يظن أنه من المهتدين وأنه يأتى معه يوم القيامة ويُبعث معه، ويقول: ﴿يا لَيْتَ بيْنِي وبيْنَكَ بُعْدَ الْمَشرِقَيْنِ﴾ ثم يؤول أمرهما إلى سواء الجحيم، وهذا حديث آخر غير حديث ﴿ولَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وما قبله مِمَّا دعا إليه، وما بعده مما انتهى إليه، وتستطيع أن تتبين صورة هذا المفصل وأنه انحناءة ظاهرة فى خط سير المعنى فى السورة إذا رَجَعْتَ إلى كل الذى مضى. وتأملت وتغلغلت حتى تأكدت أن ﴿والآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عادت والتحمت بالجملة، الأولى فى السورة ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وأن تَعَقُّل هذا القرآن العربى المبين هو المفضى لا محالة إلى ﴿وَالآخِرَةُ عِند رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وأن المعنى تسلسل من هناك من هذه الرأس وخطا خطوات واضحة متتابعة وانتقل من بيان منزلة هذا القرآن العربى. إلى معنى من أجل المعانى وهو أن هذا القرآن لا يسكت لسانه عن أن يذكِّر عباد الله مهما أسرفوا فى الباطل والعناد، وأن الله من وراء هذا القرآن، وهذا النبى الذى أُنزل عليه يهلك المحادين له المبالغين فى الاستهزاء به، مع أنه لا يصرف الذكر عنهم، ثم يتسلسل الكلام من قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ﴾ ويقرر أن الله فى سويداء فطرتهم وأنه هو الذى خلق السموات والأرض ثم يستعرض ما يناقض هذا الاعتقاد من جعلهم لله من عباده جزءا وقولهم الملائكة بنات الله وقولهم. ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ إلى قولهم. ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ ثم تسوق الآية طرفا من ذكر إبراهيم الذى وجد أباه وقومه على أمة فرفضها وأعلن التوحيد وأوصى به بنيه وجعلها كلمة باقية فى عقبة، ثم رجع الكلام والزمان إلى هؤلاء الذين هم عقب إبراهيم وذكر مقالتهم فى الذى جاءهم به الرسول الكريم وأنهم قالوا سحر وأنهم به كافرون وقالوا

﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ إلى آية ﴿وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ والخطوات كلها فى اتجاه واحد تستصحب قومه عليه السلام من أول الخطاب فى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهنا نقطة تحوُّل لأن الكلام ترك متابعة عقائد من نزل فيهم وترك مناقشتها وانتقل إلى دواخل النفوس ليستخرج منها السبب الأهم الذى دعا إلى بقاء هذه الضلالات وهذه الاضطرابات وهذه التناقضات الشديدة الظهور وبعدما نزل القرآن وكشف ضلالاتها واضطراباتها وتناقضاتها، ترك الكلامُ الأقوام وعقائدهم وما تقوله ألسنتهم إلى ما وراء هذه الألسنة وما وراء بقاء هذه العقائد البينة البطلان وهذا هو ما عنيته باختلاف المعنى وأنه محور ومفصل وأن خط السير اختلف عنده وإن كان الكلام فى الحقيقة كلاما واحدا وأن هذا المختلف هو فى الحقيقة مؤتلف وأن ما عليه قومه عليه السلام له ظاهر هو ما تكلمت فيه الآيات إلى قوله: ﴿وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وله باطن وهو ما ستتكلم فيه الآيات من قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ وسنرى مزيدًا من هذا الترابط بعد تحليل الآيات.

قال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾.

قال علماؤنا إن الواو التى افتتح بها هذا الجزء العظيم من السورة تعطف هذا الجزء على قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾ كررت القول بأننى شديد العناية بمعرفة مواقع حروف العطف فى الكتاب العزيز لأن القول بأن هذا معطوف وهذا معطوف عليه ليس قولا سهلا إلا عند المتهاونين لأنه يعنى الروابط المتينة التى تربط أجزاء الكلام وتَشُدُّ بعضها ببعض وخاصة

حين يكون العطف عطف جملة من الكلام على جملة من الكلام، وليس عطف جملة على جملة، وقد راقنى جدا قولهم إن هذه الواو راجعة إلى قوله تعالى. ﴿ولَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾ لأن جملة، ﴿هَذَا سِحْرٌ﴾ وما بعدها إلى هذه الجملة حدّثت عن أقوالهم وعقائدهم، وقوله تعالى. ﴿وَمَن يَعْشَ﴾ وما بعدها حدثت عن الذى وراء أقوالهم وعقائدهم، وكأننى حين أعود بجملة ﴿وَمَن يَعْشَ﴾ وما بعدها إلى هناك وأقف قليلاً أجد كلامين كلامًا يحدِّث عن الظاهر، وكلامًا يحدث عن الباطن، والكلامان فى أمر واحد، هذا يتناوله من جهة وهذا من جهة أخرى ومثل هذا مما لا يجوز التهاون فيه وقوله ﴿ يَعْشُ﴾ قرئ بضم الشين وبفتحها وعشا يعشو كدعا يدعو وكغزا يغزو إذا نظر نظرا كنظر الأعشى وهو ليس بأعشى ويعشى بفتح الشين مضارع عشى بكسرها مثل فرح إذا أصابه العشا وهو ضعف البصر، فهو ينظر فى الكتاب بضعف بصر وليس كنظر ضعيف البصر، وعشى كفرح بكسر العين يكثر فى الأدواء كمرض وعرج وورم والذكر فى الآية هو القرآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وإطلاق كلمة الذكر على القرآن ترجع بنا إلى رأس السورة: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ ولولا أنى أكره مخالفة كلام الأئمة لرجعت بآية ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ إلى آية: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ ولمَّا فكرت فى ذلك بدا لى سِرٌّ فى هذا العطف الذى لم أقل به حبا فى الاتباع وتخوفًا من الابتداع، وهو أن المولى عز وجل لا يصرف ذكره ودعوته وهدايته عن أحد، ولو علم فيهم سبحانه الإصرار على الكفر، ولو قيض لهم قرناء يصدونهم عن السبيل وليس فى هذا مضادة لأن استمرار الذكر قد تصادف منه لحظة يتنبه فيها العبد ويُنيب والله يهدى إليه من أناب، وليس فينا أحد يعلم أن الله سبحانه قيض له قرينًا وإنما الذكر قائم والعقل فينا والاختيار اختيارنا

والكسب كسبنا وما كتبه الله لنا أو علينا محجوب عنا، والاعتقاد أنه لا يظلم أحدا وأن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره، وأن من مد يده إلى الله أخذ الله بيده ومن تاب تاب الله عليه، ومن أناب إلى الله فتح الله له باب رحمته، وبدل سيئاته حسنات إلى آخر ما هو فى الذكر الحكيم، ونحن مكلفون به أما ما وراء ذلك مما قدره أو قيضه أو شاءه أو أراده فكل ذلك علمه عنده سبحانه، وكان هذا هو الذى فهمته لو رجعت بالآية إلى رأس السورة، ولكننى أحببت أن ألقى الله متّبعا لأئمتنا ولست مبتدعًا على خلاف ما يقول المتنورون والله يهدينا ويهديهم، والعشى فى الآية مستعار للنظر غير المدقق في الكتاب العزيز، والمعنى ومن ينظر فى القرآن نظر من يتعامى عن الحق وهو يعلمه ومن ينظر فى القرآن نظرًا متقاصرًا لا يراجع ولا يدقق حتى يدرك الحق فيه، وقد أفادت الآية هذا المعنى بالقراءتين والمراد من دعاه الله ولم يلتفت إلى دعوة الله، ولم يلتفت إلى الداعى إلى الله ليتعرف على صحة دعواه، وعلى دليله، وإنما أهمل ذلك وتعامى عنه، أو تغابى عنه، من كان كذلك قيض الله له شيطانًا يعنى هيأه له وسخّره له فهو له قرين يلازمه دائمًا، وهذه الآية أخت آية فصلت: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥] وهذه الآية ونظائرها من مثل قوله تعالى ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ﴾، ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾، ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾، أقول هذه الآيات تمثل حالات ذروة الغضب وأن الإنسان لم يرتكب أبشع من الذنب الذى أدَّى به إلى أن يصير سواجهًا لأشد غضب الله وأشد أنواع الانتقام، والمعتزلة يصرفون كل ذلك إلى المجاز ويقولون المراد التخلية والخِذلان وأن الله سبحانه إذا وكل العبد إلى نفسه وتخلى عن هدايته صار إلى هذه الأحوال التى تصفها الآيات، لأنهم ينكرون أن يكون من الحق ما يُضلُّ عباده، والطبع، والختم، وتسخير الشياطين، وتسليطهم على العباد

كل ذلك من أسباب الضلال والله منزه عن أن يضل أو يفعل بالعبد فعلا يَضَلُّ به العبد كالختم وتسليط القرناء، وهم يقصدون بذلك إلى التنزيه، والذي عليه الجماعة أن الله يفعل بخلقه ما يشاء لا يُسأل عما يفعل. ولا يقع في ملكه إلا ما يريده، والله خلقكم وما تعملون، كان عملنا خيراً أو شراً، وهذا هو مقام الألوهية وهو سبحانه لا يظلم أحدا، وأمرنا بالعدل، والإحسان، ونهانا عن الفحشاء والمنكر، وترك لنا الاختيار إلى آخر ما قدمنا، والذى أريده الآن هو أن قوله تعالى. ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ يعنى أن أبشع ما يرتكبه الإنسان وأشد ما يجلب عليه غضب ربه أن لا ينظر فى القرآن نظر المتدبّر الباحث عن الحق، والباحث عن الدليل، وأن خلق الله حين لا يَلْتفتُون إلى النور الذى أنزل، والذكر، والهدى، والحق. ويتخذون ذلك مهجوراً يكونون قد ارتكبوا أبشع ما يرتكبه المخلوق من الجرم الجالب لأشد غضب خالقه، والأمر الدال على بلوغ الغضب غاياته فى الشدّة والبعد سو أن الله سبحانه وهو أرحم بعباده من الأمُ بولدها يسخر لهذا شيطانًا يضله ويصده، ويزين له حتى يبلغ فى الضلال ما يبلغ وينزل الله به من العذاب ما يلائم تهتكه فى الضلال، وتخرُّقه فى الكفر وفى سعصية الله، لأن الله سبحانه يعلم أن هذا الذى عمى عن النظر فى كلام الله لو أنه تدبره وتغلغل فيه وأعمل العقل وما يجب أن يكون فى مثل هذا الموقف لاهتدى إلى الله قطعًا وقد ذكر ربنا أن أهم أسباب الكفر هو عدم التدبر ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وقد ذكرت مرة أنه يُدهشنى أن رجالا منا هم من أهل اللغة والأدب والبيان وهم من الأذكياء ولا أشك فى ذلك ثم أراهم يجادلون في الدين ويحادون ويتكلمون بلسان أهل الضلالة، وأسأل نفسى كان هؤلاء أولى الناس بهداية القرآن لأنهم مهيَّؤون لأن يكونوا من العالمين به، ثم يذهب هذا التعجب إذا جاءت المناسبة

واضطر أحدهم إلى قـراءة آية من الكتاب لأن قراءته لهـا تدل على أن لسانه لم يتعود أن يتحرك بكلمة واحـدة من كلام الله، وخصوصًا أن الآيات التى يتعـرضون لهـا هى مما يحفظه العـامة فيـتأكد لى أن هؤلاء دخـلوا فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ وأن كل واحد منهم له قرين يصدُّه عن السـبيل ويحسب أنه من المهتـدين لأنه يدعونا إلى ما هو عليه، ويرى ما هو عليه تنويرا وما نحن عليه ظلاما ونسأل الله اللطف.

وكلمة ﴿الرَّحْمَنِ﴾ هنا لها مـوقع بالغ السداد وقد ذكرت أنهـا كثرت فى السورة وأن كشف السر الذى وراء ذكرها فى كل جملة وردت فيها مما يغمض ولكنه هنا ليس غامـضًا وذلك لأن قوله سبـحانه: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ دال على شدة الغضب كمـا قلت وأن الذى يدل على شناعة هذا الجرم المفضى به إلى تسخير الشيطان له أن هذا الجرم استخرج هذا الغضب المتناهى من الرحيم الرحـمـن، هذا مـعنـى ومـعنـى آخـر سـو أن هذا الناظر فى الكتـاب نظر الأعمى أو المتعامى قد جهل وعمى عن أن هذا ذكر الرحمن وكتابه وقرآنه وأن هذا العبد المتعامى مغمور برحمـة الرحمن ويعيش فى نعمه وفى كنف رحمته وهو فى عنفوان عداوته لدين الله، وهذا جيد.

وقد جاءت كلمة ﴿عَن﴾ بدل كلمة «إلى» فى قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ وإنما يقال يعشو إلى كذا يعنى يـنظر إليه نظر الأعشى كما قال الحطيئة:

متى تأته تعـشـو إلى ضـوء ناره ... تجد خير نار عندها خير موقد

أراد متى تأته تنظر إلى ضوء ناره نظر الأعشى لشدة توقدها، وكلمة تعشو حال والبـيت من أنبل الشعر وأكرمـه والمعنى المقصود من ذكـر كلمة ﴿عَن﴾ بدل (إلى) هو أن كلمة (عـن)، ضمّنت فعل يعـشو معنى ينصـرف ويعرض وهذا زيادة فى الإهمال وزيادة فى موجبات الغضب.

وقولـه سبحـانه: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ جواب الشـرط وهو جوهر المعنى المقصود والذى بنى عليه هذا الجزء من السورة وهو النقطة التى ابتدأ منها تحول المعنى. وهو الغضب وأشد الغضب قال الراغب ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ أى نُتِحْ ليستولى عليه استيـلاء القيض على البيض وهو القشر الأعلى. وقال صاحب اللسان: القيض قشرة البيض العليا اليـابسة، وقال قيض الله فلانًا لفلان جاءه به وأتاحه له وقـيض الله له قرينًا هيـأه وسبّـبَهُ من حيث لا يحـتسـبه، وفى التنزيل ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ [فصلت: ٢٥]، ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ قال الزجاج: أى نسبب له شيطانًا يجعل الله ذلك جزاءه، وقيضنا لهم قرناء سببنا لهم من حيث لم يحـسبوه، وكل هذا يعنى أن تفسير قيضنا بسخّرنا أو هيـأنا أو أتحنا تفسير يقرِّب المعنى وليس حقيقتـه لأن حقيقته أن هذا الشيطان صار محـيطا به ومستوليا عليه وسـادا كل المنافذ الواصلة إليه كالقيض المحيط بالبيض والحافظ له، كـذلك الشيطان يحفظه ويحوطه ويمنعه من كل ما ليس بشيطانـى. وهذا الجزاء هو المناسب ليعشو لأنه عـصب عينيه وسد أذنيه وضرب حجابا بينه وبين الذكـر وهذا معناه أنه هو الذى صيَّر نفسه فى قبضة الشيطان وصيِّر الشيطان محيطا به إحاطة القيض بالبيض يعنى دخل فى سرداب شيطانى مغلق من جميع جهاته.

قوله سبـحانه: ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ هذه الفاء رتبت مـا بعدها على ما قـبلها والذى قبلها هو أن الشيطان أحاط بهم إحاطة القيض بالبيض كما قال الراغب. وما بعدها أفاد أنه لما صار في هذا القمقم لازمـه فيه وقارنه ينفُث فيه كل معنى شيطانى ودام الحـال على ذلك واستمر كمـا هو دلالة الجملة الاسميـة وكلمة: ﴿قَرِينٌ﴾ مع دلالتها على الاقتران والاقتراب فإن فيها إشارة إلى معنى آخر هو أن الذى يعشو عن ذكـر الرحمن ويقيض الله له هذا الشيطان يصـير هو الآخر قرينا للشيطان فكل منهما قرين لـلآخر وكأنه من جنسه يعنى يصير هذا الآدمى

شيطانًا، وتقديم الجار والمجرور يفيد أنه خاص به، وليس له شاغل سواه ولابد من ملاحظة أن هذا الذى حبسه شيطانه وأحاط به من جهاته كلها لا يُصْرفُ عنه الذكر، نعم هو مصروف عن الذكر والذى أدخله فى هذه المهلكة هو صرفه نفسه عن الذكر، والذكر لا يُصرف عنه، دائمًا يظل التذكير والتنبيه لأنه لو صادفت لحظة من لحظات الذكر غفلة من غفلات الشيطان فأضاءت لحظة الذكر قدرا من ظلمة هذا السرداب الشيطانى الخانق الذى يعيش فيه فقد يؤوب وتدركه الرحمة قال الطاهر «الضلال يَنْمِي ويتولد في النفوس. ويتمكن منها مرة بعد مرة، حتى يصير طبعا على القلب وأكنّةً فيه، وختمًا عليه، ولا يضعف عمل الشيطان إلا بتكرر الدعوة إلى الحق وبالزجر والإنذار فمن زناد التذكير تنقدح شرارات نور فربما أضاءت فصادفت قوةُ نور الحق وهنَ الشيطان فتتغلب القوة الملكية على القوة الشيطانية فيفيق صاحبها من نومة ضلاله، وقد أشار إلى ذلك قوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥] ولولا ذلك لما ارعوى ضال عن ضلاله، ولما نفع إرشاد المرشدين فى نفوس المخاطبين». انتهى كلام الطاهر رحمه الله.

وقد قرئت الآية برفع يعشو وسكون نقيض. وكلمة (من) فى هذه القراءة موصولة وليست شرطية، ورفع يعشو معها هوالأصل وسكون نقيض حملا لها على الشرطية للشبه الذى بينهما وقد أعملوا اسم الموصول الذى لا يشبه الشرط فى اللفظ، وجزموا الفعل الواقع فى خبره حملا على الشرط كما فى قول الشاعر:

كذاك الذى يبغى على الناس ظالما ... تُصِبْه على رَغْمٍ عواقبُ ما صنع

وقد ذكر الشيخ الطاهر حكاية حسنة أحب أن أذكرها.

قال رحمه الله: ومن الفوائد التى جرت فى تفسير هذه الآية ما ذكره صاحب نيل الابتهاج بتطريز الديباج، فى ترجمة حفيد محمد بن أحمد ابن محمد الشهير بابن مرزوق.

قال: قال صاحب الترجمة: حضرت مجلس شيخنا ابن عرفة أول مجلس حضرته فقرأ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ﴾ فقال قرأ يعقوب بالرفع ونقيض بالجزم ووجهها أبو حيان بكلام ما فهمته وذكر أن فى النسخة خللا وذكر بعض ذلك الكلام فاهتديتُ إلى تمامه وقلت يا سيدى يعنى ما ذكر أن جزم نقيض بمن الموصولة لشبهها بالشرطية لما تَضَمَّنها من معنى الشرط، وإذا كانوا يعاملون الموصول الذى لا يشبه لفظ الشرط بذلك فما يشبه لفظ الشرط أولي بتلك المعاملة فوافق وفرح لما أن الإنصاف كان طبعه، وعند ذلك أنكر عليّ جماعة منٍ أهل المجلس. وطالبونى بإثبات معاملة الموصول معاملة الشرط فقلت نصهم على دخول الفاء فى خبر الموصول فى نحو الذى يأتينى فله درهم فنازعونى ذلك وكنت حديث عهد بحفظ التسهيل فقلت قال ابن مالك فيما يشبه المسألة وقد يجزمه مُسبب عن صلة الذى تشبيهًا بجواب الشرط وأنشدت من شواهد المسألة قول الشاعر:

كذاك الذى يبغى على الناس ظالما ... تُصِبْه على رغْمٍ عواقب ما ظلم

فجاء الشاهد موافقًا للحال قال وكنت فى طرف الحلقة فصاح ابن عرقة وقال يا أخى ما بَغَيْنَا لعلك ابن مرزوق؟ فقلت عبدكم. انتهى ما حكاه الطاهر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

الذى أحب أن أنظر إليه أولاً هو صلة الجملة، بالتى قبلها، وأحب أن أتعرف على الصلة التى ليست فى ظاهر الكلام وإنما أحب أن أتعرف على الصلة الغاطسة فى عمق الدلالة، ولابد أن أسترجع الجمل من أول هذا القسم: الأولى: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ ويترتب عليها ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ وراجع الشرح ثم تأتى هذه الجملة لتحدث عن عمل الشيطان معه، لأن كل الذى مضى ليس فيه كلمة عن هذا العمل وهذا الإضلال وإنما هو تَسَلُّط الشيطان عليه، واقترانه به، وهذا وإن كان يفهم منه الإضلال لأنه ليس للشيطان عمل إلا هذا فإن آية: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾. لم تدع هذا للدلالة

الضمنيــة لأن المقام يقتــضى النص على هذا وهو أبشع ما يمارســه الشيطان وهو الصد عن سبيل الله وصراطه المستــقيم وليست الكناية كالتصريح وليس الذى يفهم ضمنا كالذى يفــهم نصاً، وأول ما يلاحظ فى بناء الجملة هو أن الكلام فيها انتــقل عن المفرد فى قوله: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ إلى الجمع فى قوله: ﴿يصُدُّونَهُمْ عَنِ السبيلِ﴾. وواو الجماعة عائدة على الشيطان والضمير المفعول به عائد على الذى يعــشو وذلك لأن «من» تدل على من يعقل دلالة مبهمة تصلح للواحد وللمفرد وكلمة شيطان النكرة فيها كذلك معنى الإبهام فجاءت هذه الجملة الثانية مشيرة إلى معنى الجــمع لتبين شيئًا مهما جداً وهو أن هذا الأعشى عن ذكر الرحمن والذى قيض الله له شيطانا وكان حاله معه على ما وصفنا هــو صورة متكررة مع كل من يعشو عن ذكــر الرحمن وأننا صرنا مع جــمع عرمرم من الشيــاطين وجمع عرمرم مــن المهملين للنظر فى آيات الله، وهم مقتــرنون فى القماقم الشيطانية وهؤلاء الشــياطين يصدونهم عن السبيل صدا ويَدُعُّونهم دعا، ولاحظ أولا التوكيد بإن واللام وثانيًا دلالة المضارع على أن هذا الصد فعل يحدث ويتجدد وثالثًا تعريف السبيل بالألف واللام المؤذنة بأن سبــيل الله هو السبيل وأن الــلفظ إذا أطلق لا ينصرف إلا إليه وسبيل الله هو سبــيل المؤمنين وهو الصراط المستقيم وأن من ﴿يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وعجيب جداً أن يكون الشياطين منهمكين فى هذا الصَّد والدفع والزع لجماعة هم يحيطون بهم إحــاطة القيض بالبيض ويفــرضون عليهم عــزلة عن المحيط الحى المتــجدد الذى يمكــن أن يجدوا فــيه لمحــة من سنا ضــياء، أقــول ليس الشياطين فى حاجة إلى أن يَصُدُّوا قومًا صَدُّوا أنفسهم عن الحق فوقعوا فريسة فى يد الشياطين فعزلوهم وحبســوهم حبسا انفرادياً كل واحد فى قمقم أو سرداب شيطانى مغلق، وقد وقفت عند كلمــة الصّدّ التى فيها معنى الدفع والمدافعة وقد قالوا: الصدُّ من الجبل ما يحول؛ وأهل الضلالة الذين فى قبضة الشياطين غير مــتمردين عليهم وغير مستشرفــين للسبيل الذى هو سبيل الله،

فلماذا الصد والدفع؟ وهذه كلمة شائعة فى الكتاب العزيز وهى غالبًا ما تكون مفيدة معنى الدفع الذى فيه قوة وحمية، ولم أجد عندى من الجواب إلا أن يكون هذا الصد الذى فيه حِدَّة وقوة ناظرا إلى ما استكن فى الفطرة التى فطر الله الناس عليها من النزوع الدائم إلى الذى فطرها، وأن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فيه شيء من هذا المعنى وأن الفطرة ذات حنين إلى الذى فطرها، وأن كل شيء فطره الله يسبح بحمده كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] وأن الشياطين يعلمون ذلك لأن الشيطان الأول كفر بالله وهو يعلم أنه لا إله إلا هو، ولم يقل لربه أنظرنى إلى يوم يبعثون إلا وهو يعتقد أن الله هو القادر على أن ينظره إلى يوم يبعثون، ولهذا كانوا جادين فى الدفع والصد حتى لا تكون هناك نهزة لهؤلاء المساكين الذين فى أيديهم ينظرون فيها إلى أنفسهم فيجدون الله فى هذه الأنفس ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٣١] وأن يكون استعمال الصد للإشارة إلى حميَّة الشياطين وحميَّة عداوتهم لهؤلاء الذين صاروا فى قبضتهم فهم يصدونهم بكل ما فى نفوسهم من عداوة ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] هذا والله أعلم.

وقول جل شأنه: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ هى الجملة الأخيرة فى بيان معنى هذه الحالة التى بدأت بقوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ ونذكِّر بمتابعة المعنى الذى هذه خاتمته والتعرف على الخطوات التى بها امتد المعنى وأصلها ورأسها يعشو ثم الغضب المدلول عليه بقيضنا ثم صيرورة الشيطان قرينا ثم صدُّه وحميتَّه فى صده ثم هذه التى بها التقى طرفا حلقة الضلال وهى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ لأن الضلال أبشع ما يقع فيه الإنسان فإذا حَسِبَ أن ضلاله هذا هدى فهذا الحسبان أبشع من الأبشع، لأن هذا الحسبان يغلق فى وجهه باب المراجعة، ويجعله شيطانًا إنسيًا يدعو إلى ما حسبه هدى ولاحظ التوكيد وإسمية الجملة فى أنهم مهتدون.

ودلالة هذه الإسمية على الدوام والاستمرار كيف يُصبحُ هذا الغارق فى الكفر والضلال داعية ضلالة ولسان ضلالة وقلم ضلالة، وقد تخرج على يد القرين الذى جاء نكرة فى قوله تعالى: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾، وكيف دل هذا التنكير في الكلمتين على أنه شيطان مختلف فى شيطنته ومتميز فى عداوته وصده، وهذا بعينه ما تراه عينى من حولى ولم أقرأ القرآن ولا الشعر ولا أى علم من علومنا إلا ليضع هذا القرآن وهذا الحديث وهذا العلم قَبَسًا من الضياء حولى أرى فيه وبه زمانى وأهل زمانى لأن هذا القرآن وهذا الحديث وهذه العلوم هى الزاد الحاضر فى زمانى وليس حديثا منقطعًا كانقطاع الأمم التى خلت لم أقرأ شيئا من ذلك من أجل الأمس لأن الأمس فات وما فات مات إنما أقرؤه من أجل اليوم والغد. وأرى فيه اليوم والغد.

وجملة ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ عند من يرون ما يجرى حولهم كأنها نزلت اليوم وكأنها تنذر بخطر هذا النموذج الذى ابتدأ بمن يعشو عن ذكر الرحمن يعنى كان سُلَّم تعليمه خاليًا من هذه الثقافة التى مصدرها ذكر الرحمن، وآية: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ وما بعدها أرى فيها صورة حيَّة جداً لما أقرؤه وأسمعه من تجفيف المنابع فى السلم التعليمى. والذى يتستر فى بلادنا التى ترفع المصحف بسترة اسمها تعديل المناهج مع أن تعديل المناهج أمر واجب ولكن ليس لإبعاد الجيل عن النظر الدقيق فى ذكر الرحمن، وحتى نرى من نسميهم النخبة وهم لا يحسنون قراءة آية من المصحف وكأننا أصبحنا نخرِّج بمناهجنا من يعشو عن ذكر الرحمن.

وهذا أيضًا مما لا يجوز أن يغيب عن قلم ولا لسان والحراسة واجبة والصادقون هم الحراس.

بقى أن نتعرف على هيئة الآيتين معنى ومبنى وهما شىء واحد والمراجعة تقول إن حجر الأساس فى الآيتين هو: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ وأنه ترتب عليه إغراء الشيطان وتسليطه عليه وأن اقترانه به نتيجة طبيعية لهذا التداخل

الذى صار بينهمـا بسبب الخطوة الثانية التى هى تسليط الشـيطان والآية الثانية المكونة من جملتـين من توابع هذه الجمل التى يركب بعضـها فوق بعض لأن جملة. ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ جملة حـالية ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ حال منها، فهذان حالان امـتدت الثانية من الأولى. والأولى حال متفرعة من جملة ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ وهكذا ترى هيأة الكلام وتماسكه وتلاحمه وأخذ بعضه بحجزه بعض.

والشق الثانى من حكاية ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾.

القسم الأول موضوعـه الأعشى فى الحياة الدنيا والثانى مـوضوعه الأعشى فى الحياة الآخرة.

وابتداء هذا القسم بكلمة ﴿حَتَّىٰ﴾ الدالة على انتهاء مرحلة وابتداء مرحلة فيه إشارة إلى أن حال الأعشى مع القـرين وهو يصدُّه عن سبيل الله ويحسب أنه من المهتدين ظل ممدودًا زمـانًا بعد زمان، ولم تنبهه حـادثة ولم تثر يقظته لفـتة لا فى الأرض ولا فى السـماء ولا فى نفسـه ولا فيـما يتلى عليـه من الذكـر، وإنما كان ينظر إلى الذكـر بعـين حولاء أو حـين عوراء والذكـر هو اللافت إلى آيات الله فى السماء وفى الأرض وفى أنفسكم وفى الطير ﴿الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَٰنُ﴾ [الملك: ١٩]، والذى حولَتْ عينهُ عن الذكر عَوِرتْ عينه عن كل شىء بعده.

صاحبنا ظل كذلك حتى جاءنا وتـرك الدنيا وراءه وأقبل على حياة الجزاء، والثواب، والعقاب، وظاهر أن من التـفت وفطن وصادف الذكر منه نُهزة من غفلة الشـيطان وأضاءت آيات الله فى قلبه وَمَـضةً واحدةً من الضوء فـالْتَفَتَ ورجع ليس داخلاً فى الآيات وإنما هذا القسم الثانى لمن ظل يحيط به الشيطان

من جهاته كلها إحاطة القيض بالبيض ويملك عليه كل منافذه ، والواجب أن نذكر أن صوت الذكر الذى هو القرآن مستمر مع كل هذه الأحوال يدعو الناس إلى دار السلام ويقول لهم ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٧] صوت لا يدع مكانا إلا نادى فيه كان أهله من الأبرار أم كانوا من الفجار، يدخل ما دخل عليه الليل لأنه هو كلمة الله إلى عباده لا تغيب ولا تفتر. والذى يصرُّ معها على العناد فهذه الآيات التى معنا تُحَدِّث عن خبره.

وكلمة ﴿جَاءَنَا﴾ ترتبط ارتباطًا خفياً بأختها التى بنى عليها ما بنى بعدها وهى التى فى قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾، وقد تكررت هناك مرتين ليبقى رنينها فى نفس القارئ المتأمل فإذا صادفته هنا ذكرها هناك وأن هذا الذى جاءنا مع قرينه والذى آل أمره إلى الدخول فى جماعة ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ قد جاءه الحق قبل ذلك ورسول مبين فلما جاءه الحق قال هذا سحر ونظر إليه نظر الأعمى أو المتعامى.

وجملة ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ تراها متمكنة جداً مع أن المسافة بين جاءنا وهذا القول مسافة متسعة جداً وأحداثها وأهوالها من أشد الأحداث والأهوال وهذا يعنى أن كلامًا كثيرًا وأحداثًا كثيرة حذفت بين الشرط وجوابه، لأنه لابد أن يكون قبل قوله ﴿قَالَ﴾ حوسب وأخذ كتابه بشماله ووجد ما عمل حاضرًا، وقبل أن يحاسب شهد هول الموقف وهول يوم التناد، ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [غافر: ٣٣] وهول الصراط وقبل هذا شهد هول الفزع يوم ينفخ فيه أخرى وشهد هول الموت، إلى آخره وإنما تخطت الآية هذا كله لأنها تلخص وتذكر نتائج سريعة لمن اتخذ هذا القرآن مهجورًا، وفرح بالحياة الدنيا واطمأن بها، وفرح أيضًا بما

عنده من العلم؛ لأن جذر القضية أنه سبحانه متّع هؤلاء وآباءهم حتى استطابوا هذه الحياة الدنيا، وكفروا بالحق لما جاءهم، وصرفهم انصرافهم إلى الدنيا عن التفكر، والتذكر، والتدبر، للذكر الذى لم يصرفه الله سبحانه وتعالى عن القوم المسرفين، وقد جاء ذلك مفصلاً فى سورة ق قال تعالى ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق. ١٩-٢٢].

لاحظ المراحل التى ذكرتها، «ق» وطويت هنا: أولّها: جاءت سكرة الموت بالحق، ثم البعث ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ ثم حضور الموقف ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ثم خطابه خطاب مؤاخذة، ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ إلى آخره، وسوف تجد القرين مختصراً هنا ومفصلاً فى «ق» مع أن القرين هنا فيه زيادة لم تذكر فى «ق»، وهو قوله تعالى ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ إلى آخره، وإنما كان التفصيل فى «ق» لأن الجذر هناك غير الجذر هنا، هنا كما قلت ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ والجذر هناك ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥] يعنى إنكار البعث الذى كان جذر السورة وبنى عليه المطلع ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ويكفى هذا فى بيان ترتب الجزاء على الشرط فى قوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ﴾ لأنك لو ذهبت تتابع ذلك فى الكتاب وتدرس طيَّه ونشره فى الآيات المختلفة وتتبين مقامات طيِّه هنا ونشره هناك لرأيت نفسك أمام كتاب آخر لا يتسع إلا إلى هذا الطى والنشر.

وقوله: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أول كلام نسمعه ممن يعشو عن ذكر الرحمن وكلمة ﴿لَيْتَ﴾ موضوعة للتمنى وهو طلب المستحيل أو الذى فى حكمه ولم تستعمل فى غير التمنى ولم أعرف كلمة من كلمات العربية لم تستعمل إلا فى المعنى الذى وضعت له، لأن كل كلمات اللغه ما عداها تحركه

الستة أصحاب البيان العالي وتفرغ بعض دلالاته وتصب فيها بدائل مما يشبهها أو مما هو منها بسبب: وقدرات أهل البيان على ذلك تُقَاسُ بها أقدارهم، ولم تستعص على الألسنة إلا هذه الكلمة ذات العراقة في معنى التمني والتي تأنف أن تكون دالة على غيره وهذا عجيب، وحرف النداء الداخل عليها يمكن أن يكون قد تخلص هنا إلى معنى التنبيه ليلفت إلى هذا التمني الذى صار حسرة وتندمًا، ويمكن أن يكون حَرْفًا دلاً على التلهف والتحسر ويكون قد تشرَّب من الكلمة بعده، وأشربها، ويمكن أن يكون حرف نداء، وأنه ينادى ندمه كالذى نادي حسرته في قوله تعالى ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ ما فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١]، وكل هذا يلتقى عند الدلالة على هول ما رآه وفوجئ به من الأهوال بسبب هذا القرين، ومن المفيد أن نراجع الجملة التى دخلت عليها ليت التى صاح بها وأدخل عليها يا ليمتد صوته بهذه الصرخة في أحرج وقت يواجهه المعاندون لدين الله ولا يرجوا العارفون لربهم رجاء أفضل من رجائهم النجاة من أهوالها، وقوله ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ خبر ليت ﴿بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ اسمها وإنما قدم الخبر لأنه لُبُّ المعنى. وجوهر المقصود وأصل الكلام يا ليت البعد الذى بينى وبينك بعد المشرق من المغرب، يعنى مشرق الشمس من مغربها وهو أبعد البعد ثم غلب المشرق على المغرب كما يقال الأبوان للأب والأم والعمران لأبى بكر وعمر، قالوا وغُلِّب المشرق على المغرب لأن المشرق شروق الشمس والنفوس به أعلق، وهذا جيد وفيه أيضًا أن المشرق ضياء ونور وهداية وكل ذلك يعصم المعتصم بعقله من التِّيه، والضلال، وذلك بخلاف المغرب فإنه بداية الظلام وفى الظلام تيه، وضلال، ولا يحسن أن نبعد هذين المعنيين عن المشرق والمغرب. والـمُتمنَّى هنا مستحيل لأنه يتمنى شيئًا كان ولا سبيل إلى عودته، وأصل المعنى يا ليت كان بينى وبينك بعد المشرقين، ولما غلب المشرق على المغرب أوجز وأضاف البعد إليهما وقال بعد المشرقين والأصل البعد الذى بين المشرقين وقد وصف الشيخ الطاهر هذا بأنه من الإيجاز البديع، ومفهوم

من تمنّى هذا البعد أنه يتمنى ألا يكون الذى قربه من هذا القرين قد كان، والذى قرَّبه من هذا القرين هو استخفافه بالنظر فى ذكر الرحمن، لأن الذى قرَّبه من القرين، والذى قيض الله له القرين بسببه هو نظره المستهزئ فى ذكر الرحمن، وأنه نظر إليه نظرًا كنظر الأعمى أو المتعامى، ولهذا كان الندم فى الجملة ندمًا راجعًا إلى هذه الخطيئة ولو لم يقع فيها لا بتعد عنه القرين ابتعاد الظلام عن الضياء، وابتعاد المغرب عن المشرق، وابتعاد أهل الهداية عن أهل الضلالة، لأن هذا القرين ليس له سلطان على عباد الله الذين آمنوا، إنما سلطانه على أهل الضلالة، والشيطان الأب والرأس يعلم ذلك وهو الذى أقسم لربه بعزته سبحانه ﴿**لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، وراجع الجملة مرة ثانية لتجد الكافر جعل نفسه فى المشرق وجعل القرين فى المغرب يعني أنه كان في موضع الضياء والهدى وتذكر ﴿**أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ**﴾ وأن الذكر لم يصرف عنه وأن هذا الذكر هو الذى سمَّاه ربنا نورًا ﴿**وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا**﴾ [الشورى: ٥٢]. وكل هذا قد كشف لهذا الكافر ﴿**قَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾ [ق: ٢٢]. ﴿**أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا**﴾ [مريم: ٣٨].

والخلاصة أن الآية ليست ندمًا على أن الشيطان كان له قرين وإنما هى ندم على الخطيئة التى صيرت الشيطان له قرينًا، والقرين لم يَرُدّ هنا وإنما رَدّ فى سورة «ق» وقال ﴿**رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ**﴾ [ق: ٢٧]. يعنى كان فى التيه والضلال بمحض كسبه واختياره، والجملة ليست تحذيرًا لأهل الإيمان من أهل الضلالة فحسب وإنما هى تحذير لأهل الإيمان من الضلال نفسه، لأنه هو العدو ورأس الضلالة هنا هى هجر كتاب الله، أو النظر إليه بغير ما يجب من العناية والحفاوة واليقظة والتدبر، وهذا النظر المُتَثَبِّت الباحث عن الهدى الذى

أنزله الله فى كتابه هو الذى ينفى عن الأمة هجر القرآن، ويستوى هجره بمعنى عدم قراءته وهجره بمعنى عدم تدبره، والذى يقرأ القرآن وهو مغمض القلب والعقل لا يجاوز القرآن ترقوته من الذين اتخذوا هذا القرآن مهجوراً.

وقوله سبحانه ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ هذه الجملة علة للجملة التى قبلها وأن تمنّى البعد فى الجملة الأولى هو ندم على الاقتراب والاقتران لأنه بئس القرين، وكلمة القرين وضعت موضع ضمير المخاطب الذى جرى عليه الخطاب فى قوله ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ وإنما وضع الاسم الظاهر موضع المضمر لأن الذم راجع إليه من حيث هو قرين، وقد جرى فى هذا الاسم الظاهر شوب من معنى التجريد، وأنه لشناعته وسوئه صح أن يُجَرَّد منه قرين هو بئس القرين، والفاء التى فى أول الجملة هى الفاء التى تدخل على الجمل التعليلية مثل أكرم زيداً فإنه يستحق أن يكرم وهذه الجملة التى بُنيت على كلمة بئس التى هى أم كلمات الذم ترجع إلى كلمة قرين التى فى أول قصة ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ لتضيف إلى القرين الذى فى قوله تعالى ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ قدراً من معنى الذم والتنفير ليحذر الكل من قرناء السوء.

وقد بدأ الكلام بالحديث عن المفرد ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ وهذا بيان للكسب ولا تكسب كل نفس إلا عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم انتقل إلى الحديث عن الجماعة فى قوله سبحانه ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ لأن هذا وصف لفريق جمعته الخطيئة التى سَبَقَتْ ثم عاد الكلام إلى الحديث عن المفرد فى الآية التى معنا لأنها رجعت إلى صاحب الخطيئة الأولى وهو هنا قد أسقط فى يده فصاح بالندم ولَعْنَةِ القرين، ثم ساد الكلام إلى الحديث عن الجماعة فى الآية الأخيرة فى هذا الموضوع، ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ وهذا باب عجيب من أبواب البيان القرآنى، ولا أستطيع أن أعلله بالمراوحة التى تذهب الملل لو جرى الكلام على وجه

واحد كمـا قال حازم فى بيان وجه هذا الطريق فى الشـعر، لأن السر المعنوى الذى أشرت إلى شىء منه أمكن وأقعد، ثم لاحظ المناوبة بين الطريقين حديث عن مفرد ثم حديث عن جمع ثم حديث عن مفرد ثم حديث عن جمع.

وقد قرئ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَانَا﴾ بالتثنية يعنى الكافـر وشيطانه الذى هو قرينه وجاء قوله «قـال» فى هذه القراءة مفردًا لأن الذى يقـول هو الذى ضَلَّ وكفر ولأنه هو رأس الكلام والتـثنية فى «جـاءانا» تثنية فى المجىء للإشـارة إلى أنه قرين لا ينفك عنه فى الوقت الذى هو سـاخط عليه وليس للقـرين أن يقـول يا ليت بينى وبينك بعد المشـرقين لأن الكافر لم يُضل الشـيطان، الشيطان هو الذى يُضل وهو الذى قـال لربه ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝١١٨ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩]. وهذا سعيه الذى طلب من ربه أن يؤخره إلى يوم القيامة لإنجازه.

قوله سبحانه ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ هذه الآية تقتـضى تقدير حذف لـيظهر تماسكها مع التى قـبلها وقـبل هذا أُنبِّه إلى وقـفات وقـفهـا العلماء، وأول مـا يلاحظ أنها بُنـيت على نفى أن ينفعـهم اشتـراكهم فى العـذاب، وفى الآية أزمنة ثلاثة ليست مُتَّـفقَـة الدلالة. أولها المستـقبل المدلول عليه بكلمـة «لن» لأنها للنفى فى المسـتقبل. والثـانى كلمة اليوم، وهى دالة علـى الحال، والثالث كلمـة «إذ» وهى للظرف فى الماضى. فـاخـتلفت الأزمنة وتصـادمت، وكـان أبعـدها الدلالة على المضى فى قـوله سبحانه ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ ولذلك أولَّها الزمخشـرى على تقدير محذوف والمعنى إذا تبيّن ظلمكـم فنقل بهذا التقـدير المضى إلى الحضور، والمـراد أنه تبين لهم لأنهم كشف عنهم الغطاء وظهـر لهم كل جليل ودقيق. ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]. وهذا هو اليوم، واكتفى الزمـخشرى بهذا، وذكر قول الشاعر «إذا ما انْتَسَبْنَا لـم تلدنى لئـيمة» لأن لـم تلدنى لئيمة فعل مضى.

وإذا ما انتسبنا فعل دال على الحال أو الاستقبال ولا يجوز ترتب الماضى على الحال، أو الاستقبال، ولذلك قُدِّر كلمة تبين حتى يتهيأ الماضى الذى هو لم تلدنى إلى أن يكون جوابًا وهذا كلام جيد، وعليه لا يكون هناك إشكال فى أن يكون ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ بدلاً من ﴿الْيَوْمَ﴾ ويكون المعنى لن ينفعكم إشراككم فى العذاب اليوم إذ تبين ظلمكم، وقد فطن الشيخ الطاهر إلى أن دلالة الحال فى كلمة اليوم لا تزال تكدِّر الدلالة لأن ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾ معناه المستقبل وكل هذه الأزمنة متعلقة بينفعكم والمعنى لن ينفعكم اشتراككم فى العذاب الذى تستقبلون ولذلك نبّه الطاهر إلى أن ﴿الْيَوْمَ﴾ ليس ظرفًا لاشتراكهم فى العذاب وإنما هو ظرف للحكم والخبر، وكأن المعنى اليوم تعلمون أنه لن ينفعكم اشتراككم في العذاب وهذا جيد، أيضًا وتحليل البيان بمعزل عن هذه الملاحظات ضرب من التهويش يروج فى زمن قامت أمورنا كلها فيه على التهويش، وقد ذكر الطاهر أن أبا الفتح سأل أبا علىٍّ مرارًا عن وجه إبدال ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ من ﴿الْيَوْمَ﴾ مع اختلاف الزمانين وكان آخر وخلاصة ما ذكره أبو على هو أن الدنيا والآخرة سواء فى حكم الله وعلمه، فكأن «اليوم» ماض «وكأن «إذ» مستقبل وعلق الطاهر على هذا بأنه جواب واهن، وهذا تعليق ناظر إلى أن استعمال الأزمنة فى كلام الله مطرد على وجوه استعمالها فى كلام الناس وهذا لا يمنع من تلك اللفتة التى التفت إليها أبو على من أن الأزمنة الثلاثة الماضى والحال والمستقبل والدنيا والآخرة كل ذلك يستوى فى علم الله وحكمه فالذى مضى فى ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ كالحاضر فى ﴿الْيَوْمَ﴾ وكالمستقبل فى ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾، وأنا أستحسن هذا لأن أقوال الله وأفعاله لا تخضع لما تخضع له أقوالنا وأفعالنا من ضرورة أن تكون واقعة فى زمن من الأزمنة الثلاثة لأن الله سبحانه هو خالق الزمن وكان سبحانه ولم يكن زمن ولا يقاس الغائب على الشاهد، وقد أحسن أبو على حين ذكر أن الدنيا والآخرة فى علم الله وحكمه سواء والدنيا تمثل الزمن الماضى والآخرة تمثل الزمن المستقبل لأن الآية فى حساب الآخرة، والدنيا قد مضت والآخرة قد أقبلت،

وكأن أبا على يقول إن علـم الله وحكمه فوق الأزمنة التى نعرفـها، وأحسن الطاهر حين نظر إلى ما نظر إليه. ثم إن هناك شيـئًا آخر لا يجوز إغفاله وهو أن قـوله سبـحـانه ﴿إذ ظَلَمْتُمْ﴾ ووقوعه بدل من ﴿الْيَوْمَ﴾، وإن قدر الزمخشرى به محذوفًا فإن ذكر الكلمة من غير هذا المحذوف الذى كان يمكن أن يكون، فيه إشارة إلى حضور أعمالكم الدال عليها كلمة ظلمتم، وأنها وإن كانـت وقعت فى الماضى فـهى حاضـرة فى هذا اليوم، الذى هو يوم الـتلاق ﴿وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً﴾ [الكهف: ٤٩] وهذا أنسب فى مقـام التخويف والرَّدْع، وأصل القضية هى الإسـاءة وسوء الأدب فى تلقى ما أنزل الله إلينا، وشىء آخر وهو أن هذا اليوم الذى هو ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] يوم شامل للأزمنة الثلاثة، أما شموله للماضى فلأنه يوم الحـساب على كل ما كان فيما مضـى. وهذا هو معنى حـضور الأمس فى اليـوم، ثم هو حاضـر لأنه يوم يتلاقى فيه العباد بأعمالهم، ثم هو شـامل للمستقبل لأن جزاء أعمال الماضى واقع فى المسـتقبل ومَـقْضِىٌّ فـيه اليوم، وهـذه من فوائد ذكر الأزمنـة الثلاثة وتعلقها، بينفعكم، هذا والله أعلم.

ثم أعود إلى الفجوة التى أراها بين الآية والآية التى قبلها وبيان هذه الفجوة هو أن الآية التى قبلها ذكرت كلام الضـال وصرخة ندمه لما ارتكب ما قرب منه هذا الشيطان، وجعله قرينًا له، والشيطان حاضر بدليل قراءة ﴿جاءانا﴾، وهما معًا بيـن يدى رب العزة فتكلم الضال ولم يتكلم الذى أضلّـه، وقال رب العزة ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ﴾ وهذا معناه أن الشـيطان قد ردَّ على الضال، وحـاجه، وتبرأ مما اتهمه به، وإن كـان اتهامه له على سبيل التضـمين، وليس على سبيل التصـريح، يعنى لم يقل لقد أضـلـنى عن الـذكـر بـعـد إذ جاءنى. وإنما قـال ما يسـتلزم ذلك، وأن الله قضى عليـهمـا بالعذاب وآية ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ قيلت بعد هذا القضاء لأن المناسب أن تقال لمن فى النار أو لمن هو بصـدد أن يكون فى النار لأنهـا تخطت الحكم بدخـول

النار، والقضـاء بالعذاب، وجعـلت هذا أمرًا مفـروغًا منه، وهذه هى مساحة الفراغ التى بين هذه الآية والتى قبلها، وترى ما يملأ هذا الفراغ فى سورة قاف وذلك لأن القرين فيـها ردّ وقال: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق:٢٧]، ورد الحق عليـهمـا وقال: ﴿لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ [ق. ٢٨]. وهذا دَفْع لهما، وتذكير لهما بوعيده، وإنذاره وأنكما لم تَهْتَمَّا بهذا الإنذار وهذا الوعيد، وهـذا أوان إنفاذه وكأن القضاء قـد تم بكلمة ﴿قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ ثم أكد أن هذا الأمر لا مـراجعة فيه، وأنه سـبحانه ﴿ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٩]. وبعد هذا يأتى قوله سـبحانه ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ لأنها كمـا قلت تقال لمن يَصْطَلى حَرّ النار هو وقـرينه، وسـورة قاف نزلـت قبل الزخـرف، ومـجىء هذه الآية فى الزخرف يستدعى ما جاء فى قاف، وحذف في الزخرف لدلالة ما جاء في قاف عليه، وهدا يشبه الاقتصاص الذى ذكره الزركشى. لأن صحة فهم الآية يقتضى اقتـصاص مـا ذكر فى مـعناها، فى آيات أخرى، وهـذا جيد وهو ضـرب من ضروب التدبر، والمقـام الذى اقتضى ذكرها فى الزخرف ربما كان قـوله سبحانه ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ لأن هذا استـحضار لأفضل أوقات المخالطة بين الضال والشيطان، وانقياد الضال وإذعانه للشيطان، وإقناعه بأنه يهـديه سواء السبـيل. فجاءت الآية تفـيد أن الهادى والمهـتدى فى سواء الجحيم، وأنهما وإن كانا انتفعا بهذه الصحبة فى الدنيا فلن تنفعهم اليوم، ثم إن الاشتـراك في العذاب وأنه غيـر نافع؛ هو من جهـة أخرى معنى مـضاد لتمنى الذى عَشِى عن ذكر الرحمن لما قال ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ فأجيب بأنه مشترك معه، ومما يزيد الـعذاب عذابًا أن تكون صحبتك فيه مع من تمنيت أن لو كان بينك وبينه بعد المشرق عن المغرب.

قوله جل شأنه ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾.

انتقل الكلام فى هذه الآيات من الحديث عن خبر ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ إلى خطاب رسول الله ﷺ وأنه عليه السلام يشق على نفسه ما عليه قومه.

وراجع الآيات قبلها وحدد مواضع الانتقال وكيف يبدأ المعنى، وكيف ينتهى. لأن السورة كأنها دوائر مفتوحة كل دائرة تدور حول معنى، ثم هى مفتوحة على المعنى الذى جاء قبلها، والمعنى الذى يأتى بعدها، وهذه الدوائر أو الأوْدية أو المعانى هى المكونة للسورة، وعلاقات رؤوس هذه المعانى بعضها ببعض هى ما يبرز جانبًا مهماً فى تكوين هيأة السورة وبيان سمتها وصورتها، والحديث هنا انتقل من معنى كما قلت إلى معنى آخر وبينهما من العلاقة ما ترى ثم إنه انتقل من خطاب الضال وشيطانه إلى خطاب رسوله ﷺ وهذا لو تدبرته لوجدته عجيبًا فى البيان فالكلام السابق موجه إلى الذى طغى وعتا ثم استدار الكلام بعد ذلك مباشرة إلى الذى نزل عليه الكتاب والكل فى حضرة ذكر الرحمن يكلم هذا ثم يتبع كلامه بكلام الآخر. يحدث الذى كذب بالصدق، ثم يلتفت إلى الذى جاء بالصدق وصدق به.

هذا فى المناقلة والتنوع فيمن يتوجه الخطاب إليه وأثر ذلك فى تطرية الكلام وبث الحيوية فيه، وإقصاء الرتابة والملل عنه.

أما بالنسبة لعلاقة المعنى بالمعنى، فإن آية ﴿أَفَأَنتَ تُسمِعُ الصُّمَّ﴾ راجعة إلى آية ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾ وإذا وضعنا رأس كل بجوار أختها وجدنا أن

آية ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ امتـدادا لآية ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ لأن الأولى تعنى أنه مـقطوع الصلة بذكـر الرحمن لأنه يـنظر إليه نظر الأعـمى أو المتعـامى. وذكر الرحمـن هو النبوة وآية ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ تأكيـد لمعنى ﴿يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾، لأن الأصمَّ لن يصل إليـه صوت، والأعـمى لن يصل إليه ضوء هذه عاهة فى العـين وهذه عاهة فى الأذن وهذا هو معنى أنها امتداد لمجـموعة الآيات المتعلقـة بالذى يعشو، والاستـفهام فى قوله سـبحانه ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ للإنكار، ودخول الإنكار على الفاعل يعنى أن الإنكار منصبٌّ عليه، وأن الفـعل الذى هو إسماع الصم فـعل يمكن أن يكون ثم هو لا يكون إلا من الله، وهذا معنى القصـر الذى ذكر العلماء أن هذا الطريق من البناء يفيده، والكـلام على التمثيل لأنه عليه السـلام لم يدع أنه يسمع الصم، ولا يمكن أن يدعى أحـد ذلك لأنه داخل فى المحال، وإنما يجـاء بهذا الكلام على سـبيل التمثـيل وأن من ادعى أمرا صعـبًا لا يقدر عليـه يكون بمنزلة من يدعى هذه المستحـيلات، إسماع الصم، وهداية العمى وإسمـاع من فى القبور وهكذا، وقد كان ﷺ شديد الحرص على هداية قومه، شديد الحب لهم، وقد أشارت آيـات كثـيرة إلى هذا منهـا هذه الآيات ومنها قـوله تعالى فـى سورة الكهف. ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] وفى أول الشـعـراء ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعـراء: ٣]. والبخع قـتل النفس غَمّـا، ولم ترد هذه الكلمة فى الـكتاب العزيز إلا فى هذين الموضـعين، وقدم أفـأنت تسمع الصم على تهْـدى العمى ليُتَـمم معنـى ومن يعش لأن أفأنت تسـمع الصم رأس الآية الراجع إلى رأس الآية السـابقة، والأولى فى العـشا الذى هو أخـو العمى. وهذه فى الصـمم وبذلك يسـتوفى الكلام صَـممـه مع عمـاه، ولأن ذكر الرحـمن الأصل فيـه السماع، ولذلك يقدم ما يدل على افتقـاده، فى مثل هذا السياق كما فى قوله تعالى ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقـرة: ١٨] وقد دخلت همزة الإنـكار على الفاء فآذنت بكلام يتصيده أو يقتنصـه الذهن اليقظ من السياق، ويختلف الناس فى

تقديره، كل من جـهة رؤيته للمـعنى، والذى يبدو لى أن المقـدر هو من مثل قولنا: أحسبت أنك تقدر على ما لم يقدر حـليه غيرك من بنى جنسك فتسمع الصم؟ أو أدفعك حرصك الشديد على هداية قومك حتى توهمت ما لا سبيل لك إلى الوصول إليه فظننت أنك تسمع الصم، ومهما اجتهدنا فى التقدير فإن ترك التقـدير أولى من التقـدير، وترك الذكر أولى من الذكـر، والمهم أن هذه الفـاء قبلهـا هُوّة من الفراغ المـتلئ بالاحتـمالات، وأن هذا من أجَـلِّ صور البيـان، والقصر فى الجمـلة يعنى أن الله هو القادر على ذلك، وأنه سبـحانه يسمع من يشاء، ﴿وَمَا أَنت بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، هو وحده الذى يسمع من فى القبور، وهو وحده ما لكم من إله غيره، وهذا يشير إشارة ليست بعيدة إلى مـا قاله أبو على الفارسى لابن جنى فى إبدال ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ من ﴿الْيَوْمَ﴾ فى قوله تعالى ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾، وأن القيود التى تحيط بأقوالنا وأفعـالنا مُلْغاة بالنسبة لأقواله سبحانه ولأفـعاله، وقوله جل شأنه ﴿أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾، معطوف على الخـبر ﴿تُسمِعُ الصُّمَّ﴾ وأن هداية العمى كإسماع الصم، ليس من شأن أحد وإنما لها فى الوجود فاعل واحد لم يكن له كفوا أحد، وكلمة تهدى العمى تأرز إلى كلمة (يعشو) فى رأس الكلام السـابق لأنها من بابها والعشا هناك قد يكون عـاهة فى العين وقد يكون تعاشيًا، وهو هنا عمى، وهو أقوى وأبعد، والآية هناك تصف واقـعًا بدأ بمن يعشو ثم تطور بتقييض الله لهم شيطانًا فـهو لهم قرين، وهذا التطور أفضى هنا إلى العمى، ولو سـألـت وقلـت أى الاثنـين أبعـد عن الهـدى بالذكر الحكيـم، الأصـم، أو الأعمى؟ لقلت لك الأصم لأن السـماع هو الوسيلة الأقـرب لإدراك ما فى الذكر الحكيم، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] والعشى فى الآية السـابقة مجاز عن التشـويش وعدم التدبر وليس أن عينه لم تنظر فى القرآن وإنما بصيرته لم تتدبر القرآن.

ولذلك يأتي العمى محمولا على الصمم فى مثل هذا السياق كقوله تعالى ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ ، قلت هذا مع إننى نبهت إليه سابقًا لأن قوله تعالى ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ معطوف على العُمْى فى قوله جل شأنه ﴿أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ ولابد أن يكون الذى هو فى ضلال مبين أبعد فى الهداية من الأعمى. لأن الكلام فى هذا السياق لا ينزل من الأعلى إلى الأدنى، وهذا معناه أنه إذا صح أن نفترض فإننا نفترض هداية الأعمى. قبل هداية الذى هو فى ضلال مبين، والضلال التيه الذى طُمِست معالمه، والضال فيه لا يرى شيئًا يهتدى به وإنما يضرب فى متاهة لا يدرى أين طرفاها، وفى طيّ هذا تحذير من الضلال الذى يبدأ بخطوة واحدة فى طريق الخطأ فتقود إلى هذا التيه المبين، وهذه الخطوة الواحدة التى فتحت باب الضلال فى الجزء السابق والذى أفضى إلى أنه لا ينفعهم أنهم فى العذاب مشتركون هى عدم العناية بالنظر فى ذكر الرحمن. ولا يجوز لنا أن ننسى أن كل هذه المسالك من الضلال والإصرار والمعاندة للذكر الحكيم لم تؤدِّ إلى أن يصرف الله الذكر عنهم وإنما الذكر يذكّر دائمًا الذى يعشو عن ذكر الرحمن ويُسْمِعُ الصُّمَّ ويهدى العمى ويطارد الضال فى التيه البعيدة، صوت الذكر لم ينقطع عن أحد ولم ينقطع عن مكان، ولم ينقطع فى زمان، وهذا مما يجب أن يتأمل. ثم إنه مما يجب أن يراجع أيضًا أن الصُّمَّ والعُمْىَ ومن هم فى ضلال مبين ليسوا كل قومه ﷺ، وإنما هم جماعة المُصرِّين والذين قضى الله عليهم بالخِذْلان والذين قتلوا أو ماتوا وهم مصرون على العناد، وعددهم قليل لأن كل قومه دخلوا فى دين الله أفواجًا والآيات مكية وكان العناد والإصرار بلغ الغاية وأهم ما أحب أن أتدبره فى ذلك كله هو دلالة ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ والذى جاء فى رأس السورة ليبيِّن أن كل هذه الضلالات وكل هذه الكفريات وكل ما هو من بابها وما هو أشد من بابها لا يجوز أن يكون سببًا لإسكات الذكر الذى هو القرآن وإبعاده عن الساحة وإنما يظل صوته عاليًا

يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ويدعو إلى دار السلام، لأنه كلام الله، وهو الداعى عباد الله إلى الله؛ وهو رحمة الله ونعمته العظمى. ونعم الله لم تنقطع عن الذين عتوا عتواً كبيراً، والذين عاندوا وعشوا عن ذكر الله إلى آخره. كلهم يزاولون ما يزاولون من حرب الله ومحادّة الله ورسوله، وهم يتقلبون فى نعمه يحاربون الله وهم يبيتون ويمسون ويصبحون متقلبين فى نعمه، وهذا هو جلال الألوهية وأن الكل ملكه وأنه غنى عن العالمين، وأن عطاءه لا ينقطع عن أحد.

قوله سبحانه: ﴿ **فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ** ﴾.

الخطاب ظل لرسول الله ﷺ كالآيات السابقة والمعنى انتقل انتقالة واسعة والفاء التى فى أول الجملة تفيد ترتيب ما بعدها على ما قبلها وتدرك هذا الترتيب مع الانتقال الواسع بصورة أوضح إذا راجعت الكلام من جذره لأن كل هذا الذى مضى فروع متفرعة من جذر وهو «**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض**» ثم جعلهم لله جزءاً ثم جعل الملائكة إناثاً ثم قولهم إنا وجدنا آباءنا ثم قولهم لولا نُزِّل هذا القرآن ثم توابعه من قوله ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ومن يعش عن ذكر الرحمن إلى أن انتهى بهم إلى صورة تُيْئسُ من هداهم وهى تنزيلهم منزلة الأصم الأعمى ومن هو فى ضلال مبين وكان هذا هو السطر الأخير الذى يتحدث عن قصة إمكانية أو عدم إمكانية استجابتهم، وأن هذا السطر الأخير أغلق باب الأمل لأن الأصم لا يسمع، والأعمى لا يرى، والذى فى الضلال المبين لا يؤوب، وهذا يتطلب معرفة جواب سؤال يقول وماذا بعد؟ أى شىء بعد اليأس من هداية الأصم الأعمى؟ وتأتى الآيات وتقول الذى بعد ذلك هو نصرة دينك حياتك أو بعد موتك، وقد قلت نصرة دينك مع أن منطوق الآيات خلاف ذلك لأن الانتقام من المحادِّين لله بعد موته ﷺ لا معنى له فى مقامه هذا وسياقه هذا إلا نصرة

الدين، لأن كسر عظام عـدو دين الله يعنى نصرة دين الله ولا أظن أن المسألة محصورة فى الانتقام والاقتدار من غير المعنى الذى وراء الانتقام والاقتدار وهو نصـرة الدين لا أظن هذا لأن هذا ليس تسليـة لرسـول الله ﷺ بل هو عكس هذه التسلية لأنه كان يحب قومه على ما بهم؛ وإذا اشتد أذاهم له قال: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون» وقد علم الله منه ذلك وأكرمه بأنه رفع عن أمته عذاب الاستئصال الذى كتبه على الأمم من قبلهم ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ** ﴾ [الأنفال: ٣٣]. ثم إن هذا هو الذى كـان ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ومات من مات على كفره وهم الصم العمى الضالون فى التيه المبين.

اتضح الآن هذا التفريع ومعنى هذه الفاء التى فى رأس الجملة.

وإذا كان المقصـود الوعد بنصرة الدين وكسر عظام المحـادِّين له فلماذا جاء فى هذا الأسلوب؟ ولماذا ارتبط بهـذا الشرط الذى هو موته فى الأول وحـياته فى الثانى؟ والذى أراه فى هذا والله أعلم هو أن بناء الكلام على ما بنى عليه من رؤية الداعى الكريم لهذا الـنصر أو عدم رؤيته ليـفيدنا نحن مـعنى جليلاً جداً وهو أن الدعاة إلى الحق الذى يؤمنون به فى أمـور الدين وفى أمور الدنيا فى العلم أو فى السيـاسة أو فيـما شئت؛ عليـهم أن يخـلـصـوا فى دعوتهم إلى ما آمنوا به غيـر ناظرين إلى نتائج هذه الدعوة، ويستـوى أن يَرَوْا بأعينهم آثار دعوتـهم ومظاهر نجاحـها، أو يروا بأعـينهم أنه ليس لها نتـائج، الداعى الحق لحق آمن به لا يـيئسـه ذلك ولا يلتفت إليـه وإنما يدعو بفـهم وبصـبر، وصدق، وتجرد ومراجعة دائمـة حتى لا يداخل الخلل دعوته أو حتى لا يدعو إلى شىء فيه غمـيزة، ومادام معتقدا صحة مـا يقول ومادام يراجع ذلك دائمًا فعـليه أن يسـتمـر فى دعوته ولو لم يبق فى الأرض ديار يرى مـا يرى، ولو وجد قومه من حوله صُمّا آذانهم عن صوته وعُمْيًا عيونهم عن قوله، لا يجوز أن يغـيب صوت حـق وراءه مؤمن به، ولا تسـألنى ولا تسـأل غـيرى مـاذا حصَّلت ولا تقل لى إلى أين وصلت؟ والآية العظيمة التى معنا أغلقت الباب

بسطر مُيئس وهى أن القوم صم وعمى وأن الداعى الأكرم ﷺ يجب أن يستمر غير ناظر إلى أن يرى أثر ذلك بنفسه، لأنك تنصر الحق. ونصرة الحق من نصرة الله، والله ينصر من ينصره، والنصر من عند الله.

وحين ينقل هؤلاء الصادقون المخلصون إلى ربهم، والحال كما هو، فإن الذى لهم عند الله لا يوزن به شىء فى هذه الدنيا، ولاحظ العبارة عن التحاقه عليه السلام بالرفيق الأعلى وأعنى قوله ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ فاعل نذهب هو الحق جل جلاله والباء أخت الباء التى فى قوله تعالى ﴿اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨] وفيها معنى المصاحبة وهذه لحظة موته عليه السلام ترى الحق بعزه وجلاله يذهب به ﷺ وهو فى صحبته وهكذا يكون إكرام الله سبحانه للذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وأخلصوا فى الدعوة إلى حق آمنوا به، وجاءهم اليقين، والآذان من حولهم صم، والعيون عمى. وإنما قدم ﴿نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ على ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ﴾ لمعنى جليل وهو أن الأمر أمرنا، وأن الشأن شأننا نفعل ما تراه الحكمة وليس ما يتمناه أولياؤنا، ثم إن نُصرة الحق بعد الموت داعية أفعل وأدل على أن صوت الحق لن يضيع عند الله، وإن صُمَّت عنه الآذان وعَمِيتْ عنه العيون.

وأصل الجملة إن الشرطية وشرطها يعنى إن نذهب بك ثم زيدت ما لتأكيد الكلام وأدغمت إن الساكنة الشرطية فى ما الزائدة وكتبت كما نطقت ثم ألحقت نون التوكيد الثقيلة بالشرط من أجل ما الزائدة للتوكيد فأضيف توكيد إلى توكيد وهذا شأن ما الزائدة إذا دخلت بين إن الشرطية وشرطها، وقوله جل شأنه ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ جملة مؤكدة بإن وإسمية الجملة وتقديم الجار والمجرور ويراها كثير من علمائنا جواب الشرط وأن الانتقام منهم مقيد بموته ﷺ ومرتب عليه، والذى أراه أن انتقام الله من المحادِّين لدينه والمستهزئين بما أنزل غير مقيد بشىء وإنما هو كائن ذهب الله برسوله أو أبْقاه،

والأولى أن يكون الجـواب محذوفًـا والمذكور دليل هذا المحـذوف، وأن يكون التقدير فإن نذهب بك فاعلم أنت ومن معك أن الانتقام منهم واقع لا محالة، ويكون الجـواب المقـيد بالشـرط هو العلم وقـوله عـز وجل ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ معطوف على الجمـلة السابقة ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ فعل الشرط مؤكد كما أكد ﴿نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ لأن ما الزائدة بمثابة لام القسم كما قال الزمخشرى و﴿الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ هو الانتقام والعـذاب وكلمة «وعد» هنا بمعنى الوعيد لأنها إذا ذكر مفعولهـا صح أن تكون للوعد وللوعيد نقول وعدته خيرًا ووعدته شرًا لأن المفعـول يُبيِّن وإذا لم تقيد بمفعول كـانت فى الخير وقوله عز وجل ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ ليس الجواب بإجماع المفسرين لأن اقتدار الله عليهـم ليس مشروطًا بشـرط والتقـدير أو نرينك الذى وعدناهم فـتقـر عينك ولعلمائنا لفتة جليلة فى ذكر «﴿مُّقْتَدِرُونَ﴾ مع ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ قالوا لأن الاقتدار مما يُرَى فناسب الشرط، وكلمة على تفيد الاستعـلاء والغلبة؛ وصيغة الافتعال فى الانتقام والاقتدار، تدل على مزيد مـن الغضب، قلت إن الانتقام والاقتدار والوعيـد المفهـوم من قوله ﴿الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ كل ذلك وراءه المعنى اللازم له وهو نصرة الدين لأن صاحب الرسالة صلوات الله وسلامـه عليه لا يستشرف إلا إلى نصـرة دينه، وليس إلى محـض الانتقـام، ولو كان المقـصود مـحض الانتقام لما كـان لذكره بعد موته عليـه السلام قيمـة، لأن من مات فات. ولم يكن رجاؤه عليه السلام أن ينتقم الله من قومه، وإنما كان رجاؤه أن يهدى الله قومه، ولا يجوز أن ندع الآيتين من غـير أن ننظر إلى هذا الإيجاز الشديد فى اللفظ والاتساع الجليل فى المعنـى. ثم التصاقب الظاهر فى التركـيب والتلاؤم الصوتى الرائع ليس فـقط فى وحدة أداة الشرط، وفى تركيب جـملة الشرط، وإنما فى جـملة الفـاصلة، فى كل ﴿فَـإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِـمُـونَ﴾، ﴿فَـإِنَّا عَلَيْـهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ ثم إنك تجد مثل هذا كـثيرا جداً فى الكتاب ومـرجعه هنا إلى أن الآيتين يمثلان وجهين لحقيقة واحدة.

قوله سبحانه ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

هذه الفاء تمسك هذه الآية الكريمة بالآية التى قبلها ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ وترتبها عليها وراجع الفاءات الثلاثة التى ابتدأت بها الآيات من قوله ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ وتدبر وجه ترتب ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ على ما قبلها ووجه ترتب ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ على ما قبلها لأن هذه الفاءات لها شأن أى شأن والذى قلته إنما هو إشارة إلى ضرورة التدبر لأن وجوه الترتيب فيها لها غور أبعد فترتيب وعده رسوله عليه السلام بنصرة دينه على بلوغ القوم غاية الإعراض والعناد يرجع غوره إلى عز الألوهية، التى تملك أن تبشر بالنصر، مع هذا العناد البالغ، وأنه هو سبحانه الذى يفتح هذه الآذان الصم، وهو وحده وليس محمدا هو الذى يهدى هؤلاء المصرين على العمى، ثم كيف يترتب الأمر بالاستمساك بالذى يوحى إليك بعد الوعيد بأنا منهم منتقمون، وإنا عليهم مقتدرون، كل هذا وراءه آفاق تحتاج إلى مزيد من المراجعة والاستنباط، والهمزة والسين والتاء تفيد التوكيد والمبالغة، والذى أوحى إليه هو القرآن، والعبارة عنه بما فى الآية زيادة حث على الاستمساك لأنه لا شىء أولى بمزيد من الاستمساك من وحى أوحاه الله إليك، لأنه تكليف من الله، وتشريف خصك به، وهو روح من أمره سبحانه، وهذا يتضمن الاستمساك بالبلاغ، وقوله ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ حث آخر على الاستمساك لأنه تعليل للأمر به، وهكذا ترى كل كلمة فى الآية حثاً على المعنى الذى هو رأسها وهو فاستمسك وهذه الجملة فيها التأكيد بإن واستعمال حرف الاستعلاء الدال على التمكن من هذا الصراط والصراط المستقيم مجاز عن الدين الحق، الذى لا ترى فيه عوجا واستقامته ظاهرة للعقول ظهور الشىء تراه العيون، ورسول الله ﷺ مستمسك بالذى أوحى إليه وقد قالوا إن الأمر بالشىء الذى يكون المأمور متلبسا به يراد به الاستمرار

كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾ [النساء: ١٣٦] وهو ﷺ مستمر على هذا الاستمساك وثابت عليه والله سبحانه يعلم منه ذلك وإنما أمر به لأن كل أمر موجه إلى رسول الله ﷺ هو أمر لأمته إلا فيما كان خاصا به ﷺ، وتوجه الأمر إلينا عن طريق توجهه إلى رسول الله ﷺ تشريف لنا، وحث لنا على أن ننقاد ونستجيب لأمر ربنا؛ وحسبنا من الفضل والكرامة أن نكون في استجابتنا لأمر ربنا في معية نبينا صلوات الله وسلامه عليه وفي صحبته، ثم إن تعبدنا بقراءة أمر الله لرسوله ﷺ تؤكد في نفوسنا دائمًا الفرق العظيم بين مقام الألوهية التي يُرَدُّ إليها الأمر والنهي. ومقام النبوة التي تتلقى الأمر والنهي. كما نتلقاه نحن فهو عليه السلام وإن كان خير خلق الله فهو من خلق الله يتلقى ما نتلقاه من أمر ربنا ونهيه، ولذلك لم تجد واحدا من عامة المسلمين ومن ضعفتهم يختلط عنده أمر النبوة بالألوهية، ولم يقل واحد من المسلمين كما قال أهل الكتاب من قبلنا: قالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله وقال كل مسلم محمد عبد الله ورسوله، وهذا وجه ووجه آخر، وهو أن موقع آية ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ بعد آية ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ وآية ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يعنى معنى جليلا جداً، بالنسبة لنا وهو أن نستمسك بالذى أوحاه الله إلينا ومنه أن نبلغ عن رسول الله ﷺ حتى نكون من الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله، وأن لا يداخلنا فى ذلك فتور ولا يأس وإن كانت الآذان من حولنا صما، والقلوب من حولنا عميا، وأن نكون قائمين على أمر ربنا لا يضرنا من خالفنا والداعى الذى يدعو بما أوحى الله به لا يجوز أن يفتر ولا أن يتخاذل ولا أن يفرط فى هذا الشرف العظيم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] هذا ما أفهمه من قوله ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ من حيث إن الأمر موجه إلينا أما قوله سبحانه ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ورسول الله يعلم ذلك،

وعلمه بذلك فوق علم كل المؤمنين فإنى أفهم منها اللفت إلى ضرورة مراجعتنا لأنفسنا، وتحرير فهمنا لما ندعوا إليه ومراجعة طرائقنا، وأساليبنا فيما ندعو إليه حتى لا نزيغ ولا ننحرف قيد أنملة وهكذا حين ندعوا إلى ما نؤمن به من مناهج ومذاهب لابد من المراجعة ولابد من إعادة التمحيص. والتأكد من الصواب، ولا يجوز أن نشك فى أن الدعوة إلى الصواب والصدق فى كل باب من أبواب العلم هى دعوة إلى الله، والدعوة إلى ما تصلح به دنيا الناس هى دعوة إلى الله وحيث ما يكون الصدق، والصواب، والسداد فثم وجه الله، كنت فى الفقه أو فى السياسة أو فى النحو أو فى علوم الصنائع أو فيما شئت المهم أنه تصلح به حياة الجماعة التى أنت منها، هذا والله أعلم.

أمر ﷺ بأن يستمسك بالذى أوحى إليه وهو فى أشد المواقف حرجًا والآذان من حوله صم، والعيون من حوله عمى. ولنا فيه أسوة حسنة، وهو قدوتنا ﷺ، وموقفه هذا يقول لنا يجب أن يظل صوت الحق في هذه الأمة قائمًا مهما كثر ضجيج الباطل، ومهما اشتد قمع الظلمة ومهما اشتد الانحراف، ومهما اشتد الاضطهاد حتى لو وجدتم الكذبة الفجرة يوالون أحفاد صهيون ويقمعون أهل القبلة تقول لنا هذه الآية قوموا لله دائمًا وكونوا قوامين بالقسط شهداء لله، هذا والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾.

هذه الآية من تمام آية ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِى إِلَيْكَ﴾ وقوله ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ معطوف على قوله ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وداخل فى حيزه من حيث هو حث على شدة الاستمساك بالذى أوحى إليك وتعدد العلل التى تحث على الاستمساك لأن المقام مقام فيه محبطات ومؤيسات لأن الآذان صم، والقلوب عمى. والآية تمضى فى عكس ما تؤدى إليه هذه المحبطات،

وتطالب المسلم بأن يكون في مواجهتها أكثر استمساكا، وأكثر يقظة، وأكثر إصرارا، وأن زيادة تمسك أهل الحق تكون معادلة لزيادة عناد أهل الباطل. ولهذا جاءت الهمزة والسين والتاء وجاءت الإشارة إلى الصراط المستقيم، وهذه إشارة أخرى وهى أن هذا الدين ذكر لك ولقومك؛ والضمير فى قوله ﴿إِنَّهُ﴾ عائد إلى الذى أوحى إليك الذى هو القرآن والجملة مؤكدة بإن، واللام الداخلة على الخبر، وأداء المعنى من غير توكيد كأن يقال هو ذكر لك ولقومك شيء وأداؤه بالتوكيد شيء آخر، وخبر الله لا يحتاج إلى توكيد، وإنما يجيء التوكيد فى مثل هذا الخبر ليلفتنا إليه، وأن ذكرنا وشرفنا حين يكون أصله وحيا أوحاه رب العالمين فليس لنا سبيل إلا أن نستمسك به وأن نشد عليه، لأنه ذكر لا ينازعه ذكر وشرف لا ينازعه شرف وليس وراءه شيء أنفس منه، وقد فسر أكثر المفسرين الذكر بالشرف لأن الذكر لازم للشرف أو مسبب عن الشرف فمن شرف في الناس سار فى الناس ذكره، فهو من المجاز المرسل. وبعضهم فسر الذكر بالتذكر والموعظة وأن القرآن ذكر يذكرنا بربنا وبأمره ونهيه وطاعته ونهج طريقه المستقيم، وهذا التفسير للذكر يقتضي أن يكون قومه المذكورون فى الآية هم أمته، ومن آمن به، لأن القرآن ذكر لكل من آمن، وعلى الوجه الأول يكون المراد بقومه عليه السلام قريشا، أو العرب كل العرب، وهو الأقرب لما جاء في سورة الأنبياء ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠] والأقرب لمثل قوله سبحانه ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كما جاء في رأس السورة وهذه الآية التى جاءت فى رأس السورة توطئ لموقع هذه الآية هنا كما أن هذه الآية هنا تضيف معنى لما جاء فى رأس السورة وأن من بين ما يجب أن نتعقله هناك هو أنه هذا القرآن العربى ذكرنا وشرفنا، ثم إن كونه ذكرا لرسول الله ﷺ لا غموض فيه لأنه أنزل عليه وهو مصدق لما بين يديه، ومهيمن عليه، وكل كتاب أنزله الله على نبى من أنبيائه هو ذكر له، أما ذكرنا

وشرفنا نحن العرب فقد قال العلماء إن نزوله باللسان العربى المبين يعنى أن كل من دخل فى هذا الدين وقرأ القرآن ونظر فى كلامه ﷺ ذكر العرب الذين هذا لسانهم، وكل من تعلم العربية وقرأ بها القرآن اقترب من العرب بمقدار اقترابه من لغتهم، وكل من أحب هذا القرآن أحب عربيته وكل من أحب العربية أحب العرب، وقد دخل هذا الدين ما دخل عليه الليل فلم تبق أرض إلا ودخلها هذا الدين، ولم تبق أرض إلا نؤدى فيها الله أكبر ونودى فيها بالشهادتين، وكل هذا ذكر ما كان العرب يستطيعونه لولا القرآن، ثم هم لم يبذلوا فيه شيئًا وإنما هو محض فضل من فضل الله لهذه العرب، وكل هذا جانب واحد من الذكر، والجانب الآخر هو رسول الله ﷺ الذى جعل ربنا حبه وحب نبيه صلوات الله وسلامه عليه من تمام الإيمان «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» وكل من أحب الله أحب رسوله، وكل من أحب رسوله أحب العرب الذين هو منهم، صلوات الله وسلامه عليه أو أحب من أحبهم رسوله، وكان رسول الله يحب قومه حتى وهم يواجهونه بسيوفهم ويقتل نفسه غما ألا يكونوا مؤمنين، ثم إن حب المسلمين جميعا للعرب واقع نعيشه. وشىء ثالث هو أن الله سبحانه جعل من تمام دينه ومن أركانه الحج إلى بيته الحرام الذى هو فى أرض العرب، ومن اعتمر جاء إلى أرض العرب، وكأن الله سبحانه لما أمر أبونا إبراهيم أن يؤذن فى الناس بالحج فيأتوه رجالا وعلى كل ضامر، وأودع فى أفئدتهم هوى يهوى بهم إلينا وإلى أرضنا التى بوركت بهذا البيت كل ذلك من الذكر، وكل ذلك من الشرف الذى غفلنا عنه، حتى إننا صرنا نستقبل هذه الأفئدة التى تهوى إلينا بعزيمة التربح والسمسرة وطلب ما فى أيديهم، وإخراج ما فى جيوبهم، وهذا عكس الذكر الذى هو الشرف لأنه من محض الخساسة. قلت إن كل نبى أنزل الله عليه كتابا فيه ذكره، وذكر قومه، الذى أنزل كتابه بلغتهم فالأنبياء جميعا وأقوامهم مثلهم كمثلنا فى

ذلك؛ والفرق هو أن رسالته عليه السلام للناس كـافة، وهذا فرق كبير، ثم إن رسالته عليـه السلام رسالة خاتمة وهذا فرق أكبـر لأنها لن تنسخ برسالة تأتى بعدها، وإنما نسخت هى النبوات قـبلها ومعناه أنه ذكر لك فى الأرض كلها، والأزمنة كلها، وذكر لقومك فى الأرض كلها، والأزمنة كلها، وذكر لك ولقومك ما بقيت الأرض وبقى الزمان ومـا بعد الأرض وما بعد الزمان لأن القـرآن كـلام الله وكلام الـله جل وتعـالى وتقدس عـن الفناء وياليت قومى يـعلمون وعليك أن تراجع هذا الفـضل وهذا المن وأن تراجع واجب شكره.

ثم إن آية الأنبـياء ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبـياء: ١٠] توحى بزيادة معنى فى مـعنى الذكر وهو الذكر الـذى فى الكتاب ولو نظرنا إليه من هذه الجهة سنجد ذكـرا عظيما لرسول الله ﷺ من مثل خطاب الله له صلوات الله وسلامـه عليه، كما فى هذه الآيات وغـيرها مما فيه ضـمير خطابه عليـه السلام ولا أظن أن ذكرا وشـرفا يعادل خطاب الـله لواحد من خلقه، ثم إن الله سبحانه أخبره وأخبـرنا أنه سبحانه يصلى عليه، وملائكته يصلون عليه، وأمر كل من آمن أن يصلى عليه، وأن يسلم تسليما، وعليك أن تراجع قدر هذا الشـرف والذكر، ثم إن الله سبحـانه جعل طاعة مـحمد طاعة لله، ومـعصية مـحمد معـصية لله، وعليك أيضًـا أن تراجع قدر هذا الشرف وهذا الذكر، ثم إن الله أمر العالمين أن يستجيبوا له، وأن ينقادوا له، وأن يطيعوه، ولم يأمر العالمين كل العالمين بطاعة نبى من أنبيائه إلا هو عليه السلام، ثم إنه جعله خاتم النبيين ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وهذا شرف لم يـشرف به أحد قبله صلوات الله وسلامه عليه، وأعود إلى ما أريد بيانه وهو الذكر الذى له عليه السلام ولنا فى القرآن يعنى فى الذى بين الدفـتين وقد ذكرت من ذكره

عليه السلام ما ذكرت وهو كثير جـدا أما ذكر قومه فى القرآن فلم أجد ذكرا أفضل من الذكر الذى ذكر به المهاجرون والأنصار وعليك أن تقرأ ذكرهم فى موطن واحـد ولتكن سورة الحشـر يقول سـبحانه فى المهـاجرين ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشـر: ٨] هل تجد أحب إلى الله وأقـرب إليه من الذين أخـرجـوا من ديارهم وأموالهـم يبتـغون فـضله سبحانه ورضوانه؟ وهل تجد أقرب إلى الله وأحب إليه من قوم ينصرون الله ورسوله؟ وهل تجد أحب إليه وأقرب إليـه من الصادقين؟ كل كلمة فى هذه الآية شـرف لا يعلوه شرف وذكـر لا يقاربه ذكـر وكذلك اقـرأ ما قـاله فى الأنصار ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشـر: ٩] وراجع فـقط ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وضع هذه القيـمة بإزاء كل قيم الشرف التى تعرفها.

وهكذا هل يمكن أن توسع معنى ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ وتدخل فيه ذكره عليه السلام وقومه فـى الكتاب العزيز؟ ظاهر أن اللفظ يحتمل وبقى أن أسأل لماذا أوثرت كلمة الذكر فى سورتى الزخـرف والأنبياء للعبارة عن معنى الشرف والفـضل والمن؟ والوجه والله أعلم هو أن كلمـة الذكر تعنى كل هذا وأكثر منه وقد سبقت آية الزخرف بكلمة الذكر مرادا بها القرآن فى قوله تعالى ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ فهؤلاء يعشون عن الذكر الذى هو ذكر لهم وهـذا إفراط فى الغبـاء، وهذا التناسب بين الذكر بمعـنى القرآن والذكر بمعنى الشـرف قائم أيضًا فى سورة الأنبـياء فقد جـاء فى رأس السورة ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢]

وهذا ليس بعيدًا عن آية ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ وقد جاءت آية ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] بعد هذه الآية بسبع آيات ولو دققت فستجد أن من يعش يعنى ينظر نظر الأعمى أو المتعامى هو هو الذى يسمع إلى الذكر وهو يلعب لأن الذى يلعب لا ينظر إلا نظر الأعمى أو المتعامى. وأيضًا الذين يسمعون الذكر وهو يلعبون فى رأس الأنبياء ليس بعيدا عن المسرفين فى رأس الزخرف ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ هذا والله أعلم.

قلت إن قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ معطوف على ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وداخل فى حيزه، وقوله سبحانه ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ معطوف على ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ وداخل فى الحيز الذى دخل فيه يعنى أن جملة ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ داخلة هى وما قبلها فى حيز الحث على ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ لأن الأمة مأمورة بهذا الأمر من وراء أمر الله لنبيه به على حد ما بينا وتعميم الخطاب والانتقال فيه من خطابه ﷺ فى قوله ﴿فَاسْتَمْسِكْ﴾ وفى قوله ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ﴾ ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ إلى جماعة المخاطبين فى قوله ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ يؤكد معنى أن أمره عليه السلام أمر لأمته، من ورائه. هذا فضلا عن ما فى هذا الانتقال من تلوين الخطاب والانتقال من طريق إلى طريق لتطرية الكلام ودفع السآمة التى قد تكون بالاستمرار على طريق واحد وهذا بالقطع ليس هو المقصود بهذه الانتقالات لأن الانتقالات اقتضتها مقامات تناوب المعانى وتواترها على الوجه الذى ترتبت عليه. وكانت التطرية من آثارها وليس من مقاصدها، وهذا فرق جيد فى اعتبار الأحوال اللفظية وإدخالها فى بلاغة الكلام ولا بأس بهذا ما دام الكلام لم يقصد إليها، وإنما مضى على مقتضيات المعانى، وكانت الأحوال اللفظية من نتائجها، وعن المعانى تحدث وبها تكون وأى شىء سوف يسألون عنه؟ ومن الذين سوف يسألون؟ قالوا هذا

خطاب موجه إلى من عارضوا وعاندوا وأنه كلام وارد على سبيل التهديد والوعيد، وقالوا الذين سوف يسألون هم من آمن ومن كفر وسؤال من آمن سؤال تكريم، وسؤال من كفر سؤال توبيخ، وسؤال من كفر لا يعنينى لأنه أظهرته آيات كثيرة، ولأنه ليس داخلا فى شرف ذكر القرآن لأن شرف ذكر القرآن لمن آمن، وإنما الذى يعنينى هو بيان الذى يسأل عنه قومه الذين دخلوا فى الدين وجعل الله كتابه العزيز ذكرا لهم، عن أى شىء يُسأل هؤلاء؟ ولابد أن يكون السؤال هنا موصولا بهذه المكانة التى بوأهم الله فيها لما أنزل الكتاب بلغتهم وبعث نبيه منهم وليس سؤالا عن الفرائض والأعمال التى يسأل عنها كل من دخل فى دين الله وكأن للعرب أسئلة عامة يكونون فيها مع الأمة كلها، ثم يوضع لهم سؤال يشبه سؤال التميز ويكون موجها لهم خاصة؟ وقد أشار الزمخشرى إلى هذا السؤال الخاص بالعرب فى تفسيره لكلمة ﴿تُسْأَلُونَ﴾ بقوله «تسألون عنه يوم القيامة وعن قيامكم بحقه وعن تعظيمكم له وشكركم على أن رزقتموه وخصصتم به من بين العالمين» انتهى كلام الزمخشرى، وأول كلامه عام للعرب، وغير العرب، فالكل مسئول عن قيامه بحق القرآن وعن تعظيمه له، وقوله «وشكركم عن أن رزقتموه وخصصتم به من بين العالمين» هو السؤال الخاص للعرب يعنى سؤال الأمة التى ميزها ربنا وفضلها على العالمين وآثرها باختيار خاتم النبيين منها، وكلمة خاتم النبيين كلمة ألفناها حتى فقدت جلال معناها وقد قصد إليها أعداء رسول الله لما ابتدعوا مذاهب جديدة فيها أنبياء جدد جاؤوا بعد محمد ﷺ، وتبنى ذلك اليهود وصنعوا فرقة البهائية. وقد فرضت نفسها بضغوط اليهود وغير اليهود على الواقع المصرى منتهزة ضعف النظام

والذى قاله الزمخشرى وسعه الإمام البقاعى وأشار بكلمة واحدة إلى جوهر هذا السؤال وذلك بقوله: ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ «أى تصيرون فى سائر أنواع العلم محط رحال السائلين، دينا، ودنيا، بحيث يسألكم جميع أهل الأرض. من أهل الكتاب ومن غيرهم عما يهمهم من أمر دينهم، ودنياهم لما يعتقدون من أنه لا يوازيكم أحد فى العلم»، السائل فى تفسير الزمشخرى هو

الله والمسؤول عنه هو أداء حق الله وشكره على اختصاصهم بهذه النعمة والذى ذهب إليه البقاعى هو أن السائل هم الناس والمسؤول عنه أحكام الله ودين الله لأن أصحاب اللسان أعلم به والآية تحتمل كل ما قيل فيها، وكل ما قيل قليل من معناها لأن هذا المعنى تكرر فى الكتاب ولأن الحق سبحانه حين يخبر قومه عليه السلام بأن كتابه ذكر لهم وأنهم سيسألون عن هذا الذكر لا يكون هذا معنى محدودا فى الذى قاله المفسرون وإنما ينظر فيه أولا إلى أن هذا القرآن هو الدين وهو النبوة وأن ذكر العرب فيه يعنى ذكرنا فى هذا الدين وفى هذه النبوة وأن هذا يوجب علينا تبعات سنسأل عنها وأهمها أمران: الأمر الأول هو أن يكون منا أعلم الناس بحلاله وحرامه وأعلم الناس بأصول عقائده وفروعها وأعلم الناس بأسرار اللسان الذى نزل به وأن تكون بلادنا محط رحال طلاب هذه العلوم من أرجاء الأرض وأقطارها ولابد لنا من الاستضاءه بتاريخ القوم الذين نزل فيهم القرآن وسمعوا هذه الآيات وأنه ذكر لهم وماذا صنعوا للمجازاة على هذه النعم التى لا يكافئها جزاء مهما جل، وأوله أنهم كانوا يؤخذ عنهم علوم الدين كلها من فقه وتفسير وحديث ولغة إلى آخره وأنه لم ينازعهم أحد فى هذا وأقل ما يكون منا فى هذا الشأن أن تكون كل أقطار العرب عامرة بالشيوخ والعلماء المنقطعين لهذه العلوم يدققونها ويجددونها بوعى وليس بتهويش وقد ظل هذا قائمًا فينا إلى زمن قريب تراه فى الأزهر وفى الزيتونة ومجالس الحرمين والمعاهد العلمية المنتشرة فى بلادنا والآن كل هذا يقلص أو قل يدمر والذى تراه عينى فى مصر والأزهر ومساجدها كل هذا ذهب منه أهله واستولى عليه من اختارهم عسكر السلطان من العجزة والجهلة والمنقادين والموالين وسُيِّس كل شىء حتى المحاريب وأسوأ منه يحدث فى غير مصر.

الأمر الثانى الدفاع عن الإسلام فى جانبين: الجانب الأول مواجهة هجمة التشويه والتغيير والتبديل فى أصول الشريعة وفروعها تحت زعم القراءات المعاصرة

للكتاب والسنة والتى صار ينسبناها مارقون جاهلون منا نيابة عن اليهود ويزعمون فى كل قطر أن الفقهاء لم يفهموا الكتاب والسنة وأنهم أسسوا الفقه على فهم قاصر أو مغلوط وأن الفقه اجتهاد بشرى من حق الجيل أن يراجعه ولا حرج عليه فى أن يرفض منه ما يرفض إلى آخر هذا الذى شاع حتى تناقلته النساء والصبيان وتحدث به خدم المواخير والله غالب على أمره. الأصل أن يصد العرب هذه الهجمة وألا تكوّن فى أرضهم فضلا عن أن تكون منهم، الأمر الثانى هو الدفاع بالقوة المادية عن أرض الإسلام يعنى أن يكون العرب حماة لديارهم وقادرين على حماية ديار الآخرين من المسلمين الذين يقع عليهم ضيم وهذا يتطلب ما يتطلب وشكر هذه الخصوصية التى أشار إليها الزمخشرى تجعل المسلم قادرا على تحمل مشقات البحث والدرس والدخول القوى المستقل والمتميز فى هذه الميادين حتى تتأسس بذلك القوة الحامية للأرض والدين والعرض. وخلاف هذا من الخذلان وقد ظل الحال على هذا النهج وكانت الخلافة الإسلامية تحمى كل أرض المسلمين وكانت الدولة الإسلامية هى أقوى دولة على هذه الأرض إلى أن جاء زمن الاستعمار ثم كان ما كان، وأقطع بأن قوله سبحانه ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ شامل لكل هذا ولأكثر من هذا ولا تستكثر ما أقول لأن النعمة التى فى قوله سبحانه ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ فوق كل هذا، والله أعلم.

وهذه الجملة الجليلة التى تلقى على قومه ﷺ تبعات ومسؤوليات يسألون عنها فى نصرة هذا الدين تخنم معنى متسعا فى السورة ليبدأ بعدها معنى جديد، وتراها فاصلة تختم قوله ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ التى هى متفرعة من قوله سبحانه قبلها ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ والتى هى أيضًا متفرعة من قوله سبحانه ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ والتى هى من تمام ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ وهكذا إذا نظرت فى الكلام من أوله رأيت ثانيه يخرج من أوله، ويمتد بعضه من بعض، وإذا نظرت إلى آخره وجدت بعضه يرجع إلى بعض وهذا عجيب.

وقوله جل شأنه ﴿ واسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾.

هذه الآية من الآيات التى تأتى فى مفاصل المعانى فى السور ولها نظائر كثيرة ترى المعنى فيها ينتقل انتقالا متسعا ظاهرا كما انتقل هنا من ﴿ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ الذى هو من تمام ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ إلى سؤال الرسل وإن كان هنا رباط لفظى ليس عليه المعول ومع ذلك يجب أن يلاحظ وأريد العلاقة التى بين كلمة ﴿ تُسْأَلُونَ ﴾ وكلمة ﴿ وَاسْأَلْ ﴾ ومجيئها بعدها من غير فاصل وما يترتب على ذلك من الانتقال من أحوال الآخرة والسؤال فى يوم الجزاء إلى الحياة الدنيا والتكليف بهذا السؤال ولاحظ الأحداث التى وراء الأفعال وكيف تمتد بنا كلمة سوف إلى يوم التلاق، ثم ترجع بنا كلمة واسأل إلى ما نحن فيه، وكيف يتطوح الفكر بالوعى والتدبر فى هذه المسافات الزمنية الممتدة وهذا الأمر الذى بنيت عليه الآية المراد به تأكيد حقيقة المعنى المسؤول عنه وهو إنكار أن نكون قد جعلنا آلهة تعبد من دون الله، ووجه التوكيد هو أنك لن تجد أحدا ممن تسألهم يقول لك ما يخالف هذا الأصل. وهذا هو فضل هذا الأسلوب على مثل قولنا لم نجعل آلهة من دون الله تعبد، وهذا طريق مسلوك فى بيان العربية ومهيع من مهايعها كما فى قول الشاعر:

سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم   فليس سواء عالم وجهول

وكما تقول سل عن أيامنا الصالحات، وفى هذا مع تأكيد المعنى إدلال ويقين وقطع بأنك لن تجد من يقول لك غير الذى أردناه. قالوا ووقوع السؤال على من أرسلنا من قبلك من المحال إذا كان الكلام على حقيقته فلابد من الصرف إلى المجاز ويكون السؤال نظرا فى أديانهم وحسبه ما جاء فى القرآن الذى جاء مصدقا لما بين يديه ومهيمنا عليه أو يكون السؤال موجها إلى علماء هذه

الديانات، ومن بقى عليها فى أصلها الذى نزل من السماء، ولم يلحق دينه ولا معرفته تحريف أو تبديل؛ وقالوا إن الله سبحانه أحيا له الأنبياء ليلة الإسراء فأمهم عليه السلام فى بيت المقدس وأنه عليه السلام لم يسأل لأنه كان أوثق يقينا من أن يسأل وقال بعض علمائنا أنه على سبيل التمثيل والأولى أن يكون على سبيل الكناية لأنه ليس مؤسسا على التشبيه وإنما هو مؤسس على علاقة اللزوم لأن المراد بهذا السؤال لازمه العرفى وهو الجواب الذى لن يكون إلا بما أراده المتكلم كما مضى فى مثل قول الشاعر «سلى إن جهلت الناس» لازمه وهو أنها لن تجد إلا الجواب الذى أراده الشاعر بقوله «سلى» ومن التى فى قوله سبحانه ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ الداخلة على الظرف تفيد الاستقصاء أى اسأل كل من كانوا قبلك من رسلنا ولا تترك منهم واحدا وكلهم سيقولون ما جعل الله من دونه آلهة تعبد والاستفهام فى قوله جل شأنه ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ استفهام إنكارى تكذيبى أى لم نجعل والجملة بدل من الجملة التى قبلها لأن قوله ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ هو سؤال من قبله من الرسل والإنكار موجه إلى كلمة ﴿جَعَلْنَا﴾ والمراد نفى أن نكون شرعنا عبادتها فالجعل جعل تشريع كما نقول جعل الله الصلاة خمس مرات وجعل الحج مرة واحدة وليس المراد الخلق لأن الآلهة المعبودة من دون الله هى من خلقه سبحانه والمراد نفى جعل الآلهة وعبادتها يعنى نفى القيد ﴿يُعْبَدُونَ﴾ والمقيد ﴿آلِهَةً﴾ وليس المراد نفى القيد فقط لأن نفى القيد وحده يفيد أن الله جعل آلهة لم تعبد وهذا باطل، وهذا إبطال لزعمهم أن الآلهة التى يعبدونها تقربهم إلى الله زلفى أو أنها لهم شفعاء عند الله لأنه لا يقرب إلى الله إلا ما شرعه ولا يشفع عنده إلا ما شرعه، وهو سبحانه لم يجعل آلهة تعبد من دونه فليس منها ما يقرب منه ولا ما يشفع، وهذه عقائد متغلغلة فى نفوسهم ووجدوا عليها آباءهم فكان من المفيد تكرار وتأكيد نفيها، هكذا قال علماؤنا والذى أراه أظهر وأوضح مع ما قالوه هو أن هذه الآية رجوع إلى قولهم ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ وتكرار وتأكيد إبطال

قولهم هذا وذكر كلمة الرحمن هنا يستدعى الأقرب والأشبه بها فى سياقها ويعود إليه وقد مضى ذكرها فى سياق ضلالاتهم وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا. . . وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم. . . لجعلنا لمن يكفر بالرحمن. . . ومن يعش عن ذكر الرحمن. . . وهكذا ترى هذه الصفة الجليلة مقترنة فى السورة بأشنع ضلالاتهم لبيان مزيد الغلو والإفراط فى ضلالهم وأنهم كفروا بالرحمن الذى يبيتون ويصبحون يتقلبون فى نعمائه وليس أخس ولا أشنع من كُفر من بات المرء فى نعمائه يتقلب وأقرب هذه الآيات إلى قوله سبحانه ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ هو قولهم ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ وهذا يعنى أن الآية التي معنا تجاوزت ما قبلها إلى هذا الجذر الأصلى من جذور السورة وهو تعداد وإبطال كفرياتهم وأجد شيئًا آخر بين الآيتين لم أستطع السكوت عنه وهو أن قولهم ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ كما مضى بيانه صحيح فى ظاهره بمعنى أن الله لو شاء ألا يعبدوها ما عبدوها ولو شاء لهداكم أجمعين ولكن الذين عبدوها لم يعبدوها إنفاذا لهذه المشيئة لأن هذه المشيئة لا يعلمها إلا هو وإنما هم وغيرهم مطالبون بإنفاذ ما جعله الله لهم ونصبه لهم من أمره ونهيه، ولذلك جاءت هنا كلمة جعلنا بمعنى شرعنا، لأن العمل الذى ينفذه المخلوق امتثالا لما شرعه الخالق سبحانه هو العمل الذى ينجى صاحبه وليس العمل الموافق لمشيئة الله لأن كل ما يقع فى الكون موافق لمشيئة الله فالقاتل قتل وقتله موافق لمشيئة الله. ولو شاء الله ما قتل وشارب الخمر شربها وشربه موافق لمشيئة الله. ولو شاء الله ما شربها والاحتجاج بالمشيئة كذب وبهتان لأنهم لم يفعلوا ولم يتركوا بناء على المشيئة لأنه لا طاقة لهم بمعرفتها، وإنما يجب أن يفعلوا وأن يتركوا بناء على شرعه وأمره ونهيه، هذا ما لحظته فى ذكر كلمة ﴿جَعَلْنَا﴾ وأنها رد على ﴿شَاءَ الرَّحْمَنُ﴾ وفرق بين شاء وجعل. الذى جعله بمعنى شرعه هو مناط التكليف والذى شاءه هو أمره الذى لا يعلمه إلا هو، ولا صلة له بالتكليف ولذلك قال سبحانه فى تعقيبه على قولهم ﴿لَوْ شَاءَ

الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ والخرص التخمين والكذب لأنه لا علم لهم بمشيئته ولم يفعلوا انقيادا لهذه المشيئة، هذا والله أعلم. وكلمة ﴿جَعَلْنَا﴾ هنا مع إفادة هذا المعنى الذى استخلصناه ونرجو أن نكون أصبنا تفيد معنى آخر غامضا وبعيدا ولكنه قائم وهو عودتها إلى ما كان منهم مقدمة لعبادة الملائكة الذين تبرؤوا من المؤاخذة على عبادتهم لها بقولهم ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ﴾ وهو أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ولم يشهدوا خلقهم ووجه الصلة بين الآيتين أنهم لما جعلوا الملائكة إناثا كان منهم ذلك تهيئة لعبادتها فكأنهم جعلوا آلهة تعبد من دونه والآية التى معنا تنفى ذلك.

ورجوع هذه الآية إلى آية ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ يغرى بالقول بأن آية ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ﴾ مهدت لوقوع هذه الآية فى موقعها وجعلتها متمكنة فيه غير قلقة ولا نابية وأنك لو تابعت امتداد المعنى من ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ إلى قوله ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ لوجدت كلاما بعضه من بعض إلى هذا المفصل الذى رجع إلى آية ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ﴾ ووقع منها موقعا وإن كان بعيدا إلا أنه لم يكن له أن يتقدم قيد أنملة أو يتأخر قيد أنملة ولو بدأت أبين هذا لطال وفى طى ما قلناه ما يدل عليه، هذا شىء وشىء آخر وهو أن هذه الآية لو رجعت بها إلى ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ لرأيتها ممسكة بها، ولو رجعت بها إلى قول إبراهيم عليه السلام ﴿إِنَّنِى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِى﴾ لرأيتها ممسكة بها وكذلك لو رجعت بها إلى قوله سبحانه ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾ وهكذا ضعها بإزاء كل ما مضى وراجع تجد أنها إما أن تؤيد ما مضى مثل «فاستمسك» «وأننى براء» أو تنقضه مثل ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾.

وهذا شىء وشىء آخر وهو أنها تمد يدها ورأسها معا إلى قوله تعالى فى رأس السورة ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى الأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ

يستهزئون﴾ وتجد قربا في المعنى والمبنى أما المبنى فهو من الزائدة الداخلة هناك على قوله ﴿من نَّبيٍّ﴾ وأنها أخت من الزائدة الداخلة على الظرف في الآية التي معنا ﴿من قَبْلك﴾ ثم تكرار كلمة أرسلنا في الآيتين ﴿كَمْ أرْسَلْنَا﴾ ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ وأما المعنى فإن استهزاء هؤلاء الأقوام برسلهم إنما كان لتشبثهم بما وجدوا عليه آباءهم وإنما كان لأنهم ألفوا عبادة غير الله، وجعلوا من دون الرحمن آلهة يعبدون وكأنها كما كانت ردا مباشرا على من قالوا ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ فهي أيضًا رد على من استهزؤوا برسل الله في الأمم السالفة وهكذا ترى علاقات مكونات السورة بعضها ببعض وأنهم قالوا في قصيدة الشعر يقول البيت وأخاه ولك أن تقول في السورة أرى الجملة وأختها والآية وأختها، والله أعلم.

قلت إن الإنكار ليس إنكار عبادة الآلهة لأن إنكار عبادة الآلهة فيه تسليم بوجود الآلهة وإنما الإنكار إنكار للجعل وما تعلق به وبقي أن أنبه إلى هذا الالتفات الدقيق الرائع الواقع موقعه وهو وضع الرحمن موضع ضمير المتكلم الذي هو ضمير العظمة والأصل أجعلنا من دوننا وهذه اللفتة فيها مع التنبيه إلى أهمية موقعها وضرورة المراجعة فيه وتأكيد معنى المراجعة المفهوم من وضع الاستفهام الإنكاري موضع حرف الإنكار أقول فيه مع هذه الإشارة إلى أن الموصوف بالرحمن هو الجدير بأن يعبد وأن هذه الصفة العظيمة التي أجريتموها في مواضع الضلال لما قلتم ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ وجعلتم الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا وعشوتم عن ذكر الرحمن هي الجديرة والمؤهلة للعبادة وبذلك صار هذا الالتفات تقوية لمعنى الاستفهام الإنكاري الذي بنيت الآية عليه وإشارة خفية جدا لسر جريان كلمة الرحمن فيما جرت به وأن إشارة الآية إلى أنه لا يجوز أن يعبد شيء من دونه لأن فيها معنى أحقيته للعبادة وهذا إبعاد لهذا الاسم العظيم عن مواقع الضلالات التي

أوقعتموه فيها لشدة منافاته لسياقها، ومن المفيد أن أؤكد بيان شيء في هذه الآية وهو أن السؤال الذى أُمر عليه السلام أن يسأله للرسل من قبله وهو نفى أن يكون الله سبحانه جعل من دونه آلهة تعبد معلوم جوابه علم ضرورة عند كل من يؤمن بالله ورسله فليس هناك مؤمن بالله ورسله يتوهم أن الله جعل من دونه آلهة تعبد، وأن مجيء هذا السؤال بهذه الصورة التى يؤمر فيها عليه السلام بسؤال الرسل من قبله له دلالة وهى التشهير بكل من عبدوا آلهة دون الله مع كل الأنبياء وأنهم خالفوا ما هو معلوم من الأديان كلها بالضرورة وما هو معلوم من العقول كلها بالضرورة وناهيك عن من يخالف هذين. هذا والله أعلم.

ثم إن هذه الآية عنوان لما سيأتى بعدها من قصة موسى عليه السلام مع فرعون واقرأ الربط الواضح بين ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ وبين ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ لا ترى مناسبة فحسب وإنما ترى تولد كلام من كلام وكأنه سبحانه لما أمره أن يسأل أحضر له موسى كليم الله والذى واجه الضلال من جهتين من جهة فرعون وملئه ومن جهة بنى إسرائيل الذين آذوا موسى ﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾.

قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾.

هذا جزء من قصة فرعون مع موسى عليه السلام، ولهذا الجزء من القصة فى هذه السورة موقع متمكن جداً، وقد قلت بأن مجيء هذه القصة بعد ﴿ واسْأَلْ

مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ كأنها مثال لهذه الآية الواقعة فى المفصل لأن موسى جاء يدعو إلى عبادة الرحمن وينقض عبادة غيره، وهذا عام فى كل الأنبياء ثم تزيد هذه القصة اتصالاً بما قبلها من جهة أن فرعون كان يدعو إلى عبادته ويقول ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. يعنى أنه جعل نفسه إلها من دون الرحمن وهذا شيء. ثم إن هذه الآية آخذة بناصية السورة أخذًا بيِّنًا ومثال واضح لهذه الناصية وأنا أعنى قوله تعالى ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۞ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ولم يستهزئ قوم بنبى كما استهزأ فرعون اللعين بالكليم صلوات الله وسلامه عليه، وضع كلمة ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ بإزاء كلمة ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ التى فى رأس السورة، فإذا تركت رأس السورة وراجعت صورها ومعانيها وجدت هذا الجزء من قصة موسى عليه السلام جزءًا منتخبًا ومنتقى ليتلاءم مع مكونات السورة وأنا كلف جداً ببحث العلاقات بين الأجزاء المكونة للسورة كما كنت كلفًا بالبحث عن العلاقات بين الأجزاء المكونة للقصيدة لأن هذا من صلب الدرس البلاغى، بل هو جوهر المطابقة لمقتضى الحال، وجوهر بيان قولهم لكل كلمة مع صاحبتها مقام، فضلاً عن الأصل الذى هو لكل مقام مقال، وهذه كلمات ألفناها وأفقدها الألفُ جليل معناها، وكنت ولا زلت أجد صعوبة فى كشف الذى أنا كلف به ثم أجد متعة لا تعدلها متعة حين أدرك شيئًا منه أقول ضع موقف فرعون وملئه بإزاء ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ثم ضع ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بإزاء ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۞ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ ثم ضع كلام فرعون الذى نادى به وخطب فى الجماهير التى لا يزال يخطب فيها الدَّجالون بإزاء ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ تجد خطبة فرعون كأنها شرح لكلام كبار قريش وهكذا لو تتبعت الجزئيات لوجدت خيوطًا قوية تشدُّ كل جزئية إلى أخواتها، وكذلك لو تتبعت الكليات

لوجدت حبالاً متينة تشد كل كليَّة إلى مكانها، وهذا نظر وبحث يتجاوز علاقة المعانى بعضها ببعض إلى علاقة المعانى بمواضعها وأماكنها التى غرست فيها وهذا جليل وخفى. وأنا أحاوله مع العجز والضعف رجاء أن يُغرى به من هو أهل له.

قوله جل شأن ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ معطوف على قوله ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ واللام لام التوكيد دخلت على قد وقد صارت كأنها جزء من الفعل فصح دخول اللام عليها، واجتمع التوكيد الذى فى اللام والتحقيق الذى هو معنى قَدْ فدَلَّ ذلك على مزيد عناية بالخبر الذى سيقت القصة له، وموضع هذه الجملة، وذكرها فى سياق قولهم ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ يستخرج من هذه الجملة معنى وهو أن موسى عليه السلام رُبِّىَ فى بيت فرعون ولَبِثَ فيهم من عمره سنينا، وهذه الآية تتكرر كثيرًا فى الكتاب العزيز وكل سياق يستخرج منها ما يتلاءم معه ثم إن موسى عليه السلام من بنى إسرائيل، الذين كانوا طارئين فى مصر، لما أدخلهم يوسف عليه السلام، ثم تعبّدهم فرعون، ولم يكن موسى يملك شيئًا، وكان فرعون يملك مصر والأنهار تجرى من تحته، ثم كان من الأمر ما كان وظهر موسى على فرعون، ونصر الله رسوله، وأغرق فرعون وملأه؛ وهذا تفصيل متسع وشرح ظاهر لقولهم ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ولم يكن رسول الله ﷺ طارئًا على مكة، وإنما كان سيِّدها وابنَ سيدها وكل هذا مما يجب أن يكون حاضرًا فى دراسة هذه المعانى والأحداث، وكل هذا يعطيها لونًا لم يكن لها فى مواقع أخرى، وفى سياق آخر، وكذلك قول موسى لفرعون هنا ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وإن كان صريحًا فى نقض قولهم ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ فهو قريب جداً من قوله سبحانه فى الآية السابقة ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ وزيادة تأكيد لهذا النفى وزيادة تأكيد لنفى ما نفاه من قولهم ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ وهكذا ولو قارنا هذا بالذى جاء فى غافر من قصة موسى عليه

السلام فسنجد رأس الآية في السورتين واحدًا قال سبحانه في غافر ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣، ٢٤] وانتقاء عناصر سورة غافر متلائم مع جذر السورة وهو المجادلة في آيات الله ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤] فاقتضى هذا ذكر السلطان المبين، يعني الحجة البينة الظاهرة، وردُّوا عليها بقولهم ﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ وهذه هي المجادلة في آيات الله ولم يقل موسى في غافر إني رسول رب العالمين وإنما قالها هنا لمناسبة ما قلناه من قوله تعالى ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ ولمناسبة قولهم ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

وجاء في غافر ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ﴾ [غافر: ٢٤] لأنهم هم الذين جادلوا في آيات الله وقالوا ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ [غافر: ٢٥] وجاء هنا بقوله ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ لأن من أهم مقاصد ذكر القصة خطبة فرعون في ملئه، وقوله ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ وقوله ﴿فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ وهذا الخطيب وهذه الجماعة التي تسمع الكذب وتنقاد له ويستخفها بسلطانه وماله من أهم مقاصد السورة كما سنبين إن شاء الله.

قوله سبحانه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ هذه الجملة، بداية طريق قصة موسى عليه السلام في الزخرف التي تختلف عن قصصه عليه السلام في السور الأخرى، وكل شيء في الجملة داخل في قلب المقصود وأوله هذه الفاء التي ترتب هذه الجملة على ما قبلها ترتيبًا بلا مهلة؛ وهذا مهم في بيان المغزى، وكلمة (لما) التي دخلت عليها الفاء هي لما الحينية وفيها معنى الشرط يعني وقت أن جاءهم، والمقصود هو الجواب ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ والأصل في جواب لما أن يكون جملة فعلية كقوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ [يوسف: ٩٦] وقوله جل شأنه ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ

بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: ٧٧] وإذا الفجائية هنا سَدَّت مَسَدَّ الجملة الفعلية والمعنى فلما جاءهم بآياتنا فاجؤوه بالضحك منها. وإذا الفجائية تفيد معنى غير متوقع بالنسبة للمعنى الذى قبلهــا لأن المتوقع الذى يترتب على مجىء الآيات هو إمــا الانقياد والتسليم أو المراجعة والـتدبر من أجل استيعاب الآيات؛ أما المبــادرة بالاستهزاء فهذه هى المفاجأة، ومن أجل إظهار وتأكيد معنى المفاجأة جاء الشرط من الكلام السابق الذى هو أصل القضية وقوله سبحانه ﴿جَاءَهُم بِآيَاتِنَا﴾ الذى هو الشرط هو قوله جــل شأنه ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ فكان تكرار الشــرط من الأهداف حتى يثبت ويتقرر عند السامع لإبراز المفــاجأة وإظهار هذا الاختلال. ومجىء لما الحينية أو التوقيتية هنا له دلالة خفية ورفيعة هى أن زمنا مضى بين إرسال موسى بالآيات ومجيئه إلى فرعــون وملئه لأن الله سبحانه كلف موسى بأن يذهب إلى فــرعون وأرسلــه بالآيات الدالة على أنه رســول رب العالميــن، وأمره أن يقــول لفرعون قــولاً ليّنًا لعله يتذكر أو يخــشى. وأن موسى عليه السلام بعــد موقف التكليف جاء إلى فــرعون بالآيات، ولما الحينيــة هنا دالة على أن زمنا مضى بين تكليف موسى بالبلاغ ومــجيئه إلى فرعــرن وهى تحدثنا عن زمن خطاب موسى لفرعون يــعنى زمن تنفيذ البلاغ. وجــملة الجواب دالة على ذلك وهى ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ وفيها توكــيد إسناد الضحك إليهم لأنه بنى فيــها الفعل على الاسم وتقدم المسند إليــه على الخبر الفــعلى، وكأن إسناد الضــحك إليهم تكرر مرتين الأولى فى إسناد يضحكون إلى المبتدأ ﴿هُم﴾ والثانية فى إسناد الضحك إلى واو الجماعة. وفيها أيضًا صيغة المضارع التى عبر بها عن الماضى لأن الحدث قد وقع وهذا المضارع يســتحضر الصورة وكأنك تراهم وتســمعهم، والمهم الذى وراء ذلك من تأكيــد هذا الموقف العجيب المستــهتر والمســهزئ بالآيات لأن هذا لب المقصود. وهذه الخصــوصيات الخفية فى بناء الجملة تفــتح لنا دائمًا آفاقًا من الفهم يتسع به المعنى وأن تأكيد هذا الموقف المستخف بالآيات يرجع بنا لا محالة إلى رأس السورة فى قوله تعالى ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وكأن

هذه الجملة جاءت مثالاً يوضح المعنى العام فى الآية التى هى رأس السورة، ثم إن هذه الخصوصيات وراءها مزيد من الغضب أظهرته الآية بعدها وكأن هذه الجملة التي هى جواب الشرط تهيئ للذى بعدها وهو قوله جل شأنه ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

الآية فى هذه الجملة غير الآيات التى جاءهم بها موسى عليه السلام وهذا هو الزمن المطوى الذى أردته لأن آيات موسى هى معجزاته الدالة على أنه رسول من رب العالمين، والآية هنا آية عذاب هى الطوفان والجراد والقمّل والضفادع آيات مفصلات، وقد جاءت هذه الآيات مفصلة فى سورة الأعراف، قال سبحانه ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] ثم قال جل شأنه ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢، ١٣٣] ولابد أن يكون قد مضى زمن بعد مجيء موسى لهم بالآيات واستهتارهم بها وبين ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ﴾ يعنى هناك لا محالة فجوة زمانية مليئة بالأحداث بين هذه الآية والآية قبلها، ومع هذا التباعد فى الزمان وقعت هذه الجملة حالاً من الجملة التى قبلها والمعنى ولما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون والحال أننا ما نريهم من آية إلا وهى أكبر من أختها وقد تولدت منها جملة ثانية هى قوله ﴿إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ يعنى وما نريهم من آية إلا والحال أنها أكبر من أختها لأن الاستثناء من عموم الأحوال والواو الرابطة لجملة الحال محذوفة أى إلا وهى أو أن ﴿إِلاَّ﴾ سَدَّتَ مسدَّها وجملة وأخذناهم بالعذاب معطوفة على جملة، ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ﴾ يعنى هى الأخرى حال، والمعنى والحال أننا أخذناهم بالعذاب، والسؤال الآن هو كيف استقام أن تكون هذه الجملة التى اختلفت أزمنة أحداثها وتباعدت عن الجملة الأولى حالا منها والحال معنى مصاحب لما هو حال منه؟ والجواب هو

أن الآيات انتقت واختارت من قصة موسى مع فرعون ما هو أشبه بسياق سورة الزخرف ولم يكن الغرض من ذكر قصة موسى هنا هو تسلسل أحداثها وبيان وقائعها وإنما الغرض هو الاختيار من هذه الأحداث ما يدخل فى الغرض المسوق له الكلام فجاءت صياغة الأحداث على وفق هذا الغرض المسوق له الكلام، وهذا دقيق جداً، والنحو أظهر وأكشف لسر البيان من كل علم آخر، والمقصود أن نفهم أنهم منها يضحكون فى حال أننا نريهم الآيات ونبتليهم بها لعلهم يرجعون ونأخذهم بالعذاب لعلهم يرجعون وهم مع كل هذا مستمرون فى الاستهزاء بالآيات ويتجدد ضحكهم منها ولم يرتدعوا بما نريهم وسيظهر هذا بصورة أكثر وضوحًا، وصيغة المضارع فى قوله سبحانه ﴿نُرِيهِم﴾ وإسناد الفعل إلى ضمير العظمة، يفيد معنى غير رأوا وغير يروا لأن الله سبحانه هو الذى يريهم الآيات يعنى يجلّيها لهم، ويقربها من نفوسهم لأن الآيات التى هى الطوفان والجراد والقمل ليس المقصود جانبها الحسِّى وإنما المقصود دلالتها، من حيث هى آية؛ وأنها عذاب من الله لهم لعنادهم وإصرارهم ورفضهم آيات الله التى جاءهم بها موسى عليه السلام، وكان هذا مظنة أن يدركوا وأن يرتدعوا وأن يعرفوا الحق، وأن ينقادوا له ولكن ذلك لم يكن وستبين الآيات فى هذا الشأن أحوالاً عجيبة.

واعلم أن مجىء هذه الجمل الثلاثة حالاً من آية ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ فيه دلالة على أن هذا الموقف المستهتر والمستخف بالآيات كان موقفًا مستمرًا ولم ينقطع بانتهاء الوقت الذى عرض فيه موسى آياته وقد فسر العلماء قوله تعالى ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ بتفسيرين يحتملهما لفظ الآية قالوا يمكن أن يكون المعنى أن كل آية أكبر من أختها على وجه الحقيقة وأنه لما جاءتهم آية ولم يرجعوا ابتلاهم الله بآية أكبر فلما لم يرجعوا ابتلاهم الله بآية أكبر من الثانية وهكذا يعنى كانت الآيات ترتقى فى الكبَر على وفق ارتقائهم فى العناد والإصرار، وقالوا المعنى كل آية بلغت فى الكبر الغاية فإذا رأيتها قلت هى أكبر وإذا رأيت الثانية قلت هى أكبر وهكذا، ومعنى أنها أكبر يعنى فى الأمر الذى تكون به الآية آية يعنى الأمر الخارق المتلائم مع قوله سبحانه ﴿نُرِيهِم﴾ وذكروا

مثالاً لذلك قول الأنمارية وقد سئلت عن بنيها «أيهم أنجد» فقالت «ثكلتهم إن عرفت أيهم أنجد، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها» ومثله قول الشاعر:

من تلق منهم تَقُلْ لاقيتُ سيدَهم ... مثل النجومِ التى يسرى بها السارى

وهذا كله كلام جيد جداً. وقوله سبحانه ﴿ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ جملة أشد من الجملة التى قبلها لأن الأخذ فيه معنى الشدة والمراد أصبناهم أو عذبناهم وراجع دلالة كلمة الأخذ فى مثل قوله تعالى ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر: ٥] وفى مثل قوله ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥] وأخذناهم بالعذاب كأن العذاب انتزعهم من أماكنهم، والباء الداخلة على العذاب باء الاستعانة وكأن العذاب آلة يستعان بها على أخذهم وقوله جل شأنه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال ابن المنير: إن لعل حيث وردت فى سياق كلام الله تعالى فالمراد صرف الرجاء إلى المخلوقين، أى ليكونوا بحيث يرجى منهم ذلك وهذا كلام جيد.

وراجع الجملة مرة ثانية لترى الغضب والشدة فى أولها ثم ترى الرحمة فى آخرها أى فعلنا بهم ما فعلنا ليرجعوا عن العناد والرفض والتحدى والاستهتار وليدخلوا فى الإيمان ويجيبوا داعي الله ويكونوا ممن دعاهم ربهم إلى دار السلام فأجابوا. ومن أجَلّ المعانى القرآنية أن ترى الرحمة تشرق فى أشد آيات الغضب وكأنها هنا تشير إلى سرٍّ ذكر كلمة الرحمن فى قوله تعالى ﴿ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ لأن الرحمة من أعظم ما يُوصف به المستحق للعبادة، وقد نبهتُ فى مواطن كثيرة إلى أن آيات العذاب التى تصف أشد أحوال العذاب هى من أعظم آيات الرحمة لأن المراد بتصويرها قبل وقوعها هو ردع النفوس عن الباطل حتى لا تسقط فيها.

قوله سبحانه: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ مجيء هذه الآية عقب التى قبلها ﴿ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ تعنى أن

القوم اهتزّ باطلهم وأوشكوا أن يَسْتَشْـرِفُوا نحو أفق جديد، وأن الأخذ بالعذاب أوشك أن يُثْمر، وترى المعـانى الجليلة فى تمنمات أسلوبية خـفية من ذلك أنك ترى ضياء يحاول أن يخرج من تحت الظلمات فى مثل استخدامهم صيغة النداء ﴿يا أَيُّهَا السَّاحِرَ﴾ وقد قالوا إن هذه الصيـغة لايُؤتى بها إلا فى نداء له خطر وله بال، وأن المطلوب الذى يأتى بـعدها عند المنادى أمـر جلل. وذلك لأنهـا مكونة من حرف النداء الذى للبعيد، وموسى بينهم وهو قريب منهم، ومفاطن لما يكون منهم، وخاصـة وهم فى زمن المحنة التى أخذهم الله فيهـا بالعذاب، ولا يؤتى بيا التى للبـعيد فى نداء القريب المفاطن يعنـى المتنبه إلا لأمر، ثم إن هذه الأداة أتبعت بكلمة (أى) وهى كلمـة مبهمة يؤتى بها توصـلاً لنداء ما فيه الألف واللام، وهى مفسَّرة بالذى فيه الألف واللام وهذا يعنى بناء الكلام على البيـان بعد الإبهام، وفيـه ما فيه ثم ها التى للتنبـيه، وقد كثـر هذا فى القرآن الكريم وفى نداء الله لعبـاده مثل ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى آخره وقال أهل العلم رحمهم الله وألحقنا بهم كرامة نفس وقرة عين، وإنما كثر هذا لأن الله ما نادى عباده إلا لأمور جسام ولأحوال عظام.

ونداؤهم موسـى عليه السلام بـهذه الصيـغة يعنى احـتشـادهم وإقبالهـم عليه ورغبتهم فى أن يستـمع إليـهم وأن يجـيبهـم إلـى الـذى طلـبوه وكـل هــذا وراءه مـا وراءه من التغـييـر الذى بدأ يحـدث فى داخل نفـوسهم، وقـولهم ﴿يا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ وإطلاق كلمة الساحر على موسى عليـه السلام يرى الزمخشرى أنها لا تزال تحمل المعنى الذى دفـعوا نبوته بـه لما جاءتهم الآيات وقالوا سـاحر لنقض الآيات ورفض مـا ادعاه من أنه رسـول رب العالمين؛ وإنما أعـادوا هذه اللفظة مع قولهم إننا لمهـتدون لأن قولهم إننا لمهتـدون وعد منوى على خُلْفُه، وعهـد معزوم على نُكْثُه. وهكذا قال الزمخشرى وقال غيـره إن كلمة الساحر فيها تعظيم لموسى عليه السلام لأن الساحر عندهم هو العالم ولأن معظم الحـضارة الفرعونية القديمة تقوم على علوم خفية كان يُعَلِّمُهـا الأساتذة تلاميذهم ويوصونهم بالاّ يذيعوها إلا لتلاميذهم، ولذلك بقى كثير من مظاهر هذه الحضارة سراً مخفياً إلى اليوم،

ومما يدل على أن الساحر عندهم له شأن أن فرعون لما رأى آيات موسى عليه السلام وداخله ما داخله من فزع لما رآها لم يستطع أن يخفى ما وجد وقال للملأمن حوله ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ﴾ [الشعراء: ٣٤، ٣٥] مع أن موسى عليه السلام لم يشر من قريب ولا من بعيد إلى أنه سيخرجهم من أرضهم وإنما هو حدس فرعون اللعين وكان رجل سياسة وكان شيطانًا ذكيًا وقد أجابه قومه بما يفيد الاستنجاد بالسحرة وقالوا ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٦، ٣٧]، وأنهم هم حماة الملة لا بسيوفهم وإنما بعلومهم، لأن الملك يهاجم بعلم وليس بسلاح فقط وكل هذا يؤكد معنى التعظيم فى قولهم ﴿يا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ وليس المراد بيان معنى التعظيم فى الكلمة وكفى وإنما المراد بيان ما استشعروه فى ضمائرهم من أن هذا الإسرائيلى الطارئ والذى رُبِّىَ فى بيت فرعون ولبث فيه من عمره سنين والذى تعبد فرعونَ قومُه صار له من الجلال والتعظيم فى نفوسهم ما لا يستطيعون إنكاره وحسبهم أنهم لجؤوا إليه فى أعظم محنة أصابتهم، وأنهم أيقنوا أن البلاء الذى هم فيه بسبب رفضهم نبوته، وأنهم الآن يَعْرضون عليه الإيمان به وإرسال بنى إسرائيل معه يعنى تحقيق ما أراده منهم وأستحسن هذا التفسير وأرى ما قاله الزمخشرى غير ملتئم مع السياق وكلمة ساحر كانت ولا تزال تعنى امتلاك صاحبها لقدرة خفية.

وقولهم ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ هذه الجملة صريحة فى إيمانهم بأن موسى عليه السلام موصول بالقادر على أن يكشف الضرّ يعنى هو رسول الله وله عند ربه مكانة تؤهله لأن يدعو ربه بكشف الضر فيجيبه ربه، ويكشف الضر، وأن ألوهية فرعون الوهية تهويش ودجل ثم هى صريحة فى الدلالة على أن كلمة الساحر التى نادَوْا بها موسى عليه السلام ليس فيها شىء من معنى الساحر الكذاب، الذى ردوا بها دعوته كما ذكر الزمخشرى لأنهم لو أرادوا ذلك لفهمه موسى عليه السلام ولما دعا ربه، لأن موسى دعا ربه فكشف عنهم الرجس فنكثوا.

والدعاء ضراعة وطلب حاجة وكلمة ﴿لَنَا﴾ كلمة مبهمة لأنها لم تبين المطلوب لهم بالدعاء وقد فُسِّرت بما جاء في مواضع أخرى من مثل قوله سبحانه ﴿لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾ [الأعراف. ١٣٤]» يعني وعدوا بإجابته إلى ما أرسل به وقد دعاهم إلى الله ﴿وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ [النازعات: ١٩] كما دعاهم إلى أن يرسلوا معه بني إسرائيل. ﴿فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم﴾ [طه: ٤٧] وجملة ﴿إنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ هي أيضًا مبهمة ومجملة لأن المطلوب ليس الإيمان فحسب ولذلك قالوا مهتدون ولم يقولوا «مؤمنون» لأن الاهتداء يشمل الإيمان وإرسال بني إسرائيل وإنما جاء كل هذا مجملاً ولم يأت مفصلاً كما في آيات أخرى لأن تحقيق هذه الأحداث ليس من مقاصد الزخرف وإنما لها مقصد آخر هو أن موسى الذي رُبِّي في بيت فرعون جاء يحمل إليه رسالة ربِّه ولم يكن رجلاً من القريتين عظيما وأن فرعون صاحب الجاه والمال والسلطان لما عارض نبوة موسى عليه السلام هلك، وهذه هي متطلبات سياق الزخرف، وكلمة ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ كلمة هي الأخرى مبهمة ثم هي جليلة جداً في كشفها لما أصبح في نفوس القوم بعدما أخذهم الله بالعذاب لعلهم يرجعون وأنهم يعتقدون أن الله عهد إلى موسى بشيء وهذا ليس قريبًا من التصريح بنبوة موسى عليه السلام وإنما هو تصريح كامل بها، وكلمة ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ كلمة تحتمل وجوها من التفسير يعني بما عهد عندك من النبوة، أو بأنك مستجاب الدعوة، أو بأنك تكشف السوء عن من اهتدى أو بالإيمان بالله، وكل هذا يعني أنهم يقولون إن لله عندك عهدًا وأنت وفيٌّ لعهد الله عندك، وهذا يجعلك أقرب إلى الله، ونحن نستصرخ بك ونعاهدك عهدًا كعهدك لربك، وهو أننا لمهتدون أو لئن كَشَفْتَ عنا الرجز لنؤمنن لك. وتأمل جملة ﴿إنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ ولا تقل لي فقط إنها مؤكدة بإن واللام وإسمية الجملة لأن هذا ظاهر يقع عليه اللسان، وإنما قل لي إن هذا التوكيد دال على شدة رغبتهم في

كشف الضر، وأن العذاب الذى أخـذهم الله به عذاب زلزلهم، وأنهم أكدوا هذا الوعد ليروج عـند موسى عليه السلام، ولأنهم وجدوا فـى نفوسهم من الرغبة والاقتراب من موسى عليه السـلام ما يعينهم على هذا التوكيد وأن كل ذلك صادف من نفس موسى عـليه السلام ما صادف فـدعا ربه فكشف الضر عنهم، وأنبه هنا إلى أن دراسـة التركيب اللغوى ليـست غاية وإنما الذى وراء هذا التركيب هو الغاية ولا يمكن إدراك ما وراء التـركيب إلا بدراسة التركيب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

كررت القـول بأن قولهم ﴿ يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّك بِمَا عَهِد عِندكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ فيه دلالة ظاهرة بل وقاطعة على أن القـوم صح اعتقادهم فى موسى عليه السلام وأنه ليس بسـاحر كذاب وإنما هو رسول الله عهد إليـه بما عهد ووفى موسى لعهد الله وصار موسى مؤهلاً إلى أن يدعـو الله فيجيبه ربه وليس فقط أن يدعو موسى إلـى نفسه وإنما أيضًا أن يدعـو إلى غيره ممن هدَّدوه بالقتل كـما قال فرعـون ﴿ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسى﴾ [غافـر: ٢٦] وهدَّدُوا من آمن به بقـتل أبنائهم، واستحـياء نسائهم: هؤلاء الذين فعلوا به ما فعـلوه الآن يطلبون منه أن يدعو الله ليكشف عنهم الرجز الذى كـان بسبب محادَّتهم له إلى آخـره، أقول كررت هذا وبقى شىء هو أن من وقر الإيمان فى قلبه لا يشـترط لإيمانه هذا الشرط، ﴿لئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعـراف: ١٣٤] وإنمـا يـدخل فيـه كُشِفَ الرجز أو لـم يُكْشَف، لأنه رأى حقّاً ومن رأى حقّاً وجب عليه أن يذعن إليه، وأقول إن القوم لم يصلوا إلى هذه المنزلة من الإيمان. وإنما وقفوا عـلى الباب أو تقدموا فيه خطوة أو خطوتين وقارن هذا بموقف السحرة. لما رأوا الآيـة وسجدوا رغم عتو فرعون. هذا والله أعلم.

قوله تعالى ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ بناء هذه الجملة هو نفسه بناء جملة ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ ومرد هذا التطابق فى

البناء أو التصاقب فى المبانى إلى أن الجملتين يعالجان حقيقة واحدة هى رفض الآيات ويستوى فى ذلك الآيات التى جاءهم بها موسى أو الآيات التى أراهم الله إياها وأخذهم بالعذاب لعلهم يرجعون ثم كشف الله العذاب عنهم بعدما عاهدوا موسى على الهداية إذا كشف الله عنهم العذاب وهذه آيات طلبوها هم بأنفسهم ثم نكثوا عهدهم، ولا ندفع قول من قال إن هذا التصاقب مراد به اللفت إلى هذه الحقيقة لأنها هى رأس بلائهم وهى سبب هلاكهم، وقد قلت إن شرط لما الحينية فى آية ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا﴾ مكرر لأنه مسبوق بقوله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾، وهذا التكرار لتثبيت هذه الحقيقة وهى المجىء بالآيات لأنها هى التى عليها المعوّل فى وقوع العذاب لأن الله سبحانه لا يعذب قومًا حتى يرسل إليهم رسولاً، وشرط لما الحينية هنا أيضًا مكرر لأن كشف العذاب مدلول عليه دلالة ضمنية فى قولهم ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ وأن المقصود بالدعاء هو كشف العذاب، وقد تكرر هذا المدلول عليه دلالة مقدرة وذكر باللفظ الصريح شرطا لكلمة (لما) لأن المطلوب أيضًا تَثْبِيتُه وتأكيده لأنه هو سبب الهلاك والاستئصال، وإذا التى للمفاجأة بخلاف ما يتوقع والمخالفة هنا أظهر، وأحَدٌ لا لأن الآيات بعضها أفضل من بعض وإنما لأن هذه آية طلبوها هم كما طلب الحواريون من عيسى أن يدعو ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء ليأكلوا منها وليعلموا أنه عليه السلام صدقهم ولتطمئن قلوبهم ولتكون لهم عيدًا لأولهم وآخرهم ورضى الله عنهم، فلما دعا عيسى ربه قال سبحانه ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]، لأن هذه آية طلبوها هم وليست أعظم من آيات عيسى عليه السلام، والخلاصة أن الآية التى يطلبها القوم ثم ينكثون عند وقوعها توجب الغضب الأشد والعقاب الأشد ولهذا كانت هذه الجملة مع اتفاق بنائها مع أختها تنطوى على معان أكثر وأدل على فساد طباعهم وخساسة نفوسهم وسوء مطاويهم وأنهم لا عهد لهم ولا ذمة لهم. وهذا شأن من يعارض الحق.

قلت إن الخصوصيات التى فى بناء جملة ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ هى الخصوصيات التى فى بناء جملة ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ وليس معنى هذا أن المعانى هى هى لأن المعنى الذى هناك هو تأكيد وإظهار حماقتهم وسخافة عقولهم الذى كان عند رؤية الآيات؛ والمعنى هنا فيه شىء آخر ليس استهتارا بالآيات ولا حماقة وإنما سوء طباع لأن أسوأ ما فى أهل السوء هو نكث العهد، ورجوع الإنسان فيما وعد به بعد حصوله على مراده، هذه الخصوصيات تقول لنا إن هذا الخلق مذموم عند الله وإن أهله موضع غضبه سبحانه وأن الله يبشع لنا نقض الوعد ونكث العهد.

قال جل شأنه: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾.

من التساهل الذى نُضَيِّع به كثيرًا من حقائق العلم أن نحلل هذه الآيات من غير أن نقف ونراجع سر مجيئها بعد الآية التى قبلها وذلك لأن معرفة سر مجيئها بعد الآية التى قبلها يساعد على تحليل كثير من كلمات فرعون، التى يكتنفها الغموض إذا حللناها بمعزل عن معرفة سر الموقع.

وليس من المجازفة أن نقول إن نداء فرعون فى قومه بما نادى به كان من أثر هذا الموقف الذى زلزل الناس. ودفعهم دفعًا قويًا إلى الاتجاه إلى دعوة موسى عليه السلام، وأن ما أحاط بهم من البلاء المتمثل فى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم كان من رب موسى. لما غاضبوا موسى. وكان طلبهم من موسى أن يدعو ربه ليكشف عنهم العذاب صادرًا عن هذا الاعتقاد، وهذا أمر. والأمر الثانى هو أن موسى عليه السلام لما استجاب لهم ودعا ربه وكشف عنهم العذاب اتجهوا إلى موسى أكثر ودخلوا من عتبة الإيمان كما

قلت، ولم يكن الشعب ودهماء الناس وأفناؤهم بمعزل عن هذا وأنهم جميعًا أيقنوا أن فرعون الذى يزعم أنه إله ولم يَعْلم لهم إلاهًا غيره لا يملك أن يكشف عنهم الضُر، وقد أدرك فرعون بدهائه كل هذا ونادى فى قومه ليستدرك الخطر المحيط به وبملكه قبل أن يَنْفَض عنه الناس، إلى موسى عليه السلام، لم أقرأ هذا فى كتب التفسير ولكن قرأته فى هذه الكلمات التى نادى فيها فرعون قومه، ويلاحظ أن فرعون لم يناد فى قومه ولم يقل يا قومى إلا فى هذه الآية والقوم هم كل الشعب، ومعنى هذا أنه لم يخاطب كل شعبه إلا فى هذا الموقف الذى حدث بعد هذا الزلزال الذى أحدثته آية ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ وما بعدها وقولهم لموسى. ادع لنا ربك ليكشف عنا العذاب فدعا ربه فكشف عنهم العذاب، وكان فرعون قبل ذلك يخاطب الملأ، وهم الذين حوله كما فى قوله تعالى ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤] وقوله جل شأنه ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] وهو هنا لم يخاطب الملأ لأنه يعلم بدهائه أن هذا الملأ الذين هم حوله لن ينصرفوا عنه لأنهم متربحون حوله ومصالحهم حوله وهذه المصالح وهذا التربح هو الذى يربطهم بالنظام ويجعلهم جزءًا منه يحمونه ويقولون له ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] كما ترى حولك وما أشبه البارحة بالليله أو ما أشبه الليلة بالبارحة ورأى فرعون أن الخطر من هؤلاء غير المتربحين الذين تفتحت عيونهم على الحقائق التى زلزلتهم وكشفت الوهم السادر على عيونهم.

قال سبحانه ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

وأول ما يلاحظ فى هذا قوله سبحانه ﴿فِي قَوْمِهِ﴾ وقد لحظ الزمخشرى وكان يقرأ قراءة بالغة الدقة واليقظة لحظ حرف الظرف ﴿فى﴾ وأنه لم يناد

قومـه وإنما نادى فى قومه ومعنـاه أنه أرسل بهذه الرسالة التى هى قـوله تعالى ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ إلى كل قرية وكل نجع وكـل جماعـة أرسل بها مناديا ينادى فيهم، ولا يكون هذا إلا إذا كان استشـعر خطرا يجرى فى هذه الجماهير الساكنة فى القرى والمدن والنجوع وكأنه يقوم بالتعبـئة العامة والتوجيه والإرشاد الشامل أو قل حـملة إعلاميـة للقضاء على مـا أحدثه زلزال الآيات التى أراهم الله إياها وكل آية أكبر من أخـتها لأن الجراد والقمل والضفـادع أصاب الجميع وتساءل الناس البسطاء عن سببه وترامى إليهم خبر موسى وأنه رُفِعَ عنهم بدعاء موسى، وكان قـد سبق هذا دعاء مؤمن آل فـرعون قومه إلى الله كـما حكت سورة غافر التى سميت باسم المؤمن ومـهما كانت من نتائج دعوة وثورة مؤمن آل فرعون على فرعون فإنها من غير شك تركت آثارًا فى النفوس، أيقظتها هذه الحادثة المزلزلة، ثم إن قول فرعون ﴿يَا قَوْمِ﴾ وإضافتهم إلى نفـسه فيه تقريب لهم وأنه منهم وكأنه يثير عصبيتهم له ولا أشك فى أن قصة المؤمن كانت سابقة لهذه الحاددثة لأن هذه الحـادثة كانت فى الأيام الأخيرة لموسى فى مـصر وجاء بعدها ما عبرت عنه الآية الكريمة ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وكذلك جاء الانتقام فى آخر هذه الحادثة فى سـورة الأعراف وهى أكثر تفصيلا هناك وقال سـبحانه ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ [الأعراف: ١٣٥، ١٣٦] ويلاحظ أن الذى جاء من قـصة موسى عليه السـلام فى الزخرف طرفاها أولها المتـمثل فى قوله سبـحانه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ وآخرها المتمـثل فى قوله ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ وما تبع ذلك ويلاحظ أيضًا كما بينا أن البيان العالى دمج أولها مع آخـرها فكانت آيات آخرها حالا من آيات أولها وآذن ذلك أنهم ظلوا على الضـحك والاستهـتار والسخـرية إلى أن أراهم الله

آياته، وأخذهم بالعذاب إلى آخر ما بينا. وقوله ﴿أَلَيْس لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ جملة غريبة جدا لأنه لم ينازعه أحد في ملك مصر، ولم ينكر عليه أحد ملك مصر، فما وجه هذا السؤال؟ ويعين على معرفة المقصود من هذا السؤال تحليل السؤال تحليلا لغويا، واللغة تقول إن دخول همزة الاستفهام على النفى كما هنا يحتمل أمرين الأول أن يكون الاستفهام للإنكار وقد دخل على النفى فنفاه ونفى النفى إثبات والمراد أن يقول لى ملك مصر ولا يجوز أن ينادى قومه بقوله يا قوم ويثير عصبيتهم له وعلاقته بهم وأنه منهم بخلاف موسى ثم يقول لهم لى ملك مصر إلا إذا كان هناك إحساس بأن هذه الحقيقة التى هى ملكه لمصر تتعرض لخطر فى داخل نفوس عامة الناس ودهمائهم، بخلاف الملأ الذين تربطهم بملكه مصالح ومواقع فى السلطة والنظام كما قلنا، ولا أظن أن أحدا يعترض على هذا التحليل وهذا الفهم، والوجه الثانى لمعنى الجملة أن تكون هذه الهمزة للتقرير وليست للإنكار والمراد أن يقر المخاطب بما يعلمه من مضمون الجملة فإن كان يعلم الإثبات أقر بالإثبات وإن كان يعلم النفى أقر بالنفى والمراد هنا أن يقروا بالإثبات يعنى أن له ملك مصر ولا يطالبهم بأن يقروا بهذا إلا لأمر حدث وطرأ بسبب موسى عليه السلام ويلاحظ أن موسى عليه السلام لم ينازعه الملك وإنما طلب منه أن يرسل معه بنى إسرائيل. وقوله ﴿وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ من تمام جملة ﴿أَلَيْس لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ وهى جملة حالية ملحقة بالجملة الأصلية ومن تمام معناها ومعنى تجرى من تحته أى من تحت عرشه وكان عرشه مرتفعا فوق نهر النيل. ويمكن أن يكون قوله ﴿وَهَذِهِ الأَنْهَارُ﴾ معطوفا على ملك مصر والمعنى أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار وجملة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ هى الجملة الحالية ،وقالوا معنى ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ أنه يملكها وهى تحت يده كما يقال هذا الأمر فى يد فلان، أو تحت يد فلان، قالوا ومنه قوله تعالى فى امرأة نوح وامرأة لوط ﴿كَانَتَا تَحْتَ

عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ [التحريم: ١٠] أى كانت عصمتهما فى يد نوح ولوط عليهما السلام وكل هذا يحتمله اللفظ والمهم أنها من تمام جملة ﴿أَلَيْس لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ وداخلة فى احتمالات معناه وقوله سبحانه ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ هذه الجملة فيها قدر من المخاشنة وهى أكثر دلالة على إدراكه بأن أمر موسى عليه السلام قد طرق قلوب قومه وأوشكوا أن يسلكوا طريقهم إلى موسى عليه السلام وأنه يطالبهم أن يبصروا طريقهم الأول وهو طريق الانقياد إليه وطريق طاعته ولا أجد لكلمة ﴿تُبْصِرُونَ﴾ هنا دلالة أقرب إليها من أنهم أوشكوا أن يفقدوا البصر والبصيرة التى كان يعنيها حين كان يقول لهم فى منازعته لمؤمن آل فرعون ﴿ما أُرِيكُمْ إِلاَّ ما أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] وهذه هى البصيرة التى يخاشنهم حتى يرجعوا إليها، والهمزة هنا دخلت على الفاء الدالة على محذوف، وتقدير هذا المحذوف من الأهمية بمكان لأننا وإن كنا نقدره مستعينين بدلالة ما بعد الفاء فإن تقديره هنا يساعد على تجلية ما بعد الفاء الذى استعنا به، ولابد أن يكون المقدر مما يترتب عليه ما بعد الفاء يعنى معطوفا عليه بالفاء التى تفيد الترتيب ولن يكون هذا إلا إذا كان المقدر من باب أعميتم فلا تبصرون أو أصابكم العشى فلا تبصرون أو أسُكِّرت أبصاركم فلا تبصرون وما هو من هذا الباب ولم يذكر القرآن جملة لفرعون خاشن فيها قومه كما خاشنهم فى هذه الجملة لأن المعنى هنا لا يخلو من تهديد وتخويف والهمزة الداخلة على الفاء تفيد الإنكار الذى فيه قدر من التوبيخ والتعنيف ومن المفيد جدا أن نتأمل ما دخل عليه هذا الإنكار لأنه يعنى أمرا واقعا ينكره فرعون على قومه وهذا المعنى هو لا تبصرون والبصر والبصيرة يجتمعان فى هذه الكلمة والبصر الذى هو رؤية العين يخص ملكه وأبهته وأساور الذهب والأنهار تجرى من تحته والبصيرة هى ما يلحظه من سيلهم إلى موسى بدليل المقارنة التى ستأتى وإذا كانت الهمزة لإنكار افتقادهم البصيرة المعبر عنه بقوله ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ فأى شيء رأى فرعون أن

قومه لا يبصرونه فأنكر عليهم ذلك؟ وبتعبير آخر ما هو الشيء الذي لم يبصروه وأنكر عليهم أنهم لم يبصروه؟ ولسنا في حاجة إلى طول نظر لنستخرج هذا لأن الكلام دال عليه وأن ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ راجع إلى قوله ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ وقد قلنا إنه قالها وقومه يعلمونها ولا يجوز أن يكون قالها إلا إذا كان هناك ما يدعوه إلى تأكيدها وإذا كان الذي لا يبصرونه هو ملكه وسلطانه وهو ينكر عليهم ذلك ويهددهم ويخاشنهم فليس لهذا معنى إلا معنى واحد وهو أن فرعون نادى في قومه ليتدارك خطرا يهدد ملكه وأن أمر موسى يوشك أن يظهر على ملكه. والإنكار الذي في الهمزة في قوله ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ ليس المراد به محض النفي وإنما المراد به مع ذلك قدر من الاستنكار يعني أنه ينكر بوادر انصرافهم عنه ويستنكره، وهذه الجملة تدعونا إلى مراجعة كلامه من أوله وإعادة قراءته وفهمه.

وقوله جل شأنه ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ إذا لم نفهم سر مجيء هذه الآية بعد التي قبلها فلن نفهم سر ألفاظها وتراكيبها لأن أسرار التركيب ينبع من أسرار الموقع وراجع هذه الجمل وتجاورها وتتابعها ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾.. ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾.. ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾.

راجع مجيء بعضها في إثر بعض ثم راجع ابتداءها بهمزة الاستفهام وموقع ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ مما قبلها وموقعها أيضًا مما بعدها لأن هذه المقارنة التي بينه وبين موسى عليه السلام من معانيها تبصرتهم بما رآهم لا يبصرونه، وكل هذا يدل على أن نداء فرعون في قومه بعد ابتلائهم بالجراد والقمل وكشف الله عنهم ذلك بدعاء موسى أقول كان هذا النداء كله مقاومة لموسى عليه السلام الذي أوشك أن يدمر ملكه وأن يأخذ منه شعبه وكلمة «أم أنا خير» في قوله ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ بمعنى بل والهمزة وبل معناها الإضراب الانتقالي الذي يفيد الانتقال من معنى إلى معنى من غير أن يبطل المعنى الذي سبق

والهمـزة بمعنى التقرير أى طلب الإقـرار، بأنه خير من موسى عليـه السلام، وغريب وعجيب أن يطلب فرعون من قومه أن يقروا بأنه خير من موسى عليه السلام وهم جـميعًـا يعلمون أن مـوسى عليه السلام من بنـى إسرائيل الذين تعبـدهم فرعون، وأن موسـى يزيد عليهم أمرًا وهو أنه ربى فى بيت فـرعون ولبث فيهم من عمره سنينا، ومن السطحية فى الفهم ألا نرجع إلى الذى دعا فـرعون إلى هذه المقـارنة التى لم يكن لهـا أن تكون لولا نبـوة موسى عليـه السـلام وأن الله أخـذ آل فرعـون بالسنين ونقص من الـثمـرات من أجل أن يؤمنوا بموسى وأنهم كـابروا وقالوا لموسى عليـه السلام ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ﴾ [الأعراف: ١٣٢، ١٣٣] إلى آخر ما كـان وأن سر الله الذى أيد به موسى قد أحاط بفرعون وزلزله من داخله حتى إنه اسـتشعر صدق موسى وخطره على ملكه قـبل هذه الحادثة وفى أول دعـوة موسى له وأراه الآيات التـى استيـقن فـرعـون أنهـا بصـائر ﴿مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] فـقال فـرعون للمـلأ من حوله ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ﴾ [الشعراء: ٣٥] فأنطقه الله فى أول الأمر بما كان فى آخره؛ كل هذا مع الحادثة الأخـيرة التى أوشكت أن تكشف زيفـه وأن تزلزل سلطانه جعل فـرعون يقف ويقول ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ وتأمل الجمل وتأمل ما فيها من حرقة وغضب وبغضاء وكذب وما وراء كل ذلك من عجز.

أما الحرقة والغـضب والبغضاء ففى تلك الكلمات التى ذكـر فيها كليم الله صلوات الله وسلامه عليه وتبـدأ باسم الإشارة الذى للقريب والدال على دنو المنزلة ثم اسم الموصول وصلته الجملة الاسمية وكلمة ﴿مَهِينٌ﴾ ومعناها الحقير وقد كذب اللعين وهو يعلم أن المهين لا يغضب الله له فيأخذهم بعذابه لعلهم يرجعون إلى ما يدعوهم إليه موسى ثم هو يعلم أن موسى عليه السـلام من

ولد إسرائيل وإسرائيل نبى وابن نبـى وابن نبى وأن يوسف عليه السلام الذى هو من آباء موسى هو الذى كان على خـزائن الأرض ولم يكن فرعون يجهل هذا لأن يوسف كان يزاول عـملا سياسـياً آل إلى آباء فرعون ولا يتـصور أن يجـهل فرعـون تاريخ بلد يحكمـه ولا شك أنه كـان ذا علم وأنه كان يسـأل موسى عليه السلام ويقول له ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ﴾ ﴿طه: ٥١] يعنى كان يسأله عـن التاريخ القديـم وكلمة ﴿مَهِينٌ﴾ إنما هى من سوء أدب فـرعون وجملة ﴿وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ معطوفة على جملة الصلة، وأراد فرعون العقدة التى كانت فى لسان موسى عليه السـلام، وذكره لها من أكاذيبه، وذاك لأن موسى عليه السلام فى المقام الذى كلفه ربه فيه برسالته وأمره ببلاغ فرعون وقومه قال مـوسى عليه السـلام لربه ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧، ٢٨] فـقـال له ربه ﴿أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦] وجـاء موسى إلى فرعـون وبلغه رسالة ربه ودار حوار طويل بينهمـا فى أول الشعراء وفى سورة طه وفى سـور كثـيره وليس فى لسان مـوسى عقـدة وقد سمـعه فرعون وهو يعلم ذلك وكلمة ﴿وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ إن كان يريد بها زمن موسى الأول وقبل البعـثة فهو باحث عن العيب وإن لم يكن عيـبا ثم هو جدير بأن يدرك أن أول أمارة تدل على أن موسى مبعوث رب العالمين أن أول خطابه فى شأن رسالته كان قد أذهب الله عنه العقدة وهذا شيء لافت فهو يعيب موسى بما كان جديرا بلفته إلى مقام موسى عند ربه.

قلت إن حديـث فرعون عن مـوسى فيـه حرقة وغـضب وكذب وعـجز، والعجز الذى أردته هو موازنته بينه وبين موسى الذى إذا أغفلنا نبوته كما يريد فرعون وجدناه بالنسـبة إلى فرعون رضيعا التـقطه آل فرعون من تابوت ألقاه اليم فى الساحل. وقـد هموا بقـتله فقالت امـرأة فرعون لا تقـتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ومن الغريب أن يوازن بين الذى له الملك اليوم ظاهرا فى الأرض ويحكم شـعبا مـن أقوى شعـوب الأرض وأعلمهـا وأغناها وأفعـلها

الملائكة ويكـون المعنى أن آلهـتنا خـيـر منه وأننـا أهدى من النصـارى لأن النصارى عبدوا عيسى ونحن عبدنا الملائكة، وإذا كان المثل الذى ضربوه من معدن هذا القـياس فإنه لا يقتـضى أن يكون جواب الشرط ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ وإنما الذى يقتضـيه هذا الجواب هو أن آية ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] بعـمومها تقتـضى أن كل المعبود من دون الله فى النار يعنى أن عـيسى فى النار مع أنك أثنيت عليه خـيرا وعلى أمه.

وقوله جـل شأنه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ جملة جـيدة جـداً لأنها تكشف حقيقـة الموقف وأنه لـم يكن لهـم أى مأرب فى ضرب هذا المثل إلا مأرب واحد وهو الجدل ولـم يطف بعقولهم أنهم يبحثون عن الحق، وأنهم يميزون بين الصواب والخطأ، كـل ذلك لا وجود له، وأن هذا المثل لجاجة محضـة ومجادلة محضـة، ومغالبة مـحضة، وكأن صخـبهم، وجدلهم، ومرحهم، جزء من هذا الجدل للإيهـام بأن الطرف الذى يجادلونه قد أُفحم وأعيـا وغُلب، وكلمة ﴿جَدَلًا﴾ فى الجملـة يمكن أن تكون مفـعولاً له يعنى لم يكن لهم علة إلا هذه العلة، ويمكن أن تـكون حالاً والمعنى أنهم لم يضربوه فى حال إلا هذه الحال التى هى الجدل، وليس مَيْز الحق، وهذا من أهم مقـاصد الآية وهو الذى يتـسلط عليه البيـان ولا يترك جـانبا منه غامضًا بخـلاف ضرب المثل فإن الغرض كما قلت لم يتـعلق بمعرفة ما هو وكيف كان وإنما يتعلق ببيان أن قومك الـذين أنت منهم قد غيّبوا أحلامهم وصاروا يضربون لك الأمـثال من أجل الجدل والمغالبة لا غـير، وإذا كانت جملة آلهتـنا خير تعنى أن المثل كان فـيه ما يتصل بألوهية المـسيح فإن هذه الجملة تركت كل شىء لتبين شيئًا واحدا وهو أنهم صرفوا همتهم وضربهم ابن مريم مثلا للجدل واللجاجة والمغـالبة والصخب والضجيج لا غير مثل

تحته انتقم الله منه لما عـارض موسى وانتهى وهو يقول ﴿آمنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، وهذا واضح ولا يصح التفسير دون ملاحظته لأنى لم أفهم سُقُفَ الفضة والمعارجَ والأبوابَ والسـرر والزخرفَ إلا لما وجدت فرعون يذكر ملكه وأسـاور الذهب التى فى يديه فأدركت أن آيات السُّقُف تقول لنا لا قيمة لما يعتز به فرعون ولو شاء الله لجعل أضعاف أضعافه لمن يكفر به.

والمهم الآن والذى هو عجيبـة البيان العزيز هو أن آخر جملة قـالها فرعون فى هذا المقام حُذِيَتْ حَـذْو الجملة التى استدعت هذا الجزء من قـصة فرعون وجاء قوله ﴿فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ مطابقا مطابقة توشك أن تكون كاملة فى اللفظ والمـعنى لقولهم ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وكلمة لولا التى هى فى الأصل للتحضيض ويراد بها هنا التعجيز هى التى افتـتحت الكلامـين كلام أهل مكة وكـلام فرعون، والذى دخلـت عليه يستـحيل أن يكون لأنه مضى زمنه ونـزل القرآن على رسول الله وليس كـما اقترحوا، وأوحى الله إلى موسى وليس كمـا اقترح فرعون، وكلمة عظيم فى لسان أهل مكة تعنى الثراء كـما قلت لأن عظمة النسب لم ينازع محمـدا فيها منازع وهذا الثراء المقصود فى عبارة أهل مكة ومعه السيادة والملك هو المقصود فى قول فـرعون ألقى عليه أسورة من ذهـب وبهذا يعود عجـز الموضوع على صدره وسبحان من هذا كلامه.

وإنما قال فرعون ﴿أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ لأنه لم يكن يفرق بين النبوة والملك وقوله ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ الجملة معطوفة على جملة ﴿أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ وهذا الكلام الذى قاله فـرعوه ونادى به فى قـومه لنقض نبـوة موسى عليـه السـلام هو ما قـاله أهل مكة ليس فـقط فى قـولهم فى الزخرف وقالوا ﴿لَوْلا نُزِّلَ هذا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وإنما ما جاء فى مواضع كثيرة جـدا من الكتاب العزيز ومنه ما جاء فى أول سورة الفرقان وبالأسلوب نفسه وبأداة التحضيض المراد بها التعجيز لأن اللغة واحدة والموقف واحد قال سبحانه ﴿لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ

إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ [الفرقان: ٧، ٨] وأراد فرعون لو أن الله أرسل موسى رسولا لمكن له فى الأرض وجعله ملكا عليه أسورة من ذهب كما كان شأن ملوك مصر كانوا إذا سودوا ملكا ألبسوه أساور الذهب، وهكذا كان فى فارس وفى اليونان والأمم ذات الحضارات القديمة؛ أو كان الله سبحانه جعل له أنصارا وأعضادا من الملائكة فيأتون مقترنين به، قال الزمخشرى من قولك «قرنته فاقترن به» وهذه الجملة تحتاج إلى مراجعة لأن المصريين القدماء وإن كانوا يؤمنون بخلود الروح فلم أعرف أنهم كانوا يؤمنون بالملائكة لأن الإيمان بالملائكة إيمان بالغيب وعبارة فرعون تعنى أن لله ملائكة وأنه لو أرسل إلى خلقه رسولا لأنزل معه الملائكة تشهد لخلقه أن هذا الذى اقترنوا به هو رسول الله وهذا عجيب لأنه توحيد من فرعون وبعض علمائنا يقولون لعله سمع هذا من موسى عليه السلام وهذا تعليل واهن لأنه يخاطب به قومه ولو كانت هذه المعلومة خاصة بفرعون لأنه سمعها من موسى ما صح أن يخاطب بها عامة الناس. ولابد أن تكون هذه الجماهير عندها علم بأصول ما تخاطب به، وفرعون يقوم بدعاية عاتية لنقض نبوة موسى التى أوشكت أن ينزلق إليها قومه وأن يدخلوا فيها، ويبدو أن كثيرا من دقائق التاريخ الفكرى والثقافى والدينى لهذا الوطن لم نحسن درسها، وفرعون هنا كغيره ممن عارضوا النبوات يقر بأنه مؤمن بالله وأن لله ملائكة وأن الله يرسل إلى عباده رسلا ولكن ليس على الوجه الذى جاء به موسى عليه السلام وأهل مكة لما قالوا ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ يؤمنون بالله وأنه يرسل رسله إلى خلقه، ولكنه يختار رسله من أهل الثراء، والذين قالوا ﴿لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الفرقان: ٧] يؤمنون بالله وملائكته وكأن الشرك والوثنية والطغيان كان فى هذه الأرض كالقشرة السطحية وأن الله وملائكته وكتبه ورسله فى ضمائر خلقه لأن نزول القرآن على رجل من القريتين يعنى أن الله ينزل كتبا لعباده وهكذا.

ولم تكن مصر بمعزل عن النبوات وليس فقط أن الله بعث على أرضها نبيين كريمين هما موسى وعيسى عليهما السلام وإنما لأن الذى كان على خزائنها نبى وهو يوسف عليه السلام وكان يحدث عن دين آبائه ويحدث عن أنه ترك ملة المصريين ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٧، ٣٨] ومؤمن آل فرعون قال لقومه الذين يخاطبهم فرعون ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [غافر: ٣٠، ٣١] ولابد أن يكون قومه يعلمون أيام الأنبياء عليهم السلام وإلا كان تخويفا لهم بما لا علم لهم به. هذا والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ راجع هذه الفاءات فإن لها فى بلاغة هذه الآيات شأنا أى شأن ويقولون إن الفاء التى تفيد الترتيب تمطل معنى ما قبلها حتى يتصل آخره برأس المعنى الذى بعدها وتكون الأحداث متصلة ليس بينها فاصل وهذا معناه أنه نادى فاستخف قومه.. فأطاعوه فآسفونا فأغرقناهم.. فجعلناهم سلفا ومثلا.. وهذا تصوير للأحداث وتتابعها بالغ الدقة ولو قلت إن ثمة فواصلا بين بعضها لقلت لك هذا فى الظاهر ومجىء الفاء دال على أن هناك تواصلا وليس بلازم أن يكون استخفهم فى آخر ندائه وإنما اللازم أن يكون هذا النداء مفضيا فى آخره إلى أنه استخفهم وليس بلازم أن يكونوا أطاعوه لما استخفهم، وإنما اللازم أن يفضى استخفافه لهم إلى طاعته وهكذا وأعد قراءة الفاءات وترتيبها للأحداث وكيف نسقت هذه الفاءات الأحداث فاتسقت على الوجه الذى تراه.

وهذه الآيات هى من تعقيب وكلام رب العزة، وحين يأتى حديث من الله فى أعقاب حدث أو حديث من عباده يكون حديث الله وتعليقه وتعقيبه على

هذا الحدث أو الحديث معينا على إعادة الفهم، والذى أفهمه من بناء تعليق الحق وتعقيبه على كلمة استخف هو أن فرعون قصد بندائه فى قومه إلى هذا الاستخفاف لأنه يعلم من شأنهم أنهم إذا استُخِفُّوا خَفُّوا، والمراد أنه استخف أحلامهم ومرجع خفة الأحلام إلى أن العرب كانوا يصفون العقلاء الراشدين وأهل الرزانة بأن أحلامهم تزن الجبال رجاحة وبالضد من هذا يقولون خفاف الأحلام لأهل الحماقة والطيش وأن عقولهم تذهب بددا وتذهب شعاعا وخصوصا عند الخطوب ولعل هذا هو مرجع هذا الوصف وأن الكرام العقلاء الحكماء يواجهون الخطوب بتماسك ورزانة ورجاحة وصلابة نفس وقوة رأى، وفى قوله جل شأنه ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ فيه معنى آخر وهو أنه لم يقصد إلى إقناعهم ولا إلى مخاطبة أفهامهم وألبابهم لأنه يعلم أن حوارهم أو محاولة إقناعهم أو مخاطبة أحلامهم كل ذلك ليس فى صالحه لأن أمر موسى عليه السلام فى نزول العذاب وفى كشفه كان أظهر وأبين من أن يُطْمَس ولذلك تفادى فرعون أمر موسى ولم يتكلم فيه كلمة واحدة من الزاوية التى اختطف فيها موسى نفوس قومه فلم يذكر نزول الرجس بهم وكشفه وإنما تكلم كلاما بعيدا ينتقص فيه موسى عليه السلام وأنه مهين وأنه لا يبين إلى آخره وكل هذا ليس بمانع أن يكون رسول الله وإنما أتاهم فرعون من جهة العصبية وأنهم قومه ومن جهة الملك الذى ورثه عن آبائه وطاعتهم له وطاعة آبائهم لآبائه.

وأنه ملك مصر كابرا عن كابر، وتجد الإيماء إلى هذا المعنى فى اللام التى فى قوله ﴿أَلَيْس لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ يعنى هو مستحق لى وأن ملك مصر له حق مستحق ووراء ذلك أنه إرث آل إليه لأنه لا يجعل هذا داعية لقومه إلى أن يعودوا إلى طاعته إلا إذا كان وراءه إلف قديم وإرث قديم، وأنه سليل الملوك والآلهة، وقوله ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ هذه الفاء تجعل طاعتهم له مرتبة على هذا الاستخفاف وأن هذه الطاعة كانت بعد أن لم تكن أو بعد ما أوشكت أنها لم تكن وهذا قاطع فى أن هذا النداء كان تداركا من الداهية لأمر لو تم لذهب

ملكه ودخلت مصر فى اليهودية ولتغير وجه تاريخها، وأن هذا التغير لم يحدث بسبب تلبيس وتدليس من فرعون؛ وكأن هؤلاء الفراعنة هم الذين صنعوا التاريخ وليس للشعب فى صناعة تاريخه نصيب. كلمة ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ وترتيبها على الاستخفاف وأنها قبل أن يستخفهم لم تكن، كل ذلك دال دلالة ظاهرة على ما استخرجته من نداء فرعون. والله أعلم.

وقوله سبحانه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليل لقوله ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ وأن معنى هذه الجملة هو السبب الحقيقى للطاعة وهو الذى جعل استخفاف فرعون لأحلامهم يأتى بفائدة، ولو لم يكونوا قوما فاسقين لما استطاع تلبيس وتدليس فرعون أن يعيدهم إلى طاعته، وهذا ظاهر لأننا حين نراجع ما قاله فى ندائه لقومه ونراجع النتيجة التى انتهى إليها نجد تفاوتا شديدا لأن الذى قاله لم يمس القضية الأساسية التى لفتت قومه إلى موسى عليه السلام لأنه يعلم أنه لا يستطيع أن ينقض من هذا الأمر شيئًا ولو فتح الكلام فيه فسيكون لصالح موسى وليس لصالحه والمهم أن كلامه فى ذاته لم يفض إلى طاعته وإنما أفضى لما صادف قوما فاسقين والفاسقون هنا معناها الكافرون كما جاء فى سورة الأعراف فى قوله تعالى ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥] وفى الأعراف إشارة أوضح إلى علة طاعتهم له وأنهم ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف: ١٤٦] وهذا هو ما كان فى هذه الحادثة ثم علل ذلك بقوله سبحانه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقد جاءت الغفلة بمعنى الكفر كما فى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وهذا قرع شديد لقلوب أهل الحق حتى لا تتسلل الغفلة إلى نفوسهم.

ولأهمية هذه الجملة بنيت على القطع والاستئناف وهذا القطع وهذا الاستئناف لافت دائمًا إلى معنى ما بنى عليه؛ وكان يمكن أن يقال إنهم فاسقون ولكن هذا لا يفيد المعنى المراد لأن كلمة ﴿كَانُوا﴾ تعنى أنهم عريقون فى الكفر غارقون فيه منذ الزمن البعيد حتى صار جزءا من طباعهم وكلمة ﴿قَوْمًا﴾ تعنى أن هذا الكفر الذى هم عريقون فيه شامل لهم جميعا عاشوا جميعا عليه وقاموا جميعا به وكأنهم كانوا قياما عليه وهو من قوامهم وأن هذه العراقة فى الكفر وهذا الشمول وهذا القيام عليه الذى كأنه حراسة له، كل هذا هو الذى سهل على فرعون مهمته وجعل كلامه الذى لا يزيد عن شتائم لموسى عليه السلام ينفذ فى نفوسهم ويحولهم ويصرفهم عن آياته صلوات الله وسلامه عليه، وبداية فرعون اللعين بقوله عن موسى ﴿الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ كانت جديرة بأن تثيرهم على فرعون لأنهم رأوا آية موسى وأن من جعل الله له آية لا يقال فيه مهين وإنما المهين هو من قال على المكرم إنه مهين.

وبقى سؤال فى هذا التعقيب وفى حديث الله عن هذه الحادثة وهو أن الله سبحانه قال قبل نداء فرعون ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ ثم ذكر نداء فرعون ثم قال فاستخف قومه فأطاعوه، والسؤال هو هل كان هناك فريقان فريق نكث لما كشف الله عنهم العذاب وقبل أن ينادى فرعون وفريق خامر أمر موسى عليه السلام قلوبهم فصغت إلى موسى فنادى فرعون فيهم فاستخفهم فأطاعوه؟

والفريق الأول هم الملأ الذين حول فرعون وهم جزء من نظامه وتربطهم مصالحهم ومواقعهم بهذا النظام والشأن فيهم أنهم لا ينظرون إلى الآيات ولا إلى أى شىء إلا إلى مصالحهم المرتبطة بالنظام كالعصابات الذين حولك وحولى والذين هم ذئاب مع الناس ثعالب مع صاحب السلطة وهم الذين عنتهم سورة الأعراف فى قوله تعالى ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ

سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ﴾ [الأعراف:١٤٦] وهؤلاء هم الذين بادروا بنكث ما عاهدوا عليه كليم الله صلوات الله وسلامه عليه؟ وأن فرعون نادى فى سواد الشعب وفى أفناء الناس الذين لم تُحكم السُّدُودُ بينهم وبين آيات الله لأن المصالح لم تُسَلْسِل أعناقهم بالسلاسل وأن هؤلاء تركوا من غير تعليم حتى لا تكون لهم أحلام يفقهون بها وحتى لا تكون لهم عيون يبصرون بها وتدمير التعليم خطوة ضرورية للنظام المستبد ليظل الناس هملا همجا يستخفهم كل دجال كما ترى حولك وأرى حولى. والسؤال هو هل كان هناك هذان الفريقان؟ وآية ﴿ إذا هُمْ ينكثون ﴾ بينت حال جماعة والآية بعدها بينت حال جماعة أخرى؟ وأن الذين نكثوا هم الذين قالوا لموسى ﴿ يا أيها الساحر ادع لنا ربك ﴾ ولا يتصور أن يكونوا قالوا هذا بغير علم فرعون وبغير إذنه وإنما هم رسل فرعون في هذه السفارة وهذه المفاوضة وهذا هو الوجه الذى أراه أقرب من أن يقال إنهم جميعًا نكثوا بعد نداء فرعون وأن جملة ﴿ إذا هُمْ ينكثون ﴾ مقدمة عن تأخير وأن موضعها مع ﴿ فأطاعوه ﴾ وعلى هذا الوجه وهو مرجوح تظل المفاجأة قائمة لأن طاعتهم لفرعون وأنه لما استخفهم خفوا مع أن الله أراهم آياته فى تأييد موسى حتى مالوا إليه ثم رجعوا وأطاعوا كل ذلك يجعل المفاجأة قائمة وإنما قدم النكث لأنه الأهم وهو أصل الخطيئة التى استحقوا بها عذاب الاستئصال وآية الأعراف لم تذكر نداء فرعون فى قومه وإنما قرنت عذاب الاستئصال بنكثهم قال سبحانه ﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون (١٣٥) فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ [الأعراف: ١٣٥، ١٣٦] وإنما ذكر نداء فرعون فى الزخرف لأنه متضمن المعنى الذى سيق له والمناسب لقول أهل مكة ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ كما بينا فجاء ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ فى الزخرف بعد كشف العذاب ليطابق ما جاء فى الأعراف ثم أخر ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ فى الزخرف ليكون شاملا للنكث وشاملا

لطاعتهم لفرعون بعدما استخفهم فأطاعوه، وهذا لم أقرأه فى الكتب وإنما هو اجتهاد وأدعو الله ألا يؤاخذنا إذا اجتهدنا فى بيان كلامه وأخطأ اجتهادنا مراده سبحانه وإنما نغرى أنفسنا ومن حولنا بالتدبر الذى أمرنا الله به.

قوله سبحانه ﴿ **فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ الأسف شدة الغضب ويأتى بمعنى الحزن كما فى قوله تعالى ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا** ﴾ [الكهف: ٦] ويأتى مع الغضب كما فى قوله تعالى ﴿ **فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا** ﴾ [طه: ٨٦] وقال سبحانه ﴿ **وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي** ﴾ [الأعراف: ١٥٠] ولم ترد هذه المادة فى الكتاب العزيز إلا فى هذه المواضع مسندة إلى موسى عليه السلام فى موضعين ومسندة إلى رسول الله ﷺ فى موضع ولم تأت متعلقة بذات الحق إلا فى آية الزخرف وفسرها العلماء بشدة الغضب وقال الطاهر. «والله يستحيل عليه أن يتصف بالأسف كما يستحيل عليه أن يتصف بالغضب على الحقيقة فيؤول المعنى إلى أن الله عاملهم كما يعامل السيد المأسوف عبدا آسفه» وقال غير الطاهر: إن هذا إذا جاء متعلقا بذات الحق ﴿ **وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ سبحانه يصرف إلى العباد يعنى كان منهم ما الشأن فيه أن يأسف له أولياؤنا وخاصتنا، ونقل الراغب هذا، قال أبو عبد الله الرضا: «إن الله لا يأسف أسفنا ولكن له أولياء يأسفون ويرضون فجعل رضاهم رضاه وغضبهم غضبه» ويبقى سؤال لماذا جاءت كلمة آسفونا ولم يقل سبحانه أغضبونا؟ مع ملاحظة أن آية الأعراف ليس فيها لا هذه ولا تلك وإنما رتب الانتقام على ينكثون وقال جل شأنه ﴿ **فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ** ﴾ [الأعراف: ١٣٥، ١٣٦] والأعراف نزلت قبل الزخرف، والجواب والله أعلم أن قصة نداء فرعون لقومه التى ذكرت فى الزخرف كان رجوع القوم فيها إلى طاعة فرعون بعد كلام لا يوجب هذا الرجوع وإنما هو كلام استخفهم به هذه القصة

فيها ما يورث الأسف والغضب معا لأنهم خلق كثير من خلق الله جعلوا أمرهم فى هذا الشأن المهم شأن الدين والاعتقاد فى يد رجل طياش مغرور أحمق ليس له من صفات القيادة إلا الملك والسلطة وقبلت هذه الجماهير أن تكون لعبة فى يد جاهل مغرور أفاك وهذا يؤسف ويغضب معا، ووراء ذلك أن الخالق تعالى وتقدس لما خلق خلقه جعل رزقهم فى يده، ونفعهم وضرهم فى يده، وخلقهم أحرارا، ويحب ويرضى أن يراهم أحرارا، واثقين فى خالقهم ليس لأحد سلطان على قلوبهم وعقائدهم ما دام أراهم آياته التى كانت كل آية أكبر من أختها، كما كان من السحرة الذين خروا سجدا لله لما رأوا آياته وقال لهم فرعون ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ [طه: ٧١] فأجابوه بكلمة عظيمة ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ وانقلبوا إلى ربهم ليغفر لهم ذنوبهم وما أكرههم عليه من السحر ويا بعد ما بين الموقفين، هذا والله أعلم.

وكلمة لما فى قوله سبحانه ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا ﴾ فيها إحضار لهذا الزمن الذى كان فيه منهم ما يؤسف وإحضار زمن الفعل تأكيد لهذا الفعل. وتأكيد لترتب الجواب عليه، ثم إن هذه الكلمة تُعيدُ مرة ثانية المفهوم من قوله ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ لأن هذا هو الذى آسفونا به، وقد وقفت عند هذه الكلمة لأبحث لها عن سر آخر لأنه كان يمكن أن يقال إنهم كانوا قوما فاسقين فآسفونا فانتقمنا منهم، بدل فلما آسفونا ووجدت للزمخشرى لمحة يمكن أن يفهم منها أنهم أتبعوا رجوعهم إلى طاعة فرعون بخطايا زائدة عن خطيئة الكفر وهذا يعنى أنهم رجعوا إلى طاعة فرعون بحمية ووفرة نشاط فى باب الخطايا ومعاندة الحق، قال الزمخشرى فى تفسير ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ «معناه أنهم أفرطوا فى المعاصى وعَدَوْا طورهم فاستوجبوا أن نعجل لهم عذابنا وانتقامنا» والإفراط فى المعاصى معناه أنهم تجاوزوا

الرجوع إلى الكفر واقترفوا خطايا أخرى هى بسبيل من نبوة موسى عليه السلام. وهذا يعنى أن الله سبحانه أمهلهم قبل عذاب الاستئصال ولم ينزله بهم فور نكث الوعد والرجوع إلى طاعة فرعون وليس فى هذا الفهم تعارض مع ما جاء فى الأعراف من أن الانتقام كان مترتبا على نكثهم، لأن إمهال المدة لا يعنى نفى الترتب ولأن التعقيب الذى فى الفاء يقدر بقدر الحدث كما فى قولهم تزوج فلان فولد له. وهنا ينبغى أن نسجل ملاحظة هى أن آية الأعراف ذكرت مدة بعد كشف العذاب وذلك فى قوله سبحانه ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٥، ١٣٦] وإذا صح ما استنبطناه من أن كلمة لما فى قوله سبحانه ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ تفيد الإمهال كان الأجل الذى هم بالغوه فى الأعراف معضدا للمهلة التى فى «لما» وإن كان الأجل الذى فى الأعراف قبل النكث والأجل الذى فى الزخرف قبل الانتقام، وإنما جاء الإمهال فى الزخرف بعد الخطايا وقبل الانتقام، لأن الموضوع فى قصة الذين قالوا ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وهؤلاء لم يبادرهم ربنا بالعقاب وإنما قال لرسوله ﷺ ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]هذا والله أعلم.

وقوله جل شأنه ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ جاء بلفظه فى السورتين والفاء التى فى قوله ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ هى الفاء التى تكون بين التفسير والمفسر، بفتح السين وإنما قال سبحانه انتقمنا فأغرقناهم ولم يقل فلما آسفونا أغرقناهم لأن كلمة الانتقام تعبر عن الغضب وتستحضر الذنب وأنه لا عقوبة إلا بذنب وأن رب السموات والأرض لا يعذب إلا بذنب، وليس أبشع من وقوع التعذيب والعذاب للناس من غير ذنب، ولابد من أن يتحقق الفعل الموجب للعقاب وليس هناك عقاب بشبهة إلا حين يتسلط على الشعوب أعداء الشعوب، قلت إن كلمة ﴿انتَقَمْنَا﴾ تتضمن فعلا أوجب الانتقام وأن رب السموات يذكر هذا

وينص عليه وإن كان يفهم من الكـــلام الســـابــق فهما لا شبهة فيه، وذلك لدرء طغيان الطواغيت الذين يملكون القــوة ويتسلطون على الناس بها. وجاء فى سورة الزخرف ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وجاء فى الأعراف ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ ولم أدرك سر المغــايرة بين الآيتين فى السورتين ولم أســتطع أن أتجاوز هذا من غير أن أحاوله مــعتقدا أن محاولتى تفتح البــاب لمحاولتك وراجيا أن تصيب إذا كنت قــد أخطأت، والمهم أننى لاحظت أن كلمــة أجمعــين جاءت بعد نداء فرعون فى قومه وهم كل القبط عامــتهم وخاصتهم، وأنهم استُخِفُّوا فخفوا، واسـتُضِلُّوا فضلوا، والآية تقول أغرقناهم جميــعًا لا فرق بين إغراق من أضل ومن ضل ولا فــرق بين إغراق من خــدع ومن انخدع لا فــرق بين إغــراق من كــذب ومن صــدق الكذب وأن انقــياد الدهمــاء للمــستكبــرين المتــغطرســين لا يجــعلهم أقل عــذابا منهم، ولو أن المكذوب أبى أن يصــدق الكذب لكف الكاذب عن كذبه، ولو أن المخــدوع أبى أن يخدع لكف الخادع عن خداعه، وكأن هذه اللفظة الكريمة ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تخاطب هذه الطبقة الدنيا المغلــوبة والمستكينــة والمنقادة وتقول لهم إن ما أنتم فــيه من ضعف واستسلام لا يعفيكم من العذاب، وأنتم ســواء فى الجرم مع من يغلبونكم على أمركم، وأن النجــاة من عــذاب الله لا تكون إلا بــاتخــاذ الموقف الرافض لــلخــداع وللكذب وللتلبيس وللتهــويش، وهذا الباطل الذى قاله فرعون فاســتجبتم له يجعلكم سواء مع فرعون صانع الباطل لأن المــستجيب للباطل وصانع الباطل عند الله سواء.. من أبدع الضلالة ومن راجت عنده الضلالة عند الله سواء، وكــذلك من زيــف ومن راج عنده الزيــف، ولابد أن يكون فى الــناس من يرفض الكذب والخداع ويردع الكذابين والمخادعين ولا بد أن يكون فى الناس من يرفض النفاق ويقدع المنافقين، وهذا شــرط فى عمارة الأرض لأن الكلمة السديدة أصل فى إصلاح حال الناس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١] وقال ســبحانه ﴿قَالُوا فِيمَ

كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء:٩٧] يعنى التنازل عن الأرض والوطن والهجرة منه ثمن يجب أن تدفعه حتى لا تضطر إلى أن تكون مصفوفا فى صفوف الباطل ما دمت معتقدا أنه باطل. وأن يقينك الذى بين جنبيك هو أول ما يجب عليك حمايته، أما ذكر اليم فى الأعراف فإنه لا يجوز لى أن أتكلم فيه إلا بعد الفهم الدقيق لكل ما فى الأعراف وهذا لا يكفيه ما بقى من العمر، وإنما هى فكرة طائرة هَدَتْ إليها كلمةُ اليم وأنه سبحانه لم يقل فأغرقناهم فى البحر كما قال ﴿اضرب بِّعَصاكَ الْبَحْرَ فانفلق﴾ [الشعراء:٦٣] وذلك لأنه قبل هذه الآية قال ملأ فرعون له ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٧] وموسى عليه السلام يقول لقومه استعينوا بالله واصبروا ثم تأتى كلمة اليم التى هلك فيها فرعون وملؤه ونجا فيها موسى وهو رضيع خافت أمه عليه من بطش الذى أهلكه اليم، فقال لها ربنا جلت قدرته ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي﴾ [القصص: ٧] وفى آية أخرى ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ [طه: ٣٩]، وقد تكرر ذكر اليم وعلى سطح ثبجه موسى الرضيع الكليم كما تكرر كثيرا وفى بطن موجه فرعون اللعين، وهذه آية الله يذكر بها موسى وقومه الذين قالوا له ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩] فكان من عز الألوهية وقدرتها على هلاك عدوهم واستخلافهم فى الأرض أن يذكر لهم اليم الذى نجا عليه موسى وأنه هو اليم الذى أهلك عدوكم. هذا والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ الفاء عطفت هذه الجملة على جملة ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ أى فأغرقناهم فجعلناهم سلفا وكأن الإغراق هو من جهة بيان للانتقام لما آسفونا بالذى كان منهم، وهو من جهة أخرى عبرة ومثل لمن يأتى بعدهم، يعنى أن عقاب من ضل ليس عقابا له فحسب، وإنما

هو أيضًا كف لمن تحدثه نفسه بالضلال، وهذا معنى جليل وكل عقاب لمعتد هو زجر لغيره؛ والسلف مقابل للخلف يعنى الذى ذهب وسلف والمثل القصة العجيبة الشأن والتى تدور بين الناس وتسير مسير المثل وفيه عبرة وتنبيه، وهذه الفاصلة تترامى معانيها فى جهات كثيرة، فهى فى دلالاتها القريبة تحث على قراءة التاريخ، ومعرفة أخبار الأمم التى سلفت، وعاشت قبلنا على هذه الأرض وأن تكون القراءة قراءة واعية دقيقة، تتناول تفاصيل الأحداث وما يجرى فى طبقات الناس. وما يكون من أطماع الطامعين وما يكون من صمت المستضعفين، وعقاب الله الشامل للمستكبرين والمستضعفين إلى آخره، ثم هى من زاوية تختم لنا قصة موسى عليه السلام وتلوح من قريب إلى من سيقت لهم قصة موسى الإسرائيلى الطارئ على مصر، والذى ربى فى بيت ملكها ثم اختاره الله نبيا يبلغ هذا الملك بوجوب طاعة الله وطاعة رسوله، وكيف كان هذا دحضا للخرافة التى آمنتم بها وقلتم ﴿**لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾ هذا الانتقام وهذا الإغراق مثل لكم لأنكم تشبهون سلفكم من آل فرعون وأن قولكم هذا شبه قول فرعون ﴿**أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ**﴾ [الزخرف: ٥٢] وبئس ما قال وقد هلك بما قال، فهذه هى النهاية التى ترصدكم يا فراعين قريش. ولاحظ كيف كُرِّم موسى عليه السلام بأنه كليم الله ولم يوصف نبى بهذا الوصف الجليل. وكان الرجل من قومه يأخذ بزمام ناقته ويقول له يا كليم الله، وكأن هذا الوصف كان ثواب عقدة لسانه التى دعا الله أن يَحُلَّها فقال له ﴿**قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى**﴾ [طه: ٣٦] ثم زاد على هذا وجعله كليمه، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى نبينا وجميع أنبيائك ورسلك.

ثم إن هذه الفاصلة أيضًا ترمى إلى أبعد من هذا وتستشرف إلى أول السورة فى قوله تعالى ﴿**وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الأَوَّلِينَ**﴾

وتذكر أولا أن ما جاء من قصة موسى هنا فإنه مع اقتضاء قولهم ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ لوجوده وجاء ما جاء منها مثالا لدحضه فقد جاء أيضًا مثالا من أمثلة أنبياء الله فى الأولين الذين استهزأ بهم أقوامهم ولهذا جاء هنا فى قصة موسى كما قلنا ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ ليناسب يضحكون قوله يستهزئون ولم يقل كما قال فى غافر ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [غافر: ٢٥] وهذا ظاهر ثم إن الجملة التى معنا ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ رادة وراجعة رجوعا ظاهرا إلى قوله فى رأس السورة ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾ وضع هذا بإزاء ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ لا فرق بين ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ و﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وفرعون لا شك أشد منهم بطشا وقوله جل شأنه ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ هو قوله ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾ وقد تكررت كلمة المثل وكلمة مضى هى ﴿جَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ و﴿مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾ هو الذى جعله سبحانه ﴿مَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ وهكذا ترد هذه الفاصلة عجز هذا القسم من السورة إلى صدر السورة، وتؤذن بقرب نهايتها، لأن بداية نهاية السورة ستأتى بعد الحديث عن ابن مريم عليه السلام وستبدأ هذه النهاية من أول قوله سبحانه ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ﴾ قوله جل شأنه ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

الذى ذكر من حديث عيسى عليه السلام فى هذه السورة قسمان قسم كان بسبب أنهم ضربوه صلوات الله وسلامه عليه مثلا، وقسم ذكر الله فيه خبر بعثه عيسى عليه السلام وطرفا مما جرى بينه وبين بنى إسرائيل. والقسمان متميزان ومحددان، ويمكن أن يقال إن القسم الأول جاء مهادا للقسم الثانى كما قال الطاهر، ويمكن أن يقال إن القسم الثانى جاء استطرادا لتمام الكلام فى شأن عيسى. وأن القسم الأول هو الأصل وخير من هذين أن يكون كل قسم أصلا فى بابه، فالقسم الأول استمرار لذكر وجوه الكفر التى انعقدت السورة على بيانها، والقسم الثانى من تمام حديث خبر بنى إسرائيل. لأن الذى مضى كان من شأن فرعون مع موسى عليه السلام، وهذا من شأن بنى إسرائيل مع عيسى عليه السلام، وأنه لما طال عهدهم ولم يرسل إليهم نبى بعد موسى عليه السلام، اختلفوا فى التوراة فجاءهم عيسى ليجدد لهم دينهم وليبين لهم بعض ما اختلفوا فيه، فكان من أمرهم معه ما كان، وسنبين ذلك فى القسم الثانى.

أما هذا القسم فأول ما يقال فيه ما قاله الرازى رضى الله عنه إذ قال: اعلم أنه تعالى ذكر أنواعا كثيرة من كفرياتهم فى هذه السورة وأجاب عنها بالوجوه الكثيرة فأولها قوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ وثانيها قوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ وثالثها قوله ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ ورابعها قوله ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وخامسها هذه الآية التى نحن الآن فى تفسيرها. انتهى كلامه رحمه الله.

وهذا جيد جدا من الرازى لأنه يبين الروابط والمعاقد التى بين الأجزاء المكونة للسورة، وأن كل ما فيها منظوم فى سلك واحد، وأنه لهذا تجانس وتصاقب وتشابه، والإشكال الذى واجه المفسرين فى الآية هو أنها بدأت

بقوله تعالى ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ فلم يدل لفظ الآية على المثل الذى ضربوه، يعنى أى شىء جعلوا ابن مريم مثلا له، لفظ الآية يقول إنهم جعلوا ابن مريم مثلا أى مثالا أى مشبها به، فما هو الشىء الذى شبهوه بابن مريم وكان من أثره أن قومه عليه السلام الذين هم قريش صخِبُوا وضَجُّوا وتصايَحُوا، وكلمة يَصِدُّون بكسر الصاد معناه ضج وصاح وصخِبَ وارتفعت أصواتهم، وفرحوا وجَزِلُوا وضحِكُوا، لابد أن يكون شيئًا مثيرًا لهؤلاء حتى كان عنهم كل هذا الهرج والمرج والصخب، الآية سكتت عن هذا.

قال الرازى. ولفظ الآية لا يدل إلا على أنه لما ضرب ابن مريم مثلا أخذ القوم يضجون ويرفعون أصواتهم فأما أن ذلك المثل كيف كان وفى أى شىء كان فاللفظ لا يدل عليه والمفسرون ذكروا فيه وجوها كلها محتملة، واستنبط الطاهر من لفظ الآية أن هذا المثل الذى ذكرته الآية على وجه الإبهام كان أمرا معروفا حين نزول الآية يعلمه رسول الله ﷺ والمسلمون وأهل الجاهلية أيضًا، ووجه الدلالة على ذلك كما قال الطاهر هو أن شرط لما الحينية غالبا ما يكون معلوم الحصول ومعلوم الزمان، «فهو إشارة إلى حديث جرى بسبب مثل ضربه ضارب لحال من أحوال عيسى» وذكر الطاهر أن هذه الآية «من أخفى آى القرآن معنى مرادا».

والخفاء محصور فى شرط ﴿لَمَّا﴾ الذى هو ﴿ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ ويستعان على بيان هذا الخفاء بأمرين الأول معرفة ما روى عن الجيل الذى نزلت فيه، والذى كان يعرف المثل الذى ضربوه وسمعه منهم، ورأى صخبهم وضجيجهم وتصايحهم، وهذا لا بد أن يكون حدثا متعالما مذكورا بينهم، والأمر الثانى هو ما ذكر من الآيات بعد المثل ومراجعة الحق جل جلاله لهذا الموقف وتعليق الآيات على هذا المثل.

أما ما روى عن الجيل الذى نزل فيهم فالذى جرى عليه أكثر المفسرين أن رسول الله ﷺ لما قـرأ على قريش ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨] امتـعضـوا من ذلك امتعاضا شديدا، فـقال عبد الله ابن الزِّبَعْرى: الشاعر قـبل إسلامه: يا محمد أخاصـة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم، فقال عليه السلام هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم. فقال ابن الزبعرى. خصـمتك ورب الكعبة، ألـست تزعم أن عيسى ابن مريـم نبى وتثنى عليه خيرا وعلى أمه وقد علمت أن النصارى يعـبدونهما، وعزير يعبد، والملائكة يعبدون، فإن كان هؤلاء فى النار فقـد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، ففرحوا وضحكوا وسكت النبى ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١] وإذا كـان كذلك فلماذا ضـربوا المثل بابن مـريم؟ وكان يمكن أن يضـرب بعـزير أو الملائكة؟ ولماذا قـالوا آلهـتنا خيـر أم هو؟ وكـان الأصل أن يقـولوا أم هم ليشـمل عـزيرا والملائكة وعيسى عـليه السلام؟ ويمكن أن يجاب عن هذا بأن عـيسى عليه السلام هو الأشهر والأكـرم والأعرف فاختاروه من بين المشبـهات بها، وقد استظهر ابن عطيـة وتبعه الطاهر ما روى عن ابن عبـاس من أن المشركين لما سمعوا من النبى ﷺ بيان أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم وليس خلقه من دون أب بأعـجب من خلق آدم مـن دون أب ولا أم قـالوا نحن أهدى من النصارى لأنهـم عبدوا آدمـيا ونحن عـبدنا الملائكة فنزل قـوله تعالى ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ وإذا صح هذا الوجه فليس فيـه ما يقتضى أن تضج قريش وتصـيح وتضحك وكل ما فى هذا الكلام أنهم يَرَوْن أنهم لما عـبدوا الملائكة وعبد النصارى المسـيح كانوا أهدى من النصارى لأن الملائكة أفضل من المسيح عنـدهم، ومعنى: ﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنى الملائكة خـير من المسيح.

ووجه ثالث وهو أن النبى ﷺ لما حكى أن النصارى عبدوا المسيح زعمت قريش أنه ﷺ يريد منهم أن يعبدوه كما عبد النصارى المسيح، وعليه يكون قولهم: ﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنى محمدا ﷺ وهذا أضعف هذه الوجوه، وجملة جواب الشرط: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ تفيد أن هذا المثل لما ضرب أثار صَخَب وجذل وفرح وتصايح قريش والأقرب إلى هذا الجواب أن يكون الشرط ما قاله ابن الزِّبعرى وكأنه لما قال رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم وسكت رسول الله ﷺ ظنت قريش أن ابن الزِّبعرى غلبت حجته، وأسكت محمدا ﷺ فكان الصخب وكان الجذل والمرح، وبناء الفعل للمجهول فى قوله: ﴿ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لأن معرفة الفاعل مما لا يتعلق به غرض الكلام ويستوى أن يكون ابن الزِّبعرى أو غيره، ثم إن إبهام المثل وترك البيان لبيان ما هو وكيف كان أيضا مما لا يتعلق به غرض الكلام ولو كان بيانه مَقْصُودًا لبينَتْهُ الآيات، وإنما المهم هو جواب الشرط الذى يصف صخب قريش ولجاجتها وجذلها وصدّها، وهم ذوو الأحلام وهم قومه عليه السلام، و،تُبيِّنُ الآيات أنهم كان منهم ما كان لا لحق ظهر فى جانبهم يؤيد موقفهم ولا لضعف كان فى موقف محمد صلوات الله وسلامه عليه يدعوهم إلى هذا الصياح وإنما كان ما كان خصومة ولجاجة ومماحكة لا غير، وأن تمكن الباطل منهم غَيَّبَ أحلامهم واستخفهم فصاحوا لما يعلمون أنه من محض الباطل. وهذا من المعانى التى أظهرتها الآية وكل ما أظهرته الآيات فهو من مقاصدها وكل ما أغمضته الآيات فليس من مقاصدها.

ولاحظ التقارب الشديد بين ما جاء فى قصة موسى من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ وبين قوله سبحانه هنا: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ومن معانى الصد الضحك والهزء،

ويصدون بكسر الصاد وقرئ بضمها واختلف فى معنى الصد على قراءة الضم فقالوا هو من المنع يعنى يصدون النـاس عن السبيل وهذا قليل. وقيل هو من الصد الذى هو الصخب والصياح والضـجيج وأن فعل صدَّ يعنى صَخِبَ يأتى مضارعه بكسـر العين وهو الأكثر ويأتى بضمهـا وهو قليل مثل يعكف بكسر الكاف وضمها.

وبناء جملة ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ فيهـا خصوصيـات تلفت إلى أنها موضع عناية؛ أولها مجىء إذا التى فيها معنى المفاجأة وأنهم ما إن سمعوا من ضرب ابن مـريم مثلاً حـتى انفجروا فى الضـجيج والصَّـخَب ثم إنهم ذكروا بلفظ ﴿قَوْمُكَ﴾ يعنى الذين أنت منهم وتقـوم لهم ويقومـون لك وهم ذوو الأحلام والذين وصـفوا فى الكتاب الـعزيز بأنهم ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وذكرت الزخرف قبل ذلك بآيات: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ هؤلاء الذين هم منك والذى نزلنا الكتـاب ذكرا لهم والذين هم يعلمـون يستخـفهم العناد واللجاجـة فى الباطل وشدة الرغـبة فى معانـدة الحق حتى يكون منهم الصـخب والضجيج لما سـمعـوا مثـلا هم أعلم ببطلانه والذى ضـربه أعلم ببطلانه وكل هذا البيان حقيقـة مهمة وهى أن الضلال إذا ركب الرؤوس غاب عنها الرشد، وغاب عنها الوقار، وأستحسن القول الذى يقول إن رسول الله ﷺ سكت لما سـمع ابن الزِّبعـرى تصونا لنفـسه ووقـارا، وبعـدا عن اللجاجـة، والمهاترة، لأنه لما سمع علم أن هذا لا يكون من أحلامـهم وإنما هى الخصومة واللدد لا غير، وهو من أعلم الناس بأحلام قومه صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله جل شأنه: ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ هذه الجملة تشـير إلى أن المثل الذى ضـربوا ابن مريم له كـان فيـه شىء من معنى الألوهيـة لأن هذه الجملة تحتـمل معنيين أن يكونوا أرادوا بآلهتهم الأصنام وأن عيـسى خير من الأصنام وأنه إذا كان عـيسى فى النار فلا ضـير أن تكون الأصنام فى النار، والمعنى الثـانى أن يكونوا أرادوا بآلهـتهـم الملائكة وكان بنو مـليح يعبـدون

للخيرات والحضارات أن يوازن بينه وهو الذى قال لهـذا الشعب ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص:٣٨] وله الملك وهذه الأنهار تجـرى من تحته إلى آخره، ثم يوازن بينه وبين الطفل الذى ألقى اليم تابوته فى الشاطئ وليس لهذا وجه إلا وجه واحـد وهو سر الله فى موسى عليه السـلام الذى اكتشفـه قومه وصغت قلوبهم إلى مـوسى عليه السلام، وأوشكت أن تستـدير عن فرعون، ومن إيـغال فـرعـون فى الكـذب قوله ﴿لا يكاد يبين﴾ لأن معـناها لا يبين ولا يكاد يعني لا يقارب وكأنه أبكم صلوات الله وسـلامه عليه ومما يدل على إفراط الرجـل فى الجور والتلبـيس والتدليس أنه وهو يوازن بينه وبيـن موسى عليه السلام ويطلب من قـومه أن يجيبوه عن سؤاله أنا خـير أم هو؟ ذكر أرفع صفاته وأعـلاها وهو ملكه لمصر والأنهار تجرى من تحته ثم فـتش عن ما يعاب به موسى عليه السـلام فلم يجد إلا الرتة التى شفاه الله منها فـذكَره بها وكل هذا من مـقاصـد السورة وأن الذين يحـادون الحق ويعارضـونه غيـر أمناء فى عرضـهم لحقـائق الأشياء وأنـهم كذبة يطمسـون محـاسن أعدائهم ويخـفون مسـاوئهم هم ويظهرون مـا يتوهمـونه من محـاسنهم ولا يزال هذا خلق أهل الحكم حـولى لم أسـمع كلمـة إنصـاف منهم فى حق من يعـارضـونهم وإنما أكاذيب كأكـاذيب فرعون. وإن كان فرعون لم يبطش بموسى ولم يقـمعه ولـم يجعله من المسجونين وإن كان هدّد بذلك ولكنه لم يفعل.

قوله جـل شأنه: ﴿فلولا أُلْقِي عليـه أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جـاءَ مَعَـهُ الْمَلائكَةُ مُقْتَرِنين﴾ هذه آخر جملة نادى بها فرعون قومه فى أعقاب هذا الحدث الجلل -الطوفان والجراد والقـمل. . . ومن الأسرار العجيبة فى هذا البـيان العزيز أن ما ذكر من قـصة موسى عليه السلام هنا جاء فى سـياق دحض قولهم ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وتأكيد مـا ترتب عليه من قوله جل شأنه ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ وأن موسى عليه السلام الذى ليس عظيما فى مصر هو الذى ظهر أمره وأن فرعـون الذى هو عظيم مصر وتجرى الأنهار من

بعض ما تجد حولك من بعض توجهات الحملات الإعلامية التى تقصد إلى شىء واحد تقبحه أو تحسنه لا غير ولا صلة لها بالحقيقة وكلمة ﴿ما ضربوه﴾ تُعيد فعل ضرب من البناء للمجهول إلى البناء للمعلوم وأن الفاعل المجهول هناك هم قومه عليه السلام وهذا ظاهر، وكلمة ﴿لك﴾ تعنى أنهم ضربوا ابن مريم مثلا لك وضربوه جدلاً لك وأنك أنت المقصود لأنهم يريدون الإيهام بأنهم ظهروا عليك بالحجة وضربوا لك مثلاً مما ذكرته أنت عن ابن مريم، وهذا تشويش وتدليس وطلب للظفر والفلج بالباطل، والصخب والضجيج. وكل هذا يؤكد أن إغماض المثل كان من أهم مقاصد الآيات، وأنه لا يراد أن ينصرف القارئ إلى دراسة المثل. لأنه لا قيمة للبحث عن صوابه، أو خطئه، وإنما المهم أن ينصرف القارئ إلى هذه الجملة التى هى محور هذا المعنى وأنهم لم يضربوا مثلاً إلا للجدل واللجاجة.

وقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ جملة سخية جدا وأول ما فيها كلمة ﴿بل﴾ التى تفيد الإضراب الانتقالى وهذا الإضراب الانتقالى من محض معنى الآية لأنه يعنى الانتقال من بيان حقيقة جزئية وعمل جزئى مارسوه وهو أنهم لم يضربوا لك المثل إلا جدلاً إلى بيان حقيقة كلية وهى بيان جبلة هؤلاء الذين هم قومك وأنهم قوم خصمون وهذه حقيقتهم وراجع كلمات ﴿هُمْ﴾ وهو ضمير يعود على فاعل ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً﴾ ثم كلمة ﴿قومٌ﴾ ولابد أن تعود بها إلى أختها فى ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ وأن تعود بهما معا إلى جَذْمهما فى قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ ولو قلت بل هم خصمون وحذفت كلمة قوم لم يذهب معها شطر المعنى فقط وإنما يذهب معها جوهر المعنى. وأجد فى كلمة قوم فى الكتاب العزيز دلالات أعمق وأوسع من معناها المتبادر ومن هذا المعنى الأعمق والأوسع فى هذه الجملة أن

هذه الكلمة تفيد أنهم موغلون فى هذه الصفة وعريقون فيها وأنها نشأت معهم، ورافقتهم فى تاريخهم البعيد، والخصمون جمع خصم وهو من صيغ المبالغة يعنى القادر على الجدال والمغالبة فى مواقف الخصومة وهو خصم ألَدّ، وهذه الجملة كما قلت أصل للجملة التى قبلها يعنى ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً﴾ لأن الجدل هو شأنهم وقد طبعوا عليه وجبلوا عليه وهم قوم يعنى قاموا على ذلك ونشأوا عليه وتساندوا وتظاهروا عليه وقام فيه وبه بعضهم لبعض.

وهذه الجملة والتى قبلها تؤكدان أن القوم لم يعتمدوا فى ضربهم ابن مريم مثلاً على شىء يعتمد عليه وإذا كانت آية الأنبياء: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] هى التى اعتمد عليها ابن الزِّبعرى كما استظهر أكثر المفسرين فإن هذه الآية لا تدل على أن عيسى والملائكة وعزير فى النار وذلك لأن كلمة (ما) فى قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ لا تدل على العقلاء وعلى فرض أنها تدل عليهم فإنها لا تدل على الشمول والاستقصاء بدليل أنها تأتى معها كلمة كل وكلمة بعض فيقال مثلاً: إنكم وكل ما تعبدون أو إنكم وبعض ما تعبدون ولو كانت دالة على الشمول والاستقصاء ما جاءت معها كلمتا كل وبعض. هذا شىء وشىء آخر وهو أنها على فرض أنها تشمل العقلاء وتشمل الكل فإن الآيات التى تتحدث عن مكانة عيسى عند ربه ومكانة عزير ومكانة الملائكة لا تخفى على ابن الزِّبعرى ولا على قريش وأنها لا تدخل فى آية الأنبياء وأن العموم الذى فيها على فرض التسليم به تخصصه آيات أخرى، وكل هذا يؤكد أن ابن الزِّبعرى خاصم وحاج وجادل ولج وهو يعلم أنه على باطل وأن قومه عليه السلام الذين هم قريش وهم أرجح العرب أحلاما صخبوا وصاحوا وهم يعلمون أن كل ذلك باطل. وإنما هو الجدل لا غير من قوم طبعوا على هذا الجدل، وأخرج عن

السياق قليــلاً لأقول إن وصف القرآن لقريش بأنهم قوم خــصمون وأنهم أهل جدل غاب عن كثير من كتابنا الـكلفين بإضافة ما عندنا إلى اليونان حتى إنهم إذا رأوا كلمة الجدال أو الاحتــجاج في كتابة عالم اعتــبروها شاهدا على تأثره باليونان حتى إننى رأيت كاتبا يقف عند كلمة الحجـة والاحتجاج ويستشهد بها على أن العالم الذى ذكرها مــتأثر باليونان، وهذا مما كان لا يجــوز أن أنبه إليه لفرط جهالته، ولكن شيوعه في الكتب يغفر لنا هذا التنبيه، وأعود إلى الآيات لأقول إن جملة ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ أنهت جزءًا من هذا المعنى وهو ضرب ابن مريم مثلاً وما تبعه مع ملاحظة أن ما سيأتى بعده فيه بعض الإشارات التى تُضيءُ منه جوانب، وكنت أهتم أول حديثى عن الآيات ببيــان علاقتها بالكلام قبلها وقد أرجأت هذا فى هذه الآيات حتى أبين ما فيها بقدر ما يتاح، وقد نبه الرازى إلى أنها أغمــضت المثل كما قلت، وقال الطاهر إنهــا أخفى آى القرآن معنى مرادا، ولا شك أنــها مما يحتاج إلى أن يسأل عن مــعناه، ولا تفهم من أول وهلة كما قال علماؤنا فى أبيات المعاني، ولله المثل الأعلى.

والواو التى فى قوله: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾ تعطف معنى على معنى المعنى المعطوف عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ وذكر عيــسى بعد موسى عليهــما السلام ذكر مألوف فى الكتــاب وتلبيس ابن الزِّبعرى وضرب ابن مريم مثلاً من غير أن تكون هناك حقيقة يعتمد عليها فى هذا المثل ليس بعيدا عن تلبيس فرعون وإنما هو منه مع فارق واحد هو أن ابن الزِّبعرى يحاول أن يلبس باطله شــيئًا من المنطق بينما كان باطل فــرعون عاريًا من مثل هذا الوهم.

وصخب قــريش لما استخفــهم ابن الزِّبعرى وأطاعوه ليس بــعيدًا عــن ما كان من قوم فرعون لما استخفهم فأطاعوه وأكثر من هذا تجد تقاربًا فى بناء المعانى فــقول فــرعون ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ قريب جــداً من

قولهم: ﴿ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ ولا يجوز أن نهمل النظر فى مثل هذا التصاقب فى بناء الكلام ثم إنك لو راجعت قـوله سبحانه فى آخر حكـاية موسى عليه السلام: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ وأول حكاية عيسـى عليه السلام ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ فستجد أن كلمة المثل عروة ممسكة بالكلامين هذا من آخـره وهذا من أوله، وكل هذا يدعونا إلى القـول بأن آيات ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ امتداد لآيات، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ التى هى امتداد خارج من قلب ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ وهكذا تراجع الكلام فنجـد بعـضه من بعض وكـأن السـورة جسـد واحد تمتـد منه أعضاؤه التى تخـتلف ويجمعهـا أصل واحد ويجرى فيـها دم واحد، وتنبت خلاياها بعضها من بعض

قوله جل شأنه: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ هذه الآية بداية الحديث عن حقيقة عيسى عليه السلام بعدما فرغت الآيات السابقة من بيـان فساد ضرب قريش له عليه السلام مـثلاً، وبداية الحديث عن عيسى ببيان أنه عبد وليس إلا عبدًا تأكيد لنفى الألوهية، وأن يكون له منها شيء لأنه كله من رأسـه إلى قدمه عبد، وليـس إلا عبدا، وهذا يدل على أن المثل الذى ضربوه له عليه السلام كـان فيه تأليه له، وأنهم حَدَّثُوا عنه من جهة أن له من الألوهية شيئًا ويستوى فى ذلك أن يكونوا قالوا هو إله وخـير من آلهـتنا التى هى الأصنام أو آلهتنا خـير منه إذا كـانوا أرادوا الملائكة، وهذا يعنى أن هذه الآية تضىء قدرا من غموض ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ ثم إن الآية الكريمة لما قـصرته على العبودية، والعـبودية لله تشريف، ليس بعده تشريف، أردفت جملة أخـرى فيها تشريف زائد على مجـرد العبـودية وهى قوله تعـالى: ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ وهذه جملة عـامة وشاملـة، وأعظم النعم هى النبوة والآيات المصـاحبـة لها فـقد كان عـليه

السلام يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله، وأنعم الله عليه فجعل ولادته أمرا خارقًا فولد عليه السلام من غير أب، وكان أشبه أبناء آدم بأبيه وإنعام الله على عباده مطلب عزيز أمرنا بالدعاء به فى كل ركعة فى صلاتنا، لأننا أمرنا به فى أم الكتاب وقد انعقدت أم الكتاب على هذا الدعاء: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] وقد جاء إنعام الله وصفا للأنبياء والصديقين والشهداء: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] وكل هذا وغيره يدل على مكانة عيسى عند ربه وأنه عبد خالص العبودية لله وكان صلوات الله وسلامه عليه من أكرم من تمثلت فيهم العبودية فكان من أكثر الناس إخلاصًا وخشوعًا وخشية ومهابة وحلمًا وصدقًا وأناة صلوات الله وسلامه عليه.

والجملة الثانية المعطوفة على هذه الجملة هى قوله تعالى. ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وأول ما يلاحظ أن ما أكرم الله به عيسى مسند إلى ضمير العظمة وأن الله سبحانه هو الذى أنعم بذاته وهو الذى جعله مثلها بذاته وهذا ضرب من الإكرام ليس بعده إكرام. وقد قال المفسرون إن معنى قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً﴾ أى جعلنا ولادته من غير أب أمرًا معجزًا يسير فى الناس مسير المثل، أو جعلناه عبرة عجيبة من جهة ولادته ليستيقن بنو إسرائيل بنبوته، وقد كان طال بهم الزمن وتراخت الأيام بينهم وبين موسى عليه السلام، فضعف إيمانهم، واختلفت عقائدهم، فأرسل الله إليهم عيسى ليجدِّدَ لهم دينهم وليدعوهم إلى الذى فى التوراة بعدما انحرفوا عنه، ولو قلت إن ولادته من غير أب وجعله مثلاً من هذه الزاوية داخل فى قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ لأنها كلمة شاملة وقد فسرها كثير من العلماء بالنبوة

والآيات والولادة من غيـر أب فإذا صرفنا ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً﴾ إليها لنأكد ذلك يعنى عكّر عليه العطف الذى يقـتضى المغايرة، ولو قلت إنها توكـيد لقيل إن حمل الكلام على التأسيس أفضل من حـمله على التوكيد ما دام ذلك ممكنا، وأن التأسيس الذى يمكن حمل الجملة عليه هو أن الله جعله مثلاً يحتذيه بنو إسرائيل، وقـدوة لهم يقتـدون بها، كـما يكون لنا فى رسـول الله ﷺ أسوة حسنة، فالمثل هو المثال الـمُحتـذَى والـمُقْتَدَى به وهو الأسوة الحسنة، ويكون ترتيب معانى الجـمل الثلاثة على هذا الوجه الأولى أنه عَبْدٌ لا غيـر، والثانية أنه أنعْم الله عليه كإنعامه على المصطفين الأخـيار من خلقه، والثالثة أنه أسوة حسنة ومثال يحتذى فى بنى إسرائيل من حيث فهمه للتوراة وبيانه لما اختلفوا فيـه، وتجديد مـا جاء به موسى عليـه السلام، ولا يمكن أن تدفع عـن كلمة المثل فى هذه الجـملة الإشارة إلى المثـل الذى افتـتحت به آيات عـيسى عليـه السلام فى السورة فـى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ وأنه إذا كان المثل هناك فى مقام التشويه والتشويش والاستـدلال للكفر وإقامة الحجة لعبادة الأصنام، أو عبادة الملائكة، فـإن عيسى عليه السـلام الذى ضربه قومك لك مَثَـلَ ولكن من نوع آخر هومـثل لصفـاء الإيمان، وتجـديد الإيمـان، ورشد السلوك، ومكارم الأخلاق صلوات اللـه وسلامه عليه، وكـأن جملة ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ تعود لتمسح عن عـيسى عليه السلام وتزيل العلائق الوثنية التى جـاءت فى ضربهم له مثلاً صلوات الله وسـلامه عليهم، وقد استـخـرج علماؤنا من قولـه تعالى: ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أن عيـسى عليه السلام لم يرسل إلا إليهم ولم يطالب أحدًا بالإيمان برسالته إلا بنى إسرائيل، وأن الذين دخلوا فى المسيحية من غير بنى إسرائيل إنما كانوا فارين من ظلمات الشرك والوثنية والقـهر، وأنه عليه السلام كما جاء فـى الإنجيل كان يقول إنما بُعثت لخراف بنى إسرائيل.

قوله جل شأنه: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ مفعول فعل المشيئة محذوف والأصل لو نشاء أن نجعل منكم ملائكة في الأرض يخلفون لجعلنا، وكلمة ﴿مِنكُم﴾ جعلت الكلام يحتمل معنيين لو نشاء لجعلنا بدلكم ملائكة في الأرض يخلفونكم ومنكم بمعنى بدلكم كما في قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨] أي بدل الآخرة وكما في قول الشاعر:

«ولم تَذُقْ من البُقُول الفُسْتُقَا»

أي بدل البقول ذكره الشهاب الخفاجي

والمعنى الثاني لجعلنا منكم يعني من أصلابكم ملائكة وبدل أن تستولدوا نساءكم أناسي منكم تستولدوهن ملائكة لأن الله قادر على كل شيء، ومعنى يخلفونكم يكونون خلفًا لكم، وهذه الآية معطوفة على الجملة المستأنفة ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ لأن هذه الجملة المستأنفة كانت مقطعًا جديدا من البيان تعقيبا على ما كان من ضربهم ابن مريم مثلاً، وإذا كانت جملة: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ﴾ دارت حول بشرية عيسى عليه السلام ومكانته العظيمة عند ربه، وأن الله جعله مثلا لبني إسرائيل؛ فإن هذه الجملة تدور حول أن الملائكة خلق من خلقه، وأن سكناهم في السماء حيث الملأ الأعلى والعرش لا يمنحهم شيئًا من مقام الألوهية، وأنه لو شاء أسكنهم في الأرض. وجعلهم بدلكم، ولو شاء لاستخرجهم منكم، وأنه خلق عيسى من غير أب كذلك يخلق الملائكة من أبوين ليسوا من الملائكة، وكما أنه لا وجه لمن عبد عيسى كذلك لا وجه لمن عبدوا الملائكة.

ومادام هذا جاء في سياق ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ فلابد أن يكون موصولاً بمعناه وأن ضرب ابن مريم مثلاً كان يتضمن شيئًا من وصفه بالألوهية، وشيئًا من وصف الملائكة بالألوهية، وأن قولهم. ﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعني آلهتهم من الملائكة أو آلهتهم التي منها الملائكة؛ وأنهم لما عبدوا

الملائكة كانوا خيرا من النصارى الذين عبدوا المسيح، وأن المعنى لم يكن محصورًا فى أنه لو كان المسيح وكانت الملائكة في النار لرضينا أن نكون وآلهتنا فى النار، وإنما فى الكلام شيء من معنى المفاضلة بين الآلهة المعبودة، وأنهم قارنوا بين عبادتهم الملائكة وعبادة غيرهم للمسيح، وهذا هو وجه ما جاء في الكلام المستأنف من التأكيد على بشرية عيسى وأن الملائكة عباده المكرمون، يعنى التأكيد على عبودية عيسى والملائكة، والفعل المضارع الواقع شرطًا لكلمة «ولو» ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا﴾ يعنى أن زمن هذه المشيئة ممتد إلى المستقبل الذى لا نهاية له، لأن مشيئة الله وقدرتَه وإنفاذَه أمرَه فى خلقه باب مفتوح إلى الأبد، ولاحظ استمرار إسناد الأفعال العظيمة التى لا تكون إلا من الحى القادر إلى ضمير العظمة، لتأكيد معنى الألوهية والتفرد بها، وأنكم تخطئون حين تشركون به ومعه خلقا من خلقه، وإن كانوا من خلقه المكرَّمين كعيسى الذى أنعمنا عليه والملائكة الذين جعلناهم فى الملأ الأعلى.

ثم لاحظ مع تكرار ضمير العظمة تكرار الفعل جعل فى موقعين كل منهما أصل المعنى الذى ورد فيه، جعل فى قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وقوله: ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ فالفعل واحد صادر عن قدرة واحدة، ولقادر واحد ثم هو فعل فى خلقه، فعل فى المسيح جعله مثلاً لبنى إسرائيل. وفعل فيكم يجعل منكم ملائكة وهذه من الآيات التى تصدر عن عز الربوبية كما يقول الباقلانى، وقوله: ﴿يَخْلُفُونَ﴾ فعل مضارع يعنى يخلفونكم فى الأرض ونجرى عليهم ما أجريناه عليكم فيكونون أجيالاً تخلف أجيالاً وتخلو الأرض منكم، مثل ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر ١٦].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦١].

الواو التى فى أول هذه الآية تعطفها على آية: ﴿إنْ هُوَ إلاَّ عَبْدٌ﴾لأنها داخلة فى حيز المعـانى المستأنفة التى جاءت تعـقيبًا على ضربهم ابن مـريم مثلاً لنفى الشُّبه التى أثارها مَثَلُهم وبيـان حقيقة عيسى عليه السـلام وقد عاد الكلام بهذه الآية إلى عيـسى عليه السـلام بعدما دخلت جـملة خاصة بالمـلائكة فى جمل الحديث عنه، ومـعنى هذا أن دخول الملائكة فى أصل المثـل الذى ضربوه لابن مريم والذى جـاء هذا الكلام لبيـان فساده لم يكن شـأن الملائكة فى هذا المثل كشـأن عيسى وإنما الشـأن الأكبر كان لعـيسى ودخلت الملائكة فرعًـا أو جزءًا محـدودًا فى المثل وأن الأصل لم يكن عبـادة بنى مُليح للملائكـة لأنهم كانوا قليلاً جداً وإنما الأصل هو عـبادة النصارى للمسيح، هذا فى سيـاق ومقام آية ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾، أما سياق ومـقام السورة فقد كانت فـيه حفاوة شديدة بإبطال عبادتهم للملائكة وعدَّت الآيات من كفرهم قولهم الملائكة بنات الله وعبادتهم للـملائكة وقولهم ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾، لأن الشبهة فى عـبادة الملائكة عند أهـل الباطل أقـوى من الشبـهـة فى عبـادة الأحجـار المنحوتة، والأخشـاب المنجورة، وكلمة (علم) فى قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ المراد بها أنه علامة، من علامات الساعة وشرط من أشراطها، فسميت العلامة علما لتـأكيد مـعنى العلامـة، حتى إنها هى العلم وبـعض المفسرين يرجـعون بالضمير إلى القرآن أو إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه ويقولون إن الخاتم هو علم الساعـة لأنه إذا كان لا نبى بعده آذن ذلك بالساعـة، وإن القرآن عَلَم الساعة لأنه حـدَّث عنها وعن أشراطها، والسياق يرجح أن يكون الضـمير فى قوله: ﴿وَإِنَّهُ﴾ لعـيسى عليـه السلام لأن الحـديث عنه، والأهم من هذا هو البحث عن مناسبة ذكر أنه علم للساعة والكلام فى ضرب ابن مريم مثلاً، ولم أجد فى كلام الذين يؤخذ عنهم العلم ما يجـيب عن هذا فراجعت واجتهدت وأنا أعلم أن الاجتـهاد فى هذا الباب محـفوف بخطر لأنه اجتهـاد فى البحث

عن المراد، والكلام كلام الله والمراد هو مراد الحق والويل كل الويل لمن استخرج من كلام الحق مرادًا غير مراده، وكان هذا يقتضى ألا أكتب إلا ما أجده فى كلام العلماء ولو فعلت لكان كلامى تحصيلاً للحاصل وهذا يعنى أن يتوقف النظر والاستنباط والتفكر والتدبر فى كلام الله وهذا محذور آخر أهول من الأول فلم يكن أمامى إلا أن أجتهد ولا أقصر ثم أكتب بعد الاجتهاد وبعد المراجعة ثم أنبه القارئ إلى الذى لم أعتمد فيه على كلام الأئمة ليراجعه ويأخذ منه ما استقام ويدع منه ما داخله الخلل. والله هو الذى يعلم ما فى الصدور، وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، وكان الذى انتهى إليه النظر فى مناسبة القول بأن عيسى علم الساعة هو الإشارة الواضحة إلى قومه ﷺ وغير قومه ممن يجادلون فى آيات الله ويمارون فيها وهم يعلمون أنهم يجادلون ويمارون قلتُ الإشارة إلى أن سبب لجاجتكم وجدالكم وباطلكم هو أنكم تمارون فى الساعة وتمارون أنكم ستحاسبون وتسألون عن لجاجتكم وجدالكم، وأن من ضربوا ابن مريم مثلاً يعلمون أنهم ما ضربوه لك إلا جدلاً، والذين صخبوا وصدوا وتصايحوا وأوهموا أنهم أسكتوك بالحجة يعلمون أنهم ما فعلوا ذلك إلا جدلاً وملاحاة ومماحكة ولجاجة، وأن الذى أغراهم بهذا الباطل هو شكهم فى الساعة، فجاء قوله سبحانه: ﴿ **وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ** ﴾ لينبههم إلى ما يجب أن ينتبهوا إليه حتى يكفوا عن هذه اللجاجة لأنهم سيبعثون ويحاسبون ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] وسيجدون ما عملوا حاضرا بين يدى الله، ومن استقام فى نفسه هذا الحق الذى لا شبهه فيه استقام أمره، واتبع أمر ربه، واهتدى بما أنزله الله من الهدى، وكف عن الذى أنتم فيه، ثم إن ذكر الساعة جاء هنا بعد ذكر برهانه الذى لا يدفعه عاقل وهو أنه سبحانه خلق عيسى من غير أب وأنعم عليه بالآيات والنبوة وجعله نبيّاً مرسلاً إلى بنى إسرائيل كما خلقكم وبعث فيكم محمدا ﷺ وأنعم عليه، وجعله مثلاً لكم، ثم إن هذه السنن الكونية فى

الخلق والإيجاد والتى لا تملكون منهـا شيئًا هى بيده سبـحانه وهو القادر على خرقهـا فلو شاء لجعل منكم ملائكة فى الأرض يخلفـون، ومن كان هذا شأنه كان قادرًا على بعثكم ونشركم وحشركم وحسابكم، ثم. إمَّا إلى جنة أو نار، ودليل آخـر لا تخطئون فـهمـه وهو أن هذا الذى يحـدثكم به ربكم أودع فى حديثـه لكم آيته، وهى معجزكم عن أن تأتوا بمثل هذا الحـديث فعـيسى علم الساعة لأن العبارة التى أخبرت بهذا فـيها برهان ألوهيتها، والنهى عن الامتراء فيها فـيه برهان الألوهية، والأمر بالاتباع فيـه برهان الألوهية، ومن كانت بين يديه كل هذه الأدلة القـاطعـة والقـاهرة فلا يجـوز له أن يعـدل عن الحق إلى المماراة واللجاجة والجدال، واللدد، وبهـذا وغيره هاجمت هذه الآيات أباطيل قومه ﷺ فلما فتح الله أقفال قلوبهم كـانوا كالنجوم بأيهم اهتديتم اقتديتم إلا من سبق عليه القول منهم، هذا والله أعلم.

وقوله جـل شأنه: ﴿فَـلا تَمْـتَـرُنَّ بِهـا﴾ مرتب علـى قوله: ﴿وإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ وراجع التوكيد الذى فى هذه الجملـة وأوله كلمة إنَّ، والتوكيد من الحق له مقـام آخر والمعنى الذى هو موضع عناية من الذى يُمسـك السموات والأرض أن تزولا، يجب أن يراجع وأن يراجع ما تحته من رحـمة يهتدى بها من يهتـدى، وما وراءه أيضًا من غـضب يحيق بمن رفض أن ينقـاد، ثم نجد توكيدا آخـر فى وضع العلم مكان علامة العلم، كـما مرَّ، واستـحضار هذا يضفى مذاقًا خاصاً بقوله: ﴿فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ لأن الساعة التى أخبر عنها ربنا هذا الخبر لا يجوز لصـاحب عقل أن يمارى فيها، ثم إن الجملة الثانـية فيها نَهْىٌ مؤكد بنون التوكـيد الثقيلة وفيها استعـمال كلمة تمترن بمعنى النهى عن الشك فيها، وفيها استعمال كلمة بها وكان يمكن أن يقال فلا تمترن فيها، كل هذا جيد وإدراكـه ليس فيه صعـوبة لأنها لغة تحت أبصارنا وأسـماعنا وتحت لساننا والأجود هو أن نفكر فى المراد من كل ذلك والتحذير الذى اقتضى هذا النهى وهذا التـوكيـد وأيضًا الـغضب الذى وراء من سـمع هذا ولم يجب،

والرضا الذى وراء من سمع هذا وقال سمعنا وأطعنا، وإنما جاء فعل تمترن مكان الشك لأن الآية موصولة وصلاً أكيدا بما قالوه لك إلا جدلاً، وأنهم قوم خصمون لأن المراء من معانيه الشك، ومن معانيه المماراة، والمجادلة بالباطل. والمماحلة فكان هذا ربطا ينبه ويعين على ما استخرجناه من أن أصل اللجاجة والمماراة التى هم فيها هى أنهم يمارون فى الساعة، ثم إن كلمة بها، وأنه سبحانه لم يقل فلا تمارنّ فيها لأن كلمة بها تزيد كلمة المماراة بمعنى الشك قربًا من المماراة بمعنى المجادلة وكأنه قال فلا تجادلوا بها وتنصبوها طريقًا للملاحاة واللدد والخصومة.

وعجيب جداً أن تأتى كلمة: ﴿وَاتَّبِعونِ﴾ بعد تأكيد أن عيسى علم للساعة وتأكيد النهى عن الشك والمماراة فيها، وكأن هذا الذى سبق علة موجبة للاتباع وأنه مادامت الساعة قائمة وأن عيسى علم لها فليس هناك من سبيل للنجاة إلا الاتباع؛ ولاحظ مجىء الأمر بعد النهى وأن النهى عن الشك فى الساعة موجب للانقياد والاتباع، ثم لاحظ أن الذى يقول: ﴿اتَّبِعُونِ﴾ هو الذى كل الأمر فى يده، وهو الذى خلقكم، وصوركم فأحسن صوركم، ورزقكم من الطيبات وأن تعدوا نعمته لا تحصوها، وهو الذى يُتَّقى غضبه ويُبتغى رضاه، وهو الذى يرحم من سمع فأطاع، ويعاقب من سمع فعصى. ثم لا تدع كلمة ﴿اتَّبِعُونِ﴾ من غير أن تستخرج منها جوهر الدين، وأنه اتباع، وأن من ابتدع فيه ما ليس منه فهو ردٌّ ثم انتقل من هذا إلى الجملة التى بعدها وتأمل ما فيها من ضياء يكشف الطريق الذى ليس فيه عوج، وراجع اسم الإشارة فى قوله: ﴿هَذَا صِراطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ وكيف صيرت الإشارة المعانى التى مضت كأنها حقائق صارت من شدَّة بيانها وقوة وضوحها كأنها تراها العيون كما ترى الشمس ليس بينك وبينها حجاب، ثم تأمل مجىء هذه الجملة، على القطع والاستئناف وكأن الذى مضى أغرى بها واستشرفت النفوس التى

تحسن التلقى عن خالقها ورازقها إلى معرفة الطريق الذى يدعونا ربنا إليه من فوق سبع سموات ويأمرنا باتباعه ثم راجع التعبير عن الدين بالصراط المستقيم لأن هذا من الاستعارة التى جعلت وضوح معالم الدين وأمره ونهيه كأنها طريق مستقيم ثم تأمل بناء أم الكتاب على طلب الهداية إلى الصراط المستقيم وأنه صراط الذين أنعم الله عليهم وأنه صراط ربك مستقيمًا ولماذا كثر هذا التعبير فى القرآن الكريم وأنه لا غموض. ولا التواء، ولا كهنوت، ولا أسرار وأن من اتبع فهو آمن كالذى يمضى على صراط مستقيم لا عوج فيه وأنه موصل إلى الغاية وأن سالكه لا يضل وغير ذلك مما تراه فى كلمتى الصراط المستقيم ثم راجع شيئًا هو أشبه بالإعجاز وهو أن هذا الذى تراه العيون صراطًا مستقيمًا لا يقع فيه تحريف ولا تبديل ولا ضلال وأن المؤلين والمحرِّفين فى كل زمان وفى زماننا خصوصًا لن يصلوا إلى رغائبهم فى طمس حقائقه وتحريف أمره ونهيه وأن ما أصاب اليهودية والنصرانية من التحريف والتغيير والإفساد الذى وصل إلى أصول الدين وهو التوحيد فقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت اليهود عزير ابن الله أقول كل هذا لم ولن يكون منه شىء فى هذا الصراط المستقيم لأنه صراط مسقيم وكل محاولة للتحريف والتبديل والتغيير فيه فلن تبوء إلا بالفشل لأنه غير قابل لهذا وكما أن آياته بسقها ونظامها لا يمكن أن تندس فيها جملة ليست منها كذلك هذا الدين بمجموعة أوامره ونواهيه ونسقها ونظامها والتئامها مع الفطرة لا يمكن لذوى الأهواء أن يغيروا شيئًا منها وقد مضى من الزمان ما مضى وهو كما هو وكما أنزله الله على نبيه صلوات الله وسلامه عليه هو فينا اليوم كيوم أن نزل.

قوله سبحانه: ﴿وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ مجىء هذه الآية بعد قوله: ﴿وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لتأكيد معنى أنه صراط مستقيم وأنه

لا يصد عقل عنه ولا يصد بحث عنـه ولا يصد نظر عنه ولا يصد عنه إلا عدو بين فى عداوته، وكلمة ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ لها قيـمة كبيرة هنـا لأن المسألة ليست شيطنة شيطان يصد عن الحـق ويضل عنه وإنما هى عداوة وعدوك لا يصدك إلا عن الذى فيـه خير لك، لا يعـمد عدوّك إلا إلى هدم مـا به قوامك والذى به قوام من آمن بحق هو هذا الحـق فالعقيـدة وتوابعها قـوام الفرد وقوام المجـتمع والعدو المبين لا يعمد إلى شىء كما يعمد إليها، وأفهم من كلمة ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ليس فقط أنه بين فى عداوته لأن هذه دلالة اللفظ وإنما أفـهم منها ما وراء هذه العداوة المبينة من هدف أن هذا الصراط المسـتقيم الذى هو اتباع رب العالمين هو الأنفس والأعلى وهو الذى به تـزدهر حيـاة كل المسلمـين وأن هدمـه هو هدم الكيان وهدم الموارد وهدم الثروات لأنه هو الذى وراء الانتـفاع بكل ذلك بأمانة وإتقـان وصدق وإخـلاص وإذا دمرت جـملة المعـانى التى فى النفـوس والتى يغـرسها فـيهـا هذا الدين فلم يبق على الأرض شىء إلا دمّـرته لأن الذى فى داخل النفوس هو الأداة التى بها يسـتثمر كل خيـر، حتى الأمم التى ليس لها دين تحاول أن تغرس فى النفوس بديلاً لهذا الدين يكون محركا لها وباعثًا لها، وقد تنجح نجاحًا ما فى وجود عقيـدة يجتمع الناس حولها ولكن يبقى الصراط المستقيم غائبًا عنـها لأنه هو مع اشتماله للعقيدة الصحيحـة القويمة يشمل أيضًا السلوك الذى تحـدده الأوامـر والنواهى والـذى لابد أن يتـأسس على الصـدق والإخلاص وطهـارة النفس وما يشبه ذلك مما لا بديل له فى شـرائع الإنسان، ومن المفـيد أن تراجع النهى المؤكـد بنون التوكـيد الثقـيلة في قوله تـعالى: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ وما وراء هذا التـوكيـد من شدة التحـذير لأن الله سبحانه يعلم خفى مداخل الشيطان إلى نفوسكم ويعلم كثرة حيله ويعلم قدراته فى النفوذ إلى نفوسكم والله سبحانه وتعـالى حين ينبئنا من خلال هذا التوكيد أنه يبلغ بنا العذر رحمة منه ورأفة حتى لا يـنفذ إليها هذا العدو المبين فنقع فى غضب الله وعقابه الأليم، ثم تراجع أيضًـا مرة ثانية هذا الحذو بين بناء الكلام

مع النهى والتوكيد فى قوله فى الآية السابقة ﴿فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ ونضع النهى عن الشك الموجب لليقين بجانب النهى عن الإعراض الموجب للعذاب ونتدبر إلى أي مدى تحرص الآيات على بيان الصراط المستقيم وبيان المخاوف والمحاذير التى يجب أن تحذروها حتى لا تتفرق بكم السبل عن سبيله وما وراء كل ذلك من رفق بعباده سبحانه وأنه جل شأنه يريد أن يبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ولا يهلك على الله إلا هالك. ثم لابد من مراجعة إيثار كلمة الصد وأنه سبحانه لم يقل ولا يضلنكم الشيطان مثلاً، ولا شك أن كلمة الصد فيها معنى ليس فى كلمة يضل لأن الذى ضلّ سار على غير هدى وهو يظن أنه مُهْتدٍ أما الذى صُدّ فقد قصد إلى الطريق المستقيم وجمع عزمه عليه وقصد إليه ثم وجد قوة عاتية تَصُدُّهُ صَداً وتمنعه منعًا، والصَّدُّ من أسماء الجبل الذى يصد ونجد هذا المعنى يظهر فى مثل قوله تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥]، وهذا تحذير من عمل شيطانى آخر متجه إلى من صحت عزائمهم فى القصد إلى صراط الله المستقيم، وهذا بخلاف العمل الشيطانى المتمثل فى مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩] هؤلاء اتخذوا الشيطان وليا ولم يقصدوا إلى صراط الله المستقيم وبالتالى لم يُصَدُّوا عنه؛ والذين صُدُّوا قصدوا واحتشدوا فاحتشد لهم الشيطان بكل ما أوتى من قدرة على الصد، ومن هنا يأتى معنى توكيد النهى لأن الانتصار على هذه الخطوة الشيطانية محتاج إلى شد عزم حتى يَصُدَّ المؤمن هذا الصدَّ ويرد هذا الرد. هذا والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ

هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ قوله: ولما جاء عيسى بالبينات أخت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ فعطفت عليها، لأن النظير يعطف على نظيره، ويرد إليه، والمناسبة الجامعة بين المعطوف والمعطوف عليه ظاهرة فكلاهما نبى الله ورسوله، وكلاهما مرسل إلى بنى إسرائيل، وكلاهما من ولد يعقوب عليه السلام، لأن مريم التى ينسب إليها عيسى من أكرم أعراق بنى إسرائيل. وقد كفلها زكريا وكان داعيًا للدين، وقال: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥، ٦] أراد رعاية الدين وكان من المناسب أن أنبه إلى تشريف عيسى عليه السلام حين يذكره القرآن منسوبًا إلى أمه فى مثل قوله تعالى. ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ لأن لمريم هذه من المناقب ما لا يقادر قدره فهى ﴿ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم. ١٢] وعمران هذا من الذين اصطفاهم ربنا فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] وأم مريم هى التى قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥] ومريم هذه هى التى قالت لها الملائكة: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] وليس بعد هذا تشريف.

والذى أريده هنا هو أولاً لماذا تأخر هذا القسم الذى هو بداية الحديث عن عيسى عليه السلام ولم يأت فى أول الحديث عنه كما جاء الحديث عن إرسال موسى عليه السلام في أول الحديث عنه؟ وأمر آخر أريد بيانه وهو ما مناسبة هذا القسم من قصة عيسى للسورة؟ وبيان هذا هو ما عقدت عليه هذه الدراسة لأن الكشف عن الجنسية الجامعة لمعانى السورة هو غايتها الذى تنتقل منه إلى الكشف عن الجنسية الجامعة لمعاني القصيدة والرسالة وإنما بدأت

بالسورة لأنها النمط الأعلى والباب الأعظم والذى لا ترى حقائق البيان تظهر فى شىء كظهورها فيها.

وأقول والله المستعان إن الذى مضى من أول قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ يعده الشيخ الطاهر توطئة لهذا الجزء وهذا وإن صح فليس فيه ما يشفى الغليل ويَبْرُد به اليقين. والذى نراه هو أن ضرب ابن مريم مثلاً امتداد لما ذكر من قصة موسى عليه السلام وأنها لما ختمت بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ جاء بعدها ولما ضرب ابن مريم مثلا، ليحذرهم من الوقوع فى مثل وقع فيه فرعون لما استخف قومه فأطاعوه لا لأنهم اقتنعوا بما قال وإنما لأنهم قوم فاسقون يعنى تأصل فيهم الكفر وتمكن فجعلهم يميلون إلى جهته ولو لم يقتنعوا بها، وأن هذه الحالة هى بعينها التى وقعت فيها قريش لما صدوا وصاحوا وصخبوا ولجوا لا لأنهم رأوا حقّاً مازه لهم ضرب ابن مريم مثلاً، وإنما لأنهم قوم خصمون، وتجد شبهًا شديدًا فى الحديث عن قوم فرعون والحديث عن قريش فقوم فرعون أطاعوه لأنهم قوم فاسقون، وأهل مكة أطاعوا المثل لأنهم قوم خصمون فليس فى الفريقين من أطاع لشبهة أغرته بالطاعة.

ثم كان لابد من خلع شبهة ألوهية المسيح الذى داخلت ضربهم له مثلاً فجاءت الآيات بعد بل هم قوم خصمون، وهى جملة حاسمة فى أنهم لم يخاصموا لشبهة واحدة وإنما خاصموا لأنهم خصمون لا غير، أقول جاءت الآيات بعد ذلك تنقض أوهام ألوهية المسيح فذكرت أنه عبد أنعم الله عليه وأنه علم للساعة إلى آخر ما قلناه وأضيف إليه شيئًا لم أقله وكان يحسن أن أقوله وهو أن ابن مريم كان علمًا للساعة وشرطًا من أشراطها لأمر لم أجد أحدًا نبه إليه وهو أن الإشكال الذى كان يحول بين القوم وبين الإيمان بالبعث هو استبعاد أن تحيا العظام وهى رميم بل وصارت ترابًا ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا

وَعظامًا أئنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧] وكان من آيات الله لعيسى عليه السلام أنه يحيى الموتى: ﴿وإِذْ تُخرِجُ الْمَوتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠] كما كان من آياته أنه يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا يعنى أن العلتين اللتين كانوا يعتمدون عليهما فى إنكار البعث نقضهما عيسى عليه السلام وكان هذا من المشهور المتعالم وربما كان هذا مما انزلق الناس منه إلى عبادته وتأليهه ثم إنه من المشهور أيضًا أن عيسى لم يخرج الموتى إلا بإذن الله ولم ينفخ فى الطين فيكون طيرا إلا بإذن الله فالذى أحيا الموتى هو الله وإنما أجراه على يد عيسى ليكون بينة من الله وتأييدا له فى دعواه الرسالة وكذلك قل فى موسى فليس له دخل فى قلب العصا حية ولا فى أن يضع يده فى جيبه فتخرج بيضاء إلى آخره وهذا أيضًا ظاهر والمراد الآن تأكيد ارتباط آية ﴿وعنده علمُ السَّاعَةِ﴾ بقوله سبحانه: ﴿إنْ هُوَ إلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ لأن النّعم هى الآيات والآيات هى أنه علم للساعة وبرهان قاطع وصورة محسوسة لإخراج الموتى يعنى للبعث والنشور، وهذا ظاهر إن شاء الله.

بينت لماذا قدم هذا الجزء وإلى أى مدى هو مرتبط بما قبله من نداء فرعون فى قومه، ونداء فرعون فى قومه كان من لوازم كفرية من كفرياتهم وهى قولهم: ﴿لوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ثم إن الجزء بدأ بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ هو كفرية أخرى لأن ﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ صريح فى تشبثهم بآلهتهم ودفاعهم عن شركهم وهذا ربط آخر بمحور السورة الذى هو تعداد كفرياتهم وقد ظهر إلى الآن أن كل ما مضى ابتداء من قوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ إلى هنا كله تعداد وجوه الكفر وهذا ظاهر، وبقى أن أبين أن قوله سبحانه ﴿وَلَمَّا جاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وما بعده إلى قوله ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ﴾ هو من تمام معنى ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ وما بعده؛ يعنى هو الجزء المتمم الفائدة ولو لم يذكر لكان

الكلام ناقصًا وبيان ذلك أن أول الكلام فى الآية كان صورة لآخر ما آل إليه من آمنوا بعيسى عليه السلام وهى أنهم عبدوه وقالوا هو ابن الله أو عبدوه هو وأمه، وقالوا الله ثالث ثلاثة، وهذه الصورة هى التى جادل ومارى فيها ضلال قومه ﷺ، والآيات من قوله ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ رجعت إلى الوراء وتجاوزت أزمنة كثيرة كانت بين عيسى وأحوال من آمنوا به زمن مبعث الخاتم ﷺ، لتبين متى ولماذا حدث هذا التحريف وهذا التبديل ودخلت الوثنية على هذا الدين العظيم فبدأت الآيات ببيان ما جاء به عيسى وأنطقت عيسى بفقه نبوته وأنه جاء بنى إسرائيل بالحكمة وليبين لهم بعض ما يختلفون فيه ودعاهم إلى الله الواحد الأحد فآمن منهم من آمن وكفر من كفر، ثم إن الذين آمنوا كلما تطاول عليهم الزمن اختلفوا وصاروا فرقًا وأحزابًا، وخرجوا على جوهر التوحيد فى المسيحية وكفروا بالمسيحية وهم يظنون أنهم مؤمنون بها وقد دل على ذلك لفظ الظلم فى قوله سبحانه فى آخر القصة ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ والظلم فى معجم الكتاب العزيز يعنى الكفر أو الشرك ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، قلت إنه هو الجزء المُتمّ الفائدة لأنه كشف زمان وحال تسلل الوثنية للذى جاء به عيسى صلوات الله وسلامه عليه وأن هذه الوثنية النصرانية كانت فى زمن المبعث ظاهرة متعالمة حتى إن أهل وثنية مكة احتجوا بها وقالوا ﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ [الزخرف: ٥٨] ويستوى أن يكونوا أرادوا بالآلهة الأصنام وأن عيسى حير منها وأنه مادام حصب جهنم فلا بأس أن تكون معه هذه الأصنام أو أرادوا آلهتنا الملائكة وأنها خير من عيسى وأننا خير من النصارى لأن النصارى عبدوا عيسى وعبدنا نحن من هم أفضل من عيسى وهم الملائكة، أقول كل هذا وثنيةٌ خالصة اختلطت فيها وثنية مكة بوثنية النصرانية بعد التحريف والتعديل وكان لابد من الرجوع إلى الوراء ليتأكد لهم أن هذا شيء والذى جاء به عيسى شيء آخر وأن هذا الذى يقولون دعا إليه الاختلاف ودعت إليه البغضاء لأنهم لم يختلفوا إلا بغيا

بينهم كما فى آيات أخرى وهذا ظاهر من جهتين تحرص الدراسة على بيانهما الأول من جهة أنه جزء مما قبله والثانى من جهة أنه جزء من كلٍّ هو السورة، وأن بتْرَه يعنى بتْر جزء من السورة وأن بتر جزء من السورة يعنى أن السورة بتراء، وكلام الله منزَّه عن ذلك لأن هذا البتْرَ عيبٌ فى الشعر فكيف بأفصح الكلام وأعلاه.

قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قلت إن الواو راجعة إلى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ مع أن هذه الآيات من تمام ما قبلها وهذا لا يتدافع لأن العطف عطف معنى على معنى أو قصة على قصة وقصة عيسى تجر توابعها وراءها لتعطف على قصة موسى بتوابعها، و«لما» هذه هى لما التوقيتية التى رجعت بنا إلى وقت مجىء عيسى بالبينات وشرطها معلوم وظاهر من ضربه مثلا ومن قوله سبحانه ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ والبينات التى جاء بها هى آياته ومعجزاته، وقد علمه الله الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ورسولاً إلى بنى إسرائيل، وكان عليه السلام ينبئهم بما فى بيوتهم، وكلمة جاء مثل كلمة أرسلنا، تقطع من أول الأمر أنه رسول يحمل إليكم رسالة من ربه، ولا يزيد على ذلك شيئًا، وأن مقام النبى شىء ومقام الألوهية شىء آخر، وأن النبوة رسالة تبلَّغ، وأن النبى بشر جاء يحملها، وهذه الكلمات فى الكتاب العزيز حدود فاصلة بين النبوة والألوهية وقد عصم الله بها أهل القرآن من أدنى شائبة من شوائب الألوهية يلحقونها بأى نبى من أنبياء الله، أو بنبيهم الخاتم ﷺ، وكلمة البينات صفة لموصوف محذوف أى بالآيات البينات وهذ ا الحذف له قيمة فى فصاحة الكلمة لأنه يعنى توفر اللسان والجنان على كلمة بينات لأنها هى المقصود الأهم فى السياق ولأنها هى الحجة وهى الملزمة وهى الدامغة وقوله سبحانه ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ ذكر الشيخ الطاهر أنها بيان لقوله ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ

بالْبَيِّنَاتِ﴾، وهذا صواب وجواب لما محذوف ودل عليه قوله سبحانه ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ وأصل الكلام ولما جاء عيسى بالبينات آمن من آمن فاختلف الأحزاب من بينهم لأن الأحزاب الذين اختلفوا هم الذين آمنوا وقد سكت الزمخشري والرازى والبيضاوى والخفاجى وأبو حيان والبقاعى ولم يذكر واحد منهم أن قوله ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ بيان لقوله ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، ولم يذكروا ما يشير إلى أن الجواب محذوف، وربما رأوا أن قوله ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ هو الجواب وأنه ليس تفسيرًا لقوله ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، وأن المراد بالبينات هى الخوارق الدالة على أنه مرسل من رب العالمين كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وأنه يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا، هذه هى البينات والحكمة هى النبوة والمعنى ولما جاء بهذه البينات الدالة على أنه مبعوث من رب العالمين قال لقومه إنى رسول جاءكم من الله بالنبوة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه، وهذا كلام مستقيم أيضًا ولعل الذى أغرى الطاهر بالقول بأنه تفسير وبيان للمجىء أنه من كلام عيسى وقد كثر أن يكون الجواب فى مثل هذا من رد القوم كما قال تعالى فى سورة الصف ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦]، وسواء كان قول عيسى لهم بيانًا للبينات التى جاءهم بها والجواب محذوف أو كان هو الجواب، فإن الأهمية الأفضل تكون فى تحليل هذا القول وترتيبه.

والجمل التى قالها سبع جمل واقعة مقولاً للقول ويمكن أن تقسم إلى ثلاثة أقسام جملتان بين فيهما ما جاء به ﴿جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وجملتان ذكر فيهما التكليف الذى أمر به ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وثلاث جمل ذكر فيها علة هذا الأمر بالتكليف ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ وقوله ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ فيه مقاربة

شديدة لبنى إسرائيل الذين أتاهم موسى بـالحكمة وآتاهم الله الكتاب والحكمة ورزقهم من الطيـبات وفضلهم على كثـير من عباده فليس مجىء عـيسى لهم بالحكمة مما يدخل فى باب الاستغراب فضلاً عن أن يُنكر ويرفض ويتشدَّد فى رفضه وإنكاره، وقالوا الحكمة هى النُّبـوَّة وقالوا هى أصول العقائد وقالوا هى معـرفة الله وهى الإنجـيل وهى كل ذلك، والمهم أن بنى إسرائيـل قد تراخى الزمن وتطاول بينهم وبين نبى الله موسى فاختلت بعض مـعتقداتهم واختلفوا فى دينهم وضعف إيمانهم بالغـيب فبعث الله عيسى إليـهم ليجدد لهم دينهم وليعود بهم إلى مـا أنزله الله على موسى؛ كما بعـثه إليهم بالإنجيل ومـبشراً برسـول يأتى من بعـده اسـمه أحـمـد، وكل هذا داخل فى الحكمـة وقـوله ﴿ **وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُـونَ فِيهِ** ﴾، سـذه مقـاربة أخرى لأن بيـان ما اختلفوا فيه يعنى إنهاء ما بينهم من خلاف وقال ﴿ **بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ** ﴾ إما لأنه لم يوح إليه فى ذلك الوقت إلا بـيان بعض ما اختلفوا فيـه وسيوحى إليه بعد ذلك ببيان البقية أو أنه أراد مـا اختلفتم فيه مما هو من شأن الدين أما اختـلافاتكم فى غير الـدين فليس من شأن النبوة، وهذا كـلام مختصـر جداً وشامل وجـامع وهو أَخْصَرُ كـلام قاله عيـسى لبنى إسرائيل وليس فـيه شىء خارج عن الذى فى التوراة وليس فيـه شىء زائد عن الذى قاله كل أنبياء بنى إسرائيل منذ جدهم يعقوب إلى عـيسى عليه السلام؛ وكل رسل الله من بنى إسرائيل ومن غيرهم جاؤوا بالحكمة وبيان مـا اختلف فيه الناس والشأن فيمن آمن بأى نبى ألا ينكر هذا على عيسى عليه السلام.

وقوله ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** ﴾ هما جـملتا التكليف وهمـا مرتبـتان على الجملتين السابقتين اللتين لا تخرجان عن كل ما أوحى الله به إلى أنبيائه، من نوح والذين بعـده صلوات الله عليهم جـميـعًا وأن كل النبـوات تتلخص فى جملة واحدة هى ﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ يعنى اجعلوا من العمـل الصالح وقاية بينكم وبين غضبـه وعذابه، فاستـقيموا إليه واسـتغفروه، والتـقوى الخوف من الله

وتربية المهــابة، واقتــرانها بلفظ الجلالة للإشــارة إلى مزيد من المهــابة والخوف وضرورة مــلاحظة الكمال والجــدال فى الاسم الأعظم، والمطلوب الكف عن محارم الله كالظــلم والبغى والكذب والفساد والإفساد، التقــوى معناها طهارة الحياة الإنسانية من كل أوصابها من الغش والظلم والبغى والغطرسة، والسلب والنهب والانتهــازية وأن تكون الحياة حــياة أكرم وهذا لا ينكره أحــد، وقوله ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ كلمــة جليــلة بعــد قوله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ لأن التقــوى والمهابة والمخافة لله وحده لا شريك له فيهــا، ثم لأنبيائه ورسله عليهم السلام الطاعة فيمــا يبلغونه عن ربهم فالتقوى مــقام الألوهية والطاعة مقــام النبوة، والطاعة ليست مطلقة وإنما هى واجبة فيمــا هو من الله، ولا تجب طاعة الرسول فيما لم يؤمر به، وكــان أصحاب محــمد صلوات الله وسلامه عليــه يقولون أهذا وحى أوحاه الله إليك أم هو الرأى؟ فــإذا كان الرأى ناقشــوا وإذا كان الوحى أطاعوا، وعيسى عليه السلام حين فرق بين هاتين الجملتين تقوى الله وطاعته وعلق فعل التقوى بلفظ الجلالة كما علق فعل الطاعة به صلوات الله وسلامه عليه يضع لهم النقاط على الحروف، وأن لى مقامًــا هو الطاعة فيما أبلغه عن ربى. أما مــقام التــقوى فــذلك لله وحده، وداعــية الطاعة والموجــب لها هو البيّنات التى جــئت بها والتى تؤكد أنى رسول رب العــالمين إليكم، وما بعث الله نبياً إلا ليطاع، ولذلك لم يذكر عيسى بعــد هذا الأسباب الموجبة لطاعته، وإنما ذكر الأسباب الموجبــة لتقوى الله فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ وراجع مكونات الجملة، تجــد فيها أداة التوكــيد وأنها بنيت عليهــا وأن المسند إليه فى الجملة هو لفظ الجلالة، الذى لا تنفك عنه الدلالة على الكمالات المطلقة التى لا تكون إلا لله سبــحانه، وهو اسم الله الذى لا ينازعه فيــه منازع وكمالاته خاصــة بالله الواحد المتفــرد بكل كمال، ولاحظ أن هذا هو الموجب للتــقوى وأن لفظ التقوى لما تعلق به إنما كان لتربيــة المهابة لأن أصل التقوى قائم على الخشية، والخوف والحذر والهيبة ثم ضمير الفصل الدال على الاختصاص.

أو المؤكد لدلالة الاختصاص ثم لفظ الرب الموجب للعبادة، لأن اشتقاق لفظ الرب من التربية والرعاية وهو المنعم بكل ما يتقلب فيه الإنسان، وأولها وأولاها نعمة الوجود من كنم العدم، ثم صوّركم فأحسن صوركم، ورزقكم من الطيبات، وجعل لكم السمع، والأبصار، وهذه هى موجبات العبودية ولا تكون العبودية إلا لمن أعطاها، وتلاحظ فى الجملة أنها بدأت بلفظ الجلالة الدال على الجلال ثم ذكرت لفظ الرب الدال على النعم، كل ذلك بعناصر التوكيد التى بنيت عليها، والتوكيد هنا موجه إلى أنه هو ربى وربكم، لأن التوكيد فى الجمل توكيد فى الإسناد، وتأكيد هذا يعنى تأكيد ما جاءت الجملة علة له، وهو التقوى، ويلاحظ أمرًا آخر وهو أنه عليه السلام قال ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ فذكر أنه ربه قبل ذكر أنه ربهم وأنه يعبده قبل أن يعبدوه ويتقيه قبل أن يتقوه وكل هذا نفى للشبهة التى وقعوا فيها بعدما طالت المدة، وكلام عيسى هنا يؤكد أنهم حين ألّهوه لم تكن لديهم شبهة فى ذلك، وأنه لم يكن فى دعوته لهم لفظ واحد يعتمد عليه فى هذا التأليه، ولما قال له ربه سبحانه ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] قال عليه السلام ما قاله فى هذه الجملة ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، وكلمة ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ الفاء تفيد ترتيب العبادة على الألوهية والربوبية فى الجملة السابقة وكما أن الجملة السابقة تفيد تأكيد الأمر بالتقوى فى الجملة التى قبلها فهى أيضًا موجبة لما يأتى بعدها وكلمة ﴿اعْبُدُوهُ﴾ تأتى فى المعنى والدلالة بعد «اتقوه» لأن التقوى معناها الخوف والمهابة وهما مفضيان إلى العبادة، وقوله ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ جملة بُنيت على القطع والاستئناف واسم الإشارة الذى بنيت عليه يميز المشار إليه أكمل تمييز، حتى يقع الحكم عليه بعد هذا التميز فيكون هذا أمكن، وأوقع، وتسمية الدين بالصراط المستقيم مضى الكلام فيها ومضى أيضًا أن الصراط المستقيم أشبه بالجانب السلوكى العملى، الذى هو الانقياد عند الأمر،

والانكفاف عند النهى. ويشمل أيضًا الجانب الاعتقادى، من حيث صحته واستقامته، وأدلته، وتضافر العقل والنقل عليه، وقد مضت هذه الجملة فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ عيسى يقول لبنى إسرائيل ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ والله سبحانه وتعالى يقول لقريش ﴿اتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ وأول ما ألاحظه أن الصراط المستقيم الذى دعا ربنا قومه ﷺ إليه هو الصراط المستقيم الذى دعا عيسى بنى إسرائيل إليه وأن مجىء الصراط المستقيم فى كلام عيسى بعد مجيئه فى كلام الله زيادة التبرى من أن يكون عيسى قال لهم اتخذونى وأمى إلهين، وأن يكون عيسى قال فى دعوته كلمة واحدة توهم ألوهيته صلوات الله وسلامه عليه.. وإنما جاء فى خطاب رب العزة لقريش ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ وجاء فى خطاب عيسى ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ لأن الذى سبق فى خطاب الحق لقريش هو النهى عن الشك واللجاجة والجدل فى الساعة. والإيمان بالساعة يوجب الاتباع وليس الخلاف والمماحكة، والذى سيق فى خطاب عيسى هو ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ وهذا هو الموجب للجدال لأنه لا يعبد إلا الحى الخالق القادر المصور.

وقوله جل شأنه ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ هذه الفاء أخت الفاء التى فى المثال النحوى تزوج زيد فولد له يعنى فمضت مدة فولد له، وذلك لأن اختلاف الأحزاب لم يكن إلا بعد زمن من دعوة المسيح صلوات الله وسلامه عليه وبين قوله فاختلف الأحزاب وكلام عيسى زمن طويل وأحداث وأحوال منها مثلاً أن فريقًا من بنى إسرائيل آمن به وهم الأمة المقتصدة التى ذكرها ربنا فى آخر سورة السجدة ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] ومنهم الحواريون الذين حملوا رسالة عيسى إلى أمم أخرى غير أمة بنى إسرائيل وكان عيسى عليه السلام يقول أرسلت إلى خراف بنى إسرائيل وكان أحيانًا يسكت ولا يجيب من طلب منه شيئًا من غير بنى إسرائيل كما جاء فى بعض نسخ الأناجيل. وهذه الأمة التى تهدى بالحق

وتعدل به من بنى إسرائل بقيت قائمة فيهم حتى جاء الإسلام ودخلوا فى دين الله مثل كعب الأحبار وغيره، وقد انتهت هذه الأمة التى تهدى بالحق وتعدل به من بنى إسـرائيل لأن الذى يهـدى بالحق لا محـالة يدخل فى دين الخـاتم صلوات الله وسـلامه عليـه. ومن الأحوال والأحـداث التى حدثت اخـتلاط الفلسفـة اليونانيـة بالنصرانية فـتسربت الوثنيـة إلى النصرانيـة من خلال هذه الفلسفة فظهرت الفرق النصرانية كـاليعقوبية والملكانية والنسطورية وكل هؤلاء وثنيون وهم داخلون فى قـوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ وكلمة «من بينهم» تشير إلى أن هذا الخلاف كان ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ ولم يدخل عليهم من خارجـهم، وأن التحويـر الذى انتقلت به المسيـحية من الـتوحيـد إلى الشرك والوثنية كـان من داخل الكيان المسيحى. ولاحظ أن الجـملة التى بدأت بالفاء ودخلت هذه الفـاء على الاختـلاف تعنى أن التحـريف والتبـديل لم يكن له مصدر إلا الاختـلاف وكثيرًا ما ذكر القرآن اختـلاف الأمم بعد ما جاءها الحق ولا يمكن أن تدفع عن هذا تحذير الأمـة من الاختلاف وخصـوصًا مع تكرار مثل قوله سبحانه ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ واسم الإشارة لتمييز المشار إليه كما قلت وأنه صـراط مستـقيم تراه البـصائر كمـا ترى العيـون الطريق المستـقيم اللاحب. وما كـان كذلك، فليس مظنّة الاختلاف لأن أمـره بين ولا يختلف فيه إلا القوم الخـصمون ولا يجادل فيه إلا الذين كـفروا، نعم قد تكون هناك خلافات واختلافات فى الفروع وفى جوانب الصراط المستقيم، كالخلاف الذى يكون بين الفقـهاء أو علماء العـقائد فيمـا لا يتصل بالأصول، أما اخـتلاف هؤلاء فـقد كان فى الاعـتقـاد ولذلك أضيـف هذا الاختلاف إلـى الأحزاب ويُسمى المختلفون أحزابًا وهم فى معـجم القرآن الكريم المشركون الذين كذبوا الرسل لأن هؤلاء الأحزاب الذين اختلفوا من بينهم كذبوا رسولهم قال تعالى فى سورة ص يحدد المراد بالأحزب ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلاَّ

﴿كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٢ - ١٤] قال علماؤنا فى بيان الأحزاب الذين اختلفوا من بينهم (ولم يلبثوا أن اختلفوا من بينهم فى أصول الديانة نتفرقوا ثلاث فرق. نسطورية ويعاقبه وملكانية. فقالت النسطورية عيسى ابن الله، وقالت اليعاقبة عيسى هو الله، أى بطريق الحلول وقالت الملكانية وهم الكاثوليك عيسى ثالث ثلاثة مجموعها هو الإله وتلك هى الأب (الله) والابن (عيسى) وروح القدس (جبريل) فالإله عندهم أقانيم ثلاثة انتهى كلام الطاهر. وهذا قاطع فى أن هذه الأحزاب اختلفت اختلافًا خرج بهم جميعًا عن الذى جاء به عيسى عليه السلام، وقوله سبحانه فى التعقيب على هذا الاختلاف ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ قاطع فى ذلك الخروج وهذه الفاء رتبت الوعيد بالويل على هذا الاختلاف أى فاختلف الأحزاب فويل لهم وهذا ظاهر الدلالة على شناعة الاختلاف وخروجه عن الذى جاءهم به. ثم إنه قال ﴿لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ والظلم المراد به هنا الكفر ووضع الظاهر موضع المضمر وكان يمكن أن يقول فويل لهم وإنما جاء بالاسم الظاهر ليؤكد أن هذا الوعيد كان من أجل ظلمهم الذى خرجوا به عن قوله صلوات الله وسلامه عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ فقد انتهى بهم الاختلاف والتنطس والتفلسف إلى أن عبدوا الذى قال لهم أنا وأنتم نعبد الله الذى هو ربى وربكم، ثم إن عبارة ﴿لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ شاملة لكل من اقترف الظلم بهذا المعنى الذى هو الكفر وبذلك يدخل فيها الذين ضربوا ابن مريم مثلاً لأنهم ضربوه مثلاً بوصفه الذى انتهى إليه عند هؤلاء الأحزاب بعد اختلافهم ولم يضربوه مثلا بوصفه عبدًا أنعم الله عليه وبوصفه القائل ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وبهذا تعود هذه الفاصلة ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ إلى رأس هذا القسم ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ ويلتقى طرفا الكلام وتختم القصة، ثم إن العبارة عن الكفر بالظلم من أهم دلالاتها أن هذا الكافر

يظلم نفسه وظلم النفس ظلم عظيم، هذا وجه والوجه الثانى هو الإشارة إلى أن الكافر الذى عبر عنه بالظالم يعلم أنه كافر وأنه حاد عن الحق بعد ما عرفه وجحده بعد ما تبين له لأن الظلم بيِّن وليس هناك من يظلم وهو يجهل أنه يظلم وذلك لأن الظلم انحراف عن الحق والعدل، والحق والعدل مما يعرف بالطبع والعلم به ضرورى ومعنى هذا أن هؤلاء الأحزاب اختلفوا اختلاف الظالمين الذين يعلمون أنهم حادوا عن شرع الله الذى جاء به عيسى وحادوا عن أصل الاعتقاد الذى جاء به عيسى عليه السلام، وقد وصف هذا الاختلاف فى آيات أخرى بأن باعثه كان البغى والتحاسد وليس الاختلاف فى طلب الحق.

قلت إن هذه الفاصلة ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ**﴾ راجعة إلى رأس هذا الجزء من السورة ﴿**وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً**﴾ وأزيد أنها راجعة إلى كل ما فى السورة، من أول قوله ﴿**أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ**﴾ لأن هذا الإسراف هو الظلم بعينه وراجعة إلى ﴿**جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا**﴾ لأن هذا هو الظلم بعينه، وراجعة إلى ﴿**وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا**﴾ لأن هذا هو الظلم بعينه وتتبع كل ما فى السورة تجد التعقيب عليه بقوله سبحانه ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ**﴾ تعقيبًا واقعًا ومتمكنًا وهذا ظاهر ولا تكلف فيه لأن كتاب الله غنى عن التكلف، وقد نهينا عن التكلف فى كل شىء فكيف ونحن فى كلام الله، قلت هذا لأنى سأقول كلامًا أبعد من الذى مضى وهو أن شمول الفاصلة لكل ما فى السورة إنما كان ذلك لأن الغرض من الذى انعقدت عليه السورة وهو عدُّ وجوه الكفر التى كانوا عليها ونقضها وجهًا وجهًا قد انتهى وكان آخرها ضرب ابن مريم مثلاً وقولهم «**آلهتنا خير أم هو؟**» وهذا يعنى أن هذه الفاصلة فى المفصل الأخير من مفاصل السورة والذى سيأتى بعدها بيان لأحوال الناس

فى الآخرة بعد طى صفحة بيان أحوالهم فى الدنيا، وهذا ظاهر وسيقوم به وعليه الكلام فى الآيات التالية، وراجع السورة من أول ﴿ **جعلُوا لَهُ منْ عباده جُزْءًا** ﴾ إلى قوله ﴿ **فويْلٌ لِّلَّذين ظلمُوا من عذاب يوْمٍ أليمٍ** ﴾ لتتأكد أن كل هذه الأجزاء الكبيرة وما يداخلها من جزئيات صغيرة كل ذلك يدور حول قطب واحد ليس فيه حرف واحد خارج عن هذا المراد وأنك لا تستطيع أن تحذف جملة ولا تستطيع أن تزيد جملة ثم لاحظ شيئًا مهما وهو أنه قد يدعو الغرض إلى إضافة شىء يتحقق به البيان فى جزء من الجزئيات فيلمُّ الكلام بهذا الشىء إلمامًا سريعًا ليعود إلى حاق الغرض وذلك كما ترى فى هذه الآيات التى كونت الوجه الأخير من وجوه كفرهم وهو ضرب ابن مريم مثلاً، لم يضربوه مثلاً من حيث هو رسول قال لقومه ﴿ **إنَّ اللَّهَ هُوَ ربِّى وربُّكُمْ فاعْبُدُوهُ** ﴾ وهذا هو الأصل الذى يستشهد به، وإنما ضربوه مثلاً بعدما اختلف الأحزاب من بينهم ووقعوا فى الظلم العظيم الذى هو الشرك فاحتجوا بما لا يحتج به لأنهم قاموا شركهم على شرك من عبدوا ابن مريم ولذلك جاءت الآيات بأصل دعوة ابن مريم فى اختصار شديد ووفاء كامل جداً، وذلك فى الجمل من قوله ﴿ **قدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمةِ** ﴾ إلى قوله ﴿ **فاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُّسْتقيمٌ** ﴾، وهذه هى رسالة عيسى وهذا هو الذى يضرب منه المثل وهذه هى الوحدانية وهذا هو صفاء هذه الوحدانية؛ وهذا عيسى عَبْد من عباد الله والله ربه ورب من يدعوهم إلى آخره، ثم طوى الكلام ما طوى قبل ﴿ **فاخْتلف الأحْزابُ منْ بيْنِهِمْ** ﴾ وفى هذه المسافة المطوية قبل ﴿ **فاخْتلف الأحْزابُ** ﴾ قدَّر من قدَّر من علمائنا جواب لما الحينية ليشير إلى معدن وموضع المحذوف بين هاتين الجملتين ﴿ **هذا صراطٌ مُّسْتقيمٌ** ﴾ و﴿ **اختلف الأحْزابُ** ﴾ ثم عادت فجوة أخرى بين قوله ﴿ **فاخْتلف الأحْزابُ منْ بيْنِهِمْ** ﴾ وقوله ﴿ **فويْلٌ لِّلَّذين ظلمُوا من عذاب يوْمٍ أليمٍ** ﴾ وتجد هذه الفجوة تترك غُلَّة فى النفس لأنها أشارت إلى الاختلاف ولم تبين فى أى شىء كان الاختلاف ولا الأسباب التى أدت إلى

هذا الاختلاف وإنما أومــأت إلى ما وراء هذه الألفاظ إيماءة بمثل اســتخدام كلمة الأحزاب كمــا بينت ثم وصلت هذا بضرب ابن مريم مــثلاً وَصْلاً معتــمدًا على ذكاء القارئ، وهى أن الضاربين له مثلاً اختاروا المثل من الذى اختلف الأحزاب فيه، ثم طوت صفحة الدنيا وفتحت باب اليوم الذى فيه العذاب الأليم، وكانت الفاصلة التى قلت إنهــا رجعت إلى أول الكلام فى قضــية ضرب عيسـى مثلا ورجعت أيضًا إلى كل ســا فى السورة من آية ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ وأقول الآن إنها مع هذه الروابط القوية بينهــا وبين كل ما مضى فى السورة تعد بابًا مُشْرَعًا لــكل ما بقى من السورة لأنها هى العتبــة التى انتقل منها الكلام من شؤون الناس فى الدنيا إلى شؤونهم فى الآخرة وهكذا تجد الفاصلة تمسك بيديها يد تمسك بما قبلها ويَدٌ تُمْسِك بما بعدها، هذا والله أعلم.

ولو وضعت جملة ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ عنوانًا للذى بقى من السورة لكان وضعًا صحيحًا مناسبًا.

قوله سبحانه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٦٦) الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٦٦- ٧٢].

هذا كلام جديد يحــدث عن عالم آخر غير العــالم الذى انهمكت السورة من أولها إلى آخرها فى الحــديث عنه وقد أشرت إلى صلته بالآية السابقة أمــا موقعه من السورة هو والذى بعــده إلى آخر السورة فهــو موقع الترغيب والتــرهيب بعد البيــان والاستــدلال، وكان البيــان والاستــدلال عَرْضًا ومناقــشةً ودَحْـضًا لكل

كفرياتهم ولم يبق لنفس منزع فى معرفة هذه الأباطيل وهذه الضلالات وإذا ظلوا على ما هم عليه بعد كل هذا ولم يبادروا بخلع أنفسهم من هذا الباطل صاروا كمن يبقى منتظرًا الموت الذى تضيع معه فرصة الرجوع إلى الحق وليس لهم حالة يمكن أن تفسر بقاءهم على ما هم عليه إلا هذه الحالة ولذلك نجد الآية غايرت فى الأسلوب وبدأت بكلمة ﴿هَلْ﴾ التى تفيد معنى الإنكار والتعجب ولم تذكر هذه الكلمة فى السورة قبل هذه الآية ولا بعدها، وإنما كان يكون الاستفهام بالهمزة مثل: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ﴾ ﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ وهنا جاءت هذه الكلمة التى هى أوفر فى النطق لأنها مكونة من حرفين وأكثر تركيزًا فى الدلالة لأنها لا يسأل بها إلا عن النسبة والنسبة هنا انتظارهم أن تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون وهذه حال من أصابته غيبوبة أو أبطل هو بنفسه استخدام عقله، ويبقى يعرض نفسه لهلاك دائم لا يدرك هوله ولا يرى آخره، وراجع أنت هذه الجملة وراجع ما قبلها لتدرك بنفسك أن الكلام السابق لما فرغ مما فرغ منه لم يبق لمن يبطئ فى الإسراع إلى الحق إلا أن يكون صورة عجيبة تتجسد فيها الغفلة ويتجسَّدُ فيها عدم المبالاة، وعدم الاكتراث بأهوال العذاب، وهل هنا معناها النفى. وهى مع أداة الاستثناء تفيد معنى القصر والمعنى أنهم فى حالة صاروا بها بعد بيان ما بيَّناه لا ينتظرون شيئًا إلا شيئًا واحدًا وهو أن تأتيهم الساعة بغتة، وتضيع منهم فرصة خلع الباطل. وطرح أوزاره وهذا قصر واستهزاء وتجهيل وتشهير وتوبيخ وغير ذلك مما تراه يتوافى من كلمة هل التى هى حرف جديد جاء مع مقطع جديد ومع معنى جديد، ومن أجل أن تدرك ما أريد بيانه ضع كلمة النفى مكان كلمة: هل وقل ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهذا مع ما فيه من التنبيه واللوم ليس فيه معنى مطالبتهم بالرجوع إلى أنفسهم بعد دحض كل أباطيلهم وليسألوا أنفسهم ماذا تنتظرون بعد ذلك؟ هل تنتظرون الهلاك والساعة؟

ولاحظ أن كلمة الساعة تعنى القيـامة وتعنى أيضًا الموت لأن من مات فقد قامت قـيامتـه وهم لا يشعرون فى أنهم يمـوتون وقد أقامت الآيات السـابقة البرهان القاطع على السـاعة بمعنى البعث والنشر وحـذّرهم ربهم من الامتراء بها ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ولا يجوز أن تخلى كلمة الساعة هنا من الإشارة إلى السـاعة التى لا يجوز لأحد أن يمترى فيهـا بعد ما نهانا ربـنا الذى قام كل شىء حولنا يدلنا على أن خبـره لا يأتيه باطل، نهانا عن الشك فيها.

وجملة ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ بدل من الساعة، وجـاء الكلام على البدل ولم يقل سبحانه هل ينظرون إلا أن تأتيهم الساعة بغتة وذلك لأن ذكر الساعة أولاً فيه تأكيد لها ونفى الامتـراء بها، ووراء ذلك من التخويف والتحذير ما وراءه ولا يخوّف بالسـاعة إلا من يؤمن بها، ولا يُنذرُ بها إلا من يخـشاها، وبدون ذكـر المبدل منه يكون الكلام فى إتـيانهـا بغتـة فقط، وبذكـره يكون أولا فى تأكيدها وثانيًا فى إتيـانها بغتة وكلمة ﴿يَنظُرُونَ﴾ معناها ينتظرون والفرق بين هل ينظرون وهل ينـتظرون هو أن ينظرون فـيـها مـع الانتظار مـعنى النظر، والنظر بالعـين وبالقلب كمـا فى قوله تعـالى ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] يعنى ترى عيـونكم وتستدل عـقولكم وهذا المعنى فى الآية يكسبها مذاقًا زائدًا على مـجرد الانتظار لأنه يفيد أنهم ينظرون ساعة تراها البصـائر جلية لا شبـهة فيهـا كما ترى الأبصار الشـىء ليس بينها وبينه حجـاب، وذلك بعد قوله فى عـيسى ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ لأنه كان يخرج الموتى ويبرئ الأكمه والأبرَص وإذا كان ليس إلا عـبدا أنعم الله عليه وأجرى الله ذلك علـى يديه فكيف يُمـتـرى فى السـاعـة؟ وهذا المعنـى فى كلمـة ﴿يَنظُرُونَ﴾ يجعل لذكـر المبدل منه مـعنى لا يكون بدونه وهو أنهم ينتظرون الساعة انتظار من يرى الشىء بعينه، وجمله ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ بدل والبدل هو

المقصود بالحكم يعنى هى لب الجملة، والمغزى منها، والمراجعة تدل على ذلك لأن الترهيب كل الترهيب فى مداهمة الموت بغتة لمن الشأن فيه أن يرى الساعة وينتظرها، ولم يُعدّ لها، وإنما ظل فى باطله الذى يفضى به إلى سواء الجحيم، وقد جاءت الجملة، مصدرًا مؤولا ولم تأت مصدرًا صريحًا يعنى لم تكن الجملة هل ينظرون إلى إتيان الساعة بغتة أو هل ينظرن إلا الساعة إتيانها بغتة وذلك لأن الفعل المضارع فى أصل دلالته استحضار الحدث لأنه يدل على الزمن الحاضر الذى يحدث فيه الحدث فهو مصور لهذا الحدث ويستوى أن يكون الحدث قد مضى وأعاد المضارع تصويره وأحضره أو كان الحدث سيحدث فى المستقبل وعبر عنه المضارع كما هنا فإن هذا لا يُخْلِى الصيغة من الإشارة إلى الساعة وهى تأتى بغتة، وكلمة ﴿**بَغْتَةً**﴾ حال بمعنى مباغتة ومفاجئة، وجملة ﴿**وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾ جملة حالية من المفعول به فى ﴿**تَأْتِيَهُم**﴾ وهى جملة مؤكدة بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلى وهذا التقديم يفيد توكيد النفى كما يفيد توكيد الإثبات فى مثل قوله: ﴿**إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ**﴾ ومعنى تأكيد النفى تأكيد أنهم لا يشعرون يعنى تأكيد فَقْد الإحساس وتأكيد إثبات ليس الغفلة فقط وإنما البلادة أيضًا لأن الساعة التى صارت ظاهرة الأدلة ظهور الشىء تراه العين ويراه القلب لا يزالون ينكرونها ولا ينتظرون إلا أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون، واجتهد أنت لتدرك سخاء هذه الجملة فى معناها الذى عُقدت عليه وهو من المعانى القليلة وقد حاولت أن أكشف ما فى خباياها وبقى منها ما تدركه الصفة ولا تحيط به المعرفة، وحسبك أنهم ينتظرون المباغتة والمباغتة لا تنتظر

ثم إنها جملة تقف وحدها فى هذا المفصل وتطوى صفحة من عُقدت السورة على مناقشتهم وكانت هى الجملة الأخيرة التى تحدّث عنهم بعد ما بينت السورة ما بينت وصار إنكارهم للحقائق الظاهرة أمرا عجيبًا لا يتصور إلا ممن فقد الشعور يعنى الإحساس بالأشياء، وقد فرق العلماء بين

لا يشعرون ولا يعلمون ولا يعقلون وقالوا هو فرق بين نفى الشعور الذى هو الإحساس ونفى العلم ونفى العقل وأدنى المراتب هو نفى الشعور، وقد يعينك على معرفة سر هذه الجملة أن تربطها بالجملة قبلها لأن الاقتران وحده له دلالة، والتى قبلها هى ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ وتأمل غور كلمة الويل وصدورها عن عز الربوبية ثم تأمَّل نفى الشعور والإغراق فى الغفلة التى لا يزال فيها من لم يؤمن بهذا العالم الآخر، والذى صار لا ينتظر إلا أن تأتيه الساعة بغتة وهو سادر ومفتوح العينين وهذا حسبى.

وقوله جل شأنه: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾.

هذا أول حديث عن أحوال الآخرة وقد جاء بعد مفاجأة الساعة التى يجب على كل من له شعور وإحساس أن ينتظر بغتتها وهو فى قمة اليقظة والتهيُّؤ لها، ولاحظ أن وراء ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ معنى آخر مضادٌّ له وهم الذين ينظرون أن تأتيهم بغتة وهم لها عاملون، وأن هذا المعنى المتستِّر وراء المنطوق مدلول عليه بذكر المتقين، ومدلول عليه بصورة أوضح بما جاء فى الآيات أولاً من صور تكريم الله لهم، وكأن الآية التى قلت لك تدبرها أنت لأنِّى لم أجد ما أقربها إليك إلا بالذى قلته أقول هذه الآية لها صوت مسموع هو تنبيه الغافلين السادرين وترهيبهم وتخويفهم بالويل والعذاب الأليم، وصوت آخر وراء هذا الصوت وهو البشرى لمن استجابوا لداعى الله الذى يدعوهم إلى دار السلام؛ وبشراهم هى النجاة من هذه الهلكة وأن كل آية عذاب تحتها آية رحمة، وأن كل صوت تهديد وراءه صوت ترغيب وأن تفاصيل أحوال القيامة ربما كشفت فى الكلام الذى قبلها عن الصوت غير المنطوق قبل أن تكشف عن الصوت المنطوق كما هنا فقد بدأت الآيات بأحوال المتقين الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ثم ثنَّت بأحوال المجرمين الذين وصفوا بقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وقوله سبحانه ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لم تذكر كلمة الأخلاء فى القرآن إلا فى هذه الآية وهى جمع خلة بضم الخاء وهى المودة التى تتخلل القلوب؛ وابتداء الحديث عن أحوال الآخرة فى هذه السورة بهذه الآية يفيد أن كل ما عرضته السورة من أحوال كفرهم وضروب كفرياتهم كانوا فيه جماعة متآزرة متعاونة ومتساندة وأن بغضهم للحق ومعاندتهم له جمع بين قلوبهم مهما كان بينهم من خلافات فى أمور أخرى؛ المسألة التى التقت عندها قلوبهم وتعاونت وتآذرت وتحابت هى معاندة ما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه وكان القرآن فى كل ما جاء فى هذه السورة يخاطبهم من حيث هم جماعة ويخاطبهم بخطاب واحد وإن كان بينهم فروق وذلك كعبادة الملائكة فليسوا جميعًا كانوا يعبدون الملائكة وأكثرهم كان يعبد الأصنام، وبعضهم كان يعبد الجن، وبعضهم كان يسجد للشمس من دون الله ومع ذلك جاء خطابهم خطاب جماعة للإشارة إلى أن من عبد الأصنام ومن عبد الملائكة ومن عبد الجن كلهم سواء فى تآذرهم وتعاونهم على المضادة لما أنزله الله عليهم، وقد أشارت آية فى سورة العنكبوت إلى أن الوثنية كانت مودة بينهم قال سبحانه ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] ووازن بين هذه الآية والآية التى نحن فيها وحدد المعانى المشتركة؛ ووجه الدلالة عليها فى كل ومناسبة كل وجه لسياق السورة وهذا وحده باب جليل من أبواب البيان القرآنى لم يدرس بعد ورأس الجملة فى سورة الزخرف هى كلمة ﴿الأَخِلاَّءُ﴾ وهذا يعنى أن الكلام متجه إلى هذه الخُلَّة وأنها لم تذهب فقط وإنما انقلبت عداوة وهى عكس المحبة فى الله التى لا تنقطع والتى تُفْضِى بأصحابها إلى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله وهذه الجملة تقترب جدا من قوله سبحانه فى الآيات قبلها ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ وفى

كلَ بعضهم لبعض عدو وراجع صياغة الجملة لأن فيها أشياء دقيقة وذات دلالة جليلة وهى أولا ذكر كلمة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعنى يوم الساعة الذى فقدوا الإحساس به وهو يوم له شأن أى شأن لأنه يـوم ترجف الراجفة تتبعـها الرادفة وهو يوم الطامة ويوم الصاخة ويوم الحاقة ويوم القـارعة ويوم عسير ويوم يجعل الولدان شيبا ويوما عبوسا قمطريرا ويوم لا يغنى مولا عن مولا شيئًا ويوم يفر المرء من أخيه ولو جمعت ما فى القرآن من وصف ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ لوجدت بابا واسعا وكله وراء كلمة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وقوله سبحانه ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ تعبير لا يسد مسده لو قلنا الأخلاء يومـئذ أعداء لأن كلمـة بعضهم لبـعض تشمل كل بعض وأنه عدو لكل بعض وأن العداوة متـبادلة فليس هناك بعض إلا وهو عدو وله عدو وهذا يعود على الخلة ويحددها بالخلة فى معـارضة دين الله وأن بغضهم للحق هو الذى جمعـهم وقوله ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ بالمعنى الذى شرحناه خاص بهم وشامل لهم بدليل استـثناء المتقين وهذا الاستثنـاء يعنى أنه لـم يستثن إلا هم، فكل من ليس منهم هو عدو وله عدو يعنى يكره غـيره ويكرهه غيره ويقول كل منهما للآخر ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ وقد قوبل الجمع فى الأخلاء بالإفـراد فى عدو للإشارة إلى أن الخلة فى الدنيـا قد تعين عليـها وتفتح أبوابها عوامل مختلفـة تعين وتساعد مع العامل الأول الذى هو التساند فى محاربة الحق؛ فضلا عن أن كلمة الأخـلاء شاملة لمن كانت خلتهم مضادة لأمر الله ونهيه ومن كانت خلتهم قائمة على أمر الله ونـهيه يعـنى من جمعهم الكفر ومن جمعهم الإيمان، وهذا بخلاف العداوة التى فى يومئذ فكل الأعداء فيها عـدو واحد لأن العداوة لها سبب واحد ولها مـصير واحد ليس هناك أى فـرق فى صور العـداوة ولا فى درجاتهـا. وقوله جل شـأنه ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ استثناء متصل. وكلمة المتقين هنا واقعة موقعا لا يسد مسدها فيه أى كلمة أخرى كأن يقال إلا المؤمنين أو إلا الصادقـين أو إلا الصالحين أو ما شئت، وذلك لأن كلمة المتقين فيها معنـى الخوف من الله خوفا دعاهم إلى أن يـجعلوا بينهم وبين

غـضب الله وقاية فكان إيمـانهم بالله مـصحـوبا بالخـوف منه وكان عـملهم الصـالح مصـحوبا بالخـوف منه ﴿يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ [المؤمنون: ٦٠] هؤلاء هم الذين سكن الخـوف من الله في قلوبهم فكفوا عن محارم الله وهم خائفون وانقادوا لأوامره وهم خائفون وذكروا الله وهم وجلون ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون (٢) الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣) أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾ [الأنفال: ٢- ٤]، وراجع كلمة «وجلت قلوبهم وأنهم يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة» وتزيدهم الآيات إيمـانا وقلوبهم وجلة ويتـوكلون على ربهم وقلوبهم وجله ويقيـمون الصـلاة وقلوبهم وجلة، وينفقـون وقلوبهم وجلة، وكل هذا مطوى فى كلمة ﴿المتقين﴾ لأن الله سبحانه كـافأ هذه القلوب التى سكنها الخوف فى الدنيـا بنفى الخوف عنها يوم القـيامة، فى قـوله سبحـانه بعد هذه الكلمة ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾، وراجع هذه الجملة العاليـة وأول ما يلفت فـيهـا هو القطع والاستـئناف ومن أبرز دلالات القطع والاستئناف أن الكـلام الذى سبق فيه شىء هو موضع الحـفاوة والعناية، وأنه يوجب أن يُستأنَفَ كلامٌ لزيادة تجليتـه، وبيانه، وبهائه، ثم إن هذا الاستئناف بنى على نداء الحق لعـباده، والإقبـال عليهم، والانتقـال من أسلوب الغيـبة المدلول عليه بالاسم الظاهر فى كلمة ﴿المتقين﴾ إلى طريق الخطاب ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم﴾ وكيف صاروا حضـورا فى حضرة الرحمن عند مليك مقـتدر، وما وراء ذلك مـن تكريم وتقريب وتشريـف والحضور فى الحـضرة حـضـور تشـريف، وليس حـضور مـكان، وجل الله عن ذلك، ولما كـانوا يقـتـربون هم من الحضـرة فى مـثل قـولهم ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ [الفاتحـة: ٥] قربهم ربهم مـن الحضرة وخـاطبهم بالأمن ونفى الخـوف ونفى

الحزن وأقبل عليهم وقال يا عبادى ثم راجع كلمة ﴿عِبَادِ﴾ ولها دلالة عجيبة هنا لأنها تعنى أنهم أخلصوا عبوديتهم لله فى حياتهم الدنيا فتقبل الله منهم هذه العبودية التى ليس فيها شائبة لغير الله وناداهم بها لأنه ليس أحب إلى من عرف الله إلا أن يكون خالص العبودية لله، ومن تمام خلوص العبودية لله انصراف القلب انصرافا كليا إلى الله وليس فى درجات الحرية أعلى من درجة العبودية لله لأن من كان عبدًا لله لا يقبل أن يكون عبدا لغيره؛ ثم إن إضافة العبودية لياء المتكلم جل شأنه تشريف آخر وتكريم آخر ثم إن هذا النداء بحرف النداء الذى للبعيد والله جل شأنه قريب من كل منادى فيه إشارة إلى أنه سبحانه إنما ناداهم بهذا النداء الذى للبعيد وبهذا الوصف الذى هو أحب الأوصاف إليهم وفى هذا الوقت الذى فيه من الأهوال ما يجعل الولدان شيبا ليكرمهم بأكرم ما يكرم به عباده وهو نفى الخوف عنهم ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ والتنكير فى كلمة ﴿خَوْفٌ﴾ يعنى نفى الخوف كل الخوف قليله وكثيره وكلمة ﴿عَلَيْكُمُ﴾ تشير إلى أن أسباب الخوف ودواعيه قد استعلت على النفوس وأنها منفية عنكم، وكلمة اليوم تعنى أنه اليوم المخوف الذى قدمنا بعض ما قيل فيه فى الكتاب العزيز وطالما خوفنا ربنا من هذا اليوم فى مثل قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] فمن أجاب وانقاد واتقى اليوم فلا خوف عليه فى اليوم، وقوله ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨] وقوله ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ [لقمان: ٣٣] ومن المفيد أن نلاحظ المبادرة بنفى الخوف عنهم فى أول اليوم فقد جاء ذلك عقب بيان انقلاب الخلة وصيرورتها عداوة وإنما كان ذلك لما أبصروا وسمعوا وقالوا ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢] وكان نفى الخوف أى خوف واقع موقعه والخلائق كلها تستقبل أهوال ذلك اليوم من هول الموقف والمحشر وهول

الصراط وهول الحساب وهول التلاق وهول التناد يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم وجملة ﴿وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ اختلف بناؤها فدخل النفى على المسند إليه المقدم على الخبر الفعلى فأكد نفى الحزن عنهم اليوم وما يستقبلون من الزمن وهذا الاستقبال فى صيغة المضارع مفتوح على الزمن الذى لا يتناهى لأن زمن الآخرة غيره متناه، والمراد بنفى الحزن نفى أسبابه الموجبة له والمراد من الجملة الأولى نفى الخوف نفسه وإن كانت أسبابه قائمة فى أهوال الموقف والصراط والحساب والكل يمر بهذه الأهوال وعباد الله وحدهم آمنون وغيرهم فزعون والخوف يكون من وقوع مكروه والحزن يكون من فوات محبوب والجملتان تؤكدان أنهم لا يصيبهم ما يكرهون ولا يفوتهم ما يحبون، وهذا هو الفوز العظيم لأنه يعنى النجاة من النار وأنهم سيحاسبون حسابا يسيرا وينقلبون إلى أهلهم مسرورين وأنهم فى عيشة راضية كل ذلك متضمن فى هاتين الجملتين المختصرتين.

وقوله سبحانه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ هذه نعت لعبادى، وعباده هم المتقون ووصفهم بالتقوى وأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون كل ذلك يعنى أنهم آمنوا بآيات الله وكانوا مسلمين. فما وجه هذا النعت؟ والجواب أن هذا النعت تنويه بما جاء في صلة الموصول، والصلة هنا مكونة من جملتين الأولى ﴿آمَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ ومعناها أن الإيمان بآيات الله عند الله بمكان، ووراء ذلك أن رفض آيات الله والكفر بها وراءه من غضب الله ما وراءه، وهذا هو الوعيد الذى تحت الوعد والغضب الذى وراء الرحمة، ثم إنه سبحانه قال ﴿آمَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ وكان يمكن الاكتفاء بكلمة ﴿آمَنُوا﴾ لأن الإيمان لا يكون إلا بالآيات، وإنما ذكرت الآيات وهى الحجة البينة القاطعة لأن السورة بنيت على الآيات البينات التى دحض الله بها وجوه كفرهم ونقضها واحدة واحدة. وذكر أنه متع هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم رسول مبين يعنى جاءهم رسول بآيات الله البينات وبينها لهم وأرسل موسى بآياته

وجاءهم عيسى بالبينات وكل ذلك اقتضى ذكر الآيات هنا وفيه تهديد واضح لمن كفروا بها، وجملة وكانوا مسلمين هى أيضًا متضمنة فى التقوى ونفى الخوف والحزن ولكنها ذكرت لأن مضمونها عند الله بمكان ولن نفهم هذا المضمون على وجهه إلا بتحليل بنائها، وقد خالفت بناء الجملة قبلها وكان يمكن أن يقال الذين آمنوا وأسلموا ويكون الإيمان للاعتقاد والإسلام للانقياد والطاعة ولكن هذا ليس هو كل المراد لأن إضافة كلمة ﴿كَانُوا﴾ تعنى هنا كما قال علماؤنا أن خبرها يتماهى مع اسمها يعنى يكون جزءًا من ماهيته فليس المراد أنهم مسلمون ولكن المراد أنهم لطول مزاولتهم لطاعة الله ورسوله وطول ملابستهم لفعل ما أمر وكف النفس عما نهى صار هذا الإسلام جزءا من ماهيتهم، قال البقاعى: وكانوا دائمًا بما هو لهم كالجبلة والخلق، وقال الطاهر. إن فعل كان دال على اتحاد خبره باسمه حتى كأنه من قوام كيانه وهذا هو التماهى الذى قلناه، وهذا المضمون الذى أفاده هذا التركيب هو الذى قصد إلى التنويه به وعدم الاكتفاء بالدلالة الضمنية لأن أصحاب هذه المرتبة العالية هم الذين كان انقيادهم لنا جبلة وخلقا وليس وصفا يوصفون به فحسب، يعنى هذا هو النعت المراد من الموصول وصلته، والله أعلم.

وبعد هذه التخلية بنفى الخوف والحزن تأتى التحلية بالأمر بدخول الجنة قال سبحانه ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

وقبل الكلام فى الآيات أشير إلى هذا التنوع فى طرق الخطاب لأن الكلام فى ﴿يَا عِبَادِ﴾ جرى على طريق الخطاب ثم انتقل إلى الغيبة فى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ثم رجع إلى الخطاب فى قوله ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ ثم رجع إلى الغيبة فى قوله ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾، ثم رجع إلى الخطاب فى قوله

﴿وأنتم فيها خالدون﴾، وهذا التنوع وإن كان يفيد الكلام تطرية وإيقاظا كما قال الزمخشرى رحمه الله فإن له فى كل آية سرا، والانتقال إلى الغيبة فى قوله سبحانه ﴿الَّذين آمنُوا بآيَاتنَا وكَانُوا مُسلمين﴾ لأن هذا النعت يصف الحالة التى كانوا عليها قبل أن يكونوا فى حضرة الرحمن يقبل عليهم ويخاطبهم؛ وقد آمنوا وكانوا مسلمين فى دار التكليف فهم غيَّب هناك وآمنوا بالغيب، ثم إن هذا الالتفات فيه مزيد لفت إلى معنى الجملة التى يقع فيها، والانتقال إلى الخطاب فى قوله ﴿ادْخُلُوا الْجنَّةَ﴾ لأن الكلام رجع إلى الخطاب الذى بدأ بقوله ﴿يا عبادِى﴾، وهذا الرجوع يعنى مزيد عناية كما قلت بموضع الجملة التى وقع فيها الالتفات وهو دخول الجنة لأنه الغاية التى جعل العارفون لله والمقيمون على صراطه المستقيم عمرهم وكدَّهم وَوكْدَهم فى طلبها، والأمر بدخول الجنة أمر يدركه الكافة على درجة واحدة، والمطلوب هو الرجوع إلى الحدث الذى يدل عليه الفعل فى إطار وزمن وأحوال الأحداث المحيطة به ليكون التعرف أشمل وأدق وأوعب، ومعلوم أنه ﴿مَن زُحْزِح عن النَّارِ وأُدْخل الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وهذه وحدها تجعل للأمر بدخول الجنة مذاقًا مختلفا ووقعا مختلفا فى نفوس من وجه إليهم هذا الأمر، وهناك حشد يوجه إلى أبواب النار وهم يوزعون حتى إذا وقفوا على بابها شهدت عليهم جلودهم بما كانوا يعملون، وهذا يجعل لهذا الأمر مذاقا خاصا ووقعا خاصا على نفوس الذين منَّ الله عليهم به، وهكذا نضع الحدث فى إطاره وفى مصاحباته، وقوله سبحانه ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ فيه زيادة منٍّ وفضل ومن المسرة أن تكون مع من تحب ثم إن المن والفضل بدخول أزواجهم معهم فيه إشارة إلى أن الله رفع الأزواج درجة حتى يلحقن بأزواجهن لأنهن لو كن فى مرتبة الأزواج لكان الدخول معهم استحقاقا بوعد الله وليس منًّا ثم إن المسرة بصحبة الأزواج ليست هى وحدها وإنما المسرة بصحبة الأبوين والأولاد وسكتت الآية عن صحبة الوالدين والأولاد لأن هذه الصحبة داخلة فى قوله تعالى

﴿ والَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] يعنى وما أنقصناهم فذرية الصالحين ملحقون بهم والصالحون ملحقون بآبائهم وهكذا تكون المسرة فى الجنة بمعية من لا يتصور معيتهم فى الدنيا لأن ذرية الصالح تلحق به ولو كان بينها وبينه قرون وهو يلحق بآبائه ولو كان بينهم وبينه قرون وكل هؤلاء يتعارفون بينهم وهذه أكرم صور التعارف في الجنة، ونعمة من أفضل النعم، ثم إن قوله سبحانه ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ فيه إيماءة إلى أن الشأن فيمن يناديهم ربهم بعباده أن يكونوا دعاة هداية لمن حولهم ومن معهم من الصاحبة والولد وأن الرفقة فى رحمة الله فى الجنة شيء عظيم يُبْذَل الجهد فى تحصيله فضلاً عن الفوز بالزحزحة عن النار والنجاة منها.

وجملة ﴿تُحْبَرُونَ﴾ جملة حالية وفى دلالتها على الفضل والمن والإكرام والإقبال من الله ليست أقل من الجملة الأصل ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ لأنها تعنى تكرمون إكرامًا مبالغاً فيه يظهر آثاره عليكم فليس الفضل فى أن لا تخافوا ولا تحزنوا ولا فى أن تدخلوا الجنة أنتم وأزواجكم ليس الفضل فى هذا فحسب وإنما يضاف إليه أن يكون دخولكم مع أزواجكم مصاحبا لحال الإكرام والمبالغة فى الإكرام وأنه لا يكتفى فى إكرامكم بهذا ولا بذاك وإنما الحفاوة والإكرام والإفراط فى الإكرام لمن معكم ولكم حيث حللتم، وهذا هو المعنى الجليل لهذه الجملة الحالية ومن يسمع هذا من الله ولا يسعى إليه فقد أساء الأدب مع الله وهذا هو فقه قوله سبحانه ﴿واللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ﴾ [يونس: ٢٥] وفى وسط هذا الفيض من العطاء يحسن أن نتنبه وننبه إلى شيء لأنه عدل كل هذا العطاء وهو أن هذا كله جرى فى خطاب من الله لهم بدون واسطة ملك فالله هو الذى يقول لهم لا تخافوا ولا تحزنوا وادخلوا الجنة ومعكم أزواجكم تكرمون ويبالغ فى إكرامكم ولو أنهم بلغوا بذلك بواسطة ملك لذهب شطر كبير منه، وأقول مرة ثانية من يسمع هذا

ولا يقبل عليه ويحرص عليه فقد أساء الأدب مع الله وأساء الظن بالله ولا يهلك على الله إلا هالك، ولا ننسى أن هذا من لواحق أسرار الالتفات ويلاحظ أن كلمة ﴿تُحْبَرُونَ﴾ لم تأت في القرآن إلا في هذه الآية وأعني التي تبدأ بتاء المخاطبين كما هنا وقد جاءت مرة واحدة في سورة الروم بياء الغائبين وذلك في قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥] وهي في الآيتين مبنية للمجهول والمقام مقام واحد فهم يحبرون في الجنة؛ وفي البناء للمجهول معنى أن الحبور الذى هو السرور الذى تظهر حبارته يعني آثار نعمته عليهم يأتيهم من حيث لا يعلمون وكأنه يفيض عليهم من هنًّا وهنًّا، واقرأ الجملة وحاول أن تستخرج منها ما لم نستخرجه ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾.

قوله سبحانه ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وأول ما يلفت في هذه الجملة أن الكلام انتقل من الخطاب في قوله ﴿تُحْبَرُونَ﴾ إلى الغيبة في قوله ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ والجزء الذى يكون فيه الانتقال جزء له خصوصية هيأته ليكون موضع العدول من طريق إلى طريق، والذى يظهر لي وليس شافيا ولا كافيا هو أن هذه الجملة انتقل بها الحدث من مقام الخطاب الذى فيه نفي الخوف والحزن والبشارة بالجنة إلى حال استقرارهم في الجنة، ومسكنهم فيها، وأنهم متكئون على رفرف خضر وعبقري حسان أو متكئون على الآراك، المهم أنهم انتقلوا إلى هناك ولم يعودوا في موقف الخطاب فجاء الكلام إخبارا عنهم وليس خطابا لهم وكأن الخبر خبر عن صورة عجيبة وقوم غُيَّب وهو جدير بأن يحكى لعدم إلفه فلم يألف الناس صحافا من ذهب ولا أكوابا من ذهب يطاف على المكرمين بها، الالتفات في ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ كان لأن الكلام رجع بهم إلى ما قبل زمن التخاطب حيث كانوا في دار التكليف فناسب

أسلوب الغيبة وهو هنا لأن الكلام لم ينتقل بهم إلى الوراء وإنما خطا بهم إلى الأمام وحدث عن الذى سيسجدون فى الجنة وأنه يطاف بهم فحكى عنهم ولم يحك لهم.

وهناك تجانس خفى بين البناء للمجهول فى ﴿تُحْبَرُونَ﴾، و﴿يُطَافُ﴾ ولم تأت ماده يحبرون فى الكتاب إلا مبنية للمجهول للإيماء إلى خفاء أسباب المسرة وكثرتها وتنوعها بخلاف يطاف فقد جاءت مبنية للمعلوم وفاعلها ولدان مخلدون وغلمان لهم وهنا لم يتعلق الغرض بالذى يطوف والكلام هنا مؤسس على الإيجاز الشديد فقد ذكر صحاف الذهب وأكواب الذهب وأراد مع التنعم الشديد الإشارة بالصحاف إلى الطعام لأن الصحاف جمع صحفة وهى القصعة التى يقدم فيها الطعام وإذا كانت القصعة من ذهب فأى طعام يكون فيها؟ الآية تركت هذا وأومأت إليه بهذه الإيماءة التى تخصب الخيال وتذهب النفس فيه كل مذهب، وقل مثل ذلك فى أكواب الذهب والأكواب جمع كوب وإذا كان من ذهب فأى شراب يكون فيه؟ الكلام فى هذه الآية مختصر جدا ويَنْتَقِى من أحوال أهل الجنة ما يتجانس مع مكونات السورة فهو لم يذكر مثلا عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ولا متكئين على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولازمهريرا وإنما ذكر صحاف الذهب وأكواب الذهب ليتجانس مع ما تقدم من قوله تعالى ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ وكأن هذه الآية هنا ترجمة عملية لقوله سبحانه فى الآية السابقة ﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وها هم المتقون الذين قيل لهم لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون يدخلون الجنة وأزواجهم ويطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وهذا ظاهر إن شاء الله. وقوله سبحانه ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ لم أقرأ فى معنى هاتين الجملتين كلاما أوجز ولا أسخى

ولا أرفع من هاتين الكلمتين وراجع ﴿تَشْتَهِيه الأنفُس﴾ وأسأل هل يمكن أن تستقصى هذا المعنى حتى تقول إنــه يراد كذا وكذا وينتهى المراد عند ما تقول؟ وأنا لا أستطيع أن أحدد مـا تشتـهيـه نفسى، لأنه يدخل فى مشـتهـياتهـا المحسوسات المتنوعة، ويدخل فيها المعنويات المتنوعة، فقد تشتهى نفسى قراءة الشعـر والدندنة به، أو تشتهى حـفظه وقوة حضوره فى نفسى حتى لا أرى شيئًا بعينى إلا واستحضـرت له من الشعر ما يدل عليه، ولأبى العلاء تجارب طريفة فى الجنة مع العلماء والشعراء من هذا النوع حتى أن بعضهم اشتهى أن يرى السحـابة التى وصفهـا أوس فتجلت له، وهكـذا وقل مثل ذلك فى كل شىء، وقوله سـبحانه ﴿وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ إسناد اللذة للأعين من الإسناد النادر وقد جاءت كلمة اللذة فى القرآن مسندة إلى الشاربين فى قوله تعالى ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٥، ٤٦] وفى قوله سبـحانه ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ [محمـد: ١٥] ولم تذكر هذه المادة فى الكتـاب إلا فى هذه المواضع الـثلاثة والـذى يلذ العـين كله مما يرى بالبصـر كاللؤلؤ المنثور وذوات الأفنان والـنمارق المصفوفـة والخيرات الحـسان والبيض المكنون والياقـوت والمرجان والمقصورات فى الخيـام وما شابه ذلك مما أورد الكتاب العزيز صـورا عن بعضه وهذه هى الجملة الثـالثة التى تحدث عن غائب وقبلها ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ ثم ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾، وهذا اخـتصـار شديد لما فى الجنة ولم يـتجـه الحديث إلى مـا فى الجنة وإنما الحديث كله يتجه إلى عباده فى حـضرته، ولهذا رجع الكلام بعد هذه الجملة إلى أسلوب الخطاب وقال سـبحانه فى خطاب عـباده ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وأنا أحب البحث فى موطن العـدول فى الكلام لأنه من الوُكنات أو الوُكرات التى يودع البـيان فيـها سراً من أسـراره والذى أراه هنا أنه بعد مـا حدَّث عن دخولهم الجنة وأزواجـهم وأنهم يحبرون إلى آخره بقيـت البشارة الأعظم لأن

كل نعيم يكدره زواله أو الإحساس بزواله، وتمام النعمة بأعظم النعمة هو الإنعام بخلودها، ولهذا نجد هذه الجملة أكرم الجمل التى مضت وإن كانت لا تستمد كرامتها إلا من الجمل التى مضت لأن قيمة الخلود أن يكون الخلود فى الجنة ومع الأزواج والذرية والآباء والأمهات، ويطاف عليهم بصحاف الذهب، وأن يكون فيها ما تشتهيه الأنفس ويبعث اللذة فى الأعين كل هذا يجعل جملة ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ذات مذاق آخر حتى إنها لو جاءت غير مسبوقة بما سبقت به هنا لكان لها دلالة أخرى وهذا فيما نراه سر من أسرار هذا الالتفات الذى جاء فى أنفها، والجملة حالية وقد بنيت بناء يدل على الثبوت والدوام ليتلاءم مع معناها الذى هو الثبوت والدوام، والخلود، وكلمة ﴿فِيهَا﴾ مقدمة عن تأخير والأصل وأنتم خالدون فيها، وإنما قدمت لأنها سر معنى الجملة لأن قيمة الخلود أنه فيها، وهى موصوفة بما وصفت به وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. ومواقع الجمل من الإعراب ضرورى للفهم، وإذا تاه منى موقع الجمل رأيت ضبابا يتغشاها ويلف بها ويكون كلامى فيها مبنيا على المقاربة، وليس على الكشف عن حاق المعنى فجملة ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾، يمكن أن تكون بيانا للجملة قبلها ﴿تُحْبَرُونَ﴾ لأنه من الحبور والإكرام الذى يظهر حباره يعنى أثره أن يطاف عليهم بصحاف من ذهب ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ منثور ويمكن أن تكون جملة مستأنفة وأن تكون قد قطعت الكلام السابق الذى فيه الحديث عنهم إلى الحديث عن الجنة التى أمروا بدخولها وأن يكون قوله ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ مُنزل منزلة الكلام الداعى إلى القطع والاستئناف كذكر الديار وذكر الصاحبة لأنه مما يشوق إلى بداية حديث عن شىء تقدم كما فى شاهد سيبويه.

اعتاد قَلْبك من ليلى عوائدهُ ... وهاج أهواءَك المكنونة الطَّلَلُ

ربع قَواءٌ أذاعَ المعُصرات به ... وكلُّ حيران سارٍ ماؤه خَضِلُ

وسواء كان هذا أو ذاك فإن جملة ﴿وفيها ما تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ﴾ جملة حالية ﴿وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ معطوفة عليها وداخلة فى حكمها، لأنها من تمام معناها لأن ما يلذ الأعين بسبيل متين من الذى تشـهيه الأنفس. وهذا بخلاف وأنتم فيها خالدون، فـإنها وإن كانـت جملة حاليـة فإنها حـال قائم برأسـه لأنه معنى جديد، وإن كـان قد اسـتقى سـخاءه من الجمل الثـلاثة قبله: يطاف عـليهم بصحاف من ذهب. فيها ما تشتهيه الأنفس.. وتلذ الأعين.

قوله جل شأنه: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِما كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

جملة وتلك الجنة معطوفة على قوله سبحانه ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ ولسنا فى حاجة إلى أن نبين المناسبة بين الجملتين لأن هذه المناسبة ظاهرة، والذى يحتـاج إلى بيان هو الفـرق بين الجملتـين لأن هذا الفرق هو الذى يبين لنا المعنى الذى أضـافته الجملة الثانيـة لما عطفت على الأولى. وقد بينا دلالة الجملة الأولى وأنها مؤسسة على دخولهم الجنة وإكرامهم فيها وهذه الجملة الثانية تحتاج إلى أن نحدد مفـاصلها التى تأسس تركيبها عليها لأن هذا هو السبيـل إلى الفهم الصحيح، وقد ذكـر أهل العلم ببيان العربيـة أن كلمة تلك مبتدأ وأن الذى بعده ﴿الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِما كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هو المخبر به عن هذا المبتـدأ وهو جزؤه المتم الفائدة وعليـه يكون مغزى الجملة الإخـبار عن اسم الإشارة بأنه ﴿الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِما كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ واسم الإشارة الذى للبعـيد عائد إلى الجـنة التى فى قوله ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ وأن البعـد فيه إشارة إلى بعد المكان وبعد المنال وأن هذه البعيدة المقام والمنال ليس لكم سبيل إليها إلا العمل. وأن الله سبحانه لما قال لكم ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ إنما قال ما قال لأنكم عملتم وآمنتم بآياتنا وكنتم مـسلمين؛ استجابتكم لداعينا كانت طريقكم إلى الجنة. وقالوا إن تلك مـبتدأ والجنة بدل منه أو عطف بيان

والتي أورثتـموها بما كنتم تعـملون هو الخبـر، والفرق بين الإعـرابين هو أن الاسم الذى يؤتى به مجردا من العوامل ليسند إليه ما بعده هو فى الأول تلك وحدها وهى عـائدة على الجنة السابـقة وهو تلك الجنة فى الإعـراب الثانى، وبينهمـا فرق خفى لأن وقوف اسم الإشـارة وحده وهو دال على علو المكان وبعد المنال له فى الدلالة معنى مختلف وهذا مما يدرك بالطبع والروية، وقالوا إن المقصود الإخبار عنه يعني المبتدأ هو ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾، والخبر المتم الفـائدة هو ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وهذا الوجـه هو أقرب الوجـوه فى الدلالة على أن دخول الجنة أو إرث الجنة أو امتلاك الجنة سببه العمل لأن هذه الباء التى فى الخـبر هى باء السـببية وهذه السـببية هى من وعـد الله وليست باستحقـاق أو قل هى استحقاق ولكنه استحقـاق بوعد الله، وهذا معنى آخر سنعرض له فى التحليل ونحـن الآن مع الإعراب الذى هو النجم الهادى إلى سبيل المعنى ومن افتـقده فلن يجد نجما آخر يهديه وإنما سـيخبط ويسمى هذا الخبط علما، وإذا كانت الجملة الأولى بنيت على إكرامهم فى الجنة فإن الجملة الثانـية بنيت على بيـان ما به دخلوا هذه الجنة ولولا الحـرص فى بناء العـبارة والرغبـة فى البعـد عن مناطق المنازعة لقلت بنيت الجـملة الثانيـة على ما به اسـتحـقوا هذه الجنة وعلى سـذا تكون الجملة الثـانيـة من تمام معنى الجـملة الأولى، ولو حـذفت لكان المعنى مع الجـملة الأولى مـعنى أبتـر، وللقـرآن مسالك بعيدة فى صياغـة صلة الموصول، وقد مر بنا قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ورأينا ما فيه وهنا أعـجب منه لأن قوله تعالى ﴿الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه مـداخلات ومزج بين معان بعيـدة ومتنازعة وأول ذلك أنه قال ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ فأشـار إلى أنها ملك لمن مَنَّ الله عـليهم بدخولها لأن الإرث ملك من أكرم المِلْك لأنه تالد قديم، وفيه كد أبى وجدى فهو أعز على من ملكى الطارف الذى هو كدى أنا، ثم إن الإرث يعنى أنه آل إلى الوارث من غيـر جهد منه، فى تحـصيله فهـو فضل كله، ولم يبذل فـيه

شيء، وقوله ﴿بِما كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يصطدم مع الإرث لأننا لم نرث شيئًا قط بما كنا نعمل. وإنما بما كان آباؤنا يعملون وهذا هو معنى التنازع في بناء المعنى. ومعنى تشابك العناصر المتصادمة والإرث يعنى أننا لن ندخل الجنة بعملنا كما قال ﷺ «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»، ولذلك قالوا إن السببية التى هى معنى الباء فى قوله ﴿بِما كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هى سببية بجعل الله ووعده والسببية بالجعل والوعد نفى للسببية الموجبة التي يقول بها المعتزلة وإذا قلنا إن العبد يستحق المثوبة من الله على عمله الصالح فإن الاستحقاق الذى نستعمله هو استحقاق بوعد الله وليس لأحد عند الله حق إلا ما أوجبه على نفسه، وجعل لعبادة عليه حقوقا بمنّه وفضله سبحانه، والمعتزلة لم يسيئوا الأدب مع الله لما أوجبوا عليه ثواب الصالحين من عباده لأن الذى دعاهم إلى ذلك هو أن إهدار ثواب الصالحين ظلم والله منزه عن ذلك، وهذه الدائرة هى دائرة الخلاف وهى دائرة التنزيه وكلهم يروم مراد ربه، وغفر الله لنا ولهم جميعا، وإنما كان العمل موجبًا بالجعل والوعد وليس بالاستحقاق لأن الله لو حاسب عباده على نعمه لكان عمل العبد فى عمره كله لا يكفى فى شكر نعمة واحدة من نعم الله التى إن تعدوها لا تحصوها، فضلا على أن العمل ذاته نعمة توجب الشكر، والشكر نفسه نعمه توجب شكرا ثانيا، وهكذا لو قضى العبد عمره كله فى سجدة واحدة لله رب العالمين لما وفَّى بشكر نعمة واحدة، هكذا قال الشيخ محمود شاكر رحمه الله. وراجع عبارة الآية عن العمل الذى لا يوجب الجنة إلا بالجعل والوعد، وتبين مدى هذا العمل وامتداده فى الزمان واقتران العبد به، وطول مداومته له حتى صار هذا العمل المقرب إلى الجنة والموجب لها بالجعل والوعد طبعا من طبع العامل وجزءا من ماهيته كل ذلك وأكثر منه تراه فى استعمال كلمة كان فى قوله تعالى ﴿بِما كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لأن كان فى مثل هذا الأسلوب تفيد أن خبرها صار جزءًا من ماهية اسمها يعنى

العمل الصالح الذى يفتح باب رضوان الله صار جزءًا من ماهيتهم المدلول عليها بقوله ﴿كُنتُمْ﴾ ولاحظ أن صيغة المضارع فى قوله ﴿تَعْمَلُونَ﴾ تعنى أنه عمل يتجدد ويحدث وهكذا هو يتجدد ويحدث إلى أن يأتى أجل العامل وهذا امتداده فى المستقبل، ثم إن كلمة ﴿كُنتُمْ﴾ تجعل له امتدادا فى الماضى صار به جبلة وطبعًا، ثم إنه فى الماضى البعيد الموغل والمستقبل الممتد يجب أن يكون مضبوطا بضابطين ذكرهما العلماء فى أصل قبول العمل الأول أن يكون على وفق ما جاء به الشرع، فالصلاة والزكاة والحج والصدقة والبر كل ذلك واقع على وفق الضوابط والأحكام الشرعية، والثانى أن يكون خالصا لله ليس فيه أدنى شائبة لغيره، وإلا حبط العمل وهلك صاحبه، كل ذلك فى الماضى كله والمستقبل كله وكل ذلك سبب بالجعل والوعد وكل ذلك يعطى معنى آخر لقوله تعالى ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وعليك أن ترجع إلى السهولة التى دخل بها المتقون الجنة بأمر الله المباشر لهم هم وأزواجهم يحبرون، ارجع إلى هذا وفى يديك ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على الوجه الذى شرحناه لتعرف مَنْ هؤلاء الذين يطاف عليهم بصحاف من ذهب؟ وماذا عملوا فى الزمن الممتد وكيف كانت طاعة الله والإسراع لأمره والكف عن ما نهى عنه كيف صار ذلك جبلة وطبعا.

وقوله جل شأنه ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ هذه الجملة صفة للجنة والجملة الأولى بينت طريق امتلاكهم لها امتلاك الوارث لإرثه وهذه بينت ما ينتفع به مما فيها، ويلاحظ كما هو الشأن فى الجملة القرآنية أن كل كلمة لها دلالة خاصة وكل موقع له دلالة خاصة فكلمة ﴿لَكُمْ﴾ التى بنيت عليها الجملة، وهى مقدمة عن تأخير أفادت أنه ملك لكم لأن اللام تفيد الملكية، وهذا تأكيد لمعنى الإرث وأن عباد الله لا يقيمون فى الجنة ولا يسكنونها، وإنما يمتلكونها كما قالت امرأة فرعون ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا

﴿فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١] فقالت ﴿ابنِ لِي﴾ يعنى بيتًا يكون ملكا لى، قلت إن الجار والمجرور يفيد أن الذى فيـها ملك لهم ولهذا قدم وقدم أيضًا الظرف ﴿فِيهَا﴾ ولو قال لكم فاكهـة كثيرة فيها لتغـير المعنى وذهب شطر حسنه لأن المقصود أنها ملكية فيـها وهذا هو الفضل وهذا هو المنُّ، والفاكهة تطلق على كل الثمار وعلى كل طعـام أهل الجنة ولو كان لحم طير لأن كل طعـام الجـنة لا يتقوَّون به، وإنما يتفكهون به فليس كطعام الدنيا ليس فيه شىء يؤكل لحاجه وضرورة وإنما يؤكل كله لاستطابته واشتـهائه والتفكه به، وهذا هو الذى يفيد هذه الجملة معنى العموم الذى يشمل ما جاء فى الآية المعطوف عليها ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ لأن الفاكـهة تعنى عـموم مـا فى الجنة من المطعوم وهو الجـزء الأكبر مما تشتهـيه الأنفس والجزء الأكبـر مما يلذ الأعين، وقوله سبحانه ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ تأكيد لمعنى الكثرة وأن كل ما تأكلونه هو منها وليس كلها وأن المضارع فى تأكلون مـؤذن بالتجدد والحدوث، وأن كل الأكل الآتى فى الزمـن الآتـى الـذى ليس له نهـاية كله منهـا ولـيس كلهـا وأنهـا لا مقطوعة ولا ممنوعـة وكل ثمرة تقطع من ثمار الجنة ينبت مكانها ضـعفاها ولا يقاس الغائب على الشاهد.

وإذا كانت جـملة ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ أفـادت معنى جـديدا لم تفده جـملة ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ فإنى لم أقع على معنى جديد تفيده جملة ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ لأن جملة ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ معناها أشمل وأوسع وأسخى من جملة لكم فيها فاكهة كثيرة، اللهم إلا أن يقال إنها من ذكـر الخاص بعـد العام، لأن كل مـا يتفـكه به داخل فى الذى تشتـهيـه الأنفس وإنما ذكر هذا الخاص لأنه هو الأكثر استعمالا والأكثر ظهورا، وإذا لم يكن هذا التحليل كـافيا وأظنه ليس كافـيا فابحث عن سر هذه الجـملة أما أنا فإنى أقـول الله أعلم بأسـرار كلامه وألوذ بقـول أشيـاخنا من علم الرجل أن

يقول لا أعلم، وبهذه الجملة انتهى الحديث إلى المتقين وعنهم ليبدأ الحديث عن الصنف المضاد والمحارب لدين الله، وقبل البداية فيه أشير إلى أن الحديث عن هذا الفريق المعارض لدين الله جاء بصورة مجملة في التعقيب على اختلاف الأحزاب من بين قوم عيسى عليه السلام وأنهم بدلوا وغيروا فى أصل الاعتقاد وكانت فاصلة الآية ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ واتسع فيها المعنى فشملت الأحزاب وكل من ظلم وبدل والذى سيأتى من أول قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ تفصيل لهذا الإجمال وبيان للويل الذى أعده الله للذين ظلموا وقد فَصَلَ قوله تعالى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ إلى قوله سبحانه ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ بين الإجمال والتفصيل. ووجه هذا الفصل وهذا الطريق فى بناء المعانى -والله أعلم- هو أن السورة بنيت من أولها إلى آخرها على ذكر ضلالات وكفريات أهل الباطل. وعدَّتها واحدة واحدة، ونقضتها واحدة واحدة وكان هذا يقتضى فى الظاهر أن يكون الانتقال إلى أحوال الآخرة بعد أحوال الدنيا حديثا كاملا عن عذاب أهل هذا الباطل. وخصوصا أن السورة لم تذكر نموذجا من الصالحين المتقين الذين تحدثت عنهم الآيات من أول قوله ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ إلى آخر ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ وإنما كان يذكر الأنبياء كإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ولم يذكر مع هؤلاء الأنبياء أحد ممن آمن بهم وإنما ذكر إبراهيم وخطابه لأبيه وقومه وذكر موسى مع فرعون وذكر عيسى وبعده الأحزاب، وكل هذا يجعل السورة مبنية على حوار الباطل والمبطلين، ولهذا جاء حديث المتقين فى السورة كأنه حديث عارض ودخلت فيه السورة بواسطة الاستثناء لما ذكرت المودة التى بين أعداء الحق وأن عداوتهم للحق جعلت بينهم مودة وأن هذه المودة ستنقلب عداوة يوم القيامة ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ والأخلاء جمع خليل جاء ذكر المتقين استثناء من هذه القاعدة ثم دخل الكلام وبين مقامهم ومكانهم عند

رب العالمين واختصر ذلك اختصارا ثم رجع إلى المجرمين كما سنبين وإنما بقى أن أنبه إلى أن هذا الاستثناء الذى جر الكلام فى عباد الله لم يأت عفوا وإنما هو مقصود، ووجه ذلك والله أعلم، أن الآيات لما نقضت ضلالاتهم ضلالة ضلالة وأبانت عن هذا النقض بيانا شافيا كافيا لم يبق إلا أن يتجه إلى الحق من يريد أن يتجه، وليس المطلوب منه إلا أن يتخلص من تشبثه بباطل لم يعد عنده شك فى أنه باطل، ومن أجل أن يؤدى هذا البيان ثمرته المرجوة منه أتبع ذلك ببيان منزلة من يرجعون إلى الله عند الله فى الآخرة وأن من يتقى الغضب سيجد نفسه بين عباد الله الذين يناديهم ربهم ويقبل عليهم ويقول لهم ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ولا أنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، وقد فعل هذا فى نفوس القوم ما فعل ودخلوا فى دين الله أفواجًا إلا من سبق عليه الكتاب، ويلاحظ أن القوم وهم فى شدة العناد لم يكن يمر يوم إلا ويدخل فى دين الله من يدخل ويكثر سواد من آمن ويقل سواد من كفر، هذا والله أعلم.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾.

ومما يرشح ما قلناه من أن ذكر المتقين وإكرام الله لهم وهذا التصوير الموجز للنعيم الذى هم فيه إنما كان من مقاصده إغراء من رأوا أباطيلهم تهدمها الحجج الساطعة ليرجعوا ويتقوا اليوم. وربما كان فى ذكر كلمة المتقين ما يغرى بالمبادرة بجعل وقاية بينكم وبين غضب الله أقول مما يرشح هذا ويرجحه أن آيات العذاب هنا بلغت الغاية فى تصوير العذاب وتصوير اليأس واستطالة مدة العذاب واستطالة مدة الألم، وهذه من الآيات النادرة فى تصوير ما يجدون من أهوال حتى إن القارئ والسامع ليكاد يرق لهم، وتبادر الآيات هذا الإحساس المتوقع وتقول ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾

وهذا التصوير البالغ للوجع والألم واليأس والإبلاس كل ذلك يغرى بمراجعة هدم الباطل فى السورة وإن كان ظهوره يغنى عن الحاجة إلى المراجعة وتحت آيات الأهوال رحمة الرحمن التى تحذر منه قبل وقوعه لأنه إلى الآن لم يقع وسيقع وكأن الآيات تقول لنا النجاء النجاء.

قوله سبحانه ﴿**إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ**﴾ إما أن يكون هذا استئناف كلام عن المجرمين بعد الكلام عن المتقين أو يكون تفصيلا للمجمل فى قوله سبحانه ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ**﴾ أو هو لهما استئناف، وتفصيل. والتوكيد الذى بنى عليه الكلام لقوة الوعيد وقوة الغضب والمعنى المؤكد هو إثبات الخلود فى عذاب جهنم وفرق بين تأكيد العذاب، وتأكيد الخلود فى العذاب، وتأكيد الخلود فى العذاب يعنى تأكيد العذاب وزيادة، وهذا هو معنى الغضب الذى فى الجملة والمراد بالمجرمين: الذين كفروا بدليل ما قبلها وهو قوله سبحانه فى وصف الفريق المقابل ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ**﴾ وبدليل ما بعدها وهو قوله جل شأنه ﴿**لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**﴾ فليس فى الآية حجة للمعتزلة الذين يفسرون المجرمين بمرتكبى الإجرام كفرا كان أو كبيرة ويستشهدون بقوله ﴿**فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ**﴾ على أن مرتكب الكبيرة يخلد فى النار، وإذا كان المراد بالمجرمين هنا الكافرين والمراد بالظالمين فى قوله سبحانه ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ**﴾ هو الكفار فلماذا عبر بهما عن الكافرين؟ والجواب هو أن استعمال المجرمين فى الكافرين واستعمال الظالمين فى الكافرين المراد به التنفير من الظلم والإجرام، وأن مزاولتهما تقرب من يزاولهما إلى الذى لا يُغْفَر وهو الكفر ولا شك أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية والكبيرة التى يخلد صاحبها فى النار عند المعتزلة هى التى يموت مرتكبها قبل أن يتوب منها. أما إذا تاب فإن المعتزلة يرون أن الله سبحانه واجب عليه أن يقبل توبة من تاب وهذا باب فيه كلام كثير، والذى يعنينى هو لماذا عبر عن الكافرين هنا بكلمة

مجرمين والجـواب يهدى إليه بعض كلام علمائنا الذين يرجـعون بالكلمة إلى أصل الاشتقاق ويوجـزون ذلك فى تفسيرها كما يقول البقـاعى هنا فى تفسير المجرمين يعـنى العريقين فى قطع ما أمـر الله به أن يوصل وهو يعنى الرجوع إلى معنـى الجَرْم الذى هو القطع والجرم هـنا هو جرم الخلة التى كـانت مودة بينهم فى الحيـاة الدنيا وأنهم هم الذين قطعـوها لما أسسوها على مـحادة دين الله وحرب الله ورسـوله والتآزر على المكر بآيات الله وهذا أبشع ما اقـترفوه فى هذا السياق وسيأتى المزيد منه فى قوله سبحانه ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ وكل هذا داخل فى ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ وجملة ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾، مقابلة لجملة ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وتأمل الفرق بين ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وعذاب جهنم هؤلاء خالدون فيما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهؤلاء خالدون فى عذاب جهنم يعنى الخلود ليس فى الجنة وإنما فى الذى فى الجنة، وليس فى النار وإنما فى عذاب جهنم، وقد صار العذاب لهم ظرفا وهم فيه، وقدم ليلفت الـكلام إليه، ولو قلت إن المجرمين خالدون فى عذاب جهنم لذهب شطر الفصاحة لأن المقصود هو العناية بحبسه ودخوله فى هذا الظرف الذى هو العذاب، الذى أضيف إلى جهنم ولم يقل فى عذاب النار لأن كلمـة جهنم فيـها غضب وتجـهم وكأنهـا تستقـبلهم وهم فى ظرف العذاب وهى غاضبة متجهمة أو تَمَيَّز من الغيظ.

وقوله ﴿لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ لا يخفف ولا ينقص من قولهم فـترت عنه الحمى إذا سكنت وهذه الجملة من تمام معنى أنهم محبـوسون فى عذاب الجحيم وأن صندوق العـذاب الذى هم فيـه لا يُفَتَّر لأن النـار تُفَتَّر عـنهم إذا كان يأتيـها وقودها من خـارجها ثم يقل هذا الوقود وذلـك لن يحدث لأنهم هم وقـود النار فلا تفتر عنهم بل تسـتعر بهم وقوله ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ المبلس الآيس يأسا أسكته وهذه الجملة كأنها نتيجـة للجملتين قبلها وراجع الجمل الثلاثة فى

عذاب جـهنم خالدون. . لا يفتر عنهـم. . وهم فيه مبلســون، وتأمل الإيجاز الشديد والتهديد البالغ، وهذه الجـمل الثلاثة دائرة حول عذاب جهنم لأنه هو خبر المجرمين والخبر الجزء المتم الفائدة، وهو الذى لا يفتر عنهم وهو الذى هم فيه مبلسون وجملة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أخت ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾، وأن الخلود فى عذاب جهنم هو الذى أنتج الإبلاس وهو اليأس والذل الصامت الأخرس وراجع ﴿هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ و﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُون﴾ ستـجد الظرف فى الجملتين له مـقام واحد والمعنى معقـود على تقديمه ولو قلت وهم مبلسون فـيه لذهب شطر الحسن لأن المقصود فـيه مبلسون وليس مبلســون فيه كمـا قلنا فى عذاب جـهنم خالدون وليـس خالدون فى عذاب جـهنم، وهذه الجمل الثلاثة ممسك بعضها ببعض فى المعنى والإعراب.

وقوله سبـحانه ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ هذه الجملة تدل على استعظام مـا هم فيه من العذاب، وكأنها تعـود إلى الجمل الثلاثة بمزيد من الإيضاح وكـأنها تطالبنا بأن نعود وننظر إلى الجـمل الثلاثة ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُون (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ وأن ذلك قد يبعث فى النفس التى لم تحسن تصور إجرامهم شيئًا من الرقة فبادرت الآيات ونفت أن يكونوا ظُلِمُوا، وإنما جـزاء سيئة مثـلها وراجع صدر الجملة تجـد بناء سهلا وقـريبـا وليس أكـثـر من نفى الظلم عنهم، ثم راجع عـجـزها ومـا بعـد الاستدراك تجد بناء آخر ودلالة أخرى وكلمة ﴿كَانُوا﴾ تشير إلى أنهم طبعوا على الظلم وصار من حقيـقتهم لأنها تفيد معنى أن خبر كـان يداخل حقيقة اسمها ثم إن ضمير الفصل أكد معنى القصر لأن القصر مدلول عليه بالألف واللام فى الخبر وستبين الآيات بعد ذلك بشاعة ظلمهم، وهو أنهم يكرهون الحق، وليس فى رذائل النفوس أبشع من رذيلة كراهية الحق، ثم إن فى الآية قصرا آخر مدلولا عليه بغير طريق القصر وهو حرف الاستدراك فإذا قلت

ما فعلت هذا ولكن فعله فلان كنت قصـرت فعله على فلان وأفدت القصر بطريق جملتين جملة نفت وجملة أثبتت وكل هذا يؤكد حقيقة أنهم لم يظلمـوا وإنما كان ظلمهم مقصـورا عليهم، وكل هذا أيضًا يؤكد هول ما هم فيه، وأن هذه الأهوال التى تراها فى الجـمل الثـلاثة كان باسـتحـقاقـهم، والله سبحانه وتعالى منزه عن ظلم مـثقال ذرة، فكيف بهذه الأهوال، وشيء آخر فى هذه الجملة وهو أنهـا راجعة لتؤكـد الجملة الأم التى كانت وعيـدا عاما وهى قوله تعالى ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ**﴾ وقد جاءت بدون قصر لأن المقام لا يقـتضى فلما جاءت الآيات التى تُفصِّل الويل وكـان فيها مـا بينا اقـتـضى ذلك نفى أن يكونـوا -وهم فى هذا الويل- قـد ظُلِمُـوا، فتـواترت طرائق القصـر على الحد الذى شرحناه. بقـى شيء وهو لماذا جاء لفظ الظلم هنا عـبارة عن الكفـر مع أن الكفر أبشع لأنه ليس له إلا مـعنى واحد وهو الشرك لأن كفر النعـمة لا يراد فى مثل هذا المقام؟ والذى عندى فى هذا هو أن الظلم وضع الشيء فى غـير موضعـه وأصله من الظلمة التى هى ضد النور، وأبـشع أنواع الظلم وضع الباطل مـوضع الحق، والأحزاب لما اختلفوا ظلموا لأنهم وضعوا الوثنية موضع التـوحيد وقال بعضهم عيسى ابن الله وقـال الآخرون الله ثالث ثلاثة إلى آخـره فناسب ذكر الذين ظلـموا بعـد اختـلاف الأحزاب وهذا ظاهـر، ثم إن قوله سـبحـانه ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ معنى متسع يشمل الأحزاب ويشـمل قريشًا وقصة السورة من أولها إلى آخرها وكل هذا من وضع الباطل مـوضع الحق ابتداء من قوله ﴿**وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا**﴾ ﴿**وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا**﴾ إلى آخر السـورة وهذا كله هو «**ومـا ظلمناهم**» لأننا بينا لهم الحق بـيانًا لا يلتـبس «**ولكن كـانوا هم الظالمين**» لأنهم وضـعوا ضـلالاتهم مـوضع الحق لأنهم للحق كارهون. هذا والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿وَنَادَوْا يَا مالِك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ هذه الجملة امتداد لحال المجرمين فى عذاب جهنم، وقد قطعت جملة ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ هذا الامتداد وكانت بمثابة سكتة تراجع أحوال أهوالهم وهم محبوسون فى عذاب لا يُفَتَّر عنهم؛ ثم رجع الكلام بعدها ليحدث عنهم وقد عَدَّ بعض المفسرين جملة ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ جملة اعتراضية لأنها فَصَلَتْ بين كلام فى موضوع واحد، وإن كان من المفيد أن تكون جملة جاءت لتفظيع ما هم فيه، وأن ما هم فيه قد يرقُّ له قلبُ من لم يتصور قبح ما صنعوا فوقفت الجملة عند هذا لتوكد أن هذه الأهوال جزاء وفاقا وأنها ليس فيها زيادة مثقال ذرة وأنها جزاء ما كسبوا لا تزيد شيئًا وهذا هو سر الاعتراض بها. وجملة ﴿وَنَادَوْا يَا مالِكُ﴾ بعد جملة. ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ يعنى يائسون يأسًا يُخرسهم فلا يتكلمون فى شىء، أقول هذه الجملة تدل على أن ما قبلها زمن ممتد وأن أهوالاً وأحوالاً مسكوتٌ عنها، وأن ما هم فيه غلبهم على أنفسهم فتكلموا وهم يائسون وهذا هو وجه قولهم ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ بعد ما بَيَّنت الجملة السابقة أنهم فيه مبلسون، ثم إن شيئًا آخر هو أنهم لما نادوا مالكًا لم يطلبوا منه أن يخفف عنهم يومًا من العذاب أو أن يرجعهم ليعملوا صالحًا وإنما طلبوا أن يقضى عليهم ربهم، يعنى يُميتُهم وكلمة يقضى هنا هى التى فى قوله تعالى ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، وهذا لا ينافى اليأس لأنهم طلبوا الموت وهو شر ما يطلب، وقرأ ابن مسعود بالترخيم ونادوا يا مال، وقالوا إن هذا الترخيم متلائم جداً مع ما هم فيه من ضعف ووهن وأنهم لا يجدون فى أنفسهم ما يعينهم على النطق بالكلام.

وبناء العبارة على هذا الوجه فيه لفت وإثارة وذلك أيضًا لبيان الأهوال التى يعانونها وأول شىء فى ذلك هو كلمة ﴿وَنَادَوْا﴾ وهى كلمة مبهمة ومثيرة لأن من شأن الأخبار عن هؤلاء المحبوسين فى سراديب العذاب والأهوال بأنهم نادوا

أن يثير ويلفت ثم جاء قوله ﴿يَا مالكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ بيانا لهذا النداء المبهم والذى استشـرفت النفس لمعرفة فحـواه، فلما جاءها وقع منهـا وتمكن، وعبارة ﴿يَا مالكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ عبارة فيهـا إيجاز شديد وحذف وغرابة وذلك لأن المطلوب مادام هو أن يقضى عليهم رب مالك أن يقولوا يا مالك ادع ربك ليقض علينا كما قال آل فرعون لموسى عليه السلام ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ ولكن عبـارتهم أَلْغَتْ وساطة مـالك وقالوا ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ وكأنهم هم الذين دعوا ربهم ليقضى عليهم وليس مالكًا الذى دعا ربه ليقضى عليهم، وهذا فيـه أنهم اقتـصـروا من الكلام على قدر الحاجة لشدة ما هم فـيه وأن نفوسهم لا تسـاعـدهم إلا على ذلك، وقـولهم ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ اللام لام الأمـر مستـعملة فى الدعاء وإنما دخلت على المضـارع الذى للغائب والأصل أن تدخل على المخاطب كـمـا فى قـوله تعالـى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]؛ وذلك لأنهم لم يجدوا فى أنفـسهم ما يعينهم على خطاب ربهم، وقد عـاشوا ما عاشـوا يكرهون دينه، ويمكرون بأنبيائه وأوليـائه، ولهذا أيضًا قـالوا ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ولم يقـولوا ربنا مع أنهم الآن لا يشكون فى شىء دعاهم الله إلـيه فى الدنيا. لأن الموت يكشف الـغطاء ولأن الأرض تشرق بنور ربهـا ساعـة ينفخ فى الصور ولم يبق فـيهـا إنكار ولا شك، ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] وإنما لم يقولوا ربنا لأن نفـوسهم لا تساعدهم على ذلك، ثم إنهم أيضًـا لم يقولوا لـيقض علينا الله، وذلك لأنهم كـما نـبه بعض علمـائنا استشـفعـوا بمالك وبما لله عليه من نعم أن ينعم عليـهم بالموت؛ والاستشفـاع بالنعمة القديمة من أجل نعمة جديدة ممـا جعله الله لعباده منّاً منه سبـحانه وفضـلاً، فتقـول اللهم بحق سترك لـى فى الدنيا استـرنى فى الآخرة فتجعل نعمة الله عليك حقاً لك عند الله تطلب به نعمة ثانية وهذا معنى قولهم ﴿رَبُّكَ﴾ يعنى الذى أنعم عليك بنعمـة التربية، جعل هذه لك حـقاً عند الله، واطلب منه نعـمـة لنا هى أن يقـضى علينا، ولا ننسى أن هذا نداء خـارج من

سراديب العذاب واليأس لأنـه جاء بعد قوله ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ وكانت جملة و﴿ وما ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ فـاصلاً حسَّن مجيء النداء بعد الإبلاس. وقوله سبحانه ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ أكثر المفسرين على أن الذى قال هو مالك وأجاز البعض أن يكون الذى قال هو الله، يعنى أن مالكا قال لربه ما طلبوه منه، فقال الله لمالك قل لهم إنكم ماكثون، فحذف من الكلام ما حذف، والمكث معناه الانتظار والترقب، قال موسى عليه السلام لأهله ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠] وقال سبحانه ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل: ٢٢] ولهذا أومأ بعض المفسرين إلى أن كلمة ماكثون هنا فيها شيء من السخرية، لأن خلودهم فى النار ليس انتظارا وليس فيه ترقب، قال الزمخشرى: «ماكثون لا بثون وفيه استهزاء والمراد خالدون» وإذا كان وضع كلمة ﴿مَّاكِثُونَ﴾ موضع كلمة ﴿خالدون﴾ هو الذى أخرج منها معنى الاسـهزاء فإنه يمكن أن يقال إن قوله ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ جواب لقولهم ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ والمراد أنكم لن تموتوا وليس المراد أنكم خالدون والمكث معناه انتظار الحى وهو جواب مطابق لقولهم ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾.

قوله سبحانه ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ ذكر كثير من المفسرين أن هذا من قول مالك، وإنما جمع مع أن الذى جاءهم بالحق ملك واحد لأن المجيء بالحق شرف يحرص الكل على إسناده لنفسه ومادام قام به بعض الملائكة الذى كلفهم ربهم والباقون مؤتمرون بأمر ربهم فكأنهم جميعًا جاؤوا به، وأكثر المفسرين على أن هذا كلام الله سبحانه وأن كلام الله دخل على كلام مالك والتأم به وبين علته يعنى أنتم ماكثون أحياء ولن تموتوا لأننا جئناكم بالحق وأكثركم للحق كارهون، ويرجح هذا قراءة لقد جئتكم بالحق بضمير المتكلم الواحد، ومعنى هذا أن الحق أتَمَّ جواب مالك وذكر علته، وسواء قال مالك «**إنكم ماكثون**» من خبر الله له أو من العلم الذى علمه من ربه فإن دخول هذه الجملة «**لقد جئناكم بالحق**» من كلام الحق على كلام مالك تعنى أنها جملة ذات شأن وهى كذلك لأنها ملخص لكل ضلالات الأمم القديمة منذ أقدم

أنبياء الله وأن الداء الدوىّ هو أنهم جميعًا جاءهم رسل الله بالحق وأكثرهم للحق كارهون فهذه جملة شديدة التميز ولهذا اقتحمت الكلام الذى قبلها والتأمت به وأتمته مع اختلاف القائل. ويكاد يكون هذا الطريق من خصوصيات أسلوب القرآن أو من مبتكراته كما كان يسميها الطاهر وأعنى به أن يدخل كلام قائل على كلام قائل. ثم يلتئم به التئامًا لا ترى فيه أى أثر يدل على اختلاف القائل كما هنا؛ لا ترى جملة ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ﴾ تعلل قول مالك ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ وتمسك بها مع أنها من قيل قائل آخر. ولو بقى فى العمر بقية لاستخرجت هذه الجمل التى دخلت فى الكلام وهى من كلام قائل آخر دون أن يكون هناك تنبيه بمثل قال ولم أعرف هذه الطريقة فى الشعر، والشيخ الطاهر مع أنه ذكر هذا الأسلوب وعده من مبتكرات القرآن لم يذكر شيئًا من ذلك فى هذه الآية وكلمة ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ﴾ تعود إلى كل الأمم لأن كل أنبياء الله جاءوا أقوامهم بالحق، وتعود إلى قوله تعالى ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾ وتعود إلى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ وإلى قوله سبحانه ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهذا كله إعذار من الله لهؤلاء الأقوام الذين كان أكثرهم للحق كارهين ثم إن كلمة ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ تعنى أن من الذين فى عذاب جهنم خالدون لا يُفَتَّر عنهم وهم فيه مبلسون إلى آخره لم يكونوا كارهين للحق، وإنما هم من القلة التى لم تكره الحق وإذا كان كذلك فأى شىء جعلهم فى الدرك نفسه الذى فيه الكارهون؟ قال علماؤنا هؤلاء هم القلة المستضعفة التى لم تكره ما جاء به الرسل. والذين قالوا فى جهنم للذين استكبروا «لولا أنتم لكنا مؤمنين» ولكن معرفتهم للحق لم تنفعهم ولم ينجوا بها ولم تخفف عنهم العذاب وإنما كانوا فى سراديب جهنم محبوسين فى عذابها لا يُفتر عنهم مع عتاة المجرمين لأنهم لم يدافعوا عن الذى آمنوا به وإنما قادهم ضُلاَّلُهم فانْقادوا، ومن الغريب الذى يجب النظر فيه والنظر إليه أن يكون الكاره للحق والمؤمن بالحق فى درك واحد من دركات الجحيم لأن الذى

آمن لم يدافع عن إيمـانه ولم يَحم إيمـانه من بطش البـاطل وأهله، والمسـألة ليست أن تعـرف الحق وإنما أن تدافع عنه وتجاهد فى سـبيل بقـائه وأن تعرف الباطـل وتجاهد فى سبـيل دَحضِـه وهذا هو الأصل. ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور. ٢١]؛ أما أن تكـون فـردًا فى الـزفَّة فـقد تأخذك الزَّفَّة إلى درك المجرمـين، وحينئذ لا تلومَنَّ إلا نفـسك، وأنا أستحـسن هذه الآية جداً لأنى لا أعرف خسيسة أبشع من خسـيسة كراهية الحق بعد ما تبين وليس هذا خاصّـاً بالتـوحيـد، وإن كان أعـلاه، وأسناه، وإنما هو بشع فى كل باب من الأبواب التى يبـحث فـيهـا الناس عن الحق، والـصـواب، فى المذاهب، والأفكار، والآداب، والعلوم، والمناهج، والسـياسة؛ وكل شـأن من شئـون الناس والانقـياد والانصـياع للحق بعـدما يتـبين هو شأن العلـماء وصـفوة المفكرين، لأن خـلاف هذا تلبـيس. وتدليس. وإذا قامـت حيـاة الناس على الانصياع للـحق بعدما يَتَبيَّن كـانت حياة كريمـة فاضلة، وإلا كانت جحـيمًا وجَهْلاً وتخلفًا. والتقليد لا يدخل فى الانصياع والانقياد للحق بعد ما يتبين، لأن المقلِّد لا يتبين حقاً وإنما يضع قدمه موضع أقدام الآخرين.

وهذه الجملة ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ هى آخر جملة حدّثت عن أحـوال المجرمين فى عذاب جـهنم، وانتقلت الآيات بعدها انتـقالاً رَجَعَتْ فـيه إلى الوراء وحدّثت عن أحـوالهم فى الدنيا، ونلاحظ الانتـقال هنا وكيف جاء سَهْـلاً رهوًا ليس عليه أى أثر مما يكون فى الكلام إذا انتقل. وهـو ما كان يسميه البـاقلانى الإعياء أقول إن جملة ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ كما كـانت من تمام معنى إنكم ماكثون من حـيث إنها تبين علَّة المكث أحياء فى هذه الأهوال فهى نفسها التى فـتحت الباب لقوله سبحانه ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ لأن هاتين الآيتين صـورتان واضحتان لكراهيـتهم للحق الذى

جاءهم به رسل ربهم، وأنهم لم يكرهوا الحق فـحسب، وإنما حاربوه ودبَّروا له وأبرموا وحدثوا أنفسهم فرادى ومجتمعين، وكادوا له وهذا من أعجب ما أراه، وهو أن تكون الجملة من تمام ما قبلها ثم هى عنوان موضوع جديد يأتى بعدها، لأنك لو جعلت ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ عنوانًا للآيتين بعدها إلى قـوله تعالى ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ فستـجد الكلام ملتئـمًا جداً قلت إن قوله سبحانه ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا﴾ رجوع من أحوالهم فى عذاب جهنم إلى أحوالهم فى الدنيا وهذا الرجوع داخل ضمن العلة التى تَعُلِّل قول مالك ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ لأنها من تدبيـر السوء ومن كراهيتـهم للحق وقد كان المفـسرون لهم بصائر فى معـرفة علاقات الكلام ورجوع بعضـه إلى بعض وكانوا يوجزون هذه البصـائر إيجاز شديداً جداً، تراهم فـى هذه الآية يقولون إن قوله سبـحانه ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا﴾ معطوف على قوله ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ﴾ ومعنى هذا أن قوله ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ﴾ كانت بداية دخولـهم فى أحوال الآخرة و﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ إلى آخره كل ذلك هناك وانجـر الكلام إلى ما انجر إليه. وهذه من آيات الدنيا فلابد أن تكون غـير داخلة فى حيز ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ﴾ ولابد أن ترجع الآية إلى رأس ما قبلها حـتى يكون الكلام بها كلامين شطر منه فى أحوال الآخرة وهو الأخلاء وما بعد، وشطر منه فى أحوال الدنيا، وهذه هى البصيرة التى تراهم يطوونها من مـثل قولهم إن كذا معطوف على كذا مع أن ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا﴾ ليس فيها حـرف عطف، وإنما هو كلام فى شأن الدنيا يرجع إلى رأس الكلام فى شأن الآخرة ليكون لفقا له وغير داخل فيه.

وقبل أن أدخل فى تحليل هاتين الآيتين الكريـمتين أشير إلى شىء ربما كان من خصائـص أسلوب القرآن وهو التنقل فى هذه الأودية المتبـاعدة جداً وهذه المساحـات الزمانية والمكانية المتبـاعدة جداً خـذ هذه الآيات وجاراتها ســجد حديثًـا عن عيـسى عليه الســلام، وأن من آمنوا به اختلفـوا، ثم الرجوع إلى قومه عليـه السلام بعدما يتـبين لهم الذى تبين وأنهم لا ينظرون إلا أن تأتيهم

الساعة بغتة. ثم أحوال المتقين. وهم يحبرون مع أزواجهم وخالدون فيما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ثم أحوال المجرمين فى عذاب جهنم ثم نداءهم مالكًا ثم الرجوع إلى أحوالهم فى الدنيا، وأنا الآن لا أتخطى الكلام السابق وإنما أذكر أودية المعانى وحقولها ومجالاتها وتعددها واختلافها وتنوعها وتعارضها وتقاربها وتباعدها لأن كل ذلك من صلب مذاقات البيان، وأن النفس لا تكاد تسكن معه فى مطرح إلا طوّح بها فى مطرح آخر. وهذا نظر آخر لو نظرت إلى سورة الزخرف من هذه الزاوية ستجد أشياء عجيبة، وخذ فقط من أول الأنعام التى تستوون على ظهورها، وعلى الفلك، ثم تأمل كم واديًا ستقطع، وكم جماعة ستلتقى وكم أفكارًا ستواجه، وكم أجناسًا من الناس سترى، وتسمع خبر الملائكة ومن قالوا إنهم إناث ومن عبدوهم، وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم، ثم خذ من قالوا إنا وجدنا آباءنا ثم تراك تلتقى بشيخ الأنبياء، وهو يقول لأبيه وقومه إننى براء، ثم تترك شيخ الأنبياء لتلتقى بذرعه الذين أسكنهم بواد غير ذى زرع، تنتهى من حكمة إبراهيم إلى سفه فرعون وهذه الأنهار تجرى من تحته، وأقول مرة ثانية أنا لا ألخص وإنما أعاود السير فى الطريق الذى سرت فيه كثيرًا من غير أن أتنبّه إلى هذا السخاء العجيب وهذا العالم العجيب وهذا التّنوُّع العجيب الذى تدخلنا فيه كل سورة من سور القرآن، ولكل سورة عالم وهذا عالم الزخرف، ولا أشك فى أن الكتاب العزيز يلفتنا إلى هذا لأنك ترى علامات يضعها لك لتلفتك وتنظر حولك أو وراءك أو أمامك، والعلامة فى هذه الآية هى الانتقال من أسلوب الخطاب فى قوله ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ إلى الغيبة فى قوله ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا﴾، وأظن أن كلمة التَّطْرِية التى ذكرها الزمخشرى فى بيان أثر أسلوب الالتفات غير خالية من هذا المعنى الذى أريده لأن تنوع المعانى واختلافها وتعَدّدها والانتقال من باب إلى باب كل ذلك من صميم بلاغة الكلام وقد أكثر حازم من ذكر ذلك وجعله أساس بناء المطولات وراجع مقاطع الالتفات فى هذه الآيات ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ﴾ طريق غيبة،

﴿لا خَوْف عَلَيْكُمْ﴾ طريق خطاب وهكذا إلى آخر ذكر المتقين والجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون ثم يأتي مع حديث المجرمين طريق الغيبة إلى أن يحضروا هم أنفسهم وينادوا مالكًا فيجابوا بطريق الخطاب ثم ينصرف عنهم إلى الغيبة لما رجع الكلام بهم إلى الدنيا وطرائق تدابيرهم للكيد لدين الله، وكأن الكلام رجع يحكى عنهم فى الدنيا وتركهم فى عذاب جهنم. وهذا حسبى. وأم فى قوله سبحانه ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا﴾ هى التى بمعنى بل والهمزة ومعنى بل الإضراب الانتقالى يعنى الانتقال من باب من أبواب المعانى هو بابهم فى عذاب جهنم خالدون إلى حالهم فى الدنيا وهم يباشرون الأعمال التى أفضت بهم إلى سحابس الأهوال التى يعيشونها؛ والهمزة فيها معناها التقرير أو التحقيق كالاستفهام الذى فى قوله ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] يعنى قد أتى والمعنى هنا قد أبرموا أمرًا، والأمر هو الذى له خطر والإبرام معناه الفتل ولاحظ التجانس الشديد وسهولة المخرج بين أبرموا أمرًا وتكرار الهمزة والميم والراء فى الكلمتين وفَتْل الحبل هنا مجاز عن إحكام المكايد لأن من يُبْرم الحبل يفتله ويحكم فتله ليقضي أمرًا وهذا الإبرام مجاز واسع الدلالة فرق بين أن نقول دبروا مكيدة وأن نقول أبرموا أمرًا، لأن ترك الحقيقة التى تدل فيها الألفاظ على المعانى المقصودة إلى المجاز الذى تدل فيه الألفاظ على المعانى ثم تدل هذه المعانى على المعانى المقصودة أقول هذا طريق يوسع الدلالة جداً لأنه ترك أسلوب المباشرة إلى أسلوب آخر سماه علماؤنا دلالة المعنى على المعنى أو الدلالات المعنوية وهذا غير الدلالات اللفظية لأن فى هذه الدلالات المعنوية مجالاً للاستنباط والاستدلال لأنه لا معنى لذكر فتل الحبل بمعناه الحقيقى فى هذا المقام؛ ولابد من أن يصرف إلى ما يناسب هذا المقام وهو كل شيء يحكمونه لينالوا من الداعى صلوات الله وسلامه عليه ودعوته، ولا شك أن الكلام هنا راجع إلى من خاطبتهم السورة من أول قوله تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وجملة ﴿فَإِنَّا مُبرِمُونَ﴾ جملة مختلفة فى مبناها لأنها بُنيت على ما يفيد الثبوت والدوام، وقد بنيت الأولى على ما يفيد أن شيئًا لم يكن ثم كان وهى دلالة الفعل الماضى. والمراد إبرام الأمر وإحكام التدابير لأن ذلك لم يكن وإنما كان لما دعاهم صلوات الله وسلامه عليه إلى التى هى أقوم، ثم إن هذه الجملة بُنيت على التوكيد وحذف فيها المفعول الذى هو الأمر؛ والإبرام من الله فى مقابلة إبرامهم أمرا لنقض دعوته ﷺ معناه نقض هذا الإبرام ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣] ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢] واختلاف البناء والتوكيد وحذف المفعول فى الجملة الثانية كل هذا لإدخال الإيناس والاطمئنان على قلوب أهل الحق وأن الله معهم، وأنه ناقض لكيد أعدائهم، وأنهم هم الحزب الذى يرمى الله من ورائه لأنه سبحانه وتعالى قَابَلَ كيدَ أهل الباطل وتدابيرهم فى نصرة الباطل ومحاربة الحق بكيده هو وتدابيره هو وليس بتدابير أهل الحق، وهذا هو معنى الإشارة إلى أن الله سبحانه من وراء أهل الحق يَرْمِى برميهم ويدفع عنهم كيد الكائدين. وإنما ذكرت حذف المفعول لأن فيه معنى تَوَفُّر الكلام على إثبات وقوع الفعل من الفاعل وأن هذا الحدث الذى هو الإبرام بمعناه المجازى المتسع هو من شأنه سبحانه، وإبرامهم للأمر على الوجه المعروف فى تدبير المكايد أمره ظاهر بالنسبة لهم وتدبير الله وإبرامه لنقض هذا التدبير إنما هو على الوجه الذى يليق به سبحانه وحين يقابل الكتاب ما يكون من الله بما يكون من الناس مثل ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ فإن هذه المقابلة مضبوطة بالضابط العام وهو أنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وبعض العلماء أراد أن يخرج من الحرج فى هذا الباب فصرف ذلك إلى باب المشاكلة والكل يقصد إلى التنزيه وغفر الله لنا ولهم ولا أشك فى أن وشيجة بين هذه الآية وقوله تعالى فى رأس الدخان فى شأن الليلة المباركة ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] وقوله سبحانه ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ بسبيل من فرق الأمر

الحكيم. والفاء التـى فى رأس هذه الجملة ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ ذكر علمـاؤنا أنها واقعة فى جواب شرط مقدر وأن تقدير الكلام فإن أبرموا فإنا مبرمون وقد يظن أن هذا التقـدير يضعف به المعنى لأن الاستفـهام المدلول عليه بكلمـة أم معناه التقرير وأنهم أبرموا قطعًا فإذا جاء التقدير بحرف الشرط الدال على قلة الوقوع وهو كلمة «إن» كـان ذلك بخلاف القطع الذى دل عليه الاسـتفهـام أقول هذا الظن يذهب به أن هذا التقـدير يشير إلى أن ما كـان منهم من إبرام المكيدة ما كان ينبغى أن يكون إلا على سبيل الفرض والتقدير وأن كلمة «إن الشرطية» المقدرة هنا هى أخت كلمة إن المذكورة فى قراءة ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ على قراءة كـسر إن ومعنـاها أن هذا الإسراف الواقع منكم ما كان ينبـغى أن يكون إلا على سبيل الفرض لقـوة الأدلة القائمة على نفـيه كـذلك هنا والمعنى أن هذا الإبرام وهذا الكيـد الواقع منكم على سبـيل القطع ما كان ينبـغى أن يكون إلا على سبيل الفرض لقـوة الأدلة القائمة على صدق ما دعاكم إليه صلوات الله وسلامه عليه، وقوله جل شأنه ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ هذه الجملة معطوفة على قوله سبحانه ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا﴾ وهى من تمام معناها، لأنها رجعت إلى الوراء قبل إبرام الكيد واندست داخل نفوسهم وما حدَّث كل واحد منهم به نفسه فى مفرده وما تهامسوا به فى نجواهم، وهذه الآية من أنْصح الآيات وأخوفها لأنها تعنى أن الله سبحانه فى سر كل نفس، يعلم من سرها مـا يعلمه صاحبها وما لا يعلمه، وهذا هو الكـلام الصادر عن عز الألوهيـة، وكلمة أم، التى بدأت بها الآيـة بمعنى بل والهمـزة والإضراب فيـها إضـراب انتقـالى من العلم بما يبرمون من أمر مكايدهم إلى العلم بسرائر نفوسهم وما طويت عليه من كراهية الحق وما طويت عليه من الحـقد والحسد لهذا الدين، والهمـزة المضمرة فى أم معناها التقرير والتقرير مـعناه حملهم على الإقرار بأنا لا نسمع سرهم ووراء ذلك تحقيق أنا نسمع سرهم وقد أفْصَحَتْ كلمة «بلى» عن هذا التقرير المتضمن

في الهمزة، والذيـن حدّث عنهم الكتاب يدركون من سـر هذا أكثر مما ندرك وما لـبثوا أن غسل الله قـلوبهم من هذه البغضـاء ودخلوا في دين الله إلا من سبق عليه الكتاب وكانوا هداة مهتدين وكانوا خير أجيال الأرض. وقد افتتحت السورة بقوله سـبحانه ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وهذا المطلع لا يجـوز أن يغيب عنا ونـحن نحلل هذه الأسرار الـتي أودعهـا ربنا من هذا البيان العربي لقوم يعقلون فكان من أمرهم ما كان.

والسر ما يحدث به الإنسان نفسه ولا يحدث به غيره لأنه لو حدّث به غيره لم يعد سراً وإنما السر ما كـان في ضمير النفس لا يبرح ولا أشك في أن من هذا السر الذي استودعوه سرائر نفوسـهم أن ما يقرؤه عليهم محمد صلوات الله وسلامه عليه هو كلام الله. وأن هذا الجـزء من السر كان يغالب الأحقاد والبغضاء التي كانت تدعوهم إلى رفضه ومحاربته ولعل سيدنا أبا سفيان قصد إلى شيء من هذا حين حدّث عن وقت تحوله من الجـاهلية إلى الإسلام بقوله «ولما فتح الله قُفْـل قلبي» وأن الذي كان وراء هذا القُفل محبـوسا في القلب هو الإيمان والتـصديق بما جاء به صلوات الله وسـلامه عليه فلما فُـتِح القُفْلُ دخل في صـفوف المجـاهدين وحارب مع مـن كان يحـاربهم وخرج غـازيًا وجاهد وفـتح، والنجوى مـا تكلموا به فيـما بينهم وفرق بـين قوله سبـحانه و﴿أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ وقوله ﴿وَنَجْوَاهُم﴾ لأن سمـاع السر أغـرب من سماع النجـوى ولهذا قلت إنها آية مـخوفة. وأنها صادرة عن عـز الربوبية.

قوله سبحانه: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ بلى حرف جواب يأتي بعد النفي لإبطاله، والنفي الذي أبطله في الآية قوله تعالى ﴿لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ وإبطاله مـعناه نسـمع سـرهم ونجـواهم، وهـي أخت التي في قـوله تعـالى ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ③ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٣، ٤]، وبكلمـة بلى في الآية التي معنا تنتهي جملة ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ وجملة ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ جملة جديدة

ومعناها جديد وليست تأكيدا للجملة التى قبلها فليس المقصود بكتابة الرسل لديهم تأكيد إعلام الله بذلك وإنما المقصود به أنهم يحاسبون حسابًا عادلاً تحصى فيه أعمالهم وتكتب لديهم فإذا جاء يوم القيامة أخرج الله لكل إنسان كتابًا منشورا ﴿ وَكُلَّ إنسانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤] والجملة فيها خصوصيات أبرزها تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى المفيد التوكيد، وأبرزها إضافة الرسل إلى ضمير العظمة وكيف أكسبتهم هذه الإضافة شرفا وقدرًا ومكانة ومنها صيغة المضارع الدالة على تجدد الفعل وحدوثه الذى هو الكتابة على وفق تجدد أعمالهم وأقوالهم ومنها تقديم الظرف ﴿لَدَيْهِمْ﴾ على متعلقه ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ودلالة ذلك على أهمية هذا الظرف وأنهم يباشرون فعل الكتابة وهم لديهم فلا يضيع منهم شيء وهذا هو معنى هذه الجملة فإذا كانت الجملة الأولى صادرة عن سر الألوهية فهذه الجملة صادرة عن عدل الألوهية وأنهم وإن مكروا ودبروا وأبرموا وهموا برسولنا ليقتلوه وليقتلوا الذين آمنوا معه فإن هذا لا يُبَرِّر ظلمهم بمقدار ذرة ولا يزحزح عدلنا قيد أنملة، وإنما لهم الجزاء العادل، ثم إنه سبحانه ليس فى حاجة إلى كتابة أعمالهم لأنه سبحانه ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦] وإنما كانت الرُّسُل وكانت كتابتها لديهم من أجلهم هم ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ ثم إن هذا ليس خاصّاً بهم وإنما هو أمر يعم الله به جميع خلقه وهو يعلم سر الكل، ونجوى الكل وإبرام الكل ورسله يكتبون للكل ليس أحد من خلقه بمعزل عن شيء من ذلك، وأنا أحب مراجعة الآيات بعد تحليلها، بدأت الآيات بعلمه سبحانه بما يبرمون ويدبرون ويكيدون وأنه سبحانه يبطل هذا الكيد وهذا التدبير ثم انتقل الكلام إلى علمه بهذه الخطوات الشرِّيرة، وهي خواطر تجرى فى مستتر النفوس وقبل أن يتكلم بها صاحبها

يعنى علمــه ببذرة الشر حــين يقذف بهــا الشيطان إلى سريرة النـفس ثم حين تتحرك هذه البذرة بعــد معالجة صاحبها لهــا وتدخل باب المناجاة الشريرة بين هؤلاء الكارهين للحق، ثم كـيف تتمــخض هذه النجوى عن المـؤامرة وإبرام المكيدة ، وكأننــا مع قصة نفوس شيطانيــة تخطر فيها الخطرات الشـيطانية ثم تعــالجهــا ثم تتلاقى مع نظائرها فى النــجوى ثم تدخل مــرحلة التنفيــذ والله سبحــانه وتعالى يُحْبِطُ هذه المحاولات عند تنفيــذها ويحمى دينه ورسله منها ويشير إلى أنه يعلم قصة تخلُّقها وتكوينها وهى أفكار تحت أسدال النفوس ثم وهى خلايا متحركة، وهكــذا، ومجىء قوله سبحانه﴿ **وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**﴾ بعد النجوى وليس بعــد السر للإشارة إلى أن ما يحدثون به أنفــسهم لا حرج عليهم فيه، وأن الله سبحــانه رفع عن الناس ما حدثوا به أنفسهــم، وليــس ما تناجوا به، لأن السر كما قلت هو الذى لا يحدث به صاحبه غيره، ومادام فى النفس ولم يترجم إلى عمل فلا يدخل فى الحساب ولا فى الكتاب.

وهذه الآية قريبة من قوله تعالى فى سورة يونس: ﴿ **وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ**﴾ [يونس: ٢١] ولها نظائر كثيــرة فى الكتاب العزيز ويدهشك أن تكون إذاقة الله الرحمة لبــعض خلقه مخْبَثَةٌ لنفوســهم فيمكرون فى آيات الله ونسأل الله سبحانه العافية مما ابتلى به كثيراً من خلقه.

قال سبــحانه: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ** (٨١) **سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾.

ابتداء هذا الجــملة بقوله تــعالى ﴿ **قُلْ** ﴾ يشيــر إلى أنها تحــمل إلى الخلق من الخالق معنى مــتميزاً لأن الرسول ﷺ وإن كان فى كل مــا يبلغه إنما هو مبلغ عن ربه وليس له من الأمــر شىء وإن الأمــر لله إلا أن النص فــى بعض الآيات على القول بقوله ﴿ **قُلْ** ﴾ لابد أن يكون لهذه الآيات من الشــأن ما ليس لغيــرها، وقد

راجعت كثيرًا مـن الآيات التى بدأها ربنا بقوله لنبيه ﷺ ﴿قُلْ﴾ فوجدت لها من المعانى والدلائل ما تتميز به وأظهره أن الذى يـأتى بعدها غالبًا أمر هو من صميم الألوهية ومن أدلتهـا الناصعة كمـا ترى فى قوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]. ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]. . ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا﴾ [المؤمنون: ٨٤]. . ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [الملك: ٢٤]. . ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ﴾ [الملك: ٢٩]، وهكذا تجد آيات لها من الروع والجلال والمهابة مالـها، وفى بيان معنى قوله تعالى ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ كلام كثيرًا جـداً وسأقتصر منه على ما أراه أقرب وأظهر: وأقـرب ذلك وأظهره أن الشرط فى قوله ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ جيء به على سبيل الفرض والتقـدير كما يقدر المحال ويفرض ثم إن ترتب الجزاء الذى هو عبادة الولد على هذا الشـرط الذى لن يكون يعنى أن عبادة الولد لن تكون ومثل هذا قولنا إن طلعت الشمس من مغربها أصبْتَ منى ما تريد وأنت تريد أن تقـول إنك لن تصيب منى مـا تريد، فعلَّقتَ إصـابته منك مـا يريد على المحال والمعلق على المحال محال، كذلك الآية لن يكون لله ولد البتة وعبادة الولد معلـقة على هذا المحـال فهى محـال، وهذا قريب من مـثل قولهم حـتى يؤوب القارظان أو حـتى ينشر فى الموتى كليب بن وائل أو حَـتَّى يَشِبَّ ابن الخَصِيِّ كل ذلك تعليق على المحال ومـبالغة فى النفى والفـرق فى البناء؛ ولو قلت إن يؤوب القارظان كـان كذا أو أن ينشر فى الموتى كليب يكن كـذا أو إن يَشِبَّ ابن الخَصِى يكن كذا كان الكلام من الكلام وهذا ظاهر وهذا مقتبس من كلام الزمخشرى وله فى تحليل هذا الأسلوب كـلام جيـد وإن كان ضـرب مثـلاً له بكلام سيـئ جداً عجـبت كيف طاوعـة قلمه وهو يكتـبه ولاحظت أن العلمـاء نقلوا تحليله الكريم وسكتوا عن مـثاله الكريه القبـيح وغفر الله لـنا ولهم والحسنات يذهبن السيـئات وليس العكس. قـال رحمه الله «وهذا كـلام وارد على سبيل الـفرض والتمـثيل لغرض وهو المبالغة فى نفى الولد والإطناب فيه وأن لا يترك الناطق به شبهة

إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم فى باب التوحيد وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهى محال فى نفسها فكان المعلق بها محالا مثلها، فهو فى صورته إثبات الكينونة والعبادة وفى معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها»، ثم قال بعد ذلك كلاما فيه جرأة غير محمودة نرجو الله أن يغفرها له ثم قال ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جبير رحمه الله للحجاج حين قال له أما والله لأبدلنك بالدنيا نارًا تلظى «لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلهًا غيرك» انتهى كلامه رحمه الله. ولم يذكر المفسرون فى توجيه هذه الآية أفضل من هذا الكلام.

ومن الوجوه التى خُرّجت الآية عليها إن كان للرحمن ولد كما تزعمون لكنت أول العابدين لهذا الولد لأنى أعلمكم بالله وأكثركم تعظيما له وأعلم أن من تعظيمه تعظيم ولده إن كان ولكننى لن أعبد الولد فدل ذلك على عدم وجوده، ونظير هذا قوله سبحانه ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فدل عدم الفساد على عدم وجود الآلهة يعنى دل نفى الجزاء على نفى الشرط وهذا غير الطريق الأول لأن الدليل هناك هو نفى الجزاء لتعلقه على المحال يعنى لم يستدل على نفى الشرط بنفى الجزاء وإنما استدل على نفى الجزاء باستحالة الشرط، وهذا وإن كان قريبًا من الأول فهو غيره. وقالوا فى معناها إن كان للرحمن ولد فأنا أول الموحِّدين والرافضين لهذا الولد، وقالوا غير ذلك، وقد وصف الزمخشرى هذه الوجوه بأنها متمّحلة يخرج بها الكلام من النمط الشريف العالى.

بقى فى الآية أن أقول إن «كان» التى فى ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ﴾ ليست هى كان التى فى مثل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ والتى فى ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والتى تدل على أن خبرها قد خالط اسمها وإنما هى بمعنى صح واستقام يعنى إن صح واستقام أن للرحمن ولدا فأنا أول العابدين لهذا الولد على الوجه الذى شرحناه وأن ذلك لن يصح ولن يكون ولن يستقيم إلى آخره.

بقى فى هذه الآية أهم ما تحرص هذه الدراسة عليه وهو وجه زرعها فى مكانها ووجه امتساكها بما قبلها ووجه امتساك ما بعدها بها لأن موضوع المناسبة الذى فتحه كرام علمائنا لم يعد مستوعبًا للذى نراه بين الآيات والجمل، ولم يعد مستوعبًا للذى نراه من علاقات وروابط الصور المكونة للسورة لأن قوة الروابط تُفْضى لا محالة لنوع آخر من الروابط ليس هو رباط الجملة أو الآية بجاراتها وإنما علاقة الجملة والآية بنظائرها من مكونات السورة، وهو الذى كان يسميه علماؤنا أحيانًا أخواتها لأن الأخوات لهن أم هى السورة وإذا كنا فى الشعر قلنا إن الأخوات لهن أم هى القصيدة، وكان هذا المعنى يجرى فى خواطر شعرائنا ونقادنا حين كانوا يقولون فلان يقول البيت وأخاه وفلان يقول البيت وابن عمه وفلان شعره كأولاد العلات، وكل هذا يؤكد الإحساس بأن الأم المنجبة تلد الأخوة يَرْأم بعضُهم بَعْضًا.

وأول شيء ألاحظه أن أقرب الآيات إلى هذه الآية قوله تعالى ﴿ **وجعلُوا لهُ من عبادِهِ جُزْءاً** ﴾ ثم إن هذه الآية كانت أول كفرياتهم وأن السورة كأنها فَهْرسَة لهذه الكفريات وإبطالها، وإذا كانت أشبه الآيات بها بداية طريق البداية أعنى قوله سبحانه ﴿ **وَجَعَلُوا لَهُ مِن عِبَادِهِ جُزْءًا** ﴾ فإن هذه الآية بداية طريق النهاية، لأن السورة بدأت تجمع ما تفرّق وتَعُدُّ للخاتمة، وكانت آية ﴿ **قُلْ إن كَانَ للرَّحْمَنِ وَلَدٌ** ﴾ هى بداية رد العجز على الصدر وهذا ظاهر لا تكلف فيه، ثم إن كلمة ولد فى الآية التى معنا تعنى المولود ذكرًا كان أو أنثى إنسًا كان أو ملكًا، وهذا يعنى أنها تمسك بقوله ﴿ **وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا** ﴾ وتمسك بقوله ﴿ **لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم** ﴾ وبقوله ﴿ **وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ** ﴾ وكأنها تجمع الخيوط التى نُسِجَتْ منها السورة لتصنع نهايتها من كل هذه الخيوط وحتى يكون آخر السورة متضمنًا مضمونها كما كان مطلع السورة متضمنًا مقصودها وهذا من فقه علاقة المطالع بالمقاطع لأن المطالع تبشير وإرهاص بالمقاصد والمقاطع

تضمين وتلخيص للمقاصد، وكل هذا موجود فى كلام علمائنا والذى أحاوله هو تطبيقه بعد إدراكه، والذى قلته هو بيان موقع الآية من حيث هى بداية المقطع وهو ظاهر جداً والمطلوب مع هذا بيان علاقتها بالآية قبلها من أول قوله ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ لأن هذه الآية داخلة فى ضلالاتهم التى انتقل إليها الكلام بعد الحديث عن المجرمين في عذاب جهنم، وقد وقفت عند هذا كثيراً لأنه لم يظهر لى من النظر الأول -وهو شأن هذه الروابط- ثم بدا لى كفلق الصبح وهو أن الآيات من أول ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا﴾ إلى أول ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ تحدث عن ما لا يكون إلا لله وبالله، وهذا ما عَنَيْتُه بصدور الآيات عن عز الألوهية كما علمنا الشيخ الباقلانى رحمه الله فليس ينقض كل مكيدة لهم إلا الله وليس يعلم سر نفس كل ذى نفس إلا الله، وليس يعلم نجواهم فيما بينهم إلا الله، وليس لأحد رسل يكتبون لدى الخلق كل ما يصدر عن الخلق إلا الله، وصفات الألوهية هذه تتنافى مع الولد تنافيًا مطلقًا. وبهذا يقضى العقل وتقضى الفطرة لأن الجزء الذى جعلوه لله لابد أن يكون إلهًا؛ ومستحيل أن يكون عبداً لأن عبد الله شىء والله شىء آخر ومن اختلط عنده هذا فقد اختلط عليه ما لا يختلط على العقلاء ولا يخدعنك أن أممًا تقدمت تقتنع بهذا، وتؤمن به لأنه لو آمن الناس كل الناس بما يخالف العقل لا يجعل إيمانُهم هذا الخلاف وفاقًا.

وقد قلت إن الله سبحانه يعلم من نفس عبده ما يعلمه العبد وما لا يعلمه، وهذه هى الألوهية التى لا تتعدَّد ولا تُشْبِهُ الحوادث ولا يكون لها حاجة فى صاحبة ولا ولد وأنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وهذا يعنى أن آية ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ على المعنى الذى ذكرناه وهو تأكيد المبالغة فى نفى الولد هذا المعنى تخلَّق واكتمل فى آية ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾، ثم وقع

موقعه الذى لا يتحرك عنه قـيد أنملة، واعلم أن الذى أغرانى بأن أكتب أحيانًا كلامًـا لم أقرأه فى كـتب علمائنا هو أننى مع طـول المراجعة يبـدو لى المعنى كفلق الصبح حـتى أشعر أنه أصبح فى يدى كالفـسيلة فى يد الزارع وتوشك ساعتى أن تقوم وهذه الفسيلة فى يدى فاذكر قول رسول الله ﷺ «**فإن استطاع أن يزرعها قبل أن يموت فليزرعها**»، وهذا حسبى وحصنى.

قوله سبحانه ﴿ **سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ربِّ الْعَرْشِ عَمَّا يصِفُونَ** ﴾.

كلمة سبحان مصدر مثل الغـفران، وفعلها الناصب لها محذوف أى أسبح رب السموات والأرض ورب العرش. وأنزهه، وأعظمه، وأقدِّسُه عما يقولون لأن اتخاذ الولد ينافى التسبيح والتنزيه والتقديس. لأنه يعنى الحاجة والله غنى عن العالمين.

وجملة التنزيه تتبع الآيات الـتى فيها هذا المعنى أو التى فيهـا الشرك وتعدد الآلهة، كما فى قوله تعالى ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّه ربِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٢] ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٦] ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ** ﴾ [البقرة: ١١٦]. ﴿ **وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا** ﴾ [مريم. ٩٣].

وتقترن جملة التسبيح غالبًا بذكر أنه سبحانه يملك ما فى السموات والأرض أو أن كل من فيهمـا يأتى الرحمن عبدًا. راجع ﴿ **ربِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ربِّ الْعَرْشِ** ﴾ التى فى الزخرف وضـعها بإزاء ﴿ **لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ** ﴾ التى فى البقرة ﴿ **إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا** ﴾ التى فى مريم هذه المراجعات تفيد أن عموم الملك برهان على نفى الولد، وأن الولادة تنافى الملكية، وأنه لا يسـتقيم أن يكون العبد المملوك ولدًا، لأن الـولد بضعة منه، وجزء منه فكيف يكون مملوكا له وقد اسـتـخرج الشافعى من هذا حكمًا وهو

أن الرجل إذا اشترى مملوكا ثم ظهر له أنه ولده فـقد انتهت عبودية الولد في لحظة إثبات ولادته، لأن الولادة والملكية لا يجتمعان، وهذا من أرقى ضروب فهم المعنى وأرقى ضـروب الاستنباط والاستخـراج وهو مؤسس على أصول في فـهم أسـرار الكـلام، ولكننا أبعـدنا هذا كله وأقـصيناه وخـلينا الساحة لنفايات ثقافات الأمم وألف كبار مُـثقفينا هذه النفايات حتى أدمنوها، ولله في خلقه شئون. وكلمة ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، متـلائمة مع سـياق السورة وسـياق مـا قبلها ومـا بعدها لأن رب السـموات والأرض رجوع إلى قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ ثم هو مهاد لقوله بعد ذلك ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾، ثم هو راجع إلى كل مـا في السورة من نقض مـعبـوداتهم بالباطل وتثـبيت المعـبـود بالحق الـذي هو رب السـموات والأرض ومـا بينهـما، وأنـا أراجـع هـذا وأضعـه بـإزاء ما جاء مثـلاً في سورة البقرة ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البـقرة: ١١٦]. وأسأل عن أسـرار هذه الاختـلافات لماذا قال في البـقرة ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ وقال في الزخرف ﴿رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ وقال في مريم ﴿إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ وأجد أن آية البقرة سبقت بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥] فناسب ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ولم يقل ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ كما في الزخرف الذي ناسب ﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾، ثم لماذا قال في البـقرة كل له قانتون؟ والجواب والله أعلم أن آية البقرة مسبـوقة ببيان ظلم من يمنع مساجد الله أن يذكر فـيها اسمـه ويسعى في خرابهـا، وهذا هو المناسب للقنوت وآية الزخرف مسـبوقة بـ﴿نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ وهذا هو المناسب للعرش وهـذا كثير جـداً وبعضه يظهـر وبعضه يخـفى ولا يجوز القول فيه بغير مراجعة ولا تجوز المراجعة إلا ممن انقطعوا للعلم.

قوله سبحانه ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أول شيء ينظر فيه هذه الفاء التي جاءت في صدر الجملة لتشير إلى موئلها الذي تَئِلُ إليه في الكلام السابق وهو ظاهر لأنه جملة ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ والتي هي بمثابة تطهير اللسان والقلب من ذكر ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ وأن رسول الله ﷺ قيل له إن كان للرحمن ولد وقيل له فذرهم يخوضوا ويلعبوا وأن الذين أمر عليه السلام بأن يَدَعَهمُ هم الذين لا يتحرجون من القول بأن للرحمن ولدًا، ولا يتحرجون أن يجعلوا له من عباده جزءًا، ولا يتحرجون من كل الضلالات التي مَضتْ ومضى نقضها وإبطالها، وظلوا على ما هم عليه وكأن الآيات لم تفعل شيئًا لأنهم لم يأخذوها مأخذ الجد، وإنما أخذوها مأخذ اللعب واللهو، والآية تقول إطو صفحتهم فلا أمل فيهم، ثم إنه إيذان بانتهاء السورة ورجوع ظاهر إلى قوله ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ لأن معنى ذرهم ليس معناه صرف الذكر لأن التَخَوُّل به دائم لا ينقطع وإنما المقصود أن تدعهم ولا تتوقع منهم رجوعًا عن الباطل، وقد ألحت السورة من أول أمرها على فساد عقائدهم وانتهت السورة وهم عند نقطة البداية، وكأنها لم تكن، ونحن نفسر «ذرهم» بقولنا اتركهم أو دعهم، وعمود البلاغة كما قال الخطابى العدوى القرشى أن نعرف متى نقول ذرهم ومتى نقول دعهم ومتى نقول اتركهم، وهذا صعب جداً ويقابلنى مثله كثيرًا فى الكتاب العزيز وفى كلام الرسول ﷺ وفى الشعر ويصعب على استخراج الفروق، وكان الواجب أن نستقصى مواقع الكلمات المتشابهة فى الشعر وكلام الله وفى الحديث وأن نجتهد فى استخراج الفروق التى ذكر الخطابى أنها خفيت على أهل الطبع كأبى العالية ومن كان فى مرتبته وهذا صعب جداً لابد من تجشمه وإن كان إخواننا اللغويين وجدوا أن ذكر سوسير وبنى أبيه أوقع فى آذان العصر من البحث عن هذه الفروق مع أنها من الضرورة بمكان، وقد لاحظت أن كلمة (ذرنى) تأتى

فى الكتاب محفوفة بغضب مثل ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١] و﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾ [المزمل: ١١] و﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤]. ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾ [الحجر: ٣]، ولم يستعمل القرآن فعل الأمر من ترك مع كثرة استعمال المادة إلا مرة واحدة فى سورة الدخان، ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤] ولم يستعمل كلمة (دع) إلا فى آية واحدة فى سورة الأحزاب ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨] والمطلوب فى آية الدخان محض معنى الترك وفى الأحزاب عدم استثارتهم بترك آذاهم ثم التوكل على الله، وكل هذا يعنى أن قوله سبحانه ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ فيها كثير من الغضب والتهديد والوعيد لأن الذى لم ينفع فيه كل الذى مضى من الآيات البينات فالواجب إهماله والصرف عنه وعدم الالتفات إليه. حتى يلاقى يومه.

وقوله سبحانه ﴿يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ الخوض معناه أن يمشى بقدميه فى الماء يتحرك وهو لا يرى موضع قدمه ولا يرى شيئًا فى الجهة التى يتحرك إليها ولا يعرف فرقًا بين ما هنا ومَا هنا وهو مثل واضح للذى يخوض فى آيات الله بغير علم، وتركهم ليخوضوا دال على فرط الغضب لأن تركهم يخوضون يعنى الإكثار من خطاياهم حتى يكون وقوع العقاب عليهم والنكال بهم مؤسسًا على خطايا كثيرة كما تقول للذى تتهدّدُه أكثر من خطاياك ثم إن اللعب المقترن بالخوض يؤكد أنه خوض العابث، وخوض اللاهى. والعابث واللاهى لا يقع على رشاد، وكلمة ﴿حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ﴾ فيها إشارة إلى أنهم قد يطول زمانهم فى الخوض واللعب، ومهما طال فلابُدَّ من ملاقاة ما توعدهم به ربهم، وكلمة ﴿يَوْمَهُمُ﴾ بإضافة اليوم إليهم فيه إشارة إلى أنه يوم شديد على الكافرين غير يسير وقد ذكروا أنه يحتمل يوم القيامة أو يوم بدر وقد قتل فيه صناديد قريش كأبى جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف،

وهذه الآية قريبة جداً مما جاء في مطلع الدخان ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠] إلى أن قال سبحانه ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ وقالوا البطشة الكبرى يوم القيامة أو يوم بدر وهذا من الروابط الظاهرة بين مقطع الزخرف ومطلع الدخان.

بقى فى آية ذرهم يخوضوا ويلعبوا إشارة لابد من التنبيه إليها وهى أن القول بأن المسيح ابن الله أو أن عزيرا ابن الله أو أن الملائكة إناث وأن لله شركاء من الملائكة أو من الجن أو من كل ما جاء في السورة كل هذه أقوال لا تستحق أن يلتفت إليها وأن القائلين بها يتخبطون ويخوضون ويلعبون وأن على أهل الحق البيان كما بيّن ربنا في السورة ثم ينتهى عملهم عند هذا لأن من يخوض ويلعب لا يسمع، وإذا سمع لم يجب، والبيان الذى بينته آيات السورة بيان كاف لمن يطلب الحق، ويحاول أن يميز ليدرك الرشد من الغيّ، أما من ليس همه معرفة الحق فلا ينفع معه كلام وإن طال، وهنا لفتة كريمة من الحق سبحانه لأهل العلم والرشاد من علماء الأمة وهى أنهم لا يستهلكون أوقاتهم وطاقاتهم فى اللجاجة مع أهل الباطل وإنما عليهم أن ينصرفوا إلى ما هو من الرشاد وما هو من الحكمة بعد البيان لأن من أخطار الباطل في حياة الناس أنه يستهلك الطاقات فيما لا يفيد فيتوقف عملهم فيما يفيد وهذا خطأ وخطر وقد أفصحت آية أخرى عن هذا المعنى المتضمن فى هذه الآية وهى قوله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨].

والذى يعيش فى الزمن الذى أعيشه وأنا أكتب هذا يدرك قيمة هذه اللفتة لأن أهل الباطل نصبوا ألاعيبهم وأكاذيبهم في كل طريق يسلكه أهل الحق ليشغلوهم بهذه الأباطيل فلا يزرعون الخير الذى يجب أن يزرع ولا يبذرون الحب في الوادى البعيد للأجيال القادمة كما كان يقول مالك بن نبى رحمه الله، وقد جاء قوله تعالى عقب آية ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ

الَذى يوعَدُونَ﴾ لينبه إلى الطريق الذى يجب أن يسلكه أهل العلم والرشاد وذلك قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذى فِى السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِى الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ هذا طريق آخر غير طريق الخوض واللعب وأن للرحمن ولدًا وهذه الجملة معطوفة على قوله ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ وتأكيد لنفى مضمونها، وتأكيد للجملة بعدها ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ﴾ وهى تمثل الحق الثابت الذى لا يستطيع الذين يخوضون ويلعبون ويشككون الناس أن يصيبوا منه شيئًا، وفى مبنى الجملة دلالات عجيبة فيها إدْلَالٌ بالحق، وأنه ثابت ومعروف لا ينكره إلا من استهلك نفسه فى العبث، واللهو، والخوض، واللعب، وأنا أعنى اسم الموصول ﴿الَّذي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ﴾ يعنى معبود فى السماء ومعبود فى الأرض وصدر الصلة محذوف وتقدير الكلام وهو الذى هو إله فى السماء وإله فى الأرض والجاران متعلقان بإله لأنه بمعنى المعبود والصلة لابد أن تكون أمرًا معلومًا عند المخاطب وإلا لا يصح التعريف بها وهذا يعنى أنكم تعلمون أنه إله فى السماء وإله فى الأرض، وهى من تمام جملة ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ﴾ وإذا رجعنا إلى أول السورة وقرأنا ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ تبين لنا أنهم يقرون بمضمون هذه الصلة لأن الشأن فيمن خلقها ألا يعبد غيره فيها وهذا هو خطاب العقل وخطاب الفطرة، وتقديم الجارين فيه إيماء إلى فساد تصورهم لأنهم جعلوا لله شركاء فى السماء هم الملائكة وجعلوا له شركاء فى الأرض هم المسيح وعزير وأصنامهم، ثم إن هذه الآية قوية الاتصال «**برب السموات والأرض ورب العرش**» وكأنها خارجة منها لأن رب العرش صادرة عن عز الربوبية والذى فى السماء إله وفى الأرض إله صادر عن عز الألوهية، العرش إشارة الملك والهيمنة والتدبير وإلى أنه المعبود بالحق ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧] وعوالم السماء وأسرارها الغامضة بالنسبة للوثنيين أوجبت تقديمها فى الآيات من ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ إلى قوله سبحانه ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ

وَالأَرْضِ ربَ الْعَرشِ﴾ ثم قوله ﴿وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِى الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ وجملة ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ فاصلة معطوفة على ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ﴾. وهذه الفاصلة بخصوصيتها التى هى تعريف الحكيم والعليم وتقديم الحكيم على العليم، قليلة جداً فى الكتاب العزيز والذى يكثر العزيز الحكيم أو عزيز حكيم، أو عليم حكيم.

وقد ذكر الشيخ الطاهر أن هذه الفاصلة من باب تدقيق الدليل وهو غير تحقيق الدليل لأن تحقيق الدليل هو ذكر الدليل وهو ظاهر أما تدقيق الدليل فهو ذكر دليل الدليل. وآية ﴿وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَهٌ﴾ قصرت الألوهية فى السموات والأرض على المعبود بحق، ونفت الألوهية عن المعبودات بالباطل من الناس والملائكة والأصنام وهذا هو تحقيق الدليل وجملة ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ دليل ألوهيته فى السماء والأرض لأن الحكمة والعلم برهان الألوهية، وهذا ملخص كلام الطاهر وهو كلام جيد ويبقى سؤال لماذا كان تدقيق الدليل هنا بالحكيم العليم ولم يكن بالعزيز العليم أو العزيز الحكيم أو اللطيف الخبير، أو ما شئت من أسمائه الحسنى وصفاته العلى وكلها صالحة لتدقيق الدليل؟ والحقيقة أننى لم أصل إلى إجابة ناجعة لهذا السؤال مع أن الكتاب معقود عليه لأن هدف هذه الدراسة وما قبلها هو الكشف عن أن هذه الجملة فى هذا الموقع لا يقوم غيرها فيه مقامها، وأن كل جملة مغروسة فى مكانها لم تكن تصلح إلا له ولم يكن يصلح إلا لها وإذا كان من الواجب أن يكون هذا عامّاً فى دراسة الشعر والنثر فإن رؤيته على الوجه الأظهر الذى يُعنينا على استخراج أحكامه ونظامه إنما تكون فى الكتاب العزيز الذى لم تسقط منه آية ولا كلمة.

وموضوع الفواصل موضوع غامض جداً مع كثرة الدراسات فيه لأنها كلها تأسست على ما ذكره العلماء وهو كلام مختصر جداً فى باب تشابه الأطراف.

ومادة الحكيم مادة شائعة جداً فى الكتاب العزيز لأنها تفيد الحكمة وما تفرع منها والحكم وما تفرع منه، وقد ترى موقعها فى الفاصلة ظاهرًا كما

في قوله تـعالى: ﴿قَدْ فَرِضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢] لأن تحلة الأيمان لا تكون إلا من باب العلم والحكمة، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] لأن الحكمة والعلم هما المنبع الذي يتلقى منه القرآن وقد جاءت فاصلة الزخرف بتمام خصوصياتها في الذاريات ﴿قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٣] وذلك في قصة امرأة إبراهيم عليه السلام لما بُشرت بإسحاق فصكّت وجهها وقالت عجوز عقيم فأجابها الملائكة بقولهم ﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾، وهذا يعني التسليم لأن أمره مؤسس على الحكم والعلم.

وقد رأيت في آية السجدة ما يعين على فهم سر الفاصلة في الزخرف، وذلك قوله تعالى. ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ④ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٤، ٥].

لأن خلق السموات والأرض والاستواء على العرش ونفي الشفيع من دونه وتدبير الأمر كل ذلك يأتي مُتضامنًا ومقترنًا والذي معنا في الزخرف أنه سبحانه في السماء إله وفي الأرض إله، وهذا تلخيص للخلق ونفي الولي. وتأتي كلمة الحكيم العليم لتشير إلى تدبير الأمر في السماء والأرض لأن المعبود فيهما هو المدبر لأمرهما والتدبير رأسه الحكمة، ورأس الحكمة العلم هذا والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ذكر بعض علمائنا أن هــذه الآية معطوفة على آية ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ناظرين إلى أنها مُفْتَتحة بالتنزيه لأن تبارك معناها تنزَّه وتقدَّس وهذا العطف يعنى أن هذه الواو العاطفة جَذَبَت الآية وتجاوزت بها آيتين قبلها مع أنَّها شديدة الصِّلة بآية ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ حتى تكاد تكون هى، لأنه لا يتصور أن تكون السماء إلهًا لغيره وهو مالكها ولا يتصور أن يعبد فى الأرض غيره وهو مالكها، ولا يتصور أن يعبد خلقه الذين فى السماء والأرض إلهًا غيره، لأنه ليس من المعقول ولا من المقبول أن يَعْبَد المملوكُ غير مالكه.

وكل هذه حقائق معلومة علم ضرورة يعنى علمًا لا يحتاج إلى استدلال والمنكرون له ينكرون ما هو معلوم من العقل بالضرورة، ولهذا أقول إن كل ما فى آية ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تأكيد لما فى آية ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ﴾، وهذا يرجح أنها معطوفة عليها ولا ينكر صحة عطفها على آية ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ﴾، لأن عطف الآية على أختها لا يعنى نفى صلتها بغيرها ولأنك تستطيع أن تقول ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ﴾ تأكيد لـ ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾ و﴿وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ تأكيد لقوله: «والأرض» و﴿الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ تأكيد لـ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ وهكذا تجد هذه الآيات التى فى مقطع السورة قائمة على تحقيق التنزيه والتقديس والتفرد بالعبادة، والتفرد بالواحدنية وأنه سبحانه لا شريك له، ولا نِدَّ له، وأن آية ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ اجتذبت من قلب السورة جملة ممثلة لكثير من أباطيلهم لأنها تشمل من جعلوا له من عباده جزءًا ومن جعلوا الملائكة إناثًا، ومن ضربوا ابن مريم مثلا إلى آخره لتكون أساسًا لبيان فساد كل ما قامت السورة على بيان فساده ولتكون أيضًا أساسًا لكل ما قامت السورة على تحقيقه وتثبيته وهى أنه سبحانه رب السموات والأرض ورب العرش وهذا ردٌّ عن

الذات الإلهيـة كل ضلالاتهم وإبعاد كل أوضار نفـوسهم المتعلقة بمعـبوداتهم الباطلة عن المعبود بالحق ثم تأكيد أنه سبحانه ﴿الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ وأنه سبحانه ﴿تَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ وهكذا نرى مقطع السورة محتفـلاً أدق الاحتفال وأعلاه بهذه الحقيقـة التى دارت عليها السورة، وبإبطال أباطيلهم المتشبثين بها وهذا من أعدل المقاطع وأظهرها فى الرجوع إلى المطالع وأظهرها أيضًا فى الإلمام البالغ بمضمون السورة.

وتبارك أصـلها من البـركة وهى الزيادة والنمـاء والتفـاعل فيهـا من أجل المبـالغـة: والزيادة والنمـاء فى حق الله سـبحـانه مـعناه التـقـديس والتنزيه والتعظيم.

قال صـاحب اللسان: وتبـارك الله تقدَّس وتنزه وتعالـى وتعاظم لا تكون هذه الصفة لغيره، ونقل صاحب اللسان شروحًا كثيرة لكلمة تبارك عن الأئمة الكبار ومن المفـيد أن أضعـها بين يدى القـارئ «قال: وسئل أبو العـباس عن تفسير تبارك الله فقال ارتفع والمتـبارك المرتفع، وقال الزجاج تبارك تفاعل من البركة كذلك يقول أهل اللغة... ومعنـى البركة الكثرة فى كل خير وقال فى موضع آخر تبارك تعالى وتعاظم وقال ابن الأنبارى تبارك الله أى يتبرك باسمه فى كل أمر، وقال الليث فى تفسير تبارك الله تمجيد وتعظيم، وتبارك بالشىء تفـاءل به، قـال الزجـاج فى قـوله تعـالى ﴿وَهَذَا كِـتَـابٌ أَنزَلْنَاهُ مُـبَـارَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٥] قال المبارك ما يأتى من قبله الخـير الكثير وهو من نعت الكتاب» انتهى كـلام صاحب اللسان. والآية الخـالصة للتنزيه وهى آية ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ إنصبَّ التسـبيح فيـها على رب السـموات لأنهـا جاءت عـقب آية ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْـمَنِ وَلَدٌ﴾، والولادة تنافى الربوبية فانصب التسبيح على الدليل الذى هو ربوبية السماء والأرض والعرش وقد ذكر العرش فيها ولم يذكـر فى غيرها لأن العرش من أقوى أدلة الألوهية وقوله ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يفيد أن الآية بكمالها جاءت للرد على

ما ينافي التسبيح الذى هو للرحمن ولد، والآية الثانية قالت ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ﴾ ولم تقل رب السموات والأرض لأنها تفرغت للواحدانية، وأنه لا يعبد فى السماء سواه ولا فى الأرض سواه وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض وأن التدبير لا يكون إلا بحكمة والحكمة لا تكون إلا بعلم، الآية لم تذكر رب السموات ولم تذكر له ملك السموات لم تجعل شيئًا من هذا مدخلها وإنما مدخلها هو ﴿الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ﴾ وفرق بين هذا المدخل ومدخل ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾، هذا تنزيه لرب السموات وهذه ألوهية فى السماء وعليك أن تستوفى بذائقتك اللغوية، الفرق بين مداخل الآيات.

والآية الثالثة ﴿وَتَبَارَكَ الَّذى لَهُ مُلْكُ السَّمَوات والأَرْضِ﴾ مدخلها التمجيد والتقديس. الداخل على الاسم الموصول الذى كان رأس الكلام فى الآية التى قبلها وبدلاً من القول بأنه في السماء إله جاء ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ فجمع معنى آية سبحان رب السموات بكلمة تبارك وجمع معنى الآية التى بعدها وهى ﴿فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ﴾ بعبارة ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾ لأنه دليل العبادة ثم أضافت ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ لتؤكد معنى الملكية لأن المالك الحق هو الذى يعلم علم الساعة التى تنتهى عندها هذه المملوكات، وتدخل فى عالم الفناء، ويأتى بعدها شىء آخر ثم هى أيضًا تؤكد معنى الألوهية لأننا لا نعبد من يجهل يوم نلقاه والذى أحاوله هو بيان أن آية ﴿وَتَبَارَكَ الَّذى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ شاملة لمعنى آيتى ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السموَاتِ والأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿وَهُوَ الَّذى فِى السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِى الأَرْضِ إِلَه﴾ وقوله سبحانه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ من تمام جملة ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ التى هى من تمام جملة ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾، وهذه الجمل الثلاثة واقعة فى صلة اسم الموصول وراجع العلاقات الرفيعة التى بين هذه الجمل الثلاثة، وكيف دلت جملة ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ على أن السموات والأرض وما بينهما معقود

عليها الفناء وأن التقديم فى قوله ﴿وعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَة﴾ يفيد اختصاص علم ساعة فنائها به سبحانه وأنه لا غرابة فى ذلك لأنه مالكها وأن تقديم الجار والمجرور فى قوله ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يفيد الاختصاص أيضًا وأن المرجع لا يكون إلا إليه وأن ذكر المرجع بعد ذكر الساعة هو الترتيب المنطقى وأن انتقال الكلام إلى أسلوب الخطاب فى قوله ﴿تُرْجَعُونَ﴾ يعنى مع فائدته المشهورة فى أن هذا الجزء من المعنى الذى يقع فيه الالتفات جزء له شأن يوجب أن نلتفت إليه أقول الالتفات مع هذا يفيد أن السموات والأرض والجبال والنجاد والكواكب كل ذلك يقع عليه الفناء المحض وأن الرجوع للحساب والثواب والعقاب خاص بالمكلفين الذين هم أنتم، وهذا ظاهر ثم إن كلمة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يَدُلُّ لفظها الصريح على الرجوع إلى الله وهذه الدلالة الصريحة تتضمن دلالة أخرى غير منطوقة وهى الحساب والثواب والعقاب وأن هذه الفاصلة تَرُوم مرامًا نحو الفاصلة السابقة ﴿الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ لأن فيها الحكم والقضاء والعلم ﴿وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً﴾ [الكهف: ٤٩] ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]، وهكذا نجد الجمل يتساقى بعضها من بعض فالمرجع إلى ﴿الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ والمرجع أيضًا إلى الذى يعلم سرهم ونجواهم ورسله لديهم يكتبون وكل هذا لا تكلف فيه ولو لم يكن ظاهرًا كفلق الصبح ما كتبته.

ثم إن جملة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ كما ترتبط بالذى قبلها على الوجه الذى بيَّناه توطئ وتمهد وتهيئ للذى بعدها وهو قوله سبحانه ﴿ولا يَمْلِكُ الَّذِين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ووجه ذلك أن هذه الشفاعة ليس لها زمان إلا زمان الرجوع إلى الله والوقوف بين يديه وليس لها موقف إلا هذا الموقف فكان من تمام آية ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أن نذكر آية الشفاعة ولا يقال إن قوله ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ جاء فى مواقع كثيرة من غير أن يستدعى

ذكر الشفاعة لأن هذه الآية استدعت ذكر الشفاعة ليس بلفظها وحده وإنما بلفظها وسياقها لأن السورة معقودة على بيان فساد ما يدعون من دون الله، ومقطعها الذى نحن فيه يؤكد ويكرر ذكر الذى هو إله فى السماء وإله فى الأرض فإذا جاء وعنده علم الساعة وإليه ترجعون فى سياق هذا التأكيد وهذا التكرير استدعى ذكر ما كانوا يتوهمونهم شفعاء عند الله، وهذا ظاهر أيضًا.

والآية لها وجهان من وجوه التفسير واللفظ يحتملهما الأول هو أن الذين يدعونهم من دون الله ومنهم عيسى وعزير والملائكة لا يملكون الشفاعة إلا للذى شهد بالحق وقال لا إله إلا الله محمد رسول الله، ومن لم يشهد بهذا الحق فلا يملكون له شفاعة وإن كان يرد عليه أن عيسى وعزير والملائكة يعلمون أنهم لا يشفعون إلا لمن شهد بالحق وأنهم ما كان لهم أن يشفعوا لغيرهم وعلى هذا يكون قوله سبحانه لمن شَهِد بالحق إذا كان المراد به المشفوع له فهو تحصيل حاصل وإنما كان هذا مقبولاً على أساس أن المراد بالآية إعلام أهل الباطل الذين يتوهمون أن هؤلاء شفعاء أعنى عيسى وعزير والملائكة شفعاء لهم فقيل لهم إن هؤلاء لن يشفعوا لكم.

والوجه الثانى أن يكون المراد أن الذين يدعونهم من دون الله لا يملكون الشفاعة إلا من كان منهم من الذين شهدوا بالحق كعيسى والملائكة وعزير والمشفوع له مسكوت عنه لأن هؤلاء يعلمون أنهم لا يشفعون لأعداء الله، وإنما يشفعون لأمثالهم ويعكر على هذا أن قوله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ معناه مفهوم قبله لأن عيسى والملائكة وعزير يشهدون بالحق وهم يعلمون ويمكن أن يقال فى دفع هذا الاعتراض أن قوله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ مثل قوله سبحانه ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر ٧] لأن المسبِّح بحمد ربه مؤمن به لا محالة وإنما ذكر يؤمنون به للإشارة إلى أن الإيمان عند الله بمكان كذلك يقال هنا إن قوله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ مع تقدم العلم به للإشارة إلى أن العلم بالمشهود به وأن الشهادة لا تكون إلا بعلم هذا عند الله بمكان، واستخلص بعض علمائنا من

الآية أن إيمان المقلد لا يُنَجِّي وأن الإيمان شهادة حق بعلم يعنى لابد أن يكون الإيمان عن اسدلال يورث اليقين حتى لا يستطيع أهل الشك والريب أن يصيبوا منه ما يريدون.

وقوله: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ هذه الجملة بنيت على النفى ﴿ولا يملك﴾ وهو مقابل ﴿له ملك السموات والأرض﴾ والآية تشير إلى الفرق الهائل بين المعبود بحق الذى هو فى السماء إله وفى الأرض إله والذى يملك السموات والأرض وما بينهما والمعبود بالباطل الذى لا يملك من الأمر شيئًا هذا شىء والشىء الثانى أنها تشير إلى سخافة عقول من يؤمنون بالله ويعبدون غيره ليقربهم إلى الله أو ليكونوا لهم شفعاء عند الله وتقول لهم ما كان بينكم وبين الخير إلا خطوة واحدة وهى إلغاء هذا الوسيط وعبادة الحى القادر الخالق الذى تؤمنون به وإذا مسَّكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه، فهيا اقطعوا هذه الخطوة، وشىء آخر فى الآية وهو أنها عبرت عن المعبود بالباطل باسم الموصول من أجل معنى فى الصلة ﴿الذين يدعون من دونه﴾ وذلك لأشياء هى أولاً أن دعاءهم لهذه المعبودات الباطلة التى قصاراها عندهم أن يكونوا شفعاء فعل يتجدد ويزاولونه شيئًا بعد شىء ومع ذلك لم يتنبهوا إلى هذا الخلل الظاهر ويستوى أن يكون المعبود بالباطل حجارة منحوتة أو أخشابًا منجورة أو كان عيسى أو عزيرًا أو الملائكة لأن هؤلاء الموحدين من آلهتهم لن يشفعوا إلا لمن ارتضى ولن يشفعوا لهم وهم أعداء الله ولماذا لا يتجاوزون عيسى إلى الذى خلق عيسى ولماذا لا يتجاوزون الملائكة إلى الذى يسبحه الملائكة وقد وصفهم ربهم بأنهم عباد مكرمون، ثم إن الآية الكريمة عبَّرت عن عبادتهم لآلهتهم بكلمة ﴿يدعون﴾ والدعاء له معنيان: العبادة وطلب الحاجة ولو قلت لماذا قال هنا ﴿يدعون من دونه﴾ ولم يقل يعبدون من دونه، قلت لك فى الجواب إن استخدام كلمة يدعون فيها سخرية خفيفة لأنها أومأت إلى أنهم يمدون أيديهم بطلب الحاجات لمن لا يملك شيئًا منها ويستوى فى ذلك الصنم والملك.

بقيت جملة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهى جملة بنيت على التوكيد وقدم فيها المسند إليه على الخبر الفعلى وهذا ظاهر والذى وراءه تأكيد علم الشاهد بما يشهد به، وقد سبقت الإشارة إلى أن المقصود بها ليس الفائدة ولا لازم الفائدة لأنها إن أريد بها المشفوع لهم فإن عيسى وعزيراً والملائكة لا يشفعون إلا لمن شهدوا بالحق وبه يعدلون وإن أريد بها الشافعين الذين هم عيسى والملائكة وعزير فالمعلوم أنهم يشهدون بما يعلمون، وإنما المقصود بهذا التنبيه إلى أهمية العلم بما نشهد به وتأكيد هذا المعنى وهو وإن كان ضرورياً فى شهادة الحق التى هى شهادة الواحدنية فإنه كذلك فى كل ما نزاوله من أقوال وأنه لا يجوز لنا أن نتكلم إلا بعلم ولا يجوز لنا أن نكتب إلا بعلم وأن حصائد الألسنة والأقلام تكُبّ الناس على مناخيرهم يوم القيامة إذا خلعت الألسنةُ والأقلام هذا الطوق الذى هو الكلام بعلم؛ ولو سكت من لا يعلم لاستراح الناس والكلام بدون علم ثرثرة فارغة ومضيعة أكيدة، وأقرب ما تنطق به الألسنة إلى شهادة الحق هو درس العلم وأن كثيراً من ضوابط الشهادة يجب أن يكون لها حضور فى درس العلم وإن كنا لا نستطيع أن نخلى درس العلم من الأمور الظنية التى ليس لها مكان فى شهادة الحق فإن هذه الأمور الظنية لابد أن يُبْذل فى تحقيقها من الجهد والنظر والمراجعة حتى نتأكد من ظنيتها، ولا يجوز أن نكلم الأجيال القادمة إلا بما نقتله علمًا وأن نربيهم على هذه القيمة الرفيعة التى ترشد إليها هذه الجملة العالية ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ولو كنت تتابع ما يجرى فى الحياة الفكرية والسياسية والعلمية حولك لرأيت أن الكارثة الكبرى هى فى أن الكلام بما لا نعلم هو طابع كل ما حولك لأن القدماء فسروا الكلام بما لا نعلم بالتقليد وقد ابتلينا به فى الفكر والأدب والمناهج والتعليم والسياسة والاقتصاد وهذه هى الآفة التى تأكل عقولنا وتستهلك طاقاتنا، وكنت أرى تشدداً فى قول العلماء إن الآية تنفى قبول إيمان المقلّد وتمنيت لو شاع هذا بين المثقفين والمتنوّرين الذين اعتقدوا أن

التقليد الذى سموه التنوير هو سفينة نوح التى تنجو بها الأمة من طوفان التخلف ومن طوفان ثقافة عصور الظلام التى هى ثقافة الإسلام ولا أعرف تطرفًا في حرب الدين أبشع من هذا التطرف ولا أعرف غرسًا للإرهاب أخبث من هذا الغرس وهل ترى أبشع من أن تُسمّى ثقافة الإسلام الثقافة الظلامية؟!!

قوله جل شأنه: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ**﴾.

هذه الآية من تمام معنى الآية قبلها والتى هى من تمام معنى التى قبلها وراجع الآيات الثلاثة: ﴿**وَتَبَارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ وكيف دلت على جلال المعبود بالحق ثم آية ﴿**وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ**﴾ وكيف دلت على انحرافهم عن المعبود بالحق إلى عبادة من لا يملك شيئًا، ثم آية: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ**﴾ وكيف دلت على أن الساكن فى فطرتهم هو التوحيد لأنه هو الذى فطر اللهُ الناس عليه وكل مولود يولد على الفطرة فإذا أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه وهذه الآية مما رجع فيها العجز إلى الصدر رجوعًا ظاهرًا لأنها أخت آية: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ**﴾ فإذا كانت الأولى سؤالا عن الذى خلق ما حولهم فهذه سؤال عن الذى خلقهم، وإنما تقدم سؤال الذى خلق ما حولهم على سؤالهم عن الذى خلقهم لأن الجواب هناك اتسع فذكر النعم وذكر الأرض والسبل ونزول الماء من السماء وإحياء الأرض. والأزواج كلها إلى آخره، وهيأ بذلك نفوسهم لحوار ماساكنها من باطل وبدأ بجعلهم لله من عباده جزء وبعد هذا المشوار الطويل رجع بهم إلى أنفسهم فسألهم عن الذى خلقهم ورد العجز على الصدر ليس محسنًا لفظيًا يكتفى فيه بتكرار اللفظ وإنما هو أمر معنوى داخل فى صلب بناء المعانى وداخل فى صلب التكوين والترتيب والنسق. فإذا كان الصدر مشيرًا بإيجاز شديد إلى مقاصد السورة فإن العجز يشير بتلخيص شديد إلى ما ورد فى السورة وهكذا تبدو السورة وقد

بدأت من موطن ثم جـرت منه إلى ما أومأ الموطن إليه ثم حـادت السورة بعد الفراغ من مـقاصـدها إلى النقطة التى بدأت منهـا والتقى طرفا الحـلقة. ولماذا بدأت مسـيرة الحوار مـعهم بطرح هذا السؤال عليـهم وانتهت السورة مـعهم بإعادة طرحـه؟ والسؤال فى الصـدر والعجـز عن القضـية التى دارت حـولها السـورة وأن الحق والصـدق والصواب كل، ذلـك قد يكون هاجـعًـا فى داخل النفس والمطلوب هو الوصول إلى هذا المهجع واستـخراج هذا الساكن فيه وأن الإصرار على الباطل مع طرق هذا الباب والتنبيه إلى هذا الاعتقاد الذى انطوت عليه النفوس وأنه سبحانه هو الخالق ليس إلا ضربًا من العناد واللجاجة.

ويلاحظ أن جملة سؤالهم عن الذى خلقهم مبنية بناء خاصاً لأن أصلها أنها جملة شرطية إن سألتهم من خلقهم قالوا الله، وموضع الفائدة من هذه الجملة ترتب الجـواب على الشـرط يعنى ترتب هذا الجـواب على السـؤال، ثم دخل عليهـا القسم فاجتـمع الشرط والقسم، والذى أقـسم عليه ربنا هو ترتب هذا الجواب على هذا السؤال وأنهم لا يجيـبون إلا به لأنه قار فى فطرتهم وحذف جواب الشرط لدلالة جواب القسم عليـه، يعنى أوثر جواب القسم بالذكر لأن فيه توكيـدا، ومعنى هذا أن الحق أكد لنا هذه الحقيقـة وهى اعتقادهم أن الذى خلقهم هو الله بالـقسم وبما جاء فى جواب القـسم من توكيد وقـد أكد باللام وبنون التـوكيد الـثقيلـة وكل هذا ظاهر والواجب أن نسأل لماذا كـشف لنا ربنا حقيـقة نفوسهم ولماذا أكـد لنا هذه الحقيقة حـتى إنه سبحانه أقسـم لنا عليها؟ وجواب هذا يتنوع ويتسع وأختصـر الذى عندى فى أنه سبحانه أراد أن يكشف لنا أن داعى كفرهم ليس خفاء حقيقـة الإيمان والتوحيد، الذى ندعوهم إليه، وإنما هو العناد والاستكبـار، ورفض الانقياد، وأنهم يغالطون أنفـسهم، وأنهم يعرفـون الحق، ولكنهم يكرهون الحق، وأنهم أعداء للحق، وأن مـا تدعوهم إليه هو الفطرة التى تقـرها النفوس المبرأة، وأن الإيمان بالغـيب الذى كرم الله أهله إيمان عظيم، وعند الله بمكان ثم هو قريب، ولو مدّ كل واحد يده حوله لوجد الله فى خلق السموات والأرض وما بـينهما، ولو مد كل واحد يده إلى

داخل نفسه لوجد الله في داخل نفسه، يعنى فى خلقها وتسويتها، وتصويرها، وحسن تقويمها.

ومن المفيد أيضًا أن نسأل عن سر أداة الشرط وإيثارها مع أنها تكون فى الشرط النادر أر المشكول فيه والذى عندى فى جوابه هو أن الظاهر من حالهم وانهماكهم فى الكفر وولعهم بالوثنية والمعبودات بالباطل أن لا يتجه أحد إليهم بهذا السؤال لأنه لا يظن فيهم مع هذا الولع أن الحى القادر الصانع الواحد الأحد هو ما تنطوى عليه نفوسهم، وأن وراء هذه الوثنية وهذه القرابين وهذا الولع بهذه الآلهة والتعصب لها لا يظن أن وراءها الواحد الأحد مع أنهم تأتى عليهم أوقات ينفضون نفوسهم من كل هذه المشاهد الوثنية ويضلون طريقهم إليها ولم يبق لهم إلا الله، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] ولهذا المعنى أقسم ربنا لنا على هذه الحقيقة وأكدها بما نرى لأنها غريبة وغريب أيضًا أن تحمل قريش سيوفها وتقطع أرحامها فى حربها لرسول الله ﷺ ومن سعه من أبنائهم وإخوانهم والحال أن نفوسهم منطوية على الإيمان بما جاء به ﷺ وشيء آخر فى الآية وهو إسناد سؤالهم هذا إليه صلوات الله وسلامه عليه وأنه سبحانه لم يقل ولئن سألتموهم أو ولئن سألناهم لأن الذى كان يعانى من عنادهم وإصرارهم وتحدِّيهم وتآمرهم هو ﷺ وربنا سبحانه يقول له اعلم أن ما أرسلتك به من التوحيد هو الساكن فى قلوبهم وأن سؤالهم عنه هو الموقظ لهذا الاعتقاد فى قلوبهم وأنهم لَنْ يكذبوك ولن يماروك فى جواب سؤالك وهذا عجيب جداً والعجيب أيضًا أنهم كذبوا على الله لما جعلوا له من عباده جزءًا وكذبوا على الله لما قالوا الملائكة إناث وكذبوا على الله لما قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾، ولكنهم لم يكذبوا حين سألهم من خلقهم لأن الجواب حقيقة فى قلوبهم لا يستطيعون إنكارها وقد كان ما كان وغلبت الحقيقة ودخل القوم فى دين الله

أفواجًا وصـاروا خير أجيـال الأرض وأكرم جند الله. اللهم ألحقنا بهـم كرامة نفس وقرة عين، والفـاء التى فى قوله ﴿فَأَنَىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ تفريع لهـذا السؤال الذى فيـه إنكار وتقرير وتعجـب وتنبيه إلى ضـلال، وغير ذلك مما تراه فـيه مفرعا على جوابـهم الحق والرائع لما سؤلوا من خلقهم؟ وكلمة ﴿أَنَّى﴾ يسأل بها عن المكان لأن قولهم الله رؤية صحيحة لصراط الله المستقيم ولطريق الحق والخير، ولكـنهم بوثنيتهم سلكوا طريقًا آخـر، فكلمة ﴿أنى﴾ ودلالتها على المكان تبـعث مـعنى مجـازياً حـسيّـاً فى الأمـور المعنوية والعـقائد، وكلمـة ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ من الإفك وهو الصرف يقال أفكه كضربه يأفكه إذا صرفه والبناء للمجـهول يفيد مـعنى جليلاً هو أن الفـعل الذى هو الصرف هو الأهم الذى يتجه إليه الإنكار من غير أن يكون هناك اهتمام بمن كان منه الفعل لأن الأصل أنه لا يكون ويستوى أن تكونوا صرفتم أنفسكم عن الحق الراسخ فى نفوسكم وهو الوحدانيـة أو صرفكم صارف. والإفك الكذب قـال تعالى. ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَـةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١]، وإذا قلت لماذا عبّـر عن الصرف بلفظ الإفك ولم يقل فأنى يُصْرَفون كما قال تعالى فى سورة يونس. ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْـرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢] كان سـؤالك هذا سؤالا جيدًا، وليس عندى فى إجابته سوى أن الإفك بمعنى الكذب وجريان المادة فيه أشرب الكلـمة شيـئًا من مـعناه وهذا يضيف هنا شـيئًـا خفيّـاً وهو أنكم فى صـرفكم عن الصـراط المسـتقـيم إلى غـيـره تكذبون على أنفـسكم التى إذا سألتمـوها عن خالقها قـالت الله، وهذا المهيع فى بناء المعانى كثـير جداً فى الكتـاب العزيز، وأعنى به أن تبـدأ الآيات فى كـشف حقـيقـة من الحقـائق وتضىء جوانبها إضاءة لا تحتمل لبسا، ثم تطرح سؤالاً على الذين سلكوا غير طريق هذه الحقيقـة، كما فى هذه الآية وإن كانت اختصـرت الطريق اختصاراً فى هذا السؤال وهذا الجواب. ومما تـراه يتضح فيه هذا المذهب قوله سـبحانه

فى التكوير التى تحدثت عن القرآن: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩- ٢١] إلى أن التفت الكلام إليهم ووجه إليهم هذا السؤال الذى من معدن ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ قال سبحانه: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير. ٢٦] والأصل أن الآيات السابقة وضحت الطريق الذى لا يجوز السلوك في غيره فمن تركه إلى غيره قيل له أين تذهب والبلاغيون يقولون إن المراد بهذا الاستفهام التنبيه على ضلال وهذه عبارة جيدة ومتقنة ولا يزال هذا الأسلوب قائمًا فى سلائق أهل اللسان يقولون للذاهب في الغى أين تذهب بدلا من أن يقولوا له أنت ذاهب فى غى لأن السؤال يعنى أن يرجع إلى نفسه ليجيب فيرتدع ويعيا بالجواب كما قال القدماء أيضًا والجملة العالية التى معنا ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ فيها سؤالان سؤال بلفظ السؤال وسؤال بأداة الاستفهام وترتُّب السؤال الثانى على السؤال الأول يوجب أن يكون بينهما فراغ وعلى السامع أن يتمه وهو إذا كنتم تقرون أنه هو الذى خلقكم وأنكم زرعه وعباده وهو رازقكم وكافيكم وقد سبق إقراركم بأنه خلق السموات والأرض وجعل لكم فيها سبلا وأنه هو الذى ينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض فكيف تتركون سبيله وصراطه وتصرفون إلى غيره. الواجب أن تكون هناك مواطأة بين الاعتقاد الذى تنطوى عليه نفوسكم وعبادتكم فلا يجوز أن تؤمنوا بالله وتعبدوا غيره لأن هذا ليس من شأن الإنسان السوى. وإنما هو شأن الظالم لنفسه والمعُادى لها وأنتم حين تحادُّون هذا الدين إنما تحادُّون أنفسكم التى لا تكذبكم والتى إذا سئلت عن الذى خلقها قالت الله من غير مواربة ولا تردد.

قوله سبحانه ﴿وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ القيل مصدر قال كالقول: والضمير المضاف إليه عائد على ما عاد عليه الضمير فى قوله ﴿وَلَئِن

سألتهم﴾ وهو المختار صلوات الله وسلامه عليه، وتجد تنوعًا عجيبًا فى طرائق الكلام تجد ذكرهم بطريق الغيبة فى قوله: ﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا﴾ ثم يذكرون بطريق الخطاب فى قوله: ﴿وإليه ترجعون﴾ ثم يعود الكلام إلى الغيبة فى قوله: ﴿ولئن سألتهم﴾ وتجده يذكر بطريق الخطاب فى قوله: ﴿فذرهم﴾ وفى قوله: ﴿ولئن سألتهم﴾ ثم بطريق الغيبة فى قوله: ﴿وقيله يا رب﴾ وهذا من السخاء البيانى الذى لم يأخذ حقه فى البحث عن الأسرار، ومهما اجتهدت فى بيان الأسرار فإن حضور هذه الأشخاص وغيابها ثم حضورها ثم غيابها لا يزال مطوياً على أكثر مما قلناه. وأن هذه الأشخاص التى تظهر وتخفى ثم تظهر وتخفى منها الضال والمهتدى وتشمل الرسول عليه السلام والمرسل إليهم، وإذا كان هذا باعثًا للحيوية والإيقاظ والتطرية كما قال علماؤنا فإن هذا لا يكفى فى بيانه كما لا يكفى ما تعوّدناه من الوقوف عند كل موقع من مواقع هذا الالتفات، والبحث عن الخصوصية التى دعت إلى هذا العدول، وكذلك لا يكفى أن تضع هذا بإزاء تنوع المعانى وأجناسها وأوديتها وأن هذا فى الدنيا وهذا فى الآخرة وهذا فى الجنة وهذا فى النار كل ذلك قريب والاكتفاء بما تيسَّر لنا من القول فيه من التساهل والدعة الممسكة بأزمَّة الهمم ونرجو الله أن يتيح لهذا البيان من هم أقدر منا على فقهه وأن يتيح له جيلا يخلص له وينقطع له ويصدق فى طلبه.

وقد ذكر الشيخ الطاهر أن وجه الالتفات فى قوله: ﴿وقيله﴾ أنه حكاية لشيء فى نفس الرسول فجعل الرسول بمنزلة الغائب لإظهار أن الله لا يهمل نداءه وشكواه على حد قوله: ﴿عبس وتولّىٰ﴾ [عبس: ١] وإضافة القيل إلى ضمير الرسول مشعرة بأنه تكرر منه وعرف به عند ربه أى عرف بهذا ومما فى معناه من نحو: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾.

وإنما ذكر الشيخ: ﴿عَبَس وتَولّىٰ﴾ لأن هذا المعنى مما حكاه ربنا بعلمه بما

جرى فى نفس نبيه ومـا كان منه مع ابن أم مكتوم وليس لرسول الله فى هذه القصة كلام وهذا بخلاف الآية التى معنا فإن ما حكاه ربنا جرى فى نفس نبيه وجرى به لسانه وهـذا مثل قوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣] فـهذا مما جرى به الخاطر وجـرى به اللسان وتقدير الله لنبـيه ﷺ أنه يحدث بما جـرى به خاطره، وما جـرى به لسانه، وفى القرآن آيات كـثيـرة خاطبتـه ﷺ بما كان يطويه فى نفـسه من مـثل قوله سبـحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦] وقد جاء مثله بطريق الغيبة كـما فى قوله سبحانه فى آخر سورة التوبة ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] صلوات الله وسـلامه عليـه ومـلاحظة الطاهر فى آية: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ [عبس. ١، ٢] ملاحظة جيدة لأن هذه الآية مما عوتب فيـه رسول الله ﷺ وإنما جاء ضمـير الغائب في هذه المـواقع الثلاثة ولم يقل سبحانه عبست وتوليت أن جـاءك الأعمى لأن الخطاب هنا يوحش وخصوصًا فى إسناد فعل عـبس وفعل تولى فـأكرم الله نبيـه وآنسه بالإسناد إلى ضمـير الغـائب، وبعد هذه اللفـتة الكريـمة وهذا الإيناس. جـاء الكلام على طريق الخطاب فى فـعل لم يكـن من رسـول الله ﷺ وهو قـوله جل شـأنه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٣] وهذا غـير فعـل عبس وتولى لأن هذا وذاك كانا حدثـين عن رسول الله ﷺ وفعلين من أفعـاله. والخطاب فى قوله سبحانه: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس: ٥، ٦] خطاب فى فعل لا يعاب به صلوات الله وسلامه عليه لأنه مـأمور بالبلاغ لمن استغنى ومن لم يستـغن ولولا اقتران هذا بما كان منه ﷺ مع ابن أم مكتـوم ما دخل ذلك فى عـتابه وقل مـثل ذلك فى قـوله: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٧] والخطاب فى قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنت

﴿عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ٨، ٩] فإن الله سبحانه يعلم أن اشتغاله ﷺ بمن استغنى إنما كانت الرغبة فى أن يدخل الناس فى دين الله بدخول هؤلاء لأنهم هم الرؤوس التى كانت تواجهه ﷺ ومن آمن معه بأشد ضروب العنت والإيذاء فقد كانوا شيبةَ بن ربيعة وعتبةَ بن ربيعة وأبا جهل بن هشام وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة وهم صناديد قريش الذين هلكوا يوم بدر وكان معهم عمه العباس بن عبد المطلب وقد دخل عليه ابن أم مكتوم وهو عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهرى القرشى فقاطع رسول الله ﷺ وهو يكلم هؤلاء وقال له أقرئنى وعلمنى مما علمك الله، فكره ﷺ هذه المقاطعة.

وقد لاحظت أن آيات كثيرة ذكر فيها ﷺ وليس فيها عتاب على شىء كان وإنما لها مغزى آخر وفيها من الشدة قدر كبير وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٧] مجىء الكلام هنا على طريق الغيبة فيه قدر عن إكرامه ﷺ ولو جاء الكلام على طريق الخطاب وقيل: ولو تقولت علينا بعض الأقاويل لأخذنا منك باليمين إلى آخره لكان شديدًا جداً على رسول الله ﷺ مع أن الله يعلم أن ذلك لن يكون منه كما أنه يعلم أنه لن يكون منه الشرك الذى جاء فى قوله تعالى. ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وآية: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ فيها تصوير شديد للعقوبة وهى الأخذ باليمين وقطع الوتين وأن ذلك يكون لو تقول علينا بعض الأقاويل وهذا عجيب جداً لأنه قاطع فى أنه عليه السلام لم يبلغ عن الله كلمة واحدة إلا وهى من الله وإنما نحن المقصودون بهذا وأنه لا يجوز لنا ولا لغيرنا أن يقول فى دين الله كلمة واحدة ليست منه والله سبحانه وتعالى يعلم ما نحن فيه وما تكون فيه الأجيال القادمة، ويعلم الضغوط الشديدة التى يواجهها العلماء والفقهاء

ليدخلوا فى دين الله ما ليس منه ولو كلمة واحـدة أو ليخرجوا منه ما هو منه ولو كلمة واحدة، وأن العلـماء لو أخذوا باليمين وقطع منهم الـوتين ليقولوا هذه الكلمـة أو ليـخرجـوا هذه الكلمـة فإنه لـن يكون ذلك منهم وإذا رأيت خلاف هذا فـالذين تراهم بمعزل عن إرثه ﷺ، وضمـير الغيـبة هنا يقلل من شدةّ وحـدةّ هذه الصورة ويقـابل هذا آية: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ لأنها لم تصور العذاب وإنما ذكرت ما يفـضى إليه وهو إحباط العمل، ولهذا جاء على طريق الخطاب لبيـان حقيقة وهى أن الفـاصل بين أولياء الله وأعداء الله هو التوحيد الخالـص التام لله رب العالمين، ومن المعلوم لكل أهل القرآن أن الله سبحانه مـا خلق وما بـرأ أحب إليه من مـحمد ﷺ ولا أكـرم عنده سبـحانه منه وإذا كان يخاطب فى أمـر الله ونهيه بهـذا الخطاب ويحدث عنه بهذا الحـديث فكيف بغيره وكل هذا وغـيره مما يؤكد فى وجدان الأمـة الفرق الهائل بين النبـوة فى أعلى مراتبـها وبين الألوهية ولذلك لم تجـد واحداً من عامة المسلمـين فى أى شق من الأرض يتوهم أن لمحمد صـلوات الله وسلامه عليه شيئًا من الأمر وإنما الأمر كله لله، وبـقيت الوحدانية فى الأمة فى نقائها وصفائها مع اختـلاف الأزمنة والأمكنة والأجناس والثقافات هذا والله أعلم، وقد كررت هذا الكلام كثيرًا لأنه مهم جداً وليس شائعا فى الكتب.

وأعـود إلى آية ﴿وَقِـيلِهِ يا ربِّ﴾ بعـد الذى أثارته لفـتـة الطاهر فى آية عبس. وأقول إن هذه الآية تختلف عن كل الآيات التى عرضنا لها لأن فيها من الإكرام لرسول الـله ﷺ القدر الكبير، وسـيتبين هذا بعد الـفراغ منها. وقد وقفت كـثيرًا عندها لأتبين سر مـوقعها من الآية قبلـها، والآية بعدها، وكانت القراءات التى قرئت عليها جملة ﴿وَقِيلِهِ يا ربِّ﴾ وأنها قرئت بكسر قيله وبفتـحها وبضمهـا هذه القراءات وتوجيه النحاة لهـا مما كان يتدافع مع إحسـاسى بموقعهـا، لأنى أراها من تمام معنى آية ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ

لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ وأنها إما أن تعطف على ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أو على ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ وذلك لأن الآيتين تؤكـدان معنى أنهم لن يؤمنوا لأن من أقر أن الله خلقه ثم انصرف إلى عبادة غيره لن يؤمن؛ وعلى هذا يكون قول الرسول عليه السلام ﴿يا ربِّ إنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ من تمامها ويكون قوله جل شأنه ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ يعنى أعرض عنهم ﴿وَقُلْ سَلامٌ﴾ مرتبـا على دلالـة جـملة ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ وجمـلة ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ وجـمـلة ﴿وَقِيلِهِ يا رَبِّ﴾، وأن كل هذا يؤكـد معنى الإعراض عنـهم وتركهم لعـقاب الله، وهذا عندى مـسـتـقيم جـداً. ويلاحظ أن كلمـة (قيل) لم تأت فى الكتـاب العزيز مضافة إلا فى هذه الآية وجاءت فى مـواضع ثلاثة أخرى غير مضافة هى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ من اللَّه قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢] أى قولاً وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: ٦] والموضع الثالث فى قوله تعالى. ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]. وهذا يعنى أن العبارة عن القول بالقيل قليل جداً مع كثـرة استخدام كلمـة قول وربما كانت أوسع مواد القـرآن وأكثرها تكراراً. وكل هذا لابد أن يراعـى فى التحـليل والتدقـيق وأن قـوله عليـه السلام ﴿يا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ قول نادر جداً لأنـه كان من أشد الناس حرصًا على هداية قومه حتى إن الله قال له: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ وقال له: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] وقال له: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [الشورى: ٤٨] وقـال له الكثيـر من هذا الباب فإذا وصل هذا الـنبى الكريم إلى حالة اليـأس وحدَّث ربه بهـذا القول الذى جاءت صيغـته وحيدة ومتفردة فى الكتـاب وأضيف هذا إلى قول ربنا لهم: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، فقد جاء الأمر بالإعراض عنهم واقعا موقعًا ما كان يمكن أن يكون إلا هو، وهنا تظهـر قيمـة أخرى لطريق الغـيبـة لأن رسول الله ﷺ

الذى قال هذا يوحشه أن يقال له وقيلك يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون وكأنه سبحانه علم من حال نبيه أنه قال هذا وهو كاره وأنه لا يؤنسه أن يخاطبه به وكل هذا اجتهاد فخذ منه ودع ولولا أننا نرى فيه صوابًا ما كتبناه.

وقوله ﴿يا ربَ إنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ ليس المراد به الإعلام ولا يصح ذلك لأن الله يعلم سرهم ونجواهم وإنما المراد به التحسُّر عليهم واليأس من إيمانهم وأنه عليه السلام قد استنفد كل طاقاته وكل حيله ويظهر لك هذا المعنى فى تدقيق فهم جملة ﴿إنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ وذلك لما بدئت به من التوكيد الذى ليس له دلالة ترجع إلى المخاطب لأنه سبحانه عليم سميع بصير وإنما دلالته ترجع إلى توكيد هذا المعنى فى نفس المتكلم صلوات الله وسلامه عليه، ثم اسم الإشارة ﴿هَؤُلاءِ﴾ وتمييزهم إعدادا للخبر الصادر منه عليهم صلوات الله وسلامه عليه وكلمة ﴿قومٌ﴾ ودلالتها على أنهم جُبلوا على ذلك وطبعوا عليه وأن عدم الإيمان كأنه جزء من ماهيتهم وأنهم نشأوا على ذلك وشبوا وشابوا عليه، وأنهم متناصرون على ذلك وأنهم قيام على ذلك وقوامون عليه، وكلمة ﴿قَوْمٌ﴾ لها فى المصحف شأن أى شأن.

وهذا كله يعنى ما استنفده ﷺ من مجهود وما استنفده من حِيَل كان الشأن أن يصل منهم إلى شىء لولا أنهم قوم لا يؤمون ومادام الأمر كذلك فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولهذا ترتب على ذلك هذه النهاية الفذة البالغة ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وقُل سلامٌ﴾ وكأنه يقول له حسبك ما كان منك وقد بلَّغت وأدَّيت ووفيت فأعرض عنهم، وقد بلغت فى دعوتهم مبلغًا لا مزيد عليه ودعهم لنا لأنك أعذرت وقد أعذرنا وأنذرنا بك ويأتى ما وراء ذلك وهو حسابنا وعقابنا وسوف يعلمون ذلك، ولا يمكن أن نتصور نهاية للسورة أدق وأوفى وأوقع وأمكن وأحكم من هذا الذى ترى.

وكلمة ﴿وَقُلْ سَلامٌ﴾ معطوفة على ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ وأصله سلامًا استغناء بالمصـدر عن الفعل ثم حـوّلت الفعـلية إلى الاسـميـة للدلالة على الثبـوت والدوام، أى أعرض عنهم إعراضًا مصحوبًا بالسلام والمتاركة، لأن هذا حدود ما كُلّفت به، لأنه به يتم البلاغ الذى عليك ثم يأتى الحساب الذى هو علينا، وهذه هى الرسالة الحقيقيـة لأهل البلاغ أن يحسنوا إبلاغ رسالة الله إلى خلقه ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٣٩] ثم يـرفعوا أيديهم ويـقولوا سلام ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس:١٠٨]، ولا يمسك أحد العصى لخلق الله لأن حساب الخلق على الخالق، وإذا كانت هناك عصى فإننا لا ندري من الأحق بأن يمسكها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها فهل تعطى العصى له؟!!.

ولا شك أن القـوم الذين لا يـؤمنون ليسـوا كل أهل مكة لأنـهم هم المهاجرون وهم الصـادقون وإنما من سبق عليه الكـتاب منهم فلم يـكن منهـم أبو سفيـان ولا معاوية ولا عمرو بن العاص ولا خـالد بن الوليد ولا حكيـم ابن حزام ولا غيرهم مما دخـلوا فى دين الله بعد نزول هذه السورة بزمن وإنما هو خاص بمن سبق عليه الكتاب كأبى جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وغيرهم ممن هلك على الكفر، وظنى أن كلمة ﴿وَقُلْ سَلامٌ﴾ فيهـا إشارة إلى أنه لم يبق لكم عندي شيء وقد بلغت ما أمرت به ومـحضتكم نصحى، وبلغت ما لم أستطع سواه، والصفح معناه الإعراض لأن صفح الشيء عرضه وجانبه أى أعرض عـنهم إعراضـا توليهم فـيه صـفحـة وجهك وهذه اللفظة تـعود لتجتذب إليها آية المطلع: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ أى نجعل الذكر يعرض عنكم ويوليكم صفحته، وكلمة: ﴿وَقُلْ سَلامٌ﴾ تعود إلى الجملة التى عطفت عليها وتنفحها معنى الأصل أنه كامن فيها لأن الصفح يعنى أيضًا العفو وقالوا

هو أبلغ من العفـو لقوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا واصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٠٩] ومعنى الصفح الجـميل كالذى فى قوله تعالى: ﴿وإِنَّ السَّاعة لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] أقول إن جملة ﴿وَقُلْ سَلامٌ﴾ لا تجـعل جـملة ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ دالة فـقط على الإعـراض وإنما الإعـراض المصحوب بالمسالمة والمتـاركة والصفح الجميل والعفـو عما كان منهم إليك من مضايقات لأن الحـساب مادام على الله فإن حسبهم من العقـاب ما يوقعه الله بهم على كفـرهم وعنادهم واستكبـارهم ولأن الشأن فيـمن يدعو إلى الله أن تنـمثل فـيه مكارم الأخـلاق التى هى رسـالة محـمد ﷺ، ويجب عليـه أن يحرص على أن يكون سلوكه قـائمًا عليها قلت إن آية ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ واقعة موقعها الشديد التمكن مع ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ وما تَرَتَّبَتْ عليه، ومع آية فاصفح عنهم التى تَرَتَّبَتْ عليها لولا أن وجوه القراءات ووجوه توجيهها هو الذى كان يُتَأكدُ ذلك عندى فقد قرئت كلمة ﴿وَقِيلِهِ﴾ بالحركات الثلاث. وربطتها هذه الحركات الإعرابية بآيات سبقتها واختلف فيها التوجيه، فقراءة النصب حملها الأخـفش والفراء على العطف على سرهم ونجواهم فى قوله تعالى. ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ ونسمع قيله يا رب وروى عن الأخفش والفراء أيضًـا أنه مصدر حذف فعله أي وقـال قيلا يعنى قال قولا وعطفها الزجـاج على الساعة فى قوله ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ مراعاة لمحلها لأنهـا مفعـول المصدر وحـملوا الجر على العطف على لفظ السـاعة، وحـملوا الرفع على الابتـداء والخـبـر محـذوف أو على الـعطف على «علم الساعة» والتـقدير وعنده علم الساعة وقيله يعنـى وعنده قيله وهذا كله مروى عن أشياخ اللغة الأوائل الكبار مـثل الـفـراء والأخفش والزجاج والمبرد. ولا شك أنهم يعرفون من أسرار العربية مـا لا نعرف وإن كان الزمخشرى رفض كل هذا واستبعده ورأى أن فيه فصلاً كبيرًا بين المعطوف والمعطوف عليه، وأنه يَبْتُرُ الـنظم وعزل الآية عن الكلام السابق فى إعرابهـا ورأى أن الجر والنصب

والرفع كل ذلك بتقدير القسم فالرفع على تقدير وقيله قسمى والجر على تقدير الواو للقسم كما تقول والله والنصب على تقدير أقسم بقيله، والمقسم به فى كل ذلك هو وقيله يا رب والمقسم هو الله جل شأنه والغرض من القسم إكرام نبيه ﷺ وأن نداءه ربه عند الله بمكان وجواب القسم هو ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ ويكون هذا على توجيه الزمخشرى من كلام الله مع أن وجه الكلام أنه مقول لقيله ولذلك اعترض أبو حيان وقال هو مخالف لظاهر الكلام إذ يظهر أن قوله ﴿يا ربِّ﴾ إلى﴿لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ متعلق بقيله ومن كلامه عليه السلام وإذا كان ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ﴾ جواب القسم كان من إخبار الله عنهم، ويمكن أن يجاب عن اعتراض أبى حيان مع قربه ووضوحه بأن القسم بجملة ﴿وَقِيلِهِ يا رِبِّ﴾ دون ملاحظة تعلقه بما بعده فيه مزيد عناية بدعائه عليه السلام ربه وندائه ربه من غير نظر إلى ما نادى به وما دعا به، وهذه مرتبة عالية ثم إنه على الوجه الذى ذكره الزمخشرى يكون القطع بأنهم لا يؤمنون خبر الذى لا خلاف فى إخباره ويكون خبرًا مؤكدًا بالقسم وتكون هناك مناسبة لطيفة بين المقسم به والمقسم عليه وهى أن الله يقسم لنا بكرامة نبيه عنده أن هذا الفريق من قومه لا يؤمنون وأن هذا النبى الكريم الذى لا يرد نداؤه عند ربه إذا قال يا رب والذى كرّم الله نداء هذا حتى أقسم به لم يستجب له هؤلاء ولم يسمعوا له وإنما ظلوا فى خوضهم يلعبون كما وصفت الآية السابقة، وهذا معناه أن هذه الآية كما قلت من تمام الآية قبلها وأنها هى والتى قبلها ترتب عليهما ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ﴾ أما سر وقوع هذه الآية فى موقعها فى ضوء توجيهات شيوخ اللغة الذين هم طبقة فوق طبقة الزمخشرى مع معرفة فضله والإقرار بنباهته فإنه يتأكد مع أنها ملحقة فى الإعراب بآيات بعيدة فالأخفش الذى هو شيخ العربية بعد سيبويه يعلقها بآية: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ ويترتب على هذا أن يفصل بينهما

بآيات: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُون (٨٠) قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ وتوابعها من التسبيح والتقديس ثم الإعراض عنهم بقوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾. ثم إعلان أنه سبحانه وحده إله في السماء وإله في الأرض ثم تقديس وتعظيم وتنزيه آخر مقترنًا بأنه مالك السموات والأرض وعنده علم الساعة ثم الإشارة إلى الذين يعبدون من دونه ثم إن هؤلاء الذين يعبدون من دونه ممن لا يملكون الشفاعة يعتقدون أنه خالقهم وكل هذه سلسلة تسلم فيها كل حلقة إلى التى تليها وهذه السلسلة بحلقاتها أخرت آية ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ﴾ عن موقعها الذى كان يقتضى الاشتراك فى ا لحكم الإعرابى أن يكون قبل قوله ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾، وكلام الزمخشرى وغيره فى الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ناشئ من فهم جيد وهو أن المعطوف والمعطوف عليه مقترنان كجزأى الجملة لا يفصل بينهما بهذا الفاصل الطويل وإن كان الشيوخ الأوائل لا يمنعون ذلك وفى القرآن آيات كثيرة نرد بها إلى آيات بعيدة وذلك من جهة المعنى وحسبنا أننا نرد بالأعجاز إلى الصدور وهذا لا تجد فى السورة رداً أبعد منه.

وإذا كان العطف مفيدًا معنى التشريك فى الحكم كما فى آية ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ﴾ فإن عطفه لا يقاس على عطف المعنى على المعنى أو على رد المعانى بعضها إلى بعض الذى منه رد العجز على الصدر لأن رد المعانى بعضها إلى بعض ليس له ضوابط تمنعه وذلك بخلاف الاشتراك فى الحكم، ومع هذا فإن رد المعانى بعضها إلى بعض من غير قيود مما يُسْتأنَسُ به فى العطف الموجب للاشتراك فى الحكم مع طول الفصل. وأن اللغة لا تعاف الاشتراك فى الحكم مع طول الفاصل ولا تتبشعه كما يقول أبو الفتح، وقد كانوا يستأنسون فى حمل الأصول على الفروع بالعكس فى التشبيه مع التباعد الشديد بين العكس فى التشبيه الذى هو عمل شعرى محض وحمل الأصول على الفروع

الذى هو أصل من أصــول منهج التفكيــر فى اللغة وتأصــيل أصولهــا وضبط قواعدها.

ثم إن الذين قالوا بالاشتراك في الحكم مع هذا الفـاصل الكبير هم شيوخ اللغة من الأخفش والفراء والزجـاج والمبرد وسـواء رجعـوا بإعـراب ﴿وَقِيلِهِ يا ربِّ﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ أم إلى محل الساعة أو لفظهــا إلى آخر ما قالوا فإن الذى لا يجــوز إهماله هو السر الذى كـان له هــذا الفــصل ولماذا دخلــت هذه الآيات التى دخلت بيــن المعطوف والمعطوف عليــه؟ وإذا كان دخــول ما دخل يؤدى لا مــحالة إلى تأخــير آية ﴿وقيلِهِ يا ربِّ﴾ فإنه لابد من أن يكون لهذا التأخــير أيضًا سرٌّ أفاده وإن كنا فى البــلاغــة تعودنا على دراســة أســرار التــقديم ولم نــألف دراسة أســرار التأخير.

والســبيل إلى كــشف ســر الفصــل بين المعطوف والمعطوف عليــه هو تأمّل الآيات التى دخلت بينــهمــا والمعــانى التى تفيــدها وضــرورة تقــديمهــا على المعطوف.

وهذه المعانى رأسها: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ وهى شاملة لمعان كـثيرة تفرقت فى السورة وقامت الســورة عليها تراها تشمل: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ وتشمل: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ وتشمل: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ وتشمل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ فكأنهــا تلخيص بارع لأكــثر الذى جــاء فى السورة وجــمع له وتركيــز له فى مقــطعهــا، ثم إنها أبلغ الآيات الدالة علــى إبطال هذه الكفريات على الوجــه الذى شرحناه من كــلام الزمخشــرى وأنها من باب التعلــيق على المحال يعنى يستحيل أن أعبد للرحمن ولدا لأنه يستحيل أن يكون له ولد، ثم إنها افتتحت بقل وهى مؤذنة بأن المعنى الذى بعدها أُمِرَ محمد عليه السلام أن يقوله، وأنه

لو كان للرحمن ولد كان محمد أول العابدين له ومحمد عليه السلام لا تساعده نفسه على أن يقول هذا لولا أنه أمر به ثم جرى الكلام بعد هذه الجملة القاطعة فى النفى على ما تقتضيه من التنزيه والتسبيح وبيان عز الألوهية وذكر الربوبية فى السموات والأرض وذكر العرش ويتقدم ذكر رب السموات والأرض على ذكر رب العرش لأن الربوبية فى السموات والأرض هى التى تفضى إلى العرش والملك ثم الأمر بتركهم فى خوضهم يلعبون لأن الذى يقرأ هذه الآيات ولا يؤمن بها هو هازل لاه يلعب يخوض فى اللهو والذين يخوضون فى اللهو لا يدركون الجد والحق ولو وضعته فى أيديهم؛ هم لاعبون والحق لا يدرك إلا بالجد وهذه الآية ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ كأنها إرهاص بآية ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ثم هى تكاد تكون أماً لآية ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ تأمل العلاقة بين ذرهم واصفح.

ثم يتجه الكلام إلى بيان تجليات الألوهية فى السموات والأرض وملك السموات والأرض ثم يرفع البيان صورة الذين يعبدونهم من دون الله وأنهم لا يملكون الشفاعة وبعد كل هذا يعود إلى أنفسهم ويسألهم عن خالقهم وبعد كل هذا البيان تأتى الآية الممسكة بسرهم ونجواهم وتؤكد أن الذى يسمع سرهم ونجواهم يسمع قول نبيهم الذى يقتل نفسه أسفا عليهم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ومن أجل تأكيد معنى أنهم لا يؤمنون ذكر أبشع منكراتهم وأنهم جعلوا للرحمن ولدا؛ وذكر ذرهم يخوضوا ويلعبوا؛ وذكر غفلتهم عن الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وغفلتهم عن أن الذين يعبدونهم لا يملكون إلى آخره ومن هنا يتأكد أن تقديم هذا الفاصل الذى طال إنما هو بمثابة المقدمة الضرورية للحكم عليهم بأنهم لا يؤمنون فى المستقبل لأن هذا من أجرأ الأحكام وأقساها لأنه حكم بأن الله لن يفتح أقفال قلوبهم ويوشك أن يكون دخولاً فى حكومة الغيب الذى لا يعلمه إلا الله أو يعلمه النبى

ببلاغ ربه، ثم إن تأخير هذه الآية يفيد فائدة أخرى ذكرناها وهى أن الأمر فى قوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ والفاء التى رتبت هذا على ما قبله يظهر ظهورًا جليّاً حين يترتب على ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ ومعه ﴿وَقِيلِهِ يَا ربِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ وهذه الثانية فى هذا الترتيب لأنها نص فى أنهم لن يؤمنوا فى المستقبل والإعراض عنهم لا يكون إلا بالقطع بأنهم لن يؤمنوا فى المستقبل، أما التنبيه على الضلال فى قوله ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ فإنه وإن كان قريبًا جداً من هذا فليس نصّاً فيه، وبقيت كلمة أخيرة أقولها فيما ذهب إليه محمود ابن عمر رحمه الله وغفر لنا وله وهى أن القسم بقوله: ﴿وَقِيلِهِ يَا ربِّ﴾ من غير نظر إلى ما يتعلق به القول لأن هؤلاء قوم لا يؤمون على توجيهه جواب القسم وليس مقولا للقول وإنما القول هنا فقط هو «يا رب» أقول إن القسم بقوله: ﴿وَقِيلِهِ يَا ربِّ﴾ يعنى أن توجيه العبد أى عبد إلى الله بقوله يا رب كما نسمع فى الدعاء وكما نسمع من العامة والخاصة وكما نسمع فى الصلاة وفى الطرقات وفى أحوال السراء وأحوال الضراء كلمة يا رب القسم بها قسم مناسب جداً لأنك لا ترى قلوب العامة والخاصة يهزها شىء كما تهزها كلمة ﴿يَا رَبِّ﴾ ولهذا ترى اللفظ يحتمل أن يكون الضمير فى ﴿وَقِيلِهِ﴾ ليس عائدًا على المختار صلوات الله وسلامه عليه وإن كان أكرم من قالها وإنما هو شامل لكل من قال يا رب حتى الذى تراه فى الطريق يفترش الغبراء ويرفع عقيرته ويقول يا رب. هذا والله أعلم.

***

سورة الدخان

تُعدُّ سورة الدخــان امتدادا لسورة الزخرف، وهذا ظاهر فيــها ظهورا لا يلتــبس وأول شىء يلفت إلى التــقارب الشــديد بين الســورتين هو أن كل سورة منهما مفتــتحة بقوله تعالى. ﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ وليس فى آل حم سورة مفتــحة بهذا غيرهما وبعد التحليل الدقيــق لمعانى ومبانى السورتين اتضح أن هذا الاتفــاق فى المــطلع إشــارة حــاســمــة إلى تقــارب شــديد بين محتويات السورتين، ونجد هذا التقــارب فى المطلع بين الجاثية والأحقاف فقد ابتــدأت كل منهــمــا بقــوله تعــالى ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَــابِ مِنَ اللَّهِ الْعَــزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، وسوف يتضح لنا بعد تحليل السورتين ما وراء ذلك. ويشبه الجاثية والأحقاف مطلع سورة غافر مع تغيير كلمة واحدة لأن مطلع غافر ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ فقد وضــعت العليم مكان الحكيم ووراء ذلك من السر ما يجب البحث عنه وتبقى فصلت والشورى مختلفتين عن بقية آل حم ومختلفة كل عن الأخرى لأن فصلــت بدأت بما يقترب قليلاً من غافر والجاثيــة والأحقاف وهو قــوله تعالى. ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فكلمة تنزيل مشــتركة وإن كانت فصلت نُوِّنَت فانقطعــت عن الإضافة وجاء الرحمن الرحيم بدل العزيز الحكيــم أو العزيز العليم وأقول أيضًا إن كل ذلك وراءه من الأسرار ما لا يزال مــحجوبًا وإنما ننبِّه ونبلغ طاقــتنا راجين أن نعذر بذلك لأنه ليس وراء بذل الطاقة شىء يحاسب المرء علــيه إلا أن يكون صادقًا مخلصًا وهذا فى يد الله وفى علمه.

شىء آخر يتقارب جدا فى رأس الســورتين الزخرف والدخان وهو أنه بعد الاتفاق فى الكلمــتين اللتــين يقوم عليهــما المدخل وهو ﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾: يأتى التقارب الشديد وهو أن الزخرف بدأت ببيان أن الكتاب العزيز

أصله فى اللوح المحفوظ ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٣] وأم الكتاب هو اللوح المحفوظ أو علم الله كما بينا وأن أصل القرآن هو هذا اللوح المكنون الذى ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] وأن الكتاب الذى هذا أصله لعلى حكيم. والكلام فى الدخان انتقل من الحديث عن مصدره الذى نزل منه إلى الليلة المباركة التى نزل فيها وهذا الانتقال استيفاء القول فى شيء واحد وقد امتد الكلام فى الزخرف من بيان علوه وحكمته وعلو وحكمة مقامه الذى نزل منه إلى ما انتقل إليه فى السورة وقد لوحظ أنه انتقل إلى أصل عام رجعت إليه فروع كثيرة فى السورة وهو قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥] وامتد القول فى الدخان وانتقل من الليلة المباركة إلى جذر السورة وهو قوله تعالى. ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩].

وقد لاحظت أن الزخرف ذكرت فى صدرها ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٢] وأن مطلع الدخان تجاوز هذه الآية الكريمة ولم يذكر عروبة القرآن. ثم لاحظت أن الدخان خُتِمَتْ بهذا المعنى وكأنها لما أغفلته فى مطلعها جاءت به فى مقطعها لأن آخر آية فى الدخان هى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ [الدخان: ٥٨، ٥٩] ويسرناه بلسانك قريبة جداً من جعلناه قرآنا عربيا، وقوله فى الدخان ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ هو قوله فى الزخرف ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وبذلك يتحصل أن عروبة اللسان فى الذكر الحكيم ذكر فى مطلع سورة ومقطع التى تليها وكأننا لو رجعنا بقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ورددنا بذلك العجز على الصدر نكون قد جعلنا السورتين سورة واحدة، وأن الدخان امتداد للزخرف.

وقد بنيت الزخرف على تعداد أصناف الكفر التى كانوا عليها ابتداء من قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ وقد أبطلت السورة كل هذه المعتقدات الفاسدة وأقامت الحجة على فسادها ثم ذكرت أحوال المؤمنين والمجرمين فى الآخرة ليرتدع من له عقل ثم جاءت فى آخر السورة آية دالة على أن القوم مصرُّون وأُمر عليه السلام بأن يذرهم يخوضوا ويلعبوا وذلك فى قوله فى مقطع السورة: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ وهذه الحال التى كانوا عليها فى آخر الزخرف هى الحالة نفسها التى بدأت بها الدخان وذلك فى قوله تعالى: ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ وهذا باختصار شديد يعنى أن خلاصة ما انتهى إليه حال القوم فى الزخرف كان رأس الكلام عن هؤلاء القوم فى الدخان وهذا مما جعلنا نقول إن الدخان امتداد للزخرف وفرق كبير جداً بين ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ حين جاءت فى مقطع الزخرف و﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ حين جاءت فى مطلع الدخان لأن الذى جاء بعدها فى الزخرف هو بيان شأن الألوهية وأنه سبحانه فى السماء إله وفى الأرض إله وأنه عنده علم الساعة إلى آخره والذى جاء بعدها فى الدخان تهديد لهؤلاء الذين لا يزالون فى شك يلعبون وهو قوله سبحانه: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ و﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ ﴾ وانجر الكلام من داخل ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ ﴾ وتحدر من داخل هذا المعنى واجتذب إليه حال قوم فرعون ثم أفضى كل هذا إلى خطاب الذين هم فى شك مرة ثانية وهنا أضافت الدخان بابا من أبواب كفرهم أومأت إليه الزخرف إيماء وهو قوله جل شأنه ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ وانجر الكلام منها إلى كل ما كان فى السورة بعدها من ثواب وعقاب وهكذا وجدنا الدخان تحضر الذين نزل فيهم القرآن مرتين مرة فى أول حديثها وهو

قوله تعالى ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ ومرة فى أول آخر السـورة وهو قوله ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ﴾ وهذا يعنى أن ما بنيت عليه الزخـرف مفصلا هو ذاته ما بنـيت عليه الدخـان مجمـلا، هذا والله أعلم، ثم إنك أيهـا القارئ تختم الزخرف بقوله تعالى ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وما إن تقرأ فى الدخان آيات الليله المباركة وتتجاوزها حـتى يلقاك قوله سبحانه ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ثم قوله جل شأنه ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ يعنى تلقى الوعيد المجمل الذى انتهت به الزخـرف مفصلا فى الوعيد الذى ابتدأت به الدخان.

وهذا الذى قلته فى بيـان أن الدخان امتداد للزخـرف هو ذاته بيان للأصل الذى تدور عليه الدخــان أعنى بيانا لمقصود السـورة وجذرها الذى تولدت منه كل معانيها حتى لا ترى كلمـة واحدة قبل هذا الجذر أو بعده إلا وهى مرتبطة به وأزيد ذلك بيانا وأقول إن قوله تعالى ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ هو القطب الذى دارت حوله كل كلمات وجمل السـورة وأن كل ما قبله من ذكر الكتاب وعلو شأنه وعـلو شأن الليلة المباركـة التى أُنزِلَ فيـها وعلو شأن منـزله تعالى وتقدس كل ذلك مهيئ لبـيان أن الذين لم يؤمنوا بالذى هذا شأنه قوم لاهون لاعبون أسـقطوا أنفسهم فى الشك لأنهم لم ينظروا فى الأمـر نظر أهل الجد والعقل وإنما غلبـهم اللهو واللعب ثم ترتب على ذلك وعيـدهم وانجر الكلام وكله موصول بـهذا إلى قوله ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ وهذا كلام لا يقوله إلا اللاهى اللاعب لأن نفى البـعث لا مـعنى له إلا معنى واحـد وهو أن يكون خلق الإنسـان والسمـاء والأرض وخلق الحيـوان والطير وتسخـير السحاب وإخـراج أقوات الأرض من الأرض وإحياء الأرض بالماء وكل مـا دبره الله لحياة الإنسان من السـماء والنجوم التى تهتدون بها إلى السبل التى فى الأرض إلى البحـر الذى تستخرجون منه حلية

تلبسونها كل ذلك كان عبثًا وهمــلا وأن إلغاء الحساب والثواب والعقاب يعنى أن الله خلق هذا الوجود غــابة يأكل قويها ضــعيفهــا وهذا كله لا يجوز على الحى القــادر الذى خلق والذى لو سألتم هــؤلاء عن الذى خلقهم لقــالوا الله ولو ســألتهم عن الذى خلق الســموات والأرض لقــالوا الله ولو سألتــهم عن الذى سخر الشــمس والقمر لقالوا الله ولو سألتــهم عن الذى نزل من السماء ماء فــأحيــا به الأرض قالوا الله ثم تجــيز ــقولهم أن يكون هذا الحــى القادر الصانع الخالق الرازق الرحــيم الرحمن يترك عباده هملا يتــآكلون تآكل السباع ولا ينتصف لمظلوم من ظالم وهو الذى خلق المظلوم وخلق الظالم.

والخلاصة أن المحــور الثــانى من مــحــورى الســورة راجــع إلى الأول لأنــه لا يقول به إلا الذى يلعب فى لهو وشك، والشك هنا ليس شك باحث عن الحق وإنما هو شك اللاهى الذى أهمل عقله ولم ينظر فى الذى حوله كما يجب فعاش عيشه من لا يدرى. والذى يلهو ويلعب والذى يعشو عن ذكر الرحمن توأم.

وكل الذى بعــد قولــه جل وتقدس إن هؤلاء ليــقــولون راد إلى هذه الآية وليس فيه كلمة واحدة إلا وهى منها بســبيل متين، وأذكر بأن القرآن غنى عن التكلف ولم نكتب إلا ما نراه كــفلق الصبح واعتقــادنا أن التكلف فى القرآن من باب إســاءة الأدب مع القرآن العظيم وأعــوذ بالله من هذا. ولا أشك فى أن غزارة المعانى فى السورة تغــرى بالاختلاف والتنوع فى بيان المعنى الأم فى السورة وبعض علمائنا يلخص الأغراض التى دارت حولها السورة ويذكر أنها مقصود الــسورة وقلما وجدت اتفاقا فى تحــديد المعنى الأم للسورة إلا إذا أخذ بعض علمائنا عن بعض وذكــر الأغراض ليس هو المقصود بيــانه وإنما المقصود بيانه ما تدور حــوله هذه الأغراض. وقد تسامح الشــيخ الطاهر فى بيان أصل المعنى فى الدخــان فــقد نظر إلى أن أول الــسورة يَذْكُــر نزول القــرآن فى ليلة مباركة وآخر السورة يَذْكُر أن الله سبــحانه يسره بلسانك فقال «إن جل السورة يدور حــول بيان أن القــرآن منزل من عند الله» انتــهى كــلامه، ولو خــالفت

الشيخ الطاهر فى نصف ماكتبه فى تفسيره الجليل التحرير والتنوير لبقى الطاهر أفضل من كتب تفسيرا للكتاب العزيز فى القرن الذى عاش فيه.

والبقاعى ينظر إلى تسمية السورة وينفذ من خلال الاسم إلى المعنى الجامع للسورة ويقول: «مقصودها الإنذار من الهلكة لمن لم يقبل ما فى الذكر الكريم الحكيم من الخير والبركة، رحمة جعلها بين عامة خلقه مشتركة وعلى ذلك دل اسمها الدخان إذا تؤملت آياته وإفصاح ما فيها وإشاراته» انتهى كلامه وأهم ما فى البقاعى هو كلفه الشديد بالإشارات والرموز والإيماءات واجتهاده فى الإفصاح عنها واجتهاده فى بسط دلالاتها وهذا جيد، ولا أرى خلافا بين ما قلته وما قاله فى بيان مقصود السورة هنا لأنه نظر إلى الإنذار ونظرت فى استخراجى إلى الذى أفضى إلى هذا الإنذار وهو ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾. وطريقتى فى استخراج المقصود من السورة هى القراءة المستوعبة والمدققة للسورة فى كل كتب التفسير التى بين يدى ثم تكرار هذه القراءة وتكرار التفكير والتدبر والمراجعة، ثم قراءة السورة فى المصحف مرات وترديد النظر مع استحضار كلام المفسرين ومصاحبته فى القراءة والمراجعة ولا أزال أتردد بين قراءة كتب التفسير وقراءة المصحف وهمى كله فى فقه معانى الجمل والآيات، والاقتراب من حقائقها المعنوية والتدسس إلى ما وراء ظواهر المعانى ثم وهو أهم البحث عن وجوه ترتيب المعانى وبناء ثانيها على أولها وكيف هيأ الأول للثانى وكيف أمسك الثانى بالأول حتى يظهر لى أن هذه ما كان لها أن تكون إلا هنا وهذا هو سر الموقع الذى ترى هذه الدراسة كلفة به أشد ما يكون الكلف ثم إن السورة تتكون من جملة معانى جزئية كل معنى تتناوله جملة من الآيات تقل أو تكثر والمطلوب هو البحث عن وجه ترتب هذه الأغراض الجزئية ومجيء بعضها فى أثر بعض. وأن هذا الموضوع الجديد ما كان يمكن أن يكون إلا فى هذا الموضع من الترتيب والنسق ثم تأتى صور من قصص الأنبياء عليهم السلام ولا مفر من البحث عن وجه ذكر هذا القسم من القصة، ولماذا جاء هذا الجزء فى هذه السورة؟ ولماذا جاء فى هذا الموقع

الذي جاء فيه؟ ولماذا بنيت جمله على هذا الوجه من البناء وكل ذلك لا يتضح إلا بعد طول مراجعة وبعد طول الاشتغال به وأنا أقرأ وطول الاشتغال به وأنا بعيد عن الكتب. وطول الاشتغال به وأنا ذاهب إلى العمل، أو عائد منه، وربما وأنا جالس بين الإخوان ولا أزال كذلك حتى يتضح لى عمود السورة، ووجه بناء معانيها بعضها على بعض ووجه ذكر أغراضها المكونة لها، ووجه ترتيب هذه الأغراض. وبعد ذلك يسهل الوقوع على مقصود السورة لأنه هو الذى تأسس عليه عمودها أعني صورتها وهيأتها؛ وهناك طريق كان يكون أيسر من هذا وهو مراجعة ما قاله العلماء في مقصود السورة ومناقشته والاختيار منه أو الإضافة إليه ولكننى تركت هذا الطريق لحرصى على أن أخوض التجربة التى خاضوها وأن أجد المتعة التى وجدوها، وبعد هذا كله أراجع كلامهم فأرانى قريبا من هذا وبعيدا عن ذلك وكل هذا لا يشغلنى لأنى أريد أن أكتب الذى انتهت إليه تجربتى لأنى أكره أيضًا أن أعيش على تجارب الآخرين وأن أمضغ ما استخرجوه أو أن أتحذلق حوله بالمناقشة والقبول والرفض. والمهم أننى وأنا فى هذا المعمعان الذى لم استوف جوانبه فى وصفى هذا لا يوجد فى نفسى إلا هاجس واحد هو الكشف عن سر من أسرار البيان من أجل الأجيال القادمة التى أوصانا مالك ابن نبى رحمه الله بأن نبذر لها الحب فى الوادى البعيد وهؤلاء القادمون هم أحفادى وأحفادك وغير كريم أن ندخل باطن الأرض من قبل أن نغرس لهم فسيلة على ظهرها. اللهم ارحم مالكًا ومن سعى سعيه. ووجوه دلالة المطالع على المقاصد ليست على درجة واحدة من الظهور فى السور كلها وليس لها طريق واحد وهى كذلك فى الشعر، كما أن موضع الدلالة على المقصود ليس له مكان واحد فى المطالع، فقد تراه فى السطر الأول كما فى الشورى ﴿**كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الشورى:٣] وقد تراه فى الآية الرابعة كما فى غافر ﴿**ما يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ [غافر: ٤] وهو ظاهر فى هاتين السورتين، وقد تراه مجملا فى الآية الخامسة كما فى الزخرف ﴿**أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ**﴾ [الزخرف: ٥].

وفى الدخان له حالة مختلفة عن السور الأربع السابقة لأن المطلع فيها ممتد إلى آخر الآية الثامنة ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ وبعدها الدخول فى المقصود ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ ثم إن دلالة هذه الآيات الثمانية التى هى المطلع ليست دلالة مباشرة وإنما دلت على المقصود من وجه آخر هو التأكيد الواضح فى الآيات الثمانية على علو شأن الكتاب، وإرخاء عنان القول فى هذا مع شدة الأسر، وعلو طبقة البلاغة القاطعة للأطماع والقاهرة للقوى والقدر، والتى لا تخفى على من أنزله الله فيهم، وكل هذا هيأ للإضراب الذى فيه قدر من الغضب فى الآية التى هى القاعدة التى انجر منها الكلام فى السورة كلها وهى قوله سبحانه ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ ولهذا تأسس عليها ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ثم جاء التهديد الذى تنخلع منه القلوب فى قوله جل شأنه ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ وناهيك عن رب السموات والأرض وما بينهما حين يبطش بنفسه البطشة التى يصفها بأنها الكبرى أو حين يقول ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ وهذا هو الغضب الذى تتميز به الدخان عن الزخرف.

ونبدأ تحليل السورة وعلى الله التكلان.

وكان بعض علمائنا يشرحون البسملة فى أول كل سورة شرحا تلتئم به مع مضمون السورة فنرى البقاعى يشرح بسملة الدخان بقوله وهو يشرح لفظ الجلالة «الملك الجبار الواحد القهار» ناظرا إلى ما فى السورة من غضب ووعيد ويشرح لفظ الرحمن بقوله «الذى عم بنعمة النذارة» يريد بذلك ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ لأن الإنذار العام لجميع خلقه فيه نعمة عامة بهم لأن الإنذار تخويف من المخالفة وتهديد للمعاندين للحق فإذا سلك الإنذار سبيله إلى قلوبهم ورجع منهم من رجع يكون قد نجا وفاز وهذا هو وجه النعمة فى الإنذار، ويفسر الرحيم بقوله «الذى خص أهل وداده برحمة البشارة» يريد بذلك قوله تعالى ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

وهذا التصـرف الذى يمر بنا من غـير أن نقف عنده له دلالة جـيدة وهى أن السياق عند علمائنا يـكسب الكلمات معانى جديدة تضاف إلى معـانيها الأصلية واستخراج هذه المعانى السياقية من الكلمات والتراكيب لا يتأتى إلا بدرجة عالية من الوعى وبدرجة عـالية من الحس البيانى الذى يُدْرَكُ به خـفىُّ الدلالة وخفى الوحى؛ ولو كان للسياق لسان لقال أنا صانع البـيان. ومهمة الشاعر والناثر هى إثارة وبعث واستنفـار هذا السياق ثم بعث حسن سيـاسته للبيان والـسيطرة عليه ولله المثل الأعلى وليس كمثله شىء وليس كمثل كلامه شىء ولا تنكر على هذا لأنه ليس كلامى وهو ما فـهمته من مثل قول شـيوخنا الكرام: «ولن تجد أيمن طائرا وأحـسن أولا وآخرا وأهدى إلى الإحـســان وأجلب للاستـحســان من أن ترسل المعانى على سجيـتها وتدعها تطلب لأنفسهـا الألفاظ فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها انتهى الكلام وهو صريح فى أن اختيار الألفاظ وإلباسها المعانى ليس عمل المـتكلم وإنما هو عمل المعانى وأن المتكلم عليه فقط أن يرسل المعانى وأن يستنفر طائرها وهذا ما أردته بإثارة السياق وحسن سياسته.

قوله جل شأنه ﴿حمٓ ⦗١⦘ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ⦗٢⦘ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ⦗٣⦘ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ⦗٤⦘ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ⦗٥⦘ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⦗٦⦘ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ⦗٧⦘ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾.

قالوا يجوز أن تكون ﴿حم﴾ خبرا لمبتـدأ محذوف أى هذه حم والواو فى قوله ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ واو القسم وجـواب القسم هو ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ وقالوا يمكن أن تكون ﴿حم﴾ قسما ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ معطوفا عليها، ويكون المقسم به هو سورة حـم والكتاب المبين وتكون حم قد ذكرت وحدها وذكر ضمن الكتاب المبـين وهذا تعظيم للسورة، وهو الأشبه والأوقع لأننا حين نعد حم خبرا لمحذوف والتـقدير هذه حم، لا نجد وراء هذا التقدير

ما نجـده لو قلنا إن الحق جل جلاله أقـسم بهذه السـورة وأقسم بالكتـاب المبين على أنه سبـحانه أنزله فى ليلة مباركـة، وهذا معنى آخر وهو الأشبـه بالجلال والكمال، والتعريف فى الكتـاب يعنى الدلالة على الكمال وأن كل ما به يكون الكتاب كتابا كـاملا فى بابه متوفر فيـه فالكمال فى مادته وموضوعـاته ومعانيه وحلاله وحرامه وأمره ونهيه ولغته وبيانه واستيعابه لكل ما يتقلب فيه الناس فى حياتهم فى كل أزمنـتهم وكل أمكنتهم لا يتسرب إليـه خلل ولا يأتيه باطل أى باطل. وهذا هو الإعجـاز وهذا هو الذى عليه آمن الناس ومن رأى فـيه شيـئًا كان صالحا للزمن الأول وليس بصالح فى زماننا فقد أهلك نفسه واستدرك على الله ومن كـان كذلك لا يصح إيمـانه، وعليه أن يرجع ويراجع فـقد يخـدعه الشيطان ويوهمه أن ذلك لا يقدح فى الإيمان ومثل هذا يشيع فى زماننا وتؤيده أنظمة السوء لأنها تربح من وراء ذلك الوقوف فى وجه التيارات المطالبة بالحكم بما أنزل الله والتـنكيل بهـا مع أن الحكم بما أنزل الله مطـلب لكل أهل القـبلة حكامـا ومحكومـين، والمهم أن اللام التى فـى الكتاب لو أخـذنا فى تحليلهـا فسنجد الكثـير جدا، وكلمة ﴿الْمُبِينِ﴾ جاءت فى وصف الكتاب وفى وصف اللسان العربى المبين ولها معـان جليلة من أظهرها أنه أبان عن مقاصده وأوامره ونواهيه وقصـصه وبراهينه والنشر والحشـر إلى آخره بيانا وافيـا لا يلتبس حتى إنك تقرأ مـشاهد أهل الجنة وكـأنك تجد ريحـها، وتقرأ مـشاهد أهل الجـحيم وكأنك تجـد لفحـها وهذا ظاهر، والمعنى الذى هو أخـفى من ذلك هو أنه هو الذى يُبين لأن صيغة ﴿الْمُبِينِ﴾ اسم فاعل فليس لأحد أن يدخل عليـه شيئًا لا يبين هو عـنه وليس لأحد أن ينكر شيـئًا أبان هو عنه، فـالدين كله فى هذا الكتاب وهـذا الكتاب وحده هو الذى يُبـينُ عنه، واجتهـادكم فى استـخلاص واستخـراج هذه الإبانة بضوابطها ومحـترزاتها فالتأويل الذى يـصرف الكلمات عن دلالتها عـمل باطل، أو الذى ينطق الكلمات بغير مـا تبين عنه عمل باطل والمصحـف متعـرض فى هذه الأيام لحملـة من هذا النوع يتولى شـؤمهـا خدم الثقافة والحضـارة المسيحية من سِفْلَتنا والذين يتسربلون بأكـاذيب ليسوا منها فى

شيء مثل التنوير والتحديث والتجديد إلى آخره. لأنهم مقلدون والمقلّد كما يقول الزمخشرى «أذل من العنزة الجرباء تحت الشمأل البليل» أراد المطر الشديد.

وقوله جل شأنه ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ هو جواب القسم والظرف فى قوله ﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ هو المقصود بالقسم لأنه هو الجواب فليس القسم على أن الله أنزله وإنما القسم على أن الله أنزله فى ليلة مباركة، وراجع التوكيد الداخل على ضمير العظمة المتقدم على المسند الفعلى. وأن هذه الجملة المؤكدة بما ترى واقعة جواب قسم يعنى هى فى موضع توكيد أشد لأن الله أقسم عليها، والمقسم به هو الكتاب والمقسم عليه شأن من شئون الكتاب والقسم بالكتاب على شأن من شئونه تعظيم للكتاب ولهذا الشأن. لدلالة ذلك على أنه لا يليق بهذا الشأن أن يقسم عليه إلا بالأصل الذى هو شأن من شئونه، وقد مر مثل ذلك فى أول الزخرف لأن التركيب هو، وقد عقب عليه الزمشخرى فى الزخرف بقوله وهو من الأيمان الحسنة البديعة لتناسب القسم والمقسم عليه وكونهما من واد واحد ونظيره قول أبى تمام.

وثناياك إنها إغريض

وشيء آخر فى هذا القسم يختلف فيه عن غيره وهو أن الله سبحانه يقسم على مثل قوله ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢] أو مثل قوله ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣] أو مثل قوله ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ٦] أو مثل قوله ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ [الذاريات: ٨] وهكذا وهنا أقسم سبحانه بكتابه المبين أنه أنزله فى ليلة مباركة يعنى أقسم على شيء كان منه وأنزله بيده جل وتقدس. فما وجه هذا القسم؟ ما معنى أن يقسم الله سبحانه لنا أنه سبحانه فعل كذا؟ لا أرى لذلك وجها إلا وجها واحدا وهو أنه سبحانه يؤكد لنا أن نزول هذا القرآن العظيم فى الليلة المباركة له عند الله شأن أى شأن ويجب أن يراعى فى معرفة مكانة هذا القرآن الذى لا وصف له

أفضل من أنه كلام الله، ولكن الحق جل شأنه يضيف إلى هذا الشأن الأعظم شئونا أخرى منها أنه أنزله فى ليلة مباركة وأن هذا كوصفه بأنه ﴿ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣] ووصفه بأنه ﴿ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤] ووصفه بأنه ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨] وهكذا تجمع جملة أوصاف القرآن للقرآن وتعد منها ومن أكرمها أن الله أنزله فى ليلة مباركة مع ملاحظة أن الله سبحانه أخبر بأنه أنزله ليلة القدر ولكن الخبر هنا له شأن آخر وهو قسم الله عليه والله يقسم لنا يعنى لى ولك أنه أنزله فى ليلة مباركة فلا يجوز أن تهمل شيئًا أقسم الله لك عليه. ومن الذى يعين على فهم مزيد من هذه الجملة أن أضعها بإزاء أختها فى أول الزخرف لأن السورتين تكرر فيهما كلمات ﴿ حم ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ المقسم به وتكرر فيهما أيضًا جذر جواب القسم ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣] ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ وهذا التقارب بين الآيتين يوجب وضع أولاهما قبل الأخرى لأنها سبقت فى ترتيب المصحف وسبقت فى النزول، وهذا يعنى أن الحق أخبر أولا أنه جعله قرآنا عربيا، وهذا الجعل لا محالة سابق للنزول ثم أخبر خبرا ثانيا وهو أنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم وهذا أيضًا سابق للنزول والترتيب بينهما ترتيب منطقى جدا لأنه أولا أخبر أنه جعله قرآنا عربيا ثم أخبر أنه مكنون فى لوح محفوظ وأنه على حكيم عند الله، ثم يأتى الحديث عن نزوله بعد ذلك ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ وهذا هو ترتيبها وهذه المعانى الثلاثة ﴿ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ ﴿ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا ﴾ ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ أقسم الله سبحانه لنا عليها، ويدهشك أن ترى الخالق يقسم لعبده ويقاربه بذلك ويؤنسه.

وكلمة ﴿ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ تعنى أن الليلة التى أنزله الله فيها كانت ليلة مباركة قبل نزوله وأنها زادت خيرا وبركة بنزوله وهذا ظاهر لأن الحق

أشار إلى شيء من بركتها وأنها ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وحسبها هذا، وقالوا هى ليلة القدر وهو الأرجح والأسير لأن الله سبحانه أخبر بأنه أنزله فى ليلة القدر وأنه أنزله فى رمضان ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقد ذكر علماؤنا أن أوصاف الليلة المباركة فى سورة الدخان هى أوصاف ليلة القدر فقوله سبحانه ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤] هو قوله فى سورة الدخان: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وقوله سبحانه فى سورة القدر ﴿سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [الفجر: ٥] هو قوله جل شأنه فى الدخان ﴿مُّبَارَكَةٍ﴾ وذهب كثير من علمائنا إلى أنها ليلة النصف من شعبان وأنها هى الليلة التى يفرق فيها كل أمر حكيم، وذكروا فى فضائلها روايات كثيرة وذكروا أن نزول القرآن ليلة النصف من شعبان لا يتناقض مع قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] لأن الله سبحانه أنزله جملة واحدة من السماء السابعة إلى السماء الدنيا وأمر السفرة الكرام بانتساخه فى ليلة القدر وكان جبريل عليه السلام ينزله على رسول الله نجوما نجوما هكذا قال الزمخشرى.

ولم توصف ليلة فى القرآن بأنها مباركة إلا هذه الليلة والبركة كثرة الخير وكثرة العطاء وكثرة الرحمة وكثرة الإجابة وكثرة القبول وكثرة المغفرة، وهذا يرجح أنها ليلة القدر ومن بركات هذه الليلة أنها خير من ألف شهر، وأنها تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم وأنها سلام هى حتى مطلع الفجر، وقالوا هى ليلة سبع عشرة من رمضان ذكره ابن إسحاق عن الباقر أخذا من قوله تعالى ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] قال الطاهر فإن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون ببدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة ليلة من رمضان، نقل الطاهر هذا عن ابن إسحاق ثم قال أى تأول قوله ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [الأنفال: ٤١] أنه

ابتداء نزول القرآن وفى المراد بـ ﴿وَمَا أَنزَلْنَا﴾ احتمالات ترفع الاحتجاج بهذا التأويل، والذى يجب الجزم به أن ليلة نزول القرآن كانت فى شهر رمضان، وأنه كان فى ليلة القدر، وهذا كلام الطاهر وهو جيد لأن هذا ما أخبر به القرآن ثم قال الطاهر «ولما تضافرت الأخبار أن النبى ﷺ قال فى ليلة القدر: اطلبوها فى العشر الأواخر من رمضان فى ثالثة تبقى فى خامسة تبقى فى سابعة تبقى فى تاسعة تبقى» فالذى نعتمده أن القرآن ابتدئ نزوله فى العشر الأواخر من رمضان إلا إذا حمل قول النبى ﷺ «**اطلبوها فى العشر الأواخر**» على خصوص الليلة من ذلك العام، وقد اشتهر عند كثير من المسلمين أن ليلة القدر ليلة سبع وعشرين باستمرار وهو مناف لحديث اطلبوها فى العشر الأواخر على كل احتمال، انتهى كلام الطاهر

قلت إنه لم توصف ليلة فى الكتاب العزيز بأنها مباركة إلا فى هذه الآية وقد وصف القرآن بأنه مبارك فى أربع آيات واحدة فى الأنعام هى قوله تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢] وثانية فى الأنعام أيضًا هى قوله جل شأنه ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٥] وثالثة فى الأنبياء ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] ورابعة فى ص ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص: ٢٩] وبركة القرآن تتوافى عليك بمقدار صدقك فى طلبها وكذلك الحال فى بركة ليلة القدر.

وليلة القدر الأم أعنى التى ابتدأ فيها نزول القرآن هى كما قال ربنا خير من ألف شهر ولكن لم يطلبها منا أحد حتى الذى أنزل عليه القرآن لأنه عليه السلام رجع من غار حراء يرجف فؤاده فلم يكن هناك تكليف ولا دعوة ولا بلاغ ولا نبوة وإنما لاحت فيها هوادى الخير والبركة، ثم كان من فضل الله ومنّه أن أتاحها لكل من شهد الشهادتين فى نظيرتها من كل عام إلى أن تقوم الساعة وهذا فضل ليس فوقه فضل كما أنه أتاح بركة القرآن لكل من

يشغل قلبه ولسانه بآية منه وهو حاضر القلب وما دام الحق قد أتاح لنا ليلة القدر فى كل ليلة تصادفها فلا يتخاذل في طلبها إلا من غبن نفسه فمن طلبها في رمضان كله من أوله إلى آخره فقد احتاط وتهيأ لها وآتى ما آتى وقلبه وجل ولن يضيع أجره لأن الله وعدنا بذلك، ومن فعل ذلك فقد أخذ بما في الكتاب ومن طلبها فى العشر الأواخر فقد أخذ بالسنة ومن طلبها في الوتر فى العشر الأواخر فقد أخذ أيضًا بالسنة ﴿وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [النساء:٩٥] ولا يهلك على الله إلا هالك.

قوله جل شأنه ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ جملة مستأنفة ومؤكدة بإن وبإسمية الجملة وكلمة ﴿كُنَّا﴾ تعني أن الإنذار شأننا والجملة مستقلة ومتفردة بمعناها ليست فى حاجة إلى ما قبلها ولا إلى ما بعدها ثم هى في نسقها وموقعها نراها خارجة من تحت كلمة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ لأنها تعليل وشرح لها وأن إنزال القرآن الكريم من أجل إنذار خلقنا هو شأننا لأن الذى خلق الخلق هو أعلم بأحوالهم وما يصلحهم وما لا تقوم لهم حياة طيبة إلا به، وليس من شأن من خلق أن يترك خلقه هَمَلاً من غير أن يضع لهم حدودا ويأمرهم بألا يتعدوها ومن يتعدى حدود الله فقد ظلم نفسه والإنذار هو النعمة التى تسبق نعمة البشارة لأن البشارة لهؤلاء الذين عرفوا حدود الله فهابوها، وعرفوا أوامر الله ففعلوها، وهذه الجملة ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ فيها خصوبة شديدة ووفرة فى المعانى وغزارة، وهى باختصار شديد الدواء الضرورى الذى لا تقوم حياة جماعة إلا به، وغير أهل الدين يضعون لحياتهم نظاما فيه خطوط حمراء لا يجوز لأحد أن يتخطاها وإلا صارت الحياة غابة، والفرق هو أن الإنذار الذى يأتينا من خالقنا نذعن له رجاء ثوابه ورحمته ويذعن غيرنا لنظامهم خوفا ورهبة، والإذعان من أجل مرضاة الخالق هو الأكرم والأشبه بالإنسان الحر الكريم ثم إن صيغة ﴿مُنذِرِينَ﴾ قريبة جدا من نظيرتها لو استخرجناها

من أنزلنا يعنى منزلين والذال قريبة من الزاى واللام أخت الراء، وهذا هو سر السهولة والعذوبة والتطاعم الذى تراه بين أنزلناه ومنذرين ولو قال إنا كنا منزلين لكان كلاما مكررا ولخلا خلوا كاملا من تلك الغزارة التى فى منذرين؛ لأن كلمة منذرين دلت على الجانب المخوف من المنزل وهو جانب كف الأهواء والشهوات والغرائز وهو جانب صناعة الفساد فى حياة الناس وهذا مرادى بالغزارة. وقوله جل شأنه ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ من تمام معنى ﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ كما كان ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ من تمام معنى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ وهذا بناء دقيق جدا لأن جملة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ خرجت من أولها جملة ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ ذكرت أولا وخرجت من آخرها جملة ﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾ ذكرت ثانيا، وجملة ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ليست مستقلة استقلال ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ لأن الضمير الذى دخل عليه حرف الظرف يشدها إلى ما قبلها فلا تسير وحدها إلا للذى يعرف مرجع الضمير، وهى جملة بالغة السخاء وبالغة الإيجاز، وتأمل لتدرك، ومعنى يفرق: يفصل ويقضى ونائب الفاعل ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وهذا لم يترك أمرا إلا دخل فيه وهذا الأمر وصف بأنه حكيم ثم قال ربنا ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ فأعاد لفظ الأمر بالتنكير الدال على أنه أمر ليس فوقه أمر، وقال ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ والعندية عندية تشريف وتعظيم لأنه سبحانه منزه عن العندية المكانية وناهيك عن أمر قال فيه ربنا إنه حكيم، وأنه من عنده وعليك أن تتأمل، ثم إن المعنى لا يقف عند هذا وإنما علينا أن نراجع أمره فى خلقه كله من يوم أن قال للسموات والأرض ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] إلى يوم أن ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] ثم بعد ذلك ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] ثم يوم أن ﴿وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ

منهم أحدا﴾ [الكهف: ٤٧] ثم يوم أن ﴿وسيق الَّذين كفروا إلىٰ جهنَّم زُمرًا﴾ [الزمر: ٧١] هكذا ترى أمره في خلقه وكونه لا يحاط به في الدنيا ولا في الآخرة وهذا شيء من سر العناية بكلمة ﴿أمرًا﴾ وهذه الغزارة التى أعنيها لأن اختصار أو انتشار دلالات الكلمات الإلهية وتفسيرها على الوجه الذى نفسر به كلام الناس يخفى عنا فقه الأمر الإلهى فيها، ونحن بتساهل شديد نفسر قوله ﴿فيها يُفْرَقُ كُلُّ أمْرٍ﴾ بآجال العباد وأرزاقهم وتصريف الرياح وتسخير السحاب وهذا كله تفسير شديد الاختصار، ومن أجل هذه الغزارة الراجعة إلى الأمر الإلهى بنى الفعل ﴿يُفْرَقُ﴾ للمجهول لأنه ليس له إلا فاعل واحد، وبناؤه للمجهول مثل بناء كلمة ﴿قيل﴾ فى قوله تعالى ﴿وقيل يا أرضُ ابْلعي ماءك ويا سماءُ أقْلعي﴾ [هود: ٤٤] لأنه لا يقول للأرض ابلعى فتبلع إلا الذى قال لها كونى فكانت وهذا من أسرار الإعجاز في الكتاب العزيز لأنه كلام لا يقوله إلا الله، وقد سمعت من بعض أشياخنا الذين أخذنا عنهم أن القرآن معجز لأنه كلام الله فقلت لشيخى إننا نستدل على أنه كلام الله بإعجازه وكأننى أراجعه فنظر إلىَّ ولم يتكلم وبعد ما طال النظر فى كلام الله أدركت مراد الشيخ رحمه الله، وأن الأمر الإلهى مزروع فى كل جملة وهذا هو إعجازه.

قوله جل شأنه ﴿إنَّا كُنَّا مُرْسلين ۝ رحْمةً مّن رَّبّك﴾ هذه الآية أخت آية ﴿إنَّا كُنَّا مُنذرين﴾ فى مبناها ومعناها وهى امتداد لقوله سبحانه ﴿إنَّا أنزلْناهُ﴾ وقلت إن قوله ﴿إنَّا كُنَّا مُنذرين﴾ علة للإنزال، والإرسال هو طريق الإنذار والمنذرون هم الرسل عليهم السلام قال سبحانه ﴿ولقدْ أرْسلْنا فيهم مُّنذرين﴾ [الصافات: ٧٢] وقال سبحانه ﴿إن يُوحىٰ إليَّ إلاَّ أنَّما أنا نذيرٌ مُّبينٌ﴾ [ص: ٧٠] والمنذر الحقيقى هو الله سبحانه كما فى الآية التى معنا ﴿إنَّا كُنَّا مُنذرين﴾ والرسل منذرون بإنذار ربهم، والله سبحانه وتعالى ينذر بعقابه ويبشر بثوابه وآيات كثيرة اكتفت بذكر الإنذار ولم تذكر البشرى لأن البشرى فى طى

الإنذار فمن ارتدع بالإنذار ورجع عن محـارم الله دخل فى أهل البشرى ومن إعذار الله لخلقه أن تتوارد هذه الجمل الـثلاثة فى مقام واحد، إنا أنزلناه.. إنا كنا منذرين.. إنا كنا مـرسلين.. يعنى الشأن فـينا أننا نرسل رسلنا بما أنزلناه عليـهم من الرحمة والـهداية إلى خلقنا، لأن خـالق الخلق هو أعلم بهم وبما يصلحون عليه وأن رسله هم الذين يحملون إلى خلقه مناهج الهداية، وراجع ترتيب مـعـانى هذه الجـمـل الثـلاث إنا أنزلناه.. إنا كنا منـذرين.. إنا كنا مرسلـين، والإنذار الذى وقع وسطا بين هذه الثلاثة هو الذى لـه كان الإنزال وله أيضًا كان الإرسـال فهى آخذة بما قبلهـا وبما بعدها ثم هى متواترة لتـأكيد معنى واحد نحـتاج إلى معرفة سـره فى هذا المطلع لأنه لم يرد على هذا الحد فى غير الدخان، ويلاحظ أن الجملة الأم التى تولدت منهـا وعلى رقعتها هذه الجمل هى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ وقد جرى نظمها على وجه يحتاج إلى مراجعة لأنها فرقت بين هاتين الجملتين.. إنا كنا منذرين.. إنا كنا مرسلين بمتعلقاتها وهى الليلة المباركة وجاءت جملة ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ بعد كلمة ﴿لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ ثم يعد الكلام فى معنى البـركة فى هذه الليلة وأنها ليلة يقضى الله فيـها كل أمر حكيم فى نفـسه أو حـكيم فى قضـائه ثم بعـد ذلك جاءت جـملة ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ولا يجـوز أن نغفـل هذا الترتيب وهذه الـفواصل. ولماذا أخـرت جملة ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ عن ذكـر الفصل والقـضـاء، ولماذا كان الفـصل والقضاء فى الليلة المباركة مصـاحبا لذكر الإنزال؟ لا شك أن هذا الاقتران بين الإنزال وتوابعه من الإنذار والإرسال من جهـة وبين الفصل فى كل أمر حكيم له دلالة ولم أجد أحـدا تكلم فيها والذى يظهـر أنه إشارة إلى أن الذى أنزله ربنا فى هذه الليلة هو أولا من الأمور الحكيـمة التى يفرق فيـها، ثم هو ثانيا إنما أنزل ليكون حاكما وفاصلا فى أمور خلقه الذين أنزله عليهم، وأن الأمور الحكيمة التى يفصل فيها هذا الذى أنزله ربنا وأنذر به وأرسل به رسوله هو ما يخص دنيانا وآخرتنا، وأن الله سبـحانه يفصل فى كل أمر حكيم فى هذه

الليلة المباركة قبل نزوله وبعد نزوله، ومنها ما لا شأن لنا به وما لا يدخل فى تكليفنا كأمـره من يشاء من ملائكته بما يشاء من شئـون ملكه وكونه وخلقه، وكلمة ﴿يُفْرَقُ كُلُّ أمرٍ حَكِيمٍ﴾ موصولة بتسمية ما أنزله الله فرقانا لأنه يحكم ويَفْرُق ويفصل ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] وأن ما فى القرآن من فـصل وقضاء هو من فصل الله وقـضائه، وأن من رد فصل الله وقضاءه فقد حاد الله، فإذا قال ربنا ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] ثم تدخل المتحذلقـون والمتنورون وطالبوا بإلغاء عقـوبة الإعدام تماشيا مع ثقـافتهم التى ليـست من ثقـافـتنا فـهـذا هو باب المحـادَّة لديـن الله والإيذان بحـرب الله ورسـوله، وهكذا قـل فى كل شـأن من شـئـون القـرآن، فى العـبـادات، والمعامـلات، والجنايات، وهذه عناوين أبواب الفقه وعـلاقات المسلمين بغـير المسلمين وعلاقـات المسلمين بعضهم ببعض وكل هذا من صمـيم الشأن العام الذى نسميـه العمل السياسى ومحاربة وجـود القرآن فى هذه المجالات إبطال للآيات الواردة فيها مـا لم يتأولها فقهاء لهم قدم راسخـة فى الفقه وكانوا من الذين يبلغون رسالات الـله ويخشونه ولا يخشون أحـدا إلا الله، وما لم تجد له هذه الطبقة وجـها فى شرع الله وأصر النظام السيـاسى على إبعاد الإسلام عنه فهو نظام إما أنه يجهل دين الله أو مجـترئ على الله كأهل المعصية أو محاد لدين الله وحكمـه حكم تارك الصلاة إن تركها وهو مقر بفرضـيتها فهو فاسق، وإن تركها جاحدا لها فهو كافر. ونسأل الله سبحانه أن يمن على الجمـيع بالهداية والمغفـرة، والإنابة والرجوع إليه، والسـلطة والجاه ليس لهم شفاعة بين يدى الله والعاقل من اعتبر

وأؤكد أنى أفهم أن تخلل آيات الفصل والقضاء الذى يكون من الله فى شأن خلقه فى السمـوات والأرض ومصاحبة ذلك الفرقـان الذى أنزله إنما هو توكيد

للحكم بما أنزل الله وتوكيد حقيقة أن الحكم لا يكون إلا لله ﴿إن الْحُكْمُ إلاَّ للَّه يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧] وكل هذا لابد أن يؤسس على فقه أكثر وعيًا بشرع الله ولا يجوز أن يكون كلاما للمزايدة فى سوق السياسة.

وقوله سبحانه ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ كلمة ﴿رَحْمَةً﴾ مفعول به أو مفعول لأجله، وهى فى الحالين تعنى أن الله سبحانه أرسل الرحمة أو أرسل من أجل الرحمة، فالرسل عليهم السلام رحمة والكتب المنزلة رحمة، وقضاء الله فى خلقه رحمة، وليست الرحمة فى الآخرة فقط لمن آمن واستقام وإنما الرسل والكتب رحمة فى الدنيا لأنها تقضى فى الناس بالعدل وتقضى فى الناس بالرحمة، وكل أمر أمرنا به ربنا فهو رحمة، إقامة الصلاة رحمة، وإيتاء الزكاة رحمة، والجهاد فى سبيل الله رحمة، ونصرة المسلمين رحمة، والنهى عن الظلم رحمة، والنهى عن البطش والقمع رحمة، والنهى عن اتخاذ أعداء الله أولياء رحمة، والنهى عن محاربة المجاهدين رحمة، والنهى عن خذلان المسلمين رحمة، وهكذا وكل ذلك مضبوط بضوابطه الفقهية وكلما اجتهدنا فى فقه كلام الله وكلام رسوله وجدنا الرحمة تتجلى بصورة أظهر ولا يجوز لمخلوق كائنًا من كان أن يخرج دين الله من باب أدخل الله دينه فيه سياسة كان أو اقتصادا أو ما شئت من حياة الناس والمهم الفهم كما قال عمر رضى الله عنه والبعد بالدين عن باب المزايدات سياسية كانت أو اقتصادية والبحث المنقطع والمستوعب والواعى واليقظ فى فقه أبواب الدين كلها ومن زاد ودفع وردَّ دين الله عن شىء أدخل الله دينه فيه. فليس منا لأن الواجب على كل المسلمين الانقياد والإذعان.

كتبت كل هذا لأنى بقيت وقتًا طويلاً أتأمل لماذا ذكر الإنزال والإنذار والإرسال فى سياق ليلة مباركة فيها يفرق كل أمر حكيم أمرًا من عندنا؟ فلم يقم فى نفسى إلا ما كتبت، ومادام نزل فى ليلة الحكم والفصل فلابد أن يكون حكمًا وفصلاً.

وقوله تعالى. ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ فيــه انتقال من طريق التــكلم فى قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إلى الغــيبة فى قــوله ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ ووضع الظاهر موضع المضمر لـبيان الصلة بين الربوبية والرحــمة، وأن الشأن فيــمن خلق خلقه وبرأ نسمــه ورزق من الطيبــات وجعل لكم الســمع والبصر والأفــئدة وســخر لكم الشمس والقمر والنجــوم أن يكون رحيمًا بكم وكأن الله سبــحانه بهذا العدول يقترب من خلقــه ويذكِّر بنعمه الملخــصة في كلمة ﴿رَّبِّكَ﴾ ويدعوهم إلى أن يردوا أمرهم إليه لأن الذى عنده هو الحق والعــدل. وعند هذين الرحمة. التى لا مكان لهــا مع الباطل والظلم والجــور والقمع والعــسف وترويع الناس كــما تفعل أنظمــة السوء والبغــاة الطغاة ممن تسلطوا على شــعوبهم. هذا فى وضع لفظ الرب مكان ضمــير العظمة أما إضــافته إلى ضميــر المخاطب صلوات الله وسلامه عليه مع أن الإنزال والإنذار والإرسال كل ذلك رحمة من رب العالمين إلى العالمين فذلك لإيناسه ﷺ وتهيئة نفسه وشــمولها بالرحمة حتى لا يفزِّعها قوله سبــحانه بعد ذلك ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ وقد ذكر علماؤنا أن الإضافة فى قوله ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ للتنويه بشأنه ﷺ بعــد التنويه بشأن الكتاب، وهذا صحــيح، وصحيح أيضًا أن يكون صرف الخطاب عنهم لأنهم لم يكونوا مــوقنين بأنه عليه السلام أنزل إليه وأنه من المنذرين ومن المرسلين وسيأتى بعــد ذلك قوله سبحانه ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ فليس من الملائم أن يقــال لهم فى ابتداء الخطاب مــعهم رحمة من ربــكم وأن يخاطبوا بهذا التكريم ثم يقــال عنهم بعد ذلك ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُــونَ﴾، ثم إن الخطاب فى قــوله ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ خطاب للذى أنزل عليه فى اللــيلة المباركة وهو آخــر وأكرم المنذرين وآخــر وأكرم المرسلين والذى أنزل عليه رحــمة وهو منذر بالعذاب ليردع النفــوس ويكفها فتــصيبهــا الرحمة وهو المرسل رحمــة والذى يخاطبه هو ربه الذى تشــمله رحمته قــبل أن يبعث

وبعد أن يبعث فهو فى الرحمة حيث كان وكيف كان فأمره رحمة ودعوته إلى الله رحمة وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم وكل ذلك ظاهر فى أمره ﷺ والمقصود من وراء خطابه الذين يبلغون رسالات الله من بعده عليهم ألا يغفلوا لحظة واحدة عن أنهم يدعون إلى الرحمة فلا إكراه ولا عنف وإنما هى الرحمة التى لا تنقاد القلوب إليها إلا بالرحمة فهم الرحماء بين الناس وهم الرحماء بينهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

لا شك أن القصد إليه صلوات الله وسلامه عليه بالخطاب وذكر لفظ الرب وإضافته إليه فى سياق ذكر الرحمة المنزلة فى ليلة الرحمة المباركة أقول فى هذا كثير جداً وإنما ذكرنا ما يُنَبِّه إلى غيره، وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ هذه فاصلة من أوقع وأدق فواصل الكتاب العزيز لأنها جاءت بعد إنزال الكتب ثم الكتاب المهيمن عليها وجاءت بعد إرسال المنذرين وخاتمهم صلوات الله وسلامه عليه وجاءت بعد إرسال المرسلين وأنهم رحمة مع ما واجهوه من كروب، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه، وهذه هى تفاصيل أحوال النبوات والأنبياء والرسل وهذه الفاصلة لابد أن تكون مستوعبة لأسباب وأسرار بعث كل النبوات وكل الأنبياء، وكل الرسل وليس فى تاريخ الإنسان على هذا الكوكب أعظم أثرًا من النبوات وقصص النبوات وأقوام النبيين والأمم البائدة إلى آخره، وكل هذا يكمن ويسكن ويخفى ويظهر فى هذه الفاصلة.

وأُنَبِّه إلى أشياء ظاهرة أولها أن السميع العليم وسميع عليم وهو السميع العليم كثر ذلك فى الكتاب العزيز وغالبًا ما يكون فاصلة لآيات تتكلم عن أحوال العباد وأفعالهم كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٧]

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦]، ومثل هذا كثير وجدير بأن يفرد بالنظر

ومن أحسن مواقعها وأقربها إلى ما نحن فيه قوله سبحانه فى سورة الأنعام: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١٣] تأمل كلمة ﴿سَكَنَ﴾ ثم تأمل مُتعلقها ثم راجع وفرتها ثم راجع الفاصلة وكيف اقتضى ما سكن فى الليل والنهار واقتضتْ كثرته وتنوعه وتوزعه صفة السميع العليم، لتناسب الفاصلة هذا الذى لا يحاط به مما سكن فى الليل والنهار ولتكون مهيمنة عليه محيطة به.

هذه واحدة، الثانية أن هذا البناء الذى عليه الآية والمكون من إن المؤكدة وضمير الفصل وتعريف الخبر لها دلالة تختلف عن دلالات سميع عليم والسميع العليم وهو السميع العليم إلى آخره لأنها أولا مفيدة لمعنى القصر المستفاد من معنى الكمال المطلق للسميع العليم بمعنى أنه لا يسمع كل ما يسمع إلا هو ولا يعلم كل ما يعلم إلا هو سبحانه وتعالى وتقدس. وكلمة التوكيد فى أول الجملة تؤكد معنى القصر وضمير الفصل ﴿إِنَّهُ هُوَ﴾ يؤكد معنى القصر والألف واللام تفيد معنى القصر وهذا التركيب بهذه الخصوصيات لم يقع فى القرآن إلا فى خمس آيات آية الدخان واحدة منها، والآيات الأربع الأخرى متميزة جداً لأن الفاصلة وقعت بعد أحداث ووقائع ظاهر حاجتها إلى السميع العليم، أولها فى ترتيب المصحف قوله تعالى فى الأنفال: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١] راجع جنوح العدو للسلم وما وراءه من احتمال الخيانة والخديعة والمكيدة وما وراء ذلك -إن حدث من- أهوال ثم الوساوس التى يعالجها قائد الجماعة إذا كان حراً كريمًا شريفا له أنف وفى قلبه حب لقومه وليس كبْشًا مُسَيَّسًا

لحساب عدوه، كل ذلك لا يركن القلب معه إلى شيء من الاطمئنان إلا إذا توكل على الله بعد أمر الله له بالتوكل وركن إلى أن الله سميع عليم يعلم خفايا الأعداء وما تنطوى عليه صدورهم ثم هو اللطيف بنا إلى آخره.

والموقع الثانى لها فى ترتيب المصحف فى سورة يوسف عليه السلام ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٣] راجع كلمة ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ فى سياق ذكر النسوة اللائى لما رأينه عليه السلام قطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم، وراجع مقدار هذا الكيد واختلاف أنواع هذا الكيد وسره وجهره وقوله وفعله إلى آخر ما تدل عليه كلمة كيد المسندة إلى نساء القصور والعِلْية ثم راجع جملة إنه هو السميع العليم فى سياق هذا البحر الهائج من الرغبات والشهوات والحياء والمكر والدسيسة إلى آخره.

والموضع الثالث: قوله تعالى فى سورة الشعراء: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧- ٢٢] وراجع آخر السورة بعد فراغها من ذكر قصص الأنبياء وانتقالها إلى بيان أنه تنزيل رب العالمين وكيف طمأنت آيات الفاصلة رسول الله ﷺ وهو فى معمعان عصيان قومه وتحدِّيهم له وهم عشيرته الأقربون وكيف أمر بالتوكل كما كان الحال مع ما فى الأنفال إلى آخره، وآخرها ما جاء فى سورة فصلت ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] وراجع الآيات قبلها وتبين قيمة الذروة التى يدعونا ربنا إليها حين قال لسيدنا عليه السلام ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤] لأن هذا لا يطيقه إلا صفوة الصفوة، وما يلقاها إلا الذين صبروا، أى صبروا على تربية أنفسهم وقتل نوازع الأنانية وشهوة الانتقام فيها وعليك أن تتابع، لأعود إلى الآية التى سعنا، وإنما أطلت فى

التعرف على مواقع هذه الفاصلة في الكتاب العزيز لأنها فى هذه الآية التى مع
جاءت فاصلة ليس بعد ﴿وإن جنحوا للسَّلْم فاجْنَحْ لهَا﴾ ولا أخواتها وإنما جاء
بعد ذكر النبوات والكتب المنزلة، والرسل المرسلين عليهم السلام وهذه خلاص
تاريخ الإنسان وخلاصة العلاقة الناطقة بين الخالق وما خلق سبحانه وخلاص
ما يحب سبحانه أن يكون عليه خلقه وما يكره أن يكونوا عليه وأن السمي
العليم وما يتحصل من هذين الاسمين العظيمين هو خلاصة ما كانت له الكتب
وما كان له المرسلون عليهم السلام وجملة ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ علة لكل
ما قبلها وهما شاملتان لأقوال الناس وأفعالهم فالسميع كل ما يقال سراً وجهر
وكل ما يجرى فى النفوس من خواطر ونوازع لأن هذا داخل فى السر الذ
ذكرت آية الزخرف أنه سبحانه يسمعه ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُ
وَنَجْوَاهُم﴾ [الزخرف: ٨٠]، وكلمة العليم سحيطة إحاطة شاملة ومستوع
لكل ما يكون منهم من أعمال من خير وشر وبر وفجور وهدى وضلال، ثم إ
العليم متضمن معنى السميع لأن كل ما يسمع يدخل فى باب العلم، والبنا
للمبالغة والألف واللام فى الكلمتين مستوعبتان لكل الخفايا فى كل ما يسم
وكل ما يعلم لا يعزب عنه شيء ﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِ
صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦]، وهذا الذى هذ
وصفه سبحانه وتعالى وتقدس هو الذى أنزل ما أنزل وأرسل من أرسل وأنذ
ما أنذر وكل ذلك هو الطب والدواء لما يعلمه من خلقه فيما يسمع وفيما يعل
وأن العقل لا يهدى إلى الصراط المستقيم ولا بد له من نجم يهتدى به حتى
لا يهلك وهذا النجم هو ما أنزلنا وما أنذرنا وما أرسلنا؛ الله سبحانه وتعال
يسمع كلام الموحدين المستقيمين وكلام الملحدين وكلام من يعمل عقله وكلا
من ينطق بما فى عقل غيره وكلام الصادق وكلام الكاذب وكلام المراوغ وكلا
الخادع وكلام المُدجِّل بالفلسفة والمذاهب التى ليس له فيها إلا أنه قرأها كم
يقرأ التلاميذ ما يكتبونه عن مُعلِّميهم، ويسمع كلام من يقول من ذات عقا

وذات نفسه، ويرضى بهداه إن اهتدى لأنه صادر من ذات نفسه ويرضى بضلاله إن ضل لأنه ضلال صادر من ذات نفسه وهو فى الحالين رجل برأسه لا برأس غيره ومتكلم بلسانه لا بلسان غيره ومثل هذا قريب من الطريق المستقيم وقمين أن يسمع صوت المنادى ينادى إلى دار السلام لأنه يعقل بنفسه فقد يهتدى غدًا ويخرج من ضلاله الذى وقع فيه اليوم أما هؤلاء المقلدون فإنهم لن يهتدوا إلا إذا اهتدى سادتهم ولن يصلحوا إلا إذا صلح سادتهم لأنهم أقرب إلى العبيد وإن كانوا متنورين جداً ومثقفين جداً، الله يسمع كل هؤلاء ويعلم كل هؤلاء ويرى سبحانه أن سفينة النجاة لهؤلاء جميعًا هى أن ينزل الرحمة والهدى والحق المبين وأن يرسل رسله بالهداية، وأن هذا العالم الذى تتوزعه نوازع كثيرة يُظْلَم ظُلْمًا بينًا لو لم يرسل إليه ربه جماعة المرسلين رحمة منه سبحانه، وهذا شىء من دلالة هذه الفاصلة وموقعها هنا ينطقها بما تنطق به وموقعها فى الأنفال ينطقها بشىء آخر وموقعها فى يوسف ينطقها بما لم ينطقها به موقعها فى الشعراء وفى فصلت إلى آخره، وهذا مهم جداً وإن كنت لم أحسن بيانه وياليتك ترجع أنت إلى هذه المواقع الخمس وتجتهد فى استخراج دلالتها فى كل موقع وكيف تتفق المعانى وكيف تختلف وكيف تلتقى أنواعها وأجناسها والله وحده هو الذى يهدى إلى سر كلامه.

قوله جل شأنه: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

رب السماوات والأرض بدل من ﴿رَّبِّكَ﴾ وإنما فصل بين البدل والمبدل منه بفاصلة ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لأن قسمًا من المعنى قد ختم بهذه الفاصلة وبقى قسم آخر من المعنى ارتبط برباط الإعراب بما جاءت الفاصلة خاتمة له وهو الحديث الأكثر اتساعًا عن ﴿رَّبِّكَ﴾ وأنه سبحانه رب السماوات والأرض وما بينهما وأهم ما ألاحظه أن جملة البدل انتقل فيها الكلام وتهيأ لخطابهم وتعريفهم تعريفًا صحيحًا بربهم إن كانوا موقنين، وهذا البدل كالبدل الذى فى أم الكتاب ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وقالوا فى

سره هـناك أن الكلام جاء على هذه الطريقـة ولم يقل سبـحانه اهدنـا صراط الذين أنعمت عليـهم للإعلام بأن الصراط المسـتقيم هو صـراط الذين أنعمت عليهم وهذا جيد ويوجب علي أن أسأل وأقول لماذا جاءت الآية على ما جاءت عليه ولم يقل سبحانه رحمة من رب السموات والأرض وما بينهما؟ وأنا أسأل أكثـر مما أجيـب لأن الـذى أراه هو شـيء يشبـه الجواب وهو قليل من كثير لا يتجاوز أن يكون غيضًـا من فيض. وأنا الآن أحاول أن أتكلم فى سر البدل وليس فى سر كلمة ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ فقد قلت فيهـا ما عندى أما سر البدل فـالذى أراه أنه يشيـر إلي أن رب فـرد واحد هو لا مـحـالة رب السمـاوات والأرض وما بينهما لأن خلق إنســان واحد فى حكم خلق السماوات والأرض وما بينهما والقدرة القادرة على خلق طائر واحد يطير فى السماء أو دابة واحدة تمشى على الأرض هى القـدرة القـادرة على خلق هذا الكون كلـه السمـاوات والأرض وما بينهما لأن الإعجاز قليله ككثيره ومادامت القدرة اخترقت المألوف وتجاوزت السُّنن فى شىء فـهى قادرة على ذلك فى الأشياء كلهـا، ولهذا كان التحـدى في القرآن بسورة واحدة لأن المعـجز لا ينكسر ومن كـسره فى سطر واحد استطاع أن يأتى بالكل وهذا مما لا يكون، هذا مـعنى. ومعنى آخر وهو أنك أنزل عليك الكتـاب وأنت خاتم الأنبـياء والمرسلين وأن قـومك يجب أن يعلموا أن الذى أرسلك رحمة وأنزل عليك الكتاب رحمة وجعلك من المنذرين رحمة هـو رب السماوات والأرض وأن هذا الذى تتلوه عليهم هـو كلامه وأن هذا الدين الذى تبلغه هو دينه وهذا معنى جيد.

والذى بين السـمـاء والأرض هو كل مـا فى الأرض من بر وبحـر وزرع وضـرع وسمـاء وشمس وكـواكب وحيـوان وطير، ولا يدخل فـيه العـرش والملائكة حوله ومـا فوق السماء، وإضافـته عليه السلام إلي ربه قـبل إضافة السمـاوات والأرض وما بينهـما إلي ربه فيـه تشريف له وتكريم وكـأنه عليه السلام عدل السموات والأرض وما بينهـما ثم هو مقدم عليها، وفى كل هذ

أنه خير من خلق الله وبرأ صلوات الله وسلامه عليه وكل هذا داخل فى سر أسلوب البدل.

وقوله سبحانه: ﴿إن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بنيت على الشرط الذى يؤتى به فى المشكوك فيه للإشارة إلى أن كونكم موقنين مما يرد عليه إنكار المنكر واعتراض المعترض وكلمة ﴿كُنتُم﴾ تفيد معنى إن كان شأنكم اليقين وإيراد هذا فى معرض الشك فيه قدح شديد لأنه ليس المقصود أنه ليس من الثابت يقينكم وإنما المقصود أنه ليس من الثابت أنكم أهل لليقين، ومن ليس أهلاً لليقين لا يعوّل عليه فى شىء وكلمة كنتم هنا قادحة فى الطباع وأنها ليست من طباع أهل التثبيت واليقين، وهذه هى دلالة الكلمات أما دلالة الموقع فإن هذه الآية الكريمة ترجع بنا إلى قلب سورة الزخرف وتمسك بهذا القلب الذى دارت عليه وذلك لأنها راجعة رجوعًا ظاهرًا إلى آيتين كريمتين فى الزخرف واحدة فى أولها وهى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩] وواحدة فى آخرها وهى قوله جل شأنه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف. ٨٧] وقد أحاطت الآيتان بما فى السورة إحاطة السوار بالمعصم لأنهما تصوران أصل الاختلال وأصل فساد ما دارت السورة على بيان فساده من تعداد كفرياتهم ابتداء من قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥] إلى آخر ما بينا، وكما نرى هذه الجملة ممسكة بقلب السورة قبلها ومُحْضِرَةً لها تجد كذلك جملة ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ قبلها ممسكة بآخر جملة فى الزخرف ومحضرة لكل ما فيها وآخر جملة هى ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وكلمة ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ هى بداية هذا الإنذار الذى سيتوافى بقوة فى قوله سبحانه ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ﴾، ولعل هذا مما أفاده ذكر الإنذار وحده مع أن الذى أنزله الله فى الليلة المباركة إنذار وبشارة، وهذه الدراسة كلفة جداً بهذه الروابط

الجزئية بين السورتين المقترنتين لأن الأسرار البيانية فى ترتيب المصحف مما لا تشبعه الدراسة وهو باب محتاج إلى أن يلتفت إليه أهل العلم الصرحاء.

وقوله جل شأنه: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي ويمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾.

جملة ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ جملة بُنيت على القطع والاستئناف لأن ما قبلها يُغْرى النفس بطلب المزيد من باب معناها فجاء هذا القطع ليضيف إلى رب السماوات والأرض التفرد بالألوهية وما بعده من معنى. ثم إن هذه الجملة مؤكدة لقوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ لأن الذى لا إله إلا هو هو بالضرورة رب السماوات والأرض ثم هى أيضًا مؤكدة لمعنى اللوم والمؤاخذة والإثارة والإلهاب والتهيج الذى فى جملة «إن كنتم موقنين» لأن فيها كل هذه المعانى وزيادة فإذا كنتم مقرين بأنه خلق السماوات والأرض وخلقكم وهو رب السموات والأرض فأى شىء يجعلكم لا تنقادون انقياد أهل اليقين؟ ثم يأتى قوله: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ ليؤكد هذا الاختلال الساكن فى قلوبهم وعقولهم وجعلهم يتناقضون وتتوزع نفوسهم بين الإقرار بأنه خالق ورفض اليقين المفضى إلى الانقياد بأنه رب السماوات والأرض. ثم إن هذه الجملة جاءت فى سياق ذكر الكتب والنبوات والمنذرين والمرسلين عليهم السلام لأنها هى المعنى الأم الذى قامت على بيانه وتحقيقه وتوكيده كل الكتب وكل النبوات وهى أثقل الكلام ميزانًا وأرجحه، وهى أفضل ما قاله ﷺ والنبيون من قبله عليهم السلام، ثم هى سهيئة للذى يأتى بعدها وهو أصل السورة وهو قوله سبحانه ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ لأنه لا ينكر لا إله إلا هو إلا لاه لاعب.

وقوله جل شأنه: ﴿يَحْيِي ويُمِيتُ﴾ هذه الجملة مستأنفة ومفصولة عما قبلها لأنها مؤكدة لها. وصيغة المضارع فى الفعلين تعنى أن ذلك يتجدد ويحدث وتنزيلهما منزلة اللازم لبيان أنه يكون منه الإحياء والإماتة من غير نظر إلى مفعول يقع عليه الفعل وإنما يتوفر المعنى على أن هذين الفعلين

اللذين هما أبرز وأهم ما بنى عليهما هذا الوجود يكونان منه سبحانه، وهذان فعلان لا يتصور وجودهما من فاعلين لاستحالة تعلق قدرتين مختلفتين بفعل واحد، فلو كان فيهما إلاهان وشاء هذا إحياء شيء وشاء الآخر موته فلابد أن تتخلف قدرة واحد منهما لاستحالة إنفاذ القدرتين وهذا أقوى ما تؤكد به هذه الجملة جملة الوحدانية وتفرد الألوهية وهذا ظاهر والذى أريده هو أن الآيات من أول قوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تسعى نحو إلزام المنكر بالإقرار وإقامة الدليل الذى يقرون به وقد سألت لماذا جاءت جملة يحيى ويميت بعد لا إله إلا هو وكان يمكن أن يقال لا إله إلا هو الحى القيوم، أو لا إله إلا هو خالق كل شيء، فأى خصوصية فى آية يحيى ويميت جعلتها أولى بهذا الموضع من غيرها؟ وكان الجواب هو أنها أخت ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وأخت ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ وذلك لأنهم يقرون أنه سبحانه هو وحده الذى يحيى ويميت وترى الوحدانية التى لا يقرون بها والتى هى خير ما قاله صلوات الله وسلامه عليه والنبيون قبله مسبوقة بدليل يقرون به وهو رب السماوات والأرض ومتبوعة بدليل يقرون به وهو أنه سبحانه يحيى ويميت، وما عليهم إلا أن يقولوا مادام رب السماوات والأرض كما نقر فلابد أن يكون واحدًا لأن ربوبية السماوات والأرض وما بينهما لا تكون لاثنين، ومادام يحيى ويميت فلابد أن يكون واحدًا لأن عماد الوجود على الحياة والموت فكل شيء تراه يولد ثم يعيش ثم يموت وفاعل ذلك هو الله فلابد أن يكون واحدًا؛ وهكذا تجد الدليل هنا قد بلغ ذروته والحقيقة تجلت ولم يعد فيها «موضع راحة سحابا» فآذن هذا التجلى وهذا الانكشاف بخطابهم بما يجب أن يخاطبوا به وهو أن الله ربك ورب السماوات والأرض. والذى ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ وأنتم لا تقرون بذلك ثم يلتفت الكلام عنهم ويدير وجهه عنهم ويقول وكأنه يحدث عن قوم غيب ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.

ونلاحظ شيئًا كأنه كالدليل على أنه يحيي ويميت وإن كان ليس فى حاجة إلى دليل وهو أنه ربكم يعنى أحياكم ورب آبائكم الأولين الذين أماتهم، وهذا هو معنى يحيي ويميت، وهذا برهان عملى وملموس ولدكم من آبائكم وهذا هو يحيي وأهلك آباءكم وهذا هو يميت، وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل.

وهنا نجد كلمة ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ كأن موضعها ينطق بها لأن من راغ عن هذا كله وأدار له ظهره ليس من الجد فى شىء بل هو لاعب عابث ركبه الشك الذى ليس ناتجًا عن البحث عن الحقيقة وإنما هو ناتج عن اللهو وعدم الجد وعدم أخذ الأشياء بالذى يلزمها من النظر والتدبر

وفى هذه الجملة تجد شداً قوياً جداً لسورة الزخرف ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣] وقد جاءت هناك بعد عرض عقائدهم الباطلة وبيان ما ينقضها بيانًا كاشفًا ثم بقائهم على هذا الباطل بعد هذا البيان يعنى كانت هناك بعد فراغ السورة من موضوعها، وهى هنا بداية موضوع السورة -وهذا عجيب- وكأنه ترتيب للمعانى وكأن السورتين سورة واحدة ذات شقين ولم تسبق فى الدخان بنقاش لأن النقاش قد فرغت منه السورة التى قبلها والتى كانت الدخان امتدادًا لها ثم إن الذى جاء بعدها فى الدخان هو العقاب الذى توعدت به الزخرف ﴿حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وهذا اليوم الذى يوعدون هو ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ فهل ترى مثل هذا البناء فى غير هذا البيان؟

بقى فى مطلع هذه السورة شىء من المفيد أن أزيده بيانًا لأن السورة انتقلت فيه إلى موضوعها انتقالاً بَحْتًا من غير تهيئة، هذا الشىء هو أن هذا المطلع يقوم على إشباع القول فى معان ثلاثة: أولها إشباع القول فى الذكر الحكيم الذى أنزله الله على رسوله وبيان منزلته وشرفه وثانيها بيان شرف الذى أنزل

الله عليه هذا الذكر وبيان مكانه عند ربه، وثالثها اقتدار وهيمنة صاحب هذا الذكر تعالى وتقدس واكتفى المطلع بهذا ولم يناقش القوم فى شىء ولم يعرض عليهم شيئًا.

وقد يظن أن المنزل عليه الكتاب لم يذكر إلا فى قوله سبحانه ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ وهذا وإن كان فيه كل تشريف إلا أنه عليه السلام كرم قبلها إكرامين إكرام فى قوله سبحانه: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ وهو عليه السلام آخر المنذرين والإكرام الثانى فى قوله جل شأنه: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ وهو عليه السلام أكرم المرسلين، وجاء موقع الخطاب فى قوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ فى آخر هذين الإكرامين المضمرين مشيرًا إلى منزلته عليه السلام فى المنذرين والمرسلين.

وقوله سبحانه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ بعد هذا المطلع وقبل هذه الآية لاشك أن أحداثًا طوالاً وأوقاتًا طوالاً وصراعات طويلة مضت وانطوت بين هذا المطلع وهذه الآية التى انتقل إليها الكلام انتقالاً مفاجئًا مباغتًا من غير تهيئة، وفى هذه المنطقة المسكوت عنها والزاخرة بالأحداث والأحوال والأحاديث والأراجيف والاتهامات الباطلة والأصوات الكاذبة والتى يتخللها فى ذلك كله صوت حق لا يتبدل ولا يتغير هو صوته عليه السلام وهو يتلو عليهم آيات ربه أو يُبَلِّغُهم وحيه إليه فى سنته صلوات الله وسلامه عليه أقول فى هذه المنطقة تذهب النفس كل مذهب وتحاول أن تتم الفجوة التى بين الخطاب فى قوله سبحانه: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ والالتفات عنهم والحديث عنهم بدل الحديث إليهم فى قوله جل شأنه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.

وقد اقترن ذكر اللعب فى الكتاب العزيز ببيان استخفافهم بما أنزل عليهم من ربهم ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢] ومحط المعنى فى آية الأنبياء هذه وموضع رحله هو هذه الجملة الحالية يعنى

الاستماع للذكر الذى من ربهم حالة كونهم يلعبون ويجددون اللعب لعبًا بعد لعب ووقتًا بعد وقت، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

اللعب إذن هو استهزاء بالله وآياته ورسله ولا يُوجب غضبَ الله شيءٌ أبشعُ من هذا، وافتتاح موضوع الدخان بهذه الآية المُفْعمة بمعانى الغضب إيذان بأن ما سيأتى بعدها من ضروب النَّكال والويل والثبور: وكانت طوالع هذا النكال هو: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ وقبل الكلام فى هذا أنبه إلى شيء يفهم من عُرض الآية لا بها وهو أن الله سبحانه وتعالى يحذرنا من اللعب فى مقام الجد ويحذرنا من عدم المبالاة حين يجب أن تكون هناك مبالاة، ويحثُّنا على الجد والنظر العقلى الواعى والصادق، والحكم السديد على ما نحن بصدده فى أى أمر من أمورنا المطلوب فيها الجد والاحتشاد، وفى كل ما نزاوله من قول أو فعل وأن هذا هو الطريق للحياة الأفضل وللإنجاز الأفضل. مواقع آيات اللعب فى القرآن الكريم تؤكد أن الذى أضاع أعظم فائدة كانت تحققها القيم الأخلاقية للمجتمعات الإنسانية إنما كان بسبب افتقاد الجد والحقاوة فى مقامات ما كان ينبغى أن يكون فيها إلا الجد الصارم والعمل العقلى بأقصى طاقاته.

وكلمة ﴿بَلْ﴾ فى الآية الكريمة معناها الإضراب الانتقالى لأن الكلام بها انتقل من باب من أبواب المعانى إلى باب آخر و﴿هُمْ﴾ ضمير الغائب وضع موضع المخاطبين فى قوله ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهى الكلمة التى حدث بها الالتفات فهى موضع الالتفات ويُنبِّه أهل العلم إلى ضرورة مراجعة موضع الالتفات لأنه لا محالة يكمن فيه سر وظاهر لمن يتدبر الآيات السابقة وكيف تجلّت فيها شئون ثلاثة شأن الكتاب الذى أنزل فى ليلة مباركة وشأن الذى أنزل عليه الكتاب والذى أقبل عليه ربه وقال له: ﴿رَحْمَةً مِّن

﴿ربك﴾ وشأن الذى أنزل الكتاب وهو ربكم ورب آبائكم الأولين يرى أن جملة ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ جملة صادمة لمن يتلقاها لأنه كان يتوقع أن يكونوا من أكرم المنقادين إلى الذى أنزله الله عليهم وخصوصًا أنهم يعلمون منه شيئًا آخر وهو أنه وإن كان بلسانهم فإنه ليس من جنس كلامهم وأنهم لا طاقة لهم به وأنه ليس من جنس كلام الذى يتلوه عليهم، لأنهم يعرفون كلامه كما يعرفون كلامهم، ولأنه لبث فيهم سنين من قبله إلى آخر ما تتضافر الأدلَّةُ عليه ثم هم يروغون من كل ذلك فلم يكونوا أهلاً للخطاب وإنما انصرف الكلام عنهم لما انصرفوا عن الجد إلى اللعب، وهذا الإضراب وهذا الالتفات وبناء الجملة وكلماتها كل ذلك فيه غضب شديد وقد قلت إن هذه الجملة هى عمود الرحا الذى تدور عليه السورة، ويلاحظ أن مجىء كلمة ﴿هُمْ﴾ بعد الإضراب من شأنها أنها تَلْفِتُ إلى أن هؤلاء سيذكرون بأمر مهم، فتستشرف النفس إلى معرفة ذلك وتستيقظ وتلتفت فيُصَادِفُها حرف الظرف الداخل على الشك وأن هؤلاء ليسوا شاكين فحسب وإنما هم داخلون فى الشك، وكائنون فيه فهو يغشاهم ويحيط بهم، إحاطة الظرف بالمظروف، وهذا هو الخبر الذى به تتم الفائدة وأصل الجملة «هم فى شك» وتأتى جملة يلعبون وهى حال من الضمير المبتدأ، والحال خبر ولكنه جزء من الخبر الأول، والفعل المضارع دال على تجدُّدِ ذلك وحدوثه فى كل زمن يستقبلونه وأن الشك الغارقين فيه إنما أفرزته وأنتجته حالة اللعب الذى هم فيها، ومعنى آخر نراه في الانتقال من الخطاب فى ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ إلى الغيبة فى ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ وهو أنهم لم يوصفوا بأنهم فى شك يلعبون إلا بعد نزول ذكر ربهم ورب آبائهم الأولين بزمن مُدّت لهم فيه المدة ليتدبروا وليرجعوا فلم يتدبروا ولم يرجعوا وإنما خاضوا ولعبوا ﴿ما يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾، وكلما جاءت آيات ونزلت على رسوله الكريم وقرأها عليهم ازدادوا صخبًا وعبثًا

ولعبًا، وهذه المسافة التى مُدّت لهم صاروا فيها فى حكم من ابتعد وغاب، قلت إن هذه الجملة تستصحب الغضب والتهديد الذى فى آخر الزخرف ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ وأقول إن تحت كلمات اللَّعِب هنا مغالطة منهم لأنفسهم لأن ظاهرهم اللاعب اللاهى يخالف باطنهم الذى تصوغه آية مطلع فصلت: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وآية فى مطلع الزخرف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فهم فى الحقيقة قوم يعلمون، وهم فى الحقيقة قوم يعقلون، والذى أنزل عليهم هو قرآن عربى وهم أشد الناس تعقلاً واقتدارًا على إدراك خفايا اللسان، ولذلك لم يكونوا فى الشك إلا والحال أنهم قد أداروا عقولهم التى يعقلون بها عن هذا الكتاب وأغرقوا عقولهم التى يعلمون بها فى اللعب واللهو لا تسمعوا لهذا القرآن والْغَوْا فيه.

وقد وصف البقاعى لعبهم الذى غيّب عنهم الصواب بقوله: «لا يُجردُون نفوسهم من شوائب المكدرات لصفاء العلم، وأنهم يتركون ما هم فيه من أجدِّ الجدِّ الذى لا مَرِيَّةَ فيه إلى اللعب الذى لا فائدة فيه ولا ثمرة له بوجه»

وقوله سبحانه: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ هذه الفاء عطفت جملة «ارتقب» على جملة ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ ورتبتها عليها، وذلك لأن الغضب الذى فى جملة ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ هو الذى هيأ الموضع لجملة ﴿فَارْتَقِبْ﴾ وارتقب معناه انتظر، وهو افتعال من رقب كالاكتساب من كسب والانتظار من نظر ووراء هذا الافتعال احتشاد واحتفال واهتمام وتوقع، وهذا ظاهر من أن رسول الله ﷺ قد بلغ منه اليأس والأسف والضيق من قومه ما بلغ، ولا يجوز أن تُفْهم هذه الكلمة بمعزل عن قوله ﷺ فى آخر الزخرف: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨] وإذا كان ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ من بيان قوله جل شأنه هناك

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ فإن الافتعال في ارتقب هو من قوله هناك ﴿هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ فالذى فى الزخرف يفسر سر الصيغة التى فى الدخان.

وقوله: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ الظرف ﴿يَوْمَ﴾ مفعول به وليس مفعولاً فيه لأنه ليس المراد ارتقب في يوم وإنما المراد ارتقب يوم، وذلك كقوله تعالى. ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل. ١٧] أى يتقون اليوم نفسه وليس يتقون فيه، وكلمة ﴿تَأْتِي السَّمَاءُ﴾ هذه الجملة مضافة إلي الظرف فالظرف مفعول به لفعل ارتقب ومفعول فيه لفعل تأتى السماء لأن السماء تأتى بالدخان فى هذا اليوم وهذه بداية شرح العذاب المتوعد به فى آخر الزخرف، وإسناد فعل تأتي إلي السماء فيه دلالة ظاهرة علي أن العذاب الذى تأتى به السماء فى صورة دخان مُسْتَعْلٍ عليهم متمكن منهم قاهر لهم، لا سبيل لهم إلي دفعه ولا إلي مقاومته، وأنه من قوة علويه لا تُقْهر؛ ثم إن الدخان المبين يُفْزِع ويَخْلع القلوب لأنه يتوهم أن يكون من ورائه حمم حارقة وصواعق ماحقة، لأن الدخان لابد أن تكون وراءه نار فإذا تساقطت عليهم النار من السماء فذلك هو الفزع الذى ليس بعده فزع وهكذا كانت الصورة أو تكون الصورة كما تدل عليها الكلمات ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ لأن الدخان مهما كان الفزع منه فهو مقدمات توشك أن يكون وراءها نار تلظَّى والويل لمن تَتَرصَّدُهم النار من فوقهم، ومعني وصف الدخان بأنه مبين أى بيِّن ظاهر وإيثار كلمة مبين على بيِّن للدلالة على أن الدخان يبين أى يبين ويكشف ما وراءه من أهوال وأحوال، وشيء آخر فى إسناد تأتى إلي السماء، فى قوله: ﴿تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ﴾ وهو أن الغضب المدلول عليه فى الجملتين المعطوف والمعطوف عليه لم يقف عند غضب الله ورسوله، لأنهم لَعِبُوا فى مقام الجد وإنما اتسع الغضب فصارت السماء من جند الله وصار الدخان من جند الله، وأرسلت السماء عذابها وصبته على أعداء الله وهذا هولٌ آخر لا يَبْعُد عن نفس من يسمع الآية وخصوصًا الذين نزل فيهم وقد

تنوع كلام علمائنا فى تفسير الدخان المبين الذى تأتى به السماء، وأظهر ما فُسِّر به أمران: الأول وهو الذى رجحه كثير من المفسرين أنه ما كان يتراءى لقريش من أثر القحط والجوع لما دعا عليهم رسول الله ﷺ وقال: «**اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف**» فأصاب القوم قحطٌ شديدٌ وشدّةٌ شديدةٌ وجاعوا حتى أكلوا العظام والجيف، كل ذلك ورسول الله ﷺ فى المدينة وعلمت قريش أن رسول الله ﷺ دعا عليهم فأرسلوا إليه أبا سفيان وناشده الله والرحم ووعده إن كشف الله عنهم ما هم فيه من شدّة أن يؤمنوا، قالوا وكانوا يَرَون ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان من شدة الجهد، وكان الرجل يكلم الرجل فيسمعه ولا يراه، وليس هذا بمانع أن تكون السورة مكية نزلت فى مكة وأحداثها الموصوفة فيها وتفاصيل هذه الأحداث كل ذلك فى المدينة، وهذا أدخل فى الإعجاز وأقعد فى الدلالة على أنه ليس من كلام الناس -السورة تقول لرسول الله ﷺ وهو فى مكة ارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يكون من شأنه كيت وكيت ثم يحدث كل ذلك وهو فى المدينة هذا قريب جداً من الإخبار بالغيب الذى فى مثل ﴿**غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ**﴾ [الروم: ٢، ٣] وعلى هذا الوجه لا يكون هناك دخان حقيقى وإنما هو مجاز عن ما يشبه الدخان من الذى يكون فى زمن القحط، وأعرف من قال بهذا ابن مسعود رضى الله عنه وأرضاه وقد قيل له إن قاصاً عند أبواب كندة يقول إنه دخان يأتى يوم القيامة فيأخذ بأنفاس الخلق فقال سيدنا عبد الله بن مسعود كلمة جليلة جداً وهى «من علم علمًا فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فإن من علم الرجل أن يقول لشىء لا يعلمه الله أعلم ثم قال وسأحدثكم إن قريشا لما استعصت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا عليهم فقال اللهم اشدد وطأتك على مضر ثم ذكر ما ذكرناه وقال وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان وكان يحدث الرجل فيسمع كلامه ولا يراه إلى آخره وكثير من هذا

الخبر مرويٌّ فى البخارى ومسلم، وفى حديث أبى هريرة فى صحيح البخارى فى أبواب الاستسقاء أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة من الصبح يقول اللهم انج عباس بن أبى ربيعة اللهم انج سلمة بن هشام اللهم انج الوليد بن الوليد، االلهم انج المستضعفين من المؤمنين اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف قال الشيخ الطاهر وهؤلاء الذين دعا لهم بالنجاة كانوا ممن حبسهم المشركون بعد الهجرة.

والوجه الثانى: هو كما رواه الزمخشرى عن على بن أبى طالب وبه أخذ الحسن قال: إنه دخان يأتى من السماء قبل يوم القيامة يدخل فى أسماع الكفرة حتى يكون رأس الواحد منهم كالرأس الحنيذ، ويعترى المؤمنَ منه كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أُوقد فيه ليس فيه خَصَاصٌ جمع خصاصة أى فرجة وذكر بعضهم أنه يملأ بين المشرق والمغرب ويمكث أربعين يومًا. وعلى هذا لا يحمل الدخان على المجاز وإنما هو حقيقة ويكون قولهم ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ﴾ وقول الله لهم ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً﴾ من الأمور الواقعة فى ذلك الوقت قال الزمخشرى فى بيان ذلك «إذا أتت السماء بالدخان تضور المعذبون به من الكفار والمنافقين وغوَّثوا وقالوا ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ منيبون فيكشفه الله عنهم بعد أربعين يوما فريثما يكشفه عنهم يرتدون ولا يتمهلون. انتهى كلامه. والتضوُّر معناه التلوِّى من العذاب والصراخ منه وغوَّثوا: استغاثوا.

والآية تحتمل هذا وغيره مما ذكروه كالذين ذهبوا إلى أن المرتقب مجىء الدخان من سنابك الخيل يوم الفتح. والله أعلم. وقوله سبحانه ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ هذه الجملة صفة للدخان بعد وصفه بأنه مبين يعنى كاشف عن كرب وهول وويل ثم يَغْشَى الناس يعنى يحيط بهم إحاطة المقتدر المتمكن والغشيان هنا قريب من الغشيان الذى فى قوله ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨] وكلمة الناس فى الجملة تعنى أنه أحاط إحاطة كاملة وأنه كما يرونه غَشِىَ الناس كل الناس وسواء كان دخان الجدب أو دخان الساعة فإنهم لم يروا

منه خصاصة، وإنما صار محيطًا بالناس كل الناس ووراء هذا الإحساس بالهول الذي لا طاقة لهم بدفعه ولا بالفرار منه، وراجع ترتيب هذه الجملة بعد قوله سبحانه ﴿مُّبِينٌ﴾ وتأمل كيف أفادت الصفة الأولى ظهور الهول ووضوحه ثم أفادت الثانية عمومه واشتماله، واكتفت الآية فى وصف هذا الموقف بهذه الكلمات ﴿تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ﴾ وراجع لتدرك ما أريده مما لا تساعد العبارة على بيانه لأن الكلام بعد ذلك بنى على القطع والاستئناف وانتقل من وصف المشهد إلى وصف ما وجدوه منه قال سبحانه ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهذه الجملة أول ما فيها أنها مقول قول محذوف حذف للمبادرة بهذه الجملة التى هى قلب هذا الموقف لأنها تحدثهم عن ما أصابهم منه وكيف كانت شدة الإصابة ملجئة لهم إلى هذا القول وما بعده، ثم إن القطع دائمًا يكون فى مفاصل المعانى التى تبلغ الغاية والذروة فى معنى الكلام الذى وردت فيه ثم إن هذا الاستئناف بنى على ذكر اسم الإشارة الدال عل القريب لأنهم فى قلب هذا العذاب وهو محيط بهم وآخذ بكظمهم، ثم إن هذه الإشارة أيضًا ميزت المشار إليه أكمل تمييز ليقع الخبر بعده فيسند إليه بعد هذا التميز ثم إن الخبر الذى هو عذاب أليم أحدث تحولاً شديدًا فى المشهد كله لأنه لم يعد دخانا يغشى الناس وإنما استحال وصار عذابًا وهذا من الإخبار عن الذات بالمعنى لأن الدخان محسوس والعذاب معنى والإخبار بالمعنى عن الذات يعنى أن الذات صارت معنى وهذا من أقوى صور المبالغة وهذا من كلام النحاة وهم أُمَّةٌ تحسن فهم الكلام وقد تخلينا عن كلامهم كما تخلينا عن أمور جليلة كثيرة، ثم إن الجملة لم تكتف بأن صيرت الدخان عذابًا وإنما أضافت وصفًا للعذاب هو من جوهر المعنى وهو الأليم وكلمة الأليم مبالغة من الألم والوجع ولعل هذا هو الذى قصده الزمخشرى بقوله (تَضَوَّرُوا وغوَّثوا).

وراجع قوله جل شأنه بعدها ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ وقبل أن تتأمل مبناها ومعناها ننظر إلى ما بينها وبين جارتها لأن ما تُفْرغه الجارة على

الجارة من أدق معانى البيان وأعلاها، وقد ربَّيْنا على دراسة معانى الجمل وما وراءها من أسرار وهذا جيد والآن يجب أن يضاف إليه المعانى المتولدة من هذا الجوار، وقد رأينا علاقة ﴿يَغْشَى النَّاس﴾ بكلمة ﴿مُّبِينٍ﴾ وعلاقة ﴿هَذَا عَذَابٌ﴾ بالذى ﴿يَغْشَى النَّاس﴾ والآن ترى أن قولهم ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ﴾ صادرا من الألم والوجع الذى يجدونه من الأليم، لأن هذا الألم هو الذى انتزعهم من الباطل الذى تشبثوا به وانتزعهم مما ألفوه من لعب وهزل وشك وصاروا الآن فى قلب الحقيقة وخرجوا من سراديب الشك التى أسكنهم فيها الهزل واللعب، وكنت تجد أحيانًا الجملة قد هيأت مكان التى تليها ومهدتة لها ووطأته وأنت الآن تجد الجملة قد تركزت فى كلمة وأن هذه الكلمة الأخيرة من الجملة الأولى هى التى وطأت وهيأت ومهدت للتى تليها لأنها هى جارتها الملاصقة وما أروع أن نجد هذا التعانق وهذا التماسك بين أطراف الجمل.

وراجع ابتداء هذه الجملة بقولهم ﴿رَبَّنَا﴾ وكيف ألجأهم الألم وظأرهم وأضرعهم فتضرعوا ونادوا ربهم وكيف حذفوا حرف النداء لأن حالهم لا يعينهم إلا على هذا الإيجاز الشديد، وكلمة الرب هى الكلمة التى نأتى فى الدعاء كثيرًا لأن الله سبحانه فطر نفوس عباده وجبلها على أن تستشفع بنعمه إلى طلب نعمه والذى يقول ﴿رَبَّنَا﴾ يعنى من وراء ذلك أنك المنعم والخالق والرازق أنعمت أولاً بأن أخرجتنا من كنم العدم كما يقول علماؤنا الكملة رضوان الله عليهم ثم أنعمت بالرزق والرعاية والسمع والبصر والتربية وبالوحى والنبوات وبما لا يحصى وإنا لنستشفع لك بكل هذا لتكشف عنا العذاب، هكذا حولهم العذاب الأليم. وقولهم ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ﴾ كلمة ﴿اكْشِفْ﴾ هى من معدن قوله تعالى على لسان آل فرعون ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] وسوف تتضح لنا العلاقة بين الموقفين والذى أريده الآن هو أن كلمة ﴿اكْشِف عَنَّا الْعَذَابَ﴾ فيها فرط إحساس باستيلاء العذاب وضغطه عليهم وإحاطته بهم وكأنه ألبسهم وغطَّاهم، وهذا جيد وليس كل المراد

لأن المراد الأعظم هو أن هؤلاء لما كفروا وعاندوا وعارضوا كانوا يكذبون على أنفسهم لأنهم لما أصابهم العذاب استيقنوا أنه عذاب الله أصابهم به لكفرهم وأنه وحده القادر على كشفه وأن الكفر هو الجالب له بدليل قولهم إنا مؤمنون، وأن الشك الذى انغمسوا فيه واللعب والصخب والهزل الذى عاشوه كان تغطية شيطانية لأن حقيقة التصديق والإيمان واقرة فى نفوسهم، وأنهم لما مستهم البأساء والضراء تضرعوا، وجملة ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد لإيمانهم بإن واسمية الجملة، وهذا قريب جداً من قول آل فرعون فى سورة الزخرف لما أخذهم الله بالعذاب قالوا لموسى عليه السلام ﴿يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩] وابتلاء الله لقريش فى الدخان هو ذاته ابتلاء الله لآل فرعون فى الزخرف، وابتلاء آل فرعون تكرر فى سور القرآن وتنوعت صوره، وقالوا فى سورة الأعراف ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] وقريش تضرعوا إلى الله وقالوا: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ وآل فرعون رجعوا إلى موسى عليه السلام وقالوا ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ والفريقان قريش وآل فرعون نكثوا لما كشف الله عنهم وأغرق الله آل فرعون ولكن قريشًا بقيت تتخبط فى الضلال حتى فتح الله أقفال قلوبهم فدخلوا فى دين الله أفواجًا، وإذا كانت بداية القصة والابتلاء واحدًا فإن النهاية مختلفة لأن فراعين العرب لم يَلَجُّوا فى الفرعنة ولم يستمروا عليها ونرجو الله أن تكون هذه الخليقة بقيت فيهم وأظنها باقية لأن فيهم من الخير ما ليس فى فراعين العجم، وكلمة إن فى قولهم ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾» معناها التعليل يعنى اكشف عنا العذاب لأننا مؤمنون.

قوله جل شأنه ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ⟨١٣⟩ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ هذه مبادرة بتكذيبهم لما قالوا ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ وبيان أن ما ألجأهم إلى ذلك هو العذاب الأليم، وليس ما يتضمنه من دليل محسوس على صدق

الذى يدعوهم إلى ربهم، لأن قلوبهم لا تزال مغلقة فى وجه البرهان ومغاليقُها هى الهروب والمراوغة والكذب عليها ومعنى ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ إنكار ونفى أن يتذكروا ويتدبروا وينتفعوا بتذكرهم وتدبرهم، وكلمة «أنى» يسأل بها عن المكان وعن الحال، وتكون بمعنى كيف والاستفهام فيها للإنكار فهى تنفى وتنكر أن تكون لهم جهة يأتيهم منها التذكر. وأنهم سَدُّوا على قلوبهم وعقولهم كل المنافذ التى يكون فيها العقل والفهم والتحليل والاستنباط واستخراج الدليل. كما تقول أنى يكون ذلك؟ أى ليست له جهة يأتى منها وليست له حالة يمكن أن يكون منها، وهذه كلمة جيدة جداً لأنها دلَّت على أن القوم لم يُبْقُوا منفذًا ينفذ الحق إليهم منه، ثم مجيئها فى أثر قولهم ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ مبادرة جليلة ليس لتكذيبهم فحسب، وإنما أيضًا لتكذيبهم عند أنفسهم وأنهم أقاموا حصارًا مضروبًا على عقولهم وقلوبهم، وحاصروها لما أغرقوها فيما أغرقوها فيه؛ وأن هول ما هم فيه من عذاب هو الذى أوهمهم أنهم أدركوا الحق وآمنوا؛ والذكرى من الذكر والذكر استحضار حقائق معرفة سبق أن سكنت فى العقل أو أن تذكر الشىء لتعلمه وتحفظه، ومنه المذاكرة والمدارسة، والاستفهام هنا يستبعد الذكرى بالمعنيين لأن ما سكن فى قلوبهم ووقر فيها لما سمعوا القرآن واستيقنوا أنه ليس من كلامهم سدُّوا على أنفسهم منافذ استحضاره بما لجُّوا فيه من لهو وعبث، ولأنهم أيضًا لم يتيحُوا لأنفسهم التَّدبُّر والتذكر والمدارسة لما غطَّى العناد والاستكبار على أنفسهم قوله سبحانه ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ هذه الجملة الحالية هى أصل معنى الجملة التى هى حال منها، وهى أنى لهم الذكرى، لأن الأصل فى استبعاد أن يتذكروا ويتدبروا ويطلبوا الصواب بالوجه الذى يطلب به الصواب أنهم قد جاءهم رسول مبين عن آيات بيِّنات هى أظهر وأبين من آية الدخان التى أظْأرَتْهم إلى الضراعة إلى الله، وقالوا ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾، لأن آية الدخان رغم قُوَّة دلالتها على أن

محمدًا عليه السلام رسول رب السموات والأرض والمالك لكل شيء وفي قبضته كل شيء حتى إن السماء التي ألفتم أن يأتيكم منها المطر والرزق وألِفْتُمْ زينة كواكبها وألِفْتُمْ الشمس والقمر يسبحان فيها بحسبان تحوّلت فجأة إلى باب من أبواب الجحيم، وقذفتكم بدخان يَغْشَى الناس هذا عذاب أليم، أقول هذه الحادثة مع قوة دلالتها فالذي جاءكم به محمد فيه من الأدلة ما هو أقوى من هذا. وحسبكم سماع ما جاءكم به، هذا هو موضع استبعاد أن يتذكروا بسبب حادثة الدخان لأنهم لم يتذكروا بالبراهين الأقوى، التي جاء بها محمد صلوات الله وسلامه عليه والقضية ليست قضية البرهان في حادثة الدخان وإنما هي قضية العذاب الأليم الذي تَصرخُون وتَضرَّعون للانفكاك منه. وراجع جملة ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ وهذه الواو التي هي واو الحال لا تخلو أبدًا من الإيماءة إلى معنى العطف وكأن هذه الحال التي هي خبر ثان ملحق بالخبر الأول ومُتَمم له توشك أن تكون خبرًا وحده، وهذا هو الفرق بين مجيء الحال مرة بالواو ومرة بدونها، ثم إن كلمة ﴿قَدْ﴾ تفيد التحقيق والتأكيد، وكلمة ﴿جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ تلفتني لفتًا لا أستطيع دفعه إلى أختها في الزخرف ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف:٢٩] لأن هذه التي في الزخرف تزيد التي معنا ضياء وبيانا، وذلك لأنك ترى فيها الرسول المبين صلوات الله وسلامه عليه قد جاءهم في صحبة الحق، فلم يأتهم وحده وإنما جاءهم الحق معه عليه السلام وقد تقدّم الحق عليه، وكأنه هو الذي يُهيِّئ طريقه إلى من يدعوهم إليه وهذا هو معنى أن آيات محمد البينات كانت أقوى في دلالتها على أنه مرسل من ربه من آيات الدخان مع أنها آية حسية لا تدفع، وتجد لكلمة مبين دلالة هنا لا تكون لها في غير هذا الموضع، وهذا هو جلال البيان لأن السياق يكسب الكلمات معاني أو ظلالاً من المعاني تختلف ألوانها وأطيافها في كل خطوة يخطوها الكلام، لأن السياق الذي في آخر السطر ليس هو بعينه السياق الذي في أوله لأن السياق كما يغير الكلمات والتراكيب والدلالات هي أيضًا تبادله هذا التغيير، ومعناها هنا أنهم جاءهم رسول مبين

عن جوهر رسالته وحقيقتها وما تضمنه من آيات بينات هى أقوى فى برهانها وأوضح فى دليلها من آية الدخان أو أنه رسول من شأنه أنه مبين لأن كلمة مبين قد تكون من أبان المتعدى فيكون لها مفعول مقدر، وهو الرسالة وما تتضمنّه من آيات بينات، وقد تكون من أبان بمعنى بان أى ظهر وحينئذ لا يقدر لها مفعول ويكون محض المعنى أنه من شأنه الإبانة لأن الإبانة من شأن الرسل جميعًا، وهى كالتبليغ وكالأمانة وكالصدق والفطانة فليس ثمَّة رسول إلا وهو موصوف بهذه الخلال وفضل المعنى فى كلمة مبين هنا أنه أظهر آياته وبراهينه ودلائله إظهارًا كانت به أجل وأوفى من آية الدخان وهذا المعنى الزائد هنا والذى أخرجته آية الدخان ليس فى الزخرف ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾.

وقوله سبحانه ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ ربط هذه الجملة بكلمة مبين وما تستدعيه من معان مرتبطة بها من الأشياء المعينة على إدراك عمق كلمة ﴿ثُمَّ﴾ هنا لأنها ليست للترتيب وإنما هى للاستبعاد لأن ما بعدها لا يترتب على ما قبلها، وإنما يترتب عليه عكس ما بعدها، فإذا كانت إبانة الرسول عن البينات والأدلَّة الساطعات قد بلغت غاياتها فإن التولى عنه يكون أدخل فى باب الاستبعاد، لأن الموجب لذلك هو الإقبال عليه والانقياد له كما فعل السابقون، ومن تبعهم بإحسان. وثم هنا أخت ثم التى فى قوله تعالى ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] والتى فى قول الشاعر

يرى غمرات الموت ثم يخوضها

وكلمة ﴿تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ تَهدرُ بيانها حين نفسرها بالانصراف عنه عليه السلام، لأن التولى فيه قدر من التوتر والغضب والرفض. وأنهم لم يتريثوا ولم يتدبروا ولم يراجعوا، والتولى هنا هو من التولى المذكور فى قوله تعالى ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩] وكلمة ﴿عَنْهُ﴾ فيها معنى جيد جداً لأنها أفادت أنهم تولوا عنه يعنى عن شخصه، ولم تكن الرسالة وآياتها البينات

وبيـان الرســول عنهـا لم يكن هذا هو الذى تولَّوا عـنه، مع أنه هو الأصل، وهو الذى دُعُوا إليه وأن شــخص محمد صلوات الله وسلامـه عليه ليس له مَدخَل فى الرسالة، وإنما هو رسول كما قالت الآية وإذا جـاءكم رسول برسالة فالتولى يكون عن الرسالة وليس عن الرسول، وهذا يُفيد أن العلاقات والتنافس على الرياسة بين بطون قـريش هو الـذى صنع هذا التـولى. وليس لنقـص فى الذى دعـاهم إليـه صلوات الله وسلامه عليـه، وهذا يرجع بنا إلى قولهم ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] لأن الأمر هو أمر أشخاص. وهذا خطأ، وقول جل شأنه ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ وهذا أيضًا معنى عـجيب جداً لأنهم لم يتكلموا فى الذى جاءهم به وإنما تكلموا فى شخـصه عليه السلام، وكذبوه مع أنه عليه السلام لبث فيهم عمرًا من قبله، وكانوا مجمعين على صدقه وحكمته وخلقه وأمانته، وكلمة ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ سواء كانت صادرة من فـريقين كما يقول بعض المفسرين وأن بعض العرب قالوا إنه يعلمه فتى نصرانى فى ثقيف وفريق كان يصفه عليه السلام بالجنون أو أنهم قـالوا هذا وذاك يعنى قالوا جمعيًـا أو أكثرهم ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ فإن القول مـختلط لأن المعلَّم أى الـذى يـعلِّمه غيـره لا يـكـون معـلّما ولا يستـوعب ولا يحفظ إلا إذا كان له عـقل يضبط به ويحفظ به وكلمـة مجنون يعنى أنه يَخْنِقَ كـما يَخْنُقُ المجنون، وهذا لا عـقل له والمجنون لا يكون معـلَّما. والمعلم لا يكون مجنونًا، وهذا يعنى أن كلامهم دال بنـفسه على فساده ثم إن هذا من التخبط لأنه كـان فى قريش من هو أعلم بالنصرانية من غـلام ثقيف النصرانى كورقة بن نوفل وزيد بن نفيل، وغـيرهم ممن طلب الدين ودرس الكتب. وكانوا أقرب إلى رسول الله ﷺ، ولا يزال بعض أهل الزور يثيرون هذا فى زماننا.

قوله جل شأنه ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾.

أول مـا يتبـادر إلى ذهنى سؤال يقـول لماذا ابتـعدت هذه الآية عن قـولهم ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ والأصل أن تتبعها؟ وما السر فى الفصل بينهما بآية ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾.

والجواب والله أعلم أن قوله سبحانه ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾ ليس استجابة لقولهم ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ﴾، وإنما هو استجابة لدعاء رسول الله ﷺ وإرخاء العنان لهم، والجملة التى فصلت إنما بادرت لبيان أن ما زعموه من إيمانهم وضراعتهم إلى ربهم ليس لأنهم استيقنوا الدليلَ وآيةَ الدخان، لأن الرسول جاءهم بما هو أبين في الدليل وأظهر وأقطع من آية الدخان، وإنما هو وطأة العذاب ، والرغبة المُلحَّة فى أن ينكشف عنهم، ولا شأن لآية الدخان بقوة البرهان عندهم، القضية هى شدة الألم والرغبة فى الانفكاك منه، ولهذا المعنى الخفى الجليل قالت الآية التى معنا ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً﴾ فقيَّدَت كشف العذاب بالكشف القليل يعنى الذى يكسر حدَّة الألم، لأن حدة الألم هى الأصل، وأنهم عائدون إذا انكسرت حدة الألم وهذا قاطع فى أن الدخان من حيث هو آية وأنه كان بدعاء رسول الله ﷺ عليهم وأنه ينكشف بدعاء رسول الله ﷺ لهم كل ذلك لا مدخل له فى الأمر لأنهم رأوا من الآيات ما هو أعلى وأجلى ثم لجُّوا فى شكهم وخوضهم يلعبون.

ثم إن بناء الجملة له دلالات أولها التوكيد الداخل على ضمير المتكلم جل وتقدس ودلالة هذا على أن كشف العذاب لا يكون إلا بيد الذى أرسله عليكم لما كان منكم ما كان، وأن الذى تروغون من قبول دينه وتحادُّون رسوله هو وحده لا غيره القادر على كشفه ثم إن هذا وعد من الله وقد تحقق بيد الله وكان هذا وحده كافيًا لإقناعكم لأنه وعدكم بكشف العذاب الذى يغشى الناس والذى لا دخل لطاقات البشر فى كشفه فكشفه سبحانه وهذا المعنى هيأ لانتقال الكلام من الغيبة إلى الخطاب فى قوله سبحانه ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ لأن هذا من المعانى التى يخاطبون بها لقوة دلالتها على ما تنطوى عليه نفوسهم، مما لا يعلمه إلا الذى يعلم سرهم ونجواهم، وهذا الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قابله الانتقال من الخطاب فى قوله تعالى ﴿فَارْتَقِبْ﴾ إلى الغيبة فى قوله ﴿وَقَدْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ ومراجعة موطن الالتفات تكشف أسرارًا لأن الخطاب فى قوله ﴿فَارْتَقِبْ﴾ وعد له من الله بنصرته فناسب أن يخاطب به

والغيبة فى قوله ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ لذكر وصفه عليه السلام لأن الرسول لا يكون رسولا إلا إذا كانت تصاحبه الآية البيِّنة وأنه عليه السلام مبين عن حجته ودليل نبوته. والخطاب فى الآية التى سمعنا موطن دلالة رفيعة لأن الحق يخاطبهم كما قلت بما انطوت عليه نفوسهم، وجملة ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ مؤكدة بإن واسمية الجملة. لأن الخبر الذى تخبر عنه غريب لأنها تخبر عن أمر سيكون منهم وهو على خلاف دعواهم ونقض لقولهم ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ وهذا من الإعجاز وهو يشبه قوله تعالى فى سورة البقرة ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤] وآية ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ أدخل فى الإعجاز من آية البقرة لأنهم فى البقرة لن يفعلوا أى لن يأتوا بمثل القرآن لأن هذا لا يدخل فى طوق البشر. أما هنا فإن إيمانهم وعدم عودتهم، مما يدخل فى طوقهم، ولو استطاعوا أن يُخْلِفُوا هذا الوعد وأن ينقضوا هذا الخبر لفعلوا ولكنهم لم يفعلوا لأنهم يعلمون علم اليقين أنهم فى قبضة من قال لهم ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ وأنهم لا يستطيعون الخروج من هذه القبضة، ثم إن الآية الكريمة زادت فى التحدى وقالت ﴿قَلِيلًا﴾ يعنى أنكم لن تنتظروا كشف العذاب كله وإنما ستعودون إلى ما كنتم عليه وستكذِّبون قولكم إنا مؤمنون بكشف القليل من العذاب يعنى بكسر حدة العذاب الذى أضرعكم إلى الله. وكان القوم يفهمون من هذا البيان أدق وأخفى مما نفهم والتحدى بالأمر الإلهى فى الكتاب العزيز أسلوب شائع وهذا منه، وليس التحدى فقط بأن يأتوا بمثله، كما هو شائع فى درس الإعجاز نجد هذا فى مثل ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤] ﴿أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٩] ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ [الواقعة: ٦٥] ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠] ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا﴾ [الواقعة: ٨٦، ٨٧] وهذا كله من سورة الواقعة، وكل هذا من الكلام الصادر عن عز الألوهية وهذا ظاهر فى

آية ﴿إنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدونَ﴾ وعز الألوهية فيها يهاجمك من جهتين الأولى كشف العذاب الذى يغشى الناس وهذا ليس له إلا فاعل واحد هو الله، والثانى الإخبار بأنهم عائدون بعد كشف القليل منه وهذا لا يعلمه إلا من هو آخذ بناصيتهم ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِراطٍ﴾ [هود: ٥٦].

وقوله جل شأنه ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إنَّا مُنتَقِمونَ﴾ البطش أخذ الشيء بشدة وصولة قال تعالى فى وصف قوم هود، ﴿وَإذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣].

وقال سبحانه ﴿إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، والبطش فى الآية من بطش ربك وهو أهول البطش ثم إنه بطش انتقام وغضب وناهيك عن بطش هو بطش انتقام وغضب من القوى القاهر جل سبحانه ثم ناهيك عن وصف بطش الانتقام بأنه ﴿الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ وهذا كله يجب أن يراعى لأنه هو الذى يفتح لنا باب سر موقعها فى موقعها هذا وكلمة ﴿يَوْمَ﴾ ظرف للانتقام وليست معمولة لقوله ﴿إنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ لأن ما بعد إنَّ لا يعمل فيما قبلها وإنما العامل محذوف يدل عليه ﴿مُنتَقِمُونَ﴾، وأصل الكلام إنا منتقمون يوم البطشة الكبرى إنا منتقمون، وهكذا يوفّر تقدير العامل هذا القدر من التوكيد للمعنى. وقالوا هو يوم بدر وقالوا هو يوم القيامة ووجه القائلين بأنه يوم القيامة هو قوة دلالة العذاب فى هذه البطشة لأن ذلك لا يكون إلا فى الآخرة ومهما بلغ الأخذ يوم بدر فإنه لم يبلغ أن يوصف بأنه البطشة الكبرى، ثم إن هذا الوصف قريب من أوصاف يوم القيامة مثل الطامة والصّاخة والقارعة والحاقة وغير ذلك من الكلام الدال على أهوال هذا اليوم وكل هذا ظاهر والذى يجب أن يكون ظاهرا أيضًا هو مراجعة الآيات من قوله ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ ومتابعة ما فيها من غضب جرى من هذا الاستفهام الإنكارى وأن

أهوال الدخان وظهور آياته الدالة لم تكن بأقوى مما جاءهم به الرسول المبين ومع ذلك تولوا عنه إلى آخر ما تستشفه مما ترى فيه الغضب يتصاعد ويشتد بمقدار لجاجتهم في الباطل وإصرارهم عليه وكذبهم في مواعيدهم لما قالوا ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾، وأنهم يعرفون ربهم ويخاطبونه سبحانه بهذا الكذب وهذا الخداع وهذه المراوغة. تأمل هذا وحاول أن تتغلغل فيه لتدرك الفرق بين الغضب الذى أفضى إلى التهديد فى قوله ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ﴾ ثم ارتفاع درجة اللجاجة والفجور والكذب بعدما تغشاهم العذاب وتغوثوا وتضوّروا وقالوا ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ ﴾، ثم يأتى رب السموات والأرض ويقول فى مواجهتهم ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ تأمل هذا لأن التأمل هو الذى يهدى إلى ما أريده من أن موقع ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ ﴾ ومجيئه فى عقب الآيات السابقة يدل دلالة ظاهرة على غضب أكثر مما تستخرجه من الآيات لأن موقع الجارة من الجارة يدل على شىء فيها لم يكن ليدل عليها لفظها لو كانت بمعزل عن هذه الجارة وكما أن مقدار الغضب والتهديد والوعيد فى ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ﴾ يشير إلى زيادة من موجبات الغضب فى الآيات السابقة كذلك موجبات الغضب فى الآيات السابقة تفرغ على البطشة الكبرى الكثير من دلالاتها. الخلاصة أن الجمل تتساقى معانيها فتسقى الأولى الثانية وتسقى الثانية الأولى وهذه هى قيمة دراسة الجمل غير معزول بعضها عن بعض.

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾.

الواو التى فى أول هذه الآيات ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ ﴾ عطفت هذه الآيات وما بعدها إلى آخر قصة بنى إسرائيل على قوله سبحانه ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩)

﴿فارْتَقِبْ يوْمَ تأْتِي السَّمَاءُ﴾ إلى آخر ما حكاه جل وعلا عن ابتلاء قريش بالدخان وما كان منهم، وهذا من باب عطف المعنى على المعنى أو من باب عطف القصة على القصة وهذا ما أراه وإن كان بعض علمائنا رأى أنها واو حال أو أنها عاطفة على قوله سبحانه ﴿إنَّا مُنتَقِمُونَ﴾.

وقوله جل شأنه ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ يقول الزمخشرى (ومعنى الفتنة أنه أمهلهم ووسع عليهم فى الرزق فكان ذلك سببًا فى ارتكابهم المعاصى واقترافهم الآثام)، وهذا جيد ويقول الطاهر (جعل الله قصة قوم فرعون مع موسى عليه السلام مثلاً لحال المشركين مع النبى ﷺ والمؤمنين به وجعل ما حلّ بهم إنذارا بما سيحل بالمشركين من القحط والبطشة، مع تقريب حصول ذلك وإمكانه ويسره) وهذا أيضًا جيد.

ويحتمل الكلام وجها آخر وأراه أقرب، وهو ما يفهم من جملة ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ وذلك لأن ذكر افتتان قوم فرعون فى صدر ذكر المناسب من قصة موسى عليه السلام بعد ذكر افتتان قريش بالدخان وما كان منه بسبب يعنى أن الله سبحانه افتتن قوم فرعون افتتانًا كهذا الافتتان، وكلمة ﴿قَبْلَهُمْ﴾ تعنى أن الافتتان الذى كان لقوم فرعون كان أقرب إلى ما ذكر من افتتان قريش. ولم تبدأ قصة موسى عليه السلام فى أى موضع من الكتاب بمثل هذه الجملة ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ وإنما كانت تذكر بمثل ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ [الزخرف: ٤٦] وقريب من هذه الجملة قوله تعالى فى سورة العنكبوت، ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ والافتتان فى العنكبوت واقع على كل أمم الأنبياء من قبلهم والافتتان هنا واقع على قوم فرعون، . وقوم فرعون غير آل فرعون، لأن القوم شامل لكل قبط مصر زمن فرعون؛ وآل فرعون هم المقربون يعنى هم عصابة الحكم التى تراها عينك الآن وهذا يعنى أن الافتتان لم يكن بالثروة كما قال الزمخشرى رضى الله عنه لأن الثروة تكون لآل فرعون وليست لقوم فرعون هكذا كان وهكذا هو كائن، وهذا

يعنى أيضًا أن الافتتان كان شيئًا عاماً أحاط بكل قبط مصر زمن فرعون ويلاحظ أن كلمة قبطى معناها مسيحى كما يقال الآن والأصل أن معناها أهل مصر.
والذى أصاب أهل مصر قبل قريش والذى يشبه ما أصاب قريشًا هو ما ذكرته سورة الزخرف التى لا نشك فى أن الدخان امتداد لها. وذلك قوله سبحانه ﴿ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٨-٥٠]، وقد تكررت قصة قوم فرعون هذه فى آيات كثيرة وأظهرها ما جاء فى سورة الأعراف فقد فسرت العذاب بالجراد والقمل والضفادع والدم، والشبه واضح جداً بين ما كان لقريش فى الدخان وما كان لقوم فرعون فى الزخرف ويبدأ الشبه من رأس الحكايتين ففى الزخرف ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ ورأس آية قريش ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ ويضحكون ويلعبون أخوان وقوله فى الزخرف فى شأن آل فرعون ﴿ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ ﴾ قريب جداً من قوله فى دخان قريش ﴿ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، وقوله سبحانه فى شأن آل فرعون ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٤٩] قريب جداً من قول قريش ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ وقوله سبحانه فى الزخرف ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٠] قريب جداً من قوله سبحانه ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ وقوله جل شأنه فى الزخرف ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٥] قريب من قوله فى الدخان ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾.

وحين نقول إن الدخان امتداد للزخرف لا نقول كلامًا غريبًا ولا جديداً لأن هذا هو معنى من معانى أسرار الترتيب التوقيفى فى سور القرآن فى المصحف وإنما أقوله بعد أن أراه رأى العين وإذا قلت لك إن آل عمران امتداد للبقرة وأن النساء امتداد لآل عمران فأنا أقول بناء على قاعدة عامة ولم أقل

لأننى تبينته وفرق كبير بين من يقول بناء على قاعدة عامة ومن يقول لأنه تبين ورأى؛ وفرق بين أن أقول ما أتبين وأن أقول ما تبيَّنَه غيرى وفرق كبير بين أن أقول الرأى لأننى رأيته أو أقول الرأى الذى رآه غيرى، هذه فروق فى طعوم المعرفة وطوبى لمن ذاقُوا. وأجد صعوبة شديدة جداً فى تبين ما بين السور الطوال ويفتح لى الباب قليلاً فى مثل آل حم ولكن بعد التحليل الكامل ولو سألتنى الآن عن ما بين الجاثية والدخان لالتبس على الأمر لأنى لم أقرأ الجاثية القراءة التى تكشف هذا الامتداد، وقصار السور آخر المصحف تعلمنا وجه الترتيب والامتداد فلا شك أن ألهاكم التكاثر امتداد للقارعة والعصر امتداد للتكاثر ولإيلاف قريش امتداد للفيل وهكذا، وقد علمنا علماؤنا أننا نقيس ما لم نعلم على ما علمنا وأنه ليس من المقبول أن تجد هذا الامتداد بين السورتين ثم تحكم بافتقاده إذا خفى عليك فى غيرهما لأن الترتيب مادام ثبت أنه لسر فى سورتين فلابد أن يكون كذلك أبدًا، أما أن يكون لسر فى واحدة ثم لا يكون لسر فى أخرى فهذا باطل لأنه ليس فى جملة النظم ما يدل تاره ولا يدل أخرى هكذا قال علماؤنا.

وقد اكتفت سورة الدخان بجملة ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ لأنها لا محالة تحضر قصة افتتانهم التى مضت فى الزخرف والتى زلزلت فرعون فقام وخطب فى قومه واستخفهم فأطاعوه، على حد ما بينا هناك. وبعد هذه الجملة الجاذبة لهذا القسم من الزخرف بدأت القصة فى الدخان من قوله سبحانه فى الجملة التى تلى هذه وهى قوله جل شأنه ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ لأن هذا هو الذى تبدأ بمثله قصة موسى عليه السلام وهذا هو أولها وهذا ظاهر، وإذا راجعت قصة افتتان قوم فرعون بالآيات المُفَصَّلات وإرسال الله عليهم الجراد والقمل والضفادع والدم وجدتها فى الكتاب العزيز نهاية فرعون وقومه، ونهاية فرعون التى هى الغرق هى خروج موسى وبنى إسرائيل من مصر وتجد هذا فى الزخرف فى قوله تعالى فى آخر نداء فرعون فى قومه الذى كان فى أثر هذه الحادثة ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤)

فلمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كما تجده فى الأعراف فى قوله تعالى ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٥] وفى التوراة - مع تحريفها- ما يشير إلى ذلك وأن بنى إسرائيل خرجوا من مصر فى أعقاب هذا الابتلاء الذى كان يصيب القبط ولا يصيب بنى إسرائيل مع أنهم كانوا يعيشون فيهم والخلاصة التى أريد أن أنتهى إليها هى مسألة سهلة جداً وهى أن جملة ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ هى نهاية قصة قوم فرعون وجملة ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ هى بداية قصة موسى عليه السلام مع فرعون وأن عطف الثانية على الأولى يعنى عطف أول القصة على نهايتها وأن هاتين الجملتين ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان: ١٧] هما طرفا الحلقة وهذا الاقتران بين طرفى القصة مؤذن بأن الكلام بعد ذلك يطوى الأحداث والأيام والأحوال طياً ليصل إلى النهاية التى هى عند قوله سبحانه: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الدخان: ٣٣] وتتلخص الحكاية فى هذه الجمل الأربع ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ والذى بعد ذلك دعاء ربه أن هولاء قوم مجرمون وهو شقيق دعاء سيدنا المصطفى الذى جاء فى آخر الزخرف ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف:٨٨]

وكل ذلك فيه من الأسرار والإشارات والدلالات ما لا يحاط به وإنما نقول ما يتيسر لنا. وأول ما يبدو لنا هو كلمة ﴿جَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ لأنها تشير إلى نظيرتها فى الزخرف ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف:٢٩] وتكرار الكلمات والمعانى دال دلالة أكيدة على هذا الربط، وخصوصًا قوله قبل آية الدخان: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ لأن قوله فى الزخرف. ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ من الافتتان والنعمة التى هيأتهم لرفض الرسول المبين وإذا كنت أرجح أن افتتان قوم فرعون فى

سورة الدخان هو أخو افتتان قريش بالدخان فإن هذا لا يعنى غسل الكلمات من دلالاتها التى اعتد الزمخشرى بها ولم يذكر غيرها، ثم إن وصف الكليم صلوات الله وسلامه عليه بأنه رسول كريم وأن الله جلت حكمته لم يرسل رسولاً إلا وهو من أكرم قومه حسبًا ونسبًا وخلقًا، ومن سراة قومه وكرامهم فإنه باعث فى نفوس من يستقبلون هذا القرآن من قريش والعرب أن هذا يوشك أن يكون وصفًا لسيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه لأنهم لم يشكوا فى أنه عليه السلام أكرمهم حسبًا ونسبًا.

وقوله سبحانه: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ قالوا إن كلمة: ﴿أَنْ﴾ يمكن أن تكون مفسرة لأن كلمة الرسول تقتضى أن يكون جاء برسالة وهذا تفسيرها، والمراد بعباد الله بنو إسرائيل وهذا كما فى قوله سبحانه: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧] وقد يكون المراد أن أدوا إلى يا عباد الله حق الله عليكم فى قبول رسالة نبيه، واللفظ يحتمل وإن كان السياق يرجح المعنى الأول ولكن من عادة علمائنا أن يذكروا من المعانى كل ما يحتمله اللفظ وهذا حق كلام الله عليهم، ويمكن أن تكون كلمة «أن» مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف والمراد أنه أى الحال والشأن أدوا إلى عباد الله، على المعنى الذى ذكرناه ويكون اعتبارها مخففة من الثقيلة مفيدًا المعنى الذى يفيده ضمير الشأن وهو أنه لا يؤتى به إلا فى كلام له خطر وبال وذلك لأنه يبنى الكلام معه على الإيضاح بعد الإبهام فيقع المعنى فى النفس بعد الاستشراف إليه والتوطئة له. وهذا غير وقوع المعنى فى النفس بغتة غفلاً ولهذا قالوا إن ضمير الشأن يورث الكلام فخامة ونبلاً وكلمة ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تأكيد للأمر فى قوله: ﴿أَدُّوا﴾ لأنها بيان لعلة الأمر، وكلمة الرسول تعنى تأكيد معنى الأمر وأن هذا هو أمر ربه وأنه رسول أمين ينقل لكم ما أمره به ونجد هذا المعنى فى قوله: ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ وأنهم عباد الله وليسوا عبيدكم كما قال

موسى لفرعون: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وأنا رسول الله وأطلب عبـاد الله، ومن كان له عقل فليـدرك هذه الحقيقـة رسول الله يطلب عباد الـله بأمر من الله، ولا يجوز معـاندته ومعارضتـه لأنه مرسل من الذى أمْرُه الأمـر فاحذروه، وهنا لمحة خـفية تكشـفها أحداث الدخـان وهى القوم الذين آمنوا فى مكة وحبسـهم قريش ومنعتهم من الهجرة وهم المستـضعفون الذين كان رسول الله ﷺ يرفع يديه إلى ربه فى صـلاة الصبح ويدعو الله أن ينجيـهم، وهذا من أهم الروابط بين أحداث الدخان ومـا جاء منها من قـصة موسى عليه السلام. وقصة موسى هنا لم تذكر الآيات التسع ولا حوار موسى مع فرعـون ولا دعاء السـحرة ولا شـيئًـا من ذلك وإنما تنتقى مـا يذوب فى سياقهـا ويذوب سياقها فيـه، ولو حاولت ترتيب الأحداث على الآيات لقلت إن قوله عليه السلام: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ مع أننا نقول بأن ﴿أَنْ﴾ يمكن أن تكون تفسيرية جاء بعد مدة من قوله سبحانه: ﴿جَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ لأن مـقتـضى أن يكون رسـولاً أن تكون له آية، وقد قـال مـوسى عليه السـلام لفـرعون: ﴿جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ فقـال له فـرعون: ﴿فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ [الأعراف: ١٠٦- ١٠٨] إلى آخره ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ٣٨] وقالوا لفـرعون ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ [الأعراف: ١١٣] وقـال لهم فرعـون نعم ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٤] وهذه الجملة الأخـيرة دالة على أن فرعون اسـتشعر خطر موسـى عليه السالم لأن الذين جاء بهم ليـبطلوا حجة موسى لما طلبـوا الأجر زادهم زيادة هى أفضل مـن الأجر وهى أنهم يكونون من المقربين ولو كان معتقـدًا أنه ساحر كما قال لما زاد هذه الزيادة، ثم إن هذا الموقف من السحـرة يعنى أنهم احتشدوا بكل مـا لديهم من معرفة بـالسحر، ويعنى أيضًا أنهم صاحـوا وهتفوا بولائهم لفرعون، وقالوا بـعزة فرعون ﴿إِنَّا

لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] وكل هذه مقدمات رائعة لقوله بعد ذلك ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠] لأنهم انقلبوا انقلابًا كاملاً من الطمع في أجر فرعون والقرب من سدة حكمه التي كانت ولا تزال ربيعًا خصبًا وتربحا غير ميمون لمن حولها من أهل الخساسة والنذالة، أقول انقلب الأمر رأسًا على عقب ولم يكن ذلك إلا لقوة اليقين بما جاء به موسى عليه السلام كل هذا طوى وأكثر منه بين قوله: ﴿جَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ وقوله: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ بنيت بناء أختها الأولى فافتتحت بأن التي يصح أن تكون مفسّرة أو مخففة وقد سلكت الجمل بعد ذلك مسلكًا آخر، وهذا يعني تقاربًا بين هاتين الجملتين وأنه عليه السلام لما دعاهم إلى ما أمره الله به أن يرسلوا معه بني إسرائيل، رأى منهم استعلاء واستكبارا وغطرسة وإذا أردنا أن نرجع بهذا الاستعلاء فيما رواه الكتاب فسنجد مثل ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] و﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٣٨] ومثل: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١] ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨] وكل ما قاله فرعون وملؤه في رد دعوة موسى عليه السلام هو من باب الاستعلاء على الله لأنه استعلاء على رسول الله ورفض للسلطان المبين وهو المعجزة التي أيد الله بها موسى عليه السلام، وهي الآية الكبرى التي أرى الله فرعون إياها ويلاحظ أن الجملتين المتقاربتين في الحذو والبناء جاءت واحدة أمرا والأخرى نهيا، ﴿أَنْ أَدُّوا﴾، ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا﴾ ومن الاستعلاء على الله أن يرفضوا إرسال عباده الذين هم بنو إسرائيل وأن يصروا على استعبادهم وهذا من أشد مظاهر هذا الاستعلاء، وجملة ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ واقعة موقعها مما قبلها كموقع ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ من أختها التي سبقتها، ثم إنها وإن رجعت بمعناها إلى أختها التي سبقتها من حيث

إن الرسول الأمين لا يكون رسولاً إلا بالحجة التى هى السلطان المبين فإن هذ
الأخيرة صرحت بما هو متضمن هناك لتتلاءم مع تطور الحدث الذى نبهت إلي
جملة ﴿وأن لاَّ تعلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ لأن مجيء هذا عقب ﴿أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ يعن
أن القوم حاربوا ربهم وطغوا وبغوا فذكروا بالسلطان المبين الذى لا سلطان فوق
سلطانه ولا برهان فوق برهانه، ولا شك أن تسمية الآيات البينات هنا سلطا
مبينا له مزيد اختصاص بعلوهم واستكبارهم على ربهم، ولاحظ مناسب
﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ لما طلب أن يؤدوا إليه عباد الله، وما فى كلمة ﴿أَدُّوا﴾ م
معنى الأداء الواجب كما يؤدى الذى عليه الحق ما عليه من حق، وكما يؤد
الذى أُتُمِنَ أمانته وأنهم كانوا أعنى عباد الله عندكم أمانة والواجب آداؤهم ك
تؤدى الأمانات، ثم لاحظ المناسبة بين الردع الذى فى قوله عليه السلام ﴿وأ
لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ والذى فى فاصلة ﴿ آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

وقوله جل شأنه: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ اختلف نسقها ع
السابقتين، وأبانت عن أحداث أخرى دخلت مدخلا آخر وأنه قد مض
ما مضى من قوله: ﴿أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ ثم قوله: ﴿وأن لاَّ تَعْلُوا عَلَ
اللَّهِ﴾ لأن هذه الجملة تعنى أن موسى عليه السلام هدد بالقتل. وهى قري
جداً من أختها فى غافر: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَاف
أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُ
مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٦، ٢٧] وأكثر الجملتين بلفظ
واحد، وهو ﴿عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ وهو رأس الجملة، ولاشك فى أ
﴿عُذْت بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ التى فى الدخان تستصحب شيئًا من أطياف أختها الت
فى غافر مما يناسب قوله في الدخان ﴿وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ وهو فى غا
﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ فهذا المتكبر الذى هناك هو الذى يع
على الله هنا، وقول فرعون هناك: ﴿أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ هو الرجم هنا لأن أص

الرجم الرمى بالرجام أى الحجـارة ويستعار للقتل بهـذا الرجم وهو شر القتل وقد أعاذه الله فى غافـر بقول مؤمن آل فرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] ولست أدرى هل كـانت هذه الجملة وأختهـا فى غافر من الكلمات الواصفة لأحداث موسى القريبة من الأخيرة فى مصر وإن كان يفهم من الآيات أنه قـال هذا وهو قريب من حـادثة الخـروج بقومـه لأنه فى هذه الآيات التى عرض فيها أحداثه فى مصر عـرضًا مختصرًا بقى له حدث واحد وهو ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ ثم إن المقابـل لجملة ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ هو حكاية مـؤمن آل فرعون الذى بقـى زمانا يحاور قـومه، وتشـير الآيات فى آخرها إلى أن الابتلاء بالجراد والقمـل والضفادع لم يكن بعيدًا عن نهاية حكاية الرجل المؤمن، تجد ذلك فى قوله تعالى. ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥] واللفـظ يحتمل أن يكون من سـوء العذاب الذى حـاق بهم هو الآيات المفـصلات من الطوفـان والجراد والقمل والضفادع والدم.

وراجع الترتيب من أول قوله، ﴿أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ فرفضـوا وتغطرسوا وسفهـوا. فقال ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ فهدَّدُوه فقـال لا ترجمون. ثم قال هذه الجملة ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ وهذه الجملة لو لم تكن آخر جملة خاطب بها آل فرعون أو فـرعون وملأه فى هذه السورة لكان معناها دالا على ذلك لأنها آخر ما يقوله مـبلغ لمن يبلغهم، والقسم الأول من الجملة الذى هو أداة الشرط والشرط فيـه أنهم لم يؤمنوا له ولن يؤمنوا له وأن مطلبه ليس هو إيمانهم لأن هذا قـد فرغ من اليأس منه ونفض يده منه وإنما هو ألا يتـعرضوا له وكأنه يطلب منهم أن ينسوه ويتـركـوه وكأنه لم يكن منه دعوة لـهـم وهـو لا يريد أن يكونوا له أو عليه أى اتركونى كفافا لا على ولاليا، وهذا أشد من قـوله عليـه السلام فى شـأن قريش فى آخـر الزخـرف: ﴿إِنَّ هَـٰؤُلَاءِ قَوْمٌ

لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩] لأن قول موسى عليه السلام ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾ يعنى أنه كان مطاردًا ومُـهددًا بالقتل وأن كلاب فـرعون القديم كانت تتـرصده مثل كلاب أى فرعون؛ وموسى عليه السلام كان يعلم أنهم لن يصلوا إليه لأن الله سبحانه لما كلفه بالذهاب إلى فرعون هو وهارون عليهما السلام قال لهما ﴿لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وهذه حراسة لا يختـرقها فرعون ولا كلابه، وإنما كان موسى عليه السلام يريد منهم المهادنة والموادعة وما داموا لم يؤمنوا له فليـذهب كل إلى حـال سبـيله وكـأن لم يكن شيء، ولم يكن لموسى ظهير من الـقوم الذين يحادُّونه عليه السلام لأنه كـان من بنى إسرائيل عليه السلام وهؤلاء كان يتـعبدهم فرعون وقد أكرم الله نبـيه وكليمه فلم يقع فى هذه العـبودية فهـيأ له الأسـباب ليـربى فى بيت فرعـون إلى آخره، ولم يطلب رسول الله ﷺ مثل ذلك من قريش لأنه كـان من أعزهم بيتا وأقواهم عشيرة، وكان آباؤه من ولد عبـد المطلب هم الغرة التى فى وجه قريش كلها، وهم العرانين وهم الذُّرى وجملة ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي﴾ مكونة من إن الشرطية التى يؤتى بهـا فى الشـرط القلـيل النادر، والشـرط هنا هو «لم تؤمنوا لى»، وعدى فعل الإيمان باللام لأنه متضمن معنى الركون والميل. ولم تؤمنوا يعنى أنهم أصـروا على الرفض وكـأنه قـال وإن رفـضتم أو وإن عـارضـتم، وهم رافضـون قطعًا يعنى أن إن دخلت على الشـرط المقطوع به وهو لم تؤمنوا لى وذلك للإشارة إلى أن هذا المقطوع به الأصل ألا يكون إلا على سبيل الفرض لاشتمال المقام على اقتلاعه من أصله كما يقول علماؤنا واقتلاع لم تؤمنوا لى إثبات وتأكيد تؤمنون لى. وهذا موقع دقيق من مواقع إن الشرطية.

وقوله جل شأنه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ كأن الجملة التى قبلها زرعتها وذلك لأن قطع الحديث معهم والـتوجه إلى ربه ليس لإخباره بمضمون الجملة لأن الله لا يخفى عليه شيء ولـيس لإخباره بأن موسى يئس لأنه أعلم بحال موسى من مـوسى وإنما هو التحسر والتأسف وإعلان خـيبة المسعى وأن

آخر ما طلبته من هؤلاء هو أن يظلوا على ما هم عليه ولا يتبعونى ولكن فقط يكفون أذاهم عنى ثم هم لم يستجيبوا لذلك وأقطع بأن قول موسى فى الجملة السابقة «**وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون**» كان بعد الآيات المُفَصَّلات وبعد ما أرسل الله عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وبعد ما قالوا له ﴿**يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ**﴾ وبعدما ما دعا وبعدما كشف الله عنهم العذاب وبعد ما نكثوا وبعد ما قال فرعون فى ندائه لهم ما قال وكان يحرض على موسى عليه السلام ويَسْفَهُ عليه ويضع نفسه بإذائه ويقول ﴿**أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ**﴾وهذا فيه إحساس قوى بالمنافسة ولا يبعد أن يتحرش بموسى عليه السلام كلب من كلاب فرعون وكلاب فرعون فى كل زمان يتحرشون بمن ينافسه ويلجؤون إلى القتل والتصفية الجسدية والزمان يشبه بعضه بعضًا، والكلاب يشبه بعضها بعضًا ولا أظن أن موسى عليه السلام ينفض يده منهم إلا بعد كل هذه الأحداث لأن من رأى الطوفان والضفادع ثم رأى دعاء موسى ثم انكشافها ثم يبقى على عدائه لموسى لا أمل فيه، وهذا هو سر الانتقال من خطابهم إلى الانتقال إلى شكواهم إلى ربهم، وهذه الفاء الداخلة على الجملة فيها معنى أنه سارع فى ذلك ولم تأت هذه الفاء فى الجمل السابقة لأنه كان يتريث حتى يواجه أحداثا وأحوالاً وهذه الفاء لا ترتب جملة ﴿**فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ**﴾ على جملة ﴿**وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ**﴾ وإنما هذه ترتب الجملة على كل الجمل التى سبقتها من أول قوله: ﴿**أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ**﴾ وهذا من باب ترتيب المعانى على المعانى وهو شطر من عطف المعنى أو القصة وهذه الجمل التى هى خلاصة حديث موسى عليه السلام لفرعون وملئه فى هذه السورة مؤسسة على طلب بنى إسرائيل ﴿**أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ**﴾ وليس فيها شىء من دعوة فرعون وقومه إلى الله كما جاء فى مثل قوله تعالى: ﴿**وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى**﴾ [النازعات: ١٩]

ويبدو أنه كان قد فرغ من اليأس من هداية فرعون وملئه وجعل همه كله فى تخليص بنى أبيه من ذل واستعباد فرعون وقد كان يعيش فيهم ويرى

ويسمع وكان ينصر رجـال قومه ويشعر فى أعماقه أن قـوم فرعون هـم أعداؤه الذين استـعبدوا قومــه كما يدل على ذلك قـوله تعالى. ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ [القصـص: ١٥] وكان ذلك قبل النـبوة ثم إن موسى عليه السـلام لم يخطط لتخليص بنى إسرائيل من استعـباد فرعون لهم وليس بطلاً قومياً وإنما هو نبى الله ورسـوله، كلفه ربه بهذا، نعم كان يعرف عُتو فـرعون وصلف فرعون وطغيـانه وإفراطه فى الاستبداد والطغـيان والقتل والقمـع وقد عبـر القرآن عن ذلك فى سـواطن كثـيرة كـما فى قوله تـعالى: ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ [طه: ٤٣- ٤٥] وكان من أجل نعم الله التى يمن بها على بنى إسرائيل أنه نجاهم من فـرعون يسومونهم سوء العذاب ويذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم.

قلت إن موسى عـليه السلام يئس من إيـمان فرعـون فجعل هـمه كله فى تخـليص بنى إسرائيل من فرعون وهو الآن يئس أيـضًا من ذلك وخاصة بعد مـا أراهم الله آياته وكـشف عنهم العـذاب ونكثـوا ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ والمجرم اسم فاعل من أجرم أى قطع والمجرمون هم الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل من البر والصـدق والإذعان للحق والانقياد لما يقوم به الدليل وينهضُ به البرهان وإقامة العدل والمرحمة بين الناس وقوله: ﴿ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ بيان لقوله﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ والبيان بعد الإبهام تأكيد وتحقيق وموسى عليه السلام يخاطب ربه وهو بكل شىء عليم ولكن الله سبحانه أجرى كلامه علـى ما جرت به عادة خلقه والذى يـعنينى من هذا هو ما أجده وراء العبارة مما قـام فى نفس موسى عليـه السـلام وأنـه ما تـرك سبيـلاً من سبل الهدى إلا طرقه معهم، ولكن طغيان فرعون والعصابة التى حوله والتى لا تزال تفسد فى الأرض ولا تدعو إلى رشد ولا تدعوه إلى رشد ثم قـومه المساكيـن الذين

لا يزالـــون مساكين تقودهم عقلية غوغـائية انتفاعية كل ذلك عانى منه موسى ما عانا حتى وقف على الشاطئ وقال: ﴿أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ ثم إن عبارة موسى ليس فيـها فقط البيان بعد الإبـهام الدال على حرقته من طغيـان وغباء فرعون الذى أَلَّهَهُ كلاب حراسته وإنما أيضًا فيها ما بثه فساده فى قاع قومه لأنه على رأس الهرم وكل ما فيه من غباء وغطـرسة يسرى إلى القاع، ثم فيها هذا التوكيد ثـم اسم الإشارة الدال على تمييز المشار إليه أكـمل تمييز وهذا لا يكون فى الكلام إلا لشدة الـعناية بالخبر ثم كلمـة قوم وأنه عليـه السلام لم يقل إن هؤلاء مجرمون وإنما أضاف كلمة قوم لتـفيد معنى أن الإجرام صار من قوامهم ومن هويتهم وأنهم قوم قاموا على ذلك وطبعـوا عليه وقوله سبحانه: ﴿فَأَسْر بِعِبَادِي لَيْـلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُـونَ﴾ الفـاء التـى فى قوله: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾ ترتب ما بعـدها على ما قبلهـا وليس بينهما حـذف لأن قول موسى هذا جـاء بعده الخـروج، وهذا بخلاف الفاء التى فى ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ لأنه لم يدع ربه إلا بعد ما تمهل وانتظر مـوقفهم مما دعـاهم إليه وهو أن يتركـوه كفافـا لا عليه ولا له وليمضوا على طريقهم الذى كانوا علـيه وقد كف نفسه عن دعوتهم، ولكنهم أصروا على ألا يعتزلوه، وقد سبق ذلك قوله لهم: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ فـأشار إلى أنه يلـوذ بالذى هو ربه وربهم، وأن هذا الذى يلوذ إليـه هو الرب الحـــقـيـــقى وليس الرب الـكذاب الذى يقـــول لهم: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وأن لياذه به يعنى الحمـاية والرعاية والمنعة وهو ربهم وقادر على أن يكفهم عنه وأن يمنعه منهم

وكلمة ﴿لَيْلاً﴾ فى قوله: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلاً﴾ والسرى هو السـير ليلاً لتأكيد معنى أن يكـون خروجكم بالليل لأن السرى قد يظن أن المراد به البكور فى الخروج كما هو معتاد. وكلمة بعبـادى فيها ما يطمئن موسى عليه السلام لأن إضافتهم إليه سبحانه تعنى أنه مـانعهم وحارسهم وحاميهم من عدوهم،

وجملة ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ تأكيد للمعنى قبلها وهو الأمر بالسُّرى ليلاً وذلك ليحتاطوا وينفذوا الأمر بدقة لأن إنفاذ هذا الأمر فيه مشقات وصعوبات قد تغرى بالترخُّص. وذلك لأن القوم كانوا قد تكاثر عددهم، ونيَّفوا على الستمائة ألف خلا خدمهم وحشمهم وأنعامهم وخرافهم وأبقارهم، وخروج هذا لعدد الضخم من المدينة ليلاً ومعهم هذه الحيوانات التى يزعجها مثل هذا الخروج فتعلو أصوات أبقارهم وخرافهم إلى آخره كل هذا مما يجعل الخروج ليلاً حتى لا يدركهم القوم إلا عند البحر الذى لهم فيه آية أقول كل هذا مما يجب الاحتياط فيه وهذا هو سر التوكيد واسمية الجملة ومجىء الخبر على اسم المفعول لأن الفاعل معروف وهو فاعل واحد وهو فرعون وقومه فلن يتبعهم سواه.

وقد سبق الأمر بالسُّرى هنا أمران بالسرى، فى طه والشعراء، وأول ما نزل فى هذا قوله تعالى فى سورة طه ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧] ولاحظ أن الأولية ظاهرة فيها وكأنها تشرح لموسى عليه السلام ضرب البحر ثم نزل قوله تعالى فى سورة الشعراء ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢] وهى أقرب إلى آية الدخان وقد ذكرت التوراة أن بنى إسرائيل دخلوا مصر زمن يوسف عليه السلام وكانوا سبعين وكلهم من ولد إسرائيل يعقوب عليه السلام وظلوا فى مصر إلى زمن موسى عليه السلام وبينهما أربعمائة وخمسون سنة وخرجوا وهم نيف وستمائة ألف، ولابد أن يكون الله سبحانه قد أحدث فى المصريين شيئًا أذهلهم عن ذلك، وقد نقل البقاعى صفحات كثيرة من التوراة فى تفسير الآية ومما جاء فيها وهو غريب أن فرعون وهامان طلبا من موسى عليه السلام أن يخرج بقومه لأنهم تشاءموا من وجودهم بينهم بعد ما أرسل الله عليهم الطوفان والجراد

والقمل وفى التوراة تصوير مسع لأحوال هذا الابتلاء فى بيوت المصريين وكيف كانت بيوت بنى إسرائيل خالية منه، ولو أن فرعون طلب من موسى أن يخرج بقومه لما كان هناك وجه لاتباعهم ومطاردتهم، ولكان فرعون أجاب أمر ربه وأرسل معهم بنى إسرائيل. ومن أطرف ما فى التوراة فى هذا الشأن أن الله قال لموسى مُر قومك فى ليلة الخروج أن يستعيروا من جيرانهم المصريين حليهم وذهبهم وأوانيهم النفيسة وأن الله سيرقق قلوب المصريين عليهم فيعيرونهم ما عندهم من حُلىَ ثم يخرج قومك بما استعاروا، والطريف فى هذا الخبر الذى هو من كذب الأحبار الذين مثلهم كمثل الحمار أن هذا الإله الذى يعبدون إله متآمر معهم وأنه سيرقق قلوب المصريين ليعطوهم ذهبهم وحليهم ليخرجوا به يعنى رئيس عصابتهم ومثل هذا ليس مستغربا فى عقائدهم لأنهم يستحلون أموال ودماء وأعراض كل من ليس يهوديا ولعنهم الله لعنةً ولعن من والاهم لعنتين، ومن المفارقات التاريخية العجيبة أنهم الآن يواليهم الفراعين، وقوله سبحانه: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ تأمل العلاقة بين هذه الجملة والتى قبلها تجد أحداثًا طويت بين الأمر بالسعى وترك البحر رهوًا يعنى على حالته التى اجتازوه عليها وعلى سعة الطريق فيه ولو حاولت التقدير لقلت فسرى موسى بعباد الله ثم اعترضهم البحر فأوحى الله إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر فانفلق البحر ورأوا فيه طريقًا يبسًا فسلكوه وأن موسى همَّ أن يضرب البحر بعصاه مرة ثانية ليرجع إلى الحالة التى كان عليها ويكون حاجزًا بينهم وبين فرعون وجنده فأمره الله سبحانه أن يترك البحر رهوًا وأعلمه أن فرعون وقومه جند مغرقون، وهذا الضرب من الطى والإيجاز والذى ترى المعانى معه واضحة مشرقة كأنك لم تحذف شيئًا لقوه الدلالة أقول هذا الضرب الذى تطوى فيه أحداث وجمل كثيرة وينساق المعنى ويتتابع وكأنه مذكور كله نادر جداً

فى الشـعـر لأنه من أبواب الإيجـاز العـالى الذى لا تراه إلا فى البـيـان الأرقى.

وكلمة: ﴿اتْرُكِ الْبَحْرَ﴾ فيها معنى جليل من إكرام الله لموسى عليه السلام لأن معناها أن الله سبحانه جعل البحـر رهن عصا موسى فلو ضربه مرة ثانية لعاد وهو الذى يتركه أو يعيده وكان من الممكن أن يُبقى الله البحر على الوجه الذى يشاؤه ضـربه موسى أو لم يضربه وإنما هو إكرام الله لنبـيه صلوات الله وسلامـه عليه ولم ترد كـلمة ﴿رَهْوًا﴾ فى الكتاب العـزيز إلا فى هذه الآية وقال الراغب ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ «أى ساكنًا وقـيل سعـة من الطريق وهو الصحـيح ومنه الرهاء للمفـازة المسـوية»، انتهى كلام الراغـب وقالوا الرهو الفجوة المتـسعة. وكان أصـحاب موسى عليه السلام قـد داخلهم فزع لما رأوا جند فرعون من ورائهم، وقالوا لموسى ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعـراء: ٦١] فقال موسى ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] ولم يكن أُخْـبِر بضرب البحر بعـصاه وإنما ذكر قوله تعـالى له ولهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] ولذلك قال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ فأعاد ما سـمعه من ربه. ومن ضلال المتـغطرس الكذاب المخادع أنه رأى البحر فلقين كل فـرق كالطود العظيم ولم يفطن إلى أن حـراسة الله لموسى وقومه كـافة له ولعصـابته وإنما خاض فى الطريق اليـبس الذى فى قلب البحـر وعجلات عـرباته ترتطم بقاع البحـر ولم يهتد ولـم يفطن وظنى أن كل ذلك كـان يعمل فى نفسـه ولهذا لما أحـاط به الموت بادر وقـال ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] ولم يشـأ أن يمـوت على ما مـات عليـه آباؤه من الفـراعنة، وأعجب من حـال فرعون ما كـان من بنى إسرائيل الذين سرقوا مـعهم حلى المصريين وصنعوا منها عجلا له خوار وقالوا هذا إلهكم وإله موسى. والألعن من هذا أنهم لما جاوز الله بهم الـبحر ورأوا هذه الآية العظيمـة أتوا على قوم

يعكفون على أصنام لهم فقالوا لموسى عليه السلام اجعل لنا إلها كما لهم آلهة وما أعظم وما أجل ما تحمّل الأنبياء عليهم السلام.

وتأمل التصاقب فى الحذو بين الجملتين ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وراجع التقارب في الوزن وعدد الحروف والإعراب، ﴿اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً﴾، ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾، ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾، ولا يجوز أن نهمل هذا التقارب ودلالاته وأن الجملة الثانية من تمام معنى الجملة الأولى راجع كلمتى بحرا ورهوا وأسر واترك والجملة المستأنفة وبناءها على التوكيد والاستئناف ثم إن كلمة ﴿جُندٌ﴾ قريبة فى موقعها من كلمة ﴿قَوْمٌ﴾ فى الجملة الأسبق ﴿أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ وكان يمكن أن يقال واترك البحر رهوا إنهم مغرقون، ولكن هذه الكلمة أضافت معنى جليلاً جداً هو أن الله يقول لهم إنهم قوة وجيش تبعكم لاستئصالكم وأنكم كما قال فرعون شرذمة قليلون وأنكم غائظون له ومع أنكم قلة لم يكلف قائدًا من قواده بملاحقتكم؛ وهو وشعبه وجنده وقوته لهم الملك ظاهرين فى الأرض، ولكن فرعون قاد الجيش بنفسه وكل هذا وراءه ما وراءه من قوة وغلبة وأحقاد وطغيان ومع كل هذا نجاكم الله منه وهذا من أعظم المنّ على بنى إسرائيل، وقد ذكر القرآن هذه النعمة فى آيات كثيرة ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠] كلمة ﴿جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ تختصر كل هذا وأن هذه القوة المتجبرة والتى تستهدف هلاككم هى التى ستَهْلكُ، والملاحظ أن عبر التاريخ التى يذكرها الكتاب العزيز هى عبر تتكرر فى حياة الناس مع تغير الأزمان والأحوال والذى يستفاد من هذا هو أن فرعون لما أضل قومه ولم يقف العقلاء فى وجهه ولم ينصحوه هلكوا معه، ولو أنهم صَدَقُوا أنفسهم وصدقوه لنجا ونجوا معه وأن أخطر ما فى حياة الناس

أن يجعلوا أمرهم فى يد فرد واحد وأن يتوهموا أنه أوتى الحكمة وأنه يحتكر الصواب وأن عليهم السمع والطاعة وأنهم يعيشون وعيونهم معصوبة وألسنتهم معقودة وعقولهم مكفوفة الكل ينتظر توجيهاته وأخطر من هذا أن ينافقوه وأن يوالوه يعنى أن يكون ولاؤهم ليس للحق وليس لمصلحة البلاد وأن يعيشوا منتفعين بهذا النفاق ومغتبطين به وأن يكون الرأى لهؤلاء وأن تكون الأقلام فى أيديهم، وهذا شىء ومواقف الأحرار الصادقين شىء آخر، الأول به هلك الناس والثانى به أفلح الناس وأنا أقرأ القرآن والواقع كله من حولى هو البصيرة التى أتدبر بها القرآن وكأن القرآن نزل اليوم.

قوله جل شأنه: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٧].

وأول ما يجب أن ننظر فيه هو موقع هذه الآية مما قبلها لأنها افترضت أن القوم هلكوا وهى تحدثنا عن الذى تركوه مع أن الذى قبلها ليس فيه إخبار عن هلاكهم وإنما هو أمر الله لموسى عليه السلام أن يترك البحر رهواً. وهذا يعنى أن هنا أحداثًا كثيرة جداً ومتنوعة جداً وخصبة جداً قد طويت وهى حالة ابتلاع البحر لفرعون وجنده وأن هذا المشهد المزدحم والبالغ التأثير قد حذف لتذهب النفس فيه كل مذهب وهو مع حذف اللفظ الدال عليه شديد الوضوح لقوة دلالة السياق عليه وكل الذى جاء فى وصف هذا المشهد فى الكتاب العزيز هو قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] ودلالة ما الموصولة هنا لا حدود لها، ولو أردت أن تتصورها فعليك أن تدع القراءة وأن ترجع لتستحضر المغرور الغبى المتغطرس وهو يرى البحر أمامه فرقتين كل فرق كالطود العظيم ولم ينتبه إلى هذا الأمر الغريب وإنما دخل بجنده وحاشيته ﴿فَغَشِيَهُم

﴿مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ ولابد أن تتذكر أن هذا اليم الذى ابتلع هذا الشيطان وعصابة حكمه هو الذى حمل موسى عليه السلام لما قذفته أمه فى اليم ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ [طه: ٣٩]، وها هو فرعون وجنده يغشاهم الموج الذى حمل إليهم موسى، ولابد أن تحاول تصور التفاصيل والمباغتة والمفاجأة لما استوعبها فرعون واستوعبها المنافقون والمنتفعون والذين زينوا له من مستشاريه والذين زين لهم. وماذا دار فى نفوسهم وهم يغالبون الموت وماذا كان حال أقربهم إلى فرعون؟ هل حاول أن يمد يده ليكتم أنفاس فرعون قبل أن يكتم الموج أنفاسه وماذا قالت عصابة النفاق؟ وماذا قال الصامتون الجبناء الذين يكثر بهم سواد مواكب الجبابرة، وهل كانوا يصرخون، وهل لعنوا فرعون؟ أم لعنوا أنفسهم لأنهم لم يلعنوه وهو حى ولأنهم قبلوا أن يكونوا عبيداً لـلغبى الذى سموه الحكيم وبرَّرُوا كل ما فعل ولم يُخَطِّئوه فى شىء قط واستَعْدُوه على أصحاب صوت الحق وقالوا له ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ٢٧] ماذا جرى فى نفوس الكذابين فى تلك اللحظة التى يواجهون فيها عدالة السماء وعقاب الزور والكذب على الشعوب. وموالاة أهل البطش والقمع والطغيان، ماذا جرى فى نفوس عصابة النفاق وهم يرون قائد المسيرة وقد انتهى بهم إلى الجحيم؟ لا شك أنهم فى تلك الحظة التى يكشف فيها الغطاء ويكون البصر حديدا قد أدركوا أن المشكلة ليست هى فرعون وإنما من سكتوا عن فرعنة فرعون، وأن القضية الحقيقية ليست فى الطاغية وإنما من سكتوا عن الطاغية، أو برروا طغيانه.

وقد أومأ القرآن إيماءة كأنها رمز وهى إشارته إلى الذى جرى فى نفس فرعون وقد أحاطت به خطيئته وقوله ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ وجعل القرآن هذا إشارة إلى ما جرى فى نفوس عصابة

الكذابين من حوله ماذا قالوا؟ وإلى أى مدى تجلَّت أمامهم فى هذه اللحظة الحقيقة التى عاشوا يطمسونها ويعظم عندهم نفاق فرعون وموالاته وبمقدار استعظامهم له ومقدار موالاته يصغر الحق فى نفوسهم وتتوارى حقوق الأوطان وحقوق الشعوب. هذا وقت حرج جداً لو أن المنافقين والموالين والمؤيدين والمدافعين عن الفساد والطائفين حول الطغيان فطنوا وراجعوا لرجعوا واستقام أمر الناس وإذا كنت مثلى تكرة المستبد وتزدريه فأنت بلاشك أشد كرها وازدراء للمنافقين حوله والموالين له وفرق شاسع جداً بين أحرار الرجال وعبيدهم والعبد الآن ليس هو الذى يباع فى الأسواق وإنما هو الذى قبل أن يكون عبدًا أو أقل هو الذى قبل أن يباع ضميره وقلمه ولسانه.

قلت هذا أول ما ينظر فى الآية وعلاقتها بالذى قبلها وأن بينهما فضاء زاخرا بالأحداث والمفاجآت ونبهت إلى شيء منه، وإن كان صالحا لأن تكتب فيه روايات وحكايات وكتب تحت عنوان غرق فرعون ليقرأها صغار الفراعنة التافهين والأتفه منهم؛ هم الطائفون حولهم.

و«كَمْ» فى قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ هى كم الخبرية الدالة على التكثير ولها الصدر لأن أصلها كم الاستفهامية، ولهذا لا يعمل فيها ما قبلها وهى هنا مفعول لكلمة ﴿تَرَكُوا﴾ ومن فى قوله: ﴿مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ بيان لما تفيده كلمة كم وقوله سبحانه: ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ كل ذلك معطوف على جنات وهو جملة واحدة ولكنها قُسِّمت ثلاث آيات فما وجه تقسيم الجملة الواحدة إلى ثلاث آيات؟ يمكن أن تكون الآية الواحدة جملة من الجمل، ووجه هذا ظاهر ولكن ما وجه أن تكون الجملة الواحدة جملة آيات؟ ووجه

ذلك والله أعلم أن الوقوف على رءوس الآى سنة متبعة، والوقوف يعنى التأمل والمراجعة لاستحضار ما فى الآية فإذا قرأت كم تركوا من جنات وعيون ووقفت واستحضرت مساحات الجنات والحدائق وما فيها من نخيل وأعنابِ وفاكهة وأزهار ورياض والمساحات تمتد والعيون متفجرة فيها وأن مثل هذا لا يمتلكه إلا الخاصة ثم انتقلت إلى قوله سبحانه ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ووجدت الآية انتهت ومن السنة أن تقف وتسترجع الزروع التى عليها عماد حياة الناس وأنها شيء آخر غير الجنات لأن الجنات ليست هى التى يقوم أود الحياة بما فيها وإنما الزروع التى هى حَبُّ الحصيد والتى منها الخبز والطعام والغذاء وعليها وبها تقوم حياة الناس وكذلك المقام الكريم الذى هو السكن وليس بلازم أن يكون قصورا كقصور الخاصة وإنما هو مسكن آدمى كما نقول فى زماننا وليس من العشوائيات التى انتشرت فى زمن الأغبياء، أقول أنت الآن أمام آية أخرى تحدث عن سواد الشعب وأفناء الناس. وتنزل من طبقة تمتلك الجنات والعيون إلى طبقة تمتلك الزروع والمقام الكريم، ثم تتلوا الثالثة، ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾، وكلمة نعمة بفتح النون معناها التنعم والرفاهية وهى مصدر صيغ على وزن المرة للإشارة إلى أن هذا التنعم كان واحدا لأن هذه الآية الثالثة لم تتكلم عن شيء يطعم كما تكلمت الأولى والثانية وإنما هى وصف عام لكل الذى يعيشون على أرض مصر فى ذلك الوقت يستوى فى ذلك أصحاب القصور والجنات التى فيها العيون وأصحاب الزروع الذين يقيمون فى مزارعهم المبسوطة الشاسعة الكل متنعم وإن تفاوتت درجات التنعم المهم أنه ليس هناك على أرض الكنانة من يعيش فى هذا الزمن تحت خط الفقر كما هو الآن فى عصور الأغبياء الحكماء.

وجملة ﴿كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ فاصلة جامعة للآيات التى هى جملة واحدة من أول ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ ومعنى فاكهين مغتبطين فرحين متفكهين مرحين وهى كلمة جليلة جدا لأنها تصف أحوالا نفسية كثيرة كلها من باب المسرة والغبطة وافتقاد الأحزان، وما يجلب الأحزان والذى دمر كل ذلك غرور وصلف وأطماع فرعون ونفاق من حوله؛ ولا يدمر الحياة كالصمت على ظلم وجهل وفساد الحاكم ومن حوله والذين يطلبون الراحة بالصمت هم الذين سيأخذهم الفزع حين تنزل بالبلاد النوازل ويغشاها من اليم ما يغشى.

وراجع الكلام بين أول ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ وضعه بإزاء ما قبله من قوله ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ﴾ لأنى وجدت شبها ليس بعيدا بين قوله سبحانه ﴿كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ وهى جملة تصف قوم فرعون، وقوله سبحانه ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ وهى تصف قريشا فى مكة وهذا التشابه الذى ليس بعيدًا أعاد ترتيب الأحداث ووجوه تفسيرها وقد ذكر بعض علمائنا أن شخصية أبى جهل فى قصة أهل مكة تقابل شخصية فرعون فى مأساة أرض الكنانة وما نزل بها بسبب غباء وجهل وصلف قائد المسيرة آنذاك؛ وكذلك تحطم الطغيان فى مكة ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ وتحطُّم فرعون أو تحطم الطغيان بتحطيم فرعون ونظامه «إنهم جند مغرقون» كأن الثانى تفسير للأول من جهة اللغة، ثم إنك تجد فى هذه المراجعة نجاة بنى إسرائيل وكانوا المستضعفين فى يد فرعون تشير إشارة قريبة إلى نجاة المستضعفين فى مكة الذين كان رسول الله ﷺ يرفع يديه فى صلاة الصبح ويقول اللهم نج عَيَّاش بن ربيعة اللهم نج الوليد بن الوليد اللهم نج المستضعفين وهكذا تجد إشارات تنبهك إلى إعادة قراءة ما قرأت فى ضوء هذه الإشارات وقوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ﴾ جملة مستقلة شديدة الاختصار يقوم معناها على الإحالة إلى معان أخرى فليس فيها لفظ يستقل بأداء معنى

وإنما الكاف تعود بك إلى مـا مضى من إخراجهم، واسم الإشـارة يعود بك أيضًا إلى الإخراج وكأن الأمر يؤول إلى تشـبيه الإخراج بالإخراج ولا يكون هذا إلا لقـصد اللفت إلى العـبـرة فى هذا الإخراج وأن الله أخـرج الظالم المتغطرس وأهلكه وأهـلك معه حراسـه وكلابه من المنافـقين والموالين الذين كانوا يزينون له ويزين لهم وهذا إخراج لو أردت تشبيهه بشىء تلحقه به فلن تجد أتم فى معناه منه، قال الزمخشرى فى بيانها «الكاف منصوبة على معنى مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منهـا وأورثناها أو فى موضع الرفع على الأمر كذلك» انتـهى كلامه، وهذه الجملة كـثرت فى الكتاب العـزيز ومن أحسن مواقعها أنك تراها فى مـفصل كلام فارق بين أمرين متقابلين لحـقيقة واحدة كمـا تراها هنا فقـد أغلقت باب الحديـث عن خروجهم وهلاكـهم وذهاب جناتهم وزروعهم، وفتحت باب الحديث عـن قوم آخرين يعنى مغايرين لهم فى الأخلاق والطباع لأن هؤلاء ظلموا فهـدموا أنفسهم بأيديهم وإنما الأرض لله يورثهـا من يشاء من عـباده، وهذا قـريب من قوله سـبحـانه ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [القلم: ٣٣] تجد هذه الجـملة المكتنزة والتى تشيـر وتومئ أكثـر مما تصرح وتفصح أقـول تجدها واقعـة فى مفـصل كلام الثانى فيه أنكى من الأول فى الغرض المسوق له الكلام وسيظهر هذا أكثر.

قوله جل شأنه ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ الواو التى بدأت بها الجملة عاطفة لما بعدها على قوله ﴿تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وهى من تمام المعنى لأنها تبين أن هذا المتروك آل إلى قوم آخرين ويبدو أن معنى هذه الجملة معقود فى همزة التعدية فى قوله ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ ولم يقل سبحانه وورثها قـوم آخرون كما قال ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾ [النساء: ١١] لأن المقصود بهذه الهمزة هو الإشارة إلى تمام نكاية الله فى أعداء أنبيائه أعـداء الحق والخير والعدل والبر والرحمة وأنه سـبحانه ينصر أولياءه ويدمر المـعارضين لأمره والمسـعلين عليه ﴿وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم

بسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ثم إن الأمر لا يقف عند هذا وإنما يلحق به ما نهبوه وتلهوا به من مال وجاه وسلطان فـيدمره كما دمـرهم ولكن بطريقة أوجع وأنكى وهو أن ينقل هذا المال الذى نهبوه وهذا الجاه الذى اغتصـبوه لغير ورثتهم وهذا يعنى فى النهاية أنهم لا يخرجـون من هذا كله إلا بالتدمير الـكامل والذهاب ليس إلى العدم وإنما إلى أصل الجحيم ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥] وأكرر أن هذا لم يذكر فى القرآن الكريم من أجل أنه خـبر الأمس وإنما يذكر من أجل اليـوم ومن أجل الغد ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] والقوم الآخرون ليسوا بنى إسرائيل لأنهم خرجوا من مصر مع سيدنا موسى عليه السلام ولن يدخلوها إلا خـائفـين ويلاحظ أن الذى أدخلهم مـصـر هو نبى الله يوسف والذى أخرجهم من مصر هو نبى الله مـوسى وقد ذكر علماؤنا أن الذى ولى أمر مصـر بعد فرعـون موسى فـرعون آخر ليس من قـوم فرعون مـوسى. يعنى أن غطرسة فرعون موسى أهلكته وأهلكت معه التوريث. أهلك الله الوارث والمورِّث وكشف الغُمّة عن العبيد الذين يُوَرّثون.

وكان موسى عليه السلام بصفاء نفسـه وصدق فطرته يستشعر هذه النهاية حين كان فرعـون فى عنفوان طغيانه وكان بنو إسرائيل فى قبـضة عذابه، وقد قـالوا لموسى عليـه السـلام ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩] قال ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩] راجع قوله عليه السلام ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ وضعه بإزاء ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ ثم قال مـوسى عليه السلام لما سـمع أصوات الكذابين المنافقين الهالكين تتصايح فى القصر الرياسى وتنصح وتكذب وتقول لسـيـدها ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] فأجابهم الطاغية بقوله ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا

﴿فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] فقــال موسى عليه السلام لقــومه بصوت آخر وبلغة أخرى وبوعى آخر استعينوا بالله واصبروا ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وما أعظم أن تقــارن بين الكلامين وراجع أيضًا كــلمة ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف:١٢٨] وضــعهــا بإزاء ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ والأولى فى الأعــراف والثانية فــى الدخان وكيف تتلاقى الأحداث وكيف تتفق الصيغ وما وراء كل ذلك من دقة عجيبة.

بقى ســؤال لا أستطيع أن أغــفله وهو أنه يلاحظ فى هذه الآيات أنهــا ذكرت هلاك فرعون وجنده فى كلمة شديدة الاختصار وهى ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ ثم ذكرت ثرواتهم فى كلمات أطول وفــصلت وأشبعت وذكرت الجنات والعيــون، والزروع إلى آخره ثم تــابعت انتقــال ملكية هذه الأمــلاك بعد تدمــير وهلاك أصحابها فما وجه الاختصار فى ذكر هلاكهم والإطناب فى ذكر ثرواتهم؟

وجــواب ذلك أن الذى يتــبــادر إلى الذهن هــو أن هذه الثــروات هى التى أغرتهم وأغــوتهم وأطغتهم وأضلتهم فــاستكبروا. وضلوا وجاهدوا مــوسى عليه الســلام ورفضــوا دعوته ونصــحه وقــوله لهم ﴿وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ فأشارت الآيات إلى أنهم دمروا ودمــر معهم المال الذى أطغاهم واستعبدوا به المستضــعفين الذى نجاهم الله وأهلك عدوهم وأهلك مع هلاكهم الثروة والجاه والسلطة، وفى هذه دلالات واضحة على أن اقتران الثروة والسلطة وجمع هذين فى قبضة واحدة من أهم أسباب البلاء المدمر للشعوب وخاصة إذا كانت شعوبا فقيرة ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق. ٦، ٧] يعنى بالثــروة والجــاه، وشىء آخــر وهو أنه لا شك فى أن الدخــان امتــداد للزخرف وأن تفســير ذكر الثروة هنا ومد الكلام فيــها وأنهم تركوها وأن الله ورثها قــوما آخرين لابــد أن يرجع بنا إلى ما قاله فــرعون لما نادى فى قــومه وقال ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]

إلى آخر ما قال وما عـقب به الحق على كلامه بقوله جل شأنه ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥، ٥٦]. وقد بيَّنا أن هذا راجع إلى قولهم «**لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**».

وقد ذكرت الزخرف غـروره وطغيانه واستعلاءه بالثـروة، فسكتت الدخان عن ذلك، وسكتت الزخرف عـن هلاك ثروته فبينت الدخـان ذلك وأجملت الزخرف هلاكـه بإجمـال ظاهر هو قوله ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ فبـينت الدخان ذلك بقوله سبحانه ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾، وهذا يعنى أن ما فى الدخان هو تمام لما فى الزخرف ثم إن الزخرف أشارت إشارة عظـيمة فى قوله تعالى ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ وهذا واضح فى الدخان من أول قوله تعالى ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ثم بين هذا السلف والمثل للآخرين بيـانا شافيًا كافيًا فى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ وهذا ظاهر جدا ولو لم نـصل الدخان بالزخرف لبـقيت هذه المعـانى وهذه الصور معزولا بعضها عن بعض وهذا تغييب لأسرار بيانية لا يجوز أن تغيب.

وشىء آخر لابد من مـراعاته حتى تتضح الحـقائق أكثر وهو أن ذكـر قصة موسى عليه السلام فى الزخرف واختيار هذه الأجزاء منها راجع إلى أصل من أصول السورة وجـذر من جذورها وهو قولهم ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فـإذا رجعنا بقصة مـوسى إلى هذا الجذر ورجعنا بتمامها فى الدخان إليـها فى الزخرف وجدنا أنفسنا نرجع بهذا القسم من الدخـان إلى هذا الجذر من الزخـرف فيـزداد الكلام عندنا ترابطا وتماسكا وتتجلى حقائقه بصورة أوضح.

قوله جل شأنه ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ ذكر الشيخ الطاهر أن هذه الفـاء تفريع على قوله ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾

إلى قوله ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ فإن ذلك كله يتضمن أنهم هلكوا وانقرضوا.. انتهى كلامه، وهذا يصح ويصح أيضًا أن تكون هذه الفاء امتدادا لقوله جل شأنه ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وأن يكون ما بينهما امتدادا أيضًا لقوله ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ لأن ذكر الجنات والعيون وأن الله أورثها قوما آخرين من تمام معنى إغراقهم، ومثلها فى كونها من تمام معنى أنهم جند مغرقون مثل ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ يعنى هما فرعان امتدا من ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وقدم «كم تركوا» وما بعده للإشارة إلى أن هذه الثروة التى أطغتهم وصرفتهم عن الحق وحازتهم إلى حزب الشيطان قد هلكت بهلاكهم وورثها الله قوما آخرين ولما كان لها مدخل فى هلاكهم، جاءت فى أثر هلاكهم وبعد الفراغ من هذا الفرع الممتد والذى ذكرت فيه الثروة التى استعلى بها فرعون رجع الكلام فى قوله ﴿فَمَا بَكَتْ﴾ إلى المعنى الذى تولد منه، وهذا باب جليل من أبواب المعاني وأعنى به تتبع المعانى الجزئية التى تعد جذرا لجملة من المعانى الجزئية ومعرفة وجوه ترتبها وكيف يمتد الفرع من الأصل ثم ينتهى امتداده ثم يعود الكلام لبيان فرع آخر امتد من الأصل نفسه كما هنا فالجذر هو ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ امتد منه فرع هو كم تركوا من جنات واستمر الكلام مع هذا الفرع حتى فرغ منه ونقل ملكية هذه التركة إلى قوم آخرين ثم رجع الكلام إلى الأصل ليبين فرعا آخر امتد منه وهو ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ وأرجح هذا لأن الأشبه بجملة ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أن تذكر عند ذكر إغراقهم وليس عند ذكر ثروتهم وأن تكون مفرعة على الإهلاك وليس على كم تركوا من جنات ومعنى ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ راجع إلى ما كان العرب عليه إذا مات منهم رجل له خطر وله شأن قالوا بكت عليه السماء والأرض وكسفت له الشمس أو قالوا عاتبين على الشمس لماذا لم تكسف وعاتبين على الشجر مالك مورقا، وهذا كثير فى الشعر:

يقـولون حـــصْنٌ ثم تأبىَ نُفُـــوسُـهم　　　وكـــيف بحِـــصْنٍ والجـــبــالُ جُنوحُ

وقول الخارجية:

أيا شَـجَــر الخـابورِ مـالَكَ مــورِقًـا　　　كـــأنك لم تَجْــزَعْ على ابــن طَرِيفِ

وقول جرير فى رثاء عمر بن عبد العزيز:

الشـــمس طالعـةٌ ليـــست بكاســـفـة　　　تبكى عـليك نجـومَ الـليل والقـمــرا

وأصل هذا المعنى هو الإحـــساس بأن الـشمس والقــمر والنجـوم والجبال والشجر كل ذلك ينعطف نحو الكريم ويحبـه ويرعاه فإذا أصابه مكروه كانت كل هذه من بواكيه، وهذا إعلاء للقيمة الإنسانية المتمثلة فى كرم الكريم النبيل الشهم، وهذا جيد.

ويقولون فى مـــوت الخسـيس الذى ليس له قدر مـا بكـت عليه سماء ولا أرض. وهذا هو الذى عليه الآية وفيه قدر كبـير من السخرية وأن طغيان فـرعون وكـبرياءه وأنه يملك مـصر وأنــه ربهم الأعلى كل هذا الكلام وهذا التهويش لم يرفع خساسته ولم يشغل به أرضا ولا سماء وإنما هلك كما يهلك الرعاع، وقد جاء فى الحديث «ما من مؤمن مـات فى غُرْبةٍ غَابَت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماءُ والأرضُ»، وقد رواه البـيهقى فى شعب الإيمان، وجاء أيضًا إنه يبكى على موت المؤمن موضعُ مُصــلاَّه فى الأرض ومَصْعَدُ عَمِله فى السماء، وأن المعنى فى الآية أن هؤلاء لا مُصَلَّى لهم فى الأرض يبكى عليهم ولا يصعد عمل لهم فى السماء يبكى عليهم، وكل هذا يحتمله اللفظ والأول أولى. وهو قائم على سبـيل التمثيل والتخييل. وهو جـزء من اللسان العربى المبين الذى نزل به القرآن.

وقوله جل شأنه ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ قال الزمخشـرى فى بيانه «لما جاء وقت هلاكـهم لم ينظروا إلى وقت آخر ولم يمـهلوا إلى الآخرة بل عـجل

لهم فى الدنيا» . انتهى كلامه، وأفهم من الآية أنهم عجل بعقابهم ولم يمهلوا وأن التعجيل كان بعدما أراهم الآيات التى وصفها القرآن الكريم بقوله ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ إلى آخر ما جاء فى الزخرف وأن فرعون لج فى باطله وطغيانه وعتوه وقال ما قاله لما نادى فى قومه ثم كان قوله تعالى ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وأن المعاجلة بالعقوبة وأنهم لم يكونوا من المنظرين بعد هذه الحادثة، وقد أشرت إلى أن ما جاء فى الأعراف والزخرف يؤكد أن الخروج كان بعدها مباشرة وكان الغرق فى طريق الخروج وهذا جيد وليس بمرادى وإنما مرادى هو أن آية ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ تشير إلى أن قوله سبحانه لموسى فى الدخان ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ كان بعدما وصفت الزخرف من رؤية الآيات، ثم كشف الله عنهم العذاب بدعاء موسى عليه السلام ثم هم ينكثون والخلاصة أن آية ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ تحضر فى الدخان صورة الزخرف وتجعلها قبل ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً﴾ وممسكة بها لأن السرى هو تعجيل فرعون بالعقوبة ذلك الذى كان بعد ما نكثوا، وما كانوا منظرين بعدما نكثوا هذا والله أعلم، وشىء آخر وهو أن آية ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ التى هى ختام ذكر قصة فرعون فى الدخان، وهذه القصة التى جعلها الله سلفا ومثلا للآخرين فى الزخرف فيها إشارة إلى أهل مكة الذين أراهم الله آياته فى قوله ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ لن يكونوا هم أيضًا من المنظرين.

قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾.

رجع الشيخ الطاهر بهذه الآية إلى المحذوف الذى دل عليه قوله سبحانه ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ يعنى أغرقناهم وأنجينا بنى إسرائيل كما فى قوله تعالى ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٦٤، ٦٥] وهذا جيد وجيد أيضًا أن يكون راجعا إلى قوله ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً﴾ يعنى فأسر فنجينا بنى إسرائيل وسواء قلنا بهذا أو بذاك فإن هذه الآية ترجع إلى الوراء متجاوزه ما قبلها من أول قوله ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ إلى قوله ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ لتمسك بعرقها هناك لأنها حديث عن نجاة بنى إسرائيل وجذر هذه النجاة هناك عند قوله ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً﴾، وهذا باب عجيب من أبواب المعانى وتوزيعها فى السورة ووضع كل معنى فى موضع ثم وضع خطوط تصل وتمتد بين المعانى التى بعضها من بعض، وراجع الأحوال والأحداث والصور التى بين ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي﴾ وقوله ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا﴾ هذه الأحوال والأحداث والصور ذكر بعضها وحذف أكثرها وهذا الذى حذف منه ما تذهب النفس فيه كل مذهب كما بينا فى الجمل التى وراء ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ والتى ألمت بها بإيجاز آيات أخرى كقوله سبحانه ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، وأن صورا كثيرة كان الكلام أنطق بها لما لم ينطق وكان أكثر بيانا لما لم يبن قلت إن آية ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ رجعت وأمسكت بعرق لها وتجاوزت كثيرا من الأحوال والأحداث ثم إنك تلاحظ تقاربا شديدا فى المعنى والمبنى بين هذه الآية والآية التى فتحت باب الكلام فى قصة موسى عليه السلام ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ ولو قلت إنها راجعة إليها لم تكن أخطأت لأن الكلام يقبل كل ذلك ولا يتبشعه ولو قرنت الجملتين وقلت ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ لكان ذكر افتتان قوم فرعون مقترنا بذكر نجاة بنى إسرائيل أحسن اقتران وأتمه وكان أيضًا أبين للعبرة والمثل الذى يراد بيانه لقريش، وهو

هلاك المستكبرين ونجاة المستضعفين وقوله سبحانه «من العذاب المهين» العذاب الذى فيه إذلال وإهانة وهكذا كان حال بنى إسرائيل لأنهم كانوا يسخَّرون وتستخدم نساؤهم فى الأعمال الشاقة، وكلمة ﴿الْمُهِينِ﴾ فيها شوب من غضب الله من أجل بنى إسرائيل وأنهم أبناء نبى الله يعقوب وأنهم ظلموا وأهينوا، وقوله سبحانه ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدل من ﴿الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾، وهذا البدل أو البيان يعنى أن فرعون هو العذاب المهين وأنه ليس لحما ودما وإنسانا وإنما هو شر كله، وعذاب مهين كله، وكان يمكن أن يقال ولقد نجينا بنى إسرائيل من فرعون ويحذف المبدل منه الذى يقولون إنه فى نية الطرح ولو جاء الكلام على هذا الوجه لكان غير الذى جاءت عليه الآية، ولو وضعته بإزاء ما جاءت عليه الآية لوجدته معنى مغسولا والأصل فى ذلك أن المبدل منه أقوى فى الدلالة على المعنى المراد من البدل فإذا جاء الذى هو أضعف بدلا من الذى هو أقوى اكتسب الأضعف من قوة الأقوى فالعذاب المهين أقوى فى داعية النجاة من فرعون فإذا جاء قوله من فرعون بدلا منه اكتسب قوة المعنى منه، ولو عكسنا وقلنا ولقد نجينا بنى إسرائيل من فرعون من العذاب المهين لضعف الكلام لأن الذى عليه الآية أفاد أن فرعون عذابا مهينا والذى قلناه أفاد أن العذاب المهين فرعون وبينهما ما لا يخفى. وقل مثل ذلك فى قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] المبدل منه صريح فى وصف الصراط بالاستقامة وهذا هو المعنى الذى انعقد عليه الكلام ووقوع ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بدلا منه يضفى معنى الاستقامة الذى هو الأصل على صراط الذين أنعم الله عليهم.

وقوله جل شأنه ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ من تمام الجملة قبلها وامتداد لها، وذلك لأن الكلام السابق أفاد أن فرعون عذاب مهين وكأنه خرج من جنس الناس إلى جنس آخر وهذا غريب فاحتاج السامع إلى ما يؤكد له غرابة

أن يكون إنسان عذابا مهينا وليس لحما ولا دما، فجاءت هذه الجملة تبين كيف يستحيل الإنسان يعني يتحول ويصير عذابا مهينا، ولهذا وجب التدقيق في فهم معناها وأول شيء هو أن كلمة ﴿كَانَ﴾ فيها تدل على أن خبرها صار جزءًا من ماهيتها وأن هذا الخبر ليس كالأخبار التي يخبر بها عن الناس ويأتي إسناده مرة مثبتا ومرة منفيا كالصفات العارضة، ثم إن قوله ﴿عَالِيًا﴾ يفسره علماؤنا «بمستعليا» وهذا صحيح ولكن يبقى الفرق بين ما جاءت عليه الآية وبين ما لو قال إنه كان مستعليا، والذي عندي هو أنه استعلى يعني جعل نفسه فوق الناس وكأنه ليس من جنسهم وأن الجنس الذي يجمعه بالناس ويبعث فيه التواد والتراحم قد أبطله هو وهذا معنى الاستعلاء ثم إنه لم يجد من يردعه عن هذا الاستعلاء فعلا، لأن كلمة ﴿عَالِيًا﴾ اسم فاعل من علا يعلو، وما دمنا فسرناه بالاستعلاء فلابد أن يكون الوجه أنه استعلى فعلا يعني عاليا عند من استعلى عليهم فقبلوا استعلاءه، وهذا يعني المزيد من الإحساس بفوت الجنس ومن شأن هذا الإحساس أن يذهب بمعنى التراحم بينه وبين جنسه والجنسية رحم ولهذا قالوا إن الحيوانات التي من جنس واحد لا يقتل بعضها بعضا في الغالب لأن هذه الجنسية تحجزهم من هذه الجريمة فلا تجد كلبا يقتل كلبا ولا ذئبا يأكل ذئبا، نعم يتنازعون ويتهارشون ولكن الرحم بينهم تحجُزُهم عن القتل والإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يقتل جنسه، قلت إن روح الاستعلاء توجب القسوة وتنزع الرحمة من قلوب المستكبرين، وقوله ﴿مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ فيه معنى ليس في مثل قولنا إنه كان عاليا مسرفا لأن من الجارة والألف واللام التي في المسرفين فيهما معنى أن هناك جماعة عرفوا بالإسراف وشهروا به وأن فرعون كان واحدا منهم ثم زاد عليهم أنه كان عاليا وكان التعالي جزءا من ذات نفسه وكان الإسراف في التعالي وفي كل ما لا يحمد فيه الإسراف كان كل ذلك جزءًا من طبعه ومن كان كذلك كان عذابا مهينا، ولا شك أن هؤلاء المسرفين المعروفين بالإسراف والذين شهروا به هم الملأ أو هم العصابة الخسيسة التي

تراها دائمًا حول الطاغوت والتى لا تشبع من الخساسة ولا من الدناءة ولا من الإفراط والإسراف فى كل ما تباشر، من سلب ونهب.

قوله جل شأنه ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴾.

هذه الآية معطوفة على قوله ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ وبناء الجملتين بناء واحدا والتأكيد باللام وقد وإسناد الفعل الأساسى فى الجملتين إلى المتكلم المالك القادر الباسط القابض كل ذلك وراءه الاعتداد بهذه المنن وقد تكرر معنى الجملتين في القرآن كثيرا تكرر نجاة بنى إسرائيل من فرعون، وتكرر اختيار الله لهم وتفضيلهم على العالمين، ويلاحظ أن الجملة الثانية من تمام معنى الجملة الأولى؛ فالأولى نجاة من عذاب، والثانية مَنٌّ وعطاء وكأنه عوض عن الذى كان ويمكن أن تقول الأولى إزاحة العذاب والهم والغم والثانية إفاضة النعم والتكريم والتقدير، وأن الله سبحانه قابل علو فرعون عليهم بأنه سبحانه اختارهم على العالمين والجار والمجرور فى قوله ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ فيه معنى متسع وجليل لأنه صالح لأن يفيد على علم منا بما كان منهم وبما سيكون منهم، وقد كانت لهم تجليات توهج فيها إيمانهم لما رأوا آية موسى عليه السلام وألقى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون فأدركوا الآية ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٠-١٢٢] فجن جنون الطاغية وقال ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ [طه: ٧١] وبعدما سمعوا هذا وأكثر منه قالوا ﴿ لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا ﴾ [الشعراء: ٥٠] ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ [طه: ٧٣] وقالوا غير ذلك مما يدل دلالة قاطعة على صدق إيمانهم وصدق رغبتهم فيما عند الله واستهانتهم بكل ما يكون من فرعون من أذى، وهذا وقت اختارهم الله فيه على العالمين، لأنه لم يكن فى هذا الزمن موحد إلا موسى ومن آمن معه من

قومه، وما آمن معه إلا قليل، واختيار الله لهم من معانيها هدايتهم، وكذلك كل من آمن بنبى من أنبياء الله قد اختـاره الله على عالم زمانه، وهذا وجه من وجوه المعنى في قوله تعالى ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ ووجه آخر وهو سبحانه يعلم ما سيكون منهم وقد كانت منهم وجوه من الكفر لم يذكر القـرآن أكثر منها لأمة من الأمم فما إن اجتازوا البحر بأعظم آية من آيات الله وقد رأوا فـرعون يتبعهم فقالوا ﴿لِمُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشـعراء: ٦١]، ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣] إلى آخره فلما جاوز الله بهم البـحر رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقـرة: ٩٣]، وآذوا موسى وبرأه الله مما قالوا، وهموا بعـيسى ليقتلوه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقالوا على مريم بهتانا عظيما، وقالوا يد الله مغلولة؛ ولعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم إلى آخر ما ذكره القرآن عنهم وهم فى كل ذلك ليـسوا مفضلين على أحد، ثم إن عبـارة ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجـاثية: ١٦] قـيلت فى الكتاب العـزيز لغيرهم كما فى قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] كما فى قوله سبحانه ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٦] وهذا كله قاطع فى أن الإطلاق فى لفظ العالميـن مقيـد بقيود كـثيرة أبرزها عـالم زمانهم وأبرزها أيضًـا بقاؤهم على التوحيد واستقامتهم على الدين إلى آخره.

ثم إن الفضل الثـابت والذى قيـد كل فضل سبق بقـيوده هو فـضل أمة محـمد ﷺ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقـد جعلهم الله شهـداء على الناس، وجعل الرسول عليهم شهيدا.

قوله سبحانه ﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ﴾.

الواو تعطف ﴿وَآتَيْنَاهُم﴾ على ﴿اخْتَرْنَاهُمْ﴾ وتدخل ما بعدها فى حيز التوكيد باللام وقد؛ ووراء هذا التوكيد ما وراءه، والمراد بالآيات ما منَّ الله به على بنى إسرائيل كالذى ذكرته سورة البقرة من أول قوله سبحانه ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩]، ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ [البقرة: ٥٠]، ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ [البقرة: ٥٢]، وأدخلها فى الإكرام» قوله تعالى ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧] وهو يقابل الطوفان والجراد والقُمّل والضفادع لفرعون وقومه ثم إنه سبحانه جعل فيهم أنبياء وجعلهم ملوكا، وذكر بعض علمائنا أن المراد بالآيات معجزات موسى عليه السلام لأن معجزات الأنبياء عليهم السلام عطية من الله لأقوامهم، وقوله ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ البلاء المراد به الابتلاء، ويكون بالخير ويكون بالشر ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وهذا من التمحيص الذى يُمَحِّصُ الله به عباده ليعلم الذين صدقوا وليعلم الكاذبين ووصف البلاء بأنه مبين يعنى يظهر حقائق ما أنتم عليه واكتفت الآية بهذا وختمت الكلام فى شأن موسى وقومه، وتركت كلمة البلاء المبين الباب مفتوحا لما يكون منهم من خير وشر، وراجع ترتيب الكلام فى شأن بنى إسرائيل من قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ثم بعد النجاة يأتى اختيارهم على العالمين وهذا فضل آخر، ثم آتيناهم الآيات التى فيها البلاء المبين وهذا فضل أعلى لمن صدق ولم تذكر الدخان شيئًا من منكرات بنى إسرائيل وإنما ذكرت إكرام الله لهم ووجه ذلك والله أعلم هو الإشارة إلى إكرام الله من آمن بنبيه صلوات الله وسلامه عليه ممن وجدوا العنت والاضطهاد وهم كافة المسلمين قبل الهجرة، والسورة مكية أو من كان من المستضعفين فى مكة ممن حبستهم قريش بعد الهجرة كعيَّاش بن ربيعة والوليد بن الوليد وغيرهم والمناسب لهؤلاء هو ذكر النعم التى منَّ الله بها على بنى إسرائيل الذين كان حالهم فى مصر مع فرعون كحال المسلمين فى مكة مع أبى جهل وأضرابه.

وقد فطن البقاعي ولفت إلى لفتة زكية أنهت بها الآيات قصة فرعون مع موسى عليه السلام وهى المثل الذى ساقه الحق لأحوال المسلمين مع أهل مكة، وما فى ذلك من جور وغطرسة لقريش مع من آمن وهى ذاتها غطرسة فرعون مع بنى إسرائيل أقول لفت البقاعى إلى أن هذا المثل انتهى بما بدأ به فقد ابتدأ بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ وانتهى بقوله ﴿مَا فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ﴾ والابتلاء والافتتان أخوان شقيقان، وهذا إيذان بأن آخر الكلام رجع إلى أوله والتقى طرفا الحلقة فى هذا المثل. وجاء بعد هذا قوله تعالى ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ولم ينطقوا فى هذه السورة ولم تحك السورة عنهم أقولا إلا هذه الجمل الثلاث ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ﴾، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾، ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وحكت عنهم جملة لما أتتهم السماء بدخان يغشى الناس هذا عذاب أليم، قالوا ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ وتحليل لغتهم ومنطقهم وطريقة تفكيرهم واستقصاء ذلك فى الكتاب وبيان السور التى كثر ذلك فيها والسور التى قل ذلك فيها كل هذا باب آخر يأتى بعد الأبواب التى يدور كلامنا حولها، وأهم ما أريد بيانه الآن هو أن مَثَلَ قوم فرعون الذى طال وصار من المعانى الأساسية والأطول فى هذه السورة كان امتدادا لحادثة ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ لأن المقصود لم يكن إيذاء قريش لمن آمن قبل الهجرة وحبس من آمن بعدها فحسب وإنما أيضًا ابتلاء الله لقريش بعذاب الدخان وقولهم ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ﴾ وطلبهم من رسول الله ﷺ أن يدعو ربه أن يكشف عنهم العذاب فدعا ربه وكشف العذاب فنكثوا وهذا ما حدث مع قوم فرعون لما ابتلاهم الله بالطوفان والجراد والقمل إلى آخره، أقول إن قصة قوم فرعون كانت امتدادا لما قبلها، وهذا الذى قبلها يبدأ من قوله تعالى. ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ وأن هذا انتقال إلى الغيبة بعدما خوطبوا فى قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾.

والذى يظهر أن قوله سبحانه ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ﴾ راجع إلى قوله سبحانه ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ وأن استمرار الحديث عنهم بطريق الغيبة يرجح ذلك وبذلك تعود هذه الآية إليهم من حيث هم جذر الحديث الذى تولد منه ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ﴾ وامتد حتى انتهى إلى قوله ﴿مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ﴾ ثم رجع الكلام إليهم ليبين أثر لعبهم وشكهم وأن هذا اللعب والشك كفّهم عن حقائق مستقرة فى نفوسهم فأسسوا اعتقادهم على ما يخالفها، وبيان ذلك أنهم قد أقروا بأن الله هو رب السموات والأرض ورب آبائهم الأولين وأن من كان كذلك فهو يحيى ويميت لا محالة فى ذلك وأن القادر على الإحياء والإماتة قادر على أن يحييهم بعد موتهم وأنه كما أحياهم بعد الموتة الأولى يحييهم بعد الموتة الثانية وهذا هو الذى يقتضيه العقل، أما أن تؤمن بأنه هو الذى أحياك أول مرة ثم تنكر أنه قادر على أن يحييك مرة ثانية فهذا تحكم لا يؤيده دليل، وكان علماؤنا يرصدون فى دراستهم هذا الضرب من ضروب البناء البيانى ويرجعون برؤوس المعانى فى الآيات إلى منبتها الذى أنبتها ولم تكن المناسبة التى يبحثون عنها هى مناسبة الآية للتى تليها فحسب، وقد نبه عبد القاهر إلى دقة هذا المبحث وأنه مما يقل نظر الناس فيه وذكر بابًا هو شبيه بالباب الذى نحن فيه قال رحمه الله «اعلم أن مما يقل نظر الناس فيه من أمر العطف أنه قد يؤتى بالجملة فلا تعطف على ما يليها ولكن تعطف على جملة بينها وبين هذه التى تليها، جملة أو جملتان، وقد ذكر الشيخ الطاهر رحمه الله أن هذه الجملة ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ﴾ وما بعدها اعتراض بين ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ وقوله تعالى ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ قال (فإنه لما هددهم بعذاب الدخان ثم بالبطشة الكبرى وضرب لهم المثل بقوم فرعون أعقب ذلك بالإشارة إلى أن إنكار البعث هو الذى صرفهم عن توقع جزاء السوء على إعراضهم) انتهى كلامه وهو كلام جيد جداً وهو مؤسس على أن قوله تعالى ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ امتداد ليوم نبطش وحكاية قوم فرعون مَثَلٌ ليوم نبطش

وحكاية قولهم إن هى إلا حياتنا الدنيا اعتراض؛ يعنى الفاصل بين ذكر قوم تبع ويوم البطشة لم يكن ضربًا واحدًا من المعانى وأنا أستحسن هذا من حيث هو طريق فى دراسة البيان وإن خالفتُ التفاصيل. لأن الذى يبدو لى أن ذكر قريش باسم الإشارة وبطريق الغيبة فيه أنهم حاضرون يشار إليهم وإن كانوا غائبين بعقولهم وأن كلمة ﴿هَؤُلاءِ﴾ لو تركتها ترجع إلى عرقها وموئلها لذهبت وحدها إلى ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ لأنهم هم الأصل الذى يبدأ منهم الحديث وينتهى إليهم، وتلاحظ توكيدا بإن واللام وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلى. وأن المخبر بهذا الخبر هو الذى لا يشك من آمن به فى أخباره، وأنك إذا راجعت سترى هذا التوكيد يبعث فى نفسك أحوالاً وأسرارًا منها أنه يفيد استبعاد هذا القول لأنهم مقرون بأنه خلقهم يعنى أحياهم وأنه ربهم ورب آبائهم الأولين فكيف ينكرون الحياة الثانية ويستبعدونها ويتشددون فى رفضها مع إقرارهم بالحياة الأولى. والثانية إعادة والإعادة أهون من البداية؛ ومنها التشهير بغفلتهم وأن عقولهم قد غُطِّى عليها وأنهم يعمهون وأنهم متشددون فى هذا الباطل وممسكون به وأن هذا القول يتجدد منهم فى الوقت بعد الوقت ولا يفطنون لما فيه من باطل. ثم إن فى هذا التوكيد شوب من الغضب وكأن الخبر، لغرابته يؤكد كما يؤكد الخبر الذى ينكره الناس ثم إن الجملة التى نطقوا بها وهى ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ﴾ فيها عناد وإصرار دل عليه القصر بالنفى والاستثناء الذى فيه معنى وفرة ثقتهم بها وفيه معنى أنهم يؤكدونه فى وجه كل من ينكره مع أن الجملة متضمنة معنى نقضها وذلك لأنهم أرادوا بقولهم ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ﴾ إن هى إلا حياتنا الأولى وعبروا عنها بالموتة لأنهم أرادوا الموتة التى تعقبها حياة وأنها ليست إلا الموتة الأولى التى كانوا عليها قبل نفخ الروح، وما دامت لا حياة بعد موت إلا الحياة بعد الموتة الأولى فلا حياة بعد الموتة الثانية التى نموتُها فى الحياة الدنيا، وكأنهم ينكرون البعث الذى هو الحياة بعد الموتة الثانية بدليل وهو أنه

لا حياة إلا بعد الموتة الأولى. وأن هذه العقيدة الباطلة صارت عندهم أصلاً يعوَّل عليه ودليلاً يرجع إليه قال الزمخشرى «كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا الأولى» يريد كأنه قيل لهم تموتون موتة ثانية تعقبها حياة كما كنتم فى الموتة الأولى قبل نفخ الروح وأعقبتها حياة والله سبحانه وتعالى سمى العدم الذى قبل نفخ الروح موتًا فى قوله جل وعلا ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] وقولهم ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ﴾ يريدون ما الموتة التى من شأنها أن تتعقبها حياة إلا الموتة الأولى. خاصة فلا فرق إذن بين هذا وبين قولهم ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الأنعام:٢٩] فى المعنى» انتهى كلامه بتصرف. وإنما أراد أنه لا فرق فى المعنى العام وإن كان هناك فرق فى صورة المعنى لأن العبارة عن نفى الحياة بعد الموت الذى هو البعث بقولهم ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ نفى ضمنى للحياة الآخرة لأن قصر الحياة على الدنيا يفيد ذلك وهذا بخلاف ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ﴾، لأنه نفى للحياة الثانية بدليل زعموه وهو أنه لا حياة بعد موت إلا الحياة التى بعد العدم، وزعموا أنه لا يتطرق إليه احتمال وزعموا أنه برهان على نفى البعث، وهذا الوجه من الاستدلال لم يذكره المفسرون وكان لابد من بيان سر إيثار العبارة التى استخدموها، والنَّصُّ الذى نقلته عن الزمخشرى بتصرف تناقله المفسرون بعده واختصروه ولا شك أن الزمخشرى كان من أقدر الناس على معرفة دقائق البيان وأنه كان فى طبقة عبد القاهر فى هذا وقد أضاف الرازى وجهًا آخر بعد ما نقل كلام الزمخشرى قال (ويمكن أن يذكر فيه وجه آخر فيقال قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ﴾ يعنى أنه لا يأتينا شىء من الأحوال إلا الموتة الأولى وهذا الكلام يدل على أنهم لا تأتيهم الحياة الثانية البته ثم صرحوا بهذا المرموز فقالوا وما نحن بمنشرين فلا حاجة إلى التكلف الذى ذكره صاحب الكشاف، انتهى كلام الرازى، وهو كلام قريب واللفظ يحتمله، وقد عبروا عن إنكار البعث بصيغ كثيرة منها ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا

الأُولَىٰ﴾ ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وعظَامًا﴾ [الصافات: ١٦]، ﴿من يُحْيِي الْعِظَام وهِي رمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] إلى آخره ومن المفيد والكاشف عن جوانب من أسرار بيان الذكر الحكيم أن تستقصى هذه الصور وأن تشرح شرحًا يبين مداخلها لأن الذى يقول ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ يقول شيئًا غير الذى يقول﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ ويرى استبعاد البعث من زاوية غير الزاوية التى قالها الآخر، وكل ذلك له صلاته بالسياق وإن كان لم يظهر لى فى هذه الآية. وقوله جل شأنه ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ هذه الجملة توكيد للازم دلالة الجملة قبلها لأن قصر الموت الذى تعقبه حياة على الموتة الأولى قبل النفخ يفيد نفى الحياة بعد الموتة الثانية، وهذا هو معنى ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾.

وكان الأصل ألا تأتى هذه الواو لأن الذى بين الجملتين كمال اتصال فهى موصولة بالتى قبلها من ذات نفسها وتستغنى بهذا الوصل الذى فى ذات نفسها عن واصل يصلها، وإنما جىء بهذه الواو لتفيد أن هذا كلام آخر فى نفى البعث وأن البعث نفى بكلامين وليس بكلام واحد، لأنك لو أسقطت الواو صار الكلامان كلامًا واحدًا يؤكد ثانية أوله وإذا جئت بها صار معنا كلامان لأن الواو تقتضى المغايرة، ثم إن الجملة بُنيت على وجه من التوكيد تقدم فيه حرف النفى على المسند إليه المقدم على الخبر المشتق وأكد هذا النفى بالباء الداخلة على الخبر، وهذا كقوله تعالى ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] وقوله سبحانه ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٦] واعتبار القصر فى هذا البناء لا وجه له لأنه لا يجوز قَصْرُه، فلا وجه لأن يقال إن نفى النشر عنا خصوصًا بخلاف غيرنا فإنه ينشر

وقوله سبحانه: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ هذه الفاء ترتب ما بعده على محذوف دل عليه المقام لأن الذى قبلها حكاية قولهم ﴿وَمَا نَحْ

بمُنشرِين﴾ وإنما يترتب ما بعد الفاء على مثل قولهم إن كنتم صادقين فى قولكم إننا سنبعث بعد الموت فأتوا بآبائنا ليدلنا ذلك على أن الحياة بعد الموت ممكنة، والأمر هنا معناه التعجيز وإن كنتم صادقين فيه إشارة إلى أن صدقكم أمر نادر أو هو مقطوع بعدمه وإنما نفترضه كما يفترض المحال، وكلمة ﴿كُنتُمْ﴾ معناها إن كان طبعكم الصدق فى كل ما تحدثتم به عن الدين الذى تزعمون، وهذا يعنى أن كلمة «كنتم» تجاوزت المعنى الذى فيه الكلام وهو البعث إلى كل ما يتصل بالدين الذى يدعونهم إليه لأنها تفيد أن خبرها قد دمج فى اسمها وصار جزءًا من ماهيته، وكل هذا ظاهر، والذى هو أهم أن الكلام انتقل عن الحكاية عنهم إلى إحضارهم وإنطاقهم حتى لا يُرْوى ذلك عنهم وإنما يسمعه القارئ من أفواههم، وهذا الانتقال أحدث شيئًا جليلاً وهو أنه فاجأنا بمشهد الحوار وحضور الفريقين المؤمنين والمكذبين وسكت عن مقالة المؤمنين ودل عليها بمقالة المنكرين وجعل الفاء الداخلة على فعل الأمر دليلاً عليها لأنهم لا يقولون لهم فأتوا بآبائنا إلا إذا كانوا أخبروهم بالبعث والأهم من هذا هو جزء المعنى الذى أحدث البيان له هذا التغيير وجعلنا نسمعه منهم. ولا نسمعه حكاية عنهم. لأن هذا الجزء من المعنى مؤسس على مغالطة وتلبيس هو من أهل الباطل كان ولا يزال لأنه لم يقل أحد أن الله سيحيينا ويحيى موتانا فى الدنيا حتى تطالبوا بذلك وإنما الحياة الثانية هى حياة الآخرة. وأن الذى سيعيدنا هو الذى يحيى ويميت، وهو ربكم ورب آبائكم الأولين، وهو الذى خلقكم أول مرة كما أقررتم فى قولكم ﴿إنْ هِى إلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ﴾ فهو الذى جعل الحياة بعد هذه الموتة الأولى وما دمتم أقررتم بحياة بعد موت فلماذا تنكرون الحياة الثانية بعد الموتة الثانية؟ هذا منهم تلبيس وتدليس وقد أنطقهم الله به لعظيم دلالته على تلفيقهم، وأكاذيبهم، وقد كنت أبحث عن سر التعبير فى الجملة الأولى التى هى ﴿إن هِى إلاَّ مَوْتَتُنَا

الأُولَىٰ﴾، ولماذا لم يقولوا إن هى إلا حياتنا الأولى وذكـرت ما رأيته وأضيف هنا أن هذا التعبيـر فيه أيضًا قـدر من التشهير بأكـاذيبهم وضلالهم لأنهم فى هذه الجـمل الثلاثة ينكرون فى آخـرها مـا أَقَرُّوا بدليله فى أولهـا، لأن دليل الحياة الثانية بعد الموتة الثانية هو الحياة الأولى بعد الموتة الأولى. التى قبل نفخ الروح، وإنكارهم للحياة الثـانية بعد الموتة الثانية يتناقض مع إقـرارهم بالحياة الأولى بعد الموتة الأولى وهذا الكلام المخـتلط والمتضارب أشـبه بأهل اللعب والشك ولعل هذه هى المنـاسبـة للسـياق. ثم إنهم دلَّسـوا وخلَّطُوا لما قـالوا ﴿فَأْتُوا بِآبَائنا﴾، وطالبـوا رسـول الله ﷺ ومن مـعه بـأن يأتوا بآبائهم لأن رسول الله لا يملك ذلك ولا يدعـيه وإنما أخبرهم أن الله سـبحانه هو الذى يحيى العظام وهى رميم وأن الذى يعـيدهم هو الذى خلقهم أول مرة وأنه هو الذى مضى ذكره فى الآيات السابقة. فمـا وجه مطالبة المؤمنين بأمر لم يدعوه وإنما هو أمر الذى أحياهم أول مرة وأكرر أن هذا الكلام المنحرف وقبله الكلام المتناقض كل ذلك يجعله أشـبه بمن هم فى شك يلعبون ومرة ثـانية لعله وجه المناسبة.

وقوله جل شأنه: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِين مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

السياق له مشاركة فى الـدلالة على المعنى وكأنه كلمة فى الجملة لأنه جزء من البيان أعنى اللغة المنطوقة، قلت ذلك لأن ذكر قوم تبع والذين من بعدهم وابتداء ذكرهم بهـمزة الاستفهام الدالة على الإنكار وبناء الجـملة على التهديد والتـخويف والوعـيد بالاسـتئـصال كل ذلك دل على أن قـولهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِين (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾ مع أنه من موجـبات غضب الله وأنه أعقـبه هذا التهديد هو مع ذلك دال على أن القوم لما قالوا ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾ لم يقولوا ذلك من باب طلب البرهان الذى تطمئن به نفوسهم وإنما قـالوه استكبارًا واستعلاء

وغطرسة واعتدادا بالقـوة واستضعافًا للمؤمنين واستخـفافًا بهم، لأنه لا يقال في عقب هذا القول إنهـم ليسوا أشد قوة من قـوم تبع إلا إذا كان هذا القول راجعًا إلى الاعتـداد بالقوة، ولو طلبوا من الله برهانًا غير مـا جاءهم به رسول الله ﷺ للهداية أو لزيادة الهداية لأجابهم الله إلى مـا طلبوا، كما أجاب الذى جاء خبره فى قوله تعالى. ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]. وعلم الله من حاله أنه طالب دليل وطالب هداية ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾، وإبراهيم أبو الأنبياء لما قال ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [البقـرة: ٢٦٠]. أراه الله ذلك. والحواريون لما قالوا لعيسى ادعو لنا ربك أن ينزل علينا مـائدة من السماء. كل هؤلاء أجابهم الله لأنهم طلبوا ما يهديهم إلى الله فهداهم الله، أما هؤلاء الذين قـالوا ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾ لو علم الله منهـم الرغبـة فى البـرهان الذى يهديـهم إلى ربهم لأجابهم ولكنهم طلبـوا ذلك تعنتـا واستكبارًا وغـطرسة وبغيًا ولذلك أجيبوا بالوعيـد بمثل ما أصاب قوم تبع، وكل هذا دلالة سياق وكل هذا دلالة اقتران.

وتُبع لقب من يملك اليمن: حـمير وسبأ وحضـرموت - ولا يقال له تبع إلا إذا ملك هذه الثـلاثة وهذه الثـلاثة من الأمم القـديمـة القـوية. والمرأة المذكورة فى سـورة النمل والتى لها عرش عظيـم وأوتيت من كل شىء ولها قصر ممـرد من قوارير كانت ملكة فى هذه البلاد، ولا أدرى هل كـانت قبل تبع المذكور هنا أم بعده، وتُبعٌ المذكور فى الآية نهى رسول الله ﷺ عن سبِّه لأنه آمن وفى مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا تبعًا فإنه كان قد أسلم»، وفى رواية فإنه كان مؤمنًا، وقالت أمنا عـائشة رضوان الله عليها إن الله سب قومه ولم يسبه، وقال الخفاجى أنه بشر ببعثة النبى ﷺ وإليه تنسب الأنصار، ولحفظهم وصيته عن آبائهم بادروا إلى الإسلام. ولهذا قال ﷺ

لا أدرى أكان نبيـاً؟ وهو أول من كسا البيت وقيل هو عزير وقـيل غير ذلك ولم يذكر القرآن قـوم تبع إلا فى هذه الآية وفى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصحَابُ الرَّسِ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٤]، ولم يذكر قوم تبع وحدهم كـما ذكر قـوم نوح وهود وصالح إلى آخـره وإنما يذكرون مقـترنين بالأنبـياء، كـمـا فى هذه الآية أو يذكـرون مع الذين من قبلـهم كمـا فى آية الدخان التى مـعنا وكانت الآيات إذا ذكرت قوم نوح ذكـرت من بعدهم لأنه ليس قبلهم أمم ذكرها الكتاب فى الذين عاندوا وأخـذوا أخذ استئصال، وإذا ذكرت قوم تبع ذكرت من قبلهم لأنه ليس بعدهـم أمم أخذت أخذ استئصال، وهذا يعنى أن قوم نوح وقوم تبع طرفا الحلقة.

وتبع المذكور فى الآية التى معنا غزا المدينة ومكة ومصر الأمصار وقالوا هو الذى حيّر الحيرة وبنى سمرقند وفـتح العراق، ونجد شبهًا بينه وبين الإسكندر هذا فى تاريخ الـغـرب وذلك فى تاريخ الشـرق، وقـالوا إنه لمـا دخل المدينة وغزاها لقيه حبران من يهود وعرضا عليه اليهودية فدخل فيها، يعنى جاء بعد موسى عليه السـلام وقد اعتنق اليهودية وليس من بـنى إسرائيل، وهذا معنى أنه لم يأت بعد قـومه قوم عذبوا عذاب اسـتئصال لأنه ليس بعـده إلا عيسى عليه السلام ولم يأخذ الله قـومه أخذ استئصال كمـا أخذ فرعون الذى أرسل الله إليه موسى.

هذه بيانات ضروريـة قدمتها لأسـأل سؤالاً لم أجد له عندى جوابًا شـافيًا وهو لماذا ذكر قوم تبع هنا؟ مع أنهم ليسوا من الذين أرسل إليهم نبىٌّ وعاندوه كفرعون وقوم نوح وهود وصالح؟ ولماذا عذبوا عذاب استئصال هُدّدت قريش بمثله ولم يبعث إليهم نبى؟ آية الدخان تقـول إن الله أهلكهم لأنهم كانوا قومًا مجرمـين وآية ق تقول ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾، فأى رسول كذبوه؟

ولماذا كانوا مجرمين؟ هل يمكن أن يقال إن تبَّعا دعاهم إلى اليهودية فرفضوا وهذا هو إجرامهم وما استحقوا الوعيد عليه؟ وإذا كان كذلك فلماذا لم يتمردوا عليه وظلوا خاضعين له؟ وهل يعذب القوم عذاب استئصال إذا رفضوا دعوة الداعى الذى ليس بنبى إلى دين لم يبعث فيهم رسوله ولم يرسل إليهم، وهل كانوا ملزمين بقبول اليهودية التى دخل فيها تبع؟ كل ذلك ليس عندى له جواب ويوجب أن يكون الدرس التفصيلى لتاريخ الأمم القديمة البائدة جزءاً من علم التفسير لأننا سنظل أمام غموض كثير ما دمنا لم ندرس كل هذا على الوجه الدقيق الذى يفسر لنا الآيات على وجهها الواضح.

بقى السؤال الذى هو من صميم هذه الدراسة وهو لماذا ذكروا هنا؟ لماذا لم يقل سبحانه أهم خير أم قوم هود؟ أو أم قوم صالح أم أصحاب الأيكة؟ من الذين تردد ذكرهم فى الكتاب العزيز؟ أى خصوصية فى قوم تبع جعلتهم أولى بهذا المكان من غيرهم.

والذى عندى فى جواب هذا السؤال كلام يحتمل وليس فيه ما يشفى وسأقوله لأنه ربما آثار عند غيرى ما يشفى. ويلاحظ أن قريشًا فى سورة الدخان قد بلغت الغاية فى التحدِّى والغطرسة والاستكبار والعتُو حتى جعلت رسول الله ﷺ وهو المحب لقومه والذى كانت تذهب نفسه حسرات عليهم يدعو الله عليهم وأن يجعلها سنين كسنى يوسف وهم أهله لأنه لم يكن هناك بيت فى مكة إلا ولرسول الله ﷺ فيه قرابة كما قال ابن عباس وكانت قصة الدخان تقابلها قصة قوم فرعون مع الطوفان والجراد والقمل والضفادع ولم يكن هذا لقوم فرعون إلا لما بلغوا غاية العتو والغطرسة ولذلك كان الاستئصال والغرق بعد هذه الحالة، وكان قوم تبّعٍ قد بلغوا الغاية فى العتو والغطرسة زمان تبع وكانوا قد قهروا عرب الشمال، لما غزا تبّعٌ المدينة ومكة واستباح ديارهم وذاكرة المكيين تذكر هذا ولا تنساه،

والآية تقول لهم لستم خيرا من قوم تبع الذين تعرفون قوتهم وصلفهم وعتوهم.

وقد بدأت الآيات مع قوم فرعون بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾، وبدأت مع قوم تبع بقوله تعالى ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ فأشار هذا إلى أن المقصود من ذكر فرعون وقومه وبنى إسرائيل هو الابتلاء الذى انتهت قصتهم بما يشبهه فى قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ﴾ وآذنت بالابتداء فى قوم تبع بأن المقصود هو القوة والشدة والصلف والعتو، هناك قابل ابتلاء قريش بالدخان بابتلاء قوم فرعون بالطوفان والجراد، وهنا قابل عتو قريش واعتقادهم بأن فيها خيرية وهو القوة والصلف والعتو فقابلها بخيرية قوم تبع وفق اعتقاد قريش فى الخيرية، ثم هناك شىء آخر وهو أن كل الأمم التى ذكرها القرآن فى مقام وسياق التهديد بالأخذ والاستئصال ليس لها ملوك إلا قوم فرعون وقوم تبع وبينهما فرق كبير هو أن قوم فرعون لانت نفوسهم لما دعا موسى ربه فكشف عنهم الرجز ثم أمالهم فرعون واستخفهم فأطاعوه وأضلهم فضلوا، وقوم تبع قائدهم وملكهم اهتدى على عكس فرعون وظلوا هم على ضلالهم، وعتوهم، وهذا واضح فى دلالته على قوتهم فى ضلالهم وشدتهم ورفضهم ما عليه ملكهم وإن كانوا تحت لوائه وتحت سلطانه، وهذا نمط غريب من الأمم التى ترفض ما عليه كبيرهم ثم تبقى محافظة على كيانها السياسى. وسورة الدخان هى السورة الوحيدة التى جمعت فى خطاب قريش بين هذين الضربين من الملوك ملك أضلّ قومه وما هدى، وملك اهتدى وضل قومه فلم يهتدوا، وهذا الذى عندى فى هذا والله أعلم، وجملة ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ عائدة على ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وتفيد أنه لا يعارض الحق إلا من كان الإجرام جزءاً من طبعه ومن ماهيته وأن الأمر كذلك ما بقى الناس. وأن الذين ذُكِّرُوا بقوم تبع وقالوا ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾ ليسوا بمعزل عن هذا الوصف.

قوله سبحانه ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

راجع الترتيب لأن الرازى رجع بالإعجاز إليه، وهو غريب جداً: لما عاد الكلام إلى الذين هم فى شك يلعبون بعد الفراغ من المثل الذى ضربه الله لهم من قوم فرعون ونجاة بنى إسرائيل كان أول حديث الله عنهم إنكارهم البعث، ويلاحظ أن الآيات السابقة لم تذكر تفاصيل باطلهم ولم تذكر من هذه الأباطيل إلا هذه الصورة وإن كانت جمعت كل باطلهم فى جملة ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ ولما ذكرت الآيات إنكارهم للبعث وهو أشنع ما فى الكفر لأنهم لم يكفروا بالله، وإنما أقروا بأنه الخالق - بادرت الآيات بما يدل على غضب الله عليهم بسبب إنكارهم للبعث وبسبب سَفْسَطَتِهم لما قالوا ﴿ فَأْتُوا بِآبَائِنَا ﴾، وذكرت قوم تبع ومن قبلهم وهلاكهم وهلاك المجرمين وكل هؤلاء أشباه قريش ووراء ذلك من التهديد والغضب ما وراءه، ثم بعد الفراغ من إنكارهم البعث وتهديدهم على هذا الإنكار توجه الكلام إلى بيان دليل البعث. ومن دقائق البيان أن الحق سبحانه أسس هذا الدليل على أمر مسلم عندهم وهو أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما وكل مرة يسألون فيها عن خالق السموات والأرض وما بينهما يقولون خلقهن الله أو العزيز العليم كما جاء فى رأس سورة الزخرف، وهناك صلة دقيقة وجليلة بين هذا الدليل وما جاء فى أول الزخرف وآخرها فقد جاء فى أولها ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩]، ولا يرد فى خاطر من فيه شوب من عقل أن يكون خَلْقُ السموات والأرض والإنسان لعبًا وأن يكون خالقهما لاعبًا بخلقها. والدقائق المعجزة فى خلق أصغر الكائنات من حيوان أو نبات فى بر أو فى بحر تَنفى العبث عن الخالق جل وتقدّس. ولذلك بدأت هذه الجمل بما هو معلوم علم

ضرورة وأعني الجملة الأولى من هذه الجمل الثلاثة، وهي قوله سبحانه ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِين﴾ ولاحظ البداية بالسموات التي زينها بمصابيح ورفعها من غير عمد ترونها، وفيها الشمس والقمر وكل في فلك يسبحون لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، فكيف يُتصوّر أن يصدر هذا الخلق بكل ما فيه من دقة عن خالق يلعب وقل مثل ذلك في الأرض وقل مثل ذلك في الذي بينهما مما لا يحصى. وهذه الجملة كما قلت معلومة علم ضرورة، وإنما يؤتى بالأمر المعلوم ليُبْنَى عليه ما ليس بمعلوم، ويكون هذا الأمر المعلوم أساسًا وبداية لحقائق عظيمة وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، بدأت الآيات بما لا يجهله جاهل ولا ينكره منكر ثم أسست عليه ما أسست وترقى الأمر من المعلوم علم ضرورة إلى ما لا يعلم إلا بالعقل والنقل.

وهذا فيه الوصول بالحقائق العزيزة النفيسة النادرة إلى القلوب بطريق مأنوس جداً ومألوف جداً وكأن الآيات تؤنس النَّفْس الإنسانية بالغريب البعيد عن طريق المألوف القريب فإذا كان إنكار البعث قد استحكم وركب العقول فإن الآية تقتلعه بأقرب طريق وتؤنس النفس به بما تعلمه علم ضرورة، والنفي الداخل على خلق السموات والأرض منصب على الحال ﴿لاعِبِينَ﴾ ثم تأتي الجملة الثانية مؤسسة على هذه الجملة ومبنية على حذوها، وإعادة لها وهي متضمنة إثبات الحقيقة التي أصروا على إنكارها ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ وقد فصلت عن التي قبلها لأنها موصولة بها من ذات نفسها، وقد بُنيت على القصر المؤكِّد للنفي في الجملة قبلها، ويلاحظ أنه قابل اللعب بالحق، ليشير إلى أن لعب اللاعبين ليس هزلاً يقابل الجد وإنما هو باطل يقابل الحق، ولا شك أن كلمة ﴿لاعِبِينَ﴾ تشير إشارة ظاهرة إلى الجملة الأم التي بُنْيت

عليهـا السورة وهو قـوله تعالى ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ وتعود بشيء من المعنى لكلمة ﴿يَلْعَبُونَ﴾ وأنه ليس اللعب الذى يقابل الجد وإنما هو الباطل الذى يقابل الحق، والواو التى بُنيت عليهـا هذه الجمل الثلاثة، والتى فى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ عاطفة لهذه الجملة ومـا تعلق بها علـى قوله سـبحـان ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ﴾ وتلاحظ أن الدليل قـام على نقض كـلامهم من جـهة البناء اللغـوى أيضًا وذلك لأنهم بدؤوا بجـملة قصر ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ ﴾ ثم أكدوها بجملة ثانية ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ والذى معنا بداية بجملة تم تأكيدها بجملة قصر ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ ولا تنكر علىّ أمثـال هذه الملاحظات لأن كل شيء فى البيان له سر فكيف إذا كان هذا البـيان فوق كل بيان، وكانت أسراره فوق كل الأسرار، والذى يبقى وبيانه ضـرورى جداً هو معرفة الربط بين خلق السـموات والأرض ومـا بينهمـا بالحق، وإثبـات البعث، وقـد تكرر هذا فى الكتاب العـزيز كثيرًا مع تغـيرٍ خفيف أحيـانًا كأن يقال وما خلقنا السـماء بدل السمـوات كما جاء فى الأنبـياء، ووجوه دلالة خلق السـموات والأرض على البعث كثيرة، منهـا ما كان من جـهـة القـدرة وأن الـذى خلـق هذه الأكـوان لا يعجزه أن يعـيد خلق الإنسان، وأن يبعثـه من تراب وعظام وأن عز الربوبية الذى تجده فى إسناد خلق السـموات والأرض لضمير العظمـة لا يُعجزه شيء وأن من أقر بأنه سـبحانه خالق السـموات والأرض فالواجب أن يقول سـمعنا وأطعنا فى كل أمـر يأتيـه من ربه، وأهم من هذا وهو الذى أردته هو أنه قـد جاء فى الكتـاب دليل آخر على البـعث هو من هذا ولكنه جاء بطريقـة أخرى أعنى قولـه تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] وهذه الآية تجـعل خلق الإنسان من غيـر بعث عبثًا محـضًا والعبث لا يوصف به الخالق الرازق البارئ اللطيف الخـبير لأنه خلق وعلم ماذا خلق ويعلم أن ما خلقه إذا لم يكن له قانون يضبطه هلك هذا المخلوق وأهلك من حوله فالذى ألهم النفس فجورها وتقواها وغـرس فيها نوازع الأمر بالسوء

وجعل فيها الخير والشر يصطرعان لو تركها هملاً من غير حساب لكانت الأرض أسوأ من غابة يأكل فيها القوى الضعيف وتسلطت الغرائز والشهوات على كل شيء وإذا كان الله قد نزع بعض نوازع الشر من الحيوان حتى يتعايش فلا ترى الواحد من الجنس يقتل جنسه يعني لا ترى كلبًا يقتل كلبًا ولا ذئبًا يأكل ذئبًا ولا حمارًا يقتل حمارًا وإنما يقع القتل بين الأجناس المختلفة وترك هذا الشر والنزوع فى الإنسان فهو الكائن الوحيد الذى قتل جنسه كل هذا لا يكفه ولا تستقيم الحياة معه إلا بالبعث والحساب والجزاء والجنة والنار، ثم إن الحساب والجنة والنار لا تكون ولا يمكن أن تكون إلا إذا شرع الله شرعًا وحدّد حدودًا وأمرًا ونهيًا وطالب عباده بالوقوف عند حدوده وامتثال أمره ونهيه، ووضع لهم صراطًا مستقيمًا ودعاهم إليه ونهاهم عن غيره وعلى هذا يتأسس الحساب والثواب والعقاب وكأن إلغاء البعث يعنى إلغاء النبوات، وأن يخلق الإنسان ويترك سدى وهذا من العبث المستحيل على الله جل شأنه.

وهذا ظاهر فى مثل ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المومنون: ١١٥]. وفى مثل ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، أما أن يأتى هذا الدليل فى صورة خلق السموات والأرض فذلك له دلالة زائدة على ما تدل عليه آية ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ وهذا المعنى الزائد هو أن الله سبحانه ذكر فى آيات كثيرة أنه سبحانه سخر السموات والأرض وما بينهما لهذا الإنسان وأن الله سبحانه جعل لكم النجوم، وجعل لكم الأرض مهادًا وأنزل لكم من السماء ماء، وكل ما فى الكون مجعول لكم يعنى أن الإنسان هو محور هذا الكون كله والبعث ليس للنجوم ولا للسماء ولا للأرض وإنما للإنسان فقط والحساب والثواب والعقاب ليس إلا للإنسان فقط، فإذا قال سبحانه ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ فإن ذلك يدل على أنه خلق هذا للإنسان وجعل خلق الله لهذه الكائنات كناية عن خلق الإنسان لأنها

من لوازم خلقه ومن تكريم الله له فقد خلقه وخلق له الكون ومن تمام نظامه ومن تمام اعتداله واستقامته، وإتاحة حياة أطيب وأهدأ وأكرم له أن يضع له دينا وصراطًا مستقيمًا لأنه هو الذى يعلم ما يصلح به ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]. وكأن البعث والحساب والجنة والنار من تمام نعمة خلق الإنسان وخلق السموات والأرض وما بينهما لهذا الإنسان ولو خلقنا ربنا وتركنا سدى لكان ذلك إهانة لنا، والله سبحانه كرّم بنى آدم، لأن البعث والثواب والعقاب والجنة والنار كل ذلك هو الضوابط والسدود التى لو انهارت لصارت الأرض جحيمًا أهول من جحيم جهنم.

قوله سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ هى الجملة الثالثة فى دليل البعث وليس فيها شىء من الدليل لأن الدليل محصور فى نفى اللعب عن خلق السموات والأرض وما بينهما وقصر الخلق على الجد وقد استقلت كل جملة من الجملتين السابقتين بمعنى من هذين المعنيين وجاءت هذه الثالثة كأنها فاصلة للجملتين وتعقيب عليهما، والمعنى الذى فيها وهو نفى العلم عن الأكثر معنى شائع فى الكتاب ومثله نفى الإيمان عن الأكثر، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩] ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ وهذا كثير، وفيه دلالة جليلة جداً وهى أن أمر الناس إذا أسند الرأى فيه إلى هذه الكثرة فقد ضاعت المنفعة وضاع طريق الهدى لأن عيون الأكثر لا تبصر الهدى وخصوصا إذا التبست المسالك ودقّت وتشابهت وأن التعقل والتفكر والبصيرة والرأى مع القلة الواعية العاقلة من أهل العلم وأهل الصدق وهذا لا ينازع فيه منازع والذى أراه حولى أن كثيراً من الملبّسين المُبْطلين الكذابين المتهمين فى ولائهم يعوّلون على هذه الكثرة التى لا تعلم ويضلونها وينفذون ما يريدون بأصواتها.

وألاحظ فى الآية أنها أكدت نفى العلم عن الكثرة بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلى وقد نُزّل الفعل منزلة اللازم للإشارة إلى أنهم غير مؤهلين لأن يعلموا وأنه لا يكون منهم العلم مع صرف النظر عن المعلوم ما هو وصيغة

المضـارع فيـها إشارة إلـى أن البعث لا يعلم دليله إلا بالمراجـعة وتجـدد هذه المراجعة وتجدد العلم بها ومذاكرتها لأنها نعم الهادى ونعم الرادع.

وهذه الفاصلـة ختام مـا جاء فى السورة من نقـاش وحوار ووعـيد والذى سينتقل الكلام إليه هو يوم الفصل وهو أول القيامة وما بعده من جنة ونار.

ولذلك ترى الفاصلة يتسع معناها ويلتئم مع أكثر ما فى السورة فلو رجعت بها إلى أصل معانى السورة وجدتها تلتئم مع أكثرها.

ومن دقيق المعانى أنهـا مع أنها تلتئم مع أكثر الذى مـضى تفتح الباب لما بعدها وراجع مـا بعد يوم الفصل تجـد هناك إشارات إلى قلة فى مـثل قوله ﴿إلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ تجد هذه القلة تتجلى فى أعظم تجلياتها فى قوله تعالى: ﴿إنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ وبكون وصف هؤلاء المتـقين نهـاية السورة وبذلك يُردُّ هذا على الليلة المبـاركة التى بدأت بها السورة، ولهـذا أقول إن بداية آيات ﴿إنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هو بداية نهاية السورة. وأن موقع هذا الجزء من الدخـان كموقع ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف:٦٦] ومـا بعده من الزخـرف لأن فى كل تَرْكًا لأحْوالِ الدنيا وبداية حديث فى أحوال الآخـرة وغالبًا ما يكون وصفًا لأهل الجنة وأهل النار

وجملة ﴿إنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد لدليل البعث الذى فى قوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾، لأن أصل القضية ﴿إنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إنْ هِيَ إلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾، وجاء بعده ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ للإشارة إلى أن هذا المنكر مما يوجب عذاب الاستئـصال والهلاك وأن الذين هلكوا من قـوم تبع ومن قبلهم إنما هلكوا لهذا.

ثم جـاء الدليل المنطقى الذى لا يرفـضـه عقل وهو أن خـلق السمـوات والأرض خلق ملتبس بالحق يعنى بالثـواب والعقاب وإلغاء الثـواب والعقاب من حـياة الناس يعـنى الفوضى والعـبث وإطلاق العنان للتـوحش والغلبـة وقانون الغابة، ثم مضى الكلام بذكر يوم الفـصل وما فيه وراجع الجملة تجد أولاً استئنافًا مؤكدا لتحقـيق هذا الخبر وتقريره، ويجب أن ننظر إلى التوكيد ملاحظيـن القائل جل شأنه وأن توكـيد المعـانى التى يحدثنا سـبحانـه عنها للتوكيد فيها مذاق لا يكون للتوكيد إذا كان القائل غيره، ثم إننى ألاحظ هنا شيئًا آخر وهو أن الاستئناف بدأ بالحديث عن يوم الفصل وما يكون فيه وهذا لا يكون إلا بعد البعث والنفخة الثانية ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨] ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧] وكأنها تجاوزت مسألة إنكار البعث وبنت الكلام على إثبـاته لأن إنكار البـعث لا يُلْتفت إلـيه، ويوم الفـصل هو يوم التنـاد ويوم التـلاق، و﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْـفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر:١٦] ويوم الحـاقة ويوم الصاخة وكل اسم من هذه الأسـماء له موقع فى سياقه لا يَسُـدُّ غيره فيه مسده، فـلا يمكن أن نقول هنا إن يوم الحاقة أو يوم الساعة أو يوم التناد ميقاتهم أجمعين، وكشف ذلك صعبٌ والسر فيه قد يختلف ويتعـدد وأرى ذكره هنا بعد ذكر إنكار النشر والسفـسطة والاستكبار والغطرسة فى قولهم ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾ للإشارة إلى ما فيه من حساب وعقاب وفصل وحكم، لأنهم قالوا مـا قالوا استعلاء واستكبـارًا لأنهم مُقرُّون بأنه خالق السموات والأرض وخالقهم ومـادام كذلك فلا يجوز أن يوصف فعله هذا العظيم والذى لا يـكون إلا منه باللعب والعـبث وكلمـة الفـصل بمعنى الحكم أشكل بهذا الموقف وأشـبه كمـا أنها أشكل برأس السورة وأشـبه لأن الفصل هو معنى ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ والميقات، الوقت الذى يفصل الله فيه بيـن عباده، وراجع الجملة لتدرك مـا فيها من تهـديد شديد ولتدرك

أيضًا أن هذه الجملة التى تخبرهم بأن الفصل والحكم له وقت حدّده الله ومجيئها بعد قولهم ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾ قد وقعت فى حاق موقعها وأن التهديد بعذاب الهلاك الواقع على قوم تبع يأتى بعده توقيت يوم الحساب، وقد قرئ برفع الميقات وبنصبه، ورفع الميقات يعنى أنه خبر إن وأصل الجملة هو يوم الفصل وأنه مخبر عنه بالميقات وقراءة النصب تعنى أن الميقات هو اسم إن ورأس الجملة هو الميقات وأنه مخبر عنه بيوم الفصل وفرق بين أن تقول يوم الفصل ميقاتهم وأن تقول ميقاتهم يوم الفصل. فرق بين أن تجعل العناية بيوم الفصل فتقدمه وأن تجعل العناية بالميقات فتقدمه، فرق بين أن تجعل العناية بالحكم والقضاء وأن تجعل العناية بوقت الحكم والقضاء وكل له وجهه فى موقعه بعد قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ والضمير فى ميقاتهم عائد على هؤلاء فى قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾ ويوم الفصل ميقاتهم وميقات غيرهم من كل خلق الله البر منهم والفاجر من يوم آدم إلى أن ينفخ فى الصور. فصعق من فى السموات والأرض إلا من شاء الله، والإخبار بأنه ميقاتهم لا ينافى أنه ميقات غيرهم كما تقول غدًا الفصل فى موضوع فلان فلا ينافى أن يكون أيضًا فصلاً فى موضوع غيره لأن العبارة سكتت عن غير فلان، ولم تقصر يوم الفصل على ميقاتهم، وكان يمكن أن يقال إن يوم الفصل ميقات الخلق أجمعين، وإنما جاء الكلام على ما جاء عليه لأنهم هم المقصودون بالتهديد بالفصل فى هذا الميقات، لأن الحديث عن ضلالهم هم، ويدخل فيه كل من كان على ما هم عليه، وكلمة أجمعين تأكيد معنوى للضمير للإشارة إلى التساوى فى هذا التهديد لا فرق بين المستكبرين والذين استضعفوا ولا فرق بين من تولى كبر هذا الباطل ومن تبعه وجاراه، وهذا المعنى الذى وراء هذا التوكيد قد أفصحت عنه الجملة التى تلى هذه الجملة وهى قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾ والمولى القريب

والحليف والصاحب. والتنكير فى سيــاق النفى يفيد لا يغنى أى مولى عن أى مولى شيئًا وكذلك التنكير فى كلمــة شيئًا، ويغنى عنه يعنى لا يتحمل عنه شيئًا أى شىء يــوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحــبته التى تؤويه ومن فى الأرض جميعًا. وهذه عبــارة فى غاية الإيجاز وفى غاية السعة فى الدلالة وراجع لتدرك لأن من علم البيان مــا لا يناله الشرح والتحليل وإنما يناله العقل والقلب بالتأمل والمراجعة وهذا أكــثر براً وأكثر نفعًا، قلت هذا لأن السعة التى فى هذه الجــملة لا يحاط بها إلا بكلام كثــير، وأجد تحت هذه العبــارة المعنى الذى أومأ إليــه التوكيــد بكلمة ﴿أَجْمَعِينَ﴾ وأن القوم المعــارضين الذين هم فى شك يلعــبون والذين يقــولون ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ﴾، كــان منهم من ضل وأضلَّ وأن هؤلاء الــذين أضلهم ضــلاَّلهم كانوا مــنقادين وراء كــبار أهل الضــلال، ولو تركوا لاســتقام أمــرهم ولو رفضوا التبــعية وانقادوا لما تهديهم إليه عقــولهم لاهتدوا وهم الذين يقولون للذين اســتكبــروا وهــم فى النار لولا أنتم لكنا مــؤمنــين، ولو تأملت مــا حولك لوجدت هؤلاء لا يزالون حول أهــل الضلالة وإن كانت المواقف قد تطورت وصارت إعلامــا وثقافة وكتابة يبــررون بها باطل أهل الباطل وهم من أهم أسباب البلاء لأنهم لو صدقوا وقــالوا قولاً سديدا لصلح كثير من أمــر الناس. كان كــبــار أهل الضلالــة فى الزمن القديم يــقولون للأتبــاع ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] وهم الآن فى غنى عن أن يقــولوا هذا لأنهم يعطونهم مــا يشــترون به ضــمائــرهم مما نهبــوه من الشعوب الكل لصوص. وهذه الجملة قوية جــدا فى زجرها وردعها ولغتها وهى بدل أو بيان عن جملة ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ قال الشهاب عند من لم يشترطوا المطابقة فى التــعريف والتنكير أراد أن يوم الفصل مــعرفة ويوم لا يغنى نكرة.

وقوله: ﴿ولا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ تضيف معنى آخر فإذا كانت التى قبلها تنفى أن يحمل أحد عن أحد شيئًا فـإن هذه تنفى أن ينصروا بشفيع ينصرهم، وقد بُنِيَت على وجـه من البناء عُنِى به العلماء لأن حـرف النفى دخل على المسند إليه المـتقدم علـى الخبر الفـعلى مثل قـولنا ما أنـا فعلت وقـد ذكروا أن هذا التركيب يفيد نفى الفعل عنك خصوصًا وإثباته لغيرك على الوجه الذى نفى به عنك ولهذا لا يقال إلا فى فعل قد كان، فقول أبى الطيب:

وما أنا أسقمت جسمى به

يعنى أنه لم يفعل السقم بجسمه ولم ينف السَّقَم وأن السقم له فاعل آخر، ويقطع عبـد القاهر بأن هذا يفيـد الاختصـاص، ومعنى هذا أن الآية تنفى أن ينصر هؤلاء بخلاف غيرهم فإنهم ينصرون، وهذا لا يستقيم فى الآية. ووراء هذا أن من لقى اللـه وهو مـؤمن، له ناصـر وشـافع من الملائكة والأنبـيـاء والصالحين ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣، ٣١] وفى حديث الشفاعة يقال لرسول الله ﷺ «سل تعطه واشفع تشفع».

وبعض علمائنا يرى أن هذا التـركيب لا يفيد الاختـصاص فى كل حال وقد يأتى للتأكـيد فقط، والاستعمال ينصـر هذا وقوله جل شأنه: ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ البعض يرى أن هذا الاستثناء متصل وأن من هذه الفئة من رحمه الله وهداه ولم يمـت وهو منكر وأن رحـمـة الله تخـتـرق هذه الظلمـات فتضىء بها قلوبا عتت وبغت وتنتزعـها من ظلماتها وعُتوها وترجع بها إلى الهدى، وقد كان ذلك مع أهل مكة إلا من سـبق عليه الكتاب، وهذا باب أمل مـفتـوح لكل ذى باطل وكل صـاحب ضلالـة لو التفت ورجع وجـد رحمة الله فى وجـهه ووجد الله يأخذ بيده، والمسـتثنى منه قد يكون الواو

فى قوله: ﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وقد يكـون مولى الأول أو الثانى والـبعض يرى أن الاسـتثنـاء منقطع، والمعنى ولكن من رحم الله، والكـلام يحتـمل وهذا الاحتمـال يعنى وجوها متنوعة من المعـانى. وأهم ما فى الاتصال هو انبلاج فـيض الرحمـة فى شدة القسـوة والعناد والكفر والظـلمة، وأن هذا العُتـوَّ لا يُيْئس لأن رحمـة الله قادرة على هدمـه وأن رؤوس الضلال التى تراها حولك لا تحكم عليها بالنار لأن رحمة الله قادرة على تطهيرها. وأهم مـا فى الانقطـاع هو الإعـراض عنهم وإدارة الكلام عنهـم وتوجـهـه إلى المرحومين الأبرار الصالحين، هذا والله أعلم.

قوله سبـحانه: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ترى فى الفواصل دائمًـا مواطن خصبة لأسرار البيان ومكامن لأسرار الإعجاز، وهذه فاصلة جامعة لو رجعت بها إلى ما قبلها مباشـرة وجدتها تدخل فى لحم الجملة، وعظامها لأن العزيز هو الذى لا يغالب ولا يجـار عليه ولا ينصر أحـد من خذله سبـحانه، وهذا المعنى متغلغل فى التهديد الذى تراه فى. ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ والرحيم داخل فى قلب الاستثناء ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾.

ثم تعود بك ﴿الْعَزِيزُ﴾ إلى الوراء وتراها تتـجلى فى قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَـقُـولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَـوْتَتُنَا الأُولَىٰ﴾، ومـا بعدها لأن كل هذا يجـرى التهديد فى أوصاله والعـزيز هو الذى لا يزاحم ولا يغالب، ثم تراها تظهر لك ظهورا كالشـمس الساطعة مع عز الربوبـية الذى فى قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُـمَا﴾ إلى آخره، ولـو رجعت إلى الوراء أكـثر وجدت الـعزيز يتـجلى فى أعظم تجلياته فى كـل قصة مـوسى مع فـرعون ويبلغ الذروة فى مثل: ﴿وَاتْرُكِ الْبَـحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ ووجدت الرحيم يظهر فى مثل: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ وفى مثل: ﴿وَآتَيْنَاهُـم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِـيـهِ بَلاءٌ مُّبِـينٌ﴾ وهكذا تعود بـالعزيز إلى:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ وتعود بك الرحيم إلى الليلة المباركة: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ ونراها تمسك بصورة ظاهرة بقوله سبحانه: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وكل هذا ظاهر جداً وتأكـد أننى أرى أن التكلف فى دراسة كلام الله مما لا يرضاه الله، ولا يرضاه من يعرف أن كـلامه سبحانه غنى عن التكلف، ولا يجوز لى ولا لغيرى أن يحمل الـقلم ليكتب فى كلام الله شيئًا لا يرضاه الله، وقد قلت هذا لأنى سأنتقل بالعزيز الرحيم إلى ما بعدها لأنك أولا تلاحظ أن العـزيز تقدم لأن السـورة يظهـر فيـها الغـضب لأن الله أنزل رحمة للعالمين فشكُّوا وامـتروا وخاضوا فى لعب وهزل، وتجد ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ﴾ تأخذ حيزًا كبيرًا فى السورة وكذلك فتنة قوم فرعون ثم المنكرين للنشـر ثم شجرة الـزقوم تتقـدم على أهل المقام الأمـين، مع علو شـرفهم، ومكانتهم عند الله، أقول إذا رجعت بالعـزيز رأيتها مع كل معنى فى الحديث عن شجرة الزقوم وأنها طعـام الأثيم، وأنها كالمهل ووجدتها تبلغ الذروة عند قوله: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ إلى آخره كما تجد الرحيم مع كل كلمـة فى شـأن أصـحـاب المقـام الأمـين، تجـدها فى الجنات، والعـيـون، والسندس، والإستبرق، والحور العين إلى آخره، لأن كل ذلك ليس منه شيء بعمل أهله وإنما هو من محض رحمـته وفضله هذا شيء، والشيء الآخر هو أن العزيز الرحيم خـتمت الحديث عن يوم الفصل والذى سيـأتى هو ما بعده وهو الجنة أو النار، ويوم الفـصل هو القاعدة أو الأصل أو الأسـاس أو الجذر الذى دار عليه ما بقى من السـورة، وهنا أشياء تثير أسئلة ولا أجـد لها جوابًا شافيًا وهى، أن يوم الفصل جاء خبره فى الكتاب العزيز فى صور مختلفة فقد تحدثت الآيات عن أحـوال الوجود فى يوم الفصل كـما جاء فى سـورة النبأ: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ١٧، ١٨]

وهذا من أعجب البيان ولو لم ينزل الله على نبيه إلا هذه الآيات لكانت حجة الله القاهرة، والمهم أن هذا غير سا في سورة الدخان وتلاحظ أنه أبدل منه في النبأ كما في الدخان وراجع البدل في السورتين وتأمله لأنه الكلمة التي اختلف عندها اليومان فيوم النبأ شيء ويوم الدخان شيء آخر، هذا يحدِّث عن أحوال الناس والوجود وأنهم يأتون أفواجًا، والسماء كانت أبوابًا إلى آخره وهذا يحدِّث عن لحظة القضاء وأحوال القضاء وأنه ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ وراجع ما في النبأ لأنها ستهديك إلى أشياء، منها أن النفخ في الصور في النبأ جاء بعده ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ وراجع هذه الجملة لأني أشعر أن حديثي عن تفوقها البياني يفسدها عليك، ومن البيان ما لا يدرك إلا بالتأمل، وكان علماؤنا أحيانًا تنعقد ألسنتهم فلا تجد السِّرَّ الذي يكفي فيقولون تأمل وتدبر وعد إلى نفسك، إلى آخره ومثله أيضًا: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ وماذا لو قال وفتحت السماء أبوابًا؟ وما معنى فكانت وهل مثل ذلك في وسيرت الجبال أقول هذا وأقول أيضًا: إن النفخ في الصور جاء بعده مثل: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] ومثل: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤] ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس. ٥١] وكل هذا في حاجة إلى أن يجمع ويدرس ويقوم الدرس على ربطه بسياقه وأرى أنه من الإثم أن يدرب صغار الطلاب على هذا الباب، وإنما لابد أن تقتحمه أولاً أقلام العلماء الذين أحكمتهم المعرفة وصقلتهم المراجعة في كلام العلماء الأعلام وانقطعوا لذلك لأنه لا علم إلا بالانقطاع.

ومناسبة ما ذكر في يوم الفصل هنا لسياقه هو أن الكلام في جماعة عارضت وألحَّت ولجَّت في يوم الفصل وإنكاره، وقد تساندت في ذلك وتظاهرت فكان المناسب أن يذكر في هذا اليوم الحسابُ والمؤاخذةُ والمسئوليةُ الفردية التي تقوم على هذه الحقيقة ﴿لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ

ينصرُونَ﴾ حتى يعود كل إلى نفسه ويناقش نفسه ويتخذ قراره من داخل نفسه، أما أن يقروا بأصل الدليل وهو أنه خالق السموات والأرض وما بينهما ثم ينكروا الدليل والنتيجة اللازمة له، فهذا لا يكون من العاقل الذى يراجع نفسه وحده وليس فى جماعة تنساق نحو هدف هو همها وغايتها وهو تكذيب الدعوة مع صرف النظر عن الدليل.

وترى فرقًا واضحًا بين صورة العذاب بعد يوم الفصل الذى نحن فيه، وصورة العذاب بعد يوم الفصل الذى فى النبأ، ويتمثل هذا الفرق فى أن العناية هنا منْصَبَّةٌ على عذاب شخص. فهو الأثيم، وشجرة الزقوم طعامه، ويقال خذوه، فاعتلوه، ويقال له ﴿ذُقْ إنَّكَ أنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾، وكل هذا لتعميق الإحساس بأنك مسئول عن الذى تراه، وتعذب بناء على هذا، وليس على توجه الجماعة الذى قد يؤثر فيه فرد مثل فرعون فى الذى مضى. أو أبو جهل فى مكة، وبعض علمائنا قرن أبا جهل بفرعون، وأن أثره فى مقاومة دعوة محمد صلوات الله وسلامه عليه كأثر فرعون فى مقاومة دعوة موسى عليه السلام، والآيات ترجع بالإنسان إلى ذات نفسه وذات رأيه، ولا يتبع أحد أحدًا وهذا توجه قرآنى بالغ الأثر لأن كل فرد عليه أن يناقش مع نفسه وأن يعرض الأدلة ويفحصها بعقله هو وليس هناك مواكب يقودها كذّاب ويسميه الكذابون قائد مسيرة لا يجوز أن ينوب عنك أحد فى عمل عقلك ولا يجوز أن توكل غيرك ليفكر لك، ونرجع إلى بناء هذه الفاصلة وأول ما نطالعه فيها هذا التوكيد الداخل على ضمير الشأن، وبعد، ضمير الفصل. ثم تعريف المسند بالألف واللام، وتقديم العزيز على الرحيم، والجمع بينهما، وقد ترى العزيز مع الحكيم، وترى الرحيم مع الغفور، وكل هذا تحته أسرار لم تَطْرُق أبوابها بعد أقلامُ المنقطعين.

ومثل هذه الخصوصيات فى بناء هذه الجملة لها دلالة بعيدة المدى لأن المتكلم هو الله، وكأن هذه الفاصلة صارت مستودع الآيات قبلها، لأن التأكيد

يلفت إلى أهمية ما بعده، لأنه لا يجوز أن يقال فيه إنه رد على منكر لأن من يتلقى عن الله لا يختلج فى قلبه خالجة شك، وضمير الشأن لا يؤتى به إلا فى كلام له خطر، وله بال، فلابد من البحث هنا عن هذا الخطر، وهذا البال، ثم التأكيد بضمير الفصل يؤكد أنه لا ينازعه أحد، وأنه فرد صمد وأنه قادر وأنه غالب، وأن هذا التفرد الذى لا حدود له، والذى تدل عليه كلمة ﴿الْعَزِيزُ﴾ ترى بجواره تفردًا لا حدود له فى كلمة ﴿الرَّحِيمِ﴾ وبهذا تجتمع هذه المعانى فى كمالاتها المطلقة مع ما بينها من فروق لا تراها تجتمع بها فى نفس إنسانية.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾.

هذه جملة واحدة، ورأسها شجرة الزقوم، وقبل الكلام فيها أشير إلى هذا الانتقال والانتقال الذى قبله فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ وقد ذكرت أن هذه الجملة انتقل الكلام فيها من إنكار النشر، وذكر إبطاله، إلى ما بعد النشر، وهو الفصل وخطا الانتقال خطوة تجاوز فيها هذا الإنكار، وكأنه لم يكن، والانتقال هنا من بيان أحوال يوم الفصل ليس إلى الذى يليه مباشرة من مثل ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ [الزمر: ٧٠] أو ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الزمر: ٧١] وإنما دخل الكلام بنا فى العذاب وترك ما بين الكلامين، لتذهب النفس فيه ما تذهب، لأن آية يوم الفصل لم تذكر القضاء ولا أنهم عرضوا ولا أن هذا أخذ كتابه بيمينه، وهذا أخذ كتابه بشماله، ولا أنهم يحشرون وهم يوزعون، وتجاوز البيان هذا وغيره وبادر بالحديث عن شجرة الزقوم، والحديث عن شجرة الزقوم كالحديث عن يوم الفصل من حيث كان الحديث عنها وصفا لها كما كان الحديث السابق عن يوم الفصل وصفا ليوم الفصل فلم يقل هنا كما قال فى الواقعة ﴿إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لآكِلُونَ مِن

شجرٍ مّن زَقُّومٍ﴾ وإنما قال هى طعام الأثيم وهى كالمهل. وهى تغلى فى البطون كغلى الحميم وراجع الجملة لتعرف كنه الخبر، وكلمة شجرة الزقوم اسم إن وطعام الأثيم خبر أول وكالمهل خبر ثان ويغلى فى البطون خبر ثالث وكغلى الحميم وصف للمصدر المفهوم من يغلى أى يغلى غليانا كغلى الحميم، وليس فى هذا حديث عن شخص معين يأكل أو قيل له كُل. هذا شىء والشىء الثانى أن العرب لم تعرف شجرة الزقوم ولم أقع على هذه الكلمة فى شعر الجاهليين وقد أشارت بعض كتب التفسير إلى أنهم كانوا يجهلونها ومع ذلك جاءت كلمة ﴿شَجَرَتَ الزَّقُّومِ﴾ معرفة بالإضافة يعنى أن كلمة شجرة مضافة إلى معرفة وهذا يعنى أنهم حين نزلت هذه الآية كانوا يعرفونها وذلك لأن شجرة الزقوم ذكرت فى الكتاب العزيز فى ثلاث سور؛ الصافات والواقعة والدخان، والدخان آخرها نزولاً والواقعة أولها نزولاً، وهذا هو وجه الإضافة لأنه سبق لهم معرفتها، والأثيم هو الفاجر كثير الآثام وقد عرفته سورة الجاثية فى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الجاثية: ٧- ٩] وراجع ﴿اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ وضعها بإزاء ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ الذى هو أصل هذه السورة يظهرلك المراد، والمهل قُرئ بضم الميم وبفتحها وهو دُرْدِيُّ الزيت بضم الدال أى ما اسودَّ وذاب منه وغلى. ولاحظ الغرابة وأنه طعام ليس كالطعام وإنما هو طعام يشرب كالمهل. ثم يغلى فى البطون، وهذه أغرب ولما كان أغرب احتاج إلى توكيد وتحقيق حتى نفهم أنه غليان حقيقى فجاء قوله: ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ وهو الماء المنتهى فى غليانه، وعليك أنت أن تراجع صورة البطون التى يغلى فيها المهل غليانا كغليان الماء الذى وصل إلى أقصى درجات الغليان وقوله سبحانه: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾ رجعت إلى الجملة التى قبلها ونفضت عليها معنى لم يكن

ظاهراً فيها، لأن الجملة التى قبلها ليس فيها أن أثيما أطعم شجرة الزقوم وغلت فى بطنه كغلى الحميم، وإنما هى إخبار بأن شجر الزقوم هو طعام هذا الصنف وأنه إذا أكله وجد فى بطنه كذا كما أقول الطعام الفلانى طعام أصحاب حالة كذا إذا أكلوه وجدوا كذا، وكلمة ﴿خُذُوهُ﴾ أحضرت صورة الأثيم وقد أكل من شجرة الزقوم، وغلت فى بطنه كغلى الحميم، والحق سبحانه وتعالى وهو الرحمن الرحيم يقول لملائكته: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾ إلى آخره ولم تعد الجملة الأولى وصفا يخبر ويحدث عن شجرة الزقوم، وإنما خرج منها أثيم استحال فيه الخبر إلى واقع حى. وصار نموذجًا حيّاً متحركًا لآكل الزقوم. ومن الملاحظ أن آيات العذاب فى الدخان تبدأ بحديث شجرة الزقوم، ولم تبدأ بمثل ما بدأت به آيات كثيرة ذكرت الذين كفروا، وأن لهم نار جهنم خالدين فيها، أو أن الله سيصليهم نارا، أو أن لهم النار، أو ما شئت من صور العذاب، وإنما ابتدأ هنا بشجرة الزقوم، والسور الثلاثة التي ذكرت فيها شجرة الزقوم بدأت الحديث عن العذاب بها وهذا يعنى أن شجرة الزقوم ما ذكرت فى الكتاب إلا وهى بداية العذاب، وقد اقتربت وابتعدت صور العذاب بشجرة الزقوم فى هذه السور الثلاثة وكانت الدخان آخرها، وكانت ملخصة لها وسأعرضها بإيجاز شديد، وليس لنا إلا أن نعتمد ما قاله السيوطى فى ترتيب السور في النزول وعليه تكون الواقعة أول سورة ذكرت فيها شجرة الزقوم، وهناك ملاحظات عامة يحسن أن أنبه إليها قبل الكلام الموجز، وأولها أن ذكر شجرة الزقوم جاء فى الكتاب العزيز بعد إنكار البعث، وهذا أوضح فى الدخان والواقعة التى هى أول من نزل فيها كلام عن شجرة الزقوم، جاءت آياتها فى مخاطبة أصحاب الشمال الذين كانوا يقولون ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧] قال الله بعد ذلك ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ

مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾.

والذى فى الصافات وهو الثانى فى ترتيب النزول جاء بعد قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥١- ٥٣] ثم قال سبحانه ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٢- ٦٨].

وثانى هذه الملاحظات أن ذكر شجرة الزقوم فى الواقعة والصافات سبق بذكر نعيم الجنة ففى الواقعة التى هى الأولى والتى انعقدت على بيان ثلاثة أحوال: حال السابقين المقربين الذين هم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين، وحال أصحاب اليمين وهم ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، ثم حال أصحاب الشمال الآكلين من شجر من زقوم، والذى فى الصافات وصف رفيع لأصحاب النعيم وهو من أبلغ وأعذب وأصفى أوصاف النعيم فى الكتاب العزيز، ولعل هذا السمو فى الوصف راجع إلى أنه نعيم عباد الله المخلصين، وما ذكر الإخلاص إلا أعقب بأكرم ثواب قال سبحانه: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٣٩- ٤٩] ثم جاء ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ [الصافات: ٥١] ثم ذكرت شجرة الزقوم.

والأمر على خلاف هذا في الدخان فقد سبق ذكرُ العذاب ذكرَ النعيم ومرجع ذلك ما قلته من أن الدخان فيها غضب شديد وظاهر وفيها صور من الغضب لم تتكرر فى الكتاب كله وهى صورة ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠] وجزء أساس من المعنى مشترك بين الواقعة والصافات وهو ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ وهذا هو الذى اختصرته الدخان فى قوله تعالى: ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ لأنك تجد فى هذا معنى إنهم ﴿لَآكِلُونَ﴾ ومعنى ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ أو ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات: ٦٧] فكلمة ﴿طَعَامُ﴾ سادّة مسدَّ لآكلون منها فمالئون منها البطون، و ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ متضمنة معنى ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾، و﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾، وضع الآيات بين يديك وتأمل لتتعرف على طرائق الاختصار فى الكتاب العزيز، وهو باب متسع من أبواب أسرار البيان القرآنى.

ثم إن الواقعة ذكرت أن وجبة شجرة الزقوم لهؤلاء الضيوف غير الكرام هى نزلهم، والنزل ما يقدم للضيف قبل إعداد القرى له، وهذه اللفتة الساخرة منهم تجدها فى الصافات التى هى الثانية تجدها فى صدر الآية فى قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ [الصافات: ٦٢] كما تجدها فى آخرها فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨] بعد ملئ البطون والرّى من شرب الحميم، ثم تجد هذه الملاحظة الكريمة فى الدخان مطوية ومختصرة على طريقة الآية كلها فى قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ يعنى بعد ما طعم من شجرة الزقوم وبعد ما غلى الزقوم فى بطنه كغلى الحميم لأن الذى غلى فى بطنه كغلى الحميم هو الزقوم، وليس المهل الذى هو دردى الزيت لأنه مشبه به والأولى أن يعود الكلام إلى المشبه،

ومثل هذه الإشارات الصغيرة حين تجدها وتلاحظ فى المواقع المختلفة تجد لها متعة بيانية لأن البيان يمتعك بمتع لا تجدها فى غيره، ويمتعك بالخفى المتسربل أكثر مما يمتعك بالمكشوف الظاهر.

أمر آخر وهو أن التعريف الواضح بشجرة الزقوم جاء فى الصافات التى نزلت ثانيًا ولم يأت فى الواقعة التى نزلت أولاً، وليس هذا بغريب بل هو مُمْتِعٌ وكأن الكتاب العزيز ذكرها على وجه الإبهام فى الواقعة ثم ذكرها على وجه التفصيل فى الصافات فكان هذا بيانًا بعد إبهام يعنى بعد تشوف النفس وتشوقها لمعرفته، قال تعالى فى الواقعة: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥٢) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ وتلاحظ هنا لفتة خفية إلى هذا الشجر الغريب الذى لا يعرفونه وهذه اللفتة فى قوله: ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ وأنه سبحانه لم يقل لآكلون من زقوم مرة واحدة، ولو قال هذا لأفاد أن الزقوم شجر معروف لهم ولكنه جاء على ما جاء عليه فأغمض الشجر الذى يأكلون منه ثم بينه بمن البيانية فى قوله: ﴿مِّن زَقُّومٍ﴾ وكان هذا لفتا كافيا، ثم جاءت الصافات وأفاضت فذكرت شجرة الزقوم التى ذكرتها الواقعة وقد لفها الغموض وسكنتها الدهشة وسكنها الفزع ثم قالت ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ أى ابتلاء لهم وعذابًا ثم بينتها وبينت غرائبها وما يكتنف هذه الغرابة من فزع وذلك فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ وهذا من أوجز الكلام وأبلغه لأنها بكلمات معدودة أفصحت عن أغرب وأبشع الصور، فلم يألف الناس شجر إلا على شواطئ أنهار أو عيون ماء، لأنه لا يكون إلا حيث يكون الماء فكيف تتصور شجرة تنبت فى أصل الجحيم لاشك أنها شجرة من نوع آخر وأنها شجرة نارية جهنمية جحيمية وهذا هو السر فى أنها تغلى فى البطون كغلى الحميم، وأن الله سبحانه أعد جهنم نزلا لأعدائه وأعد طعامهم منها وأن الجنات والنعيم التى لأهل الجنة وقطوفها دانية

تقابلهـا هذه الأشجار العجيبة والكثيرة والتـى تملأ جهنم لأنها طعام مـشترك بينهم جـميـعًا فليس فـيهم أثيم لم يـطعم منه ثم إن الآية الكريمة لما ذكرت منبتها الجـهنمى أتبعته بذكر الطلع الذى هو الثمـر المرجو من الشجر وأن هذا الطلع كأنه رؤوس الشياطين، والشـيطان مستبشع مستقبح عـند الناس جميعًا لأنهم يعتقـدونه شراً محضًا كمـا يعتقدون أن الملك خيـر محض. والقوم إنما يأكلون هذا الطلع وعـجيب أنك ترى أوليـاء الشيطان فى الدنيـا يأكلون رأس الشيطان فى جـهنم، وليس لهم طعام إلا من رأس الشيطان، وكأنهـم يشفون غليلهم منه وهو يشـفى غليله منهم لأنه يتحـول فى بطونهم إلى المهل ويغلى كغلى الحميم وقد بقى فى هذا الإيجاز الشديد أمران: الأول أن أشياخ المعتزلة رحمهم الله وأتابهم قد فهموا من قوله سبحانه فى الدخان: ﴿طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ أن هذا شامل لكل فاسق فاجر آثم يستوى في ذلك من كذَّب ومن فجر وفسق وسلك سبيل الفساق والفجار من المؤمنين وكذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ كل هذا يشمـل أصحاب الكبـائر ويضمهم فـى لفظ واحد مع المنكرين المكذبين الضالين، ولهـذا قالوا إن أصحاب الكبـائر الذين ماتوا ولم يتوبـوا مخلدون فى النار لأن المعـصيـة ينقص بها الإيمـان وتَنْكُت في القلب نُكْتَةً سوداء ولا تزال المعاصى تُنْقِص من الإيمان وتزيد من هذه النكتة السوداء حتى يصل صاحب الكبيرة إلى ما يكره.

ويرد أشياخ أهل السنة من الأشاعرة وغيرهم على هذا الاستدلال بمثل قول الرازى: «إن اللفظ المفـرد الذى دخل عليـه حرف التـعـريف الأصل فيـه أن ينصـرف إلى المذكور السـابق ولا يفـيد العـموم» يعـنى أن كلمة الأثيم بهـذا التعريف تنصرف إلى ما قبلها من قوله تعالى. ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ﴾ وهكذا.

الأمر الثانى. هو أن صورة العذاب كانت جـمعا فى الواقعة وهم أصحاب الشمال وخـوطبوا خطاب الجمع ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ وكذلك

في سورة الصافات جاءت في صورة الجمع ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ إلى آخره وجاءت في الدخان في صورة المفرد ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وهذا عام في الكتاب ويتجاوز شجرة الزقوم، ترى آيات تصف عذابًا جمعيّاً مثل قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] وقوله سبحانه: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٧] وقوله جل شأنه: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩] وهذا كثير جداً وأحيانًا تأتي صور العذاب في صورة مفرد كما في قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠، ٣١] وقوله سبحانه: ﴿يَدْعُو ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ١١- ١٣] وقوله جل شأنه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ [المدثر: ١١، ١٢] إلى آخره وهو كثير جداً ويحتاج إلى أن يفرد بدراسة تبين المقامات الداعية للصور الجمعية والداعية للصور الفردية، والذى أراه هنا أن الصور الفردية مظنة تأكيد صورة العذاب لأنك لا تراها تائهة منك في جماعة وإنما تراها مركزة على فرد واحد يدعو ثبورا ويصلى سعيرا، أو تراه وهو بين أيدى الزبانية يُعتل قسراً ويلقى فى قعر الجحيم وهكذا وهذا يتلاءم مع سياق الدخان الذى يغلب فيه وعليه الغضب ثم هو يتلاءم مع ما قلته من أن الدخان خالفت الواقعة والصافات وبدأت بذكر شجرة الزقوم والعذاب بها ثم ثنت بالنعيم والمقام الأمين، وذلك عكس ما جاء فى السورتين لأن المهم المقدم، هذا والله أعلم.

قوله جل شأنه: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۝ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ۝ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٧- ٤٩].

راجع الترتيب بدقة شديدة وتنبه إلى الفجوات من أول قوله: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ وكيف عاجلهم بالغضب والتهديد بالاستئصال وذكر قوم تبع ثم بعد هذه المعاجلة ذكر الدليل وما خلقنا السموات والأرض. ثم تخطى هذا إلى ذكر يوم الفصل ثم تخطى الفصل إلى ذكر أول طريق العذاب وكيف وقف عند أول طلائع المعذبين وقدم له النزل الذى أعد له فى جهنم وهو شجرة الزقوم ثم وهى تغلى فى بطنه ثم يأمر الله ملائكته بأن يأخذوه.

وأول ما يلفتك هو الأمر الصادر من العزيز الرحيم بأخذه وأن هذه المرحلة الثانية من العذاب بدأت بهذا الأمر الغاضب مع أنه أكل من شجرة الزقوم من غير أمر وهذا يعنى أن هذه مرحلة أشد وأنه فى طريق يتصاعد فيه الغضب ويتصاعد فيه العذاب ثم إن كلمة ﴿خُذُوهُ﴾ فوق أنها أمر من العزيز الرحيم بأخذه لها دلالة فى معجم القرآن العظيم لأنها تعنى الأخذ الشديد الغاضب القادر المسيطر المهيمن تأملها فى مثل هذه الجمل ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ [غافر: ٥] وفى مثل: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥] وفى مثل: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] وكل هذا يعنى أنها مفردة قرآنية يحيط بها كثير من المعانى والأحوال والأطياف والظلال المفزعة المخيفة، ثم إن المأمورين ﴿مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] والمأمور بأخذه هو الذى يغلى الزقوم فى بطنه وهو كالمهل وهو دُردى الزيت وكدره أو هو ذائب الحديد وغيره يغلى هذا فى بطنه كغلى الحميم، يعنى أن العذاب الذى هو فيه لا يقبل المزيد، ثم راجع كلمة ﴿خُذُوهُ﴾ مرة ثانية وكيف فتحت الباب لقوله ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ وراجع الأخذ بمعناها فى المعجم القرآنى والعتل الذى هو الأخذ بمجامع الشىء وجرّه بقهر كما يقول الراغب، وقال الزمخشرى

﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ فقودوه بعنف وغلظة وهو أن يؤخذ بتلابيب الرجل فيجر إلى حبس أو قتل. ولم تذكر صيغة ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ فى القرآن إلا فى هذه الآية وجاءت كلمة عُتُلٍّ فى سورة القلم والعُتُلُّ. كما يقول الراغب هو الأكُول المَنُوع الذى يَعْتِلُ الشىء عَتْلاً، وكأن العنف صار جزءًا من طبعه، وتَفَرُّدِ الدخان بصيغة ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ يرسخ ما استخرجناه من أن الدخان فيها شوب زائد من الغضب يجرى فى أوصال السورة. وراجع الجمع بين الأخذ بدلالاته فى السياق القرآنى والعتل وضع الصورة بين عينيك واجتهد فى أن تحول بصيرتُك المعنى إلى صورة يراها بصرُك وراجع ما وراءها من شدة الغضب وعُد بها إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ واربط بين اسم إن فى قوله: ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ ومصدر هذا الإعنات والعتل والإذلال، والإهانة، وهو أمر الله سبحانه لزبانية النار ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾، ﴿ثُمَّ صُبُّوا﴾ لأن هذه الصورة فى آخر السورة هى الانتقام الذى توعدوه فى أولها. وقوله: ﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ يعنى إلى وسطها حيث يكون توقد الجحيم أكثر وتسعُّر النار أشد، ثم إن اختيار سواء الجحيم له؛ فيه إشارة إلى تميزه وأنه ليس من عامة أهل النار، وإنما هو من خاصتهم، وسوف يكون هذا أكثر ظهورا عند قوله تعالى. ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

وقول جل شأنه: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ كلمة ﴿ثُمَّ﴾ المراد بها التباعد فى الرتبة، وهى فى مثل هذا السياق تُعَدُّ مفصلا من مفاصل المعنى لأنها تُشير إلى أن الذى بعدها يختلف كثيرًا عن الذى قبلها، وإن كان من جنسه، وكأن خط المعنى بعدها يصعد إلى أعلى. وكأنها تنبه القارئ إلى أنه سيتلقى من جنس المعنى الذى هو فيه ضربا آخر هو أشد وأبعد، وهذا الموقع من مواقعها هو من أحسنها وأبلغها، فى الكتاب العزيز وفى الشعر، والصب فيه معنى الفيض المستعلى الغالب القاهر، وأعد قراءة الجملة لأن

كلماتها كلها منتقاه للإشارة إلى معان، وأولها الصب كما قلت ثم كلمة ﴿فَوْقَ رَأْسِهِ﴾ وفى الصب استعلاء يناسب كلمة ﴿فَوْقَ﴾ وذكر الرأس هنا له دلالة لأن الرأس موضع العزة والأنفة والتعالى والتكريم ويقال لسيد القوم رأسهم كما يقال أنفهم ويقال مرفوع الرأس. كما يقال فى ضده ناكسوا رؤوسهم، ويقال هم الهامات والذرى، ويطاول برأسه السماء وغير ذلك كثير مما ترى فيه للرأس شأنا عند القوم، وأمر الله للزبانية أن يكون العذاب والإهانة متجها صوب الرأس. ويحسن أن نضيف هذا إلى كلمة ﴿سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ لأن اختيار الرأس هنا فيه إيماءة إلى تميزه وأن له حظا أوفر من الغضب والعذاب وقوله جل شأنه: ﴿مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ كلمة أفصحت عن تميز السورة كما قلت بالغضب الشديد لأن الذى يقال فى هذا صبوا فوق رأسه من الحميم كما فى قوله تعالى: فى سورة الحج: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩] وفرق بين صب الحميم وصب عذاب الحميم فرق بين المضارع الذى ليس وراءه أمر غاضب وبين الأمر الذى فيه غضب واستعلاء وفرق بين الحميم وعذاب الحميم، والحميم هو الماء المنتهى فى الغليان وهو يصب والعذاب لا يصب والمجاز فى صب العذاب أخو المجاز فى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة: ٢٥٠] وكأن العذاب صار فيضًا غامرا يُصب.

وقوله جل شأنه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أى تعديل أو تغيير أو عدول فى الكلام لابد أن يكون وراءه شىء ما، ولابد من البحث عنه وكأن موضع التغيير فيه خبىء وهذا التغيير علامة منصوبة تدل على أن هنا خبيئا يجب أن تبحث عنه أيها القارئ وقد رأينا ذلك عند كلمة ﴿ثُمَّ﴾ التى عدل فى استعمالها عن المشهور من هذا الاستعمال وهو المعنى الأصلى الذى هو الترتيب والمهلة، ورأينا ما بعد هذا العدول أدخل فى الإهانة بتوجيه العذاب نحو الرأس. فكان الذى قبلها عذابا والذى بعدها عذابٌ وإهانة، وكذلك كلمة

﴿ذُق﴾ لأنها عدول عن الغيبة التى جرى عليها الحديث من أول ذكر ﴿الأَثِيمِ﴾ ثم جاء خذوه فاعتلوه ثم صبوا فوق رأسه كل ذلك خطاب للزبانية وكل ذلك ذكر له بطريق الغيبة وقوله ﴿ذُقْ﴾ التفات مفاجئ له وإحضاره وخطابه بعد هذه الأوامر الغاضبة بعذابه وإهانته، ولاحظ أن جملة ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ليس فيها تعذيب فليست أمرا بأخذه وعتله ولا بصب العذاب على رأسه وإنما خطاب له بعد وقوع كل هذا عليه وهو فى معمعة العذاب يخاطبه ربنا بهذا وقد سبق أن خاطبه ربه خطاب نصح وهداية فى قوله تعالى ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ فسخر ولعب ومزح وشك وهو الآن يخاطب خطاب تهكم وسخرية وكأنه يقال له هذا الذى حذرت منه فسخرت، والالتفات فى هذا المقطع فيه إشارة إلى وجوب التنبيه والإيقاظ حتى لا يقع أحد فى محرقة سواء الجحيم، والتذوق بلوغ الغاية فى الإحساس بكنه الشىء المذوق وقد كثر استعماله فى تذوق العذاب وليس فى القرآن فذوقوا أو ذوقوا أو ذق إلا والمراد العذاب، وقد كثر ذلك فى الكتاب العزيز والسياق متقارب جداً ومنه ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]، ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤] ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ [السجدة: ٢] ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ [يونس: ٥٢] إلى آخره، وليس فى القرآن أمر بقوله ﴿ذُقْ﴾ لمفرد إلا فى هذه الآية وهذا يعنى أن صورة العذاب فى الدخان تفردت بأمرين لم يردا فى غيرها فى الكتاب العزيز الأول استعمال كلمة ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ والثانى استعمال كلمة ﴿ذُقْ﴾ أمرا لواحد، ثم إن الالتفات إليه وأمره بأن يذوق وهو يذوق ينعقد فيه جزء كبير من المعنى لأن هذا هو منبع السخرية والإهانة والتذكير بأنه نُصِحَ وحُدِّث بالحق البين فسخر ولعب، وجملة ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ فيها توكيد بإن وهذا توكيد إسناد ثم توكيد الضمير المستكن فى الفعل وذلك بقوله ﴿أَنت﴾ ثم تعريف المسند إليه بالألف واللام، ثم ذكر الكريم بعد العزيز وكل هذه معانى جليلة هنا لأن توكيد أنه العزيز الكريم

وهو فى معمان الإهانة والذل ليس فيه سخرية فحسب وإنما فيه لفت إلى الوهم الخادع الذى كان يعيشه فى الناس حين توهم أنه فيهم عزيز كريم وقد قلت إن كلمة ﴿سَوَاءِ﴾ تشير إلى تميزه، وكذلك كلمة ﴿رَأْسِهِ﴾ وقد وصل الكلام الآن إلى ما أومأ إليه قبل ذلك وهو جملة ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ لأن هذا يبين شيئًا مهما وهو أننا فى الآية مع رأس من رءوس الضلال ومع سيد من سادات الباطل وأن التفرد فى الصورة التى ذكرناه لم يكن فحسب للدلالة على شدة العذاب وأن الشدة تتميز مع المفرد أكثر وإنما لأننا مع من ضل وأضل وقاد حركة العناد ضد الحق وضد النبوة، وكنت أقرأ أقوال المفسرين فى سبب النزول وهو أن أبا جهل كان يقول ما بين لابتيها أعزمنى فنزلت الآية ولم أقف كثيرًا عند أسباب النزول لأن قول علمائنا العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب من الكلام العالى جدا وأنا أحب أن أهتدى إلى ما يمكن أن أصل إليه من سر القرآن من خلال لفظ القرآن، وتحليل الآية دال دلالة ظاهرة على التفرد ولكن ليس بلازم أن يكون الحكم بن هشام وإنما هو كل من تفرد فى باب من أبواب الضلال وكل قيادة فى الباطل وكل زعامة تناوئ وتدرأ فى وجه الحق وفى مجتمعاتنا الآن من هو أشد من أبى جهل فى محادته لدين الله وفى حَرْبه لله ورسوله ثم إن كلمتى ﴿الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ تدلان دلالة ظاهرة على أن أصل الكفر ليس فيه شيء يرجع إلى نقص فى أدِلَّةِ التوحيد وإنما هو راجع إلى ما يفهم من كلمتى العزيز الكريم وهو الاستكبار، والغطرسة، والعتو، وما نفخه الشيطان فى رءوسهم التى صب عليها العذاب من وهم الزعامة، والقيادة، والتسلط والريادة، وهذه طبائع وأحوال بشرية فى كل زمان ومكان وليست خاصة بالذى كان بين لابتيها، ولا أستطيع أن أدفع الصلة بين قوله تعالى فى آية يوم الفصل ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وقوله هنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ لأن تكرار كلمة العزيز وهى هناك فى حاق دلالتها وهى هنا أبعد ما تكون عن دلالتها، كل هذا فيه إشارة إلى أن الاستعلاء والاستكبار والغطرسة التى طالما ذكرها القرآن

وأنها هى التى يرجع إليها رفض الدين أقول إن هذا الاستعلاء فيه تكبر على الانقياد لله لأن المستكبر يشارك الله فى كبريائه وأن أوهام الاقتدار توشك أن تجعله إلاها فى الأرض كما كان يقول فرعون الذى كان صريحا فى خطابه لقومه وغيره من الفراعين الذين يضمرون وهم الألوهية فى نفوسهم ولكنهم لا يقولونها لأنهم أجبن من فرعون الأول وإن كانوا معه فى الخساسة، الخلاصة أن تكرار كلمة العزيز ووقوعها فى هذين المقامين المتناقضين يومئ إلى أن هذا العزيز الكريم كان يتوهم أنّ له حظّاً مما يكون لله أويتوهم الفريق المنافق الذى حوله شيئًا من هذا ولا تظن أنى أبعد فى الاسنباط لأن العزيز معناه المتفرد الذى ليس له ثان ينازعه أو هو الغالب الذى لا يغلب وأن أهل الكبر ينازعون الله جل وعلا رداءه والذى قلته لا يخرج عن منازعة رداء الألوهية. والقرآن كله يؤكد أن الكِبر الذى فى صدورهم هو الذى أفضى بهم إلى سواء الجحيم.

قوله جل شأنه ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ اسم الإشارة راجع إلى صورة العذاب التى ابتدأت من قوله تعالى ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ وهذه صورة من أشد صور العذاب وهى مختلفة عن مثل ﴿لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ ومثل ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾، وذلك لأن أصل الصورة هنا قائم على أن هناك أمرا من العزيز الرحيم لزبانية النار بأن يأخذوه وأن يعتلوه وأن يلقوه فى وسط الجحيم وأن يصبوا فوق رأسه والمأمورون غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم وكل هذا يجعل للصورة شكلا آخر هو الذى تراه فى فعل هؤلاء الزبانية والعزيز الكريم المغرور فى أيديهم لا يملك شيئًا وهم ينفذون أمر الله فى أخذه أخذ عزيز مقتدر وفى عتله إلى آخره، وهذا يوحى بمعنى الانتقام وأن الله سبحانه غضب عليه غضبا أفضى به إلى هذه الصورة وهذه الحركة ووجود الزبانية وتلقيهم الأمر بالتعذيب والإهانة والقهر لا وجود له فى مثل ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ ولا فى مثل

﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: ١٩] إلى آخره، نعم هو موجود فى الصورة التى فى الحاقة ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠، ٣٢] وتجد الفرق بين الصورتين يومئ إليه قوله هناك ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾، وقوله هنا ﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وليس فى الحاقة زقوم ولا بطن تغلى كغلى الحميم ولا عتل ولا صب فوق رأسه من عذاب الحميم إلى آخره. وخبر إن قوله سبحانه ﴿مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ وما اسم موصول والصلة معروفة عندهم وهذا رجوع ظاهر إلى الآية الأم والتى جاءت بعد المطلع مباشرة وهى قوله تعالى ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ والامتراء هو الشك الذى ليس سببه غموض الدليل وإنما هو الشك الذى سببه اللجاجة والهزء والسخرية وعدم الاكثرات وعدم التدبر وغير ذلك مما عبرت عنه كلمة ﴿يَلْعَبُونَ﴾ ولو تدبروا لكان خيرا لهم والامتراء من المرية ومعناه التردد ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [الحج: ٥٥]، ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: ١٢] ولهذه الجملة نظائر كثيرة فى الكتاب العزيز، وتأتى بعد ذكر العذاب، ويقال لهم وهم فى معمعة العذاب ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤] أو ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [يس: ٦٣] أو ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا﴾؟ وغير ذلك مما لو تدبرته لوجدت له فى البيان مقاما ساميا جدا لأن الله سبحانه وتعالى يصور حالة العذاب تصويرا كاملا يشاهدها من يشاهدها ويُرى فيها الحى المعذب وهو يتلظى ويصرخ فى الجحيم ثم يقول ربنا ﴿هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧] مع ملاحظة أنه لم يحدث شيء من ذلك إلى الآن لأن يوم الفصل لم يأت بعد وإنما هو التحذير والتخويف والإيقاظ حتى يرجع من له عقل. وهذا من أجل صور الرحمة ولذلك أرى فى صور العذاب البالغة الشدة صورا تتجلى فيها الرحمة فى أعلى صورها ولا يهلك على الله إلا هالك، وليس هذا مرادى وإنما مرادى هو

أن الأجرى فى مثل ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أن يقال هذه جهنم أو هذه النار فلماذا تركت الآية هذا المعنى الأجرى وقالت ما كنتم به تمترون؟ والجواب هو أن هذا مقام ما كنتم به تمترون لأنها رجعت بنا إلى أول السورة وأمسكت بعرقها هناك لأن الامتراء هو الشك الناتج عن اللعب الذى فى قوله تعالى «بل هم فى شك يلعبون» والله أعلم.

ثم إن هذه الجملة الفاصلة فيها شيء آخر وهو أن الخطاب انتقل من فرد فى قوله تعالى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ إلى الجماعة فى قوله ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ وهذا وإن كان فيه تجديد نشاط القارئ وإبعاد الملل الذى قد ينشأ عن سلوك سبيل واحد فإن فيه أمرا معنويا جليلا وهو أن الآيات السابقة بيَّنت لكم صورة مفردة لفرد مفرد وجد من العذاب ما ترون وكل واحد منكم قد أعدت له صورة كهذه فليحذر الذين يخالفون عن أمرنا ولتحذروا وضع اللعب والامتراء فى موضع الجد.

وهذه الجملة فاصلة واضحة للآيات من أول قوله تعالى ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ﴾ ثم هى راجعة كما قلت إلى رأس مقصود السورة وهو قوله تعالى ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ ثم هى متضمنة لكل ما جاء فى آيات ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ إلى قوله تعالى ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ وتكاد تكون تفسيرا لهذا الانتقام إذا ضممنا إليها آيات شجرة الزقوم وما بعدها ثم هى متضمنة أيضًا ما فى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ إلى قوله سبحانه ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ لأن كل ما أصاب قوم فرعون راجع إلى الذى كانوا فيه يمترون، وهكذا ترى هذه الجملة شاملة لهذه الجوانب التى هى أكثر ما فى السورة ويكاد يكون هذا خاصاً بالبيان القرآنى لأنى لم أجد فى الشعر كلمات فى القصيدة مفتوحة على كل كلمات القصيدة على هذا الوجه الذى أجده وبقيت الآيات التى تحدث عن الذين رحم الله فى قوله تعالى ﴿وَلا هُمْ

﴿ يُنصَرُونَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ ﴾ والذين كانت لهم الرحمة التى فى قوله تعالى ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ والذين يشبهون بنى إسرائيل الذى نجاهم الله من فرعون واختارهم على علم على العالمين وآتاهم من الآيات ما فيه بلاء مبين وكانوا متقين حقا لما رأوا آيات الله البينات وخروا سجدا وقالوا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا، وكان ذلك زمنا قصيراً جدا ثم نكسوا على رءوسهم وآذوا موسى وكان من أمرهم ما كان.

قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

رأينا كيف ترجع جملة ﴿ إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ إلى ما قبلها وأراها الآن ترجع إلى ما بعدها رجوعا ذكيا جدا وذلك أن الامتراء الذى هو اللجاجة المفضية إلى إدخال الحقائق فى ضباب يتغشاها فيه الجهل والشك يقابله التقوى التى لا يحصلها المتقى إلا بالنظر والتدبر وإعمال العقل فى الدليل حتى تسكن مخافةُ الله فى القلب فتصير هذه المخافة وقاية بين النفس وغضب الله، هذه الوقاية هى الحذر والخوف من الله واليقين الصادق فى البعث والحساب والجنة والنار وأن كل هذا حق من محض الحق وكأن هذه الآيات التى تصف نعيم المتقين تجعل رأس الأمر فيها هو الحذر والخوف والوجل وأن هذا لا يكون منه شىء إلا باليقين الصادق بكل ما أنزله الله فى الليلة المباركة التى يفرق فيها كل أمر حكيم، ولا أقول هذا هو الوجه المقابل لعذاب الجحيم فحسب وإنما هو فى الحقيقة الوجه المقابل للمماراة واللجاجة وأنهم لا يزالون فى مرية منه لأنهم لم يأخذوا الأمر أخذ جد وما هو بالهزل.

ومجىء المتقين ونجاتهم عقب الممترين وهلاكهم إشارة حاسمة إلى الخطأ

الفادح الذى نقع فيه حين لا نبالى فى المقام الذى يجب فيه أن نبالى وحين نهزل فى مقام يجب فيه أن نجد، وحين لا نحتاط فى موقف يجب فيه أن نحتاط ويتسع هذا الأمر حتى يتجاوز القضية الأم وهى الإيمان إلى القضايا الفرعية التى نعيشها فى كل وجوه حياتنا.

وإذا كانت الآية تحدثنا عن المتقين فى الآخرة فإنها تؤمئ بالإشارة إلى المتقين فى الدنيا وأن من شمائلهم أن تستقر فى قلوبهم حقائق ثم تتوفر الحياة كلها للسعى فى تحصيل هذه الحقائق التى صارت عند النفس من أهدافها العليا. وأن الله يرضاها ويقبلها ويورث صاحبها فى الآخرة المقام الأمين بمقدار قيامها على العدل وبمقدار ما تحققه للناس من خير وبمقدار ما يساكنها فى قلب هذا المتقى الرائع من الخوف من الله وتوجيه النفس إليه، وأنه فى كل مسعاته لها وفيها يكون مثله مثلَ من كانت هجرته إلى الله ورسوله، وهذا حسبى وهذا الاقتران فيه أكثر من ذلك.

ولا يجوز أن تهمل النظر فى الموضوعات الأخيرة فى السورة حين نرى هذه الموضوعات تبدأ بداية واحدة وعلى حذو واحد فى بناء اللغة كما نرى هنا فقد بدأت آيات المنكرين للبعث بقوله تعالى ﴿**إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ**﴾ وبعد الفراغ من هذا المعنى بدأ معنى آخر وسلك طريق البناء نفسه وقال ﴿**إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ**﴾ [الدخان: ٤٠] ثم فرغ من هذا المعنى وبدأ الذى بعده بقوله ﴿**إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ**﴾ ثم فرغ من هذا المعنى وبدأ بقوله ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ**﴾ وكل هذا يكسب الكلام سمتًا متقاربا وهو مما لا يجوز أن يهمل.

قوله سبحانه ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**﴾ تعجب حين ترى نعيم الجنة بكل ما فيه من خير وفضل وعطاء وزرابى مبثوثة ونمارق مصفوفة وحور عين كأنهن بيض مكنون وإذا نظرت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا وغير ذلك مما لا يحاط به وصف أقول تبدأ الآية ليس بشىء من ذلك وإنما بالأمن فى المسكن، لأن المقام بالفتح موضع القيام والمراد به الإقامة والمقام

بالضم الإقامة ووصف المقام بالأمين المراد به وصف المقيمين وأنا لا أفهم المقصود من وصف المقام الذى هو الإقامة فى الجنة بالأمن لأن الجنة ليس فيها ما يفزع لا من لصوص ومجرمين ولا من أنظمة حكم تداهم زبانيتُها الناس فى بيوتهم فى غسق الليل يعنى ليس فى الجنة لصوص ولا رؤساء مستبدون فما وجه وصف السكن فيها بالأمين؟ قد يقال إن هذا جاء على عادة الناس فى وصف مساكنهم فى الدنيا وأن أول ما يطلب فى السكن الأمن لأن من يتوفر له أمنه تفرَّغ لعيشه ومن فقد أمنه وعاش مفزعا مطاردا لن ينتج شيئًا لأن استقرار النفس شرط لإنتاجها، ولذلك تجد المجتمعات التى تعيش تحت أنظمة قمعية لا تظهر فيها مواهب تنتج شيئًا يذكر، والمُنْتَج الأعلى فيها هو النفاق وهو الدرك الأسفل فى السلوك الإنسانى ولما كان الأمن بهذه المثابة ذكره الله فى وصف بيوت أهل الجنة لينبه إلى حرمته فى الدنيا وأن من حق المواطن أن يعيش آمنا فى سربه وأن هذه مسئولية النظام فإذا كان النظام هو الذى يفزعه ببطشه وقمعه فتلك هى الحالقة، حالقة الأوطان لا حالقة الشعر، ووجدت شيئًا كهذا فى الحديث عن الجنة في مواقع أخرى مثل قوله تعالى ﴿**لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ولا كِذَّابًا**﴾ [النبأ: ٣٥]، ﴿**وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا ولا تَضْحَىٰ**﴾ [طه: ١١٩]، ﴿**لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ولا تَأْثِيمًا**﴾ [الواقعة: ٢٥] وكل هذا لنفى ما لا يتوهم وجوده في الجنة لأن الكل يعلم أنه لا لغو فى الجنة ولا كذب فى الجنة ولا ظمأ فى الجنة ولا حر يؤذى في الجنة وإنما لكم فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين، وكل هذا يشير إلى أن هذه من المستقبحات فى الدنيا وأن الجنة نظيفة مطهرة من هذه الخلال، وتلاحظ شيئًا يلفت فى آية ﴿**لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا**﴾ وهو أن نفي اللغو والكذب جاء بطريق الكناية وهو طريق فيه عناية وتوكيد لأن المقصود ليس نفي سماع اللغو والكذب وإنما نفى وجود اللغو والكذب لأنه لو وجد لسمع لا محالة وهذا كقولهم «على لاحب لا يهتدى بمنارة» المراد نفي المنار وإن كان اللفظ على نفى الاهتداء وهذا يعنى العناية بنفى الكذب فى الجنة مع أنه من المعلوم علم ضرورة وإنما المراد والله أعلم تأكيد

قبحه ووجوب نفيه فى الـدنيا ووجوب البراءة منه وكذلك إثبات الأمن للمكان فى الجنة تأكيـد لوجوب إثباته فى الدنيا وتأكـيد حرمة المسكن وأنه لا يسـتبيح ذلك إلا مجـرم عريق فى الإجـرام كاللصـوص وقطاع الطريق أو نظام هو فى شكله سلطة سياسية وفى جوهره نظام قطاع طرق هذا والله أعلم.

وقوله سبحانه ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ بدل من قوله ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ والبدل هو المقصود بالحكم كما يقول النحـاة والمبدل منه فى نية الطرح وهم يقصدون صنعة الإعراب لأنه لو كان الكلام من أول الأمـر إن المتقين فى جنات وعيون لذهب الشطر الأكبر والأكرم من معنى الآية لأنهـا جاءت على ما جاءت عليه لتشـير إلى أن الأمن فى المقام هو جنات وعيـون وأن افتقاد الأمن ينـحول به المقام الذى هو السكن إلى مـا يشبه الجـحيم لأن الغبطة والراحـة وكل ما هو منشـود فى المقـام الذى هو السكـن يذهب بالفـزع وتتـحـول هذه الجنة إلى جحيم، والمقام الأمين أوسع وأرحب وأشمل من الجنات والعيون.

والرازى له تصور متسع جدا لرحمة الله سبحانه وأرجو من الله سبحانه أن تسعنا جميـعا رحمته، قلت ذلك لأنه فسـر المتقى بالذى اتقى الشرك وأدخل فيه الفاسق وكل من شهد الشهادتين عند الرازى فهو من المتقين، والزمخشرى فسر الأمين بأنه ضد الخائن وأن المسكن إذا افتقـد الأمن فقد خان صاحبه وقد قلت إن المقام بـالفتح موضع القـيام وأنه يطلق على السـكن من إطلاق الجزء على الكل وكذلك يطلق السكـن على الوطن من إطلاق الجزء على الكل وأن الوطن الذى لم يتوفر فيه الأمن لأبنائه هو وطن خائن لأبنائه وأن الخائن ليس هو المواطن فحسب وإنما هو الوطن أيضًا وأن أوجب الواجبات على النظام هو ألا يكون الوطن بسـوء تدبيـرهم خـائنا لأبنائه، وهذا كـلام جـليل جـدا والزمخشـرى لم يعرضه هكذا وإنما أومأ إلى أن المكان يوصـف بالخيانة وهذه تكفى. قال رحـمه الله (والأمين من قـولك أمن الرجل أمانة فهـو أمين وهو ضد الخائن وصف به المكان استعارة لأن المكان المخـيف كأنما يخون صاحبه بما يَلْقَى فيه من المكاره) وتأمل الكلمة الأخـيرة وهى أن مواجهة المواطن للمكاره

فى وطنه خيانة من الوطن لهذا المواطن، والمكاره ليست إلا سوء التدبير من المسئولين الذين اغتصبوا ما لم يخلقوا له، هذا والله أعلم.

أشرت إلى أن كلمة ﴿الْمُتَّقِين﴾ التي هى رأس الكلام فى هذا القسم تقابل كلمة ﴿الأَثِيمِ﴾ الذى هو رأس الممترين وأن المقابلة فيما هو داخل الإنسان وأن هذا الأثيم الْمُمْتَرِى غَشَّى الحقائق العظيمة التي خوطب بها وأدخلها فى ضباب اللغو والمزح والهزل والشك وأن المتقى من شأنه أنه يستصفى صفو الحقائق ويسكنها فى نفسه بأدلتها ويعيش بها ويعيش لها، وأنا الآن ألاحظ أن هذه المقابلة الخفية جارية فيما بعد ذلك فالمقام الأمين الذى بين الجنات والعيون يقابل سواء الجحيم وأن الظرفية التى هى ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أخت الغاية التى ينتهى إليها فى قوله «إلى سواء الجحيم» وأنه إذا كان مقام المتقين مأمونا لا يخون فالويل للأثيم مما يجده من مقامه فى سواء الجحيم فإنه يخونه فى كل لحظة ومن كل جهة وبكل ما يكره، ووضع هذه الصور بإزاء بعضها يستخرج منها ما لا يستخرج إذا عزلنا بعضها عن بعض.

وقوله سبحانه: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ السندس ما رق من الديباج والإستبرق ما غلظ منه، والسندس يلبس على الجسد والإستبرق يلبس على الشعار، وقد ذكرت الآيات نعيم أهل الجنة فى ملبسهم بعد ما ذكرت نعيمهم فى مساكنهم وأن غبطة الأمن فى الدار وغبطة المتعة بالجنات والعيون يصاحبها غبطة الملبس من الديباج والإستبرق وكلمة الإستبرق كلمة فارسية عربها اللسان العربى لقوة العروبة فيه ومعنى عربها سقاها عروبة يعنى أنه أجراها على أوزان العربية فأخذت بهذه الأوزان جنسية العربية فلم يقدح استعمالها فى عروبة القرآن العظيم، وتجد مقابلة خفية بين ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ وبين صورة طويت تحت ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ ليس لأن الصب فوق رأسه يلبس جسده كله ثيابا من عذاب

الحميم وإن كـان هذا ممكنا ولكن لأن الصب فوق رأسه من الحـميم سبق فى الحج بقوله تعالى ﴿**قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ**﴾ [الحج:١٩] فالصب فـوق الرءوس ليس هو الذى غشـاهم بثياب من حـميم وإنما جاء بعـد قُطِّعت لهم ثياب لهم من نار، وراجع كلمـة قطعت لهم ثياب من نار وكيف تقطع النار وكـيف يكون منها ثياب وأىُّ حـائك يُقَطِّعُ لهم ثيابًا من النار؛؟!! تأمل لتدرك كُنْهَ الصورة ثم قـابل هذا بالسندس والإستبرق، ثم تذكـر -ولابد أن تتـذكر- أن كل ذلك لـم يأت بعد وسـيـأتى وأن الحق جل سلطانه وضع الصـورتين أمامنا، وترك لنا أن نخـتار وأن الأصل فى تحـصيل هذا أو ذاك ليس أمرا صـعبا وإنما هو أن تكون أثيـما مجتـرئا على حدود الله مُنْتَهِكًا لحرماته مستهترا سيئ الأخلاق عتلا جافيا غليظًا قاسيا، أو تكون حذرا شفـافا كريما وقـافا عند محـارم الله وقد جعل الله لنا حـدودا ونهانا عن أن نتعداها كما فى قوله ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا**﴾ [البقرة:٢٢٩] كالميراث والطلاق وجعل لنا حدودا ونهانا عن أن نقربها كما فى قوله تعالى ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا**﴾ [البقرة:١٨٧] يعنى اجعلوا بينكم وبينهـا مسافة لأن الاقتراب منها قـد يفضى إلى انتهاكـها كـمـا قـال تـعـالى ﴿**وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**﴾ [الأنعام:١٥١] ﴿**وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ**﴾ [الأنعام: ١٥٢]، هذا سلوك قويم خيِّر طيب صالح يفـضى إلى المقام الأمين وهذا سلوك سيئ جلف يفضى إلى سواء الجحيم، والله سبـحانه وتعالى يشرح لنا ذلك ويقول لنا ﴿**كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ**﴾ [الطور. ٢١]، وكل نفس تبسل عند الله أى تحبس بكسبها و﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] و﴿**وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا**﴾ [الكهف:٤٩] وليس هناك رحمـة كهـذه الرحمـة ولا إنصاف كهـذا الإنصاف وهذا مـا أفهـمه من الاقتران الواجب فهمه بين الصورتين، وأكرر أننى أجد فيض رحمة الله تفيض من صور العذاب المفـزعة، أكثر مما تفيض من صـور النعيم، لأن العارف بالله

يرجو النجاة من عـذابه، والزحزحة عن النار، أكثر ممـا يرجو نعيم الجنة، ولولا أننا أمرنا أن نطلب من الله الفردوس الأعلى -وهذا محض فضل- لاستحيينا أن نطلب من الله الجنة وكل الأمل هو النجاةُ من النار ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ وكلمة ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ حال من ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾ وهذه الحال تعنى أنهم يسكنون فى جنـات وعيـون ويلبسـون من سندس فى حـال الغبطـة والمحبـة والصحبة والتلاقى، والمقابلة، وهذا من أساسيات النعيم لأن البغضاء والأحقاد أفسـدت على الناس الكثير من متع الدنـيا والله سبـحانه وتعـالى يعلم ذلك ولذلك ذكر أنه من أعظم المنِّ على أهل الجنة أنه سبـحانه ينزع ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين وهذه الحال المفردة وراءها الكثير من المعانى. لأن كثيرا من الصالحين فى هذه الدنيا لم تسلم صدورهم من أوصاب الأرض. فجرت بينهم عقارب البغضاء، وربما كانوا علماء كالذى نقرؤه فى تاريخهم وقد فطن أبو العلاء لهذا فجمع فى الجنة بين سـيبويه والكسائى وأضرابهم مما كانت بينهم عداوات فى الدنيا والمهم أن كلمة ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ تريح النفس لأننى فى أكثر الأيام أجد ما يدل على بغضاء شديدة واتهامات شـديدة بين أئمة أحبهم جميعا وانتفع بعلمهم جميعًا وأسأل الله لهم المغفرة؛ ومسألة ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣] معـناه أن الله غفر لهم ما كـان من كل واحد منهم بالنسبة لغيره وليس نزع الغل فحسب لأن نزع الغل وبقاء الذنب شيء مخوف.

ومن المهم جدا أن نضع كلمة ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ مع صورة ﴿الأَثِيمِ﴾ التى رأيناها تحرص علـى عرض صورة انفـرادية وأن الزبانية الـكرام عتلوه وحـده إلى سواء الجحيم وأنه يعـذب عذابا انفراديا كحـبس المعارضين فى سجون الـبغاة الظالمين وحينئذ ستجد لكلمة ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ معنى آخر يضاف إلى معانيها التى ذكرناها.

وقوله سبحانه ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ لفتنى أن الشيخ الطاهر كتب كذلك وحـدها فى سطر، وهو رجل يحسن التـذوق ويقول علمـاؤنا وسادتنا

إنها إما أن تكون خبر مبتدئ محذوف والتقدير والأمر كذلك، وإما أن تكون مفعولا لفعل محذوف والتقدير مثل ذلك أَتَيْنَاهُمْ وهذا كلام جيد لأن هذه الكلمة المفردة لابد أن تكون في جملة فليس في الكلام كلمة مفردة تعيش وحدها، مع أنها ذكرت كثيرا في الكتاب العزيز ولم يذكر معها شيء مما قدره علماؤنا، والمهم أنني أراها تواجهنا في الكلام وحدها بما في بنيتها من غموض يحتاج إلى فضل نظر. لأن الكاف تعني معنى مثل وليس المثل ظاهرا، واسم إشارة لابد له من مرجع فهي مكونة من كاف تلحق شيئًا بشيء وفيها غموض ومكونة من اسم الإشارة لا يفهم منه شيء إلا إذا عرفنا المشار إليه، أقول هي مع ما في بنيتها من غموض تواجهنا في الكلام واقعة منه في مفصل مهم وتقول لنا إن ما سيأتي بعدي هو أعلى مقاما في الباب الذي أنتم فيه وراجع ﴿وَزَوَّجْنَاهُم﴾ وضعها في التنعم بإزاء ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ تجد مرتبة أعلى من الفضل والعطاء ومرحلة أعلى في المحبة والمسرة والغبطة مع عظيم المنِّ فيما يدل عليه ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ مع الأصحاب والأحباب وهذا ظاهر وقد ذكرت مثله في قوله تعالى في قصة قوم فرعون بعد ما ذكرت الآيات أنهم تركوا الكثير من الجنات والعيون وزروع ومقام كريم ثم جاءت كلمة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ وجاء بعدها ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وأن هذا التوريث أنكى وأوجع وأحز في النفس من تركهم لأموالهم والحال كذلك هنا ويا بعد ما بين التنعم مع الحور العين والتنعم مع الأحباب المتقابلين وإن كان في كل فضل عظيم وثواب جزيل. والتزويج هنا ليس هو الزواج المتعارف وذكر علماؤنا أنه يقال تزوج به إذا اقترن أما الزواج المعروف فإنه يعدى بدون الباء يقال تزوجها قال تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] والمقصود في الآية التي معنا هو الاقتران لأن الجنة ليست دار تكليف والزواج في الدنيا يُحِلُّ ما كان حراما وليس هناك حل ولا حرمة، في

الجنة، وهذا ما عليه الأغلب وذكر بعضهم خلاف ذلك وأن زواج الحور العين كزواج الدنيا، والحور العين قسمان: قسم هن نساء الدنيا أو هن الدُّرْدُ من نسائكم كما قال الحسن وهن أزواج الصالحين فى الدنيا والذين ألحقهم ربنا بأزواجهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠] والقسم الثانى نساء أنشأهن الله إنشاء كما قال تعالى ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧].

والحور هن البيض البضيضات وقرأ به مسعود «بعيس عين» والعيس الإبل البيض وقالوا الحَوَرُ شدة بياض العين مع شدة سوادها والعين الحسان العيون مشبهات بالظباء فى حسن العيون قال عبيد «كأن عيونهم عيون عين».

قلت إن كلمة كذلك تشير إلى أن ما بعدها أبلغ فى الغرض المسوق له الكلام مما قبلها وبينت ذلك فى الحور العين ويظهر هذا بصورة أوضح فى كل ما بعد ﴿كَذَلِكَ﴾ فى السورة راجع قوله تعالى ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ وقوله ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ وقوله: ﴿فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ﴾ كل هذه عطاءات عالية ونعم عالية وضعها بإزاء المقام الأمين ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾ لتتحقق من دلالة كلمة ﴿كَذَلِكَ﴾ وأنها مفصل كما قلت وأنها إشارة إلى أن خَطَّ المعنى بعدها سيرتفع.

قوله جل شأنه ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ هذه الجملة حال من المتقين ومراجعة الإعراب عمل أساسى فى فهم البيان، وراجع كل هذه الجمل تراها دائرة حول المتقين ومتعلقة بالمتقين نوعا من التعلق، وتجد تذوقا عاليا حين ترى الجملة ترجع إلى الوراء وتتجاوز جملة آيات لتمسك بعرقها هناك كما تجد متاعا حين تكتشف علاقات الجمل بعضها ببعض. وأن قوله فى جنات وعيون بيان للمقام الأمين ويلبسون خبر، بعد خبر، ومتقابلين حال من يلبسون وجملة كذلك مستأنفة وواقفة وحدها وكأنها حد فاصل ثم تأتى جملة

وزوجناهم معطوفة على الخبر لأنها تعنى إخبارا بشىء آخر عن المتقين، وتعطف بما تعلق بها فتحمل إلى المتقين معها الحور العين.

ثم يتوقف هذا الإخبار وهذا التواصل ويحدِّثُ البيان عن أنهم يطلبون كل فاكهة وهذا غير الذى مضى لأن الذى مضى يخبر عن أشياء ملازمة لهم، وهذه بدأت بالمضارع لأن حدثها يتجدد على وفق الحاجة وهو الدعاء يعنى الطلب الذى يطلبون فيه كل فاكهة حالة كونهم آمنين والذى بعدها كلام مختلف جدا وهو من أعظم ما يقال فى الغرض المسوق له الكلام والمهم الآن هو تقديم الظرف فى قوله ﴿فِيهَا﴾ لأن الحديث عن الذى لهم فيها وعن عطاء الله لهم فيها ثم قوله ﴿بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ ودخول كلمة ﴿كُلِّ﴾ وكان يمكن الاستغناء عنها ويقال يدعون فيها بفاكهة آمنين وكلمة ﴿كُلِّ﴾ دلت على سعة فى العطاء وأنهم يطلبون من غير أن تكون هناك حدود على مطلوباتهم، وتجد إشارة جليلة فى استعمال كلمة يدعون والمراد يطلبون كما يقال دعا فلان فلانًا يعنى طلبه وكلمة الدعاء تفيد أمرين العبادة وطلب الحاجة، والمراد هنا طلب الحاجة والقيمة فى استعمالها أن الله سبحانه دعاهم فى الحياة الدنيا فأجابوا داعى الله، فكان من جزاء الله لهم أنهم هم الذين يدعون فى الجنة بكل ما يسرهم فيجابون، وهكذا كان الجزاء من جنس العمل وهذا يضيف إلى كلمة ﴿كُلِّ﴾ معنى جديدا ما داموا فى مقام المكافأة وحسن العقبى من الله سبحانه والفاكهة كل ما يتفكه به ويستطاب وراجع ترتيب المعانى المتعلقة بالمتقين، تجد المسكن أولا والملبس ثانيا والاقتران بالحور العين ثالثا، ثم الدعوة المفتوحة على المستقبل الذى لا نهاية له بكل ما يستطاب ويتفكه به وأسأل هل كان يمكن أن يأتى هذا على وجه آخر من الترتيب؟.

وكلمة ﴿آمِنِينَ﴾ حال مفردة خرجت من الجملة الحالية قالوا المراد آمنين من الأوصاب والأحوال التى قد تكون بكثرة أكل ما يتفكه به، والأولى أن يكون المراد أنهم موصوفون بأنهم آمنون فيدخل فى ذلك الأمن من الأوصاب والأمن

من انقطاع الفاكهة والأمن من انقطاع بعضها وأنــهم لا يـجدون كل ما يتفكهون به وغير ذلك مما تخافه النفس فى أى جهة وأى باب، ومرة ثانية تأتى كلمة الأمن التى بدأت مع ذكر المقــام الذى هو المسكن ثم جاءت عند ذكـر ما يطعم فى هذا السكن وفى هذا إشارة إلى أن أمرين يطلب الأمن فيهما بإلحاح المسكن والمطعم، والامتنان بالأمن فى المسكن والمطعم فى الجنة يعنى أن افتقاد الأمن فيهما مما يكدر صفو نعيم الجنة وإذا كان كذلك فكيف بنا ونحن نعيش فى جحيم الدنيا مفتقدين الأمن فى هذين فى زمن أدعــو الله ألا يمـر بمصـر زمن أسـوأ منه؛ لأن البــلاد والعباد لم يعــودوا مطيقين أكثر من ذلك والكذابون المـنافقون الذين ينكرون هذا ينكرون الشمس فى رائعة النهار.

قوله جل شأنه ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ﴾ هذه خاتمة النعم وبتمــامها يكون تمام النعم التى سـرت لأنه لا يكدر النعم شىء كمـا يكدرها ذكر الموت وهو هازم اللذات فإذا ذهب هذا الخـوف ومات الموت كـما يقول أبو الطيب وانتهى لقاء المنايا ولم نعد نلقاهــا كان بذلك تمام كل النعم، ولهذا كان موقع هذه الجملة هنا مــوقعًـا بالغ الدقة وبالغ التمـكن وكلمة ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ واستــعمال الإذاقة فى الموت تشـير إشارة واضحــة إلى صعوبة معــالجة الموت لأن كلمة يذوق يكثر اســتعمالها فى العذاب ويقل استعمــالها فى الرحمة ومن القليل قوله تعالى ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ [الروم: ٣٣] وفى هذا إشارة خفية إلى أن ذوق الموت فى الدنيا ليس على درجة واحدة وأن الذى يجده الكافر عند موته غير الذى يجده المـؤمن الصالح وأن الذين لا يجـدون المشقة الشـديدة عند الموت قلة قليلة إذا قيسوا بمن يجدون المشقة، لأن مجىء الإذاقة فى الرحمة قليل.

وقوله سبــحانه ﴿إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ﴾ ظاهر العبــارة يفيــد أنهم ذاقوا الموتة الأولى فى الجنة لأنه سبحــانه وتعالى قال ﴿فِيهَا﴾ مع أنها كـانت فى الدنيا وقد ذكر الزمخشــرى فيها وجها تناقله المفسرون وهو جـيد وخلاصته أن الآية

أكدت أنهم لا يذوقون فيها الموت البَتَّةَ لأنها علقت ذوقهم الموت فيها على المحال وهو أن تعود الموتة الأولى وهذا كقوله تعالى ﴿ولا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِنَ النِّساءِ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] وعودة ما قد سلف محال والمعنى لا تنكحوا ما نكح آبائكم البتة قال الزمخشرى فإن قلت كيف استثنيت الموتة الأولى المذوقة قبل دخول الجنة من المنفى ذوقه فيها؟ قلت أريد أن يقال لا يذوقون فيها الموت البتة فوضع قوله ﴿إلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ﴾ موضع ذلك لأن الموتة الماضية محال ذوقها فى المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال كأنه قيل إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها فى المستقبل فإنهم يذوقونها. انتهى كلامه. وقد حمل ابن المنير كلام الزمخشرى على الاستثناء المنقطع وقال إن قوله ﴿الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ﴾ منصوب على الاستثناء المنقطع وذكر كلاما جيدا خلاصته أنك لو قلت جاء الرجال إلا امرأة تكون قد أكدت نفى مجىء أحد من الرجال وجعلت مجىء أى رجل منهم معلقا على أن تكون المرأة رجلا وذلك لن يكون والزمخشرى من أقدر علمائنا على فهم كلام العرب ولا أعرف أحدا من القدماء ينازع عبد القاهر فى فهم أسرار البيان وتذوق خوافيه إلا الزمخشرى غفر الله لهم جميعًا، واحذر أن يكون اعتزاله حاجزًا بينك وبين علمه لأن شيوخ أهل السنة انتفعوا بعلمه واجتنبوا اعتزاله.
وقد ذهب بعضهم مذهبًا آخر فى فهم الآية وإن كان بعضهم قد عدَّه بعيداً ولكنه فيه شيءٌ يذكر وهو أنهم ذاقوا الموتة الأولى فى الدنيا وهى بالنسبة للمتقين جنة مجازية لأن العارفين بالله إذا هُدوا إلى الله فى الدنيا وذاقوا حلاوة الذكر، وحلاوة الإيمان، وحلاوة العبادة، وحلاوة الرجاء والضراعة وكل ما هو من شأن عباد الله الذين ذاقوا حلاوة طلب ما عنده من الرحمة والمغفرة هم فى هذه الدنيا فى جنة لأن غبطتهم بالعبادة والحياة فى حضرة الرحمن وحضرة الذكر وحضرة القرآن كغبطة المتقين بالمقام الأمين والجنات والعيون إلى آخره، وقد ذكر الرازى هذا الوجه ونبه إلى أنه من الوجوه التى أجاب بها العلماء عن الآية وكلامه فيها أجود من تلخيصى ولذلك أضعه بين يديك قال رحمه الله: إن الجنة حقيقتها ابتهاج النفس وفرحها بمعرفة الله

تعالى وبطاعته ومحبته. وإذا كان الأمر كذلك فإن الإنسان الذى فاز بهذه السعادة هو فى الدنيا فى الجنة وفى الآخرة أيضًا فى الجنة وإذا كان الأمر كذلك فقد وقعت الموتة الأولى حينَ كان الإنسان فى الجنة الحقيقية التى هى جنة المعرفة بالله والمحبة فذكر هذا الاستثناء كالتنبيه على قولنا إن الجنة الحقيقية هى حصول هذه الحالة لا الدار التى هى دار الأكل والشرب، ولهذا السبب قال عليه السلام: «**أنبياء الله لا يموتون ولكن ينقلون من دار إلى دار**» انتهى كلام الرازى. وقد جعل الجنة الحقيقية جنة المعرفة بالله وعبادته ومحبته يعنى فى الدنيا وأننا قادرون على أن ننزع أنفسنا من هذه الحياة وأهوالها وأن نَصنع لأنفسنا جنة على الأرض بالعبادة والضراعة والقرب من الله وطلب رضاه وأن هذه الجنة هى الجنة الحقيقية وجنة الآخرة ليس فيها هذا لأنه ليس فيها عبادة ولا ضراعة وإنما هى دار جزاء والعجيب أن الرازى فسَّر المُتقى بأنه الذى جعل بينه وبين الشرك وقاية فأدخل فيه الفاسق والمهم هو الموت على الشهادتين، وقد وسَّع البقاعى فى هذا ولكنه سمى جنة العبادة فى الدنيا جنة مجازية وهذا أوفق وقد ذكر أن الأرض التى نعيش عليها ويملؤها الفجور من حولنا فيها رياض من رياض الجنة روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا** قالوا وما رياض الجنة؟ قال: **مجالس الذكر**» أو كما قال ﷺ وروى البخارى عن أنس رضى الله عنه عن عمِّه النضر رضى الله عنه قال يوم أحد: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النَّضر إنى لأجد ريحها من دون أحد ثم قاتل حتى قتل. وقال البقاعى قال ابن برجان: الدنيا إذا تحققَت فى حق المؤمن المتقى وتتبع النظر فيها فإنها جنة صُغرى لتوليه سبحانه إياهم فيها وقُرْبِه منهم ونظره إليهم وذكْرهم له وعبادتهم إياه، وشغلهم به، وهو معهم أينما كانوا. وكل هذا جيد وإن كنت أرجح ما قاله الزمخشرى، وإنما ذكرت هذا لأن فيه نوعًا من الإحساس بالعبادة وأن العابد ينتقل إلى ما هو فيه من ضراعة وذكر وينخلع من الذى هو فيه من شئون دنياه ولا يجعل ما هو فيه من شواغل حجابا يحجبه ويحول بينه وبين لحظة التوجه إلى الله ولحظات التوجه هذه هى التى وجد فيها الصالحون الطيبون ريح الجنة وذلك فضل الله يعطيه من يشاء.

وجـمـلة ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ ليست القيـمـة والنعـمة والمِنّة فـى أنـهـم لا يذوقون الموت لأن أهل النار الذين هم أهلها ممن ماتوا على الشرك لا يذوقون الموت وإنما كانت هنا مِنَّةً من حيث النعـيم الذى هم فيه وذلك بخلاف أهل النار الذين ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وهذا ظاهر وظـاهر أيضًـا أن نَلْمَح عــلاقـة بيـن ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَـزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ و﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ وأن غضب الله على الأول هو الذى انتهى إلى أن يأمر ربنا ملائكتـه بأن يَعْتِلُوهُ إلى سواء الجحيم وأن يصبـوا فوق رأسه من عذاب الحمـيم وأن يجعل انتقـامه وعـذابه محيطًا به من جـهاته كلها ثـم يقول له ربنا ﴿ذُقْ﴾ وأن هؤلاء الذين دعاهم ربنا فأجابوه يَنْفى عنهم أن يذوقوا ما يسوءهم، أو يكدر عليهم النعيم الذى هم فيه، وهذه مقابلة خفية وجلالها فى خفائها.

وقوله جل شأنه ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أول ما ننظر إلـيه هنا هو أن هذه الجملة ختام الحديث عن المتقين ومـقامهم الأمين ولهذا كانت حـامـلة لنا ما يدل على ذلك لأن وقاهم ربهم من مادة المتقين وأنهم لما جعلوا بينهم وبين غضب اللـه وقاية جعل اللـه بينهم وبين عذاب الجـحيم وقاية، وجـزاهم من جنس عملهم، وكـأن هذه الآية إجابة من الله لحـاجتهم، وأنهم اتقـوا عذابه فـوقاهم عـذابه، ثم إن هذه الجـملة هنا لا تؤسـس معناها، لأنـنا نعلم علم ضرورة أن من كان لهم فى الجنة مقام أمين ويلبسون من سندس وإستبرق إلى آخره هم بلا ريب قد وقاهم ربنا عذاب الجحيم، لأنه لا يدخل الجنة إلا من وقاه الله من النار، فـما وجه ذكرها؟ قلت: هذا اللون من التـركيب له نظائر كثيرة فـى الكتاب العزيز، منها قوله تعالى فـى سورة غافر: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧] والمسـبِّحُون مؤمنون لا محالة لأن التسبيـح يعنى تنزيه الله سبحانه وتقديسه وهذا لا يكون إلا ممن آمن.

فجملة ﴿وَيُؤْمِنُون بِهِ﴾ لا تؤسس معنى لأن معناها مطوى تحت ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ وكذلك هنا معنى ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ مطوى تحت ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ وهذا يعنى أن هذه الجملة ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ جاءت لتؤكد معناها الذى سبق أن دل عليه الكلام السابق وأن هذا المعنى ذكر مرتين مرة كانت الدلالة عليه بسياق الكلام، وهى دلالة ظاهرة وفيه تأكيد شديد لأن السكوت عن الوقاية وبناء الكلام على ما بعد الوقاية الذى لا يكون ولا يوجد إلا إذا كانت الوقاية قد تمت أقول بناء الكلام على هذا الوجه فيه توكيد لهذه الوقاية وكأنها مما لا يناقش ولا يذكر لوضوح الأدلة عليها. وهذه من الحالات التى يكون الكلام فيها أنطق ما يكون إذا لم ينطق، وأتم ما يكون بيانًا إذا لم يبن، أو هو من الحذف الذى هو قلادة الجيد وقاعدة التجويد كما يقول علماؤنا رضوان الله عليهم، ولهذا لا نستطيع أن نقول إن جملة ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ مؤخرة عن تقديم، ومثلها جملة ﴿وَيُؤْمِنُون بِهِ﴾ التى فى غافر وذلك لأن معناها سبق وتقدم، وبُنِى عليه الكلام، وإنما هى من الجمل التى تقدمت فى المعنى وتأخرت فى اللفظ، ولهذا قلت إنها لا تؤسس معنى لأن المعنى قد سبق الدلالة عليه، وإنما تؤكده، وتَلْفتُ إلى أنه عند الله بمكان لأن الوقاية من عذاب الجحيم هى الغاية التى يتغيَّاها العارفون بربهم، والذين يدعون ربهم تضرُّعا وخيفة والمؤمنون بأنهم سيجدون ما عملوا حاضرًا، وإن كل نفس تُبْسَلُ بما كسبت، وأن من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، وكل ذلك يجعل القلوب منْصَرِفة نحو رجاء الزحزحة عن النار، وقد قلت لولا أن الله أمرنا أن ندعو بالفردوس الأعلى لاسْتَحْيَيْنا أن ندعو بالجنة، وإنما فضل الله أوسع ورحمته أوسع.

أما رجاء أهل الرجاء فهو الوقاية من عذاب الجحيم، وكذلك قال فى غافر: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بعد قوله: ﴿يُسَبِّحُونَه﴾، لأن الإيمان عند الله بمكان ولأنه أيضًا عزيز المنال ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]

فالوصول إلى الإيمان الذى يُنَجِّى به الله ليس أمرًا سهلاً، وهكذا تجد هذا الأسلوب وراءه ما وراءه. ومن الذى وراءه أيضًا وهو من الأهمية بمكان أن يكون آخر ما يبقى فى النفس لأن السورة الآن تجمع آخر ما فيها وتؤكد أهم معانيها، أو قل هى تجمع متاعها وتُعِدُّ راحلتها. والوقاية من عذاب الجحيم معنى وراء كل ما جاء فيها من تنزيل الكتاب فى الليلة المباركة لأن الإنذار والإرسال وكل ما كان لا يُراد به أفضل من الوقاية من عذاب الجحيم، لأن الجنة وثوابها وكل ما فيها لازم من لوازم وقاية الجحيم، وكل من زحزح عن النار أُدْخِلَ الجنة، لأن الجنة التى سبق بيان بعض ما فيها من مَحض الفضل، وليس لأحد من الخلق عمل يدخله الجنة حتى رسول الله ﷺ وإنما هى فضل محض وأكثر من هذا أنه لولا المغفرة ما نجا الناسُ من النار حاشا الأنبياء ومن ألحقهم الله بهم ممن تَعَهَّدهم وتولاهم وقرَّبهم منه ونظر إليهم كما يقول ابن برجان.

ومن العناية بمعنى هذه الجملة الالتفات الذى كان فيها فقد انتقل الكلام من طريق التكلم فى قوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ إلى الغيبة فى قوله سبحانه: ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ وموقع الالتفات يختصُّ بلطائف كما قال علماؤنا وهو هنا اللفت إلى هذا المعنى الذى لو نظرت إلى الكلام قبله بقليل لرأيت صورة الجحيم التى وقاهم الله منها وأعنى بذلك قوله سبحانه لملائكته فى شأن الأثيم ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ وقد اقتبست الجملة التى معنا من هذه الصورة كلمتين كلمة ﴿الْجَحِيمِ﴾ وكلمة ﴿الْعَذَابِ﴾ لتعود بالقارئ اليقظ إلى أختها فى صورة الأثيم وليرى صورة من صور الجحيم التى وقى الله منها، فيوازن ويقابل ويختار وهذا حسبى.

وقوله جل شأنه: ﴿فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ كلمة ﴿فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ﴾ حال من ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ وما استتبعه أو ترتَّب عليه من المقام الأمين وهى جزء من الآية التى قبلها من حيث الإعراب وإنما دخلت فى الآية التى تليها حتى يكون هناك فاصل يفصلها بالوقف لأن الوقف على رؤوس الآى سنة

فإذا وقف القارئ عند ﴿وَوَقَاهُم عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾، وراجع ذلك وتَأمَّله كان ذلك أزكى له، وأقدر على تذوق هذه الدلالة العظيمة ثم يبدأ فى الآية الثانية ويقرأ ﴿فَضلاً مِّن رَّبِّكَ﴾ وكأن معناها قد لاح له وهو فى تلك الوقفة الخاطفة لأن الوقاية من عذاب الجحيم من محض الفضل ينتقل إلى الاستئناف العظيم ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وأحوال التلاوة جزء من التذوق والمراجعة والتأنى والتَّملِّى وقد ذكر الشيخ الطاهر أن كلمة ﴿فَضْلاً﴾ حال من المذكورات لأن المقام الأمين فضل والوقاية من الجحيم فضل وما بينهما من ثياب السندس فضل إلى آخره، وقد اختصرتُ ذلك لما قُلْتُ إنها حال من ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ وما استتبعته لأن آية ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ جذر كل ما سبق فى المقام الأمين لأنه تأسس عليها، ومن أهم معانى الفضل وأصول دلالته أن الله سبحانه هو الذى تفضل على الصالحين من عباده وحبَّب إليهم الإيمان وزينَّه فى قلوبهم وحبب إليهم الذكر ووجه نواياهم إلى ربهم، ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، وقد نزلت هذه الآية فى حديث الإفك وأن من برئت ألسنتهم من الخوض فيه كان ذلك بالفضل ولولاه ما زكى من أحد، وتأمل موقع كلمة ﴿مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١] لأنها خير من يشرح لنا كلمة فضل فى الآية التى معنا، ولهذا قلت إنها قُطِعَت عما قبلها وصارت رأس آية ليتوفَّر الانتباه الذى غالبًا ما يكون فى رؤوس الجمل ورؤوس الآى عليها، وكلمة ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ كلمة جليلة جداً وذات معنى جليل. أولاً لأن الكلام عدل فيها عن الضمير الذى فى قوله ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ إلى الاسم الظاهر فى قوله ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ وكان الظاهر أن يقال ووقاهم عذاب الجحيم فضلاً منه وإنما عدل لأن لفظ الرب هو الأشبه بالفضل لأن الرب من الربوبية وفيها معنى الرعاية والنعم، والعطايا، والأرزاق والسمع والبصر إلى آخره وكل هذا من محض الفضل وهو فضل سابق للفضل المذكور فى الآية فالسمع والبصر والحياة والعافية فضل وهو عام وشامل لكل الناس ثم يأتى الفضل الذى هو الكف عن المحارم والانقياد للأوامر وهكذا

تجد (ربك) تبعث معانى جديدة وغـزيرة، ثم إن الإضافة إلى ضمير المخاطب ﷺ لها دلالات منها أن منزلتك عند ربك لها مدخل فى هذا الفضل على المؤمنين من أمتك، وأن لهذه الأمـة جزء كبير من كرامـتك عند الله؛ وهذه دعوة لهم بحسن الاقتداء، وشدة التحرى والمحافظة على مرضاة الله ورسوله، ثم إن هذه الإضافة فيـها إحـضار لرسـول الله ﷺ فى حضـرة ربه وخطابه والامتنان عليـه وهو هنا يخاطب فى آخر السورة كمـا خوطب فى أولها فى قوله تعالى. ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، وقد أعيد الكلام بلفظه ليستدعى الذى هنا الذى هناك ويرد آخر الكلام على أوله وأن مـفتـتح السورة وخـاتمتها إنما كـان بإحضـاره ﷺ وخطابه وتشريفه بهذا الخطاب وراجع كلمة رحمـة من ربك وضعها بإزاء فضلاً من ربك ستجد كلمة ﴿رَحْمَةً﴾ وكلمة ﴿فَضْلاً﴾ على وزن واحد والمعنى قريب جداً لأن الرحـمـة والفضـل من باب واحد، ولـم يخاطب ﷺ بـين هذين الخطابين فى السورة إلا فى قوله: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا خطاب آخر لأنه إجابة لدعوته على ما مضى. ثم إن قوله هنا ﴿فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ﴾. مقطع انتهى عنده معنى الجـملة وبعده جملة مـستأنفـة فاصلة ليست اسـتمرارًا فى بناء مـعان جديدة وإنما هى فذلكة للسورة كما قال الزمخشـرى يعنى إنهاء لها بجمع معانيها فى كلمات هى ختـام السورة، وهذا يعنى أن جملة ﴿فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ﴾ هى نهاية سورة الدخـان وأنها ختمت بهـذا الفضل الذى فى الآخرة، كمـا بدئت بالفضل الذى فى الدنيا وهو ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ③ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وأن من الذى فـرق فى هذه الليلة المباركـة وقايتـهم من عذاب الجـحيم وإقامتهم فى المقام الأمـين وإكرام الله لهم بالفضل فى الآخرة الذى هو من ربك. وهكذا كلما تأملت وجدت خيوطًا تمسك الكلام بعضه ببعض.

قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ هذه الجملة من أرفع جمل السورة فى مبنـاها ومعناها وموقـعهـا، فقد بـيت أولاً على القطع والاستـئناف أما القطع فلأنها ليـست استمرارًا فى بناء مـعان جديدة من جنس ما قبلهـا كما

قلت وإنما قطع المعنى الذى قبلهـا وختم ثم استأنفت هى معنى جـديدا لبيان مقـام وقدر المعنى السـابق وأنه الفوز العظيم الذى لا فـوز أعظم منه وأنه هو الغاية التى يسـعى نحوها المؤمنون بالغيب من أول مـا خلق الله خلقه ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الكل يسعى نحو هذا الفوز العظيم وله لا لغيره عَمِلَ العـاملون وجاهد المجـاهدين واشتـرى الله من المؤمنين أنفسـهم به ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [التوبة: ١١١] يعنى هذا الفوز العظيم هو الذى باع العارفون لله أنفسهم وأمـوالهم به ثم إن هذا الاستئناف بنى على اسم الإشارة الذى للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ وله دلالات عجيبة أولها أنه يميز المشار إليه أكمل تمييز وهذه كلمة نبيلة ولا يضرها جهل من يجـهلها لأنها تعنى أن أصحاب اللسان لا يميزون المشـار إليه أكمل تمييز إلا وهم يريدون الإخبـار عنه بأمر مهم لأن المقصود أن يرد الخبر عليه وهو ظاهر متميز لا ينصرف الكلام إلى غيره ثم إن الإشارة هنا فيها معنى البـعد والمراد بعد المكانة والمنال لأن الفوز العظيم خـير لا خيـر أفضل منه والمـشار إليه الذى هـو الوقاية من عـذاب الجحيـم والمقام الأمـين منال لا منال أبـعـد منه، وهذا كله ظاهر ولا يمكـن أن تفـصل بين الوقاية من الجحيم والمقام الأمـين لأنهما لا ينفكان فليس هناك شخص واحد يوقى من عذاب الجحيم ثم لا يكون فى مـقام أمين وإنما كل من وقاه الله من النار أدخله جنته والوقاية فضل والجـنة فضل والعمل الصالح الذى أورث الله به عباده الجنة فضل واجـتناب الشرك فضل واجتناب الكبائر مـا ظهر منها وما بطن كل ذلك فضل. وإذا أردت تفـاصيل ما يعـود إليه اسم الإشارة فـسوف يتسع الكلام فـيما يعـود إليه سعـة لا يحاط بهـا ثم لا تنسى أن اسم الإشارة جمع كل ذلك وأوجزه وأغنى عن إعـادته ثم صيره ظاهرًا محسوسًـا يشار إليه وهذا شأنه فى كل موقع كهذا الموقع ثم يأتى ضمـير الفصل الذى يؤكد القصر

لأن الفوز العظيم مقصور على ذلك الذى يتلخص فى الوقاية من عذاب الجحيم والمقام الأمين، ومعنى هذا أنه ليس هناك ما يصح أن يقال له فوز عظيم إلا الفوز بهذا الذى يدل عليه اسم الإشارة، وقد تكررت هذه الفاصلة فى القرآن من غير ضمير الفصل ﴿**وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ وتكررت أيضًا مع ضمير الفصل وهى مع ضمير الفصل أقل ورودا وأكثر ما ترد مع ضمير الفصل وبدونه فى مقامات الفوز بالجنة والنجاة من النار ومنه قوله تعالى فى سورة غافر ﴿**وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [غافر: ٩] وقوله فى سورة الصافات ﴿**فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [الصافات: ٥٥-٦٠] ولو صح لنا أن نفصل ﴿**وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ**﴾ عن ذكر مقام المتقين فى الجنات والعيون لقلنا إن الفوز العظيم والفضل من ربك الأولى أن يرجع إلى الوقاية من عذاب الجحيم لأن هذه الوقاية من النار هى الفضل كل الفضل والفوز كل الفوز وأن من زحزح عن النار فقد فاز ولو لم يدخل الجنة وكل من يعرف البعث والحساب وسواء الجحيم ليس له هم إلا أن يقول النجاء النجاء ولا نجاء إلا أن يأخذ الله بأيدينا ولو تركنا لأنفسنا لهلكنا وكان عليه السلام يقول فى دعائه «**إن تكلنى إلى نفسى تقربنى من الشر وتبعدنى عن الخير**»، وهذا كله من فضل ربك قلت إن هذه الفاصلة نهاية السورة وما بعدها فذلكة أى إجمال يشمل تفاصيل السورة، كما سنبين والآن أريد أن أبين كيف كانت هذه الفاصلة هى الأخرى شاملة شمولاً ليس كشمول الفذلكة وإنما هو شمول الفواصل وذلك لأن الفوز العظيم ختام ظاهر للآيات من أول قوله تعالى إن المتقين فى مقام أمين وهذا ظاهر وبيانه تكلف، ثم إن قوله تعالى ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ**﴾ هو المقابل لقوله تعالى ﴿**إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ**﴾، يعنى مقابلة المتقى بالأثيم، وهذا أيضًا ظاهر، ثم إن الأثيم والمتقى تخلقا فى

يوم الفصل الذى بدأ بقوله سبحانه ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ثم إن يوم الفصل هذا اقتضى ذكره قوله تعالى ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾ وهذا أيضًا ظاهر وإلى هنا الفاصلة التى هى ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ متلائمة مع كل ذلك وشاملة له، ثم إن قوله سبحانه ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾ راجع إلى قوله سبحانه ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ وكلمة ﴿فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ كلمات قرآنية مشحونة بالغضب لأن القوم كانوا ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [اللأنبياء: ٢] فاقتضى مقام الغضب هذا أن يتفرع منه ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ وما اقتضاه من ذكر افتتان قوم فرعون إلى أن قال سبحانه ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾ فرجع الكلام إلى جذره الذى هو ﴿فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ وهكذا تجد الشوابك بين المعانى ورجوع بعضها إلى بعض وفاصلة الفوز العظيم تطبع ذلك كله وكأنها خاتم يوضع على كل جزء من أجزاء السورة، وكلمة «فوز» لم أجدها فى القرآن غالبًا إلا فى باب الوقاية من الجحيم وما يتبعه من دخول الجنة وهذا التابع فضل محض لأن العاملين قاموا وقعدوا وصاموا وصلوا وحجوا وقرءوا القرآن للنجاة من النار هم فى كل ذلك يقولون النجاء النجاء، وهذا معنى قوله تعالى. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، والرغبة إضاءة بعيدة على شاطئ بحر يموج بالرهبة.

قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾.

قال الزمخشرى: فى الآيتين: «فذلكة للسورة ومعناها ذكرهم بالكتاب المبين ﴿إِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ أى سهلناه حيث أنزلناه عربيًا بلسانك بلغتك إرادة أن يفهمه قومك فيتذكروا ﴿فَارْتَقِبْ﴾ فانتظر ما يحل بهم ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ ما يحل بك متربصون الدوائر»، انتهى كلام الزمخشرى.

وقال الطاهر: «الفاء للتفريع إشارة إلى أن ما بعدها متفرع عما قبلها حيث كان المذكور بعد الفاء فذلكة للسورة أى إجمال لأغراضها بعد تفصيلها فيما مضى إحضارًا لتلك الأغراض».

وهذا كلام جيد وكانت هذه الفذلكة جمعًا لأغراض السورة لتعود بها على مطلعها فيرد بذلك العجز على الصدر ويلتقى طرفا الحلقة. وهذه الفاء التى افتُتحتْ بها تلك الفذلكة شارحة لذلك كله لأن الإجمال والفذلكة بعدها متفرع على التفاصيل قبلها، وهذه نظرة شاملة للسورة كلها، وهذا من أرقى وأرفع ما عالجه المفسرون. وأعنى أن البيان بنى عليه وفضلهم أنهم نفذوا إليه.

والعلاقة بين المطلع والمقطع هى أن كلا يتحدث عن الكتاب فالمطلع يذكر أنه كتاب مبين أنزله الله فى ليلة مباركة والمقطع يذكر أن الله سبحانه يسره باللسان العربى المبين وكأن المقطع يضيف إلى المطلع معنى زائدًا لأن المطلع لم يذكر اللسان وإنما ذكر الزمان والمقطع لم يذكر الزمان وإنما ذكر اللسان، وهذا ظاهر وشىء آخر أحب أن أشير إليه مرة ثانية وهو أن قوله تعالى فإنما يسرناه بلسانك يعود بصورة أوضح إلى مطلع الزخرف ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]. ولا أتردد فى أن أقول إن رد عجز الدخان على صدر الزخرف يؤكد ما استخرجته من أن الدخان امتداد للزخرف وأكرر كلمة قلتها وسأقولها وهى أن القرآن غنى عن التكلف وأن التكلف فى درس القرآن قَدْحٌ فى فصاحته، ومن سوء الأدب أن يتوهم متوهم أنه محام يحامى عن القرآن لأن القرآن غالب ولا يشادُّه أحدٌ إلا غلبه وإنما نقول ما نرى والآية الكريمة تقول ﴿إِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ وإنما يسره الله باللسان العربى المبين كما جاء كثيرًا فى الكتاب العزيز، قال تعالى فى سورة النحل: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. وقال فى الشعراء ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٤، ١٩٥] وإضافة اللسان العربى إليه ﷺ فى مقام التيسير يعنى إكرامه ﷺ وأنه عند ربه بمكان وأن الله جل وعلا يسَّر كلامه المنزل بلسانه ﷺ

وفى هذا ما فيه وخصوصًا إذا ضممت إلى أن هذا الكتاب المنزل باللسان العربى خاطب الله فيه الخلق كافة مع اختلاف ألستهم وألوانهم وكلفهم جميعًا به فى الأمكنة كلها والأحوال كلها والأزمان كلها إلى يوم أن يبطل التكليف وينفخ فى الصور وهذا شىء فريد لم يقع له نظير فى النبوات الكثيرة والتى قص الله علينا منها ما قص، ولم يقص علينا ما شاء أن لا يقص، وهذا باب يحتاج إلى تأمل ودراسة واستنباط ومراجعة قلت إن إضافة اللسان الذى هذا شأنه إلى رسول الله ﷺ الذى لم يرسله الله إلى قومه كما كان يرسل الرسل إلى أقوامهم وإنما أرسله إلى الناس كافة فهو فى كل هذه الأرض نبىُّ الله ورسوله ليس معه نبى ولا رسول وليس بعده نبى ولا رسول إلى يوم أن يبطل التكليف أقول كل هذا تكريم له ﷺ.

وشىء آخر أستخرجه من هذه الإضافة وهو أنه ﷺ كان أفصح قومه وأن قومه الأقربين الذين هم قريش كانوا أفصح العرب وأن الجيل الذى نزل فيه القرآن هو أفصح أجيال العرب، وكل هذا ظاهر ولا مشاحة فيه وإنما قلته لأؤسس عليه أن لسانه ﷺ كان صَفْو هذا اللسان العربى وكان مَحضه وخُلاصه وليس ثمة كلام أعلى من كلامه ﷺ إلا كلام الله الذى فيه الأمر الإلهى المعجز، وأن ذروة البيان الذى يخلو من الأمر الإلهى المعجز هو بيانه ﷺ ويليه فى المنزلة بيان قومه ﷺ وأعلاه وأسراه الشعر الجاهلى. وأرى أن هذه الثلاثة التى هى كلام الله وكلام الرسول ﷺ والشعر الجاهلى تمثل ذروة البيان العربى وهو المعجز الذى تحدَّى وهو البيان المتحدَّى.

وشىء آخر يجب أن يثار وهو أن الله سبحانه وتعالى وصف اللسان العربى بالإبانة وكل لسان عربى أو غير عربى مبين لأن اللغات لم توجد إلا للإبانة وهذا يعنى أن هذا اللسان العربى فيه شىء زائد عن الألسنة كلها، وأن هذا الشىء الزائد هو إبانة أكثر، وإلا كان هذا الوصف عاطلاً غير مفيد والكلام الفصيح يجل عن أن يكون فيه شىء غير مفيد وكلام الله أولى

بذلك، وإذا كان وصف اللسان العربى بأنه مبـين يعنى شيئًا زائدًا عن الألسنة فى هذا الباب كان الإقرار بهذا واجبا لأنه خـبر الله سواء تبيَّناه أو لم نَتَبَيَّنَهُ، لأن رده كبيرة وهذا أمـر لم يخالف فيه أحد من علمائنـا وإن خالف فيه من أهل زماننا أصحـاب أقلام متنورة جداً تحب مناوشة الإسلام وليس لهـا قيمة ومما يدل على أن علماءنا لم يخالفوا فيـه ما كتبه أبو الفتح ابن جنى فى هذا وأن الله أعدّ لهذا اللـسان جيلين جيل تكلم به وأقـام أصوله على وجوه من الدقة والحكمـة ما كـان لها أن تكون إلا إذا كان هذا الجـيل من أزكى الناس عقولاً وأرق الناس طباعًا، وجيل العلمـاء الذين استخرجوا هذه الأصول إلى آخـر ما قـال، وقد أجـمع العلماء علـى أن القرآن لا يتـرجم لأنه ليس فى اللغات ما يمكـن أن يستوعب هذه الدقائق التى فى الكتـاب العزيز ولما أجاز أبو حنيـفة قـراءة القـرآن بالمعنى قالوا إنه اشـتـرط شرطًا ينفى هذه الإجـازة وشرطه كان أن يؤدى المترجم المعانى على كمالهـا من غير أن يخرم منها شيئًا قال الزمـخشرى «وهذه الشـريطة تشهد أنهـا إجازة كلا إجـازة لأن فى كلام العرب خصوصًا فى القـرآن الذى هو معجز بفصاحته وغـرابة نظمه وأساليبه من لطائف المعانى والأغـراض ما لا يستقل بأدائه لسـان من فارسية وغيرها، وما كان أبو حنيـفة رحمه الله يحسن الفارسـية فلم يكن ذلك منه عن تحقق وتبـصر» انتهـى كلام الزمـخشرى، وأراد أن أبـا حنيفـة أجاز قراءة الـقرآن بالفارسـية، وراجع قوله لأن فى كـلام العرب إلى آخره. وتذكَّـر أنه فارسى وليس عربياً متعصبًا للسان قومه

وقد ذكر ابن خلدون كلامًا فى خصوصية اللسان العربى المبين؛ وصلة هذه الخصـوصية بما انطوى فـيه من حجـة قاهرة وهى الإعجـاز وذكر فى هذا أن القرآن كلام الله والتوراة والإنجيل وكل كتب الله كلام الله فلماذا لم يكن منها معجز إلا القرآن؟

وأجاب بأن اللسان العربى فيه من الخصوصيات والدقائق والطاقات وتنوع
رائق التعبير وتعدد أحوال الإبانة ما يهيئه لأن يكون أداة للإعجاز القاطع
لأطماع والقاهر للقوى والقدر، واللغات التى نزلت بها كتب الله الأخرى لم
كن كذلك وهذا قريب جداً من كلام الزمخشرى وكلام ابن جنى الذى أشرنا
به وهو أن الله هيأ هذا اللسان لنزول كتابه المعجز وخلق له فى الزمن القديم
يلاً أزكى منا أفئدة وأدق منا إدراكًا فأقام أصوله وفروعه وإعرابه واشتقاقه
لى الحكمة والدقة ثم أتاح له جيلاً من العلماء هم علماء المِصرَين
استخرجوا منه هذه الدقائق وضبطوها فى قواعده وبلاغته ونحوه وتصريفه،
هذا غير قادح فيما قلناه من أن جيل المبعث كان أفصح أجيال العرب لأن
لجيل القديم الذى ذكره أبو الفتح كان منصرفًا إلى تدقيق نظام اللغة واشتقاقها
إعرابها إلى آخره ووضع أصولها وما بُنيت عليه من حكمة ولم يكن همه
تجويد البيانى. وجاء جيل المبعث وهى مهيأة للوصول إلى قمة ما يصل إليه
بيان الإنسانى فوصلوا فى شعرهم إلى هذه القمة ثم كان القرآن فوق هذه
قمة، وجيل الصحابة كان كلامهم من كلامه ﷺ ومعانيهم من معانيه فليس
بانهم بقادح فى بلوغ الشعر الجاهلى قمة البيان الإنسانى ولا يعارض فى هذا
لا الذى لم يقرأ أو الذى قرأ ولم يفهم أو الذى هو مُتنوِّر وأعود إلى الآية
كريمة وأقول قوله سبحانه ﴿**إِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ**﴾ ليس معناه أننا يسرناه
لسانك لأنه لو كان هذا مرادًا ما وجدت كلمة ﴿**إِنَّمَا**﴾ وفرق بين أن تقول
كرمت زيدًا وأن تقول إنما أكرمت زيدًا الثانى معناه ما أكرمت إلا زيد وكذلك
لآية معناها ما يسرناه إلا بلسانك ويلاحظ أن التيسير مسند إلى ضمير العظمة
هذا معناه أن هذا التيسير فيه أمر إلهى لأن هذا الإسناد لا يأتى إلا فى شىء
لا يكون إلا من الله سبحانه مثل ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾، ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا**
عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]. ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ**﴾ [الإنسان: ٢]

إلى آخره، والتيسير ضد التعسير ومعناه التسهيل. ويسرناه أجرينا التسهيل في أمره كله في ألفاظه وصيغه ومعانيه؛ في تعلُّمه وتعليمه، وفي فهمه، وتحليله، وفي نطقه، وترتيله، فهو سهل على اللسان، وسهل في الآذان، وسهل في الأفهام، وهذا التسير الجاري في شأن القرآن كله هو ذاته تيسير الدين ﴿ومَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] ، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ولو راجعت مرة ثانية وجدت نَبْع هذا التيسير كلِّه في الكتاب وفي الدين هو الملاءمة التامة للفطرة فالدين هو فطرة الله التي فطر الناس عليها وهو الخالق والعالم؛ هو خالق الإنسان وخالق الفطرة ومنزل الكتاب، والكتاب أمره، ونَهْيه، والفطرة خلقه، وأمره ونهيه لا يصدم الفطرة التي خلقها، وكذلك يقال في اللغة التي نزل بها الكتاب لأنه من المستحيل أن يُيَسَّر الكتاب من غير أن تكون لغته مُيسَّرةً وهذا هو معنى قول علمائنا إن الله سبحانه هيأ اللغة لهذا الكتاب، وألفاظ الكتاب ألفاظ اللغة؛ وتراكيب الكتاب هي تراكيب اللغة؛ والقدرات الكامنة في اللغة والتي عبرت بها عن الأمر الإلهي المعجز هي أيضًا في اللغة ولكن الكتاب استنفر منها وآثار ما عَجَزَت الطاقة الإنسانية، عن استنفاره، وإثارته، وفي التاريخ ما يدل على قرب هذه اللغة من الفطرة البيانية التي غرسها الله في الإنسان، يوم خلقه، وعلمه البيان، وهذا الدليل هو أن الأُمَمَ التي دخلها الإسلامُ دخلت هي في هذه اللغة، وتركت ألسِنَتها ولم يكن هذا من المسلمين فحسب، وإنما كان من هذه الأمم من رفض الدخول في الإسلام، ثم دخل في اللغة، طائعًا كهؤلاء الذين كتبوا بالعربية شعرهم وأدبهم، وظلوا على دينهم، وهم غير عرب، وقد أفاض الرافعي في هذا وكان رجلاً صاحب بصيرة، وهذا شيء من معنى «يسرناه» ولا أشك في أنك تجد لَمْحًا يربط هذه الثلاثة: الفطَرة؛ الدين، اللسان العربي في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ

الإنسان (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٢، ٤] ولا يجوز أن نهدر دلالة الاقتران.

وقوله سبحانه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعل هنا معناها التعليل يعنى يسرناه بلسانك ليتذكروا، وجاء فى لفظ الرجاء، والله منزه عن ذلك لأنه سبحانه ليس كمثله شيء، والمراد والله أعلم الحث على التذكر وأن الله سبحانه يتقبله منهم تقبل من ينتظر الشيء ويرجوه والله منزه عن ذلك وإنما خاطب عباده بما يتخاطبون به، وهذا كما فى الحديث القدسى «وإذا أتانى يمشى أتيته هَرْوَلة».

وقد تكرر هذا المعنى فى الكتاب العزيز كما فى قوله تعالى فى سورة القمر ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧] والمدكر المعتبر وأصله مذتكر وقرئ به وقرئ مذَّكر بقلب التاء ذالا، قال الزمخشرى فى معناها سهلناه للادكار والاتعاظ بأن شحناه بالمواعظ الشافية وصرَّفنا فيه من الوعد والوعيد، وسورة القمر نزلت قبل الدخان، وتلاحظ فيها عُمُومًا فليس فيها أن الله يسره بلسانه، وإنما قال ﴿يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾، وليس فيها الإشارة التى تذكر قريش خصوصًا كما فى الدخان وإنما فيها ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يعنى متعظ، وقد نحا هذا المعنى نحو التخصيص فى سورة مريم التى نزلت بعد القمر وقبل الدخان، وقد جاءت فيها الجملة التى جاءت فى الدخان بلفظها ولم تأت فى القرآن إلا فى هذين الموضعين والملاحظ أنها جاءت فى آخر مريم كما جاءت هذه فى آخر الدخان، وبعدها جملة واحدة ختمت بها مريم كما أن الذى بعد هذه جملة واحدة ختمت بها الدخان قال تعالى فى آخر مريم ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٧، ٩٨] الجملة الأخيرة فى مريم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾

المراد بها التهديد والوعيد وأختها فى الدخان ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ والتهديد فيها أكثر مباشرة، وأقرب إلى المواجهة وقوله فى مريم ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ ليس له ما يقابله فى الدخان، لأن الآية جاءت بعد ذكر المتقين ومقامهم الأمين وأن الله وقاهم عذاب الجحيم فضلاً منه، وأن ذلك هو الفوز العظيم فلم يكن هناك ما يدعو إلى أن يقول يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وقوله فى مريم ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ يقابله فى الدخان ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ كما تقدم وصفهم بأنهم قوم خصمون فى حكاية ابن الزِّبعرى لما ضرب ابن مريم مثلا وصاحوا وهاجوا وضجوا والدخان امتداد للزخرف كما أنه لا حاجة إلى ذكر الإنذار فى الآية بعد ذكر الأثيم وشجرة الزقوم وأخذه وعَتْله فى سواء الجحيم إلى آخره، وقد أشرت إلى موقع الآية فى الدخان وأنها فذلكة كما قال شيوخنا يعنى ملخصة لتفاصيل السورة وأنها راجعة إلى مطلع السورة، لتضع اللسان العربى بجوار الليلة المباركة، وتصل بين آخر الدخان وأول الزخرف أما موقعها فى مريم فلا أستطيع الكلام فيه إلا إذا حللت سورة مريم كلمة كلمة وعرفت فروع معانيها الدائرة حول جذر السورة وتكشفت لى تضاريس معانيها ودوائرها وألوانها إلى آخره، وأعجب ممن يتكلمون فى سياق السور والسياق القرآنى هكذا «بالمُخّ» وآية الدخان التى هى آخرها نزولا وترتيبا فى المصحف بالنسبة إلى آية مريم فيها شىء لا يجوز إغفاله وهو أنها جعلت تيسير القرآن بلسانه عليه السلام مفضيًا إلى التذكر والتدبر والتعقل وكل ما هو من بابه وأن ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فى آخر الدخان توازى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فى أول الزخرف وأن فعل يتذكرون نزل منزلة اللازم لأن المراد تلبس الفعل الذى هو التذكر بالفاعل وهذا معناه نشاط عقلى وحركة نفسية داخلية تراجع وتتدبر وأن تيسير القرآن باللسان مؤذن بقدرة اللسان الذى يسر الله به القرآن على أن يتولج بمعانى القرآن وعظاته وأحكامه

وكل معانيه داخل الضمير والنفس الإنسانية والعقل الإنسانى. وأن قدرة هذا اللسان بما يسره الله فيه من سهولة ألفاظ وصيغ وتراكيب وخفة على اللسان وخفته على الآذان ويسره فى الأفهام كل ذلك جعل مكونات هذا اللسان أقدر على الوصول إلى الهواجع الساكنة داخل النفوس فيثيرها ويحركها ويجعلها أكثر فعلا وانتفاعا.

وقد جعل الله سبحانه وتعالى هذا الكتاب الذى أنزله بلسان عربى مبين ذكرًا له ولقومه لأن كل من يدخل فى دين الله من الأمم كلها وفى الأزمنة كلها والأمكنة كلها لابد أن يأخذ بنصيب من هذا اللسان العربى وهذا ذكر لم يتح لغير العرب من الأمم، والمهم أنه سبحانه قال ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾، وهذا معناه أن على هذه العرب مسئولية، فى هذا الدين ليس على غيرها من الأمم وأنهم مطالبون ببلاغه بعد رسول الله ﷺ وأنهم مطالبون بفقهه واستنباط حلاله وحرامه لأنهم أصحاب اللسان ولا يمنع هذا أن يكون ممن دخل فى هذا اللسان من غير العرب من هو أبرع من كثير من العرب فى فقه حلاله وحرامه والذى أردته هو أن الفتوحات الإسلامية بعد رسول الله ﷺ كانت عند الخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان من الأئمة المهديين أداء لحق الله عليهم لما أكرمهم وجعل رسول الله منهم وجعل قرآنه بلسان عربى وأناط بهم مسؤولية فى هذا الدين؛ وما خرجت جيوش الفتح إلى مصر وأفريقيا والأندلس وبلاد الشام وأنطاكية وبلاد ما وراء النهر إلا لاعتقاد القوم أن عليهم مسؤولية البلاغ وأنهم يسألون عنها، ولم تكن هذه إلا فتوحات إسلامية ومن التزييف أن تسمى قيام إمبراطورية عربية كما يقول غير المسلمين ويتبعهم بعض أصحابنا من غير مراجعة، كل جيش خرج من بلاد العرب لنصرة هذا الدين هو أداء ما أوجبه الله على هذه العرب. وهذا حسبى.

قوله تـعالى: ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ لا يجوز أن تكـون هذه الفاء مترتبـة على ما قبلها لأن تيسـير القرآن بلسانه عليه السـلام لا يترتب عليه هذا الوعيد ولابد أن يكون هنا محذوف وأن هؤلاء الذين يسر الله الكتاب بلسانهم ليتذكروا لم يتذكروا وتركوا زمنا أمهلوا فيه ليتذكروا فلم يتذكروا، وهذا هو الذى يمكن أن يتـرتب عليه الوعـيد ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ سـعناها انتظـر إنهم منتظرون ولم يخـاطب رسـول الـله ﷺ هذا الخطاب ﴿ارْتَقِبْ﴾ إلا فى هذه السـورة مرة فى أولهـا ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ومـرة فى آخر فى هذه الآية، ولم تأت هذه الصـيغـة فى القرآن إلا فى سيـاق انتظار العذاب، وقد خاطب الله بها صـالحا فى شأن الناقـة فى قوله تعـالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [القمـر: ٢٧] وخاطب بها شعـيبٌ قومه لما تهـددوه وقالوا ﴿وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، فقال لهم عليه السلام ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣] وارتقب فعله ارتقب يرتقب افـتعال من رقب أى انتظر مترقبا ومتوقعا أمرا جللا ومن هذه المادة الرقيب وسمى الرقيب رقيبـا لأنه يمد عنقه وهو يرقب وكأنها راجـعة إلى الرقبة ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١] يلتفت مرة بعد مرة وينظر حوله مخافة أن يدركـوه وهذا هـو المعنى الزائد فى كلـمـة ارتقب عن انتظـر من النظر وكلاهمـا من باب الافتـعال والارتقـاب توقع وتطلع مصحـوب بشىء من الحركة والإثارة.

وقبل أن أطوى صفـحة هذه السورة العظيمة أشيـر إلى أن الآيتين فى آخر السورة الأولى منهـما ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ راجعة إلى رأس المطلع وهو

﴿أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ لأن كلا فى ذكر الكتاب، والثـانية منهما ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ راجـعة إلى رأس المقـصـد من السورة وهـو قوله تعـالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ﴾ فأمسك هذا المقطع بهذين الرأسين فى المطلع هذا والله أعلم.

فرغت من المراجعة النهائية يوم السبت ١٠ من رجب ١٤٣٠

الموافق ٣ من يوليو ٢٠٠٩م

***

كشاف الكتاب

الموضوع	الصفحة

كلمات يجب أن تقرأ ٣

مقدمة: مواقف غير مفهومة ٥-١٩

سورة الشورى

(٢١- ٢٤٤)

المَسْهُوّ عنه في الدرس القرآني ٢٢

علاقة الشورى بسورتي فصلت وغافر ٢٥

﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ ٣١

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ ٣٥

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء﴾ ٣٨

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ ٤٢

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ٥٠

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ ٥٥

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ ٥٧

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ٦٠

﴿ لَيس كمثله شيءٌ ﴾ ٦٤
﴿ لَهُ مَقَاليدُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ﴾ ٦٩
﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحا ﴾ ٧٠
﴿ وما تفرَّقُوا إلاَّ من بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ ٧٩
﴿ فَلِذَلكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ ﴾ ٨٥
﴿ وقُلْ آمنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ من كِتَابٍ ﴾ ٩٠
﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّون فِي اللَّهِ ﴾ ٩٥
﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ ﴾ ١٠١
﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ ١٠٧
﴿ من كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرةِ ﴾ ١١١
﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم ﴾ ١١٤
﴿ ولَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ ﴾ ١١٦
﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ١١٨
﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ ﴾ ١١٩
﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ١٢١
﴿ ذَلكَ الَّذى يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ ﴾ ١٢٥
﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ ١٢٨

﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ ١٣٣
﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ ١٣٦
﴿ فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ ١٣٨
﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ ١٤٢
﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ ﴾ ١٤٨
﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ ١٥١
﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ١٥٣
﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ ١٥٩
﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ ﴾ ١٦٢
﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ ١٦٤
﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴾ ١٦٥
﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ ﴾ ١٦٨
﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ ١٧٤
﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ ﴾ ١٧٦
﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ ١٨٠
﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ ١٨٣
﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ ﴾ ١٨٦

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ ١٨٩
﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ ١٩١
﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ﴾ ١٩٤
﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ ١٩٦
﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ ١٩٩
﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ ﴾ ٢٠٦
﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ ٢٠٩
﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ ٢١١
﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ ﴾ ٢١٣
﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم ﴾ ٢١٦
﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم ﴾ ٢١٨
﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ ﴾ ٢٢
﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ ٢٢٢
﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ ٢٢٤
﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم ﴾ ٢٢٦
﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ ٢٢٨
﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا ﴾ ٢٣٢

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ ٢٣٥
﴿ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا ﴾ ٢٣٩
﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ٢٤٢

سورة الزخرف

(٢٤٥ - ٥٤٩)

وجه تسميتها وموضوعها وعلاقتها بما قبلها ٢٤٥
﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ ﴾ ٢٥٣
﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا ﴾ ٢٥٦
﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ ٢٥٧
﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴾ ٢٦٠
﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ﴾ ٢٦٤
﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ ٢٦٨
﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ ٢٧١
﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ ٢٧٣
﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ﴾ ٢٧٨
﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ ٢٨٤
﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ ٢٨٦

﴿أم اتَّخذ ممَّا يَخْلُقُ بنَات﴾ ٢٩٠

﴿وإذا بُشِّرَ أحَدُهُم بما ضَرَب للرَّحْمَنِ مَثَلاً﴾ ٢٩٢

﴿أوَ من يُنَشَّأُ في الْحلْيَة﴾ ٢٩٦

﴿وجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذينَ هُمْ عبَادُ الرَّحْمَنِ إنَاثًا﴾ ٣

﴿وقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ ٣٠٤

﴿مَّا لَهُم بذَلك منْ علْمٍ﴾ ٣٠٨

﴿أمْ آتيْناهُم كتَابًا مِّن قَبْله﴾ ٣١٢

﴿بَلْ قَالُوا إنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّة﴾ ٣١٣

﴿وَكَذَلكَ مَا أرْسَلْنا من قَبْلك﴾ ٣١٦

﴿أوَ لَوْ جِئْتُكُم بأهْدَىٰ﴾ ٣٢٠

﴿فَانتَقَمْنَا منْهُمْ﴾ ٣٢٢

﴿وَإذْ قَالَ إبْرَاهيمُ لأَبيه وقَوْمه﴾ ٣٢٥

﴿وَجَعَلَهَا كَلمَةً بَاقيَةً في عَقبه﴾ ٣٢٩

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاء﴾ ٣٣٣

﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ ٣٣٨

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّك﴾ ٣٤١

﴿وَلَوْلا أن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحدَةً﴾ ٣٤٧

﴿ وإن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ٣٥٢
﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ ٣٥٦
﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ ٣٦٣
﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا ﴾ ٣٦٧
﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ ﴾ ٣٧٣
﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ﴾ ٣٧٧
﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ ٣٨١
﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ ٣٨٥
﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ ٣٨٧
﴿ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ ٣٩٢
﴿ واسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ﴾ ٣٩٦
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ ٤٠١
﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ ﴾ ٤٠٦
﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ﴾ ٤٠٨
﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ ﴾ ٤١٢
﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ ﴾ ٤١٤
﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ ﴾ ٤١٧

﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ ﴾ ٤١٩
﴿ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ ﴾ ٤٢٢
﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ ٤٢٥
﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا ﴾ ٤٣١
﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً ﴾ ٤٣٦
﴿ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ ٤٤١
﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ ٤٤٦
﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً ﴾ ٤٤٩
﴿ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ ٤٥٣
﴿ وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ ٤٥٥
﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ ٤٥٧
﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ ﴾ ٤٦٧
﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ ﴾ ٤٧٢
﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ ٤٧٦
﴿ يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ﴾ ٤٧٩
﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا ﴾ ٤٨١
﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ ٤٨٢

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ ٤٨٥
﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا ﴾ ٤٨٩
﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ ٤٩٢
﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ ﴾ ٤٩٤
﴿ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ ٤٩٧
﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ ﴾ ٥٠٠
﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا ﴾ ٥٠٤
﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ﴾ ٥٠٩
﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ ﴾ ٥١٢
﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ٥١٧
﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ ٥١٩
﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ ﴾ ٥٢٣
﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ٥٢٤
﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ ٥٢٧
﴿ وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ ٥٢٨
﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ ﴾ ٥٣٢
﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ ﴾ ٢٣٦

﴿ فاصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ ٥٤٢

سورة الدخان

(٥٥٠ - ٧٠٥)

علاقة الدخان بالزخرف ٥٥٠

المعنى الأم الذى دارت حوله الدخان ٥٥٣

صعوبة استخرام المعانى الأمهات ٥٥٥

﴿ حمٓ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ ٥٥٨

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ ٥٦٠

﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ ٥٦٤

﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ ٥٦٦

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ٥٦٩

﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ ٥٧٥

﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ ٥٧٨

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ ٥٨٠

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ ﴾ ٥٨٤

﴿ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ٥٨٧

﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ ﴾ ٥٨٨

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ ٥٩٠

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ ٥٩٣

﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾ ٥٩٤

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ ٥٩٧

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ ٥٩٨

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ ٦٠٣

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ ٦٠٥

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ ٦٠٦

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ ٦٠٧

﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ ٦٠٨

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ ٦١١

﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ ٦١٣

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ٦١٦

﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ٦٢١

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ ٦٢٤

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ٦٢٧

﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ ٦٣١

﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ ﴾ ٦٣٤

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ ٦٤٠

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ ٦٤٥

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ ﴾ ٦٥٠

﴿ يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا ﴾ ٦٥٢

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ٦٥٥

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴾ ٦٥٩

﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ ﴾ ٦٦٦

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ ٦٦٩

﴿ إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ ٦٧٢

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ ٦٧٥

﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ ﴾ ٦٧٩

﴿ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ ٦٨١

﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى ﴾ ٦٨٥

﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ ٦٨٨

﴿ فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ﴾ ٦٩٠

﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ٦٩٢

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ ٦٩٥
﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ٧٠١
كشاف الكتاب ٧٠٧

●●●

كتب للمؤلف

- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية (رسالة دكتوراه).
- من أسرار التعبير القرآني.. دراسة تحليلية لسورة الأحزاب.
- آل حم - غافر، فصلت.. دراسة في أسرار البيان.
- آل حم - الشورى، الزخرف، الدخان.. دراسة في أسرار البيان.
- آل حم - الجاثية، الأحقاف.. دراسة في أسرار البيان.
- شرح أحاديث من صحيح البخاري.. دراسة في سمت الكلام الأول.
- الشعر الجاهلي.. دراسة في منازع الشعراء.
- دراسة في البلاغة والشعر.
- مراجعات في أصول الدرس البلاغي.
- تقريب منهاج البلغاء، لحازم القرطاجني (المتوفى ٦٨٤هـ).
- قراءة في الأدب القديم.
- دلالات التراكيب.. دراسة بلاغية.
- خصائص التراكيب.. دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني.
- التصوير البياني.. دراسة تحليلية لمسائل البيان.
- الإعجاز البلاغي.. دراسة تحليلية لتراث أهل العلم.
- مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني.
- القوس العذراء.. وقراءة التراث.

طبع بمطابع المدني المؤسسة